



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

المكتبة الصوفية

الرَّجُلُ الْوَرِثِيَّةُ

الموسومة بمنزلة الأنظار
في فضل علم التاريخ والأخبار
تأليف

سیدی حسین بن محمد الورثیانی

۱-۲

الناشر
مکتبة الثقافة الدينية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرحلة الورثيانية

كاتب:

حسين بن محمد ورثياني

نشرت في الطباعة:

مكتبة الثقافة الدينية

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

| | |
|-----|---|
| ٥ | الفهرس |
| ٧ | الرحلة الورثيلانية |
| ٧ | اشارة |
| ٧ | المجلد ١ |
| ٧ | كلمة للمصحح |
| ٨ | ترجمة المصنف |
| ١٠ | [مقدمة المؤلف] |
| ٥٦ | ذكر خروجنا من بسكرة |
| ٧٣ | ذكر وصولنا إلى طرابلس |
| ١٦٥ | ذكر خروجنا من مصر |
| ١٩٩ | المجلد ٢ |
| ١٩٩ | دخولنا مكة المشرفة زاداها الله تشريفا و تعظيما و تكريما |
| ١٩٩ | اشارة |
| ٢٠٩ | ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة شرفها الله تعالى |
| ٢١٩ | ذكر من لقيتهم في الحرم المكي من الأئمة |
| ٢٢٩ | ذكر خروجنا من مكة المشرفة |
| ٢٤٦ | ذكر جبل أحد و ما به أو بطريقه من المساجد النبوية و ذكر مشهد سيد الشهداء حمزة و من معه من الشهداء رضى الله تعالى عنهم |
| | ذكر الآبار التي ورد أن النبي صلى الله عليه و سلم تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكنتسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيا |
| ٢٦٩ | ذكر بعض أودية المدينة التي تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها |
| ٢٨٥ | ذكر دخولنا مصر |
| ٢٨٥ | اشارة |
| ٢٨٨ | ذكر الإسكندرية و ما بها من العجائب |
| ٢٩٣ | ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة و السلام |

- ٢٩٣ ذكر من ملك مصر قبل الطوفان
- ٢٩٤ ذكر من دخل من الأبياء عليهم الصلاة و السلام مصر
- ٢٩٤ ذكر عجائب مصر القديمة
- ٣٢٥ ذكر خروجنا من طرابلس
- ٣٣٦ ذكر وصولنا إلى تونس
- ٣٤٩ ذكر دخولنا قسنطينة
- ٣٤٢ فهرس
- ٣٤٣ تعريف مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الرحلة الورثيانية

إشارة

نام كتاب: الرحلة الورثيانية

نويسنده: ورثياني، حسين بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ١١٩٣ هـ. ق

موضوع: سفرنامه

زبان: عربي

تعداد جلد: ٢

ناشر: مكتبة الثقافة الدينية

مكان چاپ: قاهره

سال چاپ: ١٤٢٩ هـ. ق

نوبت چاپ: اول

المجلد ١

كلمة للمصحح

الحمد لله الذي جعل الرحلة لبيته الحرام من قواعد الإسلام، و أمر بالسفر في البرور و البحور، فقال الله عز و جل هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ تُشْجَرُونَ. و جاء في الخبر أنه صلى الله عليه و سلم قال: «سافروا تصحوا و تغنموا». و الصلاة و السلام على خير الأنام سيدنا و مولانا محمد خاتم الأنبياء و المرسلين و على آله و صحبه و الذين جابوا البسيطة من المغرب الأقصى إلى بلاد الصين.

أما بعد فالرحلة الورثيانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار للإمام العلامة و الأستاذ الفهامة الشريف النوراني الشيخ الحسين ابن محمد الورثياني نسبة إلى بني ورثيلان قبيلة قرب بجاية. أنفس تصنيف رصعت جواهره في وطن الجزائر. و أعلق تأليف اشتهر بين البوادي و الحواضر؛ لاشتماله على عوارف المعارف، و ظرائف الطرائف، و أوابد العوائد، و فرائد الفوائد، و نسق كالأوصاف الكاملة، و حل المسائل الشاكلة تارة راتعا في رياض الفقه و الحديث و التوحيد، و تارة واردا حياض التفسير و التاريخ و التجويد، و آونة طامحا إلى التصوف و النصيح و الوعظ. باذلا في ذلك كله غاية الجهد و النكظ. فاصلا جمانه بمرجان الحكايات الأنيقة، و مرصعا و شاحه بياقوت الأشعار الرفيقة و غير ذلك مما هناك. و لما كان هذا التأليف الحسن الترصيف مطمح الأنفس، و غاية التأنس، أمر سمو الوالي العام بطبعه، لتعميم نفعه.

و قد اعتمدنا في التصحيح على أربع نسخ:

١- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية مختلفة مقابلة على نسخة منقولة من مسودة

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤

المؤلف مجموع صفحاتها ٦٤٢ في كل صفحة من ٢١ إلى ٣٢ سطرا و كل ٣٣ كراسه غير مخيطة متخللة بأوراق مورقة طولها ٢٧١ مليمترا في عرض ٢١٠ مليمترا.

٢- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية غالبها جميل مقابلة كالتى قبلها على مسودة المؤلف مجموع أوراقها ٢٥٣ فى كل صفحة ٢١ سطرا و ٣١ كراسة غير مخططة متخللة أيضا بأوراق مورقة طولها ٢٠٧ مليمتر فى عرض ١٩٠ مليمترا و هى أصح النسخ و أقل بياضا.

٣- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية غالبها غير جيد مؤرخة بيوم الجمعة الفاتح لشهر شعبان عام ألف و ثلاثمائة و ثلاثة عشر (١٣١٣) مجموع صفحاتها ٦٤٠ فى ٣٧ كراسة غير مخططة متخللة بأوراق مورقة فى كل صفحة ٢٠ سطرا و طولها ٢٦٥ مليمترا فى عرض ١٩٥ مليمترا.

٤- نسخة مطبوعة على الحجر فى حاضرة تونس سنة ١٣٢١ بتصحيح الشيخ على الشنوفى و الشيخ الأمين الجريدى و هذه النسخة مشتملة على ثلاثة أجزاء فى الأول ٢٥٠ صفحة و فى الثانى ٢١٤ صفحة و فى الثالث ٢٦٠ صفحة غير أنه يمكن أن تعتبر نسخة مخطوطة بخط مغربى كاد لا يقرأ فى بعض المواضع لانطماس الحروف و تعثر القلم و التجميع أو تفشى المداد و زيادة على ذلك لم ينبه فى غير موضع عن البياض الموجود فى الأصل.

هذا و قد بذلنا فى التصحيح غاية الجهد مع أننا معترفون بأننا لم نبلغ منزلة تسمو عن النقد. و لا سيما كون الأصول التى راجعناها عند الطبع مختلفة الروايات مضطربة العبارات. و قد تعذر علينا كثيرا إصلاح التصحيح و التحريف بعد مراجعته عدة من التأليف. و ما العصمة و الكمال إلا لذى القدر و الجلال.

محمد ابن أبى شنب

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥

ترجمة المصنف

الحمد لله وجد مكتوبا فى آخر صحيفته من رحلة الشيخ البركة سيدى الحسين الورثياني ما نصه:

يقول زابر هذه الأسطر الفقير إلى الله القدير، عبد القادر بن محمد الصغير، و فقه الله لما يحبه و يرضاه، اعلم أيها الواقف أن مؤلف هذه الرحلة و جامعها هو مولانا و قدوتنا إلى الله تعالى المحقق الكامل، العالم العامل، العارف بالله تعالى أمام المحققين و المريرين، ذو الرتبة الإلهية و العلوم الربانية، و المنح الرحمانية، المقطفى لكتاب الله تعالى و السنة المحمدية، و هو الولي الصالح، و العالم الرباني، سيدى الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثياني، رحمه الله تعالى و نفعنا به كان إماما محققا بارعا فى العلوم و تقفه حتى وصل الغاية فى مذهب المالكية، و لا سيما قد فتح الله عليه بالافتتاحات الربانية، و له تصانيف عديدة، و تأليف مفيدة.

منها شرحه على القدسية للإمام المحقق، و الفهامة المدقق، سيدى عبد الرحمن الأخضرى و هو شرح حسن إذ لم نعلم لها شرحا غيره. و منها شرحه على وسطى الإمام السنوسى.

و منها شرحه أيضا على محصل المقاصد للإمام أبى العباس أحمد بن زكرى التلمساني غير انه مات فيه قبل تمامه.

و شرح أيضا خطبة شرح الصغرى للسنوسى.

و له حاشية جلية على حاشية المحقق السكتاني التى وضعها على شرح السنوسى.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦

و قد وضع رسالة عجيبة على قول بعض الأولياء وقفت على ساحل وقفت الأنبياء دونه لعله أبو الحسن الشاذلى و الله اعلم.

و له رسالة أخرى فى بعض قول الأولياء نسجت برنسا من ماء و غطيت به من الأرض إلى السماء الخ.

و رأيت له حاشية على صغير الخرشى مزبورة على هوامش الشرح.

و قد شطر البردة.

و القصيدة التى للبوصيرى أولها «يا رب صل على المختار من مضر» تشطيرا عجيبا بحيث لا تفرق بينه و بين الكلام الأصلي و غير

ذلك من القصائد والتأليف والتقارير مما يطول تتبعه.

ولد رحمه الله تعالى على ما أخبرني به أبي عام خمسة وعشرين من الثاني عشر (١١٢٥) و توفي على ما ذكره لي بعض تلاميذه في شهر رمضان عام ثلاثة وتسعين من القرن (١١٩٣) و بعضهم قال عام أربعة وتسعين فعلى هذا عاش المؤلف ثمانى وستين أو تسعا وستين سنة انتهى.

هذا و قد ترجمه أيضا العلامة المحقق و الفهامة المدقق الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوى فى القسم الثانى من كتابه الموسوم بتعريف الخلف برجال السلف المطبوع بالجزائر فقال هو الإمام العالم العامل العلامة الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد المتبع لأثر الرسول الجامع بين المعقول و المنقول بحر الحقائق و كنز الدقائق مفيد الطالبين و مربى السالكين و قدوة العلماء العاملين و بقیة السلف الصالحين محیى السنة و الطاعن فى نحور مخالفها بالأسنة نادرة الزمان الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٧

و بركة المسلمين فى كل عصر و أوان الجامع بين العلمين و الكامل فى النسبتين حامل لواء الشريعة و الحقيقة و معدن السلوك و الطريقة ذو التأليف المفيدة و التصانيف العديدة العالم الربانى و القطب الصمدانى و الشريف النورانى الشيخ سيدى الحسين الورثياني نسبة إلى بنى ورثيان قبيلة بالمغرب الأوسط قرب بجاية التابعة للجزائر كان رحمه الله مجاب الدعوة شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم ليله قائم و نهاره صائم.

تراه يصلى ليله و نهاره يظل كثير الذكر لله سائحا

متعلقا برب الأرباب متوكلا على الكريم الوهاب قد استوى عنده الذهب و التراب فهو ممن ترك الجيفة للكلاب و رأى المصطفى فى المنام فاحتضنه فأول ذلك بزهده فى الدنيا و الحطام ظهرت على يده الكرامات و خوارق العادات و شهد له أهل الصدق بالولاية الكبرى و المكاشفات و نصر الله به الدين و قطع به دابر الملحدين و لم يزل متضرعا لله فى السر و النجوى يصدع بالحق و يقيم السنة صادق اللهجة واضح المحجة مستقيم الحجة قصد بيت الله مرارا و حجه طاهر الجنان رطب اللسان ناشط الأعضاء فى العبادة و الأركان.

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

كان يرى النبى صلى الله عليه و سلم يقظة و مناما رآه أكثر من ثلاثمائة مرة و فى بعضها قال له عند تعلقه به:

تضلع من علم الشريعة بعد ماتضلع من علم الحقيقة و تدرعا

أخذ العلم عن والده و أشياخ وطنه ثم رحل إلى المشرق فحج و اجتمع بالخضر

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨

عليه السلام بمكة المشرفة و اجتمع بالشيخ الهماق صاحب الطريقة المشهورة بالمدينة المنورة و دخل مصر القاهرة فوجدها طافحة بالعلم و العلماء نيرة زاهرة فركع و استفاد و اخذ العلوم العالية عن أولئك كالأسود و الأسياد فممن أخذ عنه الصعدي و الحفناوى و الجوهري و النفراوى و العفيفى و السيد البليدى و الملووى و الصباغ و العمروسى و خليل الأزهرى و عمر الطحاوى و الزياتى و الأشبلى و أبى القاسم الربيعى و الهاشمى و ابن شعيب الكردى و الفيومى و أجازوه فى العلمين ثم رجع من المشرق بعد أن امتلاء و طابه و فاض عبا به بعلم و أفاد و ألف و أجاد و دعا إلى الله العباد و قهر الجهلة أهل التعصب و العناد فمن تأليفه الرحلة السنية التى سارت بها الركبان و قد دعا لناسخها و مالکها و ناظرها فهى حصن حصين و درع متين و منها شرحه على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخصرى فى التصوف و حاشية على الكستانى و كتاب المرادى و قصيدة فيها خمسمائة بيت فى مدح النبى صلى الله عليه و سلم كالهزمية لكنها ميمية و شرح على خطبة الصغرى و رساله جوابا على قول بعضهم خضت بحرا و قفت الأنبياء بساحله و رساله فى حل اللغز الذى أرسله سيدى أحمد بن يوسف المليانى إلى علماء فاس فعجزوا عنه و أما وفاته رحمه الله فقد رأى النبى صلى الله عليه

و سلم فأخبره أنه يعيش إلى السنه العاشره من القرن الثالث عشر فتكون وفاته كما أخبر به الصادق المصدوق لأنه لا ينطق عن الهوى و رؤيا النبي صلى الله عليه و سلم حق و من رآه فقد رأى الحق كما فى صحيح البخارى اه.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٩

نزّه الأنظار فى فضل علم التاريخ و الأخبار المشهور بالرحلة الورثيانية للشيخ العالم الربانى و الشريف النورانى سيدى الحسين بن محمد الورثياني قدس سرّه آمين

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١١

[مقدمة المؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه قال الشيخ الفقيه العالم الورع الزاهد شيخ الشريعة و الحقيقة، و إمام أهل الطريقة، العالم الربانى، و الفقيه النورانى، سيدى الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثياني رحمه الله تعالى و رضى عنه و أعاد علينا من بركاته و أفاض علينا من بحر أسراره و أنواره بمنه آمين.

الحمد لله الذى خلق الإنسان أطوارا، و جعل الشمس و القمر و النجوم أنوارا، و سيرها من كون إلى كون بحيث تقطع أبراجا ليلا و نهارا، فى عجا من رحلتها بسوق الأملاك إياها فهى أية النهار حقا مشهورا. خلق الإنسان من نطفة أمشاج ليتلى و جعل سمعيا بصيرا، فبهدى إلى السبيل أما شاكرا و أما كفورا، ثم كالأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها المقربون أعنى زمزم و ذات المحبوب يفجرونها بالشوق تفجيرا، نعم يوفون بما به كلفوا من المناسك و ما به عرفوا من الحقائق تذكرا و تذكيرا، يسمى العهد القديم و الندورا، و يخافون يوما كان شره مستطيرا، و يطعمون الطعام فى البر و البحر على حبه و الرغبة فيه لقلته و غلائه جائعا و ضريا، بحب و شوق و عشق فى الله و نبيه و رضاهما لا يريدون جزاء و لا شكورا، فواقهم الله شر ذلك اليوم بسعيهم سعي مقبولا مشكورا، و تجارة لن تبورا، ليوفيهم الله تعالى أجورهم و يزيدهم من فضله النظر إلى وجهه و قد حجوا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٢

حجا مبرورا، و لقاها أيضا نظرة و رحمة و عزا و رفعة و معرفة و زهدا و بصيرة و سرورا، و جزاهم أيضا بما صبروا لتعب السفر و مشقته حرا و بردا و سقما جنه و حريرا، فلا يرون فى ظل العرش عذابا أصلا و لا شمسا أيضا و لا زمهيرا، فما أحسنها من رحلة و ظعن من الخلق إلى الخلق و ان إلى ربك المنتهى و سواه لم يكن شيئا مذكورا، فسبحان من وفق و خذل آخرين مع استوائهم فى البشرىات ألا له الخلق و الأمر تبارك الله يقول للشىء أحسا فيكون مذموما مدحورا، و الصلاة و السلام على رسول الله صلى الله عليه و سلم سرمدا دائما بكرة و أصيلا ليلا و نهارا، و على آله و أصحابه أجمعين صلاة نحوز بها غدا حجابا عظيما من شر كل ذى شر مع لواء الحمد فى حضرة القدس منشورا، و ذلك مع الأباء و الأمهات و الأزواج و الذرية و الأحب و فى جنه الفردوس تكون قصورا، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نشأت من صميم القلب و خلوص الاعتقاد خالية من الأمتراء تكون لنا يوم القيامة فوزا و نورا، و أشهد أن سيدنا محمد عبده و رسوله و نبيه و قريبه صلى الله عليه و سلم إذ كان مؤيدا منصورا.

و بعد فأنى لما تعلق قلبى بتلك الرسوم و الآثار، و الرباع و الفقار و الدير، و المعطن و المياه و البساتين و الأرياق و القرى و المزارع و الأمصار، و العلماء و الفضلاء و النجباء و الأدباء من كل مكان من الفقهاء و المحدثين و المفسرين الأخيار، و الأشياخ العارفين و الأخوان و المحبين المحبوبين من المجاذيب المقربين و الأبرار، من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصحو و المحو إذ ليس لهم من غير الله فرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادى، و يستحسنها الشادى، فإنها تزهو

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٣

بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة و الحكايات المستحسنة و الغرائب العجيبة و بعض الأحكام

الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح به على أو منقولا من الكتب المعترية سيما و ان اعتمادى فى ذلك على رحلة شيخنا و قدوتنا و من على الله ثم عليه اعتمادنا سيدى أحمد بن [محمد بن] ناصر [الدرعى الجعفرى] هذا و أنى أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة فى ذكر ملوك صنهاجة و مختصر الجمان فى أخبار أهل الزمان و كذا حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة و غيرهما مما يناسب المحل جعله الله خالصا لوجهه و عملا متقبلا بين يديه و حصنا حصينا من كل بلاء دينا و دنيا لمؤلفه و ناسخه و مالكة و ناظره أمين يا رب العالمين و كذا قلت و على الله اعتمدت.

اعلم أيها الأخ لما أراد الله المشى منا إلى الحج و قد سبق فى علم الله أن يكون حجنا فى عام تسعة و تسعين و مائة و ألف (١١٧٩) مع إجابة و تلبية للخليل عليه السلام حين قال له الله تعالى و أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر من كل فج عميق الآية حدث لنا العزم بإذن الله تعالى.

و سببه أن الفاضل العالم الكامل الصالح أخانا فى الله و المحب من أجله سيدى أحمد الطيب الزاوى نجل الولى الصالح سيدى محمد السعدى من بنى العزيز من وطن بنى منجلات قدم إلينا زائرا و واقفا علينا و طالع أحوالنا لعل الله يفرج ما بنا من الفتنة مع بعض المخدولين الخارجين عن طاعة الله و رسوله فى الأحكام الشرعية بعد إعطاء البيعة و الأذعان فى جميع الأحكام الشرعية و نبذ العوائد الردية و البدع

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤

الشنعية كقطع الميراث و أكل أموال الناس بالباطل و أموال اليتامى و لين الجانب كالأراامل فلما وصل إلينا فرج الله عنا ذلك بعد أن وقع النصر من الله العزيز لقوله تعالى: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ و لقوله تعالى: تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يَبْطِئْ فَيُوقِعِ الصَّلْحَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَ أَظْهَرُوا التَّوْبَةَ وَ الذَّلَّ وَ الْمَسْكَنَةَ وَ النَّدَمَ بعد أن كانوا ممتنعين منها ظاهرا و باطنا الفضل لله تعالى و الشكر له جل جلاله.

فلما كان ذات ليلة من الليالى إذ اجتمع سيدى أحمد الطيب مع أخينا فى الله سيدى أحمد بن حمود و سيدى مهنا و كلهم ذوو الفضل و العلم و الصلاح فى دارنا فأخذوا فى حديث الانتقال من الوطن فتوقى بهم الكلام إلى التحدث على الحج سنة إذ مع أننا سمعنا أن الشيخ الفاضل الكامل شيخ الركب سيدى محمد المسعود نجل الشيخ البركة سيدى الموهوب نجل الشيخ الولى الصالح و البدر الواضع سيدى محمد الحاج قد ضرب طنبله فى المدينة المحروسة الجزائر على عادة الأمراء فى ذلك نعم كنا تواعدنا معه قبل على السفر جميعا وفق الله الكل إلى صالح القول و العمل و ذلك عام مشينا لزيارة النبى سيدى خالد عليه السلام على القول بنبوته و قد شهر غير واحد من المتأخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن أوراس و كانت معجزته نارا و كانت رسالته قبل رسالته سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم بمدة قريبة إلا أن رسالته صلى الله عليه و سلم نسخت جميع الرسائل و الشرائع إلا ما بقى عن كونه لم ينسخ و الذى شهر رسالته صاحب التأليف المشهورة و التصانيف المذكورة المنتفع

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٥

بها غربا و شرقا و جوبا و قبله سيما بمحروسة مصر فى الجامع الأزهر إذ قد اقبلوا على تلك التأليف إقبالا كليا تدريسا و بحثا و شرحا و تعليقا بالحواشى و تطريرا سيدى عبد الرحمن الأخصرى نفعنا الله ببركاته و أفاض علينا من بحر أنواره رضى الله عنه و أنا سمعنا أنه هو الذى أظهر قبره بعلم التبريع و هو مقام عظيم و الوفود تأتيه من المشرق و المغرب للزيارة و أما على قول بولايته فواضح لأن قبور الأولياء لا تكاد أن تخفى و كذا نص على رسالته الخفاجى على الشفاء فما أحسنها من زيارة و قد اجتمع فيها أكابر الفضلاء و أعظم الصلحاء و تلاقينا فى تلك الزيارة مع أفاضل الزاب و نجبائه و لا شك أن أكثرهم مجاب الدعوة كالشيخ الفاضل الفقيه المدرس فى مسائل المختصر للشيخ خليل بشرح القدوة صاحب الأنوار الشيخ التنائى مع حاشية الشيخ مصطفى سيدى محمد الشريف من بنى جلال و أهله من الأشراف و السيد عبد الباقي و الفضلاء من الطلبة و الفقيه الأديب سيدى عبد البارى و اجتمعنا أيضا بالزاهد فى الدنيا المتخلى عنها رأسا سيدى المبروك و سيدى المبروك هو تلميذ الولى الصالح الورع الزاهد سيدى أحمد بن باباس و نجليه سيدى

المحفوظ و سيدى الطيب و سيدى المحفوظ كان يرى النبى صلى الله عليه و سلم و يرى الله تعالى أيضا حسبا تراه فى مراتبه و كان أخوا لنا نفعنا الله ببركاته أمين.

و قد كان سيدى المبروك رضى الله عنه حينئذ متبتلا منقطعاً للعبادة و قد رأيت رضى الله تعالى عنه كأنه خارج من قبره تعلوه صفرة و قد ظهر أثر التراب على وجهه فبتنا عنده فى قريته و تكرم علينا غاية و دعا لنا و لإخواننا و من تعلق بنا فلما أردنا الانفصال صبيحة تلك الليلة ذهب عائدا لزيارته سيدى أحمد الطيب و كثير من الناس فلم أذهب أنا معهم قصدا منى أن لا أمنعه من العبادة فى تلك العودة و ما

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦

حصل لنا قبل كآبى و ذلك شأنى مع كل مشتغل بالله تعالى فأن كنت بطاه فلا أعوق الغير عما يعنيه.

و قد دخلنا طولقة فاجتمعنا بها أيضا مع أهل الفضل و العلم و زرنا أيضا الشيخ المذكور و الولى المشهور سيدى عبد الرحمن الأخضرى فى قريته المشهورة فلما وصلته و جدته كأنه حى فى قبره و ذقت منه أمرا عظيما يكاد الجاهل أن يحيله و قد زرت و الحمد لله النبى سيدى خالدا مرة أخرى قبلها مع الجم الغفير و الجمع الكثير نحو الألف و فيه من الأفاضل ما لا يحصى كالسيد الفاضل الشيخ سيدى على بن المبارك نجل سيدى على الطيار و فى ذلك السفر زرت الشيخ الغوث أبا جملين فى المسيلة أفاض الله علينا من بركاتهم و أعاد علينا من أنوارهم.

هذا و أن العهد مع سيدى محمد المسعود موثوق فعقد الجميع النية و عزموا على الحج جزما و كان عزمى بعزمهم غير أن عزمى لم يتفؤ ذلك العام إلا- إذا ذهبوا فإذهب معهم قطعا إن شاء الله تعالى و بعد ذلك أظهر الجميع عزمه إلى الحج و أنا أقول عزمى على عزمهم فأعان الله الكل فحجوا و قضوا مناسكهم حال الحياة تقبل الله من الجميع.

نعم علامة القبول موجودة و دلائل الخير حاصلة إن شاء الله تعالى و كيف لا إذ لم يسافروا إلا حبا فى الله و لله و من الله و شوقا فى رسوله صلى الله عليه و سلم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٧

و دلائل الخير لا يمكن فشوها كان ذلك فى الكعبة و عند المواجهة علمها بعض الفضلاء و قد شاهدنا ما لا يصح تخلفه بفضل الله تعالى و ناهيك بزيارتهم و حبهم و الأخذ منهم و إلا فالمحروم شقى و من لم يحسن الظن غبى.

و بالجملة فلما سمع الناس من عمالة الجزائر بحج هؤلاء الفضلاء و نخبة العلماء حركهم ذلك إلى شد الرحال إلى بيت الله الحرام من كل بلد و وقع الضجيج من عامة المسلمين و من خاصتهم و ذلك من الحاضرة و البادية حتى ذهب جميعهم بنسائهم و أولادهم.

نعم زاد عزمى و قويت همى للمشى غير أنه عارضنى أمر أوجب السفر مع الأخ فى الله سيدى أحمد الطيب إلى ناحية زواوة و قرية تدلس [دلس] لزيارة الشيخ الولى الصالح سيدى أحمد بن عمر إذ سمعت به فى صباى أنه من أهل التصريف و قد أخبرنى بذلك البعض من أهل الخير ممن يوثق بهم و كان رضى الله عنه يعرف أهل عصرنا و يطالع أحوالهم و يعلم من كان من أهل التصريف منهم من المشرق و المغرب و أنه أخبرنى بأن سيدى أحمد الزروق بن مصباح و سيدى الحسين بن أعراب من بنى يزدان و سيدى أحمد ابن باباس الفيلسى و سيدى أحمد بن عمر التدلسى أنهم من أهل الوقت و هو غير بعيد بل هو الحق إن شاء الله تعالى.

نعم هؤلاء فقهاء مدرسون متبعون للسنة و قد ظهرت عليهم آثار الفضل

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨

و أنوار الحق مشرقة عليهم و قد صحبتهم و أحببتهم و شهدت من جميعهم ما يدل على ذلك على أن سيدى ابن أعراب كان يحدثنى عن رجال الغيب و يقول أنهم قالوا ذا و يكون ذا و لو لا- الإطالة لذكرت من كلامه ما فيه العجب العجاب من اطلاعه على بعض المغيبات.

نعم أحوال الكشف فيه ظاهرة وقد روينا من أسراره رضى الله عنه وكذا من الجميع فى محالهم وقد زرتهم مرارا مع اطلاعى على بعض أسرارهم والحمد لله تعالى.

فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة وقضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات البين إذ القتال بين المسلمين فى وطننا كثير والفتنة بينهم قل أن ترتفع والهرج بينهم قوى أزال الله ذلك بمنه وكرمه وحكم السلطان غير نافذ فيهم إذ لا يقدر عليهم وان كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال فلم يفد فيهم الأهمه الصالحين وأهل الخير فيجب على من يقبل منه أن يذهب إليهم ويصلح حالهم ليرتفع ما فيهم من المعصية وهى قوله صلى الله عليه وسلم القاتل والمتقول فى النار الحديث وقد نص علماء بجايه على أنه يجب على أهل الخير والصالح ممن يقبل منه أن يصلح بين هؤلاء المسلمين وإلا عصى الله تعالى وقد نص أيضا على أنه لا يجوز حال قتالهم النظر إليهم ولا النزئه فيهم لأنها معصية فلا تجوز مشاهدتها وهو شريك بالنظر أنظره فى الأسئلة تره بالعيان.

وبالجملة فذهبنا لبعض القرى قد خربت من أجل ذلك وعلها ترجع للعمارة وكان ذلك فى يد متولى أمرهم سلطان مجانة بتخفيف الجيم كما سمعته من بعض من

الرحله الورثيانية، ج ١، ص: ١٩

يعرف ضبطه من الحذاق ويوثق به فى اللغات وهو المعظم الأجل محب الصالحين الشريف المبارك محمد بن أحمد بن القندوز المقرانى ثم العباسى متوجهين إلى تلك النواحي.

و مررنا على قبر الشيخ الولي الصالح والقطب الواضح رحمه وطننا وغيث بلدنا سيدى يحيى العيدلى نفعنا الله به أمين وقد شهد بقطبانيته الشيخ الولي الصالح ذو التصانيف المفيدة سيدى عبد الرحمن الصباغ شارح الوغليسيه وقد شرح البرده أيضا بان اختصر شرح الإمام ابن مرزوق التلمسانى عليها بعلوم سبعة ورثاه عند موته بقصيده عظيمة وشهد له أيضا بالعلم الظاهر والباطن وان له كرامات عظيمة وشهد له بذلك أيضا بحر الولاية والعلم سيدى عبد الرحمن الثعالبي رضى الله عنه ومثله فى العلم والولاية سيدى التواتى البجائى وكان حكمه وفتواه لا يردان من بجايه إلى تورز [و مثله طود العلم وشمس الحق والعرفان السيد الشيخ زروق وكفى بهم علما وديانة ونصحا للمسلمين] أما سيدى عبد الرحمن الثعالبي فانه رد رساله للشيخ سيدى يحيى بان شاوره على أمور ثلاثة أحدها من أزواج ابنتى والثانية من يكون وصيا على أولادى والثالثة تجعل تأليفا لأصحابى فأجابه الشيخ الثعالبي عنها بان بنتك زوجها من تلميذك فلان وأما الوصية فانت الوصى عليهم حيا وميتا وأما التأليف فقد ألفت ما فيه كفاية والآن قد كبر سنى ووهن عظمى فلا أقدر على التصنيف وهؤلاء كلهم فى القرن التاسع رضى الله عنهم

الرحله الورثيانية، ج ١، ص: ٢٠

وأرضاهم وأما سيدى التواتى فقد عظمه غاية التعظيم بان كتب الشيخ سيدى يحيى بعد السلام والرحمة والبركة أنك ذكرت شيئا من أحوالنا فى الصلاة منتقدا أو فادحا فيها فأجابه رضى الله عنه بان قال له بعد تعظيمه بما يستحقه من التعظيم والله ما ذكرنا أحوالك إلا- تبركا بها فقط وكيف لا- وأنك أحييت أمورا درست وطرفا ذهبت وأنت المحق الفاضل صاحب الوقت أو كلاما يقرب منه وإما الشيخ زروق فقد ذره فى كناشه وأنه ألف بعض تأليفه فى مسجده المعلوم فى ثمقرا رضى الله عنه ونفعنا به حاصله ذكره الشيخ زروق وعظمه غاية التعظيم بحيث أخذ عنه العلم الباطن وقال بعض العلماء هو الذى ملك للشيخ زروق أقطارا من البلدان وإلى ذلك أشار بقوله «و ملكنيها بعض من كان مالكا» وقد سمعت ممن يوثق به أيضا أنهما اختلفا فى لفظ الجبروت هل هو بهمز أو بغير همز [فقال الشيخ زروق بغير همز إذ لم يوجد فى اللغة فعلوت هكذا بهمز] وقال الشيخ سيدى يحيى إنما هو بهمز فلما أصاب الشيخ الريب قال له الشيخ سيدى يحيى أنظره فى اللوح المحفوظ بان مسح وجه الشيخ زروق فأزال الله الحجاب عه فراه كذلك ومن كرامات سيدى انه لما بنى مسجده المعلوم اختلفوا فى القبلة فلما اختلفوا فيها قال الشيخ سيدى يحيى لجبل فوق قريته انخفض فانخفض فتبينت لهم الكعبة ورآها كل من كان هناك وهذا والله أعلم وان لم يرمى الكتب غير انه تواتر عنه ذلك ومن

كراماته رضى الله عنه أن الشيخ سيدى التواتى بعث بعض طلبته لسيدى يحيى ليرسل له شيئا من الزيت لأن بلد الشيخ بلد الزيتون إلى الآن فبعث الشيخ سيدى يحيى للطلبه معزا أى عددا منه و قال لهم سوقوا المعز من غير كلام لأحد حتى تصلوا الشيخ فلما وصلوا أثناء الطريق بان و صلوا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢١

سوق الثلاثا لبنى هارون وجدوا بعض إخوانهم من الطلبة فسألوهم عن الخبر و قالوا بعث معنا عددا من المعز و غفلوا عن وصية الشيخ رضى الله عنه فلما ذهبوا لذلك المعز وجدوه جلودا من زيت و قد أسقط عليهم الكلفة [فلما فضحوا سر الشيخ رجعت لهم الكلفة] ثم أنهم حملوها جلودا كذلك إلى أن وصلوا إلى بجاية إلى الشيخ فاخبروه القصة و قال لهم لو سكتم لوصولوا كذلك ثم يرجعون زيتا فلما خالفتهم وقع بكم ما وقع من الكلفة و بالجملة من كتم سر الأولياء و كذا سر الله انتفع به ودام له ذلك و كراماته رضى الله عنه كثيرة و قد كتبنا منها نبذة فى شرحنا لوظيفته عند ختمه و لم أذكر فيها كرامة عظيمة لم أرها مسطرة غير أنها تواتر أمرها و اشتهر و هو انه لما رجع من سياحته و قد مكث فيها مختفيا عن الناس نحو من عشر سنين و أمه فى حال حياتها وجد أهل قريته أخذوا ثورا لحما فقسموه و لم يجعلوا نصيبا لأمه من غير اكتراث بها فلما علم بذلك تغير من أمرهم حيث لم يسهموا لها شيئا و الحالة أن اللحم لم يبق منه شيء بل جعلوه فى القدور و لم يجد شيئا باقيا إلا الجلد و الرأس فعند ذلك ورد عليه حال عظيم بان أمسك الجلد من الذيل و قال له قم ياذن الله فقام الثور يمشى كما كان أول مرة فلما شاهدوا منه ذلك خضعوا له و تواضعوا و ذلوا و استكانوا و ظهر أمر الشيخ بينا بحيث أن من تعدى عليه هلك بعتة و قد كان له زرع فى امالوا و بات فيه جماعة من الناس بخيلهم من غير علم أن الزرع للشيخ فلما أصبح الله بخير الصباح مات جميع خيلهم و حملوا سروجهم على أعناقهم ثم إن ذلك فى آخر عمره ارتفع و سئل الشيخ عن ذلك فقال فعل الله ذلك ابتداء ليعلم بحالى الخلق و ليظهرنى فلما حصل المقصود من الظهور و النفع للخلق و ظهرت الخصوصية

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٢

الخصوصية و ثبتت و دامت ارتفع ذلك و الله اعلم.

و لما زرنا قبر الشيخ و سألنا الله بجاهه أن يمن علينا بما فيه رضاه من السفر و أن ييسر علينا أمره و ان يجعله مقبولا مع الأخذ فى الاستخارة الشرعية و بالجملة فبقر الشيخ ترياق مجرب ذهبنا لبنى عباس و بتنا عند الفضلاء الأشراف المحبين لنا جميعهم الصغير و الكبير و الذكر و الأنثى و تكرموا و فرحوا بنا فرحوا شديدا ثم بعد ذلك لقريه المحب كل الحب إذ داره يد أهل الخير فيها يدا واحدة الفاضل الفقيه الصالح الكامل سيدى محمد السعيد بن الطالب و انه فرح بنا أيضا فرحا شديدا و بعده ذهبنا لزيارة الشيخ الولي الصالح و البدر الواضح ترياق وطنه و أمير بلده سيدى أحمد بن عبد الرحمن جدا أولاد مقران و الله اعلم تلميذ الشيخ سيدى يحيى و قد سمعت أنه قال للشيخ سيدى يحيى أنى رأيت فى النوم النار تخرج من بولى فعبها له الشيخ بان قال يصير منهم أى من أولاده ما يصير من أهل الظلم و الجور و كان الأمر كلما ذكر و لعل بركة جدهم تعمهم و كذا الشرف و قد رأيت طبقات ابن فرحون انه نص على شرفهم و الله اعلم قلت و قد نص الشيخ عبد الباقي على أن الشرف يثبت بالشهرة عند قول المصنف و مصرفها بكسر الراء فقير الخ و الأجهورى بضم الهمزة قال الناس على ما حازوا من أنسابهم كحيازة الأموال يصدق الإنسان شرعا فى نسبه كما يصدق بان ما بيده ماله إلا إذا كان مشهورا بالعداء و الظلم فلا بد أن يكلفه الحاكم بأى وجه تملكه و إلا أخذه من يده لعل صاحبه يأتى إليه نص عليه الشيخ إبراهيم الشبرختى.

هذا و لما زرنا الشيخ و سألنا الله حوائجنا الدينية و الدنيوية و أمر السفر أيضا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٣

حسبنا عند الشيخ سيدى يحيى ذهبنا لقضاء حوائج المسلمين فلما قضيناها من أمير مجانيه و غيره من عرفاء نبي عباس ذهبنا لمحل

الولى الصالح و الشريف الواضح سيدى بهلول بن عاصم نفعنا الله به و بذريته و قد اشتهر أمره انه تلميذ الشيخ سيدى يحيى كما كنا نسمع ذلك و الله اعلم و انه أيضا تزوج بنت الشيخ المذكور و كراماته كثيرة و حال أولاده مع الناس كذلك.

نعم بدأنا بزيارة الذاكر لله كثيرا الفاضل الصالح الفقيه المحلى بحلية القبول سيدى محمد بن سعيد الشريف البابورى و قد اجتمعت معه حيا و زمرته مرتين و قد سمعت انه تلميذ الشيخ سيدى أحمد بن عبد العظيم و سيدى أحمد هذا كان من المحققين فى كل علم و شهد بولايته كل من رآه من أهل عصره و قد سمعت ممن سمع سيدى إبراهيم الحاج البجائى انه سمع الحيتان فى البحر تقول سبحان الله أحمد بن عبد العظيم ولى الله.

و سيدى إبراهيم هذا كان صاحب الوقت فى زمانه و أنى سمعت ممن يوثق بخبره أن السيد أبا القاسم الحاج صاحب فرياه فى بجاية انه رأى السيد إبراهيم فى السماء الرابعة يجذب الشمس مع الملائكة و كفى به و أنى سمعت العدل المبرز الكامل الصالح سيدى على بن عبد الرحمن البجائى انه سمع من الفقيه الصالح سيدى يحيى الصنهاجى انه قال سمعت من سيدى إبراهيم هذا يقول لا يقف عند قبرى شقى و تواتر عنه هذا الخبر و قبره معلوم و ذلك داخل السور عند باب امسيور قرب قبر الشيخ أبى حامد الصغير أبى على المسيلى.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤

و سيدى على هذا سمعت منه انه قال رأيت فاطمة الزهراء فى النوم فقالت أنت من جيراننا ثم إنه ذهب إلى الحج و مات فى المدينة المشرفة و دفن فى البقيع بلغنا الله و من تعلق بنا بركة جميعهم.

و كذلك زرنا سيدى الهادى و أولاده كان رضى الله تعالى عنه مقبلا على الله و له بسطة فى الدنيا و أقبلت عليه الناس ثم بعد ذلك امتحن و نجا بفضل الله تعالى بان تعدى عليه طلبه الشيخ سيدى أحمد بن إدريس إذ بلغ أمرهم الظلم و التعدى و الفتنة للناس و هلاكهم و قطع شجرهم و أصابتهم غيرة من الشيخ و حسد فعادوه و حرقوا قريته و أخذوا ماله و قتلوا ولده و لما أحاطوا بداره و لم يتركوا فرجة له يخرج منها ظنا منهم يمسكونه بأيديهم ركب فرسه و هى طويلة جدا و هو رجل طويل بلغ فيه الغاية فلم أر رجلا مثله إلا النادر و خرج من باب صغير بحيث لا يخرج منه إلا الطفل المراهق أو ربعة من الناس نعم لا يخرج من ذلك إلا بعسر فخرج بفرسه على حاله فكل من رأى ذلك و علم بحاله تعجب من ذلك كثيرا فنجاه الله تعالى و سلم ثم أنى رأيت له قصيدة كبيرة فى شأن هؤلاء الطلبة المتعددين و ان خصها بعض الأوزان الشعرية فان مذهب المتقدمين لا يشترطون ذلك و إنما هو مذهب المتأخرين على أنه إن استقامت حالة الإنسان و كانت همته عالية متعلقة بالله تعالى لا يضره مخالفة القوانين الأدبية و لا غلبة العجمة و لا قلة العلم و قد ذكر فيها انه سمع من النبى صلى الله عليه و سلم انه قال له سيهلكهم الله بان قبلت فيما طلبته فيهم و كان الأمر كما ذكر بان شتت الله جموعهم و فرق أمرهم تفرق أيدي سبا و ان بقيت منهم حثالة فقد رق حالهم و ضعف أمرهم غير انه إن بقى منهم و لو واحد لا يخلو من

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٥

التعدى و الظلم نعم بركة الشيخ سيدى أحمد بن إدريس تنوب عليهم و لعل الله يهديهم أو يهلكهم إن لم يعلم ذلك منهم و بركة الشيخ سيدى الهادى هذا ظاهرة على ذريته أرشدهم الله تعالى.

و زيارة هذا الشيخ بعد أن زرنا مقام الشرفاء فى بو جليل فأنهم أهل فضل و بركة و عناية و قد اجتمعنا معهم فى الجد الأعلى و الشرف على ما كنا نسمعه من أعالي أسلافنا فلما وصلنا قرية أولاد الشيخ سيدى بهلول فعلوا ما أمرناهم به من الصلح مع أعدائهم و ردهم إلى محلهم لأنهم حرقوهم بالنار و أخذوهم و قتلوا منهم ثلاثين و أولاد الشيخ كثيرون غير أن فيهم من يقرأ القرآن و من يفهم العلم و كثير منهم على طبع العامة من تقليدهم سيف الفتنة و أحكام العوائد نعم غلب عليهم الكرم.

ثم بعد زيارتهم و قضاء الحوائج منهم ذهبنا لزواوة فرزنا و ظنهم الحى و الميت و الظاهر و الخفى على الجملة إلى أن بلغنا بيت الفاضل

الأخ سيدى أحمد الطيب و اجتمعنا بفضلاء من الناس.

و بعد ذلك عزمنا على زيارة الولي الكبير و القطب الشهير سيدى على بن موسى و مررنا على بنى منجلات و بنى بترون و بنى عيسى و غيرهم فلما وصلنا الشيخ سيدى على بن موسى بتنا فى مقامه المشهور و ضريحه الترياق و قد ظهر من أمره نفعنا الله به أن من قصده لحاجة دنيوية أو دينية يعطى لو كلائه و طلبه مقامه شيئا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤

معلوما إذ كل حاجة بما تشتري من القدر المعلوم تقضى بإذن الله تعالى و فضل الله عليه عظيم و صبغته الله عليه جالية و زائره مقبول و قبره دواء ربانى و طب إلهى و قد كان فى القرن التاسع معاصرا للشيخ سيدى يحيى العيدلى و صديقا له كراماته باهرة و أحواله ظاهرة قلت قال الشيخ سيدى يحيى العيدلى على بن موسى فيه خاصية الرقية لم تكن فى أحد من أهل عصره قال و قد رقى لى عكازا أى عصا و كنت أرقى به للناس فيظهر آثارها و قيل انه ذهب لبنى يمل فى وادى بجاية و أتوا له بولد كبير بلغ حد المشى و تجاوزه و لم يقدر على المشى بان صار مقعدا لا يقوم أصلا فمسح عليه و رقا فمشى من حينه نفعنا الله به و من كراماته ما اشتهر عنه أنه أقام بقرة بعد ذبحها و قسم لحمها و سببه أنهم لم يسهموا له الطلبة لأنه كان خديما للطلبة و غير ذلك من كراماته و كان له مزود إذا امتلأ يكفيه ثمانية أيام بلغ الضيوف ما بلغوا ألفا أو أكثر أفاض الله علينا من بركاته و جعلنا فى زمرة بمنه و كرمه.

ثم ذهبنا بعد الزيارة و طلبنا عنده ما طلبناه عند الشيخ سيدى يحيى إلى قرية تدلس المحروسة لزيارة سيدى أحمد بن عمر إذ كنت صغيرا و قلبى متعلق به حتى جمع الله بيننا و بينه عام تسعة و سبعين و مائة و ألف (١١٧٩) فلما وصلنا فرح بنا فرحا عظيما و سر بنا سرورا قويا و دعا لنا بعزم و قوة همة من صميم قلبه و خلاص الاعتقاد و أقمنا ثلاثة أيام فيها مع كرم عظيم و طيب ضيافة و إحسان تام من أهلها عمرهم الله و جعل البركة فيهم.

ثم أن فضلاءها و نجباءها سألوني عن قول بعض الأولياء وقفت بساحل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٧

وقفت الأنبياء دونه فزبرت عليه رسالة حسنة بما فتح الله به ارتجالا و كتبت فيه رسالة نحو كراسه صغيرة و قد قلت فيها ما حاصله انه وقف بساحل بعلمه الحقائق و زوال الحجاب عنه بان وقعت له شطحة من شطحات أهل المحو فوقف فى ذلك الساحل لعدم تمكنه و رسوخه فى علم الشريعة و لا- فى علم الحقيقة إذ هو متلون لا- متمكن من الذين إذا ذكر الله و جلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا لا من المتمكنين الذين اطمأنت قلوبه بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب فوقف فى ذلك الساحل و قوف اضطراره لا و قوف أدب لأن صاحب هذا المقام محمول لا- حامل و هو ممن ملكه الحال لا- انه ملكك حال فكان وقوف الأنبياء دونه أولى و أمكن و أليق لتمكنهم و اشتغالهم مع السفره و الوحي هذا بمنزلة الخضر مع موسى عليه السلام و قد كانت علوم عنده لم تكن لموسى عليه السلام مع أن موسى أفضل منه بالإجماع غايته أن تلك مزية و القاعدة المقررة أن المزية لا تقتضى الأفضلية فموسى قد اشتغل بما هو أعظم و الخضر خصه الله تعالى بهذا الأمر فلا يكون أولى و لا شك أن الخضر وقف بساحل من العلوم اللدنية و المواهب الكشفية لم يقف موسى بها إذ وقف دونها و هى علم الشريعة و لا شك أن ما يفعله الخضر فى بادى الرأى أنه ممنوع شرعا فى ظاهر الحال و لذلك قال له لن تستطيع معى صبورا و كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا فإذا علمت هذا علمت مثله فى هذا القول من غير شك و قد قررت به بوجهين آخرين فاستحسنوا ذلك منى غاية قل بفضل الله تعالى.

ثم و دعونا وفقهم الله و هداهم نحو مسيرة نصف يوم و فى تلك الجماعة عمنا العلامة المحقق الفهامة سيدى محمد الصغير بن رقيه و الفاضل الكامل سيدى محمد السعيد بن الطالب و المحب للخير و أهله سيدى أحمد بن على نجل الشيخ سيدى يحيى العيدلى و سيدى أحمد الطيب و الشيخ الفاضل سيدى مهنا و خديم الصالحين الحاج على البتروني و غيرهم و تلميذ سيدى محمد السكلاوى الجزائرى إذ كان يقرأ

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٨

علّى كبرى الشيخ السنوسى بالشيخ الیوسى قراءة تحقيق فى أيام الزيارة و غيرها و شاورنا سيدى أحمد بن عمر على الحج فقال توكلوا على الله.

ثم رجعنا و أخذنا على بنى فراوسن بلد الشيخ ابن معطى صاحب ألفية النحو الذى قال فيه ابن مالك «فائقة ألفية ابن معطى» و سيدى محمد الزاوى صاحب المراءى المعلومه صديق سيدى سعيد السفرى القسنطينى و صاحبه فترلنا قرية الجمعة اعنى الصهرىج و هى قرية عظيمة ذات بساتين و عيون فى وسط العمارة نحو مائة عين كما قيل.

و نزلنا عند المعظم سيدى محمد بن القاضى الشريف سلطان زاووه و عاهدنا على الحج و مشى معنا ثم مات رحمه الله عليه بعد خروجنا من المدينة المشرفة و دفن بين الينبع و نقب على فى شهر محرم سنة ثمانين و مائة و ألف (١١٨٠) ثم أتينا بنى بو شعاب و زرنا جملتهم ثم مررنا على بنى يحيى و زرنا جملتهم أيضا و تلاقينا مع بعض فضلائهم أولاد الفقيه من قرية ثوفه .

و زرنا سيدى على بن الطالب و هو ولى مشهور كان صبغه فى عصره و كان يأتيه الرجل فيبلغ لله تعالى ساعتد و زرت قبره مرارا و أنى أدركت أصحابه المنورين جملة منهم سيدى أحمد بن عمر و سيدى الموفق ابن أم رزق الصغير إلا أنى صغير و هو قد تجرد للعبادة و خدمه طلبه العلم و له كرامات كثيرة و ورع شديد صاحب انقباض و المراط سعيد بن ثيفرين و أنى أدركت منه المنى و أنا صغير و الولى الصالح سيدى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٩

يحيى بن حمود و كلهم أصحاب وقت فى عصرهم.

ثم نزلنا قرية الشيخ الفاضل ذى التصانيف الجيدة الولى الكبير و العالم الشهير صاحب وقته المحب للنبي صلى الله عليه و سلم و خليله سيدى أحمد بن مزيان و هى ورجة قرية عظيمة طيبة فيها بساتين و عين جارية وسط داره و له خلوة معلومة له اليد العليا فى العلوم كلها المنقول و المعقول و قد خمس البردة [بحيث لا نفرق بين كلامه و الكلام الأصى و ألف كتابا فى الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم لم يوجد له نظير لأنه ذكر تصارييف اللغة و حاز يد السبق فيها و غير ذلك و له سر عظيم و انفعال جسيم فأين توجه إلا و الناس حافون به كلامه له حلاوة و طلاوة و قد تمكن فى علم الأوفاق تمكنا كليا مع الكشف التام و قد أخبر عنه أنه لا يفعل شيئا حتى يستأذن النبي صلى الله عليه و سلم و له كرامات مشهورة و هى أنه أتاه فقير فى أيام الحج فقال له و الله أن أحج فى هذه الأيام فلما ألح على الشيخ و ذلك فى زمان الخريف أعطى له عنقودا فكمل أكله فى مكة المشرفة ثم لما كمل حجه وجد نفسه فى داره نفعا الله به و وله حى أخ لنا و صديق لدينا و هو لا يتنبه لأكثر أحوال الدنيا.

و زرنا صاحب الفضل و الفواضل سيدى العزالى جعل الله البركة فى أولاده بمنه و كرمه و له أحوال سنية و كرامات ظاهرة سيما إجابة الدعوة و أبوه أقوى و أعظم و قد عمت بركته الدانى و القاصى نعم زرنا قبره وبتنا فى خلوته و توضحنا من عينه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠

و قد سمعنا أن ماء زمزم يخرج إليها و انه أيضا لم بين تلك القرية إلا ياذنه صلى الله عليه و سلم.

ثم بعد ذلك رجعنا إلى دار الشيخ سيدى محمد السعدى والد سيدى أحمد الطيب كان فاضلا عالما عابدا زاهدا ورعا آكلا من عمل يديه طالبا للحلال لأن من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى و من أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى أو كما قال صلى الله عليه و سلم و هو تلميذ الشيخ سيدى أحمد بن مزيان و انفعت فى سريرته و ظهر عليه آثار أنواره و قد سمعت ممن يوثق به أنه قال لو شئت أن تصير لى الجبال ذهبا لفعلت و لكنى اخترت ما اختاره النبي صلى الله عليه و سلم لنفسه من التقلل فى الدنيا و نفض يد القلب منها قطعا و الحمد لله على محبة آثارهم و معرفة أحبابهم رضى الله تعالى عنهم.

ثم بعد زيارته فى محله رجعنا إلى بلدنا مارين على الشيخ سيدى يحيى العيدلى عطفه الله علينا و على أولادنا و طلبتنا و كل من يتسمى

إلينا من الإخوان وغيرهم بمنه وكرمه.

فلما بلغت البيت حدث لى العزم التام نعم أخذنا فى التأهب إلى السفر و الأخذ فى أسبابه و اشتهر أمر سفرنا و بلغ أمره أطراف نواحي عمالة الجزائر فقامت لذلك فضلاء الخاصة و العامة ثم وقع النداء فى أسواق بلدنا فيمن عزم للسفر.

ثم بعد ذلك عرض لى أمر أوجب لى السفر لوادى بجايه فلما ذهبت إلى الوادى سمع بى جماعة من فضلائها العلامة الفاضل قاضيها تلميذنا سيدى أبو القاسم نجل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣١

الكامل سيدى إبراهيم و الفقيه المفتى سيدى محمد و المعظم الأجل قائدها أحمد السطمبولى محب الخير و أهله و كان والده السطمبولى تاب على أيدينا رحمه الله آمين.

فلما وصلت إلى أولاد الشيخ سيدى محمد أفران فى محلهم إذ هم أنسابى نويت زيارة الشيخ الصالح و الأستاذ الواضح سيدى إبراهيم بن ثابت فى بنى مسعود فوجدت تلك الجماعة قاصدين ملاقاتى فاجتمع كلنا عند السيد إبراهيم المذكور فبعد زيارتنا له ألحوا على فى الذهاب إلى بجايه إذ كنت متغيرا عليهم قبل غير أنهم لما أكدوا على ذهبت معهم إلى زيارتها لأنى محب فيها غاية و ذلك قبل بلوغى و كنت كل عام أصوم فيها رمضان ناويا للرباط مع تعليمى الطلبة راجيا أن يكون لى حظ وافر منهم و نصيب كامل من عندهم حقق الله رجائى بمنه و كرمه.

فلما وصلت بئر السلام متشرفا على المدينة المذكورة توجهت إلى زيارة الشيخ سيدى أحمد بن معمر الولى الكامل و الليث الفاضل لما كنا نسمعه أن من زار بجايه و لم يزره لم يذهب بشيء منها و العياذ بالله تعالى و ان لم يكن كذلك فى نفس الأمر غير أن أسباب الحرمان كثيرة فالحذر الحذر و الأدب الأدب ألا ترى ما وقع لبعض الأولياء فى زمان الشيخ سيدى عبد القادر الجبلى حين قال قدمى هذه على رقبه كل ولى لله فكل من سمعها طأطأ برأسه تواضعا لله تعالى و تسليما للشيخ إلا واحدا من

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٢

أولياء العراق لم يسلم للشيخ حاله و لم يصدق مقالته فسلب من حينه و العياذ بالله تعالى و كذا رجل تغير عليه الشيخ و قال لا يدخل بغداد فكان إذا وصل إلى بابها لا يقدر على الدخول لما يجده من المنع الإلهى نعم شفعت عنده أمه فى الاجتماع معها فقبلها غير انه أذن لها أن تجتمع معه فى طريق تحت الأرض فى بغداد و أما الطريق المعلومه فممنوع منها و كذا ما حكى عن أبى يزيد البسطامى الذى من عرف اسمه دخل الجنة و اسمه طيفور بن عيسى و هو أنه قال لصائم تطوعا كل يوما بيوم فقال أنا صائم فقال كل يوما بشهر فقال أنا صائم فقال كل يوما بعام فقال أنا صائم فقال كل يوما بدهر فقال أنا صائم ثم سكت عنه الشيخ فقام بعض الناس إليه قائلا له أن الشيخ يأمرك بالأكل و أنت تمتنع فقال له الشيخ دعه فانه سقط من عين الله تعالى انظر هذا مع انه موافق لمذهب مالك أنه يحرم على الصائم المتطوع الفطر من غير وجه و الوجه الأبوان و ذو التربية من الشيوخ و لابد أن يكون الصائم مديما للصوم و ألحق البعض شيخ التعليم قلت قال المحلى حديث الصائم أمير نفسه إن شاء صام و إن شاء أفطر رواه الكتب الستة فكان المختار عند غير مالك الفطر من غير منع بل هو مباح و يحتمل حينئذ المأمور بالأكل أن يكون تلميذا للشيخ و يحتمل أن يكون الشيخ مذهبه الحديث أعنى جواز الفطر.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٣

تنبيه إياك أن تتعرض لأحد من أهل الله ممن ثبتت له الخصوصية من الأولياء فى زمانك فيما فيه الوسع شرعا فتتزل قدمك بعد ثبوتها و قال الخطاب فى حاشيته على الشيخ خليل أن مذهب المخالف أعى الفطر من غير وجه أقيس فإذا فهمت هذا علمت أن الاعتراض على من ثبتت له الخصوصية حرمان و المنازعة شقاوة و امتثال أمره غنيمه فالكيس بن الكيس إذا اجتمع مع أحد من أولياء زمانه ينظر ما يستحسنه منه بقلبه فعلة من غير كلفه من الشيخ فتأخذ مكانا فى صدره فينظر الله إليك بعين الرحمة لأن الله ينظر إليه

بعين الرحمة فمن نظره في قلبه أفلح ولا تعترضه و لو في غيبته إذ ربما كان ذلك سلباً لإيمانك لأن الله يحارب عنه و قال أبو يزيد المذكور أعلى الولاية التصديق بأحوال أهل الله و أدنى الولاية التسليم لأهل الله فلا تنازعهم أصلاً بقلبك و لا بقلبك فيموت قلبك إلا ما أنكره الشرع إجماعاً . حاصله . هم أبواب الله و الله يقول و أتوا البيوت من أبوابها فمن اعترض أحداً بحظ نفسه رد عن باب الله و كان مطروداً بين العباد فيراه كل أحد من الناس بعين الازدراء حتى انه لا يجد شفيحاً إلا التوبة الصادقة فحسن الظن و تسليم الأمر لأهل الله غير قاذح شرعاً بل هو سلم يرقى به إلى حضرة الكمال فإياك أن تنظر إلى كثرة العبادة من الإنسان بل انظر إلى خميرة الصدق و حسن الاعتقاد و عدم المنازعة فذلك الشان و خمر عقلك به تفز كما فازوا و حينئذ لا تسرع لإنكار ما يحكى عن الشيخ سيدي أحمد بن معمر نفعنا الله به و أفاض علينا من بحر أنواره بمنه و كرمه أن ثبت عنه ذلك .

و بعد زيارتي له توجهت لزيارة رجال النخلة المدفونين في مسجد الخميس

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤

[أعنى السوق و كذا من في مقبرة السوق] نفعنا الله بهم فقد سمعت ممن يوثق به أن بعض الناس من بجاية وصل إلى عرفه فصار يستغيث بالصالحين فيما أصابه فاتاه بعض الأولياء فقال له إن رجعت إلى بجاية فاستغث برجال النخلة فمن استغاث بهم يغاث ياذن الله تعالى .

و بعده توجهت بوجهي إلى المدفونين في جبل خليفه بعد ما زرت سيدي الصديق و زيارة سيدي عبد الحق الفجيجي و لم يثبت عندي شيء في حقهما نعم أهل بجاية يعظموهما غاية التعظيم إلا ما سمعت عن بعض طلبه بجاية بان قال الشيخ عبد الحق هذا هو ألى قتله السلطان ظلماً و عدواناً و سبب ذلك أن بعض الزنادقة كان يتعبد في الظاهر في الموضع المسمى المضيق فلما اشتهر أمره صار الناس يأتيه فيختلى بها فتلد طفلاً فعلى صيته بهذا الأمر فذهبت زوجة سيدي عبد الحق هذا إليه و هو معها فلما وصلته طلبها للخلوة على عادته ليطأها فتلد ولداً فامتنع الشيخ من ذلك فقال هذا ممنوع شرعاً فرجع هو و زوجته و كانت امرأة السلطان قد فعل بها ما فعل قبل بالنساء و لما رجع الشيخ عبد الحق نادى بالويل على الرجل و قال انه زنديق و نبه على فعله الخسيس و اقتضح أمر الرجل و أصابت السلطان المعرة العظيمة فطلب سيدي عبد الحق على مقاتله فقتله و جعل رأسه عند باب المدينة و إنما فعل ذلك امتثالاً لقوله عليه الصلاة و السلام إذا رأى العالم منكراً و لم يغيره فعليه لعنة الله نعم بقى رأس الشيخ هناك مدة غير انه إذا جاء البواب عند الغروب و يقول الباب الباب ليدخل من كان خارجاً فيقول الرأس لم يبق إلا عبد الحق الذي مات على الحق

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥

بلسان فصيح يسمعه الناس كلهم فبعد ذلك رأوا الشيء عياناً و ظهر الحق و زهق الباطل رفعوه و عظموه و جعلوا روضه على قبره و قد قيل فيه أنه ولد الشيخ سيدي على المظلوم المدفون عند الحلق بان قيل أنه مظلوم في قتل ولده هذا . و بعده توجهت لزيارة من في الجبل و قد قيل فيه اثنا عشر ألف قطب و انه ينيخ بأهله في الجنة كما ينيخ البعير بحمله و توجهي إنما هو على القنطرة التي عند الباب إذا سمعت أيضاً من بعض الصالحين انه يقول من وقف على تلك القنطرة و توجه للجبل فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه .

و بعد ذلك دخلت بجاية و زرت الشيخ سيدي الصوفى و لم أحفظ من أمره شيئاً إلا أن أهل بجاية يعظموه غاية التعظيم و انه من أهل التصريف في بجاية نفعنا الله به آمين .

و بعده زرت خلوة الشيخ سيدي أبي مدين الغوث و قد زرت قبره و الحمد لله في العباد في تلمسان أرض الجدار و زرت معه الشيخ السنوسى و الإمام ابن زكري و العقبانيين و الإمام ابن مرزوق و ولدى الإمام و هؤلاء كلهم مؤلفون نفعنا الله بجمعهم و أبو مدين كان في القرن السادس في بجاية حتى سعى به بعض الشياطين من الحساد إلى أمير مراکش فبعث إليه فلما سمع أهل بجاية عزا مرة عليهم و أرادوا الخروج عن طاعته و قال خليفه بجاية لا تذهب فأنى أخرج عن طاعته من أجلك فقال اذهب و الله غير أن الناس لا يرونى و

لا أراهم و ذهب فلما قرب تلمسان أشار بموته فقال احمولوني على بغلة فالموضع الذى تبرك فيه فذلك قبرى فبركت فى العباد الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦

و دفن فيه فصار رحمة لأهل تلمسان و من زاره نفعنا الله به آمين.

و كان أصحابه كثيرين منهم الشيخ أبو محمد صالح الدكالى فانه ذات يوم أتى الشيخ أبا مدين فقال له أردت الفقر إلى الله أما أنت أو أحد يبلغنى فقال له لما أر لك مثل الشيخ عبد القادر فى بغداد فذهب إليه فلما وصل قال له أردت الفقر إلى الله فادخله الخلوّة فمكث فيها أربعة و عشرين يوما فدخل عليه الشيخ عبد القادر فقال ما أردت فقال أردت الفقر إلى الله فقال عليك بكذا و كذا فقال له هذا كله أعرفه من الكتاب و السنة فقال ما تريد فقال أريد أن تدخل يد قلبك لقلبي قال فنظر فى نظرة فامتحن قلبى من حينه ثم قال انظر الكعبة فنظرت الطائفين بها ثم قال لى انظر المغرب فنظرت شيخى فى المغرب ثم قال له ما أردت مكة أو المغرب قال فقلت شيخى فى المغرب فقال لى فى خطوة أو كما جئت قلت كما جئت فأعنانى بتلك النظرة دنيا و أخرى أنفق فيهما اه.

ثم إن أبا محمد قيل أنه قدم بلادنا و استقر عند أمير وادى أقبو و هو وادى بجايه فرغب فيه السلطان فزوجه بنته فولد معها ولدا فمكث غير بعيد قال دعنى أرفع ولدى فانه ستظهر شمس فى القرن التاسع فى بنى عيديل تغيب النجوم كلها معها فمنعه السلطان منه و ذهب و تركه نعم قيل أولاده هم أولاد سيدى محمد صالح الآن عندنا و الله اعلم و قد قيل انه هو الذى طلع بدابته عمود السوارى بالإسكندرية حين قال لهم أين بيت الغريب فقالوا له استهزاء به فى عمود السوارى فبات فيه و هو لا يمكن عادة المبيت به نفعنا الله به آمين.

و أما الشيخ عبد القادر فكان فى القرن الخامس أخذ منه خمسين سنة و أخذ من

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٧

السادس تسعا و أربعين سنة.

ثم بعد زيارة خلوته توجهت لزيارة خلوة الشيخ أبى محمد المرجانى المعلوم الذى ينقل كلامه صاحب المدخل و يعتمد عليه و لا يشكك أيضا أحد فى ولايته فقال ابن عرفة قادحا و الله اعلم فى الشاذلى و أصحابه اثقل شىء على قولهم قيل لى أو على فقال فلا أقبه و لو من المرجانى المقطوع بولايته اه- فقد جزم بولايته و لا شكك فى ولايه الشاذلى و الشيخ عبد القادر قلت نقل كلامه هذا الشيخ زروق ورده بقوله الثقل ليس بحجة و قوله أيضا المرجانى المقطوع بولايته فإن أراد القطع بحسب الكرامات فالشاذلى و الجيلى أظهر منه كرامة و أن أراد ذلك بحسب نفس الأمر فلم يقطع لأحد الآن بذلك إلا بعد دخول أهل الجنة الجنة.

ثم توجهت لزيارة خلوة الشيخ عبد القادر و خلوة الشيخ سيدى أبى العباس السبتي الكائنيتين فى برج اللؤلؤة و قبر سيدى أبى العباس فى مدينة مراكش و أما قبر الشيخ سيدى عبد القادر فمعلوم فى بغداد أفاض الله علينا من بحر أنوارهما.

وزرت الجامع الأعظم القديم القريب من تلك الخلوّة و من البرج المذكور الذى كان فيه تسعون مفتيا [إذ قال الشيخ أبو على المسيلى دخلت بجايه فوجدت فيها تسعين مفتيا] أى فى الجامع الأعظم و كان كل واحد لا يعرف أبا على من أى ناحية كان.

ثم بعد ذلك توجهت إلى الشيخ عبد الحق الأشبلى و يقال له اليمانى و يقال له أيضا البجائى و هو الذى ألف العاقبة و قبره خارج باب المرسى القديم طريق أبى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٨

زكرياء الزواوى و كان رضى الله تعالى عنه لودعيا فاضلا كريما لا نظير له و كانت تأتبه أمته مرارا فى يوم واحد لمجلس درسه تطلب منه دراهم فلم يخيبها قط ثم قال بعض تلامذته هذا شىء كثير يا شيخ فقال له استحى أن تجتمع فى ثلاث شينات شيخ و شحيح و أشبلى اه- و أيضا كانت رخامة عند قبره فيها تاريخ موته فأتى بعض النصارى إلى قبره فرفعها فلما وصل بها إلى بلده تشاءم بها وردها بنفسه إلى قبره نفعنا الله به آمين.

ثم زرت من دفن في تلك المقبرة وانه دفن فيها أيضا قرب السور الشيخ عبد الحق بن ربيعه و قد ذكره صاحب عنوان الدراية بما يحرك قلب الناظر إليه و قد قيل أن في تلك المقبرة الغاقى.

ثم توجهت لزيارة الشيخ أبى زكرياء يحيى الزواوى و قد كان فى القرن السادس و قبره مشهور أقول قال صاحب عنوان الدراية ما نصه أربعة قبور يستجاب الدعاء عندها قبر معروف ببغداد و قبر أبى مروان فى بونه أى عنابة و قبر أبى زكرياء يحيى الزواوى الذى هو هذا و قبر أبى مدين فى تلمسان و قد زرت و الحمد لله الثلاثة بلغنى الله إلى الرابع و هو قبر معروف بجاه من ذكرته من الأربعة آمين و من أوصافه رضى الله عنه أنه كان لا يأكل إلا السمك يصطاده بنفسه طلبا للحلال و كان كثير التردد إلى المساجد يتعبد فيها بنواحي بجاية و كان رحمه الله له مجلسان فى العلم مجلس فى الحديث و مجلس فى التفسير إلا أن التفسير كان يقرئه بعد صلاة الجمعة على المنبر لكثرة الناس و ازدحامهم عليه إلى يوم موته فكان يكرر قوله تعالى عفا الله عما سلف و من عاد فينتقم الله منه ففهم أكثر الحاضرين أن الشيخ يموت و كان رحمه الله سخي

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩

الدمعة يبكى و يبكى أكثر الحاضرين معه إلى أن قربت صلاة العصر فذهب لزاويته قرب الجامع فسمعه من فى المسجد له حركة اغتيال ثم رجع إلى صلاة العصر فلما فرغ منها رجع إلى زاويته فمات بعد صلاة العصر من يوم الجمعة فدفن صبيحة يوم السبت و خرج الناس لدفنه و خرج أمير بجاية و قد انكسر كذا كذا نعشا تحته رحمة و رغبة فيه و من كراماته رحمه الله تعالى انه كان يعبد الله فى خلوة بشاطئ البحر فإذا سفينه من النصارى فأخذوه و رفعوه فى السفينة فلم تتحرك بهم فأمرهم صاحبها برده إلى مكانه و قال انه من رهبان المسلمين فلم تتحرك أيضا فقال لهم أبقى من حوائجه شىء فوجدوا سجادة فردوها له فلم تتحرك حتى أخرجوا عصاه و أبريقه فتحركت حينئذ و من كراماته أيضا لما ذهب إلى الحج كما ذكره الغرينى لم يحج من عامه ذلك بان بقى بالشام عامه ثم أنه دخل على بعض الأولياء من رجال الغيب فقعده معهم مدة و كان لا يكلمه إلا واحد منهم غير أنهم إذا وصلوا المغرب قام واحد منهم يأتي بمائدة من طعام ثم أنهم لا زالوا كذلك إلى أن وصلت نوبته فأمره مكلمه بان يذهب ليأتى بما يأتون به فذهب فلم يخيبه الله فأتى به أو أحسن فكان معهم كذلك إلى أن وصل وقت الحج فودعهم و خرج معه صاحبه و مشى معه ساعة فأوصاه فقال له بلغ سلامى لفلان السافى فى زمزم و أمسكه من إصبعه السبابة أو الإبهام فلما وصل بلغ وصيته و مسكه من ذلك الإصبع فقال السافى أن فرغت من مناسكك فارجع إلى فلما قضى مناسكه رجع إليه فقال الآن صلينا على صاحبك الذى و دعك و أوصاك إلينا ثم مسكه فأصبحه فى وطنه أى بوادى شوشوان كأنه متيقظ من النوم فوجد راعيهم عند رأسه فذهب معه إلى البيت اه- و هو حسناوى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠

من بنى عيسى و بلدهم معلومة بقرب الجزائر و دفن معه الولى الكبير ابن عربى غير الحاتمى و غير الحافظ و إنما هو أمى على صورة البله يلعب بقصبة و قد قال صاحب عنوان الدراية ما نصه انه ضربها يوما من بجاية فوقعت فى وجه النصارى فى الأندلس فانهمزوا بإذن الله تعالى إذ أرحوه فوجدوه كذلك و الله اعلم و من كراماته انه كان بالشام فجاءت سفينة لبعض النصارى تريد بجاية فأعطى صاحبها مزودا يبلغه إلى بجاية أعطاه إياه يوم الجمعة إلى الجمعة الأخرى وصلت السفينة بجاية ببركته نفعنا الله به آمين فوجدوه فى بجاية فقال النصرانى هذا أعطانى مزوده يوم الجمعة و خلفته فى الشام وقت كذا من ذلك اليوم فأخبره أهل بجاية بأنه يوم الجمعة ذلك الوقت كان هنا فتعجب صاحب السفينة من أمره فأسلم ببركته و حسن إسلامه نفعنا الله بجميعهم بمنه و كرمه آمين.

و أما الشيخ سيدى المليح فلم أحفظ من أمره شيئا إلا أن أهل بجاية يعظمونه غاية التعظيم و يعدونه من أهل التصريف و كذا سيدى عيسى وجده سيدى على البكاى إلا أن جده و الله أعلم قد ذكر فيه صاحب عنوان الدراية كلاما فى طبقتة و ان له زاوية عظيمة الخ ما ذكره و الله اعلم.

و أما الشيخ سيدى أبو على المسيلى فقد كان حجة فى بجاية و تولى القضاء فيها مع كونه مدرسا للعلم و كان يقرئ الجن من الليل و

الإنس في النهار و كان معظما في بجاية و من تعظيمه أنه لما دخل الموارقة بجاية و كانوا يلثمون وجوههم فطلبه السلطان [في المبايعة فأبى و قال و الله لا أبايع شخصا لا أعرفه رجلا أم امرأة]

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤١

فكشف السلطان عن وجهه ليعرفه فلما رآه بايعه حينئذ و تولى القضاء بعده ابن الخطيب و أبو على مشغول بتدريس العلم فغار منه فبعث له رسولا ليخرج من بجاية فلما جاءه الرسول وجده في مجلس العلم و قال لحفيده قبل أن يكلمه الرسول خذ مصحفا و أقرأ لنا شيئا بعد التعوذ فأخذ المصحف و تعوذ ثم قرأ و أتلى عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامى و تذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم و شركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم أفضوا إلى و لا تنظرون الآية فانتقع وجه الرسول و رجع و فى أثناء الطريق وجد رسولا من القاضى ليرده بأن لا يخبر الشيخ بذلك لأنه أتته ضربة من الله كادت أن تهلكه فلما وصل الرسول أخبره أمر الشيخ مع حفيده فتعجب ابن الخطيب ثم استرده إليه ليجعله فى حل بصره من الدراهم فرجع و وضعها بين يدى الشيخ و قال له يطلبك أن تجعله فى حل فقال الشيخ جعلناه فى حل و أمره برد الصرة و أبى أن يأخذها اه- و من كراماته بعد موته أيضا أن شخصا من تونس له صديق فى بجاية مات يراه دائما فى النوم يعذب و لما مات أبو على المسيلى رآه فى نعيم و سرور و سأله عن السبب و كان مدفونا فى جبل خليفه فقال له لما مات الشيخ غفر الله لمن كان بين أطراف المدينة من قبره إلى الجبل ضيافة له و هدية نفعنا الله به آمين.

ثم إن ذلك الرجل احتمل من تونس إلى زيارة الشيخ فلما وصل إلى بجاية سأل عن قبر الشيخ و هو يتصبب عرقا و قبره متلبس بين أربعة قبور فينبغى للزائر أن يعينه بالنية فلما زاره أخبر بالقصة اه- و الدعاء مستجاب عند قبره و يسمى أبا حامد الصغير و من تأليفه التذكرة و النبراس فى الرد على منكر القياس و قد رأيت الشيخ عبد الباقي يقول قال صاحب النبراس و هو من أواخر القرن السادس.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٢

و أما الشيخ سيدى التواتى فهو من القرن التاسع أيضا ولى صالح كبير الشأن عالم على الإطلاق و له مؤلفات كما كنا نسمع و هو عند أهل بجاية من أهل التصريف و قد سمعنا أن فتواه لا ترد إلى توزر و هو المعاصر للشيخ سيدى يحيى العيدلى و له زاوية و طلبه إلى الآن و خدام فى الجبل و غيره نفعنا الله به آمين.

و أما سيدى سعيد العلمى فلم أحفظ من أخباره شيئا إلا ما ذكره عنه سيدى عبد الرحمن الثعالبي و عن الشيخ سيدى عبد الرحمن الوغليسى صاحب التأليف المعلوم فى الفقه الذى شرحه سيدى عبد الكريم الزواوى شرحا كبيرا فيه من العلوم ما يغنى الناظر عن غيره و طريقته رضى الله تعالى عنه طريقه ابن أبى جمرة و صاحب المدخل و شرحه سيدى عبد الرحمن الصباغ أيضا و سيدى عبد الكريم هذا كان ينقل عنه الشيخ عبد الباقي و غيره و قد زرت قبره فى بلده أعنى بنى يتورغ من زاوية إذ قال رجع سيدى سعيد العلمى من بعض نواحي بجاية إليها فلما قرب وجد الباب مغلقا فرجع إلى قبر سيدى عبد الرحمن الوغليسى فبات عنده و إذا الشيخ سيدى عبد الرحمن قام من قبره و أصحابه من بجاية مجتمعون عليه يقرئهم و يعلمهم إذ مات رحمه الله تعالى و ترك ختمه لم تكمل فكملمها لهم فى قبره بعد موته و هى كرامة عظيمة للشيخ سيدى سعيد و للشيخ سيدى عبد الرحمن و لتلامذته نفعنا الله بجمعهم و جعلنا فى زمرتهم و رزقنا العافية و جمع شملنا بأهلنا و نصرنا على السنة و إظهارها بمنه و كرامه آمين.

و قال الشيخ سيدى عبد الرحمن الثعالبي دخلت بجاية فى أواخر القرن الثامن فوجدت أصحاب الوغليسى متوافرين.

و أما سيدى محمد امقران فكان من أكابر الأولياء و هو من القرن العاشر يعنى آخره و أخذ من الحادى عشر و كراماته ظاهرة و أحواله باهرة فلا يحتاج لذكرها.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٣

و أما سيدى عبد الرحمن الصباغ فتأليفه تنبئ عنه و كلامه يدل عليه فليس إلا من أهل الشأن و التصريف و هو من القرن التاسع نفعنا

الله بكلهم بمنه و كرمه آمين و بالجمله ففضل بجايه مشهور و علم أهلها مذکور قال الشريف التلمساني دخلت بجايه فى القرن الثامن فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذى ينبع من حيطانها فرت أكتب فى كل مسجد سؤالاً و أتركه هناك حتى وصل أمره إلى السلطان.

و قال الشريف بعد أن خرجت من بجايه دخلت تونس فوجدت ابن عبد السلام يقرئ ما رأيته قط و لا رآنى نعم لما سألته قال أظنك أنت الشريف التلمساني قلت له أظنك أنت ابن عبد السلام فتصفح معرفتى من كلامى و تصفحت معرفته من كلامه و قد سمعنا أن بجايه فيها خمسمائة صبيه يحفظن المدونه و إما اللاتي يحفظن ابن الحاجب فلا يحصى عددهن إلا الله تعالى حاصله جعلنا الله فى زمريهم و أفاض علينا من بركتهم بمنه و كرمه آمين.

و لما ودعت أهل بجايه رجعنا إلى دارنا عازما على السفر و جاءنا الركب من جبل زاووه نحو الثلاثمائة رجل و اشتغلنا بهم إلى أن ذهبوا إلى قسنطينه ثم إلى تونس ليذهبوا فى البحر و فيه أفاضل و أكابر و ساعدهم فضلاء الركب نعم صرنا فى توديع الناس من كل بلد من حمزه و وانوغه و وادى بجايه و غيرها و بالجمله فوطننا طيب فيه العلم و بعض الكرم للغريب و فيه الزيتون و العنب و التين بكثرة و الحرث غير أن الوطن عزيز غال و سبب ذلك كثرة الناس غير أنه خال من السلطان و أحكامه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٤

فالوطن سائب عمره الله بالأحكام الشرعية و أزال منه الفتنة و بدل ذلك بالعافية الدائمة و كذلك الغالب عليها البرد و الثلج و بالجمله فنسأل الله تعالى أن يعمره على يد سلطان عدل فلما حان السفر و آن جمعت طلبتى و أمرتهم بالاستغفال بالعلم و المودة بينهم و الطاعة لله تعالى عمرهم الله تعالى على الدوام بالعلم و العمل مع أولادنا الذكور إلى غابر الدهر بجاه من ذكرناه آمين.

و لقد علمت أن من أراد مثل هذا السفر إذ سفر الحج سفر ينسبه طريق الآخرة فينبغى أن يعتنى به غاية الاعتناء لما فيه من كثرة الحسنات سيما فعل المعروف فإنها طريق للمحسنين و الله يقول ما على المحسنين من سبيل يحتاج إلى نية عظيمة و صدق قوى و همه عالية و إخلاص كبير لأن عمل الطاعة كله إلى الإخلاص لله تعالى لأن الله يقول إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء نعم الحج أقواها فى طلب الإخلاص إذ كثير ما يدخل الرياء فيه لما علمت من كثرة خوف الأحوال فيه و المسافه البعيده و ملاقة الناس فوجد الحاج يحكى للناس فى وطنه و غيره أنه وقع فى الدرب كذا و فى مكة [و فى المدينة و فى مصر كذا و فى بركة كذا و فى البحر كذا و فى الموضع الفلانى] كذا [فيقع فيه السمعة و العجب و الرياء و بعض الكذب إذ لا- يخلوا المخبر بالوقائع الماضية عن] الزيادة و النقصان فيقع فى الكذب قطعاً و الغالب أنه ينوى بحجه المفاخرة و ليقال انه حج [فغالب عامه الحجاج يقصدون ذلك فيغلب عليهم الرياء و لهذا] قال الله تعالى و أتوا الحج و العمرة لله و لم يقل فى الصلاة ذلك و لا فى الزكاة و لا فى غيرها من الأعمال الصالحات نعم من فتح الله عليه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٥

و سبقت له السعادة إذا وصل إلى بيت الله الحرام و رأى تلك الأماكن الشريفة و دخل تلك الجموع المباركة يغفر الله تعالى له لكثرة المغفورين إذ لا- يخلو الموسم العظيم أعنى عرفه عن رجال الغيب و أهل التصريف كالقطب و غيره و الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة و السلام و الخضر و إلياس فمذهب أهل الفضل الغفران لجميع الحجاج و أما قول خليل و صح بالحرام و عصى فمذهب فقهي قلت فى الحجة الأولى اجتمعنا مع الشيخ الولي الصالح العالم الواضح الورع الصدر العارف بالله تعالى الزاهد العالم بالمذاهب كلها المربي لأصحابه بحسن التربية الموافقة للشريعة و الحقيقة و ما أحسنه معرفة و أدبا و ورعا و زهدا و صحبه و كان متقشفا سيدى محمد المغربى الطرابلسى رحمه الله و نفعا به آمين قال لنا عام ثلاثة و خمسين و مائة و ألف (١١٥٣) العام الذى قبل العام الأول لم يقبل الله من الحجاج إلا- سبعة و باقى الحجاج رجع خائباً غير أن السبعة المقبولين أقبلوا على الله بالتوجه بالطلب و السؤال و المغفرة لأهل الموسم إلى دخول رمضان فأول ليلة منه تقبل الله منهم و غفر لأهل الموسم و أما العام الأول فقد خرج من فاس رجل لأجل أهل

الموسم ليغفر الله لهم فلما وصل إلى عرفه فقال والله ما خرجت من هنا حتى تغفر لجميع أهل الموسم فلم يخرج منه حتى غفر الله لهم فعمت المغفرة الذين لم يحجوا بأن جاءوا للنزهة أو للسوق فقال قول خليل و صح بالحرام و عصي مذهب فقهي و أما مذهب أهل الفضل فيغفر الله لجميع من حج و بالجملة فالعناية حاصله لمن وصل إلى حرم الله و حرم رسوله و كيف الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٦

لا و أن الصلاة في مسجد مكة و مسجد النبي صلى الله عليه و سلم تعدل ألف صلاة في غيره أو كما قال صلى الله عليه و سلم و أن الدعاء في عرفه و مزدلفة و المشعر الحرام و منى و مسجده و عند الرمي و عند الملتزم و عند الحطيم و زمزم و عند الحجر و غيرها مستجاب و بالجملة فينبغي أن ينوي بسفره رضى الله تعالى و أن يشغل نفسه بالتوجه إلى الله و إلى بيته و مواجهة نبيه صلى الله عليه و سلم و مواجهة أصحابه و آله و عترته و مواجهة أنبياء الله و رسله عليهم الصلاة و السلام و أن ينتظر شفاعتهم بأن يتعلق بهم بحيث ينوي الانتقال من أوصافه المذمومة إلى الأوصاف المحمودة و السفر من الخلق إلى الخلق و من طبائعه الرديئة إلى السجيا السنية و إن كانت غير مكتسبة إلا أن أسبابها مكتسبة و ينوى أيضا أن يكون من وفد الله تعالى و ضيوفه و إن يقصد أيضا إجابة الداعي الذي هو الآذان و أن يحمد الله و يشكره لما أن جعله من أهل الإجابة و من الذاهبين لبيت الله تعالى ألا ترى إذا ذهب الإنسان إلى بيت قريبه يفرح فرحا عظيما و يسر سرورا كبيرا فكيف بيت ربه سبحانه و ينوى إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه و أن يعلم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسأل العالم إن كان جاهلا و أن ينوى الزيارة لأحباب الله الأحياء و الأموات في كل وطن يدخله سواء من يعرفه أم لا و إن يعتبر و يوحد الله فيما يراه من عجائب المخلوقات و لذا اختار الأكابر سكنى المدن الكبار من الأمصار للتوحيد و الاعتبار [و أن يكف لسانه عن القيل و القال إذا أكثره فيه معصية الله تعالى] و أن يشغل جميع أعضائه بما فيه رضى الله تعالى و أن يختار من الأخوان ما يزداد به إيمانه للصحة و أن لا يشترك إلا مع من كان كنفه بحيث إذا تصرف في ماله لا يتغير كما إذا تصرف في مالك

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٧

و إلا فلا و أن تتولى شراء ما تستحقه بنفسك لتسلم من المعاملات الفاسدة أو توكل من لا يتساهل في الأحكام الشرعية و أن يكون عالما و ان تجعل من كان في الركب كنفك بان تجعل الكبير أبا لك و الصغير ولدا لكل و المساوى أبا لك فلا ترضى لأبيك و لا لأبنك و لا لأخيك إلا خيرا و ان لا تخالط الأغنياء أصحاب الترفه بان تستحقر نفسك ما عندها من المال فلا تحمد الله على ما أعطاك و يتعلق قلبك بمعالي الأمور حتى ينسى ما ذهب إليه بل من كان أدنى منك لتشكر الله على ما أولاك إذ من السنة في نفسك أن تنظر في أمور الآخرة من هو أعلى منك لتغبط حاله و تحمل نفسك على ذلك و أما أحوال الدنيا فتتأمل من كان أقل منك لتشكر الله تعالى فتمنوا أحوالك ياذن الله فيستقيم أمرك و ان تعتمد على الله في جميع أحوالك ظاهرا و باطنا و ان تودع من تركته من الأهل و الأخوان و الجيران لله تعالى لأن وديعته لا تضيع و ان لا تذهب من بيتك حتى تقضى جميع ما كان عليك من حقوق الخلق لأن من أكل لأخيه المسلم ظلما دائقا [و هو] سدس الدرهم أعطى فيه يوم القيامة سبعين صلاة مقبولة و قيل سبعمئة صلاة مقبولة فمن ظلمته أخذ من حسناتك و أن لم تكن لك حسنة أخذت من سيئاته لسيئاتك فلا تترك شيئا عليك و ان ظننت أنك غفلت شيئا مما هو عسى أن يكون عليك فاجعل نائبا يتعاهد أمورك و يقضى ما كان عليك كما يقضى ما هو لك على الوصف المتقدم من العلم و عدم التساهل و ان تترك ما يكفى من تجب نفقته عليك فتغسل ظاهرك عند سفرك و باطنك بالوجوه السابقة مع التوبة من كل مخالفة صدرت منك في الماضي لتكون صالحا لدخول حضرته هذا في الحقوق المالية.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٨

و أما الأخرى كهتك الأعراض و غيرها مما لا يتم فلا بد أن يجعلك صاحبها في حل إن كان لا يتغير إن ذكرت له ذلك و عينته و إلا فاطلبه على الجملة إن كان لا يفهم التفضيل و إلا فاطلب له من الله المغفرة و الإحسان إليه و كذلك إن كان ميتا فادع له بالرحمة

ليتولى الله ذلك عنك و ان تختار من مالك الحلال لتتزوج به إن وجدته و أن تزجرا أصحابك عن الجدال و المنازعة عند الماء و النزول بان يصبروا و يتخلفوا فيجدوا ما كتب لهم فالذى يختاره الله للعبد أولى مما يختاره لنفسه و لعل الله ينظر إليه بعين الرحمة دائما أنظر للشيخ عبد الكريم الزواوى على الوغليسيه فانه أجاد فى نصح العبد و أعانته على ما فيه رضاه.

و كذا يصحح توبته و يقيم طريقته ليستقيم الإنسان كما أمر فإذا عزم الإنسان على الحج فلا بد أن يعلم فضله لتنشط نفسه لذلك و يسهل عليه أمر ماله إذ يصعب على النفس مفارقتها و كذا تعب النفس فى السفر و لذا ينبغي له أن يختار زمان البرد لشدة زمان الحر عليها فإذا علمت هذا علمت أن الحج من أفضل الأعمال و أولها عند الله تعالى.

و لذا قال الشيخ خليل فى مناسكه ما نصه ورد فى الصحيحين عنه عليه الصلاة و السلام انه قال من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه و الرفث هو الجماع و قيل الفحش من القول و الفسوق المعاصى و فى الصحيحين عنه عليه الصلاة و السلام انه قال العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما و الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة و المبرور هو الذى يخالطه مأثم و قيل المقبول و قيل ما لين فيه الكلام و أطمع فيه الطعام و مشى فى مناسكه و مشاعره اه.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٩

و قال أيضا ما نصه الفصل الثانى فى آداب السفر فإذا وجب عليك الحج فيجب أن تعرف أحكامه و ما يلزمك فيه لأن الإجماع أنه لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه فأول ذلك يستحب له أن يشاور من يوثق به فى دينه و على من يشيره أن يبذل النصيحة له و يتخلى من الهوى و حظوظ النفس ثم يستخير الله عز و جل و هذه الاستخارة لا تعود إلى نفس الحج لأن الاستخارة فى الواجب و المكروه و المحرم لا- محل لها و إنما تكون الاستخارة هنا هل يشتري أو يكتري و هل يرافق فلانا أم لا و هل يكتري مع فلان أم لا و غير ذلك و هل يسير فى البر أو البحر أو فى هذه السنة أو فى غيرها على القول بالتراخي.

و صفتها يصلى ركعتين من غير الفريضة قال بعضهم فيقرأ فى الأولى بقل يا أيها الكافرون و فى الثانية بقل هو الله أحد و أن قرأ بغيره جاز ثم يقول اللهم إنى أستخيرك بعلمك و استقدرك بقدرتك و أسألك من فضلك العظيم فأنتك تقدر و لا أقدر و تعلم و لا أعلم و أنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن ذهابى إلى الحج فى هذه الحالة و يذكرها خير لى فى دينى و دنيائى و معاشى و عاقبة أمرى و عاجله و آجله فأقدره لى و يسره لى ثم بارك لى فيه و إن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى و دنيائى و معاشى و عاقبة أمرى و عاجله و آجله فأصرفه عنى و اصرفنى عنه و أقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به، ثم ليمض بعد الاستخارة لما انشرح له نفسه و يبدأ بعد تحققه بالعزم بالتوبة من جميع المعاصى ورد التبعات من الديون و الودائع و العوارى و الاستحلال من غيره فان عجز عن الاستحلال من بعض الناس لموته أو لخشيته زيادة الفتنة فليجأ إلى الله تعالى فانه يرجى من كرمه لمن لجأ إليه فى ذلك أن يرضى عنه خصمه يوم القيامة و يستحب له أن يكتب وصيته ثم ينظر فى أمر الزاد و ما ينفقه فيكون من أطيب جهه لأن الحلال يعين على الطاعة و يكل عن المعصية و كان السلف رضى الله

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥٠

عنهم يتركون سبعين بابا [من الحلال خوفا من الحرام].

و لما كان الضمير متعلقا بمن تعلق بالرب الكريم و تاق نفسى إليهم غير أن صلحاء بلدنا لم يتعرض لهم أحد قبل و لا بعد لعدم الاعتناء و ضيق المعيشة أردت التنبيه عليهم على سبيل الإيجاز و الاختصار مع البيان و الاستفسار نعم أذكر ما دون وادى آقبو.

و أما جبل زواوة فهو منفرد و أولياؤه شهرتهم تغنى عن ذكرهم و تعظيمهم يقوم مقام بيانهم و تبيانهم و جميل آثارهم فلم يبق إلا ذكر هؤلاء ليم المقصد الرحمانى و النور الربانى فأقول و على الله أعول.

منهم الولى الصالح و البدر الواضح الذى يستجاب الدعاء عند ذكره و انه ممن يبر الله قسمه و كذا أولاده المنورون يبر الله قسمهم و يقبل دعاءهم سيدى أحمد بن يحيى نفعنا الله به و جعلنا من أهل وده و نسبه يتصل مع نسب أهل عروس من بلد زواوة و هم

مشهورون و كذا فرقة في أتوجه جبل بقرب بجاية و انه من قبيلة مزينة و كان في أواخر القرن التاسع و هو تلميذ ابن غازي هكذا تصفحت أخباره رضى الله عنه و كراماته كثيرة ينبغي للعاقل أن يزوره و يزور من دفن معه فان أكثرهم صلحاء و قد سمعت الفاضلة الصالحة المنورة زوج سيدى محمد بن قزى تقول إنى ذهبت غيبا مع رجال الغيب لقضاء حاجة من أهل التصريف فلما وصلت إلى قبر الشيخ قام معى الشيخ و من دفن معه للاجتماع مع أهل التصريف و كان الذى يتكلم فى ذلك الديوان هو الشيخ سيدى أحمد بن يحيى إلى غير ذلك نفعنا الله به و أما شرفه فإنهم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥١

يقال أنهم شرفاء و الله أعلم.

و كذا أولاد الشيخ أم رزق وجدهم صالح و منهم الشيخ سيدى الوفق صالح زاهد ورع خديم الطلبة و كان ينفق عليهم و هم يشتغلون بالعلم بان يأتى لهم بمدرس و كان محبا لوالدنا وجدنا نعم يحب الجانب العلى أعنى الأشراف بحيث لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا معهم بل أنه مملوك لهم و قد غلب عليه القبض نفعنا الله به و هو تلميذ سيدى على بن الطالب و أوصافه الطيبة و أخلاقه السنية لا تكاد تحصى رضى الله عنه و أرضاه بمنه.

و كذا ابن عمه الفاضل العالم الفقيه الفرضى سيدى على بن أم رزق من أجل أهل وقتنا و أهل عصرنا فقد نفع و انتفع نفعنا الله به. و منهم الشيخ سيدى أمزال قبره فى قرية الجمعة و عليه مسجد و أهل إمتين يعظمونه و هو فى الصمعة نفعنا الله به و أما تاريخ فلا علم لى به و نسبه و الله اعلم من جملة من هو معه غير أنه أقبل على الله فأقبل عليه و هو أظنه قريب.

و منهم الفاضل الكامل المجرد عن الخلق و اعتزلهم طرا بل الذى اعتقده انه اعتزل الخلق و اتصل بالحق و هو فقيه متكلم فقد انفرد فى زماننا بالتسجيل و جودة الخط سيدى أحمد زروق بن الحاج نفعنا الله به و كان صديقا ملاطفا لأبى تخلف عنه ثم بقيت صبحته لنا كذلك إلى أن مات فى مصر بعد رجوعه من الحج و قد سافرنا معه إلى تونس نريد الحج فلم يتيسر لنا و لا له ذلك العام و بقى هو فى زاوية الولى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥٢

الصالح الزاهد فى الدنيا على الإطلاق الكريم كل الكرم سيدى أحمد المجذوب الزمورى و قد دفن فى جبل افريقية عند ولده الفاضل و نخبته الكامل سيدى ابن الحاج إلى العام القابل فحج نفعنا الله به.

و منهم بديمان على ما قيل انه ولى صالح و ضريحه يزار دائما و ظن أهل وطننا أن ممن ذهب إليه تقضى حاجته و ان فيه رجال الغيب حسبما اتفق عليه أهل وطننا و أنى سمعت فى صغرى من بعض الصالحين من أهل السياحة يقولون ذلك حق و صدق.

و من العامة المرابط سعيد بن هارون فأنى سمعت من أبى انه كان يعلم الفجراى طلوعه و هو فى بيته مدة طويلة و كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى و هو صديق له و انه إذا ذهب إلى الخلاء امسك لسانه و قد تخلف فى الحياة بعد موت أبى و صاحبنى مدة و هو رجل كبير السن كبير الشأن و كذا ابن عمه يقرب من سنه و شأنه.

و كذا المرابط على بن درار و هو من شعراء رسول الله صلى الله عليه و سلم و لو كان كلامه بالعربية لكان يكتب بسواد العين لما فيه من العلم اللدننى و قد كان يرى النبى صلى الله عليه و سلم و هو أعمى رضى الله عنه و نفعنا به آمين.

و منهم سيدى على بن جاب الله كان صديقا لأبى و كان رضى الله عنه فى غاية الترقى فى العبادة و الذكر و تهذيب الأخلاق و غير ذلك من أوصافه.

و منهم سيدى يحيى الشريف ابن رقية فى قرية ويزران هاجر من بنى عمه و فر بنفسه من قرابته ليكمل أمره و يظهر سره و هو من شرفاء العش شريف النسب و هو

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥٣

من أهل العلم و الصلاح مجاب الدعوة خديم العلم و أهله من القرن الحادى عشر نفع الله به و بأمثاله جميعنا.

و منهم الشيخ الولى الصالح و الغيث السائح الشريف نسبا كما هو عند ابن فرحون فى طبقات الشرفاء سيدى أحمد بن عبد الرحمن نفعنا الله به و هو من تلامذة الشيخ سيدى يحيى العيدلى و أولاده الآن معلومون بالجور و التعدى و الظلم فى مجانته بتخفيف الجيم أمراء و محاربون و لعل جدهم يشفع فيهم و فينا و هو فى القرن التاسع و ولده هو الذى بنى قلعة بنى عباس و أقام المملكة فيها بان أسس العساكر و جيش الجيوش و أخذ المغرم فى القرن العاشر بان وصلت عساكره عمالة تونس و وادى ريغ فى الصحراء و من جهة المغرب مزاب و بلد الأغواط و هم كذلك فى المملكة ثمانون سنة كما سمعته من بعض الفضلاء من علماء القلعة و آخرهم فى مملكة القلعة سيدى ناصر هو فاضل عالم زاهد و قد قيل انه من زهده يلبس الغرارة شعارا على لحمه و قد رتب طلبه العلم نحو الثمانين طالبا فحسده مناحيس بنى عباس على ذلك فقتلوه مكررا و خديعة فمزق الله جيوشهم و أضل عسكرهم أعنى عسكر بنى عباس فلم يبق فيهم ذلك بل أضلهم الله بسببه و أهلكتهم من أجله و كان بعض علماء فاس يقول فى مرثيته قصيدة رائية و هى عندنا فى عندنا فى الزاوية [فى العقل انه عمر] و يقول فى بنى عباس:

فلعنة الله ثم الخلق قاطبة على المجوس بنى عباس ما ذكروا

أن عاهدوك فقد خانوا على ثقة أو حالفوك فأيقن أنهم فجروا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٥٤

و عدد أوصافهم من الخيانة و الغدر و الخديعة ما يحمل السامع على الفرار منهم و النفرة من ساحتهم إذ هم على تلك الأوصفا إلى الآن بل زادوا ضلالا و مكررا و خديعة فى العهود و قلته الحياء و الهيبة فى الحدود و أولاده على المملكة فى مجانته تحت ولاية الترك غير أن حكمهم عليهم ضعيف نفع الله به جميعنا و أمور أمراء القلعة معلومة عند أهلها و منهم جد أولاد الطالب فانه من أولياء الله الصالحين و لا اعلم من أخباره شيئا إلا أن أولاده فضلاء لا يخلون من العلم و جميعهم فيه البركة نفعنا الله بهم.

و منهم الولى الصالح الربانى سيدى محمد ابركان قبره عند أولاد السيد أحمد بن عبد الرحمن فى الوادى معلوم يزار و يعظم و أولاده أين ما كانوا فى بنى عباس و غيرهم علماء فضلاء أجلاء يقتدى بهم و لهم العلم الصحيح و الصدق الصريح.

و منهم سيدى أحمد زروق المذكور و غيره.

و منهم أولاد تبونداوث فضلاء نجباء فقهاء مفتون و فيهم البركة إذ العلم كله بركة و قد سمعنا أنهم من بجاية نفعنا الله بهم و بأمثالهم و أنهم قضاء من العهد الأول إلى الآن بارك الله فيهم.

و منهم أولاد سيدى عبد الحليم الساكنون فى قرية من قرى بنى عباس فضلاء كرماء علماء صلحاء إلى الآن نفعنا الله بهم و بأمثالهم من ذرية سيدى عبد الحليم.

و منهم شرفاء بوجليل من الزمان الأول هم على الخيرة و البركة القوية و الأنوار

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٥٥

السنية و هم شرفاء نسبا و هم من قرابتنا بان اجتمعنا فى الجد الأول ما نسمعه من أعالي أسلافنا فبركتهم معلومة و برهانهم مشهور و كرمهم مأثور رضى الله عنهم و نفعنا بهم و كان لنا و لهم بمنه و كرمه.

و منهم المعظم بالاتفاق سيدى أحمد بن يوسف الولى على الإطلاق يعتقد العام و الخاص نفعنا الله به و هو فى حنديس قرب الوادى و لا أعلم هذا و أولاده معظمون عند أهل وطنهم و لا يخلو بعضهم من العلم و البركة فى جميعهم رضى الله عنهم و قد سمعنا من بعضهم أن جدهم يقرب من الشيخ المعلوم صاحب الفتح و الخرف الواضح سيدى أحمد بن يوسف المليانى الذى كان حجة الله فى أرضه إلى الآن و الله اعلم.

و منهم سيدى محمد بن محرز قبره بالقلعة ظاهر البركة قوى التعظيم قبره يزار و أهل القلعة يظنون أنه سترهم و الله اعلم.

و منهم أولاد معمر فضلاء علماء صلحاء ذوو بركة عظيمة و نتيجة قوياً نفعنا الله بهم.
[و منهم أولاد أبى جمعة فهم فضلاء صلحاء محل العلم و أهله فقهاء أئمة خطباء نفعنا الله بهم].

و منهم المرابط سليمان و كان صالحاً متعبداً فى زماننا لا نظير له زاهداً معلوم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥٦

البركة رضى الله عنه و نفع به جميعنا آمين.

[و منهم و منهم أولاد أبى ذئب صلحاء علماء ذوو بركة نفعنا الله بهم].

و منهم سيدى سعيد و هو والد سيدى أحمد بن يدى ذو بركة قوياً و من أجلها خرج ولده طيباً صالحاً عالماً فقد انتفع به أهل زمانه
أى انتفاع.

و منهم سيدى سراج ذو بركة عظيمة و رحمة مشهورة معلوم الذكر صيته منتشر فى وطنه كراماته مشهورة و أولاده فضلاء كرماء فقهاء
علماء يقع بهم الخير و الصلاح و النفع و النجاح نفعنا الله بهم.

و منهم أولاد ساسى معلومون بالبركة و الصلاح و الاعتقاد و التعظيم نفعنا الله بهم.

و منهم سيدى أحمد بن على صالح صاحب اتكال ولى معلوم البركة و التعظيم و قبره يزار و انه منور انتفع به العام و الخاص رضى الله
عنه.

و منهم سيدى المسعود قوى البركة ولى صالح أولاده صلحاء فيهم بركة عظيمة نفعنا الله بهم آمين.

و منهم سيدى سليمان ولى صالح كبير الشأن عظيم الحال ولى معظم عند أهل وطنه و قبره يزار و أولاده صلحاء معظمون فضلاء
كرماء رفع الله قدره و نفعنا به آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥٧

و منهم سيدى عمر فى قرية ترق هؤلاء كلهم قرب مجاناً و هو ولى صالح كبير الشأن عظيم فى الأعين أولاده معظمون راغبون فى
العلم و أهله و هم على العهد الأول من القراءة و الأخلاق السنية و الأوصاف الحميدة فأكثر أولاده يتعلمون علينا نفعنا الله بهم و
بأمثالهم.

و منهم الولى الصالح سيدى أبو التقى معلوم البركة قوى النفع معظم عند أهل مجاناً نفعنا الله به.

و منهم سيدى موسى الولى الصالح كبير الأمر عظيم السر أولاده فضلاء معظمون عند أهل مجاناً و أهل جبل عياض و أظن أنه من
القرن التاسع كما وجدته فى بعض الرسوم نفعنا الله به.

و منهم أولاد العياض و من معهم رضى الله عنهم علماء كرماء أدياء فضلاء محبوبون للعلم و أهله و أولاد سيدى أحمد مثلهم فى الفضل
و الصلاح و الشواثرة علماء أيضاً صلحاء لا يخلون من العلم يرثونه خلفاً عن سلف نفعنا الله بهم و بمن كان فى ذلك الجبل.

و منهم سيدى يدى الحاج ولى صالح معظم معتقد فى بنى يعدل أولاده معظمون صلحاء ذوو بركة و خير و نجاح نفعنا الله بهم.

و منهم أولاد سيدى خروف معظمون فيهم العلماء و الصلحاء و القضاة و المفتيون و هم شرفاء على ما اشتهر عندنا من كان فى زمرة
و بنى يعدل نفعنا الله بهم.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥٨

و منهم سيدى سعيد الفطاس ولى معتقد فيه و أولاده ذوو بركة عظيمة و هو من أختيار أهل زمانه و هو من القرن الحادى عشر
[معاصر لسيدى لوهر] نفعنا الله به آمين.

و منهم أهل تعروسين معلومون بالبركة و كذا أولاد ابقورة فهم على كتاب الله عز و جلب و الصلاح سيما سيدى لى فهو شيخ جدى
و قد قيل انه لا يخرج منهم الأولياء و قد انتفع بهم العام و الخاص.

و كذا سيدى أحمد صالح معلوم الولاية و البركة.

و سيدى أحمد أعشاب معلوم الولاية.

و كذا سيدى محمد بن صالح من أولاد سيدى الجودى فقد ظهرت كراماته فى وطنه و غيره و انه مجاب الدعوة نير السيرة قوى البركة نفعنا الله بهم و بأمثالهم.

و منهم الشيخ الفاضل الولي الصالح المعلوم النجاح سيدى محمد بن مصباح ذو العلم المتين و السر المبين و كذا أولاده فضلاء نجباء رضى الله عنهم و أرضاهم سيما من أدركنا سيدى أحمد زروق و سيدى أحمد بن المبارك فقد كان فيهم العلامة الفاضل المحقق الكامل محيى السنن سيدى الحسين نفعنا الله بهم.

و منهم الولي الكامل و العالم الفاضل مقيم السنن و منشئ العلم سيدى محمد بن عبد القادر و أولاده فضلاء علماء أدباء جمعا فاعوا سيما سيدى محمد بن عبد القادر

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٥٩

و ولده سيدى الموهوب فإنهما من فضلاء الوقت يقصدان للفتيا رضى الله عنهم و أرضاهم و نفعنا بهم و بأمثالهم آمين.

و منهم الولي المشهور و الطود المنصور صاحب الزاوية ذو العناية سيدى أحمد اغوبه ظاهر البركة قبره مزار معلوم لدى الخاصة و العامة يقصده الزوار من بعد و له طلبه إلى الآن و روضته بينة نفعنا الله به و أفاض علينا من بحر أنواره آمين و أظنه من القرن السابع كما سمعته من البعض و الله سبحانه اعلم و له كرامات مشهورة و مناقب و قد سمعت من بعض من يوثق به انه يتصرف كما كان حيا فانه يغيث من استغاث به.

و منهم الولي سيدى إبراهيم صالح مشهور عظيم الشأن معظم عند الناس بركاته ظاهرة و نوره قوى و سره صمدانى و أولاده علماء صلحاء من لم يكن منهم عالما كان صالحا نفعنا الله به و بأمثاله و الله اعلم انه كان فى القرن الحادى عشر معاصر السيدى موسى الوغلىسى و لا اعلم انه أخذ من العاشر أم لا و الله اعلم.

و أما أهل ايلمان على ما تقرر من رسم الأشراف انهم شرفاء من شرفاء ايلمان الوانوغى كذا رأيت مزبورا فيها فانه نص على أولاد عنان و هم ايلمان و الحمد لله لا يخلون من أهل الخير رجالا و نساء و ذلك معلوم عندنا فقد شاهدنا ذلك منهم نفعنا الله بهم و ان كان فيهم أهل جراءة و تعدد و قد ورد فى الخبر أن الله ينظر إلى قوم فيهم الصالح نظر رحمة نقلته بالمعنى و أما لفظه و الله اعلم فقد نسيت و الحديث يجوز نقله بالمعنى بشروط انظر الشهاب فى الآيات البينات على المحلى نعم ما وجد منهم مما لا يحل من اجتماعه الرجال و النساء عند الرضى و البكاء و التباكى و الصياح و ذكر

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٠

الشوق من غير اشتياق و العشق من غير عشق و الحب كذلك و غيرها من الزهد فأنها من دسائس اللعين الشيطان الرجيم حرام باتفاق لا يقول أحد بحليته لما فى ذلك من الفتنة و مخالفة السنة و إنما السماع المباح أن يكون مع أهله بشروطه الخالية من المحرمات و مع ذلك أنه دواء للمرضى من أهل الوله و أما غيرهم من أهل البدايات كالمتمكنين فلا يكون و لا ينبغي فى حقهم فهذه الفرقة غير معتبرة عندنا و إنما المعتبر من شد أزار الحزم و العزم للذكر و العبادة و الاعتناء بنفسه و ليس من هذا المجموع و هم موجودون و الحمد لله و قليل ما هم.

و منهم الولي الصالح الفاضل الناجح صاحب البركة قوى النتيجة سيدى يدى بن صالح الجمهورى أصلا و العيدلى مسكنا التمرغراوى مدفنا تلميذ الشيخ سيدى يحيى العيدلى قد دفن معه فى روضته نفعنا الله به فانه معظم غاية التعظيم و حبه ظاهر و أولاده ذوو بركة قوية و خيرهم مشهور و صلاحهم منثور و أمرهم مذكور، فان الناس ينتفعون بهم و يعتقدونهم إلى الآن و لا يخلو البعض منهم عند الوجد الصحيح، و الحب الصريح، فتجده انه يتواجد حقا، و يحب صدقا، و أنهم أهل السماع دائما على كل حال فمن طلبهم وافقوه و

ساعدوه على أى وجه فيه الرجال و النساء غير أن سماعهم فى الغالب أولى من غيرهم و الناس يأمنون شرهم و يعتقدونهم و ان دلائل الشر خالية منهم غالبا إلا من قل منهم و ندر و أنهم لا يفرون من العلم و أهله بخلاف غيرهم فهم أسعد حالا مما سواهم كما شاهدنا ذلك منهم و ان الكل مخالف للسنة النبوية و أنه ليس بشروطه غير أن غيرهم يقصد البعض منهم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦١

التوصل إلى الأغراض الفاسدة و هم و الله اعلم سالمون من تلك المفاسد و ان كان على غير الشروط نفعنا الله بهم حاصله جمعهم لا يخلو عن أهل الخير و البركة تحقيقا و بركة جدهم و شيخه القطب تنوب عليهم.

لطيفة لو أنهم انسلخوا عن ذلك رأسا أولى بهم و أجدر و أنور و أستر و أفقر و أحظ و أشعر و أذكر و أكثر و أشهر و أقدر و أنصر و أعمر و أحذر أو أنهم فعلوه بشروطه مع أهله و من أهله من غير حضور الشبان و النساء و من لا بلاء له بذلك لوصلوا إلى الحضرة القدسية و الأنوار الإلهية نور الله قلوب الجميع ما كدر القلب إلا مخالفة السنة و كون الشيء على غير شروطه و على غير بابه و الله تعالى يقول: وَ اتُّوا التَّبُوتَ مِنْ أَوْبَابِهَا.

و منهم أخوه فى الله و من شيخه الولي الصالح و الفاضل الناصح ذو البركة البينة و الأحوال المزينة و الأمور المستحسنة المجاهد نفسه حق الجهاد سيدى إبراهيم بن عمار و قد قيل انه فى محله المعلوم ما فاتته صلاة الصبح مع شيخه سيدى يحيى صيفا و شتاء و غيرهما اغتناما بركة الشيخ و ان ذلك من خوارق العادة إذ لا يمكن ذلك فى النهار دائما فضلا عن الليل و قد قيل أن الشيطان يصنع النار له لعله يعوقه عن اللحوق به فشر به و لم يلتفت له أصلا و لعنه و استعاذ من شره نفعنا الله به آمين و أولاده أهل بركة و خير وفق الله الكل إلى صالح القول و العمل و حفظ جميعنا من الزيغ و الزلل.

و منهم الولي عند الناس بلا شك و هو كذلك و الله اعلم و قلوبنا تشهد بذلك الشيخ سيدى إبراهيم الساكن فى ناحية حنيف مشهور معلوم أحواله مرضية و نفائسه زكية و لطائفه و هيبه أولاده مشهورون بالصلاح إلى الآن و قد أدركت منهم فضلاء كالفقيه سيدى أبى القاسم محب ذو ود و صدق و كذا أولاد سيدى الحاج نفعنا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٢

الله ببركاتهم و نفعنا بسر جدهم و كذا سيدى عبد الحليم مثله و أظنه من آخر التاسع أو من أوله العاشر.

و منهم من بركاته كالأموج و أحواله كالأبراج الولي ذو البركة الظاهرة و الخوارق الباهرة الشيخ سيدى عيسى بن محمد قد انتفع به العامة و الخاصة و قد رد ببركاته عينا من ماء فطراننا لحيوانه و انه صبغ كل من أتى إليه و قد مسح على عين الأعور فرجعت أحسن مما قبل فقال من لا معرفة له عين عيسى خير من عين الله و لم يعلموا أن الكل من عند الله و غير ذلك من كراماته رضى الله عنه و نفعنا به و حفظنا من كل جبار عنيد بجاههم و جاهه و له قبران قبر فى أطراف و انوعه أعنى المسيلة و الآخر فى فرواو و بينهما نحو اليوم و قد زرتهما معا و الحمد لله.

و منهم الشيخ عمرو الأشهب فان و انوعه يعظمونه غاية التعظيم و أولاده معظمون أيضا و قد بقى منهم الفاضل سيدى الطيب نفعنا الله ببركته آمين.

و منهم أولاد سيدى عمر فى وادى الخميس من هذا العرش و ان جدهم هو المؤلف المعلوم فى الكتب المتداولة أعنى الوانوغى و أولاده فيهم البركة نفعنا الله بهم.

و منهم شرفاء القصبه دار علم و بركة و شجاعة و قد زرت الجميع و الحمد لله سبحانه.

و منهم الولي الصالح و القمر الواضح سيدى على الطيار معظم فى الصحراء و التل و أولاده كذلك إلى الآن سيما الشيخ سيدى محمد بن المبارك و أولاده نفعنا الله بهم آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٣

و من زمورة أولاد أبى شيب و أنهم شرفاء أهل فضل و بركة و قد رأيت فى بعض رسوم الشرفاء و أظنه كلام ابن فرحون أنه قال ما نصه و لا شريف فى زمورة أعنى بنى فرقان إلا طائفة يقال لها أبو شيب نفعنا الله بهم.

و منهم أولاد سيدى أحمد التواتى فضلاء كرماء أهل خير من العهد الأول نفعنا الله تعالى بهم.

و منهم الولى الصالح البركة سيدى عمر العجيسى فان الناس يعظمونه غاية التعظيم و هو جد سيدى أحمد المجذوب و قد رأيت أيضا أن عجيسه شرفاء نفعنا الله به.

و منهم ذو الفضل و الفضائل أخونا فى الله سيدى محمد بن زيان كان رحمه لنفسه و للمؤمنين وضع الله البركة فى أولاده نفعنا الله به.

و منهم أولاد البواب أعنى الزياتنة فإنهم أهل فضل و كرم و قراءة نفعنا الله بهم.

و منهم الشيخ الولى الصالح ذو البركة العظيمة سيدى مبارك السماتى و أولاده على الفضل و الكرم و الهمة نفعنا الله به.

و منهم ظاهر الفضل و النجاح و الصلاح سيدى عمر بن عباسه و أولاده كذلك و ان أصابهم بعض الذل و قد علمت أن درهم المغرم لا يعد له شىء رزقنا الله بركته آمين.

و منه الشيخ الصالح المجذوب الذى فاض عليه بحر الأنوار و طلعت عليه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٤

شمس الأسرار سيدى محمد بن المبارك الشريف من أولاد سيدى أبى زيد و أولاده من لم يكن ذا علم فهو ذو فضل و بركته و مآثره مشهورة من القرن الحادى عشر نفعنا الله بهم و أفاض علينا من بركاتهم.

و منهم سيدى سعيد الموسخ و الولى الصالح سيدى أبو ناب و الشيخ الولى الشهير سيدى عطاء الله هم أولو الفضل و الصلاح و الخير و الفلاح أولادهم أهل فضل نفعنا الله بهم و بأمثالهم آمين.

و منهم الشيخ الزاهد الورع الولى الصالح سيدى على بن أبى زيد كان فى الحادى عشر و قد بلغ الغاية فى العبادة و مجاهدة النفس و قد انعزل بأهله فى الجبل طلبا لخفة الأشغال و تفرغ سوى الله من البال و ذلك شان الصديقين و قد نص العلماء أن آخر الزمان لا يسلم ذو دين بدينه إلا من فر من شاهق لشاهق و أظنه حديثنا و الشيخ استعمله بنفسه و أهله نفعنا الله به آمين.

و منهم ذو الفضل العظيم و الخير العميم الولى المشهور ذو السر المأثور سيدى الجودى العلمى من آخر القرن العاشر و أولاده أهل جد و اجتهاد و صلاح سيما سيدى على ابنه تلميذ الشيخ سلطان العارفين سيدى على بن المبارك ذى السر القوى و النور السننى فأنى رأيت بعض مرآئه من أعجب العجائب تكاد أن تكون مرآئى الثعالبى أو ابن جمرة نفعنا الله بهما و قد رأيت سيدى الجودى نوما فيما مضى و صورته لم تزل عنى إلى الآن و مسكنى من يدى فقال إلى جدك سيدى أحمد الشريف من بنى عشاش إلى قبره فلما وصلناه قال سيدى أحمد الشريف ما دام يبقى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٥

يزيد حرارة كالسمن العتيق أو كلاما هذا معناه نفعنا الله به آمين و بأولاده و لا شك أنهم أحياء عند ربهم لا خوف عليهم و لا هم يحزنون.

و منه الزاهد الورع المتخلى عن الدنيا الذاكر لله كثيرا من الحادى عشر و قد قيل النقط حب البلوط من كل شجرة فى وطن الخميس إلا- أنه ذكر الله عند كل حبة و انه أول أمره كان يؤاجر نفسه و يقتات من ذلك حتى منعه بعض الناس من أداء الصلاة فسلم فى الأجرة و ذهب و لم يرجع ففهم أن الله لم يقمه فى الأسباب و إنما أراد به التجريد عنها و التجريد واجب عند تعذر الأسباب الشرعية أنظر ابن عباد عند قول ابن عطاء الله أرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهرة الخفية و أرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العالية فرجع للتجريد و هو سيدى محمد بن يحيى من أولاد الشيخ سيدى مالك و جده هذا

كان صاحب حال عظيم قيل انه صنع تسعة و تسعين رجلا من جملتهم سيدى موسى الوغليسى و لم يجد أحدا يزيدة فزاد شجرة الزان و الله اعلم و معنى صبغها محتمل يحتمل أن الله جعل فيها إدراكا كما جعلها فى الذى نطق للنبي صلى الله عليه و سلم حتى ذقت حلاوة الإيمان و شهدت مشاهد الخير و البركة ثم تصير بركة للناس بعده [و يحتمل] أنها محل بركة إلى يوم الساعة فتصير آثارها لغيرها من العقلاء رحمة لأهل بلدة و من يمر عليها و سيدى محمد هذا مجاب الدعوة و هو فى جبل بنى يعلى ضريحه مشهور يزار و من أراد قصم عدوه الظالم فيسأل الله بجاهه عند ضريحه و قد جربت ذلك مرارا فوجدته كذلك أحيا قلوبنا الله بجاهه آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٦

و منهم الشيخ العارف بالله تعالى الزاهد فى الدنيا رأسا المتخلى عنها نفسا سيدى محمد بن قرى و قد اعتزل بأهله و سكن القلعة فى غيضة عظيمة لا يسكنها إلا الوحوش لعدم الماء فيها و مع ذلك انه بنى دوره فى الأوعار من الجبل مع بعدها من الوادى إلى رأس الجبل و بنى فيها مساجد بفضل الله سيما الجامع الكبير فقد بناه بناء معتبرا إلا إذا كان مثله فى تونس و أشار رحمه الله إلى أنها تصير مدينة قاهرة آخر الزمان و قد تحمل المشاق العظيمة فى مجاهدة نفسه و أهله و أولاده و أصحابه و كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى طريقه صعب لا يسلكه إلا من نبذ نفسه وراء ظهره و قد أدركته صغير و قد سمعت من بعض الناس أنه قرأ على شمروش الطيار من الجن و هو قرأ على رسول الله صلى الله عليه و سلم بأن أحياه الله أحد عشر قرنا و كذلك قرأ عليه الشيخ سيدى أحمد الحبيب صاحب السر العظيم و الصراط المستقيم الفملالى و كذلك الشيخ البقال المصرى و قد سمعت أنه يصلى كل جمعة فى جامع الزيتونة فى تونس فلما مات قال مجاوره أظن أن الشيخ توفى لما لم يعمر محله و كان الأمر كذلك و الله اعلم و زوجته كذلك و قد سمعت منها أنها كانت تنازع الشيخ فى بعض الأمور عند رجال الغيب و نصها أنها قالت أنا أريد أطعام الطعام و الشيخ يمتنع ليس بخلا [بل] لما فى ذلك من كثرة الخلق و هو يريد السلامة منهم و الفرار من أجلهم قالت ذات ليلة و الشيخ بات عند بعض الناس خارج القلعة فذهبت إلى المسجد الكبير فصحت برجال الغيب فأتونى من مصر ثم ناديت برجال المغرب فجاؤا من فاس أعنى أشياخ زوجها قالت و ناديت رجال الصحراء فأتونى كالجراد و ناديت رجال بجاية فأتونى سيدى أبو القاسم الذى فى قراية و غيره من رجال بجاية فلما استقر

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٧

الجمع و التفت البصر و السمع لم أجد الشيخ يمتنع أو يتبع ثم أن بعض الحاضرين قال إن أردت أن يحضر الشيخ فنادى بأهل الجزعة و هم سبعة و هو واحد منهم قالت فناديت بذلك فحضر ساعثنذ فقال ما شأنك بهذا الجمع و أنت امرأة فقلت له منعك من غيرهم و أما هؤلاء فلا ثم قام واحد من هؤلاء الجموع و أتى بجمرة تضطرم نارا أى اضطرام فى إحدى يديه و خبزة فى يده الأخرى يقول لى أطعمى هذه و لو جلست على هذه فقلت لا و الله ما يرضاه بى زوجى ثم بعد ذلك زجروه و أمره بموافقتى فوافق و ساعدنى بعد و تفرق الجمع الخ الحكاية رضى الله عنهما و أولاده ذكور و أناث ظهرت عليهم آثار الأسرار و شوارق الأنوار سيما الولى كآبىه ذو الصدق و الوفاء و الحلم و النصيحة و الصفاء المتواضع لكل الخلق و قد حاز فى كل خير السبق سيدى بركات و قد شاهدنا منه ما لا يمكن التعبير عنه نفعنا الله به و جعل البركة فى أولاده و أظهر عليهم آثار الفضل بمنه و كرمه و قد حج من لا نظير له أصلا فى زماننا سيدى عبد الرحمن ولده.

و أما سيدى محمد السعيد فضله عن أهل وطننا و كذا علمه و صدقه لا يخفى و قد زوجنى سيدى بركات بنته كما زوج أبو بكر رضى الله عنه بنته النبى صلى الله عليه و سلم عائشة رضى الله عنها من غير كلفة و لا مشقة و قبر الشيخ معلوم فى القلعة.

و أما ضريح ابنه سيدى بركات فهو مع ضريح سيدى محمد بن يحيى السابق و كذا قبور الفضلاء الصالحاء أولاد قرى و من أولياء الله سيدى عبد الرحمن و سيدى التواتى و الأستاذ السبعى سيدى الحسين و سيدى أبو عبد الله و كذا جميع أولادهم على الخير و البركة فى كل سكون و حركة نفعنا الله بهم.

و منهم الشيخ سيدى عمر بن موسى فانه ولى من أولياء الله تعالى و قبره مشهور

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٨

يزار و أولاده على الخير و البركة و العلم و الصلاح و الفلاح و من بركاته أن أهل محله يقسمون به صغيرا و كبيرا و ان قريته و الله اعلم ما وصلت إلى خراب فى الظاهر و هلاك إلا شفعتها فقد سمعت أن الولي رحمه الله فى قومه ما دام يعظمونه و يبجلونه مع مراعاة أولاده أن كانوا على وفق العلم قال تعالى و كان أبوهما صالحا قيل الجد التاسع و لا أعلم تاريخ وفاته رحمه الله و نفعنا به و بأمثاله. و منهم سيدى سعيد بن شتوان أدركناه أستاذا فى القرآن مشتغلا بالله مقبلا عليه مع تعليم القرآن و قد ورد فيه الخير الكثير و أولاده على الخير و البركة رضى الله عنهم و نفعنا بهم.

و منهم شرفاء تمنقش من أخيار الناس و ليس أحد يذم منهم بل كلهم أو جلهم على الخير و الاستقامة بحسب الزمان و أهله و أصلهم و الله اعلم من الرابطة و أهل الرابطة ذوو فضل و خير و همة و صلاح و كرم و علم و قرآن و حياء سيما الشيخ سيدى السعدى و غيره منهم نفعنا الله بالجميع بمنه و كرمه.

و منهم سيدى سعيد الزيتونى فانه ولى كبير و أمره عظيم و حاله جسيم و أولاده كذلك ذوو علم و حلم و فضل خصوصا سيدى سليمان و كان حبيبا لنا و أولاده و سيدى الحسين و ولداه الفاضلان الكاملان سيدى محمد و ابوة و قد رأى البعض النبى صلى الله عليه و سلم قال فسألته عن الأشراف فأجبنى بقوله الزيتانة و لا أدري زاد و ما نسبهما أم لا و لا أدري تاريخ سيدى سعيد و أظنه من أواخر التاسع أو أول العاشر نفعنا الله به و بأمثاله آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٦٩

و منهم الولي المعلوم ذو البركة العظيمة و الخيرات الجسمية سيدى إسماعيل الفملانى و كذا أولاده فهم على الخير و البركة و العلم و الفضل و الرحمة نفعنا الله بجميعهم و لا اعلم تاريخ وفاته و قد سألت البعض عنه فقال من القرن السابع غير أنى لم أثق به. و منهم أولاد محجوبة فهم أهل الخير و الفضل و القرآن و العلم و الحلم سيما والد سيدى على بن محجوبة و كذا سيدى على و ولداه الفاضلان الكاملان سيدى عبد الله و سيدى محمد السعيد و قد حضرت مع سيدى الحسن بن مصباح أن سيدى محمد السعيد طار فى الهواء ساعة زمانية مع جماعة من أهل الخير أدركنا الله من بركاتهم بمنه و كرمه و كذا سيدى على بن محروش و ولده و كذا شيخنا الذى هو ظاهر الصلاح و الخير و النجاح سيدى يحيى اليعلاوى فى قسطنطينية و قد شهدت منه أمرا عظيما من الكشبي غير مرة و جدهم هو الولي الصالح سيدى الحاج عيسى و لا أدري تاريخ نفعنا الله بجميعهم آمين.

و منهم سيدى سليمان الحربلى فانه ولى من أولياء الله تعالى و هو واسع المعنى رحب البناء عند أهل حربيل و أولاده كذلك أهل فضل و خير نفعنا الله بهم آمين.

و منهم الأخيار و السادات الأبرار ساداتنا زواوة و هم أهل سداد و صواب و خدمة رب الأرباب أولو فضل و علم و أدب و حلم أنوارهم ساطعة و أحوالهم مرتفعة و ضمائرهم خاشعة و نفوسهم لله خاضعة جملة و تفضيلا و علمهم على الخير من الله تفضيلا و نسبهم على ما اشتهر لديهم و كذا الشواثرة إلى الولي الصالح سيدى يحيى أبى زكرياء الزواوى الذى ببجاية مدفون ضريحه الدعاء عنده مستجاب

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٧٠

و الناس فى أنسابهم مصدقون حسبما صرح به الأجهورى بضم الهمزة و غيره إذ الأنساب كالحيازة فى الأموال انظره. و قد قلت:

سريرة الجسد تحق فى الولدو نوره حقا عليه يعتمد

فخيرة الخلق من أصل طيب شذا معطرا أنى من أعجب

و حسن أخلاق كذا قد ينتخب و أمره غريب ليس يحتجب
نفعنا الله بجمعهم آمين.

و منهم المحيي لما درس من حق قد بخس المحاسب منه كل نفس و أعلى حقا ما قد رخس و أعلى طريقا أنس الشيخ على الحقيقة
شيخ الطريقة ولايته ظاهرة و أحواله فاخرة و أسرارته بينة و أنواره قدسية سيدى الجودى بن الحاج كراماته و أحواله مشهورة و علومه
منشورة و قد بلغ رحمه الله عليه حالة التريية إذ سمعنا أن طالبا كان يتعلم عليه ذات يوم غلبته نفسه فتبعها فى غير شىء بان شوغف
بامرأة أجنبية و تعلق بها و أراد الزنى بها و حين وقعت المعصية بحيث أراد مباشرتها فوجد الشيخ بينه و بينها فاستحى و أصابته حشمة
عظيمة و لم يرجع بعد ذلك له نحو خمسة عشر يوما حتى بعث إليه رضى الله عنه و قد سمعت من الميرز العدل الصالح من أهل
الفضل المرابط سعيد بن تقرين يحكى عن أبيه أو عن جده عن الشيخ سيدى الجودى أنه سرق لبعض أحبابه سرقة و لم يعلم بها إلا
الله تعالى فوَقعت الشكوى من أربابها له فبعث لكل من أتهم بها و كنت فى جملتهم نعم لما وصلنا إليه أمرنا بردها و وعدنا بالخير
العظيم و الفضل الجسيم على ذلك فأبى الكل عنه و كنت السارق فلما انفصل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٧١

الجمع عنه مسكنى و قال أنت الذى سرت ردها فما تريده فأنا متكفل به فقلت له نعم أنا على ما تريده فرددتها ثم قال لى كلما وقعت
بك شدة فاستغث بى فأنا أغيثك أين ما كنت و بعد ذلك ذهبت إلى الجزائر أريد المعيشة و تحصيل أسبابها فركبت فى السفينة مع
من يحارب النصارى فأسر جميعنا فوَقعت عند رومى لا حلم و لا شفاعة له أصلا و صار يعذبنى تعذيبا شديدا فلما كان ذات ليلة
خرجت هاربا إلى شاطئ البحر مختفيا فى الشجر فلما علموا بأمر صار الصياح و النداء و رانى إلى أن وصل الجمع إلى محلى غير أنى
حجبنى الله عنهم بعد أن وصل كلبهم إلى يبصص بى ثم يرجع إليهم غير أنى معتمد على الشيخ و مستغث به فرجعوا خائنين و بقيت
أنا ثم ملتجئا إلى الله ثم إلى الشيخ فمرت على سنة و إذا بالشيخ يقول مد يدك إلى فمددت يدي إليه فمسكها و رفعت فاستيقظت
فوجدت نفسى فى الجزائر و غير ذلك من الكرامات رضى الله عنه و نفعنا بعلومه و أحواله و أنواره بمنه و كرمه و أولاده إلى الآن
على الخير و الفضل و العلم و الحمد لله تعالى و هو من القرن الحادى عشر أعنى لوله لوم أدر هل أخذ من آخر العاشر أم لا و قد
حشى على الصغرى حاشية لطيفة و كلامه رأيت لا بأس به لأنه محقق فى عصره.

و منهم سيدى عمر الواصلى رجل من الأكابر و صلاحه و ولايته معلومة فى الضمائر فان أهل وطنه بنى سليمان يعظمونه غاية التعظيم و
أولاده على الخير خصوصا الأجل المنير ذو الخير الشهير سيدى الموهوب كبير السر عظيم الشأن و الحمد له حبيب لنا نفعنا الله بهم
آمين.

و منهم سيدى عمر الخلادى شيخ معظم و ولى معتقد فيه أولاده على الخير و الحمد لله تعالى نفعنا الله به.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٧٢

و منهم الولى الصالح و النجم الواضح سيدى على بن سليمان البرباشى معظما عند أهله و محترما عند أهل وطنه قبره يزار و أولاده
فيهم و الحمد لله العلم و الصلاح و خدمة الخير و أهله و محبة العلم و ذويه سيما سيدى على بن الصالح و كان حبيبا لجدى و لوالدى
و هو قد ظهرت أنواره و قويت أسرارته و علمه و فضله ظاهرا قد درس و أسس و علم و أنس نبراس زمانه و عبقرى أوانه و ليث
مكانه و كذا سيدى عبد الله تفقه على جدى الحسين الشريف و اغتنم منه البركة و العلم يحكى ذلك الوالد عنه و كذا أخوه سيدى
الموهوب بن على بن سليمان و أولادهم على الخير و البركة و الحمد لله نفعنا الله بهم آمين.

و منهم سيدى زيان صالح زمانه و ولى أوانه و أولاده كذلك نفعنا الله به.

و منهم السادات الأفاضل و الأخيار الأكامل أولاد سيدى بهلول القائمين بالحق الظاهرين على قدم الصدق و السالكين سبيل الجد و
الرفق و هم شرفاء خصوصا سيدى على و سيدى المهدي و من نحا نحوهما على أن أولادهم إلى الآن على ما يحسن فلم تسكن نفسى

لأحد مثلهم لفضلهم وجودهم وحيائهم و أحسانهم و علمهم بقدر من له القدر زادهم الله رفعة و تعظيما و مهابة نفعنا الله بهم أجمعين آمين.

و منهم ذو العلم و المهابة، و الحلم و الأنابة، و السطوة و الاستجابة، و التحقيق و الإصابة، ذو العلوم الفاخرة، و الأحوال الصادقة الظاهرة، و الأنوار الباهرة، و الأسرار الحاضرة، الزاهد بالتحقيق، بعد التمكين من الدنيا كما يليق، قد نبذها وراء الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٧٣

ظهره، دفعا لنفعه و ضره، عند جميع الأفاضل مرغوب، الولي الكامل سيدى الموهوب، نجل الشيخ القدوة و الدرّة الثمينه سيدى محمد بن على اليعدلى كراماته ظاهرة، و دعواته قاهرة، و أسراره ليست مستتره، مكنه الله فتمكن، و بذكره قد أطمأن، قلت فيه و فى أمثاله.

شمس النهار أشرفت بضرتها عند الظلام منجل من نورها

ففجرها أحيانا ما كان قد يبس من ريح أهل جراه بل من نفس

أحسن جوهر من المعالى قد رصعن وطننا فى الجبال

قد أقبل المآل بالسعود من طلعة الغر على الوفود

و كل ظلم قد جرى من العجم على ذوى الشرف و الخير إلا تم

أزاله بحق من حلاه بحلية من عزه علاه

و كل ما أتاه من أوساخ فرقه إذا بلا تراخ

من غير أن يقبض شيئا أبدأ نفسه و أهله معتمدا

على الذى من رزقه قد انقسم على العباد ليس ضيزى فى القسم

إذ حلمه قد عم أهل مصره و بره مدخر لوقته

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٧٤ فدهره يثنى عليه باتفاق و حاله و سيره بالارتفاق

هذا و ان صيته قد أرتفع و رسمت أحواله لتتبع

و أمم حقا أروعوت لأمره و افتقرت إذ ذاك فه بسره

مدرس الفنون فى المقام كذا القرآن أضحى للأنام

محل سر و انتفاع بالدوام قواعد العلوم تقرا بالتمام

على قانون العلم من غير اختلاطو لا التباس و انتقاص باغتباط

تأتيه الافواج من كل بر لأمر اضطروها لضر

أصابهم جائحة فقدان لرفع معضلات عن أخوان

محلله كالمصر للحجاج و علمه أجلى بلا احتياج

كالنحو و التفسير مع علم الحديث و لغة و أدب ليس الخبيث

منتفعا بها كل انتفاع بصيرة عمياء باقتطاع

أولاده حقا عليهم ما أبدى من علوم و أطعام و ما أرتدى

به من التقوى و حسن الزادو أبحاث العلوم فى ازدياد

هذا و ان بحرا فيه مستقر من العلوم و الأسرار يعتبر

شريعة حقيقة مع العمل فخشية و خضوع منه أقل

حال الهوى عن قلبه قد انقشع عن سره كل السوا منه اندفع

و كله بربه قد انخضع و حبه بقلبه قد انصدع
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٧٥ و أنوار العلوم منه تشرق و أبحاث التحقيق منه تبرق
مدده قد مده الإله و حلاه بسره مولاه
قد شهدت بقربه حيتان من ربه اسمعها الرحمان
صديقه إبراهيم صوان ديدانه من ربه القرآن
هو الذى يجذب مع ملائكتك شمس العوالم سرا و ذلك
ليس غريبا أبدا على الحبيب لربه و قربه من الرقيب
قد انبان بانه لا يقفن عن قبره شقى حقا و يا من
و هو الذى يقرأ فى الكتاب فى مسجد الشيخ المتقى الأواب
بجايه قد اسعدت بسره و انتشرت أنواره بقبره
مدفته يقرب من أبني على أبى حميد الصغير المسيلي
كتابه النبراس و التذكيره و أمره و حاله شهيره
فعند قبره الدعاء يستجاب مدده يحظى به من قد أناب
الغبرينى فى عنوان الدراية نص عليه و خذ العناية
أحيا علوما من علوم الدين فى وقته بالجد و التبيين
بلمحه يصبغ كل من أتى بنيه خالصة مستتبنا
قد كان يا أخى إذا من البله أحوال دنياه لها لم ينتبه
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٧٦ هذا الذى تعلق القلب به باحمد عبد العظيم ينتهى
لحبه النظم أتى مرتجالسنه و قرآن ممتثلا
فارضنا قد اخضرت بعلمه و كل صعب لين بحلمه
أرواحنا قد حيتت بوابل من غيئه قد عمنا بحلل
من أزهار و أنوار من العلوم فمن سقاه شربه بها يقوم
بأنواع من المواهب عجب فى حضرة قدسية قد انسب
لنصح من أتاه حقا قاصدا يعلو به منازل و زائدا
بأسماء و صفات من ربه لسالك يسعى به لحزبه
و خمرة قد شاع فى الأقطار سلافة من كأس ذى الأسرار
فنظرة مسكرة على الدوام شاربها عن حسد من الهوام
خردلة من الهوى تنفعه كذاك ضره و ما يدفعه
فمثله أمان العباد كذا بسد ثلمة الفساد
بجاهه حققنا رب بالهدى مع الرضى مفوضا معتمدا
و أسلك بنا بجاهه كل نمظن طرق الحق بعلم يغتبط
بقربه يا رب زوّل الحجاب عن الضمائر بحب و أرتقاب
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٧٧ و كلنا برحمة مع عافيه و زد لنا تصفية و توفيه

وجد لنا بالعفو والغفران و جنة الخلد مع الرضوان
و أمح لنا جرائمنا قد سبقت بتوبه صادقه منك أتت
في حضرة القدس مع البنين و أسعد بناتنا و من يلينا
إلى انتقال و ارتحال يا فتى عجل لنا توسعه مما أتى
من خيره الدارين و السعادة كذا التوفيق مع الاستفادة
و اجعل لنا ودا من العبادو الخبر و الورق بالازدياد
و كف عنا يد عدو بالدوام من كل جبار عنيد بالسلام
أنت الذى تكفنا من الأذى و أقصمه يا رب عند العزم إذا
أرادنا بسوء فعل منك ردفي نحره كيده قهرا بالأشد

ما رماه و نراه قاصداو رده ذلا بعدا ما أعتدى الرحلة الورثيلائية، ج ١، ص: ٧٨ دعا يعم الوالدين و الأزواج و منتم لنا من الأفواج
من قريب و محسن كذا المحب و اشياخ و أخوان و مرتقب
بأمثال المزبور فيما قد سبق و آخذ و طالب و من صدق
فى حبا و ودنا من العبادو كن لنا بجمع شمل و اجتهاد
فى العلم بالجد و التمكين لنفع مسلم و دفع رين
و شر ذى شر على الإطلاق و الختم بالحسنى مع ارتفاق
نبينا و ذخرننا يوم الحساب بجاهه حقق لا عين انتساب
ثم الصلاة و السلام دائما على الرسول صادقا معظما
و آله و صحبه ذوى التقى و المجد و الفخر و كل منتقى
و بالجملة فقد تشرف مقام الشيخ سيدى الموهوب بإشراق حضرة الولى سيدى أحمد بن عبد العظيم أشراقا تاما، و طلوع نجم السعود
فيه طلوعا عاما، و كذا بأولاده سيما ذو المجد الأنيف، و الفاضل الشريف، و هو من النوادر سيدى عبد القادر رحمه الله تعالى و رضى
عنه و فيه قلت

و معه الحبر الهمام فى الوغى مكافحا مناضلا و قد بغى
على المعالى كلها أو جلهاملتقطا لدرر من أصلها
قد حازها بسيفه منعطفالهمم الأمور غدا و اقتفى

الرحلة الورثيلائية، ج ١، ص: ٧٩ من أرجاء الملك مع السياسه و فر بالنفس عن الرياسة
و حظه جواهر مع الأدب و علمه نار القرى كذا الحساب
و عبد قادر تسمى فى الورى و جوده و خيره بلا امترا
فقد عما عصرهما ككوثر و ظل عز منهما كشجر
من شجر الضخم و ذى الأوراق لعابر ذى حاجة إطلاق

هذا و أن فضل الله عظيم، و بره عميم، و أولاد الشيخ سيدى الموهوب فيهم الخير و العلم و الأدب خصوصا سيدى عبد الله نجل
الشيخ سيدى عبد القادر المذكور و سيدى عبد الله بن محيى الدين و تلميذنا سيدى عبد القادر بن أحمد و كذا غيرهم.
و منهم من أشرق بالكرم و الجود، فى سماء السعود، بحر السخاء من الودود، سيدى المسعود، و فيه قلت:
مدده قد يغنى كل من سأل وجوده قد عم قطرا و اشتمل

على كل من المعالي و استقل بسجيه عن غيره بها احتفل

خدانه بسيرة حميده قد أخبرت عنه بها سديدة

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٠ لا عيب فيه أبدا سوى السخى لقاصد من عدو موبخا

السنة من عصره متفقه على الثنا بحمله معتبه

فحله الرب من المعارف تمده مدا بلا تخالف

أعنى الذى فى عهدنا محمدا فلم يبعد عن مثلهم مستمدا

مقتبسا من أمور قد سبقت من أجداد له بما قد صدعت

من خدمة العلم و أهل الأدب ذويهما بكل ما قد اكتسب

فحظه من كلهم لم يختلف نصيبه من مجدهم لم ينحرف

فأولاد الشيخ على الإطلاق لم يعدوا الكل من السباق الرحلة الورثيانية؛ ج ١؛ ص ٨١ الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨١ و أصلح الكل

بحق المصطفى و صاحب و تابع ممن صفا

ثم صلاة الله مع سلام على رسول رحمة الأنام

محمد أفضل كل من أتى من رسول و نبي مثبثا

و كذا الفاضل المحسن و الحلیم ذو المعروف و المآثر ظهري و ذخرى سيدى الموهوب بن محمد لا يأتى الزمان مثله و فيه قلت:

فانه يحاكي أبريز الذهب و البحر من فنونه قد ارتقب

فعزه مبجل ممن أحل فى قطره ممن علا و من سفل

قدس الله ضريحه، و عطر ناشداه و ريحه، و أما قرابة سيدى أحمد بن عبد العظيم فهم على الخير و الحمد لله جعلنا الله فى زمريهم

آمين يا رب العالمين.

و منهم شيخ والدنا الفاضل النحوى اللغوى المحدث المفسر الأديب الفقيه الجامع بين المعقول و المنقول الولي الصالح و البرهان

الواضح ذو الأحوال الفاخرة شيخ شيوخنا المعرب الغربى سيدى محمد العربى المتوطن فى جبل سيدى الموهوب و قد أسعد الله

باستقراره كل الأماكن من وطننا و تأنسوا به أى تأنيس فى زماننا و كان إذا أحل يقوم نزلت عليهم الرحمة و السكينة و كيف لا و هو

بحر الله فى عالمنا و غيث بلدنا و رحمة لمن كان عندنا و علمه مبذول عند من سبقت له السعادة و الحمد لله و قد تعلمت الألفية على

تلميذه العلامة الفاضل سيدى على بن أحمد و طريقه ناصرية شاذلية و كان رضى الله عنه يفجئ الغمة على من وقع عليه فى العلم و

غيره رضى الله

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٢

عنه و كذا سيدى عبد الملك و ان لم يكن مثله فى العلم غير انه ذو فضل قوى و فى سيدى محمد هذا قلت:

بحر الندى و العلم من شيخ برزشيخ الحقيقة لدينا مكتنز

وجوده كعلمه فيما دنامن قطرنا على الذين به اغتنى

نار القرى فى علوم لم تسترو شمس مشرقه على الدرر

و أنه طود فى كل من علوم و رحمة على الذى به يؤم

و الله ان نعمة قد أهديت من الرحيم عاجلا لمن أتت

بدرا إذا رأته يا من قصد زيارة أو سلوكا لمن أراد

إن مات قلب قسوة أحياء فى لحظة من وقت و منه قد شفى

و بالجمله فالله يتداركنا بفضلته وجوده و إحسانه توفي في هذا القرن الذي نحن فيه و أما سيدى الموهوب فانه من القرن الحادى عشر و سيدى أحمد بن عبد العظيم بعد الشيخ سيدى الموهوب. و قرية أمولة جامعة لأهل الخير و الفضل و العلم نفعنا الله بهم آمين. و منهم الولى الصالح سيدى عمر القمونى و أهل محله يعظمونه و يعتقدونه غاية التعظيم و لا أدرى تاريخ نفعنا الله به آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٣

و منهم الولى الصالح و القمر الواضح له بركات ظاهرة و أحواله باهرة و أسراره مشتهرة سيدى الصادق ضريحه فى الوادى معلوم يزار و هو من القرن العاشر أعنى أواخره و لا أدرى هل بلغ الحادى عشر أم لا و أولاده رضى الله عنه بدور أهله و أعلام أجله كالفاضل الولى و الصالح الولى و الفقيه العلى سيدى يحيى بن الموهوب و مثله فى الفضل سيدى محمد الموهوب و سيدى التوانى الفقيه سيدى يحيى بن الواثق و هو فى غاية الفقه تلميذ جدنا و قد سمعت منه أنه رأى الشيخ خليل فى النوم و أخذ بيده إلى أن وصل إلى الصندوق المملوء بالكتب قال فأخذ منه كتابا و أعطاه لى فوجدته الشيخ بهرام فعلمت أنه أذن لى فى مختصر الشيخ خليل ففتح الله على بما لم يفتح على غيرى و قد أخبرنى عمى سيدى محمد الصغير إذ هو علامة زماننا أنه كان يتعلم عليه المختصر و كان يقرئ من الأجهورى و أنا و بعض الطلبة أعنى سيدى محمد بن باب الملقب بالأوجه [و هو فاضل محقق أيضا و أولاده] فى أيدينا الشيخ عبد الباقى و الشيخ إبراهيم فكان قدس الله ضريحه يحمل الشيخ المذكور و يهذه و يحرره بان يترك المكرر منه كالشيخين بعده سواء بسواء إلا فى عين اللفظ و مآثر سيدى الصادق و أولاده كثيرة و قلت فيهم:

يا أيها الإنسان فاعلم قدرهم لأنهم سبحانه مع غيبتهم
قد اخضرت أشجار أهل العصور أثمرت فواكهها بتمر
فهم كحصن مانع يلوذ من له الجناية بحق أو ضمن
رحمتهم تعم كل بلدو سرهم من سر فضل أحمد
قد سكروا بحبه و قربه فمنحوا من عزه و حلمه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٤ فاسكنوا قلوبهم دار الوصول بجذبة الإله صرفا بالحلول
فى جمع الجمع بالتجريد و سيفهم للقهر بالتهديد
بحليه الإله قد جملهم و شرحة الصدر فقد زينهم
فأنهم على الهدى من ربهم أيدهم قدسهم عرفهم
يا لله رب عصمة منك لناهداية أمانة لمن دنا
بجمله الأشياخ و الأباء و أزواج و النسل بالسراء
و آخذ العهد و كل طالب ترزقنا عافية يا غالب
مع التجلى دائما على القلوب بركة معرفة لمن ينوب
من أحباب و جيران مع الخدام و كل ذا لنسلنا على التمام
ثم الصلاة و السلام كالمطر على النبى دائما كمن حضر
نفعنا الله بهم آمين.

و منهم محبى الفنون و مجدد العلم و الدين، بعد إندراسه على التعيين، المتصف بعلم اليقين، اتقى المتقين، بل انه شرب من عين اليقين، حتى صار من أهل التمكين،

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٥

علامة زمانه، و قدوة أوانه، بركة الأوائل، قد زحلق و آخر لقابل، لحكمة ربانية يعلمها مرسل صاحب الشمائل، الولى الواضح سيدى

محمد صالح كاد أن يجدد الدين في وقته و علمه مشهور و فضله منشور توفي في القرن الحادى عشر ضريحه معلوم يزار في قرية اجلميم من عرش بنى اجمات من عرشنا بنى ورثيلان و هو في غاية الصدق و الوفا، و عن كل مشتبه أو شبهة قد حفا ، رحمه الله و قدس ضريحه، و أفاض علينا خيره و ربحه، و نور قلوبنا و قلوب أولادنا باليقين و التمكين، و حلانا بحلية المتقين، في كل تحريك و تسكين، و هذا الشيخ كان مدرسا للعلم قائما بأمر الطلبة بنفسه مع قلة ذات يده و يهاجر من كل بلدة لا تأخذهم الأحكام إليه و قيل ليس على الأحكام الشرعية إلا- جيرانه بنو اجمات من بلدنا فقد أنتقل من قرية بيكنى و سكن متين من بنى عيادل و كانوا يمنعون الميراث أيضا فأمرهم بإعطائه و حرصهم على ذلك فلما رأهم امتنعوا و توانوا و رأى هجرته واجبة و علم منهم انه إن انتقل بحضرتهم يمنعون فتركهم إلى أن ذهبوا إلى الزيتون زمانه بحيث لا- يبقى أحد في العمارة إلا الضيف أو كبير السن فلما آن زمانه و حان وقته ذهبوا إليه فرفع زوجه و شئونه فوق النداء من العمارة و الصباح ليجمعوا على الشيخ إذ لا قدرة لهم على فراقه فتسابقوا إليه من كل فج عميق ليمسكوه فلما أحووا على رجوعه و أقامته معهم حلف أن لا يرجع إليهم إلا بالرجوع إلى الأحكام الشرعية و قد علم الله صدقه في ذلك فامثلوا أمره بجد و صدق فرجع فيهم على الأحكام الشرعية إلى الآن و الحمد لله تعالى على ذلك و قد تحقق له الحديث فله أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

لطيفة أقول إنما هاجر رحمه الله و قدس روحه لما علم عظيم عصيانهم و كبير جرمهم إذ بعض المواضع سالمة من ذلك و قد ورد عنه صلى الله عليه و سلم انه قال

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٦

من قطع ميراث مسلم قطع الله ميراثه من الجنة ذكره ابن مرزوق في شرحه لفرائض خليل فإذا علمت هذا علمت انتقال الشيخ لوجوبه عليه و قد نص علماؤنا رحمه الله عليهم أن المعاصى إذا كثرت في موضع و قلت في آخر فيجب على العبد أن ينتقل لمحل قل فيه ذلك. و أما عند عموم الشر فلا بل يلزم مكانه و يكون جلسا من احلاس بيته إذ رب موضع انتقل إليه أكثر مما انتقل عنه فيرجع إلى الذى انتقل منه فيجده قد تغير أيضا ثم يرجع إلى الذى انتقل منه فيصير كحمار الرحى فالموضع الذى انتقل منه هو الذى يعود إليه ذكر هذا صاحب المدخل و الشيخ هذا الذى حمله فان قلت لو كان الشيخ هذا قصده لانتقل إلى الجزائر أو قسنطينة أو تونس لأن هذه الأوطان سالمة من ذلك قلت حب الوطن من الإيمان كما روى عنه صلى الله عليه و سلم و لعله يتيسر له ذلك في بعض وطنه و السنة حب الوطن و قد يسر الله له ذلك و الحمد لله و قد سكن مواضع عديدة و لعله يجد موضعا تتيسر له فيه العبادة و من جملة ذلك صحة المعاملات و بفسادها يتكدر الوقت خصوصا على ما ذكره الشيخ زروق أن المعقود عليه يحرم بحرمه العقد و المذهب خلافه فالمعقود عليه لا يحرم بفساد العقد.

انعطاف نعم أولاده على طريقته من العلم و الحلم و الفضل و الإحسان و الأدب و الحياء و البركة رضى الله عنهم سيما الورع الزاهد المقتفى آثار النبي صلى الله عليه و سلم المتمكن في طريق الله عز و جل الجامع بين الحقيقة الشرعية قدس الله روحه و لى ظاهر سيدى الحسين نجل الشيخ المذكور المتبع للسنة النبوية و الشريعة المحمدية كادت أوصاف سيد الخلق أن توجد فيه و قد تخلق بمعانى الأسماء و الأوصاف الإلهية ظاهره راغب في الدنيا و باطنه خال منها فالجاهل من الناس إذا رأى حرصه في الظاهر يقول سيدى الحسين يحب الدنيا و ليس كذلك بل الدنيا في يد العارف أمانة و الأمين لا يضيعها و إنما يترقب بها أمر صاحبها أو يرددها لصاحبها و من أحاط علما

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٧

بذلك فلا يتغير لفواتها فقدانها لأنها ليست له فان قلت ربما يتغير العارف على فقدانها و لا يتكدر وقته ما الحكمة فيه قلت العارف أن يتغير عنها أى بفقدانها ليس تغيره لأجل حبه لها و تعلق القلب بها إذ لو كان كذلك لما كان عارفا و إنما تغيره لأجل تفريطه و تقصيره في حفظه إياها فتغيره راجع إليه و إلى معبوده و محبوبه فكان بربه لا- بنفسه فالعارف لا يزول اضطرابه و لا يقر مع غير الله

قراره وقد ذكر بعض أصحابه لنا أن الشيخ ذهب له ثور بان سرق له فلما أخبرناه بذلك تغير و تحير اشد التغير و غضب علينا أشد الغضب حتى ظننا أن الشيخ إنما غيره حب الثور و حزنه لذلك و قمنا نبحت عليه البحث العظيم الذي فوق الطاقة فوجدناه مذبوحة في بنى و جهان فرجعنا بقيمته لما علموا انه للشيخ فلما وصلنا إليه و أخبرناه بذلك ليسر فغضب غضبا شديدا و تغير تغيرا عظيما أكثر من الأول بما لا نسبة له فقال من أمركم بالبحث عنه هذا فضول منكم فإلله صدقته على فكيف لا أرضى بصدقته و أنتم تردونها و تغيرى أولا- إنما هو لإضاعه المال و الله لا- يحب ذلك فتغيرت لتغير الله و كان رضى الله عنه يطعم الطعام لليتامى و الأيتامى من النساء و المحتاج كل يوم كأنه وليمة عنده و أخبرن الولي الصالح الأستاذ تلميذه سيدى أحمد بن الحسين انه سمع من الشيخ يقول وجدت تحت الديار زيرين من ذهب أزال عنهما الستر السيل إزالة فهتم نفسى أن ترفعهما فمنعتهما ذلك ورددت التراب عليهما فلما أخبرنا بذلك و نحن طلبه عنده فقلت له يا شيخى لو أتيت بذلك فان المحتاج عندك كثير فأجاب بأنى لو أتيت به و ربما قالت نفسى هذه الدار لا تصلح و كذا الفرس ابن غيرها و اشتر أجود منها إلى غير ذلك من شأنى كله فلما علمت حالها كان ترك ذلك هو أولى بى و أجدر و الإتيان به أمكر و أغدر فتركت ذلك و لقد سمعت من البعض أنه أتى له بمزود صغير من ذهب فقيل له أن أولياء الله يسلمون عليك و يقولون لك استعن بها فامتنع فقال أعطوها للشيخ سيدى أحمد بن عبد العظيم فامتنع أيضا فاتوا إلى بعض الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٨

الصالحين فى عروس فقال أعطوها لفلان فصاروا يترادونها إلى أن رجعت إلى هذا الشيخ فردها و لم يأخذها و من كراماته أنى سمعت العدل المبرز الصالح سيدى محمد بن الحاج العشبانى ثم التفرغونى انه قال مرض الشيخ و ذهبت لأعوده فلما وصلت إلى غنمه و إذا بالذئب معها قال فقلت للراعى أترك الذئب مع غنم الشيخ فقال دعه فانه معها مدة طويلة يرعى معها قال فذهبت و تركته كذلك و كان رضى الله تعالى عنه يلبس المرقعة و ذات ليلة ذهب لزيارة بجاية و ذهب معه ركب كبير وصيته فى الأرض عال فلما و صلوا إلى بنى عبد الجبار عزم عليهم الشيخ يوسف بن مهنا رجاء فى بركة الشيخ و اغتناما لدعوته إذ كان يسمع به من غير معرفة شخصه و كذا جل الناس فلما حان وقت الطعام جمعوا الناس و رتبهم على حسب عاداتهم فاقعدوا المرابطين و ذوى الهيات من الملابس الفاخرة على جهة و كان الشيخ بمرقعة معهم و لرثة هياتة قالوا له قم أنت لا تأكل مع هؤلاء بل كل من أوباش الركب و أسقاطهم فقام من ذلك و قال و الله حق ما تقولون ثم وقع النداء و الصباح بأن الذى قام هو الشيخ الذى صدر الإكرام من أجله فألحوا عليه بالرجوع فامتنع فأكل مع من ذكر رحمه الله و قدس روحه و أنى سمعت أيضا من بعض أولاده أنه قال كان ينهانا إذا سوغنا الخبز بالزيت أو غيره عن وضع الخبز من جهة باطنه فيقول إن ذلك إضاعه للمال و إنما يصلح وضعه من ظاهره اليابس إذ يحصل به المقصود من غير إضاعه المال و كان رحمه الله يصلح للتربية و تهذيب الأخلاق و قال والدى أنى لزمته و لم يكن الخير إلا منه فاغتنم بركته و صار فى اتباع السنة و الورع و التقشف أكثر منه و كان صديقا ملاطفا لجدى و الولي سيدى يحيى بن حمودى و سيدى على الصافى و غيرهم فذهبنا إليه ذات ليلة فلم نجد عنده طعاما فلم يتكلف شيئا بل أتى بخضرة الصحراء بعد طبخها و جعل عليها شيئا من السمن و الزيت فلما أتى لنا بها لم يعتذر و لم يقل شيئا و قال الوالد و الله لم يكن شىء أحلى منها عندهم إذ لو لا الحياء لا عتركوا عليها قالوا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٨٩

و أتينا مرة أخرى فأتى لنا بزير من عسل فوضعه بيننا فعلمنا صدق الشيخ و أخلاص نيته و سمعت أيضا انه أتى لزيارته فرحات بأى و عادة البايات يزارون و لا يزورون و ان اعتقدوا أحدا بعثوا إليه ليزوروه فى محلهم خوف الإزدراء و النقص فى حقهم فلما وصلوا أتى لهم بخبز و أظنه من شعير فكسره فى الزيت و شىء من التوابل يقال له اجعجوع و الزيت لا يأكله إلا الخماس و الراعى و من هانت عليه نفسه فأتى به هو إلى الملوكة ثم قام الباي لما أتى به الشيخ ظننا أنه لا- يأكله أحد منها فلما بدانا حياء منه و أكلنا منه شيئا وجدناه و الله خيرا من سائر الأطعمة التى كانت فى الدنيا و لو لا الهيبة و الحياء لتقاتلنا عليه و غير ذلك من أموره نفعنا الله به و قيل له

أصلح بين القبائل الذين بينهم الفتنة فقال والله أحمد الله وأشكره حين عصمني الله منهم بحيث لا يمنعوني عن الصلاة في المسجد فضلا عن أن أصلح بينهم ومع هذا إذا كان العرس ركب فرسه ولعب بها للسنة النبوية وكانت والده أبي من الصالحات شريفة كوالدتي أيضا وكانت تقسم الليل اثلاثا ثلث للصلاة وثلث للنوم وثلث للذكر و جدى كان عنده الزيتون و سيدى الحسن لا قالت فجعل حظا من الزيتون للشيخ تلتقطه بطهارة وتعصره بطهارة أيضا لتم معارف الشيخ ونوره و لتغتم بركته أيضا رحمه الله و نفع به و أما أولاده فلا تجد فيهم ناقصا بل كلهم على الكمال و كذلك أولاد الشيخ سيدى محمد صالح جل أحوالهم على الهدى و سيدى عبد الله من الصالحين و ترك و لبيّن صالحين سيدى عبد الرحمن و سيدى أحمد و هما مفترقان فى السكنى و قد سمعت أنه قال لى لما تحيرت من أمر السكنى رأيت قائلا- يقول لى فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته الآية فسكن موضعا كذلك و هو المسمى اثروش مستندا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٩٠

إلى الكهف كما رآه فى النوم كذلك فظهر له الفضل و ولده صالحان سيدى عبد الوهاب و سيدى على قد قرأت على سيدى على الألفية حاصله أولاد سيدى محمد صالح لم يعدوا الفضل و إن كان بعضهم أولى من بعض و كذا أهله أولاد سيدى محمد صالح من قريه بيكنى كلهم على الفضل و العلم و الحلم و الخير خصوصا العالم الفاضل الخطيب المحقق فى علم الكلام و قد سمعت ممن سمع من تلميذه سيدى محمد العياضى أنه قال أن الشيخ قرأنا عليه شهرا بتمامه من قوله فعلى العاقل إلى الختم من غير تبديل دائما إلى الليل نصا واحدا و قد سمعت أيضا أنه قال رأيت الشيخ السنوسى فى النوم يضرب برأسى و يقول أنت أولى بكلامى يا مسعود و هو العالم الفاضل سيدى المسعود بن عبد الرحمن آية من آيات الله تعالى و قد تزوجت بنتين من ولده سيدى السعدى و سيدى على ولده محقق فى علم الكلام غير انه لا يصل مرتبة أبيه و كذا سيدى محمد بن الفقيه محقق فى الكلام فاضل صالح مشغول بنفسه و قد أخذ عنى الصغرى بأن قرأناها قراءة تحقيق بحاشية المحقق المراكشى و كذا أخذ منى الفقيه الفاضل العالم الأديب الحسيب و هو ليس منهم فنبهنا عليه لأنه من أجل الفضلاء و قد رأى الكاتب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال له يحيى بن حمزة من أحبابى و كفى به و من الصالحين سيدى الحسين بن حمزة إذ اشتغل بربه و نفسه إلى أن مات نفعنا الله بجمعهم و من هذه الفئة الأديب سيدى محمد بن حمو و أولاده مثله.

انعطاف بقى واحد من أولاد سيدى محمد صالح سيدى على بن محمد ظاهر الصلاح لا شك فيه إذ خصاله كلها محمودة و دعاؤه مستجاب كريم على الإطلاق اللهم ارزقه بذكر من صلبه يعمر محله بالعلم و السر و الولاية و الزهد و الكفاف

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٩١

و العفاف نفعنا الله بجمعهم آمين بمنه و كرمه و قد قلت فيهم:
جدوا حقايا ذا الفضل فيض إذ شهر أنواركم تعطى لنا حلمكم
فقوت قربكم يبدى لنا دررا و حق أكرامكم يحظى لنا غررا
فكلهم أخلصوا الأعمال من حبه و أظهروا فضله كل قربه
أهله أقمروا فى ظلمة من دجى و علمهم أنوار للصبح منبججا
فإنهم فى أنهار العلم يلتقطوا من در عرفانهم فالكل ينسطوا
قد ركبوا من مطايا العزما و جدوا و حازوا سبقا مضى فى كل ما شهدوا
بالفضل منهم زالت رعونة الأنفس بتمكين الله حقا غير ملتبس
و نورهم بالتقى فغير منعكس و جدوهم بالوفا فغير منتكس
فاسلموا حالهم فى أيدي رب الملا و خلوا حقا لهم فى كل ما يبتلى

فرفعوا جملة لكل من قد أتى بحضرة العز سعيًا ليس من قد عتا
عن جادة و طريق الحق مشرفة قد عد ذو القصر حزما كل مقصورة
الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٩٢ و مد كلا من الممدود فيما علاو ساروا من سرها يدنون من حوقلا
فازالوا حجبا عن لك مستورة فأوها عيانا في كل مرثية
فمنهم أحد مؤيد من سماو منهم من سلب العقل ليس عمى
فأذهبت قوة لكل ذى صحه و احزنت جذلا لكل ذى قوة
و حركت ساكنا بسطوة الهمة و طيرت أرواحا بريح عاصفة
و حيرت ثابتا بكل ما قد دهش فأبصرت جاهلا بل ما دق خدش
حتى أوتوا كلهم حكمة رب العلاو صيروا آمنا في ذروة قد خلا
سواهم معدوم و لن يرموا قلى لمخلوق أبدا خصوصا من قد علا
قد عم و بلهم تحقيقا من فى الوطن و كلهم بالرضى من ربهم مؤتمن
عزهم محبوب بكل ما حققوا و أعلنوا صدقهم بما به وفقوا
و أظهروا مظهرها لنوره كل ماقد ضاق منهم رحب فناؤه قد سما
من صغرهم أجادوا فحققوا ما أتوا من أوصاف إلى غير أنهم بغتوا
رضى المولى عنهم فى كل مسألة سم الخياط أتى أوسع دائرة
الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٩٣ دمهم شيم يطفى اشتعال نار أحوالهم فى الوغى ترد سخط جار
يا رب جد سيدى قبل نزول العذاب بحق من قد سما فى كل من انتساب
و ان تعفو رجلا يرعى خواطر كم لعل من نفحة أرقى بها إليكم
وجد لنا بالرضى و الفوز بالمقعد للنسك متصل و الكل فى مصعد
فى جنه الخلد حقا منه أن ينظروا الوجهه بالرضى مع منحه اعتبروا
لوالدين و للبين مع من أحب من أخوان و جيران حق من اقترب
علاقة الأزواج و كل من انتمى من أشياخ آخذ من طالب النعما
ثم الصلاة على محمد ما فى السما كذا السلام عليه ماجدا أفخما
و آله شرفا و صحبه حججا ما دام شمس النهار تقطع الأبرجا
و من أولاد هذا الشيخ نفعناه الله به آمين سيدى على بن محمد حى فاضل ذو ظن و حب فى الله و فى كل منتسب إليه أفاض الله
علينا من بركاتهم آمين.

و منهم الشيخ الفاضل العالم كبير السن عظيم الشأن سيدى على الصافى من ذرية الولى الصالح سيدى موسى و سيدى على هذا
أدر كناه كان عابدا أقبل على مولاة ضريحه فى قريته و أما جده فضريحه عند بنى إبراهيم معظم قبره يزار و أولاد سيدى على هذا
أفاضل إلى الآن و هم على خير إلى قيام الساعة إن شاء الله نفعنا الله بكلهم آمين.

و منهم الولى الصالح و البدر الواضح سيدى السعيد بن الحبيب و من قرابته
الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٩٤

الفاضل الصالح سيدى يحيى بن الحبيب و كذا من حلاه الله بجلية القبول و قد غلبت عليه صحبة الرسول من الله بفضله قريب سيدى
عيسى بن الحبيب و قد أدر كته صغيرا و كان عالما فاضلا كريما مهد الله له خلقه و نصره على ملوك زمانه بحيث لا يتعدى الغالب

منهم كلامه و قد كان صغيرا طالبا عند الشيخ سيدى الحسن و أشار بولايته و كان إذا أراد أن يذهب إلى بيته يعطى له فرسه يركبها دون سائر الطلبة قيل له فى ذلك قال عيسى مرابط و كان كذلك لأن أنفاس سيدى الحسن ما كذبت قط و سيدى عيسى هذا أعطى من الحلم ما لا يمكن أن يعبر عنه و كذا كرمه و قد سمعت من عم أبى قال إني بت عند سيدى عيسى هذا ليلة فلما حان وقت صلاة الفجر و إذا بالشيخ يقول أرأيت بنى يعلى فقد انكسروا و أصابتهم جائحة الفتنة و كان الأمر كما ذكر و قال أن بنى أحمد أيضا قد أتاهم ذل و فتنة عظيمة و سببهم الشيخ الفلانى الذى حرمه الله من نعائم الدنيا إذ كان يصوم الدهر كله غير أنه من العرفاء [أعنى عليا ابن جنى إذ قال صلى الله عليه و سلم أكثر العرفاء للنار و أما قليلهم فالمجنه و العرقه المشيخه] و قال أيضا أن جميع الرؤساء من الشيوخ أتوا إليه و كل واحد يسره بكلام فإذا قام لى يا سيدى أبا القاسم الشريف كل واحد من هؤلاء إلى النار إلا واحدا أتاه من الشيوخ كلم الشيخ بالجهر و رفع الصوت بين يديه و الشيخ كالمغضب عليه فلما انفصل عنه قال هذا من أهل الجنة يا شريف و الشيخ هذا [هو عبد الرحمن بن أحمد بن امقدس] حاصله كلما قال كان إلا إن البعض فى حياته و البعض بعد موته و هو نفعنا الله به يحب الأشراف غاية المحبة يعمل بقوله تعالى قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى و قال صاحب المواهب اللدنية من المعاصى التى لا بد أن يعذب عليها بغض الأشراف و استدلل بقوله تعالى قل إن كان آباؤكم و أبناءكم و إخوانكم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٩٥

إلى قوله أحب إليكم من الله و رسوله و جهاد فى سبيله فترصبوا حتى يأتى الله بأمره و الله لا يهدى القوم الفاسقين يعنى نفى الهداية عن هذا الفاسق و هو مبغض الأشراف فكان حينئذ الغضب قطعا و هذا سيدى عيسى نصره الله على الخلق زمانه و قد قال بعض العارفين إذا كان المرء عبد الله تعالى أن أظهره نصره و إن أخفاه ستره إذ عبد الظهور عبد الظهور و عبد الخفاء عبد له و اللائق أن يكون عبدا لله تعالى أظهره أو أخفاه غير أن الإخفاء هو الكثير إذ الظهور هذا من أوصاف الإله سبحانه لا يشاركه فيه أحد غير أن الخلق عيال الله فلا بد من أحد يصلح شأنهم و شأنهم و ذات البين طوبى لمن كان كذلك فيظهر الله بعض عبيده لذلك بأن يخلقهم لمصالح خلقه و يكسوهم من هذه الملابس لتبدو هذه الحكمة النورانية و الفائدة الروحانية ليصح نظام العالم الصمدانى و ليتم الوعد الربانى و سيدى السعيد ذا له قبران قبر عندنا و قبر فى برباشة و المدة بينهما نحو من مسافة يوم بالإجمال المثقلة فى الأيام القصار أو نصف يوم فى غير ذلك و لما تنازعا على دفنه و كل منهما يسرقه ليلا فيقظ الله كلهم فوجد كلا الفريقين الشيخ فى قبره فحصل المقصود للكل و الشيخ سيدى السعيد تاريخه من أول الحادى عشر و أولاده و قرابته على الفضل و الخير نفعنا الله بهم آمين.

و منهم سيدى ناصر الخلقى كان فقيها مفتيا حافظا للأثقال و هو من قرننا هذا و من الحادى عشر معاصر لجيد والد والدى و أولاده على الفضل و الحلم و العلم و الحمد لله نفعنا الله بهم آمين.

و منهم سيدى أحمد بن سعيد ولى معظم عند بنى عفيف ضريحه مشهور يزار و أولاده أفاضل على الخير و الطاعة و من أولاده محب النبى صلى الله عليه و سلم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٩٦

و أصحابه به الشغف القوى من أجله حتى ظهر ذلك للعامه و الخاصة بحيث لا يشك أحد فى ولايته و هو من قرننا هذا من الحادى عشر و هو سيدى على بن حصانه نعم الزوار و فقراء زماننا انتفعوا به أى انتفاع و سمعت من بعضهم انه قال الشيخ على كان يجتمع مع رجال الغيب و يحضر ديوانهم و الله اعلم و كان كريما إذا لم تأت الضيوف يبعث إليهم إذ مهمى ابظوا عليه ضاق و حزن و ان أتوا إليه سر و فرح و قد سمعت حكاية عنه أن صحت و هى مشهورة لدى العامه و نصها أن الشيخ على المهاجرى كان زمارا فى الأعراس بأن بلغ الغاية فى صنعته بحيث يشترطه أهل الأعراس دائما فقد فاق أهل صنعته و هذه صنعه محرمة لأن مثل زمارته تلهى كل اللهو على ما حكوا عنه و لو على قول ابن كنانة الذى يقول بجوازها أن لم تله كل اللهو سيما مع انضمام مفاسد إليها كحضور النساء و الشبان و الرقص و ذكر الخدود و القدود فان كان كذلك فحرام فلا يقول أحد بحليته أبدا أتى إلى هذا الشيخ فى حاجه عرس أو

غيرها ففضى الحاجة للشيخ على حسن المراد وإذا هو عطفه الله عليه وقال أن مررت بمحل كذا من طريقك تمرغ بالموضع الفلاني فلما وصل إليه تمرغ فيه وكان قبله اجتمع الأولياء ديوانا هنالك فأثر فيه الحب لله بأن صبغ حينئذ قال وبعد ذلك لا أحضر إلا عند رفع العروس لزوجها وأما بعد فإذهب إلى المسجد فاشتغل بالصلاة والعبادة إلى أن يطلع الفجر أو ما شاء الله والناس يظنون انه هو الذى يرفض ويشطح ويغنى وليس كذلك وإنما خلق الله صورة شيطانية مثل صورته (مع أنه لا آثم عليه فضل منه) ودليله خلق الله الملائكة على صورة الإنسان تفعل الطاعة ويكون الثواب للإنسان فقد قال صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا اغتسل من حلال يخلق الله من كل قطرة منه ملكا يعبد الله تعالى إلى قيام الساعة و ثواب ذلك للمغتسل أو كما قال صلى الله عليه وسلم أى تفعل ما يفعل وهذا أن صح عنه فغير بعيد غير أنه واقع والله أعلم ويدل عليه أنى صغير فى بنى عيادل فذهب كلب إلى قبره

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٩٧

فاستخرجه منه فلم يتغير منه شىء و المدة التى بين إخراجة و أقباره سبعون أو ثمانون سنة فالغالب من ذلك أنه من الذين يحبهم الله و من أحبه فلا- سبيل للأرض عليه و أحوال الشيخ كثيرة نفعنا الله به آمين و ولداه على الطاعة و الخير و الحمد لله و قد أدركتهما أحدهما سيدى إبراهيم و هو كبير السن و الناس يعتقدونه و يعظمونه و الأخر قد مات و كانت طريقه كأبيه سيدى محمد السعيد نفعنا الله بهم.

و منهم الولى الصالح ذو الكشف الواضح سيدى محمد و مثله فى ذلك مع زيادة فى العبادة سيدى محمد بن على و مثلهما فى ذلك أو أعظم سيدى يخلف إذ كلهم فى القرن الحادى عشر متعاصرون نفعنا الله بهم غير أن طريقهم مختلفة أما الشيخ سيدى محمد بن على يتبع لسان العلم و كثرت عليه المجاهدة حتى أثرت فيه تأثيرا قويا إذ غلب عليه حال الخوف و أما سيدى محمد أمشالى فقد غلب عليه الجمال و أما سيدى يخلف فقد كثرت عليه الخلو و الاعتزال بحيث إذا بقى فى موضع مرئى للناس جازوا عليه و لا يرونه أصلا و هو صاحب كشف عظيم لا يكاد يخفى عليه أمر كما أخبرنى من رآه و صحبه و هو أمى لا يقرأ و هو من المغرب و مثله ولده سيدى الطاهر فى الخلو و الاعتزال و رؤية رجال الغيب و قوة الكشف و أما أمشالى فانه من بنى يعدل أى بنى جعفر و أما سيدى محمد بن على فمن بنى يعلى و أولاد الجميع على الخير و الطاعة و الحمد لله.

تمتة أما سيدى محمد صالح فجدته أبو محمد صالح الدكالى المعلوم و أما سيدى أحمد ابن سعيد و أولاده فمن أولاد دراج لأن طائفة من بنى عفيف منهم و أما سيدى السعيد بن الحبيب فمن و انوغه و أما سيدى على الصافى فلا أدرى ذلك و الله أعلم.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٩٨

و منهم سيدى يدىير الحاج فولى من أولياء الله تعالى شريف و أولاده فحول و ذوو فضل و علم و حلم و عبادة منهم سيدى على بن الطيب و سيدى محمد بن الطيب و غيرهما و سيدى محمد السعيد بن أبى القاسم و سيدى الموق و أولاده و غيرهم فهم أهل خير و عبادة وجد فيها و هم من بنى يعدل نفعنا الله بهم آمين.

و منهم سيدى محمد الشريف و أولاده سيدى عبد الله و غيره فهو رجل صالح و هم قرياء لسيدى الصادق و إنهم من بجاية و كذلك سيدى الصادق من بجاية أيضا.

و منهم أولاد صالح فهم على الخير و الفضل و القراءة و هم من جبل عياض نفعنا الله بهم آمين.

و منهم الولى الصالح و البدر الواضح سيدى يحيى بن موسى فقد ظهر أمره ظهورا فاشيا يزار دائما و سيفه ماض لمن يتعدى على أولاده و ذلك مجرب صحيح لا يكاد يخفى على أوباش العامة فضلا عن الخاصة و قد علمت من أهل بلدنا أن دعاء سيدى يحيى بن موسى هو سبب الشر الذى أصابهم حتى افتتوا و مات من جميعهم نحو الثلاثمائة من غير حق و إنما هو أمر الشيخ جار عليهم و هو من تلامذة الشيخ سيدى يحيى العيدلى و سببه انه ذهب للشيخ ليسرقه فدخل موضعا مختفيا و أظنه موضع الدواب ظنا منه أن دار سيدى يحيى مملوءة بالأمانات و لعله يتصل بشىء منها و هو ممن سبقت له السعادة و العناية فلا تضره حينئذ الجنائى فيعد العشاء اجتمع

الأولياء عند الشيخ على واحد من الأولياء مات لينظروا من يرجع فى محله و مقامه و لما استقر بهم المجلس و قريهم الأنس سألوا الشيخ سيدى يحيى عن يصلح فقال ايتونى بذلك الذى كان مختفيا فاطلعوه و عقدوا له ذلك فوصل من حينه لأن الولي إذا أراد؟؟ و قالوا أيضا عزم الولي اقطع من السيف و قال أبو الحسن الشاذلي نعم الرجل الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٩٩

أبو العباس المرسى يأتيه الرجل البدوى يبول على ساقه فلا يمر عليه يومه حتى يبلغه لله فكذلك عمل الشيخ سيدى يحيى لهذا الشيخ قيل انه لما رجع صبيحة تلك الليلة كان كل من لقيه من الرعاة أو غيرهم قبل يده و طلب منه دعوة الخير بعد أن كانوا اليوم الذى قبل ذلك يتحاذرون منه و يتناذرون من أجله بالكك سى يحيى بن موسى و الله سبحانه يفعل ما يشاء نفعنا الله به آمين و هو من القرن التاسع و أولاده على القراءة و إطعام الضيف و الطاعة و الفضل سيما العالم الفاضل الولي الكامل سيدى يحيى بن حمود و قيد قيل انه يجتمع مع رجال الغيب و انه يشتري لهم قدرا معلوما من الثياب و هو تلميذ سيدى على بن طالب و هو طامة كبرى و كذا أولاد سيدى يحيى بن حمود سيدى أبو القاسم و سيدى أحمد كلاهما على العلم و الفضل و الكرم و النصيحة و الأخلاق السنية نفعنا الله بهم. و منهم أولاد العقارى فيهم العمل و العلم و الصلاح غير أنهم قد انقرضوا فهم من أولاد سيدى عمر العجيسى. و منهم أولاد سيدى على امداح ظاهر الصلاح أيضا و ولد ولده فيه الفضل و القراءة و النجاح نفعنا الله بجمعهم آمين. و منه الشيخ الولي الصالح العلامة الواضح سيدى محمد الصغير صاحب جد و اجتهاد فى العبادة أولاده و قرابته على الخير و الطاعة و الصلاح و كان رحمه الله تعالى يحب الأشراف حبا قويا بخلاف غيره و هو من الحادى عشر. و منهم الولي الصالح العلامة الفاضل و المحقق الكامل و النقاد الأبريز سيدى الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٠٠

على بن عبد العزيز من ذرية سيدى أبى الحسن الشاذلي كما كان بخط الجهم الغفير و العدد الكثير انه من ذريته و هو نجل الشيخ الولي الصالح سيدى عبد العزيز الخراز أما قبر سيدى على فهو فى بنى إبراهيم و أما ضريح أبيه سيدى عبد العزيز فهو فى الزاب أى فى الصحراء و هو معلوم فى بلد الدوس نفعنا الله بهم و كراماته ظاهرة و أسرارها باهرة صاحب العناية و قد سمعت أنه أخذ علمه عن الشيخ الولي سيدى عمر الوزان القسطنطينى و كان رضى الله عنه بنى دارا واسعة عظيمة بحيث لا يكفيها جذوع الأرض و الذى رآها يتعجب بما يكون به السقف و قد رأيت رسمها فلما كملت أصبحت الجذوع على الدار أى القنطائيس من جبل الزان و بيننا و بينه يوم كامل و قد عملوا ذلك من خرق العادة و قد رأيت المورد العذب لابن الجوزى بخطه و أولاده أفاضل على الخير و الطاعة و الحمد لله و هو من القرن العاشر أى أوله و لا أدري هل أخذ من التاسع أم لا نفعنا الله ببركته و جعلنا فى زمرة آمين. و منهم الولي الصالح جدنا سيدى أحمد الشريف نسبا إذ ثبت ذلك و هو الشريف الحسنى و الذى سمعناه من أعالي أسلافنا انه من شرفاء تفلالت و أما مقره و مقر أوائله فمن بجاية وجدنا هذا نجل الشيخ سيدى على البكاى و كانت له زاوية عظيمة و قد سمعنا انه قدم بخمسائة طالب إن صح و قد ثبت عن بعض الثقات من بنى يعدلى أن طلبه الشيخ فى محله إذا قرءوا الحزب سمعوه من بنى يعلى يعنى من مدشر الخميس و هو الكدية و مدشر الذراع و كان رحمه الله يجتمع مع النبى صلى الله عليه و سلم و المحل الذى يجتمع فيه إلى الآن معروف بعلامة ظاهرة و قبره يزار و قد سمعت العدل الصالح بلا شك سيدى محمد الحاج حين بتنا معه ليلة الجمعة فى روضته فلما أخذنا النوم و استولى علينا و لا أدري جاز الليل على النصف و هو الظاهر الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٠١

مع جماعة من الطلبة فاستيقظنا من النوم و أتينا إلى محل الافتراق ثم إن بعض الطلبة سأله عن الحكمة فى إتياننا نصف الليل و ثلث الليل الأخير أولى فقال أعلمكم غير أنكم لا تخبروا أحدا إلا بعد موتى فعاهدناه على ذلك فقال لما نمتم و إذا برجال الغيب يجتمعون إلى أن امتلأ الموضع ثم أتى النبى صلى الله عليه و سلم و سيدى عبد القادر الجيلانى أيقظتكم و الحمد لله على ذلك و قد سمعناه

أن الديوان يكون ليلة الاثنين و الجمعة غير أن الاثنين بالشيخ سيدي عبد القادر و ليلة الجمعة بالنبي صلى الله عليه و سلم و لما بنى داره قال لبانيها أرسل نفسك من غير سلم فأبى فقال له و الله لو أرسلت نفسك لوقعت في الكعبة و قد سمعنا أيضا إن من بات عنده في روضته سبع جمعات متواليات قضيت حاجته أى حاجة كانت دينية أو دنيوية و من كراماته أن سيدي محمد الجوادى أعنى الذى كان فى صدوق المشهور ولايته أخذ عنه و كان شيخا له فلما قربت وفاته قال له إذا مت من أشاوره بعدك فقال له أنا قبل و بعد فلما مات كان الأمر كذلك فصار يكلمه من قبره إلا مرة واحدة أتى إليه ليشاوره فى أمر فنادى الشيخ على عادته فلم يستجب له أى لم يجبه فبكى من ذلك و ظن أن المانع منه فمكث غير بعيد و ناداه مرة أخرى فأجابه فقال له أين كنت قال كنت عند الشيخ سيدي يحيى كان غائبا أمدا طويلا عن الأرض فلما رجع ذهب الأولياء إليه فذهبت إليه و كان ولده سيدي يحيى فى مجانه. [أما بنو عشاش من بقيه عبيد جدنا و قد خرجوا عن طاعتنا و طاعة رسول الله صلى الله عليه و سلم و قد خرجت طائفة باغية من بنى إبراهيم و هى و سر و أولاد الخلف و من أراد الحرابه و الزنى و السرقة فليتحصل بهؤلاء العروش أخلى الله منهم الأرض و قد أعاننى فيهم المجاهد فى سبيل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٠٢

الله القامع للمتتمردين سيدي أحمد باى إذ نصرنى و أعطى أمر المحلة فى يدى و أحرقت أولاد الخلف و قرية و سر و سكانها و بنى عشاش و فى تلك السنة جعلت عليهم و أمرت الخليفة أن يأخذ منهم مائة و سبعين إلى أن يتوبوا لله و لرسوله و يرجعوا إلى الأحكام الشرعية أزال الله منهم ذلك و لنرجع إلى ما كنا بصدده و كان جدنا سيدي يحيى فى مجانه] بأهله مكث فيها عشرين سنة و كان يركب معه من ممالكة ثمانون عبدا فأرادوا غدره فقال الشيخ له قل لولدى يحيى أنت نائم و أرادوا قتلك فأنا الذى أيقظتك حتى ركبت فرسك و نجوت منهم و كان يقول أن يحيى يحيى الدار ثم بعد ذلك رجع إلى وطنه لما قضى الله أمرا كان مفعولا و كانت عنده بنتان كل واحدة منهما نسخت التوضيح و قد سمعت سيدي الطاهر الشريف انه قال أحد المنسوخين فى فملال إلى الآن و كانت عنده خزانة عظيمة بحيث لا توجد عند غيره و لما سلط عليهم الوباء و لم يبق إلا ولدان صغيران ضاعت الكتب و الأملاك البرانية التى فى بنى عبد الجبار و سلالته أولاد عيسى بن عبد الله فأن بقيه منها فى الزاوية و ادعوا بعد ذلك أنها لهم نفعنا الله بهم و من أولاده الفاضل الكامل الفقيه الورع سيدي الحسين جدى إذ كان مدرسا دائما يحفظ الشيخ سالما ينسخ منه كل ليلة نصف كراسة فى القالب الكبير أخبرتنى بذلك زوجته والده أبى و هو يدرس إلى أن مات و كان يفتى و لا يقبل الهدية من أحد و كان النبى صلى الله عليه و سلم هو الذى أمره بالفتيا على لسان بعض من يراه يقظة من المحبين له و كذا والدى فى غاية الاتباع

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٠٣

أكثر من أبيه تؤخذ السنة من كلامه و من أفعاله فالمدخل و الشيخ عبد الله بن أبى جمره و ابن عطاء الله و الشيخ زروق أمامه و قد علمت من جعل واحدا منهم قدوة كفاه فكيف بالجميع قلت و قد أخبرنى بان قال رأيت جدى هذا قال فقلت له أعطنى سررك فقال سرى مقسوم بين أولادى و لا أدرى هل زاد له و أنت لك الحظ الوفير أم لا نفعنا الله بهم آمين.

و منهم الولى الصالح سيدي محمد بن على إذ كان هو المتصرف فى الأوطان بإذن من له الحكم من بجاية و هو الذى مسك جدى فى هذه البلدة و زوج بنته له و هو الذى أمر الناس بأن بنوا له و هم بنو يعلى قيل أنه هو الذى تسبب فى إزالة الميراث بان كانت البلاد فى أيدي الخوارج فلما حاربوهم و قاتلوهم أجلوهم من بلادهم فبقيت فى أيديهم فجعلها للرجال فقط فلما سمع الشيخ الفقيه الولى الصالح سيدي محمد بن مصباح أنكرك ذلك إنكار كليا و قال الشيخ يبقى هذا سنة إلى قيام الساعة فقال الذى قاتل هم الرجال فالآن لهم و يكون بعد على فرائض الله تعالى و الحق ما قاله الشيخ قدس الله روحهما و نفعنا بالجميع بمنه و كرمه.

لطيفة فان قلت و كل ما ذكرته من الأولاد على خير و فضل و علم و حال و حلم مع أن فى ذلك أمورا لا تليق و أكثرهم على المخالفة و البدعة بل ربما على ذلك قتل النفس بغير حق فما وجه صنيعك قلت الأمر كما ذكرت غير أنى قصدت أمرين أحدهما

الستر على سبيل الجملة لأنك إذا سئلت عن قوم فيما بينهم وبين الله فقل هم بخير خصوصا أولاد الصالحين و أيضا أردت زيارتهم بالثناء عليهم فهم أحياء في قبورهم و من ذم ولدك و أنت تسمع تغيرت عليه و إذا تغيرت لا ينتفع منك من تغير عليه و أيضا مرادى من كان على طريق الجد المذكور و الابن الخارج عن نمط الأب

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٠٤

ليس بابن قلب الآن ولد القلب يرث الباقي و ولد الصلب يرث الفانى و إذا كان ولدك على طريقتك فانه يرثهما معا و ان كان ولد الصلب فانه يرث الفانى فقط و بالجملة فانى ذكرت أولياء الله فى وطننا و لعل الله بذكرهم يزيل الحجاب عنا و يرزقنا الوهب الربانى لى و لذريتي و لمن تعلق بى و ان يحفظنى من العوائق عن الوصول إلى الله و إن يجمع شملنا و يرزقنا ما زرق به أهل وده و ليس لك إلا بالتسليم لهم مع محبتهم و كذلك بالتعظيم لأولادهم لقوله تعالى و كان أبوهما صالحا قيل الجد التاسع و نسبة المفضول للكامل من باب نسبة ما للجزء للكل مجاز كما ذكر اه.

انعطاف بعد ذكر أهل وطننا فإن فيه زيادة و تنبيها على بعض أوصافهم الحسنة لتزداد النفس رغبة فيهم و رجاء أن تكون همتهم كهمتهم فإن الرحمة تنزل عند ذكرهم.

فلما حان السفر و آن حاله ذكرنا بعض ما ورد ذكره و صلينا الصلاة الواردة و ختمنا بالصلاة فى المسجد ثم أتينا أهل البيت و الخدام و الطلبة و الجيران و من أتى يودعنا و دعوا لنا و دعونا لهم و عند ذلك رفعنا ما يحتاج الرفع و انفصلنا على حسن الانفصال و وقع البكاء و الصراخ من أهل البلد لما كان من أنسهم بنا إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقع بهم إلا الخير و البركة و كل ذا بعد التحيل على المنع من السفر أصلا و رأسا فلما امتنعت كل الامتناع لم يبق إلا الصبر و التسليم لله فى حكمه و إبرامه و قدرته و أرادته و علمه لأن القلوب قد تعلقت بالمصطفى صلى الله عليه و سلم فسهل عليها الفراق من أجل ذلك قال تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم الآية فإذا كان النبى أولى من النفس فكيف يبقى التعلق بالأزواج و الذرية و المال بل المتروك كالعدم بالقياس إلى المطلوب إلا ما ألزمتك به الشريعة من الوصية على

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٠٥

الأولاد و النفقة على من تلزمك نفقته لأن الذى ذهبت إليه هو الذى ألزمتك بها فلما جهزنا الأمور، و وفينا المسطور، أخذنا فى الظعن و الذهاب، و مع ذلك كثر من الناس الارتقاب، و بعضهم لا ربه بعضهم لزوال الأرتياب، فأكثرها بالإحالة إن شاء الله على الاياب، فحينئذ نمشى خطوة بعد خطوة مع التوديع جملة و تفصيلا و قد قلت:

حقى على الأوطان بالرعاية و حقهم على بالهداية

ما أصعب التوديع للأحباب و عنده بالحزن و اكتئاب

و كل نفس تزعج للافتراق لفقدان المألوف باختناق

حبيبيكم بويل منه قد رجع و سمه للعظم منكم قد قطع

فالعين قد تبخل بالدموع و الكبد محروق من المودوع

دموع يخشى عليه منذ فرق كالمجنون المصاب حقا بالقلق

و نفسه كأنها فى النزوع و قلبه منصدع بالروع

فأشد النيران نار بافتراق لعمركم قد هبت نار باحتراق

فتحويل الوجه عن الوداع بشدة يرجع بانصداع

أيتها النفس تحملى و اصطبرى لتوديع الصاحب لخير و خير الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٠٦ فموتهم أحلى بالاتفاق و سيرهم يسير

بارتفاق

لا كنه الحبيب منك قد نسخ ما قد عسى يكون مما قد رسخ
 بل حبه اشغلكم على الدوام فانه غيبكم عن الآلام
 فلم ترض الأزواج غير من قصدو لم تسع لغيره مما تريد
 و إن طال العهد عن المودوع فلم يضرنا هذا المتبوع
 و كيف ذا منا لنا مما ذكرا من أولياء و صلحاء قد يعتبر
 فناء محبوب من الإرسال فانه الكل بالابتهاال
 بجاهه و جاه من زبرته من عالم و فاضل قيده
 بنصيب و حظ منه و افرو عودة عديده و ناصر
 على الذى أحييته من سنه و انشرون لواءها بعزه
 على ساق الجد تكون قائمه مع شدة الحزم تكون دائمه
 بحقه مما بنا قد اعتلق من أولاد و من بنا قد انتسق
 خالده تليده لا تنزع كليه العلوم حقا تنبع

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٠٧ من أبناء و أبناء الأبناء لغابر الدهر من أولاد
 و اغفر لنا ربنا ثم الوالدين و أخوان و جيران و المسلمين
 ثم الصلاة و السلام ما طلع شمس و نجم فى سماء قد سطع
 و آله و صحبه ذوى التقى و الزهد و العلم و من قد ارتقى

نعم خرجنا يوم الخميس لما فيه من التيمن و البركة، فى كل سكون و حركه، كما روى عنه صلى الله عليه و سلم ثم بقينا كذلك على
 التوديع إلى أن غربت الشمس بل إلى صلاة العشاء و الناس تقدم إلينا لتذكرنا الانفصال، و الافتراق و الانتقال، فحصل مبيتنا فى بنى
 حافظ، فودعنا كل حبيب و عدو و رافض، هذا و ان أولى القربى من أهلنا الأشراف، حصل منهم اللطف و الألفاف، و قد قاموا بمن
 نزل بهم بحق الضيافة، و بات عندهم أضعاف مضاعفة، كثر الله رزقهم، و من كل بلاء حفظهم، فلما أصبح الصبح و تنفس، أخذنا فى
 الرحيل أمننا الله من كل بأس، و طعنا من تلك القرية مودعين كل فاضل و عشير و عشيرة و عتره و انفصلنا عن الأفاضل و غيرهم
 قاصدين بنى يعلى فبلغنا محل المدرس الفاضل، و العلامة الكامل، المحب على الدوام، المحقق الهمام، ذى الفضل و النجاح سيدى
 الحسن بن مصباح رحب الفناء، على السناء، شامخ البناء، كل خير منه قد دنا، و قد فرح بوصولنا و احضر الطعام، فأكل منه القانع و
 المعتر بالتمام، و وصولنا عند الضحى الأعلى، فكان محل الرفيع قد امتلأ، بأفاضل الخاصه و العامه من بنى يعلى، ثم سألنا الله جميعا
 بقلوب خاشعه، و السن متضرعه، و اجباح خاضعه، بلوغ المنى، و الوصول إلى مكه و منى، و غير ذلك

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٠٨

مما به الاعتناء، فودعنا بعد ذلك من يريد الرجوع، ثم بعد أخذنا فى الطلوع، لدار طب الزمان، و قمر الأوان، ولى على الإطلاق، و
 زاهد بالاتفاق، من يطلب رضى الرحمان، باتباع النبى العدنانى، ناصح الأمة، و ناصر الجماعة، ظاهر البركات، سيدى بركات، فدخلت
 بيته، و زرت زوجته، نخبه تعالى، و هى صهره لى، من الصالحات القانتات، الصادقات الصابرات، فلم تملك نفسها عند المفارقة، و
 هى بقدرة الله مشتاقه، فدعت لنا من صميم القلب، و خلوص اللب، و كذا أولادها ثم ودعناها أيضا، نطلب الله الرضى، فخرجت و ما
 زلت أودع، الأحبه و المتبع، فمشينا تلك العقبة، فوصلنا قبر كامل من النقبه، ذى الهيئه و الحيا، سيدى محمد بن يحيى، بخشوع و
 ارتقاب، و الدعاء عنده مستجاب، فصلينا الظهر عنده، طالبين رضاه و وده، وصلت تلك الجموع، فرجع المودع و ذهب المودوع،
 طالبين الأمان، و ودعنا سيدى الحسين و من معه من الإخوان، فذهبنا إلى زموره فبتنا فيها ثلاث ليال، لتكميل ما خص من حالهم و

حالي، و ليلحق أيضا ما بقى من التالى، فخرنا يوم الأحد، معتمدين على الله الصمد.

و زمورة كثيرة المياه، و أرضها ذات زرع و ضرع بلا اشتباه، طعامها جيد، و سوقها عامر مفيد، و فيها برج للنوبة من الترك، حفظها الله تعالى من أكابر المعاصى و الشرك، و فيها قائد، و لأهلها سائد، بهم يظلم، و كيدهم فى نحورهم دائم، يسعون ببعضهم بعضا، قد أهلكوا و لم يكن من الله الرضى، و بسبب ذلك اضطرت نار الفتنة، و حقت عليهم كلمة اللعنة، فليس يقبل منهم الاعتذار، لأن القتال و المقتول فى النار، بأنفسهم عذبوا و برأيهم أصيبوا، أزال الله منهم هذه الأوصاف، و رزقهم تحف الألفاف، رزقها رغد، و خيرها مدد، و قال الشيخ سيدى على بن أبى زيد فى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٠٩

فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون قليلة الأشجار، [كثيرة الإسفار، و أما بلدنا فهى قريه منها على مسيره أقل من يوم وبلنا كثيرة الشجر من زيتون و عنب و تين كثيرة الفواكه إلا-النخل و الليم فليس فيها و ما ذكرنا من بنى يعلى و زمورة وطن واحد كثير الأمطار و العيون و مع ذلك كثير المعاصى و البدع، و قل الحكم فيها و ارتفع، و زاد لما ذكر فمساؤهم باديات مكشوفات، هداهم الله لحجبهن لأنه من أعظم الأفات، و إنها كثيرة الثلج و مع ذلك يقولون انه زبل البلد و مهما كثر كثر الزيتون و زمورة علمها قليل، و جهلها جليل، كثيرة اللهو اللعب، نائية التواضع و القرب، قل فيها الاعتبار، و الزاهد فى هذه الدار، و الشارب من كأس الحب بالإكثار، و فيها من أجل الطلبة و أفاضلها من قل أن يأتى به الزمان، و يسمح به الأوان، فاضل على الإطلاق، و محب بالاشتياق، مشارك الفنون، أديب متمكن فى المعالى فحلا فى العيون، و مقبول عند الوجوه، له طلاوة و حلاوة بما لا يعنيه لا يفوه، ولى إن شاء الله عن كل ما يشين بعيد، سيدى محمد السعيد، و مثله بل زاد عليه حسن الخلق، الفائز بتادية الحقوق، سيدى محمد بن عبد الله و مثلهما سيدى المبروك الشوثرى فانه أمثل أهل زمانه كثير الحفظ إلا أنه لم يستمد من الأشياخ و هو أنسب من غيره فتح الله عليه و كذا سيدى الطاهر الشوثرى فقد رأيت رسومه فلا بأس بها و فيه الفقيه المسن ذو الأخلاق العلية و الأوصاف السنية سيدى أحمد الشوثرى و قد انتقل و تركته متوطنا فيها و فيها سيدى على بن الطيب فقيه حافظ للأنفال، و فقه الله و إيانا إلى صالح القول و الأعمال، و غيرهم مما لا نسبة له من العلم و إن قلت.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١١٠

ثم مشينا من زمورة صبيحة الأحد و مع ذلك خرج معنا جموع من الناس فمنهم من وصل إلى أطراف العمارة و منهم من وصل إلى قرب الوادى و منهم من وصل إلى عقبه زمورة و كلهم محبة فى الله و رسوله صلى الله عليه و سلم و أمه محمد بخير فلا بد لهم من المحبة و هى على قدر الإيمان و منهم من ذهب معنا إلى أولاد يحيى فوصلنا قرب المغرب فلما سمع شيخهم و هو الفاضل الشيخ ابن عثمان فأقام بضيافتنا و أحسن و أكرم الحجاج و أطعمهم فى بيوت الشعر إلا أنها بيوت المستقر و أقرهم و أنسهم و تأدب معهم فلما تنفس الصبح، أتانا و إياهم بالريح، أخذنا الطريق، و ودعنا من بقى من الرفيق، و هو سويد اللب، و ولد القلب، سيدى محمد بن عبد الله و من معه من أصحابه و من معنا من المحبين من أولاد سيدى أحمد بن التواتى و صاروا إلى بيوتهم منيين، و إلى بيت ربنا كنا متوجهين، إلى أن نزلنا عند قائد العزلة فى وادى بوسلام، و أقام بضيافتنا بالإكرام التام، و البسط العام، الشيخ ابن حمود ثم ظعنا صبيحة يوم الثلاثاء إلى أن وصلنا إلى قصر الطير، فحططنا به الرحال مع الغير، و تلاقينا مع الحجاج، و من يريد الزيارة بلا احتجاج، و وصلنا عند الظهر، و انتفى علينا و عليكم البأس و الضر، فوجدنا هنالك ما كان كالشقيق، سيدى أحمد الطيب و أولاده و سيدى أحمد بن حمود و أصحابه فكان ما رماه بالتصديق، فاجتمع هناك فضلاء و نبلاء و أولياء و صلحاء بالتحقيق، و كل يوم و الحجاج تأتى من كل فج عميق، فلما اجتمعوا، و اشتروا و باعوا، اهتموا بالرحيل ثم إن كل فاضل و عالم و ذى خير و راغب من قصر الطير إلا أتى إلى

الركب يزوره و يقتبس نوره إلا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١١١

أن قائده و شيخه الأول ابن يلس و الشيخ أحمد بن الصخرى نجل الشيخ أبي عبد الله بن سعد بن السعد و لم يرد الله بهما خيرا فلم يتكرم أحد منهما بطعامه و لا بشعيه على الحجاج فانهم وفد الله و وفد رسوله صلى الله عليه و سلم و قال تعالى و من يبخل فإنما يبخل عن نفسه و الله الغنى حرموا فحرموا.

و قصر الطير بادية و هو من أحسن الأوطان و أكرمها قل ألا يكون فيه الخصب و عشبه أخضر و لوفى الصيف و الخريف و فيه مكان يقال له المرجة من حفر فيه مقدار ذراع وجد الماء عذبا سائغا شرابه و زرعه كثير و كذا زرعه و بالجملة فخير هذا المكان منتشر مشهور و أهل الخير فيه كذلك غير أنهم من العامة و أما الخاصة فلا غرابة في حصول الخير منهم حاصله هذا الوطن ينبغي أن يكون مدينة إذ جمع فأوعى نعم قل إن يشكر أهل نعم الله و الاستقامة أيضا فتجدهم لا يدوم لهم الحال، و لا يستقر لهم النوال، بل يسرع إليهم التبديل و الزوال، و السلب لأموالهم و الانتقال، و قد قال صلى الله عليه و سلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم فان خرجوا من وطنهم تشبثوا و تعلقوا، و إن رجعوا مكروا و تزدقوا، فسلطوا بأعمالهم، و أصيبوا بأحوالهم، اللهم أرحم جميعهم و أهدهم إلى الصراط المستقيم و من الأفاضل أولاد الكتف سيما عوض ولدنا العلامة سيدى محمد الكتفى و مثله سيدى يحيى و سيدى محمد الزواوى و ابن عمه سيدى محمد بن جد و سيدى محمد الصراوى و أولاد عبد الواحد فيهم أفاضل و أما الفقراء المخمرون بحب الله و حب رسوله لا يحصى عددهم من أولاد سى أحمد و أولاد الكتف و أولاد الزعيم و أولاد المداس

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١١٢

و صاحب القبر المشهور فى رأس الوادى نفعنا الله بجميعهم ثم ظعنا إلى أولاد موسى بن يحيى و كانوا محاربين لا يمر أحد على طريقهم و هم على ذلك إلى أن سلط الله عليهم الشر حتى عاشرتهم مع حسن ظنهم فينا فأمرتهم بترك ذلك ليكثر عندهم الخير فامتثلوا فأفاض الله عليهم بكثرة الأموال و رأوا الشيء عيانا فنزل الحاج فى وادى رأس إسلى عند العين فى رأس الوادى و أنا و أصحابى مررت إلى أن وصلت إلى الولجة فى أرض الحضنة لأولاد دراج أعنى أولاد ناصر عند أولاد الشيخ الولى الصالح، و البدر الواضح، سيدى رحاب محل العلم و الحلم و الفضل و الأدب و الشرف، خلفا عن سلف، فقد زاد الفضل و الحمد لله فى الأواخر و استقر بنا الحال فى بيت الفاضل الفقيه سيدى عبد الله بن رحاب و كلهم فضلاء و أدركت منهم الأخيار سيدى محمد الحاج ما رأيت مثله أصلا و سيدى عبد القادر و سيدى رحاب و سيدى محمد بن إبراهيم و إخوانهم نفعنا الله بهم.

و وصلنا قرب العصر إليهم و أقمنا عندهم يومين فاشترينا بعض الجمال هناك و أولاد دراج طائفة من العرب و قد رأيت فى بعض الطرر انهم من ربيعة و كذا مقدم و أولاد رحمة و أولاد مخلوف فمهما طغت إحدى الطوائف إلا- أغرمت الأخرى و بلد هؤلاء الصحراء و حرثهم على الحى أعنى أودية تتحدر إليهم من الجبال إذ فيها أعين هذا غالب أمرهم و يغلب على العامة منهم الجهل و الجفاء و التعدى و هم أكثر من أن يحصوا و هم فوق و قد تحصل الفتنة بينهم فيموت الثلاثون و الأربعون فى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١١٣

يوم واحد و فيهم أهل الخير من العامة و الخاصة لا ينقطعون و قد أدركت أفاضل و صلحاء منهم أولاد العريب و ولد الشيخ سيدى محمد بن إبراهيم و الولى الصالح سيدى عبد الله بن صوشة و إخوانه و هو حى إلى الآن و أولاد سيدى الطيب بن صوشة و أهله و أولاده سيدى على بن خلف الله و أولاد سيدى أبى الفضل النحوى و الشرفاء من أنور و الشيخ احليتم شاعر رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان يرى رسول الله صلى الله عليه و سلم و يرى الشيخ عبد القادر مرارا و انه ولى من أولياء الله و أولاده و إخوانه و أولاد سيدى غانم.

فمنهم سيدى ابن المقندوز و أولاده سيدى محمد و سيدى أحمد ما رأيت مثلهما أصلا سيما الكبير فقد فاق أهل زماننا و على نمطه ابنه سيدى محمد و إخوانهم و أولاد سيدى عبد القادر كلهم و الحمد لله على خير و أولاد سيدى عمر كذلك و سيدى عمر أهل وطنه زادوا فيه هيبه و إجلالا لأولاد سيدى رحاب السابقين فقد سمعت ابن زيان انه قال رأى رجل النبى صلى الله عليه و سلم فسأله

عن الأشراف من فقال أولاد رحاب و ما شابهم و كذا المرابطون من جبل بو طالب أهل خير و أولاد سيدي عمر و غيرهم نفعنا الله بهم.

و كذا سيدي مبارك بن عمار و سيدي محمد بن بو خالفه و غيرهم نفعنا الله بهم و أفاض علينا و على أولادنا من بركاتهم آمين و أولاد سيدي رحاب تزوجت بنتهم ثم طعنا من عندهم و الركب سابق إلى مدوكال فتبعناه و سيدي عبد الله بن رحاب ذهب معنا إلى الحج و ذهبت بعيالى بنته و بنت سيدي السعد نجل الشيخ سيدي

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١١٤

المسعود بن عبد الرحمن و زوج ابني محمد بنت سيدي عبد الله أيضا.

فزلنا قرب بريكه و هي أرض طيبة و فيها نهر جار مثل النيل و هي لسيدي محمد الحاج يتقاتل عليها أولاد دراج بينهم أزال الله ظلمهم و أهلكت من أرادها منهم من غير رضی أولاد الشيخ و صبيحة تلك الليلة طعنا إلى أن وصلنا قرية مدوكال التي أمير الركب منها و هو الفقيه المحب الفاضل الكامل سيدي محمد المسعود نجل الشيخ سيدي الموهوب أسعده الله و جعل البركة في أولاده و قرية مدوكال فيها نخل و لم يكن من بلادنا نخل إلا فيها ثم كذلك إلى الزاب و هي قرية كبيرة فيها جمعة و عين عظيمة عند رأس البلد و فيها تضع العرب أثقالها و هم قد طغوا عليها سيما أولاد دراج إلا- أن بركة سيدي محمد الحاج و السيد الحاج بودابه و أشياخهما ظاهرة تنوب عليهم و طريقة أولاد سيدي محمد الحاج ربانية لا يشك فيها أحد فلا يشوبها شوائب الملك أصلا خصوصا أسلافهم حسبما أخبروا عنهم و كذا هؤلاء الأواخر و مدة بقاء الحاج فيها يشترون الرواحل، متعنا الله برؤيته صلى الله عليه و سلم بجاه الأوائل، فلما استقربهم الحال اجتمعت فيه أفاضل، فيحق في ذلك ذكرهم في الفضل و بالجملة فهذه القرية طيبة و أهلها فيهم الصلاح كما رأيت بعض المرابطين كامام مسجد الشيخ و بعض أولاده و بعض الطلبة و أما أكثرهم فقد فسقوا فيها بالسرقة و التعدي و المشى بالنميمة بين أكابره حتى نزل بهم ما نزل و قد صار البغض العظيم بينهم و الله يقول و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول و قطعوا صلة ما أمر الله به أن يوصل من صلة الرحم أن لا الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أصلح الله حالهم و أزال العداوة بينهم و رزقهم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١١٥

المودة و الرحمة بينهم بمنه و كرمه هذا و إني و عظمتهم و أمرتهم بما يكون فيه خيرهم نعم هم أفضل من غيرهم فإنهم كالماء يجوز اللقمة إذا غصت و أما الماء إذا غص فما المجوز له لكن بركة أسلافهم يهديهم الله و يعينهم على طريقة أسلافهم و محلهم محل خير و علم و حلم و فضل اللهم أجعله كذلك إلى قيام الساعة و لا تبده بالصد إذ أكثر المواضع كذلك أحى الله قلوبنا و قلوبهم و رحم ضعيفا و ضعيفهم آمين و أكرم الشيخ الركب ليلة واحدة و أما أنا و بعض أصحابي و سيدي أحمد الطيب فقد أكرمنا كثيرا و الحمد لله.

ثم طعنا منها إلى مدينة بسكرة ذاهبين فبتنا في الطريق ليلة واحدة و صبيحتها طعنا و وصلنا عند الضحى غير انه عاق الناس الماء فلا يجدون سبيلا إلى الخروج إلا بتعسف فطال بنا ذلك إلى الظهر إلا القليل أخذوا الطريق من بدء الوادي فلما قطعنا الوادي نزلنا حافين بالنهر و هذه البلدة أعنى بسكرة كثيرة المياه بين خلال البيوت فكل باب عنده ساقية من الماء تجرى من ماء حلو كالعسل و نخلها عظيم و غلتها كثيرة أيضا أي زرعها و كذا الفواكه خصوصا الزيتون فانه كثير جدا و هذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان و الجامع الأعظم يدل على ذلك فانه لا نظير له و صومعته ما أحسنها و ما أوسعها غير أن القديمة أي المدينة قد خربت و صارت دكا و سبب ذلك فتنة بينهم فدخلوا الترك فأهلكوها حتى بقي القليل منها حاصله أن الناس قد خرجوا إلى البساتين فبنوا هناك من ذلك العهد إلى الآن ثم نزل عليهم الوباء فلم يبق فيها إلا حثالة من الناس و فيها برجان للترك عامران أحدهما في البلد و الآخر خارجها و بالجملة فهذه أوصافها الحسنه التي لا- تحصى و قد اجتمعت فيها مع الأفاضل كالفقيه الفاضل سيدي محمد بن الجودي و سيدي محمد

الشريف والقاضي والمفتي وكذا بعض شهود العدالة والطالب الفاضل سيدي مصطفى و سيدي بركات وغيرهم من العامة و الخاصة و قد أخذ كثير منهم العهد عنا و لقيت أيضا فيها

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١١٦

قبل الفاضل الصادق في الجد المقتفى للسنة النبوية نفعنا الله به آمين.

و أما الموتى ففيها العجب العجاب نفعنا الله بهم و جعلنا في زمرتهم بمنه و كرمه و هو من العارفين و قد زرت قبر الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضرى و له تأليف كثيرة مفيدة و هو من العارفين بالله تعالى و من تأليفه السلم في النطق أنعكف الناس عليه شرقا و غربا سيما في مصر فمنهم من حشى و منهم من فرر و طرر و قد شرحة رحمه الله و ألف الجوهر المكنون في البيان لخص فيه التلخيص و شرحة و قد أقبل الناس عليه أيضا في مغربنا و نظم قصائد عديدة في التصوف أعظمها القدسية و قد شرحتها و الحمد لله و له قصيدة في علم الفلك سماها السراج و شرحة و الدررة البيضاء في علم الفرائض و الحساب نظما فهي في غاية الحسن و هو من القرن العاشر كما أخبر بذلك و زرت قبر النبي سيدي عبد الرحمن انه نبي رسول و كذا حكى فيه الخلاف الخفاجى شارح الشفاء بان قال على القول برسالته فانه أرسل إلى جبل أوراس و كانت معجزته ناراً و قد سمعنا أن الشيخ سيدي عبد الرحمن هو الذى أظهره بالتربيع و كذا زرت سيدي محمد بن يحيى و إخوانه و ولده و محله محل العلم و الفضل و الكرم و الجود إذ هم ظاهرون عند الخاصة و العامة مشتغلون بتدريس الفقه نفعوا و انتفعوا نفعنا الله بهم.

و فيهم أيضا سيدي البار فانه فقيه فاضل و هم أشرف و هو ليس منهم و الحمد لله و قد لقيت الزاهد على الإطلاق، المتجرد للعبادة باتفاق، كانه من الموتى سيدي المبروك نفعنا به و بأمثاله.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١١٧

و الزاب و الحمد لله عامر بالخير و الفضل و ذلك في العامة و الخاصة و إن كثر الفساد و العصيان و الظلم و عم و انتشر غير أن بعض الأوطان ينعدم فيه الخير رأسا و بعضهم فيه الشر الكثير مع وجود الخير من بعض الأفراد و قد دخلت.

طولقة و هم أهل الجود و الفضل أطال الله سعدهم خصوصا أولاد بوزيان فقد عم فضلهم الخلق فان لم يصبهم و ابلهم فطل أحسن الله إليهم بمنه و كرمه و لكن هذا الوطن أعنى الزاب منوط ببلدة بسكرة و هى الكافية بالجميع قلت قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد ابن ناصر ما نصه بعد ذكره كلاما يخصه وزرنا مسجدا و طلعتنا إلى مآذنته و هى في غاية الإتقان و الطول و السعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها و إدراجها مائة و أربع و عشرون درجة و المسجد في غاية السعة و إتقان البناء إلا أنه قل عامروه و ضعف ساكنوه فلا ترى فيهم مدرسا و لا فقيها و لا قارئا مع أن هذه المدينة من أعجب المدن و أجمعها لمنافع كثيرة مع توفر أسباب العمران فيها قد جمعت من التل و الصحراء ذات نخيل كثيرة و زرع كثيف و زيتون ناعم و كتان جيد و ماء جار في نواحيها و ارحاء متعددة تطحن بالماء و مزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه و الخضر و البقول و كثرة اللحم و السمن في أسواقها. و بالجملة كما قال الإمام العياشى في رحلته ما رأيت في البلاد التى سلكتها شرقا و غربا أحسن منها و لا-أحصل و لا أجمع لأسباب المعاش إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها و عساكر العرب فيستولى عليها هؤلاء تارة و هؤلاء تارة إلى أن بنى الترك حصنا حصينا على رأس العين التى يأتى الماء منها إلى بسكرة فملكوا البلد و أضروا بأهلها و اجحفوا بهم فى الخراج و لم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذى به حياة البلد و أهله اجتمعت عليها غارات العرب من خارج و ظلم الأتراك من داخل و قد أشرفت على الخراب

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١١٨

و قاربت أن تكون فقراء يبابا لو لا- ما تماثل من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس فى سكنها قال و لقد لقيت بها سنة تسع و خمسين رجلا- من الصالحين ممن جمع بين العلم و العمل به الزهد و الورع و صدق التوجه إلى الله تعالى و اسمه سيدي أبو طيب الناصرى لم ترعنى قبله و لا بعده أمثل منه فى هديه و سمته تخشع القلوب لوعظه و تلين لكلامه و لو كانت أفسى من الحجر قال و

لما رجعت من الحجاز في سنة الستين وجدته قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة و كان وباء مفراط مات به بسكرة على ما قيل لنا نحو سبعين ألف نفس و قد دخلنا المدينة عقبه فوجدنا أكثر حوماتها خالية و مساجدها دائره و لقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح و هو رجل من أهل الخير منفرد في مسجد له بازاء داره يلزم فيه الصلوات الخمس و يجتمع إليه أناس من أصحابه يذكرهم و يعلمهم قال و خرج إلينا أيضا من فقهاء البلد سيدي عبد الواحد الرماني و هو أيضا رجل من أهل الخير غلبت عليه الديانة و الانقطاع عن الخلق و قرأ على أول صحيح البخاري برواية أبي ذر و ذهب معنا إلى زيارة سيدي أبي الفضل و صلينا العصر في مسجد سيدي أبي الفضل و في الغد يوم الخميس ارتحلنا و دخلنا البلد ثانيا لزيارة سيدي محمد بن علي فوجدناه على سطح دار يشرف على الطريق و لم ينزل إلينا و قرأ لنا الفاتحة من هناك و نحن بالطريق و دعا لنا و هو رجل من أهل الأحوال الصالحة مغلوب عليه في أكثر أوقاته تؤثر عنه كرامات قال و لقد لقيته بداره سنة خمس و ستين و هو في مرمه له في داره يعمل بها بيده يسنج الثياب و أخبرنا أن فوجه من كسب يده و أخبرنا بحاله و مبدأ أمره مع شيخه و قد انتشر صيته في هذا الوقت بتلك البلاد و له أتباع و أصحاب يجتمعون إليه في أوقات السماع و الذكر و سمعنا من بعض الحجاج ممن زاره بعد ذلك أنه قال لهم أن النبي صلى الله عليه و سلم قال له أن النار لا تمس كل من رآك و زعموا أنه قال له و من رأى من رآك

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١١٩

مراتب متعددة و الله اعلم بحقيقة لك فان صح انه قال له فهو في الغالب لا يكذب إلا أن كلامهم يحتاج إلى تأويل و يبعد حمله على ظاهره و أن المراد مجرد الرؤية البصرية فان القواعد تأتي بقاءه على عمومته فانه يراه البر و الفاجر و المصر على الكبائر و المفارق لها بل و الجاهل الذي يتطرق إلى إيمانه الخلل لغلبة الجهل و الآراء الفاسدة و لكثرتهم جدا يبعد موت جميعهم على التوبة النصوح الموجبة لغفران الذنوب كلها الموجبة للنجاة من النار إلا أن كلام أولياء الله لا ينبغي أن يرمى به جزافا فليحرص المرء جهده على لقائهم و رؤيتهم و التبرك بهم فعسى أن يصادف نفحة من نفحات الحق فيسعد بها دنيا و أخرى فإن لله عبادا إذا نظروا إلى أحد أغنوه و مع ذلك فلا يركن إلى ظواهر ما يجري على ألسنتهم كل الركون حتى يعتقد أن من رأى أحدهم ممن قال مثل ما تقدم قد أمن من النار فإن لكلامهم وجوها و احتمالات تدق على إفهام أكثر الخلق ممن لم يسكت طريقهم قال و أقرب ما يحمل عليه كلام المتقدم أن تحمل الرؤية على القلبية و المرأى على صورته الباطنة التي توجب العلم بما هو عليه من سنن الأحوال و سمى الأوصاف و رفيع المقامات و لا شك أن من منح شهود ذلك و أشرف عليه فله نصيب وافر من التخلق بأخلاق الأولياء و الورود من موارد الأصفياء و حينئذ يكون جديرا بأن لا تمسه النار و هذا من معنى ما اشتهر عن قطب الزمان مولاي عبد القادر الجيلاني أنه قال أخذت العهد من ربي أن لا يدخل أحد من أتباعي النار إلى يوم القيامة فيحمل على من اتبع طريقه لا على مجرد الانتساب باللسان قال و لو صح حمل الكلام المتقدم على ظاهره و عمومته لكان أولى بذلك الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم و كثير من رآهم رؤية بصرية لم يوفق للاهتداء بهديهم فحرم بركة رؤيتهم و كل مقام ناله ولى من أولياء الله فهو ميراث اتباعه لنبيه صلى الله عليه و سلم و ما كان ميراثا لا يصح أن يكون شيئا لم يكن لموروثه بل يستحيل عند أرباب القلوب أن ينال ولى و لو ذرة من مقام أو حال لم تكن بكمالها

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٢٠

لمتبعوه و معلوم أن هذه الحال لم تكن لأحد قط فلا بد من التأويل قال و ما أظنبت في هذا إلا أني رأيت كثيرا من الجهلة يغتر بأمثال هذا و يحمله على ظاهره و إلا فإننا و الحمد لله ممن يعتقد تنزيه ساحه الأئمة الصوفية عن الكذب و الافتراء و يثق بأقوالهم و يصدق كراماتهم و يحمله ما أشكل على أحسن محامله و لا أظن فيه بوجه و أسلم لهم فيما لم يتبين لى وجهه و المنه في ذلك لله وحده اه- كلامه و نقلته على طوله لحسنه في باب و زرننا في تلك الحجة أولاد سيدي محمد الصالح و أخرج لنا ولده سيدي علي ترما و لبنا و أكل أصحابنا ما أرادوا منه و شربوا و زرننا أيضا سيدي قاسم و ذكر لنا الأخ سيدي محمد بن عبد الواحد الرماني أن هذا السيد كان رجلا صالحا و كان أمير الركب في زمانه و سيدي عبد الواحد والد سيدي محمد المحدث عن صلاح هذا السيد كان من أصحاب

والدنا رحم الله جميعهم و كان في حجتنا الأولى التي حججناها مع الوالد رحم الله جميعهم عام (١٠٧٦) ستته و سبعين و ألف في قيد الحياة و ولده هذا هو الذى تقدم بنا لزيارة صالحى هذه البلدة و زرنا أيضا سيدى عبد الرحمن و سيدى أبا الفضل و سيدى محمد الموفق و سيدى الصحابى و سيدى محمد ابن أبى على و سيدى عليا الأوراسى و أخبرنا سيدى محمد بن عبد الواحد أن أبا الفضل هذا هو تلميذ أبى الفضل النحوى و ان أبا الفضل المذكور مدفون فى بلد بينه و بين بسكرة يومان وراء الجبل رسالته عن البسكرة الذى خشى على المرادى فذكر لنا أنه مدفون فى الزاب.

و أما سيدى محمد بن أبى على فذكر لى عمى سيدى حسين رحمه الله أنه قال كان حيا عام حج و انه لما وصل بسكرة ألح عليهم الأخ الحاج محمد بن عبد الملك السجلماسى أحد تلامذة الوالد رحمه الله و المقدم على الفقراء فى بلده فى زيارة السيد المذكور و تقديم الصدقة له بين أيديهم و طلب ضمانه الطريق و عادته لهم كما كان وقع ذلك مع بعض الحجاج فصار محفوظا فى طريقه إلى أن وصل بلده و منزله و كره العم الرحلة الوثريلانية، ج ١، ص: ١٢١

مخالفته و مشى مساعدا له مع عدم قصد ذلك و تقديم صدقة فزاروه و أطعمهم تمرا و ماء و أقاموا عنده ساعة فلما جن الليل رأى أستاذه سيدى أحمد بن إبراهيم فى عالم النوم فقال له زلقت و زللت يا صبي قلت أنا البركة التى يشرب فيها الإنسان يواظبها و يقيم عليها و لا يكدرها و يطلب غيرها [فقال] اتحسب و تظن أنك لم تبلغ فى تعبى و مشقتى و الله لقد كنت تنام معوجا فأتيك حتى أقومك أتريد ملاقة الشيخ الأعظم سيدى عبد الله فقلت نعم يا سيدى فذهب بى حتى لقيته فسلمنا عليه و قال لى سيدى أحمد أن حان وفاة أحدكم يعنى فى الطريق فإن لم أحضره فسيدي عبد الله بن الحسين يحضره لا محالة قال سيدى عمى المذكور و مات جماعة من فقراء الأستاذ فى الطريق رحم الله الجميع اهـ.

و لما دخلت مسجدها لم أجد فارقا و لا مدرسا سوى رجل واحد متى يقرأ لوحه و هو ملقى أمامه يقرأه على غير أدب و لا استقامة و أخبرنى بعض أصحابنا انه وجد رجلا واحدا يسرد البخارى وحده و وقف عنده و قال له رح يا حاج و وجد آخر كذلك و لعمري أن هذا أدل دليل على الخراب و أقرب الأسباب له بدليل ما روى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إذا أراد الله عمارة قوم بدأ بما له فيهم و إذا أراد خرابهم بدأ بما له فيهم أو كما قال صلى الله عليه و سلم و لقد بدأ الله هذه البلدة بخراب بيته، فهو أقوى الدلائل على خراب البلد و موته، و لقد مرضت من ذلك الأحشاء، و الله تعالى يفعل فى ملكه ما يشاء، و يعذب من يشاء، و يرحم من يشاء، و لقد وددنا عمارتها بالعلم و العمل، و رفع الحرج عنها برفع ذوى الزرع و الزلل، و تدريس العلم و ذكر الله آناء الليل و أطراف النهار فى ذلك المسجد المشيد، فإن لأهل هذه المدينة تاهلا لهذا كله و لاكن الله يفعل ما يريد.

الرحلة الوثريلانية، ج ١، ص: ١٢٢

و فى مثل ما وقع لنا من التخزن و التحسر، و التألم و التضجر، من قلة العلم و أهله، فى مواطن حسنة من محله، يصدق قول العلامة الإمام الهمام أبى على اليوسى من أجل أصحاب الوالد، و ممن ظهرت بركاته عليه فى المصادر و الموارد.

و أود لو كانت مجالس بينهم يضحون فى سبل الهداية معلما

و شجا الحشا أن لم أجد من عالم يهدى الورا بها و لا متعلما

و فى الاستبصار فى أخبار الأمصار و الزاب كورة فيها مدن كثيرة و قاعدتها بسكرة و هى مدينة كبيرة كثيرة النخل و الزيتون و أصناف الثمار و هى مدينة مسورة عليها خندق و بها جامع و مساجد و حمامات كثيرة و حوالها بساتين كثيرة و فيها غابة كبيرة مقدار ستته أميال فيها أجناس التمر منها جنس يعرف بالكسبة و هو الصيحانى يضرب به المثل لفضله على غيره و جنس يعرف بالبازى أبيض أملس كان عبيد الله الشيعى يأمر عماله بالمنع من بيعه و التحريض عليه و بعث ما هنالك منه إليه و أجناس كثيرة يطول ذكرها لا يعدل بها و حول بسكرة رياض خارجة عن الخندق المذكور و بسكرة فيها علم كثير و أهلها على مذهب أهل المدينة و لها من

الأبواب باب المقبرة و باب الحمام و باب ثالث يسكنه المولدون و داخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة منها في الجامع بئر لا ينزف و داخل المدينة جنات يدخل إليها الماء من النهر و بها جبل ملح يقطع منه صخور جليئة و منها كان عبيد الله الشيعي و بنوه يستعملون في أطعمتهم و تعرف ببسكرة النخيل و شرب بسكرة من نهر كبير يجري في جوفها ينحدر من جبل أوراس و روى أن في الطريق إلى بسكرة جبلا يعرف بزبير

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٢٣

و قيل زفير في وسطه كهف فيه رجل قتيل يقدر انه مات منذ يومين لم يغيره مَرّ الدهر و لا تقادم الأزمان تبص جراحه دما لا يشك أحد انه قتيل يومين و تخبر الكافة عن الكافة أنهم لا يعلمون متى قتل قدما و قد نقله أهل تلك النواحي و دفنوه بأفئتهم ليتبركوا به ثم لم يلبثوا أن وجدوه في الكهف على حالته و حدث بذلك ثقات أهل تلك الناحية و الله فعال لما يشاء و قال محمد بن يوسف في كتابه أن هذا القتل في شق جبل بشرقي عين اوبان و هذه العين بين مدينة قرطاجنة و مدينة سبتة و ذكر انه يظهر كما ذبح من يومه و أنه هناك من قبل فتوح افريقية و لم يذكر من دفنه و الله اعلم بأمره اه- كلامه.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٢٤

ذكر خروجنا من بسكرة

ثم لما فرغ الناس من قضاء أوطارهم من بيع و شراء و ازدياد زاد ظعنا ضحى الثلاثاء خامس و عشرين من رجب و عشرين من شتنبر و نزلنا سيدي عقبه عصرا و هو عقبه بن نافع الفهري التابعي القرشي ولد في زمن النبي صلى الله عليه و سلم و لذلك عده بعضهم من الصحابة و لاه معاوية بن أبي سفيان على أفريقية و وجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها و قاتل من بها من النصارى حتى أفنى أكثرهم ثم قال أنى أرى أفريقية إذ دخلها أمام أمر أهلها بالإسلام و إذا خرج رجوع كل من أجاب دين الله فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة [القيروان] تكون لنا عزا للأبد فأجابه الناس لذلك و اتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين و قالوا قربوها من البحر ليتم الجهاد ثم رأوا أن ذلك لا يؤمن معه من كيد الروم لها فأبعدوها عن البحر مخافة من ملك القسطنطينية و قالوا قربوها من السبخة فإن أكثر دوابكم الإبل فتكون في مراعيها على بابها آمنة من البربر و النصارى و لما اتفق رأيهم على ذلك و كان موضع المدينة غيضة نادى عقبه جميع الوحوش و الهوام التي كانت بالغيضة و قال لهم أنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و نريد أن نبني هنا مدينة و أردنا أحراق هذه الغيضة فأخرجوا منها بإذن الله فخرج كل من كان فيها و اختلف أصحابه في موضع القبلة و جعلوا ينظرون مطالع النجوم ليهتدوا إلى سمتها فبات عقبه مهتما فرأى في المنام قائلا يقول له خذ اللواء بيدك إذا أصبحت فإنك تسمع تكبيرا و لا يسمعه احد غيرك فاتبعه فحيثما انقطع التكبير فاركز اللواء فانه موضع القبلة ففعل ذلك و سأل أصحابه هل تسمعون شيئا فقالوا لا- فاتبعه حتى انقطع التكبير فركز اللواء بموضع القبلة و لما كانت سنة إحدى و خمسين عزل معاوية عقبه بن نافع عن أفريقية و ولى مسلمة بن مخلد مصر و أفريقية فنزل مسلمة مصر و استعمل على أفريقية مولى له يسمى دينار و يكنى أبا المهاجر انتهى إلى أفريقية كره أن ينزل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٢٥

بلدا اختطه عقبه فمضى خلفه بميلين مما يلي تونس فاخط هناك مدينة و بناها فسمها البربر بتكبر و ان و أخذ الناس بعمارتها و إخلاء القيروان فدعا عقبه أن يمكنه الله عز و جل منه و كان مجاب الدعوة و لم يزل أبو المهاجر خائفا من دعوة عقبه و في مدة أبى المهاجر افتتحت جزيرة شريك و هي بمقربة من مدينة تونس حرسها الله و إليها ينسب باب الجزيرة من أبواب تونس و هي مشتملة على قصور كثيرة و مزارع فسيحة و خيرات جمه افتتحها حنش بن عبد الله الصنعاني بعثه أبو المهاجر فافتتحها و قتل أهلها و نهض عقبه إلى المشرق فلما دخل على معاوية رضى الله عنه و عاتبه فقال افتتحت البلاد و أتاني غلام الأنصار فأساء عشرتي فاعتذر له

معاوية رضى الله عنه و وعده بالرجوع إلى عمله و تراخى الأمر إلى أن توفي معاوية رضى الله عنه سنة ستين و قيل إحدى و ستين و ولى ابنه يزيد فولى عقبه بن نافع أفريقية و قطعها عن مسلمة بن مخلد و أقره على مصر فخرج عقبه إلى أفريقية فى سنة اثنتين و ستين فمر سريعا حنقا على أبى المهاجر فأوثقه فى الحديد و أمر بتخريب المدينة التى بناها و الرجوع إلى القيروان و عمارتها و أجمع على الغزو فى سبيل الله عز و جل و ترك بالقيروان زهير بن قيس البلوى و ودع أولاده و قال لهم أنى بعت نفسى من الله عز و جل و أوصاهم بما أحب و مضى فى عسكر عظيم حتى بلغ مدينة باغية و جمع النصارى بها فقاتلهم قتالا عظيما فانهمزوا و أخذ لهم خيلا كثيرة فلم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب و لا أصبر منها و كانت من نتاج جبل أوراس المطل عليها و مدينة باغية مدينة جليلة أولية ذات أنهار و ثمار و مزارع و مسارح و على مقربة منها جبل أوراس و هو المتصل بالسوس فلما هزمهم و قاتلهم قتالا ذريعا رحل عنهم و لم يبق عليهم كراهية أن يشتغل بهم على غيرهم فمضى إلى مدينة لميس باللام و الميم و الياء و كانت فى ذلك الزمان من أعظم مدائن الروم فخرج إليه أهلها فقاتلهم قتالا شديدا فانهمزوا و اتبعهم إلى باب حصنهم و أصاب مغانم كثيرة و كره المقام عليها فرحل إلى بلاد الزاب فسأل عن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٢٤

أعظم مدائنهم قدرا فليل له مدينة يقال لها أذنة و بها الملك بجمع ملوك الزاب و كان حولها ثلاثمائة و ستون قرية كلها عامرة قال اليعقوبى أذنة هذه أعظم مدن الزاب مما يلى المغرب و هى كثيرة الأنهار و العيون العذبة فالتقى أهلها فقاتلوه قتالا شديدا حتى يئس المسلمون من أنفسهم ثم أعطاه الله عز و جل الظفر فانهمز القوم و قتل أكثرهم و ذهب عزمهم من الزاب و ذلوا إلى آخر الدهر ثم سار إلى تاهرت فلما بلغ الروم خبره استعاثوا بالبربر فاغاثوهم و بادروا إلى نصرتهم فالتقوا مع المسلمين فاقتلوا قتالا شديدا فلم يكن للبربر و الروم بقتال المسلمين طاقة فولوا منهزمين و اتبعهم المسلمون فقاتلوهم قتالا ذريعا و انقضت جموع البربر و قتلوا حيث ما وجدوا و غنم المسلمون أموالهم و ذراريهم ثم سار عقبه حتى بلغ طنجة و كان بها ملك من ملوك الروم و كان شريفا فى قومه فأهدى إلى عقبه و لاطفه فتزل على حكمه فسأله عن الأندلس فقال له دونها هذا البحر الذى لا يرام فقال له دنلى على رجال البربر و الروم فقال تركت الروم خلفك و ليس أمامك إلا البربر و هم فى عدد لا يحصى و لا يعلمه إلا الله و هم انجاد فقال فأين موقعهم قال له السوس الأذنى و ليس لهم دين يأكلون الميتة و يشربون الدم و هم أمثال البهائم يكفرون بالله و لا يعرفونه فرحل عقبه حتى أتى جموعهم بمقربة من فأس فقاتلهم قتالا ذريعا و فرت بقيتهم و مرت خيل فى آثارهم و مر حتى بلغ السوس الأقصى و هى بلاد درعة و نزل إلى الصحراء و هى لمتونة و سبى منها سببا لم يدخل المشرق أغلى منه ربما بيعت الجارية منه بألف و فر الناس أمامه لا يدانيه أحد و لا يعارضه حتى بلغ البحر الأعظم المحيط فأدخل فيه قوائم فرسه و جعل يقول و عليكم السلام فقال له أصحابه على من تسلم يا ولى الله فقال على قوم يونس و لو لا البحر لأريتكم إياهم ثم قال اللهم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٢٧

أنك تعلم أنى إنما أطلب السبب الذى طلبه عبدك و وليك ذو القرنين فليل له ما الذى طلبه ذو القرنين قال أن لا يعبد فى الأرض إلا الله اللهم إنى مدافع عن دينك معاند من كفر بك ثم قال لأصحابه انصرفوا على بركة الله فتخلى الروم و البربر عن طريق عقبه خوفا من جيوشه سنة ثلاث و ستين من الهجرة.

و لما وصل طنجة أمر أصحابه فتقدموا ثقة بما دؤخ من البلاد و أنه ليس بأفريقية إلا من يخافه فتقدمت الجيوش و بقى نفر يسير من أصحابه فسار يريد تهودة و بادس لينظر إليهما و يترك بهما من الفرسان ما يحتاج إليه فلما انتهى إليها يعنى تهودة فيمن بقى من أصحابه و كانوا قليلا نظر إليهم الروم فطمعوا فيهم و أغلقوا أبواب حصونهم و جعلوا يشتمون عقبه و يرمونه بالحجارة و يدعوهم إلى الله عز و جل فلما توسط البلاد بعث الروم كسيلا البرنسى و كان كسيلا ممن أسلم على يد أبى المهاجر و ذلك أن أبى المهاجر نهض إلى المغرب فتزل عيوننا عند تلمسان تعرف بعيون أبى المهاجر فزحف إليه كسيلا فى جمع من البرنس فظفر به أبو المهاجر و عرض

عليه الإسلام و كان أبو المهاجر يحسن إليه فلما عزل أبو المهاجر و قد عقبه عرفه أبو المهاجر بحال كسيله فاستخف به عقبه و أتى عقبه بغنم فأمر بذبحها للعسكر فأمر كسيله أن يسليخ مع السلاخين فقال له كسيله أصلح الله الأمير هؤلاء غلمانى و فتيانى يكفوننى ذلك فقال له عقبه قم فقام مغضبا فكان كلما دحس يده فى الشاء مسح بلحيته و جعل العرب يهزؤون به و يقولون له يا بربرى ما هذا الذى تصنع فيقول انه جيد فيسكتون إلى أن مر به شيخ من العرب فقال لهم كلا أن البربرى يتوعدكم فعاتب أبو المهاجر عقبه على ما صنع من ذلك و قال له كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يتألف جابرة العرب كالأفرع بن حابس و عيينة بن حصن و تأتي أنت إلى رجل جبار فى دار قومه و مكان عزه و هو قريب عهد بالشكر فتهينه و تذله فتهاون عقبه بكلامه فلما راسلت الروم كسيله أمكنته الفرصة فانتهزها فقال أبو المهاجر لعقبه عاجله قبل أن

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ١٢٨

يجتمع إليه أمره فزحف إليه عقبه فتنحى أمامه فقال له قومه لم تنتحى عنه و الرجل فى خمسة آلاف و نحن فى خمسين ألفا فقال لهم نعم لكنهم فى الزيادة و الرجل قد افترق عليه عسكره و ليس عنده من يمدده فلما صار عقبه يريد أفريقيا زحف إليه البربرى و كان أكثر المسلمين بالقيروان مع زهير بن قيس فوافى كسيله عقبه بمقربة من تهودة فنزل و ركع ركعتين و قال أطلقوا أبا المهاجر فأطلق فقال له ألحق بالمسلمين و قم بأمرهم و أنا أعتنم الشهادة فقال له أبو المهاجر و أنا أعتنمها معك و كسر كل واحد منهما جفن سيفه و كسر المسلمون أجفان سيوفهم و أمرهم أن ينزلوا و لا يركب منهم أحد و قاتل المسلمون قتالا شديدا حتى بلغ منهم الجهد و كثرت فيهم الجراح و تكاثر عليهم العدو و قتل عقبه و أبو المهاجر و من معهما من المسلمين و لم يفلت منهم أحد و أسر محمد بن أوس الأنصارى و يزيد بن خلف القيسى و نفر معهما ففاداهم صاحب ففصه و بعث بهم إلى زهير بن قيس و من معه من المسلمين بالقيروان و أراد زهير الانصراف من أفريقيا إلى مصر فقبل له أهزيمه من أفريقيا إلى مصر فعزم على القتال و كان تبع ريب كعب الأحبار فقال له لمن تراها فقال لرجل من بلئى و أنت رجل من غسان فقال زهير الله أكبر أنا و الله رجل من بلئى جنى جدي جناية فى قومه فلجأ إلى غسان فاجتمع إلى كسيله جمع أهل المغرب فزحف يريد القيروان فاضطرت أفريقيا نارا و عظم البلاء فقام زهير فى الناس خطيبا قال يا معشر المسلمين أصحابكم قد دخلوا الجنة إن شاء الله و قد منّ عليهم بالشهادة و هذه أبواب الجنة مفتوحة فأسلوكوا مسلك أصحابكم أو يفتح الله عليكم دون ذلك فقام حنش الصنعانى فقال لا و الله لا نرى قولك و لا لك علينا من طاعة و لا ولاية و لا نرى أفضل من النجاء بهذه العصبه من المؤمنين فمن أراد منكم القبول فليتبغنى ثم رحل فنزل بقصر الماء و اتبعه الناس و لم يبق مع زهير إلا أهل بيته فى عدد قليل فلما رأى

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ١٢٩

ذلك زهير تبعمهم و أقبل كسيله بجنوده فلما قرب من القيروان خرج العرب منها هارين لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما كان معه من البربر و الروم فأسلموا لهم القيروان لم يبق فيها إلا الذرارى و الأثقال و الضعفاء فأرسلوا إلى كسيله يطلبون منه الأمان فأمنهم و أقبل كسيله حتى دخل القيروان فى محرم سنة أربع و ستين و أقام زهير مرابطا ببرقه إلى أن توفى يزيد بن معاوية فى النصف من صفر من عام أربعة و ستين و بويح لأبنة معاوية الأصغر بعده ثم توفى معاوية بعد شهر و عشرة أيام من بيعته و اجتمع الناس بالشام على مروان بن الحكم و توفى فى رمضان سنة خمس و ستين و ولى بعده ابنه عبد الملك بن مروان فلما اشتد سلطانه اجتمع أكابر المسلمين و سألوه أن ينظر فى خبر أفريقيا و تخليصها و من بها من المسلمين من يد كسيله فقال لهم لا يصلح لدم عقبه إلا مثله فى الدين فاتفق رأيهم على زهير بن قيس البلوى و قالوا هذا صاحب عقبه و أعرف الناس بسيرتهم و أولادهم بمطالبة دمه فوجه إليه عبد الملك يأمره بالخروج إلى أفريقيا ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين فكتب إليه زهير يعرفه بأمر كسيله و من معهم من جموع البربر فحشد له وجوه العرب و أهل الشام و بعث إليه بالأموال فلما ترادفت عليه الجنود أقبل فى عسكر عظيم إلى أفريقيا و ذلك فى سنة تسع و ستين فلما بلغ كسيله قدوم زهير دعا أشراف قومه فقال إنى رأيت أن أرحل عن هذه المدينة حوطه على أهلها من المسلمين فإن لهم عهدا و

خشيت أن يكون النصر مع المسلمين ولا- كنا نزل ممس على ماء كثير يحلم عساكرنا فان هزمناهم اتبعناهم إلى طرابلس و قطعنا أثرهم و تكون لنا أفريقية إلى آخر الدهر و إن هزمونا كان الجبل منا قريبا نتحصن به فارتحل عنها نزل ممس و بلغ

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣٠

ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان و نزلوا على باب سلع و أقام ثلاثة أيام حتى استراح الجيش و زحف في اليوم الرابع حتى أشرف على كسيلة آخر النهار فلما نزل الناس باتوا على مصافهم فلما أصبح صلى ثم زحف إليهم فالتحمت الحرب فانهمز كسيلة و قتل بممس و لم يجاوزها و مضى الناس في طلب البربر فقتلوهم قتلا ذريعا و رجع زهير إلى القيروان مخافه من بأفريقية و اشتد جزعهم و لجؤا إلى الحصون و الاقلاع ثم أن زهيرا رأى بأفريقية ملكا عظيما فكره الإقامة بها فقال إنما خرجت للجهاد و أخاف أن تملكني الدنيا فأهلكت و لست أرضى بها و لا بملكها و رغد عيشها و كان رحمه الله من رؤساء العابدين و كبار الزاهدين فرجع قافلا إلى المشرق فلما انتهى إلى برقة و كان الروم حين سمعوا برحيله منها إلى أفريقية خرجوا إليها بمراكب فغاروا و أخذوا نساء و قتلوا و نهبوا و وافق ذلك قدوم زهير من أفريقية فأخبر بذلك فأمر العسكر بالسير على الطريق و سار هو على الساحل طمعا أن يدرك سبي المسلمين فأشرف على الروم و هم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع و استغاث به الأسارى و الروم يدخلونهم المراكب فأمر أصحابه بالنزول فنزلوا و قصدوا الروم و التحم القتال حتى عانق بعضهم بعضا و كثرت النصارى فقتل زهير و من معه و ادخل الروم جميع السبي مراكبهم و ارتحلوا إلى القسطنطينية و لما انتهى الخبر إلى عبد الملك عظم ذلك عليه و بلغ منه لفضل زهير و دينه و كانت مصيبته كمصيبة عقبة رحمهما الله تعالى و غضب أشرف المسلمين و سألوا عبد الملك أن ينظر في سد ثغر أفريقية فقال لا أعلم أعظم من حسان بن النعمان الغساني و كان حسان بمصر في عسكر عدده أربعون ألفا عدة لما يحدث فكتب إليه عبد الملك يأمره بالتوجه إلى أفريقية و أطلق يده في أموال مصر يعطى منها من ورد عليه من الناس ما شاء فقدم حسان بن عسكر عظيم لم يدخل أفريقية قط مثله و ذلك في سنة تسع

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣١

و سبعين و سار حتى بلغ القيروان فسأل أهل أفريقية عن أعظم ملك فقالوا له صاحب قرطاجنة و كانت مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها و هي من توسن على اثني عشر ميلا- و بين تونس و القيروان مائة ميل فغزا حسان بن النعمان قرطاجنة و بها خلق عظيم فإنها كانت دار الملك بأفريقية فبعث الخيل إليها و كان البحر لم يخرق إلى تونس و إنما خرق بعد ذلك و عملت دار الصناعة فالتقى الفريقان و التحم الحرب بينهم و ضيق عليهم حسان فقتل مقاتلتهم و رجالهم فاجتمع رأيهم على الهروب و كانت لهم مراكب قد أعدوها فارتحلوا فيها بأهلهم و أموالهم فمنهم من ذهب إلى جزيرة صقيلة و منهم من ذهب إلى الأندلس فلما انصرف حسان علم أهل بواديهما بهروب أهل الملك فتحصنوا بها فوجه إليهم حسان فاحصرهم حصارا شديدا حتى دخل بالسيف و قاتلهم قتلا ذريعا و أرسل من حولها فأمرهم بهدمها و كسر القناة التي كان يأتيهم الماء عليها ثم إن حسان بلغه أن النصارى تجمعوا لقتاله و أمدهم البربر فزحف إليهم فقاتلهم قتالا- شديدا فانهمزوا و هرب البربر إلى إقليم برقة و قدم حسان مدينة القيروان فلما استراح الناس قال لهم دلوني على أعظم ملك بقي بأفريقية إذا قتل خاف البربر و النصارى و هابت المسلمين فلا تقدم عليهم فقالوا ليس بأفريقية أعظم من امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة و البربر و النصارى لها مطيعون و منها خائفون فلما اخبروه بذلك توجه لقتال الكاهنة فبلغ الكاهنة أمره فارتحلت من جبل أوراس في عدد عظيم إلى مدينة باغية فأخرجت منها الروم و أخبرت حصنها و ظنت أن حسانا إنما يريد معقلا يتحصن فيه و أقبل حسان في جيوشه حتى دنا بعضهم من بعض و ذلك في آخر النهار فكره حسان لقاءها في ذلك الوقت فبات الناس على سروجهم حتى أصبح الله بخير الصباح فزحف بعضهم إلى بعض و اقتتلوا اشد قتال و قتل من العرب خلق كثير و أسرت الكاهنة من أصحاب حسان ثلاثين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسي و كان رجلا شريفا و اتبعت الكاهنة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣٢

حسانا حتى خرج من عمل قابس و أسلم أفريقية و كتب إلى عبد الملك يخبره بما لقي المسلمون فوافاه كتابه يأمره بالمقام حيث يدركه الجواب فأدركه و هو بعمل برقة فأقام هنالك خمسة أعوام بموضع يعرف بقصور حسان [و له نسبت قصور حسان] ثم أعمل عبد الملك رأيه فيمن يبعث لأفريقية و استشار في ذلك فلم يجد مثل حسان فبعث إليه جيشا عظيما و مالا و سلاحا و كانت الكاهنة أطلقت أصحابه الذين أسرتهم و أحسنت إليهم إلا خالد بن يزيد فإنها أمسكته و كان لها ولدنا فقالت له أنى أريد أن أرضعك مع ولدئى هاذين فقال لها كيف يكون ذلك و قد ذهب منك الرضاع فقالت أنا جماعة من البربر لنا رضاع تتوارث به إذا صنعناه ثم عمدت إلى دقيق الشعير فثلثه بزيت ثم جعلته على ثديها ثم أمرت ولديها أن يأكلوا منه مع خالد فأكلوه و قالت لم أتم أخوة من الرضاع ثم إن حسانا وفدت إليه العرب و رجالها فدعا رجلا منهم يبعث كتابا إلى خالد و كان واثقا بأن خالدا لا يرجع عن الإسلام فلما أتى رسول حسان خالدا فوقف إليه في زى سائل فعلم خالد أنه رسول فاعتذر له و قال له تعود في غير هذا الوقت فلما انقضى المجلس أتاه و أخذ الكتاب فقرأه و كتب له في ظهره أن البربر متفرون لا- نظام و لا رأى لهم و إنما ابتلينا بأمر أراد الله أن يكرم به من مضى فاطو المراحل وجد في السير فإن الأمر لله و لن يسلمك الله و لا حول و لا قوة إلا بالله و جعل الكتاب في خبز و مضى الرسول فلم تلبث الكاهنة بعد ذهابه إلى أن خرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها و تقول ويلكم ذهب ملككم فيما يؤكل فافترقوا يمينا و شمالا يطلبون ذلك فستره الله عز و جل فلما وصل إلى حسان أخرج الكتاب من الخبزة قد أحترق فقال له حسان أرجع فقال له أنى أخاف على

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣٣

نفسى فالمرأة كاهنة فكتب له كتابا و جعله في نقره نقرت في قربوس سرجه و غطاه بالشمع فمضى الرسول حتى أتى خالدا فدفع إليه الكتاب و عرفه أن الأول أحرقت النار فرد جوابه و أعاده في قربوس سرجه و مضى فخرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها و تقول ذهب ملككم في نبات الأرض و أراه بين لوحين و كانت الكاهنة قد ملكت أفريقية خمس سنين منذ أنصرف حسان عنها و لما رأت إبطاء العرب قالت للبربر أن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن و الذهب و الفضة و الشجر و نحن إنما نطلب منها المزارع و المراعى و لا نرى لكم إلا خراب أفريقية حتى يئسوا منها و يقل طمعهم منها فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الزيتون و الشجر و يهدمون الحصون فحكى بعض المؤرخين عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رحمه الله أنه قال و كانت أفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا قرى متصله و عامرة و أخرجت جميع ذلك قال الشيخ محمد بن على شارح الشقراطية سمعت من يقول انه كان بأفريقية في القديم مائة ألف حصن من بين قصر و مدينة و أما ملكها إذا أراد الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس و دينار فيجتمع له مائة ألف فارس و مائة ألف دينار و لا ينقص من بلده شىء و الله أعلم بصحة ذلك و من تأمل أثر المدن و القصور الخربة بأفريقية و تدانى بعضها من بعض رأى من ذلك ما يقضى منه العجب و يستدل على كثرة عمرانها فى السالف و كذلك الشعارى التى بها إذا تأمل أشجارها فى مواضع على اعتدال و ترتيب تنبئ أنها مغروسة لأنبات و يقال أن ما فيها الآن من بطم إنما كان فستقا و إنما استحال إلى الصغر و إلى طعم آخر لطول ما أتى عليه من السنين و لا شك أن من أكل البطم أخضر وجد طعمه كطعم الفستق قال فلما بلغ كتاب خالد إلى حسان رحمه الله خرج بالجيش فلقى فى طريقه ثلاثمائة رجل من النصارى يستغيثون من الكاهنة فيما نزل بهم من الخراب و اخراب ضيعهم و وصل

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣٤

إلى قابس فخرج إليه أهلها و طلبوا منه الأمان و كانوا قبل ذلك يتحصنون و يتمنعون من كل من مر بهم و ترك عامله عليهم و قاطعهم على مال معلوم و استطال طريق القيروان فمال إلى قصور قفصة فنزلها و أهدى إليه ملوكها و ملوك قفصة و قسطنطينة و نفزاوة و بعثوا إليه يستغيثون من الكاهنة فسره ذلك و بلغ الكاهنة قدومه فرحلت من جبل أوراس تريده فى خلق عظيم فلما كان الليل دعت أبنيتها و أخبرتهما أنها مقتولة و كأنها تنظر إلى رأسها يركض به فرسان إلى ناحية المشرق و كأنها ترى رأسها بين يدي ملك العرب

الذى بعث بهذا الرجل فقال لها خالد فإذا كان هكذا فارحلى بنا و خلى لهم عن البلاد و أشار عليها أولادها بمثل ذلك فقالت كيف أفر و أنا ملكة و الملوك لا تفر و أورث قومي عارا فقالوا لها إنما تخافين على قومك فقالت إذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحدا فقال لها أبنائها و خالد فما نحن صانعون فقالت أما أنت يا خالد فستدرك ملكا عظيما عند الملك الأعظم و أما أولادى فسيكون سلطانا عند هذا الرجل و يعقد لهم على البربر ثم أمرتهم أن يركبوا و يستأمنوا إليه فركبوا و توجهوا إلى حسان فاعلمه خالد بقولها و أنها مقتولة و بوصول ولديها فأمر بحفظهما و أمر خالدا على أعتة الخيل ثم خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول انظروا ما دهاكم انظروا لأنفسكم فإنها مقتولة و التحمت الحرب و اشتد القتال و استحرّ القتل فى الفريقين حتى ظن الناس أنه الفناء ثم انهزمت الكاهنة و تبعها حسان حتى قتلها و قطع رأسها عند بئر يعرف ببئر الكاهنة و ولى حسان الأكبر من ولدى الكاهنة على جماعة من البربر ثم أن البربر استأمنوا إلى حسان فلم يقبل إلا أن يعطوا من قبائلهم اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوا و أسلموا على يديه فعقد لكل واحد من ولدى الكاهنة على ستة آلاف و أخرجهم مع العرب يجاهدون فى سبيل الله عز و جل بأفريقية و يقتلون الكفرة من الروم و البربر و النصارى و انصرف حسان

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ١٣٥

إلى القيروان و ذلك فى سنة أربع و ثمانين و قد دانت له أفريقية و كتب الخراج على من بها من النصارى و من كان على دين النصرانية من البربر و غيرهم و أقام بأفريقية لا ينازعه بشر إلى أن عزل عنها و وليها موسى بن نصير اه- ملخصا من شرح السقراطية للشيخ محمد بن على و بعضه بالمعنى و التقديم و التأخير.

ثم دخلنا لزيارته مع جملة وافرة من أصحابنا أصفرارا و قبره بالبسيط الذى تحت جبل أوراس الذى قتل به و هو مشهور يزار و عليه مسجد عجيب و حوله قرية عجيبة و فى وسط هذا البسيط و فى مسجده مأذنة كبيرة عظيمة متقنة البناء و فى أعلاها عمود يزعم الحجاج أن من تمسك بذلك العمود و حركه و قال أقسمت عليك أيتها المأذنة بحق سيدى عقبه إلا ما تحركت فتهدت و فى حجة سنة ٩٦ ست و تسعين طلع إليها بعض أصحابنا كالقاضى سيدى أحمد بن إبراهيم المراكشى و الفقيه سيدى عبد الله بن إبراهيم السملالى إمام مسجد طلحة و سيدى محمد بن عبد العزيز الرموكى و شاهدوا ذلك و صدقوه و أنكر ذلك الإمام شيخنا سيدى عبد الله العياشى قال و طلعت إليها و رأيت ذلك و ليس كما زعموا و إنما هو من إتقان البناء و فرط طوله فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز و ذلك يقع فى كل بناء و قال و غالب من دخل المسجد من الحجاج يكتب خطه على أساطين المسجد و حيطانه و يكتب اسمه و اتخذوا ذلك ديدنا و عادة مستمرة انتهى و قد دخلت إليه مرارا و صليت فيه سبعة الضحى و هذه المرة زرناه أصفرارا فى وقت لا تحل فيه النافلة.

انعطاف للمقصود و هو أننا ارتحلنا من سيدى عقبه [صبيحة] و توجهنا إلى

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ١٣٦

الزرائب فبتنا قبل وصولها و كنا فى ذلك اليوم قد توافينا بإبل كثيرة للبيع فاشترى منها أخونا سيدى أحمد الطيب ما شاء الله و مع ذلك هى أرفق مما سبق من بسكرة و قرية مدوكال و فى هذا اليوم لقينا ولد الشيخ الجيد الذى أزمه العرب فى يده و أيضا كلمته مقبولة و منفذة عند الترك الحاج بن فانه و كان رجلا عاقلا مطمئنا فى نفسه ثقيلًا يأخذ كثيرا بيد الضعيف و لذا لم يخب سعيه و لا أنكشف رأيه قدام ما معه من الستر و العافية عليه مع تداول أولى الأمر على وطن قسنطينة و عاداتهم إذا جاء وال جديد غير أهل الدولة الأولى ورد ما يصلح به من أصحابه و هو و الحمد لله مقبول محبوب عند كل متول و سبب ذلك دعوة أهل الخير وفق الله الكل إلى صالح القول و العمل ثم بعد ذلك ارتحلنا و وصلنا قرب الزرائب بل نحن البغالة تقدمنا إلى القرية فخرج ألها إلينا متسوقين بالبنادق و الحياك و الغنم غير أن بعضهم فهمنا منه أنه يريد الخطفة لأنه قد كثر الراكب من أهل الركب و نحن كذلك حتى وصل آخر الناس إذ جاؤا مفترقين فأتوا من غير بقاء أحد عندهم خوفا من الخطفة على أنهم منعوا أن يمر أحد وسط القرية خوفا من غوائل الركب.

نعم الطريق التي يهبط الناس معها ضيفةً إلى الوادي و الركب و الحمد لله لم يكن أعظم منه و ما طلع ركب من المغرب مثله في الكثرة فلما ضاق الطريق بالناس ذهب الناس واحداً بعد واحد و مر حوالاً بعد مر حوالاً و قد تقدمت أنا و جماعة من الفضلاء إلى أن وصلنا إلى روضة الشيخ سيدي حسن الكوفي الذي قبره قرب الوادي فنزلنا عنده و زرناه و من بركته أن الوادي أخذ أطراف الأرض القريبة له لقوته حين حملة و هو إذا وصل قرب الشيخ نكص على عقبه و رجع على حاله

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣٧

و هي بركة عظيمة نعم تخلف الفضلاء سيدي أحمد بن حمود و سيدي عبد الكريم و سيدي عيسى الشريف و الحاج محمد بن علي و الحاج عمر بن يوسف و الحاج عبد الله بن عمر فأتى رجل فأخذ مكحلة من يد سيدي أحمد بن حمود خطفة و لم يأخذها منه لأنه اشتد مسكه لها فظهر من حضر هنالك الشجاعة بحيث هرب الرجل إلى وسط القرية و تعبت الجماعة في أثره و جهوا المكاحل في اثر المذكور بالبنادق إلى القرية و اخذوا منهم سيفاً ممن كان معه لأنهم قد تمالوا في الواقع على ذلك و لم يقع منهم ضرب و لا غيره و مع هذا أن أصحابنا قد كان معهم دراهم كثيرة لم يصلوا إليهم مع كثرتهم و المنه لله و لرسوله.

نعم قد نزلنا عند ذلك الشيخ إلى قرب الظهر و هذا الشيخ ولي لله تعالى شريف زعم أهل بلده أنه طار من الكوفة [قلت قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر في رحلته ما نصه و جلسنا هنالك و قيلنا في قبه ولى الله الشريف سيدي حسن الكوفي و زعم أهل تلك النواحي أنه طار من الكوفة] و قد قيل له ذات يوم من لنا بأنك شريف فذهب ساعتئذ فرجع قريباً فإذا بيده صك فيه نسه كما كتب بخط كوفي و كان واديهم لا يجري فشكوا إليه ذلك فقال لهم جروني فيه ففعلوا فكان الوادي بعد ذلك يجري إلى الآن أخبرنا بهذا جماعة ممن يوثق بهم من أولاد سيدي ناجي الخاه- و لرجع إلى ما كنا بصددده و هو انه ركبنا من ذلك السيد نفعنا الله به بعد زيارتنا ثم بتنا في الطريق قبل غزران على وزن عمران و به واد جار و وجدنا عرب النماشه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣٨

فهم أقبح الناس و أكثرهم شرافتهم من يأتي للسرقة و منهم من يأتي للخطفة و لا- يحكم بعضهم في بعض و مع ذلك إنهم لم يكونوا في حكم سلطان تونس و لا في حكم بأى قسنطينة فإنهم هاربون في الصحراء و أخذوا منها بغلة و جملين و نحن أخذنا منهم فرسا و مكاحل أعطيناهم لصاحب البغلة و الجملين من غير رضی الشيخ خوفاً منهم أن يرجع على طريقهم فيأخذونه غير أنه القصاص مطلوب شرعاً.

ثم ظعنا و نزلنا غزران ثم نزلنا مرة أخرى قبل الحامة ثم بتنا فيها و كان قبل ذلك أانا شيخ الخنقة مع طائفه من الترك هارين من الجزائر ليذهبوا مع الركب أتى بهم ليلاً فخرجت إليه خوفاً من دخول الركب ليلاً فلقيته فطلبنا في الدعاء الصالح و طلبناه أيضاً ثم رجع إلى وطنه و كنت دخلت الخنقة في الحجة الأولى مع أمير الحجاج سيدي أحمد بن الطيب نجل الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الذي كانت ولايته ظاهرة شرقاً و غرباً و كراماته [و خوارق عاداته] نفعنا الله به آمين و رضى عنه لا تكاد أن تحصى و قد ألف الصباغ تأليفاً حسناً نحو الثلاثين كراساً [في كراماته و خوارق عاداته نفعنا الله به آمين] و الصباغ هذا ليس الصباغ الذي شرح الوغليسيه و الله اعلم و قد سمعت ممن يوثق به أنه أخذ عن الشيخ زروق فصار يترقى حتى أخذ زروق عنه و قد وشى به في زمانه إلى سلطان فاس فبعث الشيخ إليه سيدي أحمد بن يوسف رمزا فقال الذي يقدر على حله يعترضني و هو قوله نسجت برنسا من ماء، فغطيت به من الأرض إلى السماء، و جعلت عمامة من ثلج، و قناديل

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٣٩

من ريب، و فتائل من ضباب، ثم بعث به إلى السلطان فجمع أهل دولته مع من كان من العلماء في فاس ليفهموا ذلك الرمز فلم يكشف لأحد معناه و لم يفتح لهم فيه لأنهم لم يعتقدوا الشيخ فحرموا بركته لعدم تسليمهم له ثم قالوا للأمرير هذا كلام لا يفهمه إلا ذووه و قد جعلت رسالة في شرحه و حاصل معناه باختصار و الله اعلم بأسرار أوليائه أن البرنس المجعول من الماء هو قوله صلى الله

عليه و سلم من أسر سريرة مع الله كساه الله رداءها و سريرته هو الأنس بالمحجوب بزوال الحجب و برد الرضى به لأن بدايات الحب بالحرارة و كذا مقدمات الرضى أيضا فلما اتصف ببرد الرضى و أنس المحجوب نسج من ذلك برنسا و كنى عن ذلك بالماء و غطاؤه من الأرض إلى السماء قوله صلى الله عليه و سلم إذا أحب الله عبدا نادى به فى السماء فان فلانا أحبه الله فيحبه أهل السماء و الأرض أو كما قال عليه الصلاة و السلام و فى رواية فيحبه أهل السماء و يضع له القبول فى الأرض جعلنا الله ممن يحبه فلا محنة دنيا و أخرى بمنه و كرمه آمين.

و أما العمامة من ثلج فهى ما تقلده من أنوار الشريعة و سواطع الحقيقة إذ يظهر ذلك على صاحبها كالعمامة و التاج و لا شك أنهما كالثلج لقوله صلى الله عليه و سلم فيها المحبة البيضاء و لا شك أيضا أن مقتضى الشريعة و أمثالها يبرد حرارة النفس فى طلب رضاها فالشريعة كالثلج فى البياض و الابراد لما ذكر.

و أما القناديل من الريح فهى معانى الصفات و استنشاق شذا معنى الذات من غير مريء أن ذلك أعظم من القناديل فى الإشراق. الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤٠

و أما الريح فهو الوارد على القلب الذى يوجب حبا للمحب و شوقا للشائق و عشقا لذى عشق و خوفا و رجاء و بسطا و هيبه و أنسا و غير ذلك من المقامات إذ الوارد ريح قطعاً.

و أما الفتائل من ضباب فهى معانى الأسماء و الأذكار.

و أما الضباب فهى الحالة المستمدة منها المعانى فإنها كالضباب و لذلك كانت بداية للمبتدى إذ هو جاهل للعواقب و قد علمت أن الضباب يمنع بعض الإشراق بحيث لا يصفو لصاحبه وقت و لا يعلم حقيقة مقامه الخ فإذا علمت هذا علمت أن كلام الأولياء متشابه فلا يعلمه إلا الله الذى أورد عليهم و الراسخون فى العلم و المعرفة و لذلك لا يجزم بان هذا معناه بل إنما يقال لهذا أشار و الله أعلم من غير جزم لأن مشربهم قد يكون خاصا بهم فلا- يفهم ما عبر به عنه إلا- تلويحا و قد يكون عاما فيفهمه كل من كان فى ذلك المشرب لقوله تعالى قد علم كل أناس مشربهم فلم يبق إلا الاستسلام و التفويض لأمر الله تعالى غير أن باب الفتح ليس مسدودا عن العارفين انتهى.

انعطاف فى تكميل ما تعلق بأحوالنا ببسكرة فإننا قد بقينا فيها يومين فى شراء الرواحل و ما يختص من جهاز النواقل و مع ذلك نحن مشتغلون بزيارة الأفاضل الأحياء و الأموات مثل الشيخ الولي الصالح البدر الواضح سيدى أبى الفضل تلميذ أبى الفضل النحوى المشهور و الشيخ سيدى زرزور مع من فيها من الأولياء و إن كان عن بعد مع دخولنا المسجد الجامع الأكبر الواسع ذى البنيان الشاخ فلم يوجد فيما علمت أحسن منه و لا أوسع و لا لا أعظم فى المساجد المعلومه غير انه كالعدم فى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤١

زماننا لا ندراس العلم و أهله إذ لا تجد طالبا يقرأ القرآن أو يتعلم مسألة من العلم فيه إذ مثله لا يخلو عن ذلك و هذه المدينة قديمة مشهورة بالعلم و الولاية و الجد فى طلبهما فلما خربت و انجلى أهلها من جواره بان سكنوا و استقروا فى البساتين انعدم ذلك منه فساء أمره و إن عظم جرمه نعم حتى صلاة الفرض بالراتب انقطعت منه فلم يبق فيه إلا صلاة الجمعة و قد علمت ما فيه من التردد و أما بعد المسجد من العمارة الآن فلا- يضر فى صلاة الجمعة فما عسى أن يחדش فى ذلك فمردود لأن اتصال الخراب بمسجد الجمعة كاتصال العمارة به و إن بعد جدا كمسجد عمرو بن العاص بمصر العتيق و انعكاس الدخان على الخراب كانعكاسه على العمارة و لا يشترط انعكاسه حقيقة بل انعكاسه حكما كاف و ان لم توجد عمارة أصلا فضلا عن الخراب كتوسطه فى البلد بان تكون العمارة محفوفة به أى بجوانبه كأكثر مساجد المنشية فأن أكثر مساجدها كذلك و كذا غيره خارج طرابلس كالساحل و مسراته و ما فيه البساتين المسكونة و لا- شك فى انعكاس الدخان عليه و ذلك كأبى فلم يبق لقائل ما يقول فلا يشك عاقل فى صحة الجمعة فى مسجد بحدوس فى زمورة و ما زعمه بعض الطلبة كما كنت اسمعه من القدح فى الصلاة فيه لعدم انعكاس الدخان ظنا منه أن دخان

العمارة لا بد أن يتصل بجداره و ذلك غير صحيح إذ الحق ما سمعته أنظر تلامذة الأجهوري كالعلامة المحقق الشيخ عبد الباقي و شرح الزروق على القرطبية و غيرهما من دواوين المالكية و إياك و الإسراع إلى الإنكار فانه غرة و مكر لصاحبه فيها عجا لمن لم يشاهد النقول و لا الأوطان التي استقر فيها ذوو التصانيف المشهورة و التأليف المعتمدة فإنهم أمروا بتلك المساجد البعيدة المحفوفة بعمارة بحيث إذا انعكس الدخان لا- يصل إليها البتة و إنما المراد بانعكاسه بحيث يكون متوسطا في العمارة و ان لم يصل دخانه لجداره هذا هو المراد بدليل رؤية العلماء لذلك

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤٢

و مشاهدتهم لما هنالك و الإقرار عليه كاف و مأذنته عظيمة و قد تقدم بيان ما فيها من الدرج و مع ذلك أنها واسعة بحيث يصعد إليها الدواب بالأحمال المثقلة من غير تعسف و لا تكلف لكن أقول كما قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر اجتمع عليها أمران ظلم الأتراك و ظلم الأعراب فكانت بينهما كالكرة في أيدي الصبيان مع نفوذ الوعيد فيها من أمر الوباء حتى صارت في قلبه بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار بل عن أوصاف المدن الصغار فهي الآن لا حمام فيها و لا سوق يعتبر منها غير أن الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيما و ما كان من المدارس و الأحباس التي لم توجد في الأمصار هي في أيديهم يأكلون منها و ينتفعون بها أتم ارتفاع كالأملأك الحقيقية المباحة بل هي ليست لهم و لا- أنهم من أهلها بل لما تمردوا و طغوا جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما و عدوانا و هذا و العياذ بالله سبب اندراس العلم و أهله من كل وطن يوجد فيه ذلك.

و قد سمعت أن القاضي و المفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم و ارتشاء لديهم و كذلك في غيرها من عمالة الجزائر و قد قال بعض الفقهاء ممن شرح على المختصر كالشيخ إبراهيم الشبرخيتي أن المتولى للأحكام الشرعية بإعطاء منه فإحكامه مردوده و إن وافقت الحق و صلاته للجمعة باطله إن كان إماما فإن بطلت عليه بطلت على جميع من اقتدى به فينبغي للإنسان أن ينظر من كان سالما من هذه الجرة الكبيرة و الفرية العظيمة فيقتدى به أقول قد كان والدي رحمه الله و نفعنا به متبعا للسنة النبوية و مقتفيا للأحكام الشرعية حتى صارت له السنة طبيعة من طبائعه و صفة من أوصافه جعل المدخل و ابن أبي جرمة أمامه بحيث تؤخذ السنة من فعله و قوله و حركته و سكونه و اعتقاده إذا ذهب إلى بجاية و أدرك الجمعة هناك فلا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤٣

يصلها مع أئمتها لما علم منهم ذلك و إنما يصلها ظهرا معتذرا بما ذكرناه و ينهى مريد الصلاة معهم على انه راغب في تحصيل فضلها و قد اهتم بشأنها إذ يقول بوجوبها في أكثر القرى من بلدنا و كان رضى الله عنه يذهب لتحصيل فضلا لا بعد المساجد في وطننا نحو الثمانية أميال أو أقل لقله الاعتناء [بمن قرب منه بها و كذلك الأحكام الشرعية فإنهم لا اعتناء] لهم بها إذ كم من شعيرة من شعائر الإسلام قد تركت و نبذت في وطننا بان بدلت بالضد و العياذ بالله تعالى و مع هذا فان أهل وطننا لم يعدوا علماء و لا إفادة في كل العلوم أو جلها قراءة تحقيق و بحث غير أن النفع مقصور على الإذعان أي الامتثال نعم الآن و الحمد لله قد رجعت الناس إلى الإذعان بها و إقامة الجمعة في أكثر الأوطان و المواطن على الوجه الشرعي بل أكثر الأحكام العادية من أحكام الجاهلية قد تركوها و نبذوها وراء ظهورهم و الحمد لله على ذلك فإنهم كانوا قبل ذلك يتخذون رؤساء جهالا فافتوا بغير علم فضلوا و أضلوا الغير و من عاداتهم القبيحة و أفعالهم الشنيعة قطع الميراث للنساء بل زادوا في الضلال أن الرجل ذا مات و رث أخوه ماله و زوجته كما كان في الجاهلية قبل الإسلام إذ المشرع تلك الأحكام و هو الشيطان حي لم يمت فقويت دسائسهم بكثرة المخالفة نعم الإنسان إذا رأى أبا له أو ابن عمه ذا مال قتله و أخذ ماله و أهله إلى غير ذلك من أوصافهم الرديئة و العياذ بالله.

تمتة و انعطاف إلى ما كنا بصدد من الإقامة بالمدينة المذكورة و زيارة الفضلاء فيها الأحياء و الأموات على سبيل الجملة و التفصيل من غير تخصيص عن العامة

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤٤

و الخاصة و الأفاضل و الأوباش من النساء و الرجال حقق الله لنا بركة الجميع بمنه و كرمه هذا و أن التعبير عما سبق لهذه المدينة من الفضل و الاعتبار، و الاشتغال بالعلم و الأذكار، و من كان فيها من المقربين الأخيار، أفاض الله علينا من بركاتهم، و رزقنا من نفحاتهم، التعبير و التفوه بمحاسن أهلها و ما فيها من البساتين المنتخبة، و الأشجار الطيبة، و الأحوال المزخرفة، و الأبنية المشرقة، العالية الشامخة المتلطفة، فالإيق الضرب عنه صفحا، و الطي عنه كشحا، بعد الاغتنام بما هو مقصود بالذات الذي هو الاقتباس من أنوارهم و التحلى بحلهم و الاستمداد من مددهم الذي كان سابقا و لاحقا بحسب الزمان و المكان و الأشخاص و الأنواع فجدير أن يكون لنا نصيب من ارض الكرام [أمر محقق و حال مشهور] نعم قد ظعنا بعد التمكين و الاستيفاء من أهلها ما قدر لنا حسا و معنى إلى القرية الطيبة الشريفة بتربة صاحب النبي المختار صلى الله عليه و سلم و سيدنا و مولانا ذى الفضل و المجد الأثيل عقبه بن نافع القرشي الخ فلما وصلنا إليها نزلنا تحتها و فرغنا من أشغالنا المتعلقة بالنزول من بناء الخيام و حط الرحال و رعى الإبل و الصلاة و شروطها إذ نزلنا فيها عند الظهر أوائل رجب سنة ١١٧٩ تسع و سبعين و مائة و ألف ذهبنا إلى زيارة المشار إليه ذى الأنوار، التي أقتبسها من صحبة النبي المختار، صلى الله عليه و سلم و كرم فكان الفتح منه لأنه باب الله الأعظم، و سلمه المضىء الأفخم، و قد قال تعالى و أتوا البيوت من أبوابها و هو أحسن الأبواب و الوسائل على أننا قد اعتصمنا بالعروة الوثقى و إن كان معنا بعض سىء الأدب معه لأن من أساء الأدب مع واحد

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٤٥

من أصحابه فقد أساء معه صلى الله عليه و سلم و لما وصلنا إلى قبرة الشريف، و تربه المنيف، أتينا إلى قبالة وجهه و جسده الظريف، كما ورد به الخبر و هو انه من أتى زائرا لضريح ولى من أوليائه أو نبي من أنبيائه أو صالح من صلحائه يقف عند رجليه أو عند وجهه مستقبلا المزور ثم يسأل الله تعالى بجاهه أن يمنّ عليه بغيئة المسئول و المأمول من خير الدنيا و الآخرة و قد رأيت في بعض الأخبار و أظنه في حلية أبي نعيم أنه يقول عند ذلك اللهم بجاه أنبيائك و أصفيائك و صهيب و عمار بن ياسر و أويس القرني و عبد الله بن الحصين و عبد الله بن المبارك [و أبي يزيد البسطامي] و أبي القاسم الجنيد و لا أدري هل زاد معروفا الكرخي أم لا و بجاه صاحب هذا الضريح فلان بن فلان أن تمنّ على بكذا و كذا أى بأن يعين حاجته دنيوية أو أخروية فانه يجاب لذلك بمنه و كرمه و جاههم و فضلهم و قد فعلنا ذلك و الحمد لله على منته و التفضل ببركته، و الوصول إلى تربته، و التمتع بمشاهدته، فابتهلنا في الدعاء بجاهه و بجاه من خلقت الدنيا و الآخرة من أجله صلى الله عليه و سلم.

[نعم عقبه هذا قد ولد في زمانه صلى الله عليه و سلم و لذا قيل أنه صحابي].

لطيفة فان الوقوف عند أبواب الأولياء و السؤال منهم و الاحتياج إليهم و النظر في وجوههم أو مشاهدة قبورهم و التضرع لله بين أيديهم و التحبب لديهم و التوثق

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٤٦

فيهم و الشعف بهم و الذل و المسكنة عندهم لقدر جليل عند الله و الله أجل و أعظم من أن يرد من هذا وصفه و عليه حاله خائبا حاشاه من كريم أن يفعله و ما عداه من ذى جود أن يعمله لأن المحبوب عند الله قريب لديه يستحى أن يرد من تشفع به و أيضا لا يوفق إلى زيارتهم و محبتهم و قضاء مآربهم إلا سعيد و أنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم لأنهم أحياء في قبورهم و الله تعالى يقول و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون الآية هذا في شهداء القتل و شهداء المحبة أفضل لأن شهداء القتل أرواحهم في حواصل طيور خضر يسرحون بها في الجنة و شهداء المحبة بأجسادهم في حواصل طيور خضر يسرحون بها في الجنة أيضا فانظر هذا الفضل العظيم اللهم اجعلنا من أهله و حققنا بكرمه و منه انتهى.

و لما فرغنا من زيارته و زيارة مسجده و هو مسجد عظيم يستحسنه كل من رآه سيما أنوار هذا الصحابي مشرقة عليه و على زائره و على محبيه و محب محبه و مجاوره.

وزرنا من كان في القرية أيضا وقد قيل أن بعض الصحابة مدفون في بعض نواحيه وقد زرناه والحمد لله وزرنا من كان في القرية جملة وتفصيلا أحياء و أمواتا خصوصا الأشراف المستقرين فيها كمشائخهم و أفاضلهم وهذه القرية كثيرة النخل و المزارع و هي على ماء جار حلو عذب بارد في الصيف و مع ذلك فهي أرض حارة في الصحراء غير أن ماءها يأتي من الجبال مملوك لبعض أهل القرية و من كان خارجا منها و قد تشرفت هذه القرية على سائر القرى من الزاب و على مدينة بسكرة بهذا الصحابي العظيم افتخاره و السني أنواره و العلي أسراره وهم في عيش هنىء

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤٧

و أمد سني غير أنه أصابت الشرفاء جائحة الفتنة و عوائق العداوة فهم فريقان فريق في القرية و هو المتمكن المعتصم بأولى الولاية من الترك و المتمسك بجاههم إذ من تمسكت بهم تفرض على غيره و فريق آخر خارج عنها مستقر بغيرها من قرى الزاب و مدينة بسكرة حتى يفتح الله عليهم و هو خير الفاتحين لأن الدهر قلب إن دام لشخص يوما فبعده يتقلب قال تعالى: (وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) الآية غير أن جدهم خير الخلق و أفضلهم على العموم يذب عنهم و يحفظون لأجله فأن كان الصالح يراعى إليه في أولاده فأولى النبي صلى الله عليه و سلم في قرابته و كيف لا و الله يقول: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى).

لطيفة قال الشيخ سيدى أحمد زروق نفعنا الله به في حقهم أنه يجب على الناس تعظيم الأشراف أى تعظيم و محبتهم و اعتقادهم لوجه جدهم الذى انتموا إليه و انتسبوا إليه و إن يعتقدوا أيضا أن الله يغفر لهم لا لشيء أسلفوه و لا لأمر فعلوه و إن وقعت منهم أذية لأحد فيجب أن يعتقدوا كالأمر السماوى من الله و كالغرق و الحرق و أما هم فيجب عليهم أن يعتقدوا أن معصيتهم أكبر المعاصى لأن الفلاح مع الملك يعمل ما ليس بصلاح و يقابل بالسماح و الوزير يجلس مع الملك على السرير و يخنق بالحرير اهـ.

فأنت ترى أيها المخاطب إلى هذا الجانب الأعلى العظيم فكيف يبغضون و يؤذون و أن ذلك من أكبر المقت و قد قال القسطلانى فى المواهب اللدنية فى السيرة النبوية من المعاصى التى لا تغفر أصلا و لا تقبل فيها التوبة بغض آل النبي صلى الله عليه و سلم لقوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ) إلى قوله: (وَ اللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤٨

الْفَاسِقِينَ) انتهى.

فإن قلت كل الناس يدعى الشرف و تعظيمهم مشقة عظيمة و عسر عظيم فى الدين و تصديقهم تعسف فيه فكيف العمل فهل يصدق الجميع أم يكذب الجميع أم البعض دون البعض و تصديق الأول باطل و كذا الثانى لبطلان كون الجميع شرفاء أو لا شرف فيهم و كذا الثالث باطل للتحكم لاستواء الناس فى نظر العقل.

قلت الحق بين و الدواعى كلها باطله فلزم أن يكون ممنوعا و سند المنع أن الأنوار النبوية ظاهرة بينة لا غبار عليها.

و قد قيل لبعض الأشراف ما منعك أن تتوسم بعلامة الشرف فقال منعى من ذلك أن أنوار النبوة هى أدل دليل فكيف يصح أن يكون لها علامة من غيرها و لذا قيل:

جعلوا لأبناء الرسول علامة أن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة فى كريم و جوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

فإن قلت هذا الأرباب القلوب و من يراعى الخواطر و كل الناس ليس عليه لغبلة الهوى و السلطان الجهل و التعلق بالسوء و ذلك صدأ مرآة الضمائر و العقول فلا يظهر الشريف من غيره لكل الناس إذا فلا بد من علامة أخرى تشترك فيها الناس كلهم.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٤٩

قلت الأمر كما ذكرت غير أن الأحكام الشرعية و القضايا الإلهية حكمت بأن الشريف مصدق فى نسبه كما يصدق فى ماله فإن حيازة الأموال معتبرة شرعا كذلك حيازة النسب و الحيازة فى الأموال لا بد و أن تكون فى أمد طويل بحيث يقطع أن هذا لمن حازه و يقوم

الأمد الطويل مقام البينة القاطعة به كذلك النسب فلا بد و أن يكون أمدًا طويلًا يقطع فيه العقل و العادة بأنه لا خلل فيه إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا و حينئذ الناس مصدقون في أنسابهم لوجود الحيازة فيها كحيازة الأموال قاله الأجهوري إذ قال الناس على ما حازوا من أنسابهم فيصدقون فيها عملاً بالحيازة كما يصدقون في الأموال عملاً بها انتهى بالمعنى.

قلت قال الشيخ عبد الباقي في باب مصرف الزكاة بكسر الراء الشرف يثبت بالشهرة اه- فأنت ترى أن الشرف يثبت بالحيازة و بشهرته فتبنى عليه أحكامه من تحريم الصدقة و تعظيم جانبه لأجله و ثبوت حقه فيما لا حق فيه و غير ذلك فيما يثبت فيه اه-.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو انه لما فرغنا من زيارته و زيارة غيره رجعنا إلى الركب و أقمنا تلك الليلة في حفظه و عنايته إلى أن تنفس الصبح قام الركب لتجهيز الرواحل من هذه القرية نعم هذه القرية ليس لها نظير فهي أحسن ما وجد في البلاد مزارع و أشجار و مياهها كما تقدم و حسنها في المعنى أكثر بالسيد عقبه و إن كان ليس بصاحبى و إنما سمي صحابيا لكونه ولد في زمان النبي صلى الله عليه و سلم فمن نظر إلى ذلك سماه صحابيا و إلا فالصحابى حقيقة هو من اجتمع بالنبي صلى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٥٠

الله عليه و سلم اجتماعا متعارفا بحيث تقضى العادة أن ذلك الاجتماع يفيد الصحة احترازا عن الاجتياز فلا تثبت به الصحة و لا يشترط فيها الرؤية و لا الرواية عنه و إنما هو تابعى لأن من رأى الصحابة تابعى و نور النبوة إنما يشاهده شخص أو أشخاص و هو فتح إلهي و وهب رباني و نور صمداني لأن خواص النبوة و أنوار الولاية موكلة لأهلها من المحبوبين لديه جعلنا الله منهم آمين.

انعطاف و الخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل و أشجار في وسط واد بين جبلين و قد قيل أنها تشبه مكة في وضعها و في البركة غير أن التشبيه في بعض التغالى لكن كلام الأولياء مقبول فيؤول بما يوافق الشريعة من غير تلبس و لا التباس نعم لها فضل عظيم سيما إظهار العلم فيها فإنهم مشغولون بالنحو و الفقه و الحديث خصوصا مختصر البخارى لابن أبى جمرة و أما علم الكلام و المنطق فمنعدم في محلهم رأسا و قد سألتهم عن عدم الاشتغال بعلم التوحيد فقالوا و هل يحتاج الشمس إلى دليل في قوة قضية قائلة أن الله لا يحتاج في معرفته إلى دليل و برهان و اتقان عقائد كأنه ضرورى عندهم زعما منهم أن أبى جمرة نهى عن الخوض فيه بأن قال يحرم الخوض فيه و إنما يقرأ على مذهب السلف الصالح أى الصحابة رضوان الله عليهم.

قلت هذا من الحرمان البين و الخذلان المتمكن و القساوة الجليلة إذ لا يمكن هذا شرعا فان العلم بحقائق الصفات و الحكم بوجوبها للذات العلية أى الجزم بذلك من غير دليل عقلى و كذا ما يستحيل عليه و ما يجوز في حقه ظاهر الرد شرعا إذ اختلف فيمن هذا وصفه هل هو مؤمن لكونه جزم بالعقائد و الحكم بها للمولى جل جلاله مع عصيانه و هو الراجح عند الكثير من العلماء أو كافر يخلد في النار مع سائر الكفرة و هو الذى رجحه الشيخ السنوسى فى شرح كبراه بان نسبه للمحققين [فى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٥١

برهان الوجدانية] كالشيخ الأشعري و إمام الحرمين و غيرهما إلى أن قال و هو رأى فأنت ترى أيها المخاطب أن هذه دسيسة دسها اللعين لهم و لم يتفطنوا لما هم عليه من الكفر إجماعا أن لم يحصلوا مرتبة التقليد أو على الخلاف أن حصلوها و أى مصيبة و بلوة و محنة أعظم من الكفر بالإجماع أو على الخلاف فإن قالوا هذا ممنوع فى حقنا و سند المنع كوننا على العلم فإننا نحفظ القرآن و نفهم السنة و أدلتها كافية و تقليد المعصوم كاف حسبما صرح به غير واحد كابن عرفة و غيره فما هذا إلا تحامل منك.

قلت هذا لا- يسمن و لا- يغنى من جوع لما علمت أن بعض المعتقدات كالوجود و السلب غير الوجدانية فان فيها خلافا فى الاكتفاء بدليل النقل فيها أو لا بد من دليل العقل و هو الراجح [فلا بد فيها من دليل العقل فلا يكفى فيها دليل النقل] إذ لو عرف بدليل النقل لدار [و ما دار لا يحصل علما] و بيان الدور ليس هذا محله و كذا مصححات الفعل كالقدرة و الإرادة و العلم و الحياة فلا بد فيها من دليل العقل أيضا و حينئذ ما تخيلوه من الاكتفاء فى التوحيد بأدلة النقل واضح الرد و ما ذكره ابن عرفة من الاكتفاء به أما خاص بالمعتقدات كالذى يرجع للكمال كالسمع و البصر و الكلام و نفى النقائص عنه فإنه يكفى دليل النقل فيها و لذا قال بعضهم أعنى ابن

زكري:

قالوا حديث النقص و الكمال من الخطابة في الاستدلال

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٥٢

و الخطابة بفتح الخاء قضايا مقبولة تصدر من المقبول غير النبي كالصالح و العالم و العامل و من حلى بالمقبول من الله و عندهم أدلة النقول للمعقول من الخطابة أو كلام ابن عرفه عام فيها غير أنه ضعيف جدا فلا يصح الاستناد بل لا يصح ذلك لأن من لم يعلم الله كيف يعلم أن الكلام كلامه و لعله أن يكون الكلام المستدل به لغيره و ما ذكره ابن أبي جمرة أيضا من حرمة الخوض في علم الكلام إنما هو بعد معرفة القدر الواجب فالقدر الواجب المكلف به البرهان العقلي و لو إجمالاً هو ما يحصل للقلب اطمئنانا بحيث لا يقول سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته و الإجمالي هو المعجوز عن تقريره و حل شبهه و الذي يحرم الخوض فيه هو المختلط بشبهه الفلاسفة ككتاب الفخر و طواع البيضاوي و غيرهما هذا غير راسخ في السنة فلم يبق إلا كونهم على الخطأ في الاعتقاد نعم كل أحد من الناس لا بد و أن يكون له ما يشعر بالنقص و العصمة للأبياء و أما الكمال فهو لله عز و جل.

تمتة أولاد الشيخ سيدي ناجي قد حازوا المعالي من قديم الزمان و قد وجدت كثيرا من الفضلاء منهم في محلهم كسيدي محمد بن الطيب و سيدي أحمد بن ناصر و فقهاء و قراء و فيها الولي الصالح تلميذ الشيخ سيدي أحمد بن ناصر و هو سيدي عبد الحفيظ أعني أولاده و أما هو فقد وجدته ميتا قبلي بنحو شهرين و قد أخذ عنه مباشرة و إنما أدركت الذي أخذ طريقه و هو سيدي بركات و إخوانه و أولاده و سيدي السعيد و مدرس المسجد و غيرهم من طلبه العلم و فضلاء الوقت فإن النحو عندهم يعتنى به الكبير و الصغير حتى أنهم اشتهروا به اشتهارا بينا و بالجملة فمحلهم مشهور بالفضل و العلم و الهمة غير أنه يتحاسدن عن تولية الرئاسة التي كانت بأمر رباني و الآن صارت بالضد و العياذ بالله أصلح الله حالهم و وفق كلمتهم و نفعنا ببركة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٥٣

أسلافهم و بركتهم آمين.

و في تلك الحجة و هي عام ثلاثة و خمسين و مائة ألف (١١٥٣) ذهب معنا العلامة الفاضل و المنور الكامل تلميذ سيدي عبد الحفيظ المذكور سيدي أحمد التليلي كان كريما فاضلا بحيث لا صبر له عن إطعام الطعام في الطريق و كان يعرف السير كثيرا على أنى زرت معهم في بدر و مكة و المدينة المشرفة فكأنه هو الذي وضعهم في التراب و له يد في العلوم كلها من غير تخصيص أى العلوم الظاهرة فقد كان واحد عصره و فريد زمانه و كذا علوم الحقائق و مثله علم الأوفاق فانه لا نظير له فيما علمت و مع ذلك أنه موفق غاية التوفيق، و أقبل على الله بكله بالتحقيق، و قد طلبني لعلم الأوفاق لأخذه عنه فامتنت لكون قلبي حينئذ متعلقا بالله بحيث لم يترك لي سواه بان غلب على سطوة الوارد و كان رضى الله تعالى عنه يكتب المعارف يسمعها مني حين يتقوى على سلطان الوجد و كان بديع الخط سريع اليد فيه و كان ينسخ كراسا و أظنه من القالب الكبير في برقة و نحن مسافرون و أما يوم الإقامة فكان أكثر من ذلك و قد زبر في برقة رحلة الشيخ سيدي أحمد بن ناصر و زاد كتاب الصباغ في كرامات الشيخ سيدي أحمد بن يوسف و قدر الجميع ما يقرب من ستين كراسا و رجعنا إلى أن نزلنا توزر و نفضة إلى أن زرنا جميعا الولي الصالح، و القطب الواضح، سيدي عبد الحق فيها و لم تكن له طريق و إنما طريقه من قابس إلى قفصة ثم إلى محله فريانة و هي بين قفصة و تبسة و قد زرت محله و الحمد لله و انفصلنا عنه حين أرتحلنا من نقطة و عند الافتراق أزال جبهه صوف عن جسده فالبسها لي و علمت أن الله تفضل على بذلك ثم انه عند الانفصال قال لي أخاف عليكم من المحاربين بان قال قد ثبت عندي بأنهم خارجون إليكم و لا أدري أذلك من طريق الكشف و هو

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٥٤

الأنسب به و الأليق بمقامه أو سمع ذلك ممن يوثق به فلما أخبرني بهذا رسم جدولا في الأرض و خط خطأ و أمر جميع الحجاج أن يمروا بذلك الخط فمر عليه جميعهم إلا كاتب الشيخ كان متخلفا عنا لم يمر به.

و في ذلك اليوم تلاقينا مع عدو نفسه المحارب لله و لرسوله الشيخ ابن روب و هو شيخ من شيوخ نفاوة خارجا عن ولاية صاحب تونس بان استقر في وادي ريغ و الله اعلم في ثلاثين من الخيل و عشرين رجلا و معهم السلاح القوى و الزاد على الإبل و أتى إلينا عند صلاة العصر فأعلمنا بأننا حجاج و وفد من وفود الله و رسوله و أظن أن الشيخ أعطى له شيئا أحسبه فضة فذهب عنها و نحن جددنا في السير خوفا من شره إلى ثلث الليل أو نصفه فلما ارتحلنا و الماء عندنا قليل و وصلنا إلى الماء عند الضحى فغاروا علينا و نهبوا فرسا للشيخ فردها منهم بالقهر ثم غلبونا على الماء بان نزلوا عليه و نحن خارجه و مع هذا قد عدنا الماء من الركب غير انه موجود عند بعض الناس نحو الخمسة أزقة و كذا المكاحل نحو العشرة و قد داروا بنا كالحلقة و كثر الرصاص بأن ينزل علينا كالمطر و مع ذلك و الحمد لله أن من وقعت فيه رصاصة نزلت كالطين بحيث لم تضر أحدا إلا الكاتب الذي لم يمر على الخط أتت بندقة و وقعت فيه تحت السرة بان دخلت في الجلد مقدار أنملتين فرجعت بإذن الله غير انه مكث أياما فتضرر من ذلك ثم عفى و الحمد لله و أما هم فقد مات منهم و الله أعلم اثنان أحدهما أصيب برأسه و الضارب له الحاج خليل بن قاصد على

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٥٥

الزموري ثم التركي هذا هو المحقق و قيل انه الحاج محمد بن معمر اللمداني صهر و الي الجزائر كور عدي و الآخر لا علم لنا بضاربه و لا- بمحل الإصابة و أما الخيل فقد مات منها نحو ثلاثة أو أقل و الحرب من الصبح إلى قرب العصر نعم صلينا على نحو صلاة المسايقة بالقسمه فرقة كانت تجاه العدو و الأخرى تصلى مع الإمام فلما فرغت ذهبت تجاه العدو حتى صلت الأخرى ثم حدث لنا العزم التام و الحزم العام أن نذهب إليهم دفعة إلى المطعن و يكون القتال على الماء أما أخذونا أو أخذناهم فلما رأوا تصلبنا و عدم الإذلال له بل لا نزال نزيد في الشجاعة ذهب إليهم فقير سيدي أحمد بن الشيخ الدراوي فوجدهم خائفين مرعوبين ثم رجع الفقير فمكثنا غير بعيد حتى أتى إلينا شيخهم مع فارس من فرسانه يطلب العفو و الدخول إلينا و نحن نمتنع من ذلك فاشترطنا عليه أن دخل يترك فرسه عن بعد منا و يأتي إلينا على رجليه بلا سلاح فالتزم ذلك ثم دنا منا على نحو ما اشترطناه فيه فلما وصل إلينا عزمنا على قتله لأن لم يأت تائبا إلا بعد القدرة عليهم و الله يقول: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ) فمسكني الحجاج و منعوني من قتله ثم اشترطوا عليه أن لا يبيتوا على الماء فقبل ذلك و التزم العمل به ثم طلب البارود من الشيخ إذ المزود منه بين يديه فامتنع من إعطائه و قال و الله لا- أعطيه إلا في بطونكم فلما انصرف من عندنا ارتحلوا عن الماء بنفس و صوله و بتنا عليه نحن إلى الصبح ثم ظعنا إلى الحامة المذكورة و علمنا أن نصر الله لنا إنما هو ببركة الشيخ نفعنا الله به و بأمثاله بمنه و كرمه اه-.

انعطاف إلى التكلم فيما نحن بصدده و هو أننا نزلنا قرية الحامة فيها نخل كثير

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٥٦

و مياه عظيمة طيبة و فيها حمام يجري ماءه قوى بحيث عم غالب القرية و ماؤه حار كأنه تحته نار عظيمة بحيث من أراد الاغتسال فيه لا يقدر على الاغتسال فيه بغته لشدة سخونته و غير ذلك من أوصافها.

ثم ارتحلنا منها فنزلنا توزر وقت الضحى و هي بلدة عظيمة من قواعد الجريد كثيرة النخل مع جودة تمرها إذ لا نظير له في سائر بلد الجريد قوية المياه فيها إنها و ماؤها عذب و بناؤها شامخ مستحسن مرونق فهي أفضل من بسكرة لأن بناءها بالطوب و هي بناؤها بالأجر و الجير و الجبس في غاية الإتقان مع طول البنيان إلى العلو و سعة عرضه حاصله أنها قرية طيبة جيدة و ذلك عام في الدور و المساجد بخلاف بسكرة فإن حسناتها في مسجدها فقط.

و قد قال سيدي أحمد بن ناصر في رحلته ما نصه و توزر هذه هي قاعدة بلاد الجريد من عمالة تونس و وافينا بها في الحجة التي قبل هذه عام تسعة أمير تونس رمضان باي بمحلته جاء لقبض الخراج الموظف على البلد كما هي سنتهم و سنة من اقتدى بهم قطعها الله من سنة و أخلى منها جميع أراضي الإسلام بلا محنة و ملاها بالعدل المستقيم و الدين القويم و ما رأيت ببلاد الجريد أكثر منها نخلا و أحسن منها بناء و أوسع بعد بسكرة ساحة و أغزر ماء و بناؤها بالأجر فلذلك كان أحسن من بناء بسكرة ما عدا المسجد و المنارة

فقد قدمنا من وصفهما ما يغنى عن الإعادة و بها من الثمار ما لا يحصى عدده إلا الله يرد عليها من الأعراب الآلاف المتولفة و يملأ كل واحد أبله بما شاء من الثمار و تمرها من أجود تمر الجريد و مياها غزيرة و جناتها كثيرة

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٥٧

ينساب فيها واد كبير منبعه من غربيها و أعرابها أهل بادية مخصبة يرخص فيها غالبا سعر السمن و اللحم و أما التمر فيها فرخيص جدا لا يكاد يكون كدرعه و أمثالها و لكن اضر بأهلها جور الولاية حتى كاد الخراب يستولى عليها لضعف أهلها بالجبايات الظلمية و قد بنى بها محمد باى عفا الله عنها و عنه مدرسة للطلبة جيدة بإزاء مسجد جيد متقن ببناء رائق أعمدتها كلها رخام و بنى أخرى بقابس مثلها أو أحسن عفا الله عنا و عنه.

و قد كثر جور الأتراك بهذه البلاد، و شاع بها الظلم و الفساد، أخبرني بعضهم إنهم كانوا يعطون ستة نواصر على كل نخلة و أربعة على كل زيتونة و الناصري اسم لسكة عندهم معروفة اثنان و خمسون فى كل ريال لكل عام. و أخبرني بعض الشرطيين فى الحجّة قبل هذه أن خراج الجريد من نفضة إلى قابس خمسمائة ألف ريال لكل عام و خراج جربة و وحدها ستون ألفا و مئونة مائتى صبايحى من البر و الأزر و السمن و الخل و الزيت و اللحم فالله تعالى يقطع جور الجائرين ، و لا يصلح عمل المفسدين.

و نفضة أيضا مدينة كبيرة قريبة من توزر و لها واد مثل واديهما و يقال إن خراجها مثل ثلثى خراج توزر اه-.

تمتة فى الحجّة الأولى عام ثلاثة و خمسين و مائة ألف (١١٥٣) نزلنا بها فى الرجعة فوجدناها كما يليق من كثرة الأرزاق و كثرة الخلائق و قد قدم معنا من

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٥٨

الحجاج من توزر من أكابرها و من ذوى رئاستها فأكرموا من كان فى الركب فى ديارهم و ما رأينا مثلها فى البناء الرائق و الوسع الذى يذهل العقول و مع ذلك اخرجوا موائد كل مائة تكفى الجم الغفير و العدد الكثير كثر الله خيرهم و وجدت فيها أفاضل من العلماء و الصلحاء و ما رأيت أرق قلوبا و أسخى دمعاً من أهل الجريد على أنى تخلفت مع شيخ الركب فى بعض نواحي توزر بان ادخله بعض الناس إلى بيته مع أصحابه و بقيت أنا فى الزقاق انتظر خروجه إذ لم يرني عند الدخول و لما بقيت وحدى و إذا برجل من القرية عزم على و ذهب بى إلى بيته بعد امتناعى خوفا من المكر و لما وصلت بيته فوجدته أحسن البيوت و وجدت زوجته من أحسن النساء دينا و حالا و صيانته يظهر عليها أثر الديانة فإذا تكلم أحدهما أصابته عبرة مع انسجام الدعمة و انهما رها فعلمت أنهم من أهل الصلاح و أهل الخير تفضل الله على بهما و ما رأيت مثلهما أصلا ثم قامت المرأة و جعلت لى خبزة ثم كسرتها فى الحليب أعنى لبن الغنم و وضعت عليه شيئا من الزبدة ثم أخذت فى الأكل فما وجدت أحلى من ذلك الطعام و لا أذوق منه طعما كأنه من الجنة فلما كانت فى أثناء الأكل و إذا بصاحب البيت قال لى كل هذا طعام بلدك فقلت من أى بلدة فقال من ميله و خطر لى أنه أوتى له من الغيب ثم خرجت من بيته مذعورا بان الشيخ يتركنى وحدى إذ لم يعلم بتخلفى فقال لى لا- تخف فإن الشيخ لم يخرج من ذلك البيت فلما خرجنا و وصلنا إلى الزقاق و إذا بالشيخ خارج فقال لى على بركة الله و هو يبكى و كذا زوجته فإنها تبكى عند انفصالى من محلهم رضى الله عنهم و نفعنا بهم و وجدت فى تلك الحجّة العلامة الفاضل و الفهامة الكامل سيدى عبد القادر الفاسى يقرأ فى مسجد توزر فى التفسير فى قوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَا الْمَغْرِبِ) الآية و كان رضى الله تعالى عنه حافظا للروايات ناقلا مذاهب العلماء

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٥٩

عبارته سلسلة فصيح اللسان حلوا الكلام ما أحسنه فى وقته قل نظيره ثم بعد ذلك مات رحمه الله و هى تلمة فى الإسلام لا يسدها إلا خلف مثله و هو حديث مروى عنه صلى الله عليه و سلم بان قال إذا مات العالم انتمت تلمة فى الإسلام لا يسدها إلا خلف مثله و فى

تلك الحجة زرنا سيدى أحمد الزريبي و هو ولى صالح يخبر بالمغيبات كثيرا و قد غلب عليه الغيب عن حسه بمحبة ربه بل أظنه قد زال عنه عقل التكليف و بقى فيه عقل التعريف و ذلك أن من ذاق شيئا من كنه الذات أو الصفات قل أن يبقى معه عقله نعم هو فى الحضرة دائما متصل بها يشاهد محبوه و حينئذ يكون محبوه سمعه و بصره و نطقه فإن تكلم فمنه و إليه و به و إن سكت فكذلك و هذا الشيخ ممن عظم قدره عند الله و كان منعزلا فى خلوة فى بيته مدة أربعين سنة لم يخرج منها على ما سمعت ممن يوثق به من أصحابه و لما وصلت إليه مع طلبتى مسكنى من حاشية البرنس و زفرنى زفرة عظيمة و جذبنى جذبا قويا و قطع لى البرنس من جهة صدرى نحو الشبر حتى أصاب الروح من ذلك جميع الحاضرين و أما أنا فى نفسى أنتظر عاقبته و إنما توهمت أن يكون غضبه من غضب الله علينا أعوذ بالله من غضبه و غضب أوليائه و كذلك أخونا فى الله سيدى ابن نوة قاضى المديّة لما قبل يده قال يا لطيف حين رآه فقال الشيخ ما اللطف و ما لطف اللطف و ما اللطف فى اللطف ثم كرر العبارات مرارا متعددة ثم بعد ذلك انبسط إلينا و انشرح فعند ذلك قال له بعض أصحابه لما ذا عملت بفلان يعنى نفسى ذلك الزفر فقال إنكم إذا أردتم غسل الثوب الجديد فلا بد من عصره و ضربه بالرجل ضربا شديدا لتزول أوساخه فيطلى بالصابون و لذلك فعلت به ما فعلت فدعا لنا و أخبرنا بأمر تكون لنا فى المستقبل و أظنه قال لى تريد السياحة قال و إنما يكون ذلك فى عاقبة أمرك نفعنا الله به و بأمثاله

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦٠

آمين.

و فى هذه الحجة وجدته ميتا مقبورا عند منزل الركب و عليه روضة عظيمة و قبره يزار و قد اجتمعت أهل توزر على تعظيمه و محبته لاعتقاده فيه و أنه ولى من أولياء الله من غير شك و زرنا ذلك العام الأفاضل و دخلنا بيت سيدى إبراهيم الخليل مع أولاد الشيخ السيد الغوث و هو من أولاد سيدى سالم و الله اعلم تلميذ الشاذلى و إنهم أخبرونا بموت هذا الشيخ فعند موته رأى واحد من أولاده و هو صغير غايته أن يكون مميزا النبى صلى الله عليه و سلم و هو يقول عليكم به صلى الله عليه و سلم فانه هنا عند رأس أبى بان ينادى بتلك المقالة الجالسين مرارا نفعنا الله بهم و من هذه الطائفة خديم الطلبة و العلم سيدى أحمد بوطبة المستقر الآن فى قفصة و هو من توزر من أولاد تلميذ الشاذلى المذكور و أحواله طيبة و قد ظننا أنه من أصحاب الوقت و فى الحجة الأولى دخلت قفصة و زرت فيها الأفاضل سيما من بلغ درجة التأليف المشهور علمه و فقهه و قد سمعنا أنه تعرض لشرح الشيخ خليل و هو الشيخ المنصورى و كذا الشيخ المنصورى آخر أقل منه درجة و وجدت فيها أيضا سيدى أحمد بن نفيس و شهدنا له كشفنا بينا بان كنا عنده فى الخلوة يكلمنا بطريق التصرف و أحوال الرجال و طال فى ذلك فقلنا له الركب تركناه أخذ فى الرحيل فقال الركب لا يرحل اليوم فمكثنا عنده لقرب الظهر فلما خرجنا من عنده و جدن الركب مقيما نفعنا الله بهم و أما فى هذه الحجة فقد زرناه فى توزر مع من قبر فيها أى توزر و الآخر فى قلعة آل حماد و قد زرتهما معا و الحمد لله و كذا زرنا فيها العالم الكبير ابن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦١

شباط الشقراطسى و غيرهم من المؤلفين و زرنا أيضا الشيخ.

ثم ظعنا منها صبيحة فلما انفصلنا عن الوادى المملوء بالعمارة و أمطرنا فى ذلك اليوم مطرا شديدا كادت النفس تزهق من شدته و شدة برده فبتنا هناك ثم منه إلى أولاد يعقوب و فى ذلك اليوم مررنا على ولد الشيخ بو عزيز الحناشى و هو الشيخ إبراهيم قد فر من باى قسنطينة لما تبعه بعساكره يريد الانتقام منه لأمر دينى و هو استطالته على المسلمين و تمرده على الأحكام الشرعية و انه كان يتزوج أكثر من أربع و قد سمع انه بلغ اثنتى عشرة امرأة عدو نفسه فلما وصلناه خاف منهم الركب فخرج إلينا مع بعض أصحابه فأتى إلينا و نحن السابقون فسلم علينا و طلبنا فى الدعاء فدعونا له بالهداية و الرجوع إلى بلده و انه أمرنا بالنزول عنده فامتنعنا من ذلك لأنه أول النهار ثم سرنا فبتنا عند أولاد يعقوب ثم رحلنا عند الضحى فجاءوا إلينا بجيوشهم ظنا منهم أن العرب غارب عليهم فلما التقى الجمعان علموا بنا أننا حجاج فرجعوا و نزلنا قرب السبخة عند صلاة العصر ثم رحلنا صبيحة فقطعنا السبخة بعسر و شدة فكثير من الإبل قد

وقعت في السبخة و كذا البغال تداركنا الله بفضلله فزلنا في حامة قابس و هي قرية ذات نخل و ماء و فيها حمام من الله تعالى سخن كأنه يغلى بالنار فلا يستطيع أحد أن يدخله بغتة إلا بعد الألفه و فيه بيت يستر المغتسلين و خارجه نهر منه يجتمع فيه الرجال و النساء من غير ستر في النهر كل واحد يرى عورة الأخرى من غير تغيير و لا نكير فلما رأيتهم اقشعر جلدى و تحركت فرائصى فمألت حجرى بالأحجار و صرت أضرب كل من هناك من النساء

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٦٢

و الرجال فقالوا ما هذا الرجل و ظنوا أنى خرجت من عقلى ففر الكل و لم يبق أحد في ذلك الوقت إلا هرب ثم مر على شخص فقال لى رحمك الله لو كنت معنا دائما لزال هذه الأمور العظيمة إذ يحرم ذلك إجماعا.

و أما أهل القرية فلم يعجبهم صنعى بان ظهر التغيير على وجوههم غير أنهم سكتوا إذ العاصى ذليل ثم حممنا منه فى محل الستر و كذا أهلنا ليلا- فمناها ظعنا لقابس و نزلنا خارجه عن بعد منه فلما أصبح الله بخير الصباح أتى أهل قابس يتسوقون مع الركب إلى صلاة الظهر فأتى الأعراب فغاروا على أبل الركب فنهبوا جميلين لصاحب سيدى أحمد بن حمودة ثم ذهبت أنا و سيدى أحمد بن الطيب لأمير المحلة هناك و فضلاء الحمارية نشكو بما صار بنا و إذا بطائفه أخرى أخذوا بغل سيدى يحيى بن صالح من وطننا فلما سمع الركب بذلك نهبوا من كان بقابس فى الركب و أخذوا الفضه و غيرها فدخلنا على القائد بين المغرب و العشاء فأخبرناه الخبر و قال لا بأس عليكم فغدا إن شاء الله يرجع ما لكم فخرجنا من عنده فوجدنا جماعة منهم ينتظروننا ليمسكونا فى الركب فلما عرفونى تركونى فذهبوا إلى سيدى أحمد الطيب فلما زجرتهم تركوه و أتوا إلى العلام فوجدوه هاربا قبل ذلك فأما ذلك فممكننا غير بعيد إلا و الإجمال رجعوا على يد الحمارية رزقهم الله البركة و أعانهم و نصرهم على الظالمين.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٦٣

و توزر و قابس محل الخطفه بل توزر أعظم فكل من غفل عن حاجه فى يده إلا و خطفوها فإياك و الغفلة فيهما بل و فى غيرهما فإن الغفلة فيها مظنة التلف و قد زرنا الصحابى أبا لبابه الذى هو من الصحابه رضى الله عنه و قد زرناه مرارا و أعلمنا به بعض أصحابنا من الركب فانه من الصحابه قطعاً و انه هو هذا إذ ثبت عندهم بالتواتر و هو من أسباب العلم و قد فضلت هذه القرية على سائر القرى بقبر هذا الصحابى.

أقول قال شيخ شيوخنا فيه ما نصه.

نكتة و أبو لبابه هذا من أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم ذكره ابن ناجى فى اختصار معالم الإيمان و روضات الرضوان فى مناقب المشهورين من صلحاء القيروان و هو كتاب مجتمع فى سفر و الأصل لأبى يزيد الدباغ القيروانى و ذكر البلوى فى رحلته أنه لقى صاحب هذا التأليف و أثنى عليه و على تأليفه هذا و قد أطال فى خبره و ذكر أن قبره مما تواتر عند أهل بلده و ذكر أن من لم يذكره من ألف فى أسماء الصحابه و أمكنة و فياتهم فانه لم يبلغه العلم به و التواتر المذكور مقدم على ذلك و كاف فى إثبات أن ذلك قبره و قد بنى عليه أمير تونس حمودة بنينا عظيما أثابه الله على قصده و بإزائه مدرسة بناها محمد باى فى غاية الجودة و الإتقان و الحسن و مسجده كذلك و جعل لهذه المدرسة احباسا و رتب فيها عشرين طالبا يعطى كل واحد منهم ريبالا على رأس كل شهر و استأجر فقيها يعلمهم و يصلى الصلوات الخمس بالمسجد المذكور إماما به فالله تعالى يرحمه به و يعفو عنه فلقد خلف ما يذكر عنه من الآثار الحسنه و الله تعالى برحمته يبدل لمن يشاء السيئه بالحسنه.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٦٤

و أنشدنا هنالك لنفسه صهرنا الأحب أبو العباس البرنسى الشفشاونى عام تسعة:

نزلنا بقابس فشفينا فيه غليل القلب من شوق اصهباه

وزرنا به ضريح إمام برو بحر فى السخاء أبى لبابه

هو البحر المعين لواردية فرد ما شئت من بحر الصحابة
فايقنا بنيل القصد حقاو صدقنا ياسراع الإجابة
أنلنا يا إلهي كل خيرو إحسان و زودنا الإنابة
و عاملنا فإننا قد أسأنا بفضل لا تعلق عنا بابه
و أمددنا بوافر مالعطايا أدرّ علينا من درّ السحابة
و نور قلبنا و أملاه حباو صدقا و لتزل عنا حجابه

بلغه الله جميع مراده و جعله من خواص أهل محبته و وداده و أخبرت بأن المدرسة التي يدرس بها سيدي إبراهيم الجمنى بجره هو
الذي بناها أيضا وصلينا الظهر عند أبي لبابة و العصر بمنزل الركب و هو آخر البلاد التي فيها ماء واد جار و فيها رحاء ماء غريبة الصنعة
إلا أنها تعطل كثيرا اه-.

تتمه فإننا أقمنا يومين فى قابس و زرنا أبا لبابة المذكور و زرنا جميع من فيها من الأحياء و الأموات و اجتمعنا مع بعض فضلائها من
طلبة العلم و صلحاء البلد كالمدرس سيدي عمر فى المدرسة المذكورة و كذا اجتمعنا مع بعض فضلاء الحمارية و فعلوا معنا خيرا
عظيما و هو رد الجمال لأصحابنا و وصيناهم على السعى فى رد البغل الذى انتبه العرب من يد بعض أصحابنا بإزاء الركب بين
العشاءين جزام الله

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦٥

أحسن جزاء بمنه و كرمه.

ثم ظعنا منه و نزلنا قرية عرام بعد أن زرنا ما فيها من قبور صلحائها ثم ظعنا منها و سرنا نحو الثلاث مراحل فنزلنا الشيخ الصباح فزرناه
ثم منه نحو المرحلتين نزلنا قرب برج الملح فأصاب الركب عطش تلك الليلة فأصبحنا و الحمد لله فى الزوارة الخالية فسقينا الماء و
أوردنا الخيل و البغال و الإبل و ماؤها عذب حلوا حسن المياه من عرام إليه و كلها خبيثة المياه إلا بشر السلطان فانه أيضا طيب و تلاقينا
قبل الصباح بفضلاء أولاد مريم و ما أحسنهم من فضلاء و كرماء و لقد كانوا متبعين للسنة جمعوا الخير و وعه و حبهم لنا قوى و
اعتقادهم فىنا سنى جعلهم الله أفضل الناس علما و عملا و جاها و حالا و أدام ذلك فيهم إلى يوم القيامة و قد أتوا لنا بشعير و مع
ذلك انه مفقود فى ذلك الوقت و إنما حملهم على ذلك حبا و أكرمونا باللحم و ما معه من الضيافة [فخف فى الركب و هم بعداء
منا] غير أنهم الحجة الثانية ضيفونا ضيافة عظيمة و ذهبوا معنا من طرابلس إلى قابس بل إلى الشيخ سيدي مهذب أنا و جماعتى قد
قدمنا مع الركب الفاسى و تخلف فى طرابلس إلى انصرام رمضان و نحن أردنا العجلة فذهبوا معنا رضى الله عنهم و جزاهم عنا خيرا
بمنه و كرمه.

تتمه فبعد السقى ذهبنا إلى أن خرجنا إلى الزوارة العامرة فنزلنا عند العصر بين السبخة و النبكة ثم منها إلى زواغة و كانت مدينة
عظيمة هى أصل طرابلس و بها كان ملكها و طرابلس كانت عامرة بالنصارى ثم انتقلت العمارة إليها بعد انجلاء النصارى منها ثم منها
إلى المايه و مررنا على الزاوية الغربية و هى كثيرة النخل قوية

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦٦

العمارة فيها أفاضل و علماء و عباد و زهاد معلومة بأهل الصلاح الأحياء و الأموات غير أن الركب لم ينزلها و إنما اجتاز عنها فقط و
مررنا على زنور أيضا ثم منه إلى طرابلس و بينها و بين زنور نحو اثنى عشر ميلا و الحمد لله أولا و آخرا.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦٧

ذكر وصولنا إلى طرابلس

وصلنا في أول شعبان صبيحة وسمع الإخوان بوصولنا وإتياننا فحركهم العزم والشوق إلى ملاقاتنا ومنهم من لقينا عن بعد كالأخ في الله سيدى محمد بن عبد الخالق إذ نزلنا قرب بلاده وأتانا بخروف ضيافة لنا جزاه الله عنا خيرا وأكثر الإخوان إنما أتونا لزور كالمحب حقا والأخ في الله صدقا سيدى محمد الشريف البلغيشى النوفلى وجميع أخوانه من الشرفاء وكذا جميع أحبابه كسيدى محمد بن عثمان كاتب الدار الكريمة والشيخ المفتى ابن مقييل وجميع أحبابه وكذا خديم العلم وأهله الذى فاز عن أمثاله قائد عمورة فى زور خرج إلينا بشوق وعشق يبحث فى الركب بحثا شديدا واختلفنا معه فى الطريق أنا وسيدى أحمد الطيب وجماعة من الإخوان أخذنا وسط البلد إلى أن خرجنا إلى قرب المنشية ولما تلاقينا مع سيدى محمد الشريف صار يبكى وأنا أبكى بالفرح مع ما فقد فيما مضى من الاجتماع وأما قائد عمورة فقد خرج عن أجناسه من العمال إذ بنى مدرسة عظيمة متقنة ما رأيت أظرف منها وأحسن من صنعتها وجعل فيها بيوتا متعددة ومطهرة طيبة ومسجدا فى غاية يستحسنه الناظر وجعل أيضا بيتا للتدريس و غرس النخل الجيد وحسبها على المدرسة وزاد أحباسا عليها عظيمة وحاصل خدمته إنما هى على طلبه القرآن و طلبه العلم بأن جعل معلما للقرآن ومعلما للعلم وهو الفاضل والتقى الكامل تلميذ الشيخ النورانى سيدى إبراهيم الجمنى أى الكبير الذى هو تلميذ الشيخ الخرشى وهو نور جربة إذ غالبها خوارج فان الشيخ سيدى إبراهيم شمس الحق فى هذه البلدة فقد أفاد واستفيد منه بان نفع الناس شرقا وغربا وجوفا وقبله وتلميذه المدرس فى هذه المدرسة هو سيدى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦٨

عبد الله وقد اجتمعنا معه فى هذه المدرسة فى الرجعة مع الطلبة والقائد المذكور [و الشيخ المفتى ابن مقييل وأصحابه فى ضيافة القائد المذكور] جزاه الله عنا خيرا وتقبل منه ورزقه التقوى والله يقول إنما يتقبل الله من المتقين.

فإن قلت ما هذا الثناء الذى تشنى على صاحبك قائد عمورة فإن هذا الرجل لو كان يبنى من ملكه وهو من جملة من يبنى المساجد والطرق والقناطر [لكان الثناء عليه فى محله] والذى يبنى به ليس ملكا له شرعا لأنه إنما بناها من مال المسلمين الذى أخذه منهم ظلما وعدوانا لما علمت أن ما عنده إنما هو بطريق الغصب والتوظيف الشرعى مفقود فى زماننا هذا فهم كالزانية تزنى وتتصدق وقد قال صلى الله عليه وسلم ليتها لم تزن ولم تتصدق الحديث وحينئذ ليتهم لم يبنوا ولم يأخذوا مال المسلمين فما هذا المدح منكم إذ يحرم عليهم فضلا عن الثواب.

قلت قال الشيخ عبد الكريم الزواوى فى شرح الوغليسيه ما حاصل معناه أن ولاية هذا الزمان إن حصل منهم أفعال الخير المتعددة كالصدقة والهبة والوقف وبناء المساجد والمدارس وغيرها كالإحسان إلى العلماء والطلبة والفقراء هل يحصل لهم الثواب عما فعلوه من الحسنات صورة لإدخالهم السرور على المسلمين وإبقاء آثار فعلهم بعدهم وهو حسنة أولا يثابون لأن ذلك من مال غيرهم بل يحرم عليهم ذلك إذ يجب عليهم رده لأربابه فأعطاؤه لغيرهم تعد آخر فيكون غصبا بعد غضب إذ الوقت وما معه إنما يثمر شرعا بعد حصول الملك قال والحكم فى ذلك أنهم يمدحون شرعا من جهة دعوة المسلمين لهم بالخير وذلك غنيمه عظيمة إذ من وصله المعروف منهم يدعو لهم بالخير والرحمة والعفو والغفران فإن استجيب لهم فالله يتولى إعطاء

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٦٩

المظلوم فيما أظلم من عنده يوم القيامة لا سيما إذا تعذر الرد لأربابه لفقدهم أو لجهل أعيانهم فالواجب عليهم حينئذ التصديق به وقد فعلوه فلم يبق عليهم حق يسألون عنه وإما إذا تيسر الرد ببقاء عين المغصوب وتعين المغصوب منه فيجب عليهم رده باتفاق وإذا وقع ونزل و صرفه فيما ذكر فيثاب من جهة وهو توفية عن ربه ويثاب من أخرى وهو تحصيل المنافع لمن حصلت له هذه الأشياء مع اغتنام دعائهم وحصول الميل منهم إليهم اه- بالمعنى.

قلت الغالب وجود الوجه الأول وهو تعذر الرد لجهل أربابه وحينئذ يجب شرعا صرفه فى مصالح المسلمين فيكون فعل هذا القائد ممدوحا شرعا نعم بقى له أمر لا بد له من فعله وهو أن ينكف عن الأخذ بهذا الوجه من المسلمين رزق الله لنا ولهم الهداية والإنابة

بمنه وكرمه.

فإن قلت هل يجوز لمن كان في تلك المدرسة من عالم أو متعلم الأخذ من تلك المدرسة و الانتفاع بما فيها و إن كان غنيا كتحصيل الطهارة منها و الصلاة فيها لأنها قد وقعت بوجه مباح بل بوجه مطلوب إذ الفاعل لذلك يطلب منه صرف ما أخذه في منافع المسلمين فيجوز حينئذ الأخذ و الطهارة و الصلاة [لأن ذمته عامرة به فيجب عليه إبراء نفسه من ذلك و ما حصل منه يعد كصورة المتسلف] أو لا يجوز لعلمهم بأنه مغضوب و مشترية و وارثه و موهوبه أن علموا كهو فتجرى عليه أحكام الغصب.

قلت الحق الجواز من غير شك إذ قال صاحب المدخل أن المدرسة إذا بنيت من مال حرام و جهلت أربابه فيجوز للعالم أن يأخذ منها بوجه العلم انظره فأنت ترى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٠

أيها المخاطب أن نصه هذا إنما هو في عين النازلة فهو طوق في عنق و مع ذلك انه لم يجعل كتابه إلا فيما وافق الأثر و بعضهم يجعله أي صاحب المدخل مشددا في الدين لا مترخصا فإذا علمت هذا فاعلم أن ما يحصل من المدارس و المساجد من أحباس الملوك و العمال عليها و كذا ما يعطونه للمدرسين و من فيه مصالح المسلمين يجوز من غير شك إذ ما جهل أربابه [للعلماء و الفقراء و من فيه نفع الخلاق و] ليس طريقه إلا هذا و إما قولهم المشتري و ما معه أن علموا كهو فخاص بتعيين المغضوب منه و المغضوب و هذا في غيره و كذلك الدراهم و الأموال الموجودة في أيديهم إن جهلت أربابها [سييلها هو هذا لأن المال إذا جهل ربه] يجب وضعه في بيت المال إن كان منتظما فلا أقل حينئذ من كونها للعلماء و الفقراء و من فيه نفع للخلاق فلا يحل لمسلم فضلا عن عالم أن يقدر أو يسمع لمن هذا وصفه بأن يقول يأكل الحرام بل هو من الحلال البين لأن الذي يأخذه المدرس أو المتعلم أو غيرهما حلال قطعاً لأنه من أعظم وجوه حسبك صاحب المدخل حجة بينك و بين الله تعالى و الذي فيه الخلاف من مال المستغرقين للذمة بأموال المسلمين بان كان ماله حراما كله أو جله أو أقله على ما فيه من الخلاف بين العلماء إنما هو في غير من يأخذه [منهم بوجه العلم أو الفقراء أو النفع للمسلمين و إلا فالذي يأخذه] بذلك الوجه جائز من غير خلاف ألا ترى عبد الله بن عمر لم يكن أروع منه و لا أظلم من الحجاج بن يوسف في زمانه إذ كان يتعدى على النفس فضلا عن المال و هو يقبل الهدية منه لوجود الوجه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧١

الذي يأخذها به و هو العلم أو النفع للمسلمين انظر الخطاب عند قول خليل لا أن أخذ من العمال أو أكل عندهم بخلاف الخلفاء و المراد بالعمال من ينييه الخليفة على الجباية فقط و ليس له الإعطاء فلا يجوز الأخذ منه و لا الأكل عنده و إلا كان جرحه في شهادته و المراد بالخليفة من أذن له في الأخذ و العطاء فيدخل القواد و سائر العمال فيجوز الأكل عندهم و الأخذ منهم و ذلك ليس بجرحه و هذا كله في غير من يأخذ ذلك بوجه العلم و ما معه كما سبق و إنما نبهت على هذه المسألة لكثرة الجهل من الطلبة فيها فمنهم من يبالي بالإباحة و هو خطأ و منهم من يبالي بالتحريم و هو خطأ و منهم من يجعل الخلاف في كل الناس و هو غفلة و جهل أيضا و منهم من يجعل الخلاف أيضا فيمن جهل أربابه أو لا و هو أيضا خطأ و إنما المغضوب إذا كان ربه معيناً فيجب رده لربه و لا يجوز لأحد أخذه اتفاقاً و إذا فوته عن صاحبه و ترتبت في ذمته القيمة كذبته مثلا فهل يجوز لأحد الانتفاع به بأي وجه من وجوه الانتفاع كالأكل و غيره إذ ترتبت القيمة في ذمته و هو ظاهر كلام خليل و كلام ابن ناجي أو يمنع و هو الذي صرح به غير واحد من الفقهاء بالجملة فالمال المجهول أربابه يجوز للعالم و من فيه وجه من وجوه الأخذ أخذه و الانتفاع به. و أما غيرهم فإن كان من الخليفة لا العمال فيجوز أيضا و أما المعين ربه قبل فواته فيجب رده لربه و لا يجوز لأحد أخذه مطلقاً من عالم و غيره و إما أن فات بيد غاصبه بمفوت مع بقاء العين كطبخه فهل يجوز الانتفاع به أم لا فقد تقدم ما فيه و إما من كان كل ماله حراما أو جله أو أقله في غير ما ذكر من الولاية ففيه الخلاف الذي ذكره التناهي في كبيره و عليه نظمه فإذا أحطت بهذه المسألة علما فليس كل أن تعترض على أحد من العلماء العاملين المشتغلين بإعطاء العلم أو أخذه بأخذهم من ولاة زماننا ما جهل أربابه فنزل قدمك لما تقدم من نص المدخل و

الخطاب و كذا غيره من المال المختلف فيه فانه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٢

لا ينكر على العلماء والفقهاء وأهل السنة إلا ما كان مجمعا عليه فحينئذ علماء مصر في وقتنا هذا أعنى المقتدى بهم وكذا شيخنا سيدى عبد الله السوسى وسيدى محمد الغريانى بتونس وغيره من علماء الأمصار والقري والبادية ممن عرف بالعلم والعمل به ممن يأخذ من الولاة ما يستعين به على نفسه وأهله فجائز لهم أخذه بلا شك كما تقدم النص عليه ومن أراد الإنصاف والانتصاف فقد نقلنا له ما بينى عليه فى نفسه ويحمل عليه غيره من العلماء المقتدى بهم فلا- يحتاج إلى التأويل لأنه نص صريح فى الإباحة وإلا أصابه ما أصاب المعترضين على أهل الله فيخاف عليه سوء الخامة والعياذ بالله وقد علمت عظم الوقعة فيهم والاعتراض عليهم من غير قصد دواء لهم ولا الشفقة عليهم والرافة بهم يرد من باب الله وإن كان محقا فى اعتراضه قاله الشيخ زروق فى قواعد.

انعطاف فى الرجوع إلى المقصود من ذكر أحوالنا وإخواننا فى طرابلس إذ قد اجتمعنا بعامتة و خاصتهم إذ لهم مزيد فى المحبة والاعتقاد فى أهل الخير والتشبه بهم ولا شك أن هذه خصلة عظيمة شرعا لأن من أحب قوما كان منهم وحشر معم والتحبب لهم ومودتهم لقدر عظيم عند الله ولله رد القائل فى قوله:

لى سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلى فى حبههم عز و جاه

والمعتقد والمحب كالمحسن إذا لم يقدر على الإحسان لقوله صلى الله عليه وسلم يبلغ المرء بنيتة ما لا- يبلغه بعمله و بيان هذا الحديث أن المؤمن لو كان يخلد فى الدنيا لتمنى بقاء الإيمان معه على الدوام فجزاه الله بالخلود فى الجنة وكذا الكافر لو كان

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٣

يخلد فى الدنيا لتمنى بقاء الشرك والكفر معه فيجازى بالخلود فى النار جزاء على نيته وأما المحسن فيجازى بالإحسان والله لا يضيع أجر المحسنين وقد قال تعالى: (إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) وقال أيضا (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) وأما المسيء فتكفيه إساءته إذ لا يخلو الإنسان من ضد ولو خاول العزلة فى رأس جبل والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ولا بد لكل مؤمن من منافق فى جواره يبغضه على إيمانه أو كما قال ذكره الخازن فى تفسير قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا تَصَرُّوْكُمْ مِنْ ضَلَالٍ) وقال أيضا صلى الله عليه وسلم لو دخل المؤمن جحر ضب لسلط عليه من يؤذيه لكن أهل الأذية فالله يكفيننا شرهم ونقول حسبنا الله ونعم الوكيل منهم وإما المحسنون فالله يشكر فضلهم وعملهم ويجازيهم بأحسن ما صنعوا نعم لم أصل إلى ما اعتقدوه فينا ولا ادعيه إذ الدعوى قد تكون أكثر مما عند الإنسان فى نفس الأمر فيكون ذلك قدحا بينه وبين محبوبه وإن أخذ بذلك الوصف كان غشا فى دينه كما ذكره الشبراخيتى وغيره قال وإنما يجب أن يبين عند الإعطاء أن هذا الوصف الذى أعطيتنى لأجله لم أنصف به فى نفس الأمر فإن قال أعطيت لله لا لهذا الوصف فخذة فالله لا يؤاخذة وهو يجازيه عن صنعه وإلا فيجب رده لصاحبه لأنه غش فى الدين والنبي صلى الله عليه وسلم يقول من غشنا فليس منا.

و أما أهل الخير والصلاح فلا أستطيع عددهم لكثرتهم جدا لا سيما الساكنون بخارج المدينة وأما من فى المدينة فالصادق الملائف [من يؤثرنا على نفسه جعل الله البكرة فيه وفى ذريته إذ ما أنفقه علينا خير من نفسه] أعنى الشيخ المفتى سيدى محمد بن مقيل أصحابه كالفقيه المدرس سيدى عبد العزيز وأولاده وقد أخذوا من

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٤

قلبي مجامعه ولنا ما لهم وعلينا ما عليهم حبا فى الله ووالد الشيخ كان صديقا لنا فى الحجة الأولى إذ هم محل الفضل والعلم من الزمان القديم نور الله محلهم بنور العلم إلى قيام الساعة وكذا الذكران من أصلاهم فقد أجادوا فى احساننا كسوة وإطعاما وشراء ما نحتاجه من الحوائج كان الله لهم وليا ونصيرا أسأله سبحانه أن يدخله حضرته ويحفظه من كل حاسد مع بسط النعم عليه وعلى

ذريته إلى غابر الدهر بمنه وكرمه.

و من أحبنا حقا صبغة الله العالم العامل الفاضل الفهامة محب السنه و أهلها صاحب اعتقاد في أهل السنه سيدى محمد العربى الفرجانى الشريف النورانى و أصحابه و أولاده على الإطلاق خصوصا العلامة الفاضل الفهامة الكامل سيدى محمد عوض ولدنا أصلح الله حاله و أظهر عليه فضله و كذال على إخوانه و قد سألت الله فى غنى أبيهم و غناهم إلى قيام الساعة و تيقنا إن الله أجابنا كان الله فى عونهم آمين.

و ممن اجتمعت معه من الفقهاء القاضى و مقدم القاضى من الحنفية و الفقيه الأجل سيدى عمر السودانى و الشيخ الصكلانى و أصحابهما و من هو أخونا فى الله حقا و صدقا، و كان لنا الود فيه حبا و شوقا، و نية و رفقا، صاحب الجد و الاجتهاد فى الأمور كلها على وفق السنه النبوية، و الحقيقة النورانية، سيدى حسن السعداوى، بلغه الله غاية الأمانى، و قد عقدت معه الأخوة بان الناجى يأخذ بيد أخيه رضى الله تعالى عنه و نفعنا به آمين فإنه يعلم الصبيان قلّ مثل فى عصرنا من حبه الصدق و أهله، و ما أحسن نصحا و ديانته و صدقا و زهدا، ما كان فيه، ظهر على فيه، يعلوه نور و مع ذلك أنه ارتق، فى العلوم و الدقائق، بلغ الله أماله، و تعلم حاله من كلامه، و صدقه من جده و اجتهاده، رضى الله عنه و ارضاه.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٥

و كذا من أحبنا الشيخ مصطفى الخطيب إذا رقم أحسن، و إذا تكلم بين و أعلن، [و من السعادة الغوث الحسن]، و حاصله قد تعلق بنا، جميع الفضلاء فى المدينة من لم يحسن إلينا، أحسن ظنه فينا، اللهم قابل الجميع بالخير و الفضل و الرضى، و اغفر لنا و لهم ما سلف و مضى، و أصلح حالنا استقبالا بما يرتضى، بمنك و كرمك.

تتمه فى الانعطاف إلى ما كان خارج المدينة منهم سويداء القلب و خلوص الود الذى هو أولى من نفسى، أتذكره فى كل نفسى، أحيى باجتماعه، و أموت بافتراقه، و روحى روحه، و جبحى جبحه، و هو أولى من نفسى، تغمدنى الله و إياه برحمته فى رسمه و رمسى، ذو الفتح الربانى، و الفهم الرحمانى، سيدى محمد الشريف النورانى، جعل الله الفضل و العلم و الولاية و الغنى و الزهد و الكفاف و العفاف فى ذريته و قرابته إلى غابر الدهر آمين و فضائله و أحواله الطيبة و أعماله الحسنه و مقاصده الزكية لا تحصى ذو طب للقلوب، بفتح من علام الغيوب، جمع الله بيننا و بينه بالانتفاع، و لا جعل ما وقع من الفراق آخر وداع، بجاه من فضل بالافتاء و الإتياع، هذا و إن يدنا و يده فى ماله سواء، و أولادى و أولاده و عيال الجميع على حد الاستواء، و من تعلق بى و به من قريب و حبيب و صديق و شيخ و أخ فى الله و أحد رضى الله عنه و سدده، و على الخير و الطاعة أعانه و بالفتح و النصر أمده، آمين، قد أحسن الإحسان التام إلينا، و أجرى ما لا عين رأت من الكرم لدينا، و لكنه أحسن إلى نفسه إذ أنا نفسه و هو نفسى حاصله العبارة تقصر عما بينى و بينه من الحب و المودة فالإيجاز أولى، و الاختصار أعلى، و التقصير أحلى، إذ الإطناب، بين الأحباب، ضباب

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٦

و سحب، و بالجمله فكل من يحبه يحبنا، و من قرب إليه بالدم قريب إلينا، و صهره صهر لنا، و أولاده كذلك فماله لنا، و ما عليه علينا، رزق الله الجميع الصدق مع الحق، و مع الخلق، بمنه و كرمه و كذا أولاد الشيخ المعز سيدى محمد و سيدى أحمد و سيدى عبد الله و أحبابه و أصهاره و قرابته كلهم من النفس من أحبب الجميع و سيدى محمد ابن عزوز و إخوانه و سيدى إبراهيم و إخوانه و سيدى سلامة و أصحابه و سيدى أحمد بن إبراهيم و من انتمى إليه و سيدى عبد الرحمان و من تشبث به و سيدى عبد الله أمام الجمعة عندهم و أخوه سيدى أحمد الشريف و أولاده و سيدى محمد أخوه و سيدى أبو بكر و غيرهم من الشرفاء كأولاد عمه سيدى على كلهم منا و إلينا و من الفقهاء سيدى عبد النور فهو فقيه فاضل عالم نظم قصيدة فى علم التوحيد لا بأس بها و أن يسر الله على اشرحها و أولاد الشيخ سيدى الصيد الولى الصالح و البدر الواضح و أولاده لا سيما من هو كبير السن عظيم الشأن سيدى عبد اللطيف و ولده سيدى على رحمه الله و سيدى الصيد و ولد ولده سيدى أحمد و أولاد أعمامه جملة و تفصيلا إذ طبعت على جبههم و حب من

يحبهم و أولاد الشيخ سيدى محمد بن سعيد و أولاد المرغنى و أولاد الشيخ ابن جابر و كل من هو من أهل الفضل فى الهنشير و الساحل المنشية و لو زرنه مرة واحدة أو زارنا كذلك فهو منا سواء عينت اسمه أم لا و كذا أولاد الشيخ النعاس سيدى محمد و أولاد أخيه سيدى عبد الرحمان و سيدى إبراهيم و ولده و طلبه محلهم على العموم من ذهب أو بقى و من إخواننا حقا سيدى محمد بن عبد الخالق و أعمامه و قرابته فإنهم منا و نحن منهم و بالجملة فمن اجتمعنا معه و لو ساعة حبا فى الله فهو له ما لنا و عليه ما علينا و لنا نصيب منه سواء سمينا أم لا- إذ من تحقق بحالة لا- يخلو الحاضرون منها نفعنا الله بهم و بإسلافهم بمنه و كرمه و بالجملة فأحبابنا كثيرون جعل الله الحب لأجله.

و أما الحجة الأولى فقد أدركنا فيها محقق الصلاح، و صاحب النجاح، نجم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٧

الصباح، ذا الأرباح، صاحب الورع و العلم الصحيح، و الزهد و الدواء لإخوانه ممن هو بالحب جريح، العالم فى كل المذاهب، الذى طاعت و انقادت له المواهب، سيدى محمد المعزى و مثله فى الفقه سيدى محمد النعاس و كذا من البله سيدى عبد الخالق و كذا الذى هو تلميذ الشيخ سيدى محمد بن سعيد و هو الذى أعطى له كتابا مزبورا بالتركية و قال أقرأه فأخذه فقرأه و سمعت منه أنه قال لى من حينئذ أقرأ مكتوب التركى نفعنا الله بهم و بأمثالهم أمين و سيدى محمد المعزى أظنه كل عرفه يحج من بيته رضى الله عنه و أرضاه و قد استفدنا منه إفادة عظيمة و لقد علمت أنه طيب الدين و الدنيا لا يغادر شيئا إلا عرف سببه و طبه فمن جلس معه عرف أحكام الشريعة و أوصاف الحقيقة و ما يخصه فى أمر دينه و دنياه و حاله و وارده و مقامه حاصله يغترف من بحر الله فحدث عنه و لا حرج و كيف لا و شيخه الشيخ ابن سعيد إذ هو سلطان العارفين، و ملاك زمام السالكين، و مربى المريدين، و الآخذ بيد المجذوبين، إذ قيل عنه انه يسبغ فى لمحظة و أصحابه كلهم قد ظهر عليهم فضل الله لا سيما المعارف الإلهية، و المواهب الربانية، و اللطائف الرحمانية، و قد رأيت بعض كلامه فى التوحيد الخاص و كذا تجريد التوحيد و تفريده يظاهى كلام الشيخ عبد القادر الجيلانى و كلام عبد الكريم منه أيضا و إنما يأتيه الكلام عند ورود الوجد عليه، و الحال لديه، فيكتبه أصحابه نفعنا الله به و بأصحابه و أفاض علينا من بركاته أمين و الحمد لله على زيارته و زيارة معاصرة الشيخ المرغنى و الشيخ الصيد و السيد ابن جابر بالنية و المحبة و كلهم متعاصرون أفاض الله علينا من بركاتهم أمين.

و كذا زرت من كان بالمدينة كسيدى عبد الوهاب و سيدى درغوث الذى اخذ المدينة من أيدي النصارى حاصله من ثبتت له عناية إلهية حيا أو ميتا فيها فقد زرنه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٧٨

فعلا- أو نية اللهم بجاه من دخلها من أول عمارتها إلى أن يرث الله الأرض و من عليها و هو خير الوارثين أن تجعلنى و أولادى و أزواجى و إخوانى و طلبتى و أحبائى محبوبين عندك، و عند رسولك و أوليائك، و محبين من غير محنة، و لا مشقة و لا فضيحة، و لا تسلط علينا جبارا عنيدا، و لا أحدا من عبادك و لا شيطانا مريدا، و لا نفسا متعديئة علينا، يا أرحم الراحمين، يا حى يا قيوم برحمتك استغيث أمين يا رب العالمين.

تنبيه إنما نذكر من ذكر من الإخوان و المحبين و بيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم و يتصف بأوصافهم و الأقل أن تحضر عنده بركاتهم و أما ذكر أوصاف الطريق و بيان المواضع فان فيه اعتبارا و دلالة على آثار قدرة الله تعالى و تسخير الأكوان لنا و التنقل من حالة لحالة ليرتقى بذلك صاحب السلوك إذ هذه الطريق أشبه شىء بطريق الآخرة فمنها يعرف الترقى فى مقامات الله تعالى حتى يتحقق بحضرته و يكون فى دائرته و ناهيك بشىء يكون سببا للوصول إلى مرضاته و فيه أيضا التصبر و التسلى و التأسى بهذه الأفاضل فى طريقهم إلى الحج و لا- شىء أعظم من هذه لأن من رأى أحوالهم فى الطريق و معاملتهم فى البيع و الشراء و الهبة و الصدقة و الضيافة و زيارة الإخوان و القيام بحقوقهم و وضع الأمانة و تولى الشراء و البيع بنفسه أو بئنه منهم أو من غيرهم يتحقق به

الناظر و السامع بذلك أيضا فيقوى نوره و يتسع مدده لأن أوصاف النبي صلى الله عليه و سلم سارية في أحبابه و قائم مثلها فيهم و كما تخلفوا بخلفه صلى الله عليه و سلم انتدب الكلام عليهم إذ ذكر أوصافهم ذكر لأوصافه و قد علمت ما في ذكره صلى الله عليه و سلم من الثواب و ذكره صلى الله عليه و سلم ذكر لله و لذكر الله أكبر و أما ذكر طريق الحج فهو كذكر الطريق الموصلة إلى الله قل هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي فَلَا يَقَالُ أَن ذَكَرَ هَذَا ذَكَرَ لِمَا لَا يَعْنِي أَوْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ فَنَقُولُ هَذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا سَبَقَ فَإِنْ قُلْتَ سَلِمْنَا ذَكَرَ مَا ذَكَرَ فِيهِ ذَكَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ ذَكَرَهُ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فَمَا أَحْسَنَ

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٧٩

بيته و ما أحسن ذكر الطريق الموصلة إليه كالطرق الموصلة إلى رب البيت [فاعلم هذا فانه لم يهمل على شىء] و شرف العلم بشرف معلومه و لم يكن شىء أعز من بيت الله تعالى و لا شىء أعظم منه و لا أعظم من الطريق الموصلة إليه و أما ذكر المدن و القرى و بيان أوصافها و ذكر الفلوات و الصحارى و الأنهار و العيون و حسن بناء المدن و الأسوار و الحوانيت و الأسواق و الأزقة و المساجد و اتقانها و الصوامع و أوصاف ما ذكر و ملاقة الرفاق و الرجال من عامة المؤمنين و بيع الحوائج و شرائها في خاصة نفسه إذ لا فائدة تعود إلى غيره إذ هذه الأمور خاصة بمؤلف الرحلة فلا نفع فيها يتعدى لغيره من العلم أو المصالح لتجتلب أو المضار لتجتنب فذكرها عبث و هؤلاء المؤلفون مصنونون عن العبث إذ مقامهم يتحاشى عن ذلك و لأنهم مشرعون و النبي صلى الله عليه و سلم ذكر أحواله للتشريع إذ هو بشر لا كالشعر فذكر أحواله من بيع و شراء و نزول و صعود و هبوط و شرب من بئر فلان و دخول بيت لفلان و صفة مسجده و بيته و دابته و لباسه و مأكله و مشربه و غير ذلك علم يفيد مصلحة أى مصلحة و أما هؤلاء فليس كذلك قلت نعم الأمر كما ذكرت لكن اتفق أهل الرحلة على ذكر ذلك قديما و حديثا فحيث لا يخلو عن فائدة بينة أما ما كان في خاصة نفسه إن كان خيرا فكذا مثله أن وقع بك فتشكر الله تعالى ليزيدك المعونة و الخير لقوله تعالى و لئن شكرتم لأزيدنكم و إن كان مصيبة و امتحانا و اختبارا فتتسلى به و تصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فيسهل عليك حمل أعباء المصائب و الله يقول إن الله مع الصابرين و لقوله أيضا (وَلَتَبْلُوَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) الآية و أما ذكر أوصاف المدن و القرى فلا اعتبار و قد قال بعض العلماء إنما سكن الأكابر الأمصار لتذكر آيات الله و الاعتبار و حينئذ فمن لم يرها حصل له ذلك بسماع أوصافها و قد علمت أن تفكر ساعة خير

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨٠

من عبادة كذا و كذا سنة كما في الحديث عنه صلى الله عليه و سلم و كفى بهذا شرفا و فضلا و أما ذكر بيع حاجه كقوله بعث جملا، ودعته و غير ذلك من الأخبار بما يخصه فلان تعلم أن الفضل و الشرف ليس بترك الأسباب و إن التوكل لا ينافى ذلك لقوله تعالى (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ) و لم يقل رجال لا يتجرون و لا يبيعون و أيضا الفاضل لا يقف عن خدمة نفسه و دابته و ضيفه و شيخه و أهل الخير و الصلاح بل الشرف ذلك لأن النبي صلى الله عليه و سلم كان يتولى ذلك بنفسه فكيف بغيره فصاحب الرحلة حين أخبرك بأنه فعل كذا كأنه قال لك السنة في هذا الطرق فعلة إذ التوكل في القلب و هو لا ينافى الأسباب بل فعلها يقويه و يؤيده لأن النبي صلى الله عليه و سلم أعظم المتوكلين فانه يبيع و يشتري و يأخذ الزاد و يلقى الرفاق و يصحب الرفقة و ينزل على الماء و يتزود منه و أخبار صاحب الرحلة بأنه فعل ذلك ليقصدى به كما اقتدى هو به صلى الله عليه و سلم و قد قال الإمام الشافعي الشريف لا- يأنف من ثلاث خدمته لنفسه و لدابته و لضيفه كما ذكره الشعراوى فإذا علمت هذا علمت أن ذكر ذلك لأحوال النبي صلى الله عليه و سلم و كفى بذلك فائدة و شرفا لهذا اللم فلا يحل لامرئ مسلم أن يقول تأليف هذا من العبث إذ هو الطريق و بيانها كبيان الطريق الموصلة إلى الله تعالى لأنها توصل إلى بيته بل توصل إلى رضاه و أى علم أشرف من هذا العلم و فائدته ظاهرة هذا و أن علم أمور الرحلة و بعض علم التاريخ يرجع إلى علم سيره صلى الله عليه و سلم فاعلم هذا فان فيه فضلا عظيما و أيضا النفس إذا علمت الطريق اشتاقت إلى الذهاب إلى بيت الله الحرام و أيضا معرفة الاستطاعة و عدمها إنما تكون ببيان المراحل و صعب

الأماكن و سهلها و بيان المسافة بين المطاعن و بيان العذب منها و غيره ليعرف ما يتزود من الماء و قدر ما يعرفه من الأحمال و كل ذلك يحتاج فيه إلى تصور الطريق بالتفصيل ليعرف الإنسان حصول الاستطاعة لنفسه فيجب عليه أو عدمها فلا لأن الحكم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٨١

بالاستطاعة فرع التصور للطريق فاحتيج إلى بيان الرحلة فان قلت كتاب واحد يكفي قلت لأن الزمان و المكان يتغير فاحتيج إلى التعداد و أما بيان الأشجار ليستعد الإنسان إلى الشراء من وطنها لأن كثرتة توجب كثرة الثمرة و كثرتها توجب رضاء الأسعار فينبغي للإنسان كثرة التزود منه و مثله القلة في الضد و أما غير الثمر فيبانه لاحتياج الدواب إليه فكل ذلك فيه إعانة للحاج و الله يقول: (وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى) الآية و بالجملة فهذا العلم شرف لشرف معلومه فالمنصف يظهر له الحق بأول إشارة و المعاند لو ملأت له الأرض حججا ما قبلها.

و إذا بينات لم تغن شيئا فالتماس الهدى بهن عناء

تتمه و ممن أقبل إلينا و وفق لمحبتنا الأجل الأعظم الحليم المشفق ذو الأخلاق الطيبة و الطباع السنية و دفع السيئة بالحسنة لقوله تعالى: (اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) و كذا كفاه الله مثنونه أعدائه من غير حرب و لا عسكر و لما اجتمعت معه قلت له امثل الخير و لو من عدوك، و لا- تقبل الشر لو من صديقك، و قلت له أيضا المحسن يجازى الإحسان، و المسيء تكفيه إساءته، زاده الله عقلا و علما و حلما و صبورا و هداية و رعاية حسنة و أن يخلد الولاية في ذريته إلى قيام الساعة مع العدل و الحلم حسبما فيه غيره من أهل العدل و الإحسان و الرحمة للأمة المحمدية و ذلك سيدى على باشا نجل الوالى محمد باشا نجل الوالى أحمد باشا و فى الحجّة الأولى أدركت جده و فى الثانية أدركت أباه فى الطلعة و فى الرجعة أدركته هو جعل الله عاقبته خيرا من أوله و أصلح حضرته لأن قلب الأمير على قلوب قواعده و صلاحه بصلاحهم و فساده بفسادهم لأنه لا يخرج عن دار الملك حتى يتبين له المحسن من المسيء و الصديق من العدو و الطائع من العاصي

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٨٢

و هلاك الخلق إنما هو بهم فكان حقا عليه أن لا يقبل الشر من أحد إلا إذا حصل له العلم بذلك و إلا كان كره في أيديهم فيهلكون به من شاءوا من عباد الله من غير موجب شرعى نعم العاقل من عقل عن الله ما يفعل إذا علمت هذا علمت أن الأمور نسبية الأمثال فالأمثل و إلا فأن نظر إلى العصر الأول فتجد أهل الطاعة منا كأهل المعاصي منهم غير أنك إذا نسبت من كان من أهل الزمان الأول و الزمان الأتى إلى زماننا هذا فتجده أولى من غيره و الأمر اعتبارى و إلا فالظلم قد عم و الجهل قد انتشر و البدعة قد صارت سنة و السنة قد صارت بدعة و الحكم لله الواحد القهار ألا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العلمين فيالله و تالله مثلى لا يصلح بهم و لا للاجتماع معهم إذ لا دين لنا نتحصن به و أما هذا الرجل و مثله فى محل الرفعة و التعظيم أن تعلق بمثلنا فيربح قطعاً إذ من خذل من الأمراء لا يلتفت إلى أهل الخير بل يعدونهم كالهباء المنتور الحمد له على مثله فالله يحفظنا و إياه من كل حسود و أذاقه ما أذاق أصفياءه لأنه على كل شىء قدير، و بالإجابة جدير، يؤتى الملك من يشاء بالتصريف، و يعز من يشاء بالتعريف، و يذل من يشاء بالتسويق، بيديه الخير من غير وجوب و لا إيجاب و لا تخويف.

تنبيه آخر قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه فائدة قال الشيخ محمد بن على شارخ الشقراطسية ناقلا عن البكرى و يذكر أن تفسير طرابلس بالعجمية ثلاث مدن قال و على مدينة طرابلس سور ضخمة جليل البناء و هو على شاطئ البحر و بها أسواق حافلة و حمامات كثيرة فاضلة و فيها رباطات كثيرة يأوى إليها الصالحون و مرساها مأمون من أكثر الرياح و مدينة طرابلس كثيرة الثمار و الخيرات و بها بساتين جليئة فى شريقها و يتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير و من طرابلس إلى جبل نفوسه ثلاثة أيام و ذكر الليث ابن سعد قال غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس سنة ثلاث و عشرين حتى نزل القبة على الشرف من شريقها فحاصرها

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٨٣

شهرًا لا يقدر منهم على شيء فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو يتصيد في سبعة نفر فمضوا غربى المدينة فاشتد عليهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة البحر و كان البحر لا- صقا بالمدينة و لم يكن بين البحر و المدينة سور و كانت سفن البحر شارعاً فى مرساها إلى بيوتهم فظفر المدلجى و أصحابه فإذا البحر قد غاص من ناحية المدينة فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا فلم يكن للروم مفرع إلا- إلى سفنهم و أقبل عمرو بجيوشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف عليهم فى مراكبهم و غنم عمرو ما كان بالمدينة و سور المدينة مما يلى البحر غير أصل إنما بناه هرثمة بن أعين فى حين ولايته القيروان و بعث عمرو بن العاص إلى ودان بشر بن أرتأة و هو محاصر طرابلس فافتتحها و ذلك سنة ثلاث و عشرين و أكثر معيشة أهل ودان التمر و لهم زرع يسقونه بالنضح و افتتح عمرو بن العاص نفوسة و كانوا نصارى و أم قرى جبل نفوسة شروين مدينة كبيرة أهله جليلة و بين طرابلس و مدينة شروين خمسة أيام و بينهما حصن لبدء من بنيان الأوائل بالأجر و الحجر حوله آثار عجيبة و خرائب كثيرة يسكن هذا الحصن قوم من المغرب حماتهم نحو الألف فارس و هم محاربون لجميع من يحاربهم من قبائل البربر أزيد من عشرين ألفا بين راجل و فارس و ظاهرون عليهم و فى وسط جبل نفوسة النخيل و الزيتون الكثير و الفواكه و يجتمع فيما حوله من القبائل ستة عشر ألف رجل و طول جبل نفوسة من المشرق إلى المغرب ستة أيام اه- كلامه مع بعض اختصار و تغيير و فى رحلة أبى سالم العياشى و هى مدينة مساحتها صغيرة، و خيراتها كثيرة، و نكايتها للعدو شهيرة، و مآثرها جليلة، و معابها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طريقها، سهل طرقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف، و جميل الإنصاف، و سماحة على المعتاد زائدة، و على المتعاقبين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما، و لو لمن استحق ملاما، لا سيما مع

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨٤

الحجاج الواردين، و من انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون فى إكرامهم، و لا- يألون جهدا فى أفضالهم عليهم و أنعامهم، و لهذه المدينة بابان باب إلى البر و باب إلى البحر لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها و الحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه و بين البحر و لأمر هذه المدينة نكاية للعدو دمرهم الله و لو مراكب قل نظيرها معدة للجهد فى البحر فلما تسافر و ترجع بلا غنيمه و فلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهد فجزاهم الله خيرا و أعانهم على ما أولاهم من ذلك و سائر بلاد المسلمين أجمعين.

قال و كان عادة الركب إذا نزل هذه المدينة لا سيما فى الذهاب أن يقيموا بها نحو من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التى قل نظيرها و هى مفازة برقه و من هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الإبل و القرب الخ ما حاصل معناه أن الركب كان يمشى مشيا رويدا لأن مقصودهم الحج و الشوق لتك الأماكن و يشفقون على الضعيف فالآن و العياذ بالله صارت حالة الركب تجارة فمسيرة شهرين صارت أربعين يوما غبطة لحصول الحوايج الدنيوية حتى انقطعت الصعاليك عن المشى أنا لله و أنا إليه راجعون.

و أما الإبل فأبل هذه البلدة أجود من غيرها لأنها ألفت العمل و الخدمة الكثيرة و أنهم يستعملونها فى كبير الأعمال حتى الحراثة و الدراسة و الرحي فتمرت بذلك على المشاق العظيمة مع طيب هواء البلد و قد قيل إن هواء الدنيا كلها فى هواء هذه البلدة مع صفاء مرعاها فيقل حينئذ فيها الغش و تندر أمراضها و قد قيل للحجاج عليكم بجمال طرابلسية و قره مصرية لأن قرب هذا البلد رديه الدباغ و ماؤها خبيث المساغ و مع ذلك لا تمسك الماء إلا كما يمسكه الغربال و مع ذلك يحتاج صاحبها إلى كثير منها بل قد تؤديه إلى العطب و التلف فى بعض المفاوز لكونها تضيع الماء

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨٥

برشحها كثيرا. ثم قال و هذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج و المجاهدين فى أمر معاشهم فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين و الاثنيين خمسة أو ستة و يصادف ذلك فى كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهد و مع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان فى كل مطعوم بل ربما نقص فى الغالب مع أن البلد فى كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل و سواحل المغرب

و جباله إلى أن أهلها مستكفون بها غاية و راضون بها نهاية و هي جديرة بذلك إذا اجتمع الأركاب فيها كثير الزحام على الأراحي غاية فيلقى الحجاج من ذلك مشقة و لولا ما جبل عليها أهلها من السماحة و حسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها لصغرها و كثرة الواردين لا- سيما من لم تطل أقامته اه- قلت ركبنا لم تطل إقامته في هذه السنة و إنما أقمنا بها نحو العشرة أيام و ذلك شأن الأركاب في هذا الزمان لأن الناس يستصحبون معهم الزاد فلا يحتاجون إلا إلى ما قل و قد ذكر شيخ شيوخنا المذكور أنه بعد استقرار المنزل به ذهب لزيارة شيخه الفاضل مفتي البلد سيدي محمد بن أحمد بن مساهل رضى الله تعالى عنه قد استعفى عن الفتوى في آخر عمره و تبطل للعبادة و تدريس العلم مع ملازمة كتب الوعظ و التذكير و له مشاركة في العلوم ملازم التدريس و له سيمه حسنة و حالة مرضية بأن قال ما رأينا سيمه حسنة أولى منه و لا أصدق قولاً و لا فعلاً منهم و له باع في المطالعة و انقال في المذهب و كان منقطعاً عن الاشتغال و التكاليف بحيث لا يفتر عن إقراء العلم صباحاً و مساءً و صيفاً و شتاءً بمعنى أنه يديم القراءة و قد اشتغل بالفتوى نحو الأربعين سنة و مع ذلك حمدت سيرته و قد أخذ طريقته عن الولي بلا نزاع بين تلك البقاع سيدي محمد الصيد رضى الله عنه و الصيد في لغتهم الأسد و سمي بذلك لكثرة ردعه للظلام و قهره للجبابرة و هو أخذ عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة و هو أخذ عن الولي الكبير و العلم الشهير سيدي أبي عمرو القسطلاني المراكشي و كان هذا الشيخ

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨٦

رضى الله عنه لا يجترئ أحد على معارضته فيما أمر به و لا يتعرض لمن انتسب إليه و ظهرت له كرامات و قد ظهر فضله بسبب شيخه سيدي عيسى المذكور و لذا لم يزل ولده سيدي عبد الحفيظ يبالغ في تعظيم أولاد سيدي أبي عمرو بل في تعظيم كل من انتمى إليهم بقرابة أو خدمة أو جوار أو غير ذلك و قال و لقد أخبرني من حضره ذات يوم و قد غسل سيدي محمد بن أبي القاسم من أولاد سيدي أبي القاسم يده صباحاً و رأسه من حناء كان بها في إنائه فأخذ سيدي عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة في ذلك الإناء و شربه نفعه الله بحسن اعتقاده و لهذا السيد مزيد اعتقاد في كل من ينتسب إلى الصلاح و قد نفعه الله بذلك فطار صيته و انتشر ذكره في البلاد أكثر من أبيه و هابه الولاة فمن دونهم كما قيل له دنيا عريضة من كل المال قد أتاه نعماً و حرثاً و غيرهما يطعم منهما الواردين و يواسى المحتاجين أعانه الله على ما به تولاه و رزقه الشكر على ما أولاه و توفي أبوه سيدي الصيد سنة خمسين و ألف (١٠٥٠) و قال أيضاً لقد أخبرني محمد بن مساهل المذكور بان قال منذ عرفت الشيخ سيدي الصيد ما تركت جمعة في مسجده نحو أربعين سنة آنية ضحى و أصلى الجمعة و أرجع إلى المدينة إلا لعذر ظاهر و أبقى في مسجده إلى أن أصلى العصر في محلي المسمى بالهنشير و بينه و بين المدينة ستة أميال.

لطيفة قال أخبرني أيضاً شيخنا هذا أن شيخه المذكور قال أن لأهل الله مراغة كمرأغة الإبل لا يمر بها أحد منهم إلا تمرغ بها و أنى لأرجو أن يجعلك الله مراغة لأولياءه و لأجل دعوة هذا الشيخ لا يدخل أحد هذه المدينة ممن فيه انتساب لهذا الطريق المبارك إلا كان أيواؤه إلى هذا الشيخ أما بالتزول عنده أو بالتردد إليه و كان رضى الله عنه يقوم بحوائجهم قدر الإمكان و يواسيهم نفعه الله بقصده الجميل.

نادرة قال و أخبرني شيخنا ابن مساهل عن بعض مشائخه أنه قال إذا أذن خلف

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨٧

مسافر فذلك أمان له حتى يرجع من سفره و روى لنا في ذلك حديثاً و قد فعل لنا ذلك رضى الله عنه حين ودعنا خارج داره فرأينا بركته و الحمد لله اه-.

أقول

لطيفة و كذا إذا قرأ وراء المسافر قوله:

و حيث اتجهت صادفتك عنايةً و ينصر ك الرحمان من كل جانب

رجع سالما بإذن الله تعالى و قائله هو جبريل عليه السلام إذ قرأه وراء النبي صلى الله عليه و سلم حكاة الخفاجي في شرح الشفاء قال ما قرئ وراء مسافر إلا رجع سالما.

ثم قال

غريبة أخبرني أيضا أن سيدي علي بن الخضر العمروسي ذكره في شرحه على المختصر أن الزباد المسمى في عرف غربنا بالغالية نجس و إن كان عرق حي لمورره بمحل البول قال و كان بعض الصالحين لا يتطيب به لذلك و أظنه الشيخ اللقاني قال شيخنا و كنت أتوهم ذلك إلى أن بعث بحضرة سيدي عبد الحفيظ إلى فطاط من الفطوط التي يستخرج منها الزباد و كان عند بعض الأتراك فلما أحضر أمرنا متولى استخراج الزباد منه باستخراجه بحضرتنا ففعل فشاهدنا محل اجتماع ذلك منه خارجا عن محل البول لا يمر به أصلا و إنما هو جليده رقيقة عن يمين المحل أو يساره يجتمع فيه ذلك العرق و تشتد عليه و تنطوي حتى يؤخذ منها قال فحينئذ أطمأت نفوسنا و أيقنا بطهارته.

قلت و في شرح المختصر للشيخ بعد الباقي الزباد كالمسك لخروجه من غير

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨٨

مخرج البول و الروث و لا- يصل إلى محل خروج بوله و لا روثه كما أخبرني به مسلم ثقة في ذلك كذا قال الأجهوري في كبيره و من خطه نقلت فيكون طاهرا و به أفتى الشيخ سالم بعد التوقف حتى أخبره من له به معرفة و كذا له كما للأجهوري و هو خلاف من هذه الأماكن بمعلقة صغيرة أو بدرهم رقيق اه- و اقتصر صاحب القاموس على ما نصه و غلط الفقهاء و اللغويون في قولهم الزباد دابة يجلب منها الطيب و إنما الدابة السنور و الزباد الطيب و هو رشح يجتمع تحت ذنبها على المخرج فتمسك الدابة و تمنع الاضطراب و يسلت ذلك الوسخ المجتمع هنا بليظة أو بخرقه انتهى كلام الزرقاني بزيادة.

قلت و يؤيد ما للرزقاني ما عاينه الشيخ ابن مساهل المذكور مع من معه فلا يرتاب في طهارته إذا لبعده عن محل النجاسة لانطواء تلك الجلدة و اشتدادها عليه بعد اجتماعه حتى يؤخذ منها.

ثم قال

غريبة أخبرني الشيخ سيدي محمد بن مساهل سنة أربع و ستين في الرحلة التي قبل هذه أنهم سمعوا في سنة اثنتين و ستين و ألف (١٠٦٢) صوتا هائلا- في ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل قال وظننا سفنا للمسلمين تلاققت مع بعض السفن للنصارى و كما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل إلى مراته و سمعه حتى أهل فزان و الإسكندرية و سمعه من الناحية الغربية أهل جربة و سوسة و تونس و كل يظن أنه قريب منه و بعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك و أخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل و ذلك أن جزيرة من الجزائر خرجت في بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر حتى إذا ارتفعت على الماء و علت في الهواء تصدعت فيخرج منها نار و يسمع لها ذلك الصوت فإذا خرجت

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٨٩

النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الجفافة و دام ذلك إلى الليل و ارتفع من ذلك الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت و أعجب من هذا أنهم قالوا أنه أصبح في ذلك البلد كل ما عندهم من الفضة نحاسا في تلك الليلة و الله أعلم بغيبه قال و هذه المدينة معروفة بأهل الصدق في الأحوال من المجازيب و قد أدر كنا بها رجلين أو ثلاثة من المجازيب تؤثر عليهم كرامات و حكايات غريبة تدل على صدقهم في مواجدهم و كانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة لكثير من أكابر الصالحين و لا يعرف منهم الآن إلا القليل كسيدي سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذي بأقصى المدينة و قبره يزار.

قال و سبب خفاء كثير من قبور الصالحين المدفونين أن البلد تداولته أيدي المسلمين و النصارى مرارا عديدة فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن النصارى استولوا عليها في أيام السلطان أبي عنان و افتداها منهم بخمسة قناطير من الذهب العين فعد ذلك من مآثره انتهى

قال وقد استولى عليها النصارى أيضا فى القرن العاشر. الرحلة الورثيلانية؛ ج ١؛ ص ١٨٩

ت وفى رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست و تسعين و ألف (١٠٩٦) حاصرها الكفار دمرهم الله تدميرا و ذلك أن يوم نزولنا بها بمنزل الركب بسق البحر إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تابعت الفك فى اليوم نفسه إلى أن كملت اثنتين و عشرين سفينة فأقاموا عليها دمرهم الله بقیة الثلاثاء و الأربعاء و الخميس و الجمعة و أهل المدينة فى تلك المدّة فى هول عظیم و نكد جسيم و عناء شديد و ليس فيهم مدبر و لا ذو رأى حميد أو نظر سديد بل أخذوا فى نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها و حريمهم إلى سوانبهم بالمنشية و لما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم على فعلهم الغير اللائق فيما يبدو لنا من إظهار الجزع و الجبن لأعداء الله الكفرة اللآم الفجرة و قلنا لهم إن هذا الصنع الذميم مما يغريهم عليكم فاصبروا و لا تظهروا لهم

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ١٩٠

الوهن و الجبن فقالوا هذا و الله منها ليس بجبن و إنما حملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البنية يضربون بها و لا تقع على شىء كائن من كان إلا و هدمته و دكته و المسلمون فى هذه الليالى كلها لا ينامون بل يحرسون على البحر و يطوفون حوله و نحن و ركبنا معهم فى ذلك مستهلون بالشهادة رافعون أصواتنا بالتبكير و ملعونون بالصلاة على البشير النذير عليه أفضل الصلوات و أزكى التحيات من الملك القدير و على آله و صحابته ذوى المنهاج الواضح المنير فلما كان بعد صلاة العشاء ليله السبت ضربت الكفرة دمرهم الله بمدافعهم فرأينا من ذلك ما لم نره قط و لا سمعنا به ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكره محمّاة تحكى الشهب خرجت منه صعدت ثم يرمون بأخرى و ترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصممه الأذان فتصدع فى الموضع الذى وقعت فيه و تتفرق و لا تقع على بناء إلا هدمته و لا على بسيط مستو إلا و حفرتة و لا على عليه أو أسطوانة إلا و هدمتها و لا على شجرة إلا و أحرقتها أو قلعتها فتمكث فى أعماق الأرض سويعة فتتكسر فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول و نحن فى ذلك كله رافعو الأكف بالذلة و الافتقار و الخضوع و التضرع إلى الله تعالى الليل كله و لا نكتحل بنوم قط و ما خرج مدفع من مدافعهم إلا و ظننا أنه يقع علينا فتارة تقع حذاءنا و تارة تمر علينا و أكثر ما تقع بالمدينة أو البحر أو قرب المدينة خارجا و فى بعض الليالى و هى من الليالى الهائلة أخذوا فى الضرب الليل كله إلى الصباح بل إلى الضحى لا يفترون عنه ساعة و ضربوا فيما أخبرنى به بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمائة كرة فلما رأينا هو لهم العظيم و معنا النساء و الصبيان و فيهن الحوامل خشينا عليهن أن يقذفن ما فى أرحامهن مما يعاين فتحولنا لبعض البساتين المسورة فنزل الركب بها و أدخلنا حريمنا لبعض الديار ثم امسكوا عن الضرب إلى أن صلينا العشاء فضربوا أيضا دفعة واحدة فهاجت عليهم أرياح عاصفة و أفسدت كراهم

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ١٩١

ياخمد ما تعلق بها من نار و عند الفىء عادوا للرمى إلى الضحى فلما قرب الزوال زحفوا إلى المرسى فعافهم من بالبرجين اللذين على البحر من المرابطين بهما البائعين أنفسهم من الله و قد لا يخلوان من حارس فى السلم و الحرب و ردهم على أعقابهم بما قذفهم به من الكرى و المدافع حتى كسروا لهم صندلا صغيرا فنكصوا على أعقابهم و ولوا أدبارهم، و عانقوا أدبارهم، و الحمد لله رب العالمين فكثرت اللغط و العويل بالبلد، فجاء أهل الإسلام من كل جهة مشاة و ركبانا بعدد و عدد، كل بحسب وسعته، فاكفهرت وجوه الأبطال، و كلحت شفاه الرجال، و شمروا للزوال، و تهيئوا للدفاع و القتال، و احمرت الحدق، فكسا الكفرة الفرق، فارتحلوا إلى أبعد مكان فأبعدهم الله و أسحقهم، و أذلهم و أقلقهم، فكاد الإسلام يقتحم بأهله البحر إليهم و أشد الناس حنقا عليهم الحجيج فعملوا على النجاة، و النصال و البراز، و لو لا البحر لأراهم الله من أهل الإسلام ما يسوءهم فكتب كل وصيته و أعد الشهادة مغنما، و فواتها مغرما، كل يرجو أن تخرج الكفرة للبر و اجتمعت آلاف مؤلفة من أهل الإسلام الأبطال من أهل الدفاع و القتال و ما رد الكفرة من الخروج إلا- ما رأوا من شدة الحزم و قوة العزم، و أبلغ الغيظ من أهل الكفر و الظلم، حتى قالوا يكون بيننا و بينهم صلح على أن يدفع لهم المسلمون جميع ما عددهم من أسراهم و شرط عليهم المسلمون مثل ذلك و الكفار على المسلمين يردوا لهم ما أخذوا منهم قبل

ذلك الزمان في البحر في هدنة بينهم و قبل المسلمون لهم ذلك و قدره و الله أعلم مائتا ألف ريال فرمليه فحينئذ دخل الكفرة المدينة للتسوق و ربما أغلظوا على بعض المسلمين في القول لتوعد أمير البلد من العثماني على من أساء على كافر و لو بكلمة بعقاب شديد و هو عالج فأغرى ذلك الكفار على المسلمين فصر أهل المدينة لذلك و أما المغاربة و جميع الحجيج فاغلظوا على الكفرة فآخسنا لهم في القول و ربما ضربوهم و لا ألقوا إليهم بالا إعزازا لدين الله و إعلاء لكلمة الله فرجع الكفرة ذلك لأمير البلد العالج الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٩٢

المذكور فقال إن المغاربة شداد على النصارى فاتركوهم لئلا يقع فيكم القتل و لا يدلى عليهم فدعوهم عنكم و تحملوا منهم ما واجهوكم به فأخذوا في دفع ما شرط عليهم الأمير و صاروا يدفعون لهم الخيل و الزرع و الإبل و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم و كلمنا علماءهم المالكية فقالوا إن هذا و الله هو الصغار بعينه و لا قدرة لنا على ما فعله هؤلاء الأتراك و خرجوا تلك الأيام خارج المدينة مخافة حضور هذا الفعل الذميم.

تنبيه من جملة الدواهي المعضلات أننا دخلنا المدينة للجمعة فجلسنا نتظر الإمام فإذا برجال من أهل الدولتلى أرسلهم بالنداء لا تصلى الجمعة فقام لهم صاحبنا الفقيه سيدي أحمد بن محمد الهشتوكي فقال لهم أن هذا و الله حرام لا يجوز كيف تترك الجمعة من غير عذر بين و أكثر من ذلك فقام فقيه منهم فقال هذا جائز عندنا فخرجنا من مسجدهم فأتينا مسجدا آخر تصلى به الجمعة المالكية فإذا برسول الدولتلى أتى ينادى بما نادى به أولا فأبى الإمام المالكي فصلاها رضى الله عنه قائلًا و الله حتى أصليها و لو تنفذ سالفتي فصليناها معه جزاه الله خيرا و وقانا و إياه ضيرا ثم أجلي الله الكفرة عن المدينة يوم الخميس بعد تمام المهادنة و إمضاء شروطها و فرح المسلمون بانتقالهم عنهم و إقلاعهم عن البحر غاية الفرح أخرى الله الكفرة و أذلهم و أعز أهل الإسلام و أحاطهم.

نكتة أخبرني بعض من يوثق به أن هذه الآلة التي يرمى بها الكفرة كانت تصنع من نحاس و حديد و ذهب و فضة و أنواع أخرى من المعادن و يفرغونها على قدر القدر المتوسطة المسماة في عرف أهل بلدنا بالمقلاة و لها يدان مثلها و بابها ضيق قدر ما يدخل فيه الإنسان ثلاثة أصابع أو أربعة و يأخذون عود الكلخ و يثقبون وسطه طولا و يجعلون فيه فتيلة تخرج من فوقه و أسفله و يملئونها بارودا و مسامير و قطع الحديد

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ١٩٣

و عقاقير و يجعلون هذا العود في فمها و يسدون عليه بحلقة الحديد و يجعلونها في مدفع على هيئة المهراس بعد ما يجعلون فيه البارود و يرفعون فم هذا المدفع نحو السماء فإذا مس بنار خرجت النار مشتعلة في الفتيلة و هي طالعة في الجو و الريح تنفخها و النار في الفتيلة و عود الكلخ يزيد اشتعالا بما يصيبه من الريح و ترى في الجو على هيئة النجم فلا تصل النار إليها حتى تسقط حيث تسقط اه- .
تمت هذه المدينة و أن نقصت حسا لأنها الآن لم يوجد فيها إلا حمامان و كذا الرباط فيها و مثلها الأسواق غير أنها لم تنقص معنى فإن خيرها كثير و نورها جدير نعم قد وجدنا فيها فرقا من أهل الخير و الدين من طلبه العلم و غيرهم و بالجملة فمن يذوق أحوالهم، و ألقى السمع إليهم، يرى بنور الله أفاضل أجله، و ذوى المعرفة كالأهله، فليس لك أن تقول قل الخير و أهله، و إنما قل على المحجوب و المعلول أفعاله، و إلا فحضره هؤلاء كاملة الأنوار ساطعة الأسرار، لا تخلوا مواطنهم من المقربين و الأبرار، فيحق السعى إليهم، مع خدمتهم و مودتهم و التحبب إليهم، ليستمد منهم و يستفيد من أحوالهم، و يقتبس من أنوارهم، ليدخل في حضرتهم، و يشرب من كأس قربهم، و حينئذ يتخلق بخلق النبي صلى الله عليه و سلم فتسرى فيه روحه الكريمة بل تسرى فيه معاني أسماء الله و صفاته و ينكشف له بالذوق عن كنه ذاته فترد عليه شطحات إلهية، و مواهب صمدانية، و أنوار فردانية، فيغيب عن الأكوان بقدرة المكون حتى لا- يراها إلا فتنة و بلوى إذ تقول بلسان حالها إنما نحن فتنة فلا تكفر فلا يسير حينئذ سيرة المهل غير أنه لو لا سلطان التمكين لطاش عقله لفجاءه البعث فيقويه الله تبارك و تعالى في مقام الشهود و إلا اضمحلت نفسه لمشاهدة الذات و كذا وصفه لمشاهدة وصفه و فعله لمشاهدة فعله فلا يرى السائر إلا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٩٤

ذات المحبوب و صفاته و أفعاله فيصحبه في ذلك الوقت بعض المحو فيقول الجاهل تكدر وقته، و عظمت محنته، و عالت مصيبتة، و المعترض صاحب الحرمان، و غلبت عليه النفس و الشيطان، و إلا- لسلم لمن هذا وصفه إذ هو في تجليات المحبوب، و الغيب عن المربوب، فجدير أن يؤيد في ذلك المقام و إلا- فلا- يستطيع أن يحمل ما للباقي إذ الفاني لا قدرة له على ذلك، و لا يتحمل ما هنالك، فيجول قلبه في معارف الله تعالى و إذا تليت عليه آيات القرآن زادت إيمانا و على ربه يتوكل فإذا تقوى عليه الله الشهود و سار في الأرواح ذهب سر الأسرار في قائمة عروس التجلي فلا ينعكس أصلا فذلك إسرائ الأرواح لربهم فيحليها بما حلى به المقربين من عباده و حينئذ تكون له شطحات يشطح بما حلى به أما بسر الذات أو بمعنى الصفات أو بشذاء الأسماء فإذا تغذى بها ظهر ذلك على الأجباح و لذا قال بعض العارفين إذ نزل الوجد على الرأس حركه و على العين أدمعها و على اللسان انطقه بما به شطح و على اليد بطش بها و على الرجل رقصت فحينئذ يغيب الناس بسر اللهوت فينادى لسان الحقيقة بما يشبه الاتحاد فيقول مثلا أنا هو فإذا دام شربه ظهرت أنوار الحق عليه لأن ما فيك، ظهر على فيك، كل إناء بما فيه يرشح، هذا و إن وسع التجلي لا يعرف قدره إلا صاحب التأييد من العزيز المقتدر هيهات من هو دون مقامه، أن يشم رائحة أنعامه، و لا- أن يكون في قسمة من أقسامه، نعم لا يفهم كلام الأخرس إلا أمه، و في ذلك الغيب و جمع الجمع يصير ملتقيا لدرر التوحيد، و غرر التجريد، لتجلي بها في منصة التوحيد، فلا يعلم ما هو عليه إلا من شرب من مشربه، و شرابه يرقيه إلى محبوبه، و إن إلى ربك المنتهى، فيصير هو سمعاه و بصرا و نطقا، و إلى هذا المعنى أشار ابن مالك بقوله «و ذو ارتفاع و انفصال أنا هو» أي الضمير بسر اللهوت المنفصل عن الخلق، المتصل بالحق، فإذا غاب بمحبوبه، يقول في حال غيبه و محوه، إذ لا يرى إلا ذات المحبوب و أوصافها فلم يبق له سواه ينظر إليه و لذا يقولون الوجود واحد إذ لو

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٩٥

تعدد لهلكت العوام و أما من غلب عليه سطوة التجلي تلاشى كل شيء سواه و قال أنا هو غير أنه ممزوج بكدر الاتحاد و لذا لا تسمح الشريعة في مثل هذا القول نعم صاحب الحال محمول لا حامل فإذا رجع إلى صحوه قال أنت أذلو قال أنا هو مع الصحو لكفر بإجماع لأن الله تبارك و تعالى قسم أهل الحق قسمين متلونا و متمكنا فصاحب التلوين ملكه الحال و هو أول مقامات النبي صلى الله عليه و سلم و بدايته بدليل قوله زملوني زملوني الحديث إذ التكليف و التصارييف لا يستطيع البشر حملها و لذا طلب المعونة بالتغطية و الضم ليتيسر حمل أعبائها فلما تمكن يأتيه الملك و لا- يتغير و دليل التلوين قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية و أما التمكين فقوله تعالى: (أَلَا- بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) و لقوله أيضا: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) الآية فلما تحقق بعض الفقراء من زماننا بهذا و ظهرت عليه آثار الغيب و المحو لما صاحبهم من الشهود بملاحظة المعبود تحركت همتهم بالشطحات السالفة من أنواع الواردات المختلفة فمن رزق الإنابة سلم لهم أحوالهم، و وكل أمرهم إلى مولاهم، و من حرم و العياذ بالله كفاه الحرمان و هو أصل كل شقاوة نازعهم في تواجدهم و أحوالهم و صار يبطلها بأدلة و همية، و تخيلات واهية، و نزغات شيطانية، عله أن يسقطهم في عين الخلق و من كان في عين الحق لا يسقطه عن الخلق و الله يقول: (تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يَتَّبِعْ أَقْدَامَكُمْ (٧)) و الذين كفروا بمشاهدة الحق و تحلية القلوب بالحق فتعسا لهم لما تحملوه من الحجاب العظيم غير أن هذا لا يكون إلا من الفقيه الفح الذي سولت له نفسه الحمقاء أن يقول ما يوجب الرجوع عن باب الله

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٩٦

تعالى إذ تبت يده أن تصل إلى هذه الأنوار، و انكشفت شمسها عن هذه الأسرار، فحرم الوصول إلى هذه الدار، فخاب سعيه، و طاش عقله، فضل و أضل أن الله تولاهم، و لم يتركهم لسواهم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو أن بعض المنتسبين و الفقراء المتجردين قد برز في صورة ما ذكر من الأحوال و الواردات و المواجد

فقام بعض الفقهاء ينزح البحر بلسانه هيهات أن يصل إلى بعض معانيه وقد قال أبو يزيد البسطامي أعلى الولاية التصديق بأحوال الله أهل الله وأدناها التسليم لهم ولذلك نبهنا على أمر هؤلاء فإن فيهم من فتح له باب [المعرفة أشراب على الخط السابق] من ورود الشهود على قلوبهم فأوردوها وورود الاتحاد لغيبتهم عن الأكوان بمشاهدة المكون فنطق الكل بحسب شهوده، و تحرك على قدر وجدته و صعوده، فلما حلاهم الله في بواطنهم بتلك الحقائق، و عظم أمرهم بتلك الدقائق، و زين ظواهرهم بالإشراق فسقاها من كأس حبه، و كساه بحلّة قبوله، فكانت تنادى بلسان حالها إن هذا مقبول عندنا، و مفتاح لدينا، فمن أحسن إليه أحسن إلينا، و من أساء عليه فقد أساء علينا، فمن أخذ بيده قلبناه، و من تشفع به شفّعناه، و من أحبه أسعدناه، و من اعترض عليه رددناه، فصار خليفه في أرضه، و نائبا عن أحكامه و إبرامه، فمن تعلق به دخل، و من قصده بلغ الأمل، و بالجملة فأسواق الحق عامرة، و أهلها مشهورة، فأهل وروده المذكورة، فإن سعيت إليهم بحسن اعتقاد قضيت ما ربك منهم، لأن الله يستحي أن يردهم، و كذا يقصم بالهلاك من يبغضهم، لقوله صلى الله عليه و سلم من عادى لي وليا فقد آذنته بالمحاربة و من حارب الله و رسوله هلك و إنما ذكرت هذا لعلمي بهؤلاء في هذه المدينة غير أن بعضهم يدعى ما لم يصل إليه و بعضهم يعترف بأقل ما لنفسه و بعضهم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٩٧

ينكر مما لله عليه خوفا من طغيان النفس الأماره بالسوء حتى يتعجب فيسقط من عين الله و إن جحد فحليه الله أظهرته، و كرامه الله شهرته، و لو أغلق الباب عليه لكسروه، و كذا لو اختفى في جحر ضب لأظهوره.

و قال الشيخ زروق ما خامر القلوب فعلى الوجه يلوح و آثار الأسره تدل على السريره و قال ذلك الرجل للنبي صلى الله عليه و سلم لما رأته عرفته أنه ليس بوجه كذاب و قال تعالى في حق الصديقين (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) و في حق المنافقين و لتعرفنهم في لحن القول، الناس حوانيت مغلقة فإذا تكلم الرجلان تبين العطار من البيطار لأن الكلام صفة المتكلم، ما كان فيك ظهر على فيك، و يعرف صدق المرء بثلاث عند مغاضبته أن لزم الحق و اتصف بالصدق و سامح الخلق فهو ذاك و إلا فليس هناك.

فإذا تمهد هذا فاعلم أن مدينة طرابلس خصها الله بالصالحين و محبة أهل الخير حتى أنهم لا يصبرون عليهم فإذا شموا رائحة المعرفة في أحد سعوا إليه بالإحسان جزاهم الله أحسن الجزاء و ذلك عام في عمالة طرابلس لا سيما الزاوية الغربية فإن فيها من الصالحين الموتى ما لا يستطيع أحد أن يعدهم و أما الأحياء فبحسب زماننا هم أكثر من غيرهم و قد قيل إنها تنبت الصالحين كما تنبت الأرض العشب هذا و إن أولاد قد بالغوا في حبنا و صفوا في مودتنا حتى أنهم تمنوا أن يكون ما عندهم قد بذلوه لنا و جعلوه قرى لأصحابنا خصوصا سيدى محمد و سيدى بو بكر و سيدى على حاصله تعلقوا بنا صغيرا و كبيرا ظنا أن لنا فيضه إن فاضت عمهم و أبلها نعم من لم يصبه من المحسنين و ابل منا فطل بجاهه صلى الله عليه و سلم الذى تعلقنا به و ذهبنا و تعبنا من أجله و إلا فو الله علمنا أنفسنا و أيقنا أنها مفلسه قال بعض

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٩٨

العارفين ويل لمن ترك يقين نفسه لظن غيره و الويل واد في جهنم تستعيد منه جهنم في كل يوم سبعين مرة و بالجملة ففيها أفاضل لا سيما سيدى ناصر الذى أعتزل بأهله و سكن بيت اخصاص إذ هو و زوجه عجوزة خفيف الحال أى لا مال له و لا أهل و قد تجرد للعبادة و أطعم لنا بسيسه من كديده رضى الله عنه و أرضاه بمنه و كرمه و أما سيدى محمد [فانه] أتى إلينا بحمل جمل شعيرا و ضيافة من لحم و غيره نعم أولاد سيدى البشت و أولاد القمود كلهم فى الزاوية الغربية على خير.

فإذا تمهد هذا العلم فاعلم أن فى الزاوية الغربية الصالحين و أهل الخير لا نظير لهم فيما علمت غير أن أهل الجزائر يعنى من سكن المدينة و كذا أهل وطننا فإنهم أعظم منهم لا سيما جبال زواوة فإنهم أكرم شىء فى الوجود إذ يأكلون الردى و يطعمون الضيف الطيب و وطنهم فى غاية الضيق من المعيشة إذ هم خلق كثير لم يكن وطن أكثر منه و قد سمعت ممن يوثق به ممن علم أرض مصر و جبال زواوة فقال هم أكثر من مصر فأضعاف و قد استنشقت بعض الأدلة على وجود الطائفة التى على الحق و لا يضرهم من خالفهم

إلى قيام الساعة أن الكثير منها في عمالة طرابلس و عمالة زاووة من عمالة الجزائر فلا يشك من خالطهم و ثابنهم أفاض الله علينا من بركاتهم و جعلنا في زميرتهم.

تنبية مخالطة المتمكن في طريق من طرق الحق تفيد صاحبها ذلك إذ من تحقق بحالة لا يخلو الحاضرون منها لأن المرء على دين خليله و كل خير و كل شرفي الخلطة و اللقمة و كل ما شئت فمثله تفعل و صاحب من شئت فأنت على دينه انظر قواعد الشيخ زروق و قد منحت بعض الفتح منهم و من غيرهم من الذين رأيناهم في مكة و المدينة و مصر و غيرها نعم من اعتقد فيهم و أحسن إليهم و سلم لهم و صدقهم رزق

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ١٩٩

عطفهم فلم يبق إلا التعلق بهم فلا يقال قد انعدم هؤلاء الآن و قد قل وجودهم أو على تقدير وجودهم قد ستروا بظلمة الزور و البهتان و دعاوى الزنادقة أو أنهم في الفلوات من الأرض أو ظهر بعضهم فقد منع الناس منهم الطعن فيهم لا سيما الفقهاء فإنهم قد طبعوا على القدر في جانبهم و الخدش فيهم نعم لا- تجد فيهم منورا من أجل ذلك إذ الفقهاء إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك و إن بغضوك ذموك بما لم تتصف به و قبله العامة منهم و بالجملة فإن وجدت من فيه رائحة الذوق و ظهرت علامة المعرفة فشد يدك عليه و لا- تصبك غفلة و تفريط حتى تندم عليه لأنه أكسير زمانك فلا تهمل أمرك من هذا و ألق السمع لما نبهناك عليه إذ هم الكعبة للزوار و لا تغمضهم بعين الأزدراء و سوء الاعتقاد فتصير محروما مخذولا ممنوعا خصوصا إن أصابتك الواقعة فيهم فيخاف عليك سوء الخاتمة و العياد بالله تعالى هذا و إن من أحسن ظنه فيهم وجد في طلبهم مع الصدق و جدتهم أقرب إليه من ريقه لفيه في محل لا يظنهم فيه فيحصل له سلم يرقى به إلى حضرة الله تعالى يعلم ذلك باليقين و إنما يجدهم مستورين بالقدح و الخدش من هو مثل من يتعاطى الفقه و التطلب إذ خبرة حال عن الخميرة فهم الأسد، في اجام الحسد، و غيضة الاعتراض، و غابة الانتقاض، و قد علمت ما قالوا في الزباد من كونه نجسا لقربه من محل النجاسة و معلوم كما سبق انه يحصل من غيره بمعانئة صدوره من قطعة من المبرزين في العدالة إذ عاينوه كذلك فهؤلاء أعظم منه نفعنا الله بهم.

تمتة فق لقي شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر من فضلاء طرابلس سيدي أحمد بن عبد الواحد بن يوسف الزنورى ثم الفزاني و هو ساكن بزواوية زنور و أنشد له لنفسه حين وداع الشيخ:

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٠٠ أيا سيدي خفق باني عبيدكم ذليل حقير بين قوم أراذل

و نفس له شيطانية قد بلى بها هواه و إبليس و دنيا العلائل

أفيضوا عليه سيدي من نوالكم عسى و عسى يعلو على كل كاهل

و يفهم مولاي علوما دقيقة و يمشى خلى القلب من كل شاغل

و من جملة أهل وده هناك من الأئمة الأعلام أبو عبد الله سيدي محمد بن مقييل و صهر الأجل سيدي أحمد بن محمد المكنى تقبل الله عملهم و أصلح فعلهم إذ أحسنا إلينا غاية الإحسان و في تلك السنة لحقه الشيخ أحمد بن محمد الهشتوكى أخ له في الله و في تلك الأيام قرأ هو و أصحابه على شيخه أبي العباس سيدي أحمد القصرى تأليف على الربع المجيب نفعنا الله بهم.

نكتة تقدم لنا أن ترجمة لفظه طرابلس ثلاث مدن و الأشهر في ضبطها فتح الطاء و ضم الباء و اللام و بعضهم يزيد ألفا و يسكن الطاء و قال التجاني في رحلته و كذلك رأيت الأجداى يكتبها حيثها وقعت في خطه و على ذلك قول أحمد بن يحيى من قديم شعرائها في قصيدة له و هي:

لقد طال شوقى إلى فتية حسان الوجوه باطرابلس

و قد عيل صبرى فما مسعدى على الشوق إلا دموعى الحبس

قال بعضهم المختار أن تكتب بزيادة ألف فرقا بينها و بين طرابلس الشام فإنها بغير ألف و بخارج البلد محارس قديمة و مساجد كثيرة

مشهورة الفضل والبركة وأثنى البكري على المسجد المعروف منها بمسجد الشعاب إذ قال إنه أعمرها وأشهرها في ذلك الزمان و
أما الآن فهو خال لا عمارة به و أما زماننا هذا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٠١

فلم أسمع له ذكرا وفيه فيما مضى جملة وافرة من أكابر الصالحين والعلماء العاملين و مزارات مشهورة من جملتهم أبو محمد عبد الله الشعاب [أحد الصلحاء والفضلاء من أهل طرابلس و كان نجارا فحضرت له نية في إتمام هذا المسجد الذي نسب إليه و كان بعض الناس قبله ابتداء ببناءه ثم عجز عنه فرمى الشعاب الآلة من يده] و توجه لإتمامه فأتته و سكن به و يذكر أن الخضر كان يزوره و يحدثه و إنهما رثيا مجتمعين في المسجد المذكور و سمع يوما بكاء امرأة عند باب المسجد فسألها ما السبب فأخبرت أن لها ولدا أسره العدو و سألته الدعاء فدعا لها و أمنت على دعائه ثم انصرفت لبيتها فأصبح ولدها في السكك يسأل عن دار أمه فسئل فأخبر بفراره في البحر و سلامته و وصوله عن عهد قريب فتوجهت أمه إلى الشيخ تشكره و تعرفه بوصول ولدها و ان ذلك إنما كان بدعائه فهنأها بسلامته و قال لها إنما نجاه الله بدعائك لما علم اضطراك و كانت وفاته و رحمه الله سنة ثلاث و أربعين و مائتين و منهم الشيخ حطاب البرقي الرجل الصالح يكنى أبا نزار و كان ذا كرامات و خصوصا في باب المرائي ظهرت له في ذلك عجائب و كان يخاطب في النوم بجميع ما يكون في اليقظة قبل وجوده و التقى بالخضر عليه السلام و ذكر أنه عارضه سبع فقال له أبا الحارث إن كنت قد أمرت فينا بشيء فدونك و إلا فالطريق قال فقرب مني و وقف هنيئة ثم انصرف و حكى أنه قال بينما أنا في البرية إذ رأيت شخصا فاستغربت وجوده هناك و قصدته فوجدته مفرج بن بياضة فقلت له أبا عبد السلام هاهنا فقال نعم يا أبا نزار فاستغربت معرفته بي مع انه مكفوف البصر و كان مفرج هذا رجلا صالحا من أهل جزيرة تونس المعروفة بجزيرة باش و كان يخرج وحده من بلده إلى مكة فيحج ثم يعود قال فبتنا جميعا و تأنست به و سألته كيف يتها إلى الحج مفردا فقال يا أبا نزار أني إذا خرجت من موضعي أسمع قائلا يقول لي يمينك

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٠٢

شمالك أمامك خلفك حتى أصل إلى مكة أو كما قال و منه أبو عثمان سعيد بن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب و أصله من قرية حسان من قرى طرابلس كان زاهدا فاضلا منقطعا إلى الله سبحانه و ظهرت برسته غاية فعرف بالمستجاب و قد قال الشيخ أبو عبد الله الخشاب القاضي رحمه الله خرجت مع أبي الحسن ابن النمر من طرابلس لزيارة الفقيه ابن أبي زيد رحمه الله تعالى و سماع العلم عليه فبينما نحن عنده يوما إذ تحدث أبو الحسن فقال أراد الشيخ أبو عثمان الحساني الحج مرة فاتفق مع جماعة من إخوانه أهل الدين و الفضل و كنت معهم فخرجنا على الوحدة فقطعنا صدرا من الطريق و أقمنا ثلاثة لم نطعم فأنى الشيخ أبو عثمان إلى ربوة فمسح بوجهها بيده و جعل يأخذ من ترابها و يجعل في إناء كان معه ثم تراه بشيء من ماء فقرا عليه أو سمى و قال لنا سموا و كلوا قال فجعنا نأكل و نتطمع منه طعم السويق قال فطرق الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ساعه ثم رفع رأسه و قال هذا داخل في الإمكان لا سيما و قد ذكرتم أنكم أقمتم ثلاثا لم تطعموا و قرأ قوله تعالى: (أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا).

و لما رجع المؤدب محرز بن خلف من الحج قيل له من رأيت في طريقك من الصالحين قال رأيت بطرابلس رجلا و امرأة فأما الرجل فأبو عثمان الحساني و أما المرأة فسمدونه و كانت عجوزا صالحة تسكن مسجد الشعاب المذكور و كان أبو نزار حطاب الرجل الصالح المذكور يزورها و يعتقد بركتها و هذا كما يحكى أن سحنون بن سعيد لما رجع من الحج قيل له من رأيت من الصالحين فقال لقد رأيت بطرابلس رجلا ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم.

و منهم أبو الحسن علي بن أحمد الخطيب الطرابلسي أقام ساكنا بمسجد المجاز بها فيما يقال أربعين سنة و كان فقيها صالحا عالما زاهدا و له في الفقه و الفرائض و الشروط

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٠٣

تأليف مفيدة و أقام أربعين سنة لم يضحك و نحو خمسين سنة لم يحلف بالله يمينا و قال له ابن أخيه عند ما أملى وصيته أنسيت

الكفارة فقال لو لا أنى فى الموت ما أخبرتك ما حلفت بالله منذ كذا وكذا محقا ولا مبطلا وما علمت أن على يميننا أكفرها. ومنهم الشيخ الصالح أبو محمد عبد الوهاب القيسى رحمه الله وقبره خارج المدينة بين شرق وشمال يزار وأهل البلد يعظمونه كثيرا وحكى لى جماعة منهم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام نحو من أربعمائه مرة وأنه كان يشاور النبى صلى الله عليه وسلم فى أكثر أموره فلا يفعل ما يفعل إلا بإشارته قالوا ولم يسمع منه هذا فى حياته ولكنه وجد بعد موته مكتوبا عنده بتواريخه يذكر كل ليلة وما رأى فيها ثم أوقفنى بعد ذلك بعض أهل البلد على جزء من هذه المرائى وذكر أنه نقلها من خطه فرأيت فيها غرائب من سؤاله النبى صلى الله عليه وسلم عما يفعله فى جميع ما يعرض له من أموره وإشارة النبى صلى الله عليه وسلم بذلك بما يراه ودوام ذلك واستمراره فى كل جزئية من جزئياته.

ومنهم الفقيه الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأجدابى اللواتى الطرابلسى وقبره معظم يكثر الناس من زيارته والدعاء عنده وكان من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوا ولغة وعروضا ونظما ونثرا وله تأليف جليله وأسئلة مفيدة فى الفقه وغيره من جملة تأليفه كتابه المتداول المسمى بكفاية المتحفظ و كتابه فى العروض و ناهيك به حسنا وتهذيبا وهو نسختان كبرى وصغرى و كتابه فى الرد على أبى حفص بن مكى فى تثقيف اللسان و كتابه فى شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء و بيان اعتلال هذه الياء استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها من تصغير و تكسير و غير ذلك و لما استوفى فيه ذلك استيفاء جمليا تعرض لشرح مقاطع الآى الواقعة فى سورة مريم لاشتمالها على كثير

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٠٤

من تلك الأحكام فجاء هذا التأليف فى غاية الإفادة والتحقيق و كتابه المختصر فى علم الأنساب و له تأليف مختصر فى الأنواء على مذهب العرب و رسالته المعروفة برسالة الحول تعرب عن أدب كثير و حفظ غزير و كان الفقيه أبو إسحاق هذا أحول و سبب تأليفه لها أنه حضر يوما طرابلس عند القاضى بها أبى عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن هانث الطرابلسى فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه فرد عليه أبو إسحاق فقال له أسكت يا أحول فما استدعيت ولا استفتيت فألف تلك الرسالة و أكثر هذه التأليف ملكتها بخطه و كان رحمه الله من أحسن الناس خطا و أخبرت أن الأمير أبا زكرياء رحمه الله كان شديد البحث على خطه و سمع أن كتاب الفصيح بيع بخطه بطرابلس [فأبرد بريدا إليه فى البحث عليه و وجه به إليه] و أنه سمع أن بها من كتاب أمثلة الغريب لأبى الحسن على بن الحسين الهنائى المعروف بالكرع بخط الفقيه أبى إسحاق فى ملكك بعض بنى النقاد من أعيان طرابلس فوجه إليه فيها فوجه النقادى بها إليه و ملكت بخطه أيضا تأليفه الذى اختصر فى كتاب أنساب قریش تأليف أبى عبد الله الزبير بن أبى بكر بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام رحمه الله تعالى و حسبك بهذا التأليف الجليل علما و فائدة و هو كما كان الشيخ أبو الحسن بن مغيث رحمه الله يقول هذا كتاب العجب لا- كتاب النسب و رأيت الفقيه أبا الحسن قد أدخل من حفظه فى نفس هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد تبه عليها و كفى بهذا الرجل المعظم الغرد لهذا القطر و لم تكن له رحلة عن بلد طرابلس إلى غيرها و قد سئل أنى لك هذا العلم و لم ترتحل فقال اكتسبته من بابى هواره و زناته و هما بابان من أبواب البلد نسبا إلى من نزل بهما أول الزمان يشير إلى أنه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٠٥

إنما استفاد من العلم بقاء من يفد على طرابلس و يدخل من هذين البابين من المشرقين و المغربيين و كان له اعتناء بقاء الوفود و قيام بضياقتهم و أخبرنى بعض الطلبة أن خط أبى إسحاق باق إلى الآن فى بعض جدر داره من طرابلس و هى فى وسط البلد بمقربه من الجامع الأعظم و على مسافة يسيرة منها من جهة غريبها دار الفقيه أبى الحسن على بن محمد بن النمر الطرابلسى [الفرضى المشهور بفضلته و علمه و رئاسته و هى مواجهة لمسجد يعرف بمسجد ابن فرج أضيف إلى الفقيه أبى مسلم موسى بن فرج الهوارى الطرابلسى لا قرائته به و توفى أبو مسلم هذا سنة اثنتين و أربعين و أربعمائه] و كان مولد أبى الحسن بطرابلس قديما سنة ثمان و أربعين و ثلاثمائه

وله تأليف في الحساب والأزمنة وغير ذلك سوى كتابه المشهور المسمى بالكافي في الفرائض وقد لقي الشيخ أبا محمد بن أبي زيد وقرأ عليه وارتحل إلى مكة سنة تسع وثمانين فلقى بها أحمد بن زريق البغدادي وروى عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الجوهرى ثم عاد لطرابلس فلم يزل بها إلى سنة ثلاثين وأربعمائة فخرج منها لمحنة جرت عليه فتوجه إلى موضع يعرف بغنيمه بالغين المعجمة والنون قرية من قرى مسلانة فسكن بها إلى أن توفي هنالك سنة اثنتين وثلاثين وقبره الآن على الطريق بها والناس إلى الآن يزورون قبره ويتوسلون إلى الله عنده ويذكر

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٠٦

أهل تلك الجهة إن كل رفقة استصحت شيئاً من تراب ذلك القبر فإنها لا يتعدى عليها أحد فيهم لا يزالون ينقلون ترابه فيجدده من يقصد الأجر من أهل تلك الجهة أو من المجتازين عليه وهو أول من أظهر السنة بطرابلس لما كانت في أفريقية الواقعة المعروفة بوقعة الشارقة سنة سبع وأربعمائة قتل فيها الشيعة واتباعهم وعلى يد الفقيه أبي الحسن قتل بطرابلس من قتل منهم وأول من قطع من الأذان حتى على خير العمل وأذن في ذلك اليوم أذان أهل السنة بنفسه وقد قتل بنو عبيد بشراً كثيراً أسقطوا هذه اللفظة من آذانهم تعمدوا أو نسياناً وأول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام وقد كان رسم هذه الصلاة انمحي من أفريقية قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله تعالى لما دخل بنو عبيد القيروان أرادوا أن يمنعوا الناس من هذه الصلاة قال وليس شيء أشد على بنى عبيد من هذه الصلاة فليل لهم أنكم توغرون بهذا الفعل قلوب العامة فإنهم يقولون منعونا من الصلاة فأمرنا الأئمة أن يختموا كل ليلة ختمه كاملة وإن لا ينقصون شيئاً منها فصلى الناس من أول ليلة بوفره فلما كانت الليلة الثانية نقصوا ولم يزالوا ينقصون لثقل ما كلفوا به حتى خلت المساجد منهم كما أرادوا وأسقط الناس القيام بهذه الصلاة فكان الشيخ أبو الحسن ابن النمر أول من أحيا رسمها بطرابلس وقدم أبا مسلم موسى بن فرج فصلاها بالجامع الأعظم ولم تكن قبل ذلك صليت به لأنه من بناء بنى عبيد وأول من أطلق للناس صلاة الضحى جهارا ولم يكن أحد في مدة بنى عبيد يصلها إلا مستخفياً بها فإن ظهرها عليه قتلوه ومرض عمالهم برجل على شاطئ البحر يصلى وقت الضحى فسأله عن صلاته فذكر أنه كان جنباً فلما مر بالبحر نزل واغتسل وقضى صلاة الصبح فلم يقبل ذلك منه وأمر به فألقى في البحر إلى أن مات انتهى كلامه .

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٠٧

نكتة وهذه المزارات كلها خفية مندرسة غير جلية وكذلك غيرها مع ما احتوت عليه المدينة من المزارات الكثيرة وذوى المكانة المشهورة تأوى إليه الجهابذة من الزهاد [و الأئمة الأفراد] لقصد الرباط وحراسة الإسلام لكونها ثغراً من الثغور العظام ولما تداولتها أيدي الكفرة خفيت مراسمها واندثرت معالمها وذكروا أن الاستيلاء الأخير [الذى استولى الكفرة دمرهم الله] عليها كان سنة ست عشرة وتسعمائة يوم ستة عشر من المحرم وافتكت منهم عام ثمانية وخمسين وتسعمائة (٩٥٨) قال أبو سالم العياشى فى رحلته و تاريخه فقط قولك جاء الترك بسن وافتكها منهم درغوت باشا وكان بجربة ومراد باشا فى مسلانة وبقي بها درغوت إلى أن توفى بها وقبره الآن بها يزار وعليه بناء عظيم وسبب أخذها من العدو أن مراكب المسلمين جاءت من أصطنبول مددا للعمارة المحاصرة لحلق الوادى بتونس فمرت بساحل طرابلس فكلمهم أهل السواحل فى أعانتهم على النصارى فقالوا أنا لم نؤمر بذلك من السلطان فقال لهم الباشا مراد أعينونى فى هذا الأمر فإن كانت عقوبته من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم فحاصروها برا وبحرا إلى أن أخذوها فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان فقال له إن كانت عقوبته فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء فرضى عنه وعنهم وأكرمهم .

وأما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قضية غريبة وهى أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فينما يقال وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة فينما هم كذلك إذ قدمت عليهم سفن النصارى تجارا بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى فخرج

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٠٨

إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاما فاخرا فلما

أخرج لهم الطعام أخذوا ياقوته ثمينة فدقها دقا ناعما و ذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك فلما فرغوا قدم لهم دلاعا فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد في داره سكين و لا عند جاره إلى أن خرجوا إلى السوق فأتوا بسكين فلما رجعوا إلى بلدهم سأله ملكهم عن حال البلد الذي قدموا منه فقولوا ما رأينا بلادا أكثر منها مالا و أقل سلاحا و أعجز أهلها عن مدافعة عدو فحكوا له الحكايتين فتأهب ملكهم لدخولها في مراكب في البحر فدخلا في ليلة واحدة بلا- كثير مشقة و استولى عليها و لم ينج من أهلها إلا من تسور ليلا و انحاز المسلمون إلى تاجوراء و جبال غريان و مسلاتة فصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور انتهى أدامها الله للإسلام و حاطها بالنبى عليه السلام.

و من جملة أصحاب سيدى أحمد بن ناصر سيدى محمد المكنى كان من أعلم أهل هذا الساحل فقيها لودعيا خير خلف عن خير سلف تولى الفتوى ببلده مرارا و اشتغل بالتدريس و له مشاركة حسنة في فنون العلم مات قريبا من عام ستة و خمسين و ألف و له ولد اسمه محمد اشتغل بالقراءة على سيدى محمد بن مساهل و على غيره و كان له ذكاء عقل و زيارة نبل فتمهر فى كل فن و تولى القضاء بعد عزل شيخه فحمدت سيرته و ظهرت نجابته و سدده فى فتواه.

و من أحبابه أيضا سيدى محمد بن مقيل جد أختنا فى الله و أصدق الإخلاء سيدى محمد المفتى الآن و السيد عبد السلام بن عثمان و ممن أكرمه فى رحلته هذه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٠٩

سيدى محمد المكنى و سيدى محمد بن مقيل و أولاد ابن غلبون و أهل سيدى على النجار و سيدى أحمد بن جابر و صهره سيدى عبد الظاهر و سيدى محمد بن عبد الله بن فرج الله و غيرهم و سيدى عبد الله بن يحيى و سيدى حامد بن محمد التواتى و ابن عمه سيدى عبد اللطيف بن عبد القادر و كثير من الفضلاء ممن لقيه فالله ينظمننا و إياهم جميعا فى سلك أهل ولايته المحفوظين بعنايته المحفوظين منه برعايته آمين انتهى كلامه باختصار بعضه باللفظ و بعضه بالمعنى.

انعطاف إلى ما نحن بصده فأننا أقمنا بها ثمانية أيام أولها يوم جمعة و آخرها مثله غير أن بعض الركب خرج يوم الخميس إلى تاجوراء و نحن قد تخلفنا مع بعض أفاضل أصحابنا إلى صبيحة يوم السبت مشتغلين بأمر الزاد المبعوث فى السفينة و من يركب فيها من أصحابنا فل نفصل عنهم حتى خفف الركب أثقالهم بوضعه فى السفينة معتمدين علينا إذ عادة السفن فى تلك المدينة تتأخر إلى آخر رمضان فربما عاقهم ذلك عن الحج فلما علمنا ذلك حضضا الأمر من صاحب الولاية محبنا فى الله و معتقدنا الأجل محب الصالحين سيدى على باشا [بانفصالها] من غير تراخ بعد ذهابنا و أخذنا العهد منه على ذلك و قد أحسن إلينا هو و أصحابه بأن ركبوا فيها الفقراء و الصعاليك بغير عوض و إنما ذلك لوجه الله ثم لوجهنا نحو الخمسين رجلا أو ما يقرب منها و قد ركب فيها من إخواننا الفضلاء ولد الأخ سيدى أحمد الطيب سيدى محمد و الفقيه الفاضل سيدى أحمد بن أبى القاسم و مثله فى الفضل سيدى عبد الكريم و نظير الجميع سيدى محمد اليعلاوى و الشريف الفاضل الأجل محب الخير و أهله أمير زواوة سيدى محمد بن بوختوش رحمه الله إذ مات بعد رجوعنا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢١٠

من المدينة و سيدى محمد المحفوظ و غيرهم و أما العامة فنحو الثلاثمائة و الحمد لله لم يمكثوا فى البحر إلا اثنى عشر يوما و نزلوا الإسكندرية عند الحاج أبى القاسم القراوى صاحب ولاية طرابلس إذ زبر له الأمير كتاب على ذلك فأكرمهم و أحسن إليهم جازاه الله أحسن الجزاء آمين و بالجملة فكان الإحسان من الأمير و عماله لنا و لأخواننا فى الركب و للفقراء فكل ما سألناه و طلبناه لهم منهم إلا وجد بحب و كرامة رغبة فى صالح الدعاء له و لذريته حتى انفصلنا عنها على أحسن حال و أكثر فرحى بهذا الأمير لما قام بحق الفقراء نعم أقام جماعة من بلد المنشية مع عامله القائد يحرسون الركب ليلا من السراق إلى أن ظعنا من عندهم و ما فعله قط بركب من الأركاب إلا لنا حبا فينا و رغبة فيما لدينا شكر الله سعيه و لا خيب قصده و أدام الستر عليه و على أولاده إلى قيام الساعة مع عدم

الضد و وجود الهداية و الشفقة و العدل و الرحمة لأنفسهم و للمؤمنين كان الله لنا و لهم وليا و نصير و قد أحسن إلينا جميع المحبين كل الإحسان بحيث أن من لم يصدر منه ضيافة تمنى أن يضيفنا أحسن الله إليهم لا سيما سيدى محمد بن مقييل و أصحابه و أما العارف بالله الذى علمه الله العلم اللدنى فانه يفهم الدقائق من الحقائق و المعاريف إذا لهم لطلب كل داء فى الدين فلا يغفل طرفه عين عما يصلح به و بأجائه حتى يكونوا على المحجة البيضاء يعلم ذلك من ثافنه و خالطه و أنى صاحبت كثيرا من الناس غربا و شرقا و جوفاً و قبله ما رأيت من يفهم عن الله مثله فانه له ملكة عظيمة يفهم بها المعاريف الإلهية حاصله قد فتح الله له فى التعرف ما لم يكن لغيره و مع ذلك ليس قاصرا فى العلم الظاهر فترى معاملته و مخالطته ليس إلا على الشريعة المحمدية و مع هذا لا يغفل عن المواساة لمن يعرفه و من لا يعرفه خصوصا المحتاج فإنه أزيد رحمة و أقوى شفقة و أحسن رفقاً و ما

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢١١

أشده صبيرا و تحملا- لإذابة الإخوان و الأحباب خصوصا فى السفر و هو الذى يؤدى حقوق الأخوة فيشاطر بالمال غير ما مرة إخوانه أولى من نفسه و هو معى بأزيد من هذا بحيث لا يملك لجانباً شيئاً و من كان معنا فى الرفقة كان فى داره ذهاباً و إياباً و كذا ما معنا من العيال و الدواب كل ذلك فى عياله و أوصافه تقصر العبارة عنها لكن التلويح يغنى عن التصريح نعم الكل شمل واحد و أمر الجميع متحد و مهما عزمت على شىء و وصلت إليه ذهب من غير موادة و لا كلام منه إلى و لا منى إليه فى جميع ما محتجت إليه فحزمت و جزمت و جزم أن قرابتي و قرابته أيد الله الجميع بالتمكين و حلى جميعنا بحلية المتقين و ودعنا من فى المدينة من العلماء و الصلحاء لا أحصيهم عدداً إذ كثير من يحبنا لا أعرف أسماءهم و أما فى المنشية فأكثر من أن يحصى هذا و إن أهل الصلاح بالمنشية و الساحل و الهنشير و أفرون بحيث من فيه قوة الشم يعلمهم بنفس رؤيتهم إلا من أصابه زكام المعاصى و تراكت عليه الحجب فلا يظهر له أحد و قد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه المرء مخبوء تحت لسانه إن تكلم فممن حينه و إن سكت فممن يومه اه- أى إذا تكلم عرف حاله من كلامه إذ ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح إن عسلا فعسل و إن خمرا فخمرو و إن سكت فممن يومه أعرفه من أفعاله كحركاته و سكناته إذ كل ذلك لا بد و أن يكون موافقا للسنه المحمدية إذ لا يجوز للإنسان أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه و لا شك أن كل حركة و سكون يصدر منك إلا و أنت مسئول عنه لم تحركت و لم سكنت و بالجملة فأهل هذا الوطن خيرهم ظاهر و حملهم بين و حبهم لأهل الله قوى.

و لما خرجنا من دار أحنينا فى الله و الود من أجله سيدى محمد الشريف اجتمعت الشرفاء صغيرا و كبيرا و كذا جيرانهم و غيرهم من أهل الخير كالسوق و أعظم محبة فى الله و رغبة فيما عنده [فكنا فى التوديع من صبيحة ذلك اليوم حتى ارتفعت الشمس

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢١٢

ارتفاعا ظاهرا جليا ثم كذلك] فى التوديع إلى أن وصلنا إلى قرب الهنشير خرج لتوديعنا أولاد الشيخ سيدى الصيد كأولاد سيدى أبى بكر نجل الشيخ سيدى عبد الحفيظ و أولاد سيدى عبد اللطيف فودعونا أيضا مع أصحابهم و هم من المحسنين إلينا ثم ذهبنا بعد ذلك مع التوديع إلى أن وصلنا أطراف تاجوراء فدخلنا لزيارة الفاضل الكامل الصالح الكبير السن عظيم الشأن واضح النجاح ظاهر الصلاح سيدى عبد اللطيف أنا و جماعة من طرابلس سيدى الشيخ المفتى سيدى محمد بن مقييل و عوض ولدنا سيدى محمد نجل الفاضل العالم محبنا سيدى محمد بن محمد العربى و جماعتهما فدعا لنا بالخير و قد رغب فينا رغبة عظيمة إذ كان محبا لنا فيما مضى و محسنا إلينا غاية الإحسان فقد كان أصدق الناس لدينا غير أنه كان قبل ذلك يسمع و يبصر فالآن ثقل سمعه و ضعف بصره فلا بد من مسمع و المسمع له ولد بنته إذ هو الذى يخبره أن هذا فلان و فلان و لما علم بنا شد يدي شدا وثيقا رغبة و حبا و شوقا و عشقا فينا و قد سر بنا سرورا عظيما أظنه و الله أعلم انه من قوم لا يشقى بهم جليسهم حقق الله له ذلك بمنه و كرمه آمين فلما خرجنا من عنده لقينا جماعة من فضلاء تاجوراء كطلبة الشيخ سيدى محمد بن النعاس و بعض أولاده و أولاد أخيه و كذا أهل الفضل من تلك القرية من الفقراء و المرابطين و العلماء و الصلحاء و من فيه نسبة من النسب المعظمة شرعا إلا أتى إلينا رغبة فى الدعاء من جانبنا و نحن

كذلك بل أشد رغبةً و الفقير المضطر الخائف من ذنبه الوجل من عذاب ربه زاير هذا الكتاب فانه متعلق بهم و مريض بحبهم فليس مقصدي و منيتي إلا السكنى فى أرضهم لكثرة خصب أهل المحبة بحيث لا يصيبك ضيق و وحشة فإن حى ليلى عندهم عامر بما فى القلب مشغوف إلا أن الموانع الشرعية منعتنى من الإقامة هناك و قد كثر عيالى أعنى بناتى و أولادى و محاجرى الذين قدّمت عليهم و ثبت عنهم و لم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢١٣

تكن لى رغبة بعد المجاورة عنده صلى الله عليه و سلم إلا فى هذا المحل و إن كان وطننا كذلك فى الحب و أهله غير انه كثرت فيه العوائق و العلائق حاصله كلت العبارة عن النزر القليل من أوصافهم الحسنه غير أن ما ذكرناه فيه الكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد.

[و تاجوراء هذه قرية طيبة فيها أشجار و فيها فاكهة و نخل و رمان نعم] رمانها لا نظير له فيما رأيت إلا فى مواضع قليلة و قد وجد فى قرية عندنا تسمى بقرية أمالو فإن رمانها أولى من هذا و أحلى منه و فيها مدرسه كان يقرأ فيها الشيخ النعاس و بعد ذلك قرابته و قد علمت أن محل العلم محل عظيم عند الله يجب علينا تعظيمه شرعا فإنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم نعم صليت الظهر فيها و ذهبنا منها. تتمه أقول قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ف رحلته ما نصه أقول تاجورة بوزن باكورة قال التجانى و هى قرية عامرة و بها قصر متسع يجتمع على دور كثيرة و فى وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناء يقال أن حميد بن جازية ابتناه و شارك فيه فى العمل بنفسه ليحصن أهل الموضع على إتمامه و هو الذى عمر هذه القرية و نقل إليها أهلها من أرض هنالك تعرف بأرض عبد ربه و كان ابتداء عمارتها عام خمسين و خمسمائة (٥٥٠) و هم يدعون أنهم من العرب و يتنسبون إلى تميم و يذكرون أنهم سكنوا الأرض المعروفة بأرض عبد ربه من حين الفتح الإسلامى ثم نقله منها حميد إلى هذه القرية قال و بتاجورة السفرجل الذى لا يوجد فى بقاع الأرض مثله قال و ليس يقرب منه إلا السفرجل الموجود فى نفاوة انتهى.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢١٤

قلت و الذى نعرفه فى ضبط هذه البلدة تاجوراء كعاشوراء انتهى.

تتمه أننا نزلنا فى وادى المسيد فوق المسجد و هو واد متسع و الركب سبقنا و نزل فى وادى الرمل و هو واد متسع ماؤه لا ينقطع فى جميع الأزمنة الأربعة و ذلك بأواخر شعبان و معنا جماعة من المحبين ذهبوا معنا لتوديعنا كالود الصدوق الشيخ المفتى سيدى محمد و خواص أصحابه و صاحب معه طعاما و لحما وليما و غير ذلك من أنواع الأطعمة و معنا أصحاب سيدى محمد الشريف سيدى محمد بن عبد الخالق محب الجميع و بعض الأشراف و ولد المحب فى الله و هو أخ لنا و عوض ولدنا سيدى محمد نجل الشيخ الولي الصالح سيدى محمد ابن سيدى محمد المعزى ثم رجع الجميع عنا و ودعنا فى يد الله تعالى أقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه و نزلنا غافقا بعد العصر قال التجانى و هو قصر خرب خال من العمارة انتهى و به الآن بئر غزيرة الماء ينزل إليها بادر و ماؤها لا بأس به. ثم ارتحلنا منه و مررنا بواد يقال له وادى الرمل و هو واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه كما ذكرنا و مبدؤه من الجبل قاطعا إلى البحر لا-بد لكل مشرق يجعل الجبل يمينه و مغرب يسرته و هو واد مخصب من أعلاه فيه مزارع تخرج إليه ماشية أهل طرابلس و سواحلها أيام الربيع و ربما أخرج الحجاج إليه إبلهم مع رعاتها أيام أقامتهم بطرابلس واصل مائه من عيون تنبع فى أثنائه تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل إلخ ثم قال و قال التجانى و فى عالية عند سفح الجبل قصر يعرف بصبيان بكسر الصاد المهملة تليها ياء معتلة ثم باء مفردة و هو معمور قال و يقرب البحر فى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢١٥

أسفل هذا الوادى بئر تعرف ببئر طشاته بضم الطاء المهملة و تشديد الشين المعجمة بإزاء قبر يعرف هذا الموضع به فصار القبر علما له و هو لرجل من العرب ثم من ذباب ثم من بنى عيسى منهم و اسمه شهران بن عيسى بن عامر بن جابر بن فائد ابن رافع بن ذباب و

كان هذا الرجل ذا رئاسة في قومه وصيت بعيد و اشتهر بالكرم فلم يذكر منه في وقته غيره و فيه يقول شاعر العرب:

حمى الأرض شهران بن عيسى بن عامرو عرض الفتى أن ضيع المجد تالف

و الأعراب الآن نزلوا هناك و لم يكن لهم زاد أقاموا على قبره فنادوه يا شهران بن عيسى أقر ضيافك فيذكرون أنهم لم يبيتوا قط دون عشاء أما بصيد يباح لهم أو فضالة يلقونها أو بغير ذلك قال و هذا الأمر حدثنا به جماعة منهم و هو مشابه لما يذكره المؤرخون على حاتم الطائي أنهم كانا ينزلون بقبره فيقريهم و في ذلك يقول الشاعر يمدح عدى ابن حاتم:

أبوك أبو سبابة الخير لم يزل لدن شب حتى شاب في الخير راغبا

قري قبره الأضياف إذ نزلوا به و لم يقر قبر قبله الدهر راكبا

و حكى أبو عبيدة قال نزل أبو الخبير في نفر من قومه بقبر حاتم فجعل يناديه يا أبا عدى أقر ضيافك و قال له أصحابه كيف تنادى رمة بالية فقال أن طيئا تزعم انه لم ينزل به أحد قط إلا قرأه فناموا فانتبه أبو الخبيرى مدعورا ينادى و اراحلتاه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢١٦

فاستفهمه أصحابه على أمره فقال خرج حاتم بالسيف و أنا أنظر إليه حتى نحر راحلتى فنظروا إلى راحلته تتشطح في دمها فقالوا له قد و الله قراك و أخذوا يأكلون من لحمها ما شاءوا ثم ارتحلوا صباحا فنظروا إلى الركب يقود بعيرا و هو يسأل عن أبى الخبيرى فقالوا له من أنت فقال أنا عدى بن حاتم و إن حاتما أتانى الليلة فذكر ما تقدم من ذبح بعيره و أتى له حينئذ بعوضه و لذا قال الشاعر:

أبا الخبيرى و أنت امرؤ لوم العشيبة شتامها

أتيت بصحبك تبغى القرى لدى حفرة صرمت هامها

أتبغى لى الذم عند المبيت و حولى طى و انعامها

و أنا نشيع أضيافنا و نأتى المطى و نعامها

و قد أمرنى أن أحملك على بعير مكان راحلتك فدونكه اه-.

و مررنا بعد بوادى المسيد و هو كالذى قبله أو أخصب منه و ماؤه غزير لا ينقطع على الدوام أيضا و يكثر فى أوقات السيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها إلى أن قال و بهذه المراحل شجر العشر كصرد القاموس فيه حرّاق كسرد و لم يقتدح الناس فى أجود منه و يحشى فى المخاد و يخرج من زهره و عشبه سكر معروف و فيه مرارة قال التجانى و هو شجر ناعم النبات شديد الخضرة إلى السواد مائل هو ينبت صعدا و له أوراق عظيمة و نور مشرق حسن المنظر كنورة الدفلى و تمر أخضر تملأ الواحدة يد حاملها و هى مملوءة بشىء يشبه القطن تسميه العرب الخريع بضم الخاء المعجمة و سكون الراء و ضم الباء و ربما حشيت منه المرافق و الوسائد.

قال و أخبرنى من يوثق به أنه رأى ثيابا صنعت منه و لا يأكله حيوان و هو شجر

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢١٧

كثير اللبن و ليس شىء من اللبن على اختلاف أنواعه أكثر لبنا منه و يجنى منه مغاير واحدها مغفور بضم الميم و هو صمغ حلو كرية الرائحة يقال له سكر العشر و فى الحديث أكلت مغاير و هو من هذا و لا تكون المغاير إلا فيه و فى العرفط و الرمث و الثمام أكثرها مغاير و ليس فى كلام العرب مفعول بضم الميم إلا مغفور هذا و مغرود بالغين المعجمة لضرب من الكمأة و منخور لغة فى المنخر و منابت الشعر القيعان و بطون الأودية و قد ينبت بالرمل.

قال ابن البيطار فى أدويته و لم أر منه شيئا بالأندلس و أول ما وفقت عليه بظاهر طرابلس الغرب بالجهة الشرقية منها يشير إلى هذا الموضوع ثم قال بعد ذلك بديار مصر بظاهر القاهرة إلى أن قال ثم قال التجانى و كانت العرب تستجلب المطر إذا احتبس عنهم بشجر العشر و شجر السلع بفتح اللام و السين قلت و فى القاموس السلع محرّكة شجر مر أو سم أو ضرب من الصبر بفتح الصاد و كسر الباء و بقله خبيثة الطعم قال يعمدون إليها فيأخذون منها أغصانا فيجعلونها فى أذنان البقر و يشعلون النار فيها ثم يصعدونها إلى الجبل

فيؤمنون أنهم يمطرون في وقتهم و هو قول أمية ابن أبي الصلت:

سنة أزمة تخيل بالناس م ترى للعضاه منها صريرا
لا على كوكب يلوح و لا ربح م جنوب و لا ترى طخورا
و يسوقون باقر السهل للطود مهازيل أوشكت أن تبورا
عاقدين النيران في ثكن الأذنان منها لكي تهيج البحورا
سلعا ما و مثله عشا ماعائلا ما و عالت البيقورا

تخيل بالناس أي تطعمهم في المطر و الطخور القطعة من السحاب بالخاء المعجمة و بالخاء المهملة و البيقور جماعة البقر و هو ضرب من السحر و لله در القائل

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢١٨

يعيب عليهم فعلهم هذا:

لا دردر رجال خاب سعيهم مستجلبون نزل الغيث بالعرش
أجاعل أنت بيقورا مسلعة وسيلة لك بين الله و المطر

قلت و هذا من جهل العرب و هو كثيرا إلى أن قال و في تورغت بئر عذب ماؤها حفرها الأخ في الله سيدي عبد السلام بن عثمان و غرس عليها شجرة من شجر التوت لقصده ابن السبيل فيشرب من ماء البئر و يستظل بظل الشجرة تقبل الله منه و شكر سعيه و قد صدق في ذلك لكون المحال معطشة في زمان القيظ.

غريبة و ذكر شيخنا العياشي في رحلته قال أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة المقدس محمد النفاتي التونسي أيام لقائي له بالقدس الشريف أنه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاني أمير الركب فمروا بهذا المكان في زمان القيظ فالجأهم العطش إلى بئر في وادي يتوت إلى أن قال يعني أن الركب اضطرهم العطش إذ قليل ما يسقون منه فنزلوا عليها قائله و وافقتهم هنالك فقول قدمت من فزان حاجتهم مثل حاجتهم فمن قائل يقول نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك و من قائل تؤخر إلى آخر النهار قال لي الشيخ فدخلت على أخي فأخبرته بذلك و قلت له أن الناس قد اشرفوا على الهلاك و اضطرب أمرهم في الرحيل فأمرهم بالرحيل لئلا يهلكوا قال فاغتم لذلك و استند في خبائه كالنائم فلما أفاق قال لي ناد في الناس بالإقامة و قل لهم يذهبوا لسقى الماء فقلت له أبك جنون أنا أخبرك أنه لا-قطرة فيها و الناس قد اشرفوا على الهلاك فقال لي أفعل ما أمرتك به فقلت له لست بأحمق أنادي بالإقامة على غير ماء فلما أبيت نادى خديمه الغلام و قال له ناد في الناس بالإقامة و الذهاب لسقى الماء فلما سمعت ذلك استحييت و تغيت فأقام الناس و ذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد أن يفيض من جوانبها فاستقى الحجاج

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢١٩

و جميع القوافل و الماء كما هو.

و قال لي الشيخ فلما رأيت ذلك ذهبت إليه و قصصت عليه الخبر فقال لي لما أغفيت عند ما أخبرتنى بخبر الناس رأيت النبي صلى الله عليه و سلم في النوم فقال لي مر الناس بالإقامة فعلمت أن الله سيجعل لهم من أمرهم فرجا قلت و لا يستعبد هذا في حق وفد الله وزوار نبيه صلى الله عليه و سلم فإن لله بهم عناية و لهم منه أعظم وقاية.

و لقد أخبرني عن أخيه هذا بأمر من جنس هذا في سفرته تلك و فيها توفي بقرية الينوع التي ينزلها الحاج و قبره إلى الآن ظاهر عليه بناء خفيف على تل مشرف بحرى منزل الركب المغربي و كنا نزور قبل ذلك المحل و لا نعلم من دفن فيه حتى أعلمني القاضي المذكور و الله يغمرنا و إياه رحمته آمين اه-.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو انه لما ودعنا أجاؤنا المذكورون توديع ذي كآبة عند الافتراق مررنا مسرعين لنتحقق الركب إذ سبقنا

بساعات فعند الاصفرار لحقنا به فوجدناه فى سفح الجبل أى قبل ابتداء محل الوعر فنزلنا عليه ففرح الركب بلحوقنا و نزولنا عليهم فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه و مررنا على تلك الأوعار ثم كذلك إلى وقت العصر فنزلنا ساحل حامد و فى تلك الأوعار كان أولاد الشيخ بو عسيده الذين كانت عادتهم يضعون مائدة من العسيده للركب بلحم و فى الحجة الأولى لقيت من أولاده الفاضلين الأخوين الشيخين ضل عنى أسماؤهما لطول العهد فقال لى أحدهما عند الافتراق أنت تجاوز مصر فى شأن العلم و كنت قد عزمت على ذلك فأخبرنى بما فى قلبى و قال له الآخر فإنك لم تر شيئا و إنما هو إذا حج فيرجع فان فلانا قد مات أعنى صاحب الوهب الربانى و الجذب الصمدانى و هو أمى لا يقرأ سيدى عبد الرحمان المجذوب الخلادى الملقب أقطال من جبال بجاية من

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٢٠

عمالة الجزائر نفعنا الله به أمين و قد مات ذلك العام قبل وصولنا مصر و قبره هناك بقرب من قبرى الشيخ الخرشى و الشيخ عبد الباقي و الشيخ خليل المالكى فى القرافة الصغرى فيتولى هذا أمره و ينتفع به أهل بلده فسكت الآخر و سلم له نفعنا الله بهما و بأسلافهما.

ثم إن ساحل حامد بلدة طيبة ذات زيتون و نخل و عماره يبدو حسنهما للرائى و هى فى رأى العين لا نظير لها لكثرة مائها و اتساع أرضها مع استوائها و جودة ترابها فساتينها روضة من الرياض مجدولة جداويل مع استواء بيوتها و تحسين أضلاعها فإن المرء إذا وصلها زال عليهم الهم و النكد لأن رؤية الخضرة و البحر و الوجه الحسن تزيل الهم عن القلب و تفرج الغم عن الصدر و فى هذا الساحل أفاضل أحياء و أموات.

منهم أولاد الشيخ الفاضل ذى الفضائل و الفواضل العلامة الكامل و الفهامة الناقل ذى التأليف الحسنه و التصانيف المتقنه و قد رأيت بعضا منها كشرحه لابن عاشر فانه قد أجاد فيه و كذا كتابا فى التنبيه على المحدثات فى هذا الزمان من رقص الفقراء و تواجدهم و معاملتهم فيما بينهم و ادعائهم ما لم يصلوا إليه و عصيانهم و عدم امتثالهم ما يقتضيه الشرع و عدم اتعاظهم و سماعهم لذلك و بعدهم عن العلم و أهله و أنهم ظنوا أن الفتح على أيديهم و ليس لغيرهم فيه نصيب غاية ما وصل إليه علماء زمانهم العلم الظاهر و السكون تحت النقول و ذلك طريق العامة و المعتبر فى زعمهم طريقهم إذ يعتقدون التنافى بين الشريعة و الحقيقة و الحق خلافه فإن الحقيقة لب الشريعة و غير ذلك من البدع.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٢١

و قد سلك فى هذا التأليف مسلك أبى عبد الله ابن الحاج صاحب المدخل و ابن أبى جمره فى شرحه لمختصر البخارى و الشيخ عبد الكريم الزواوى فى شرحه للوغيلسيه و الشيخ الأخرى فى قصيدته القدسيه و الشيخ زروق فى عمده المريد و كتاب البدع و غيرهم ممن بين أصل البدع و حوادث الأوقات و له أيضا كتاب فى الطب و سمعت أيضا أن له شرحا على قصيده البهلولى فى أحكام العزیه و قد استعزناه من ولده العلامة الفاضل و الفهامة الكامل المحب الود فى الله و من أجله سيدى أحمد بن عبد الصادق من تونس لأنه قد سكن فيها و هو مدرس فى المدرسة الباشيه و غير ذلك من تأليفه رضى الله عنه و ذلك السيد على بن الصادق و قد زرنا قبره و أولاد و أصحابه و جيرانه و كل على خير و فضل و كرم و وجود و حلم و علم و مهما زرنا الشيخ إلا- أحسن إلينا غاية الإحسان فى الضيافة أغناهم الله غناء لا يتبعه فقر أمين بل ربما زادوا علف الدواب زادهم الله شرفا نعم بركة الشيخ ظاهرة عليهم و لا شك أن الشيخ قد أصابه وابل من أشياخه نسال الله تعالى أن يمن عليهم بالوسع و التوفيق إذ فيهم غاية السخاء و التكلف بما لا يستطيعونه و لذا كان أخونا فى الله طيب الدين سيدى محمد الشريف البلغى ثم النوفلى يستثقل زيارة الشيخ لما يعلم من وقوع أولاده فى كلفه عظيمة فترك الزيارة حينئذ بهذه النية الحسنه زيارة و نحو اعتبرنا الظاهر فكان الحق معه علما منا بضعفهم و قلته ذات يدهم غير أن المعطى حى غنى.

و قد ورد فى الشرع المنع من أمور مطلوب فعلها لمشاهدة المحظورات كحضور الولائم فإن النبى صلى الله عليه و سلم قال من دعى

إلى وليمة و لم يجب فقد عصى أبا القاسم غير أنها إذا كان فيها محرمات كاختلاط النساء و الرجال أو آلة محرمة يحرم الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٢٢

اتفاقا كالتماثيل و صور لا يجوز مشاهدتها إن كانت مستقلة و لها ظل و فى الجبل الذى غرب الساحل يمنة الماشى فى الطلعة بلاد مسلاتة ذات زيتون كثير وزيته كاد أن لا تفرق بينه و بين السمن لا سيما الذى يضربونه فى الماء و قد بين صفته الأخ السابق سيدى محمد الشريف و له أملاك هناك زاده الله فيها حتى يكون مشطرا لأهلها مع نفص اليد من الدنيا رأسا حتى تكون من الله و إليه و على هذه الحالة علمته الآن نعم مكنه الله من الزهد الحقيقى إذ الزهد على ثلاث مراتب زهد العامة فى الدنيا فإنهم لا يفرحون إذا أتت و لا يحزنون إذا ذهبت و هذا الزهد أوجه الله على كل مسلم و زهد الخاصة فإنهم يفرحون إذا ذهبت لأنها سم و يحزنون إذا أتت و أما الخاصة فلا يشاهدونها ذهابا و اتيانا لأنك إذا فرحت بذهاب أحد فليس ذلك إلا لكونه عظيما عندك و هذا معلوم فى الشاهد و أخونا هذا غيبه الله عن الأكوان بمشاهدة المكون حقق الله لنا معه ذلك بمنه و كرمه أقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه عند ذكر ذلك الجبل الذى هو غرب ساحل حامد و فيه مسلاتة و غيرهم.

قال أبو سالم فى رحلته و هو آخر الجبل الذى لا نظير له فى الدنيا طولا و عرضا و خصبا و ماء و قرى متصلة و عمران متراكبا و قبائل وافرة غالبها البربر و أوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبلى مراکش و هو المسمى جبل درن ثم يمتد كذلك إلى بلادنا ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان ثم لم يزل يسائر البحر و إن كان يبعد عنه فى بعض المواضع و يسمى فى كل بلد باسم و ربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم إلى أن ينتهى هنا بأطراف برقة و قال صاحب تقويم البلدان أنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بينه و بين الإسكندرية خمس مراحل.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٢٣

قلت و كأنه جعل بلاد برقة كلها و الجبل الأخضر منه لأن ارض برقة مرتفعة على ما يجاورها من بلاد فزان و نواحيها و البحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة و بينها و بين الإسكندرية خمس مراحل و الظاهر ما ذكرناها أولا و هو الذى اقتصر عليه غيره فغرب هذا الجبل فى كل البلاد بلاد مخصصة ذات أنهار و عيون و أشجار و قبلته صحراء ذات نخيل و رمال فى البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة انتهى إلى أن قال و فى سفح هذا الجبل الذى يلي ساحل حامد مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت فى العصور الأوائل و بقيت آثارها و رسومها قد أكل البحر كثيرا منها و فيها مبان عظيمة، و هياكل جسيمة، و أبراج مبنية بالحجر المنحوت فى غاية الإتقان قد هرم الدهر و ما هرمت، و تعاقبت عليها الأزمنة و ما ثملت، فترى الأبنية مائلة متقابلة على رؤوس الجبال مد البصر بحيث يحكم الحدس إن كل ما كان داخلها كان مدينة واحدة إلى البحر و ترى أعمدة الرخام و غيره واقفة فى وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل كثيرا منها. و من هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس و إلى مصر و إلى غيرهما من البلدان و يقال أن بانيها الملك دقيوس و بعد وفاته تملكها امرأة اسمها رومية و بعضهم ذكر أن (دمشق ابن) النمرود لما بنى دمشق بقى ثلاث سنين و بعث ولده و أمره أن يبنى مدينة بالمغرب فبنى هذه المدينة و جلب إليها الماء من وادى كعام فى بناء متقن يحار الناظر فيه و أثر البناء و ممر الماء باق إلى اليوم متصل من جوف الوادى إلى أطراف المدينة إلا أن ماء هذا الوادى إلا قليل آجن و يزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادى كان حلوا غزيرا أيام عمارة المدينة و كان مما يؤثر عند أهلها أنه إذا بدأت الملوحة فى ماء الوادى فذلك علامة خرابها فلما بدت فيه الملوحة أخذ أهلها فى الانتقال منها و الله أعلم أنى ذلك كان.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٢٤

وقد ذكر العبدرى فى رحلته هذه المدينة و ذكر انه وجدها خالية و الذى يظهر أنها خلت قبل الإسلام إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح أفريقية و الله اعلم بغيه.

غريبة أخبرنى بعض أهل تلك البلاد أن الملك الذى بنى هذه المدينة وقع موتان فى عسكره حتى تفانوا و لم يدر ما سببه فأمر بشق

بطن واحد منهم و شق قلبه فوجد فيه دودة فعلم أن ذلك سبب موتهم فأمر بصب جميع الأودية عليها واحدا فواحدا فلم تمت حتى أخرج زيتا كان عنده في قارورة جاء بها من أرض الشام فصب عليها قطرة منه فماتت فعلم أن دواء ذلك المرض أكل لزيت فبعث إلى الشام و جاءه غرس الزيتون فأمر بغرسه في تلك الأوطان كلها من مصر إلى سوسة و تونس و أعمالهما و من تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد و الله اعلم انتهى كلامه.

قال (ابن ناصر) و في غير هذه الحجة رأيناها و رأينا فيها العجب العجاب، و موعظة و ذكرى لأولى الألباب، و لله در القائل :

لدوا للموت و أبناو للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

ثم قال و نخل هذا الساحل ردى التمر كله لا يدخر و لا يبس إلا بعد إزالة النوى منه فيبقى كقطع الجلد لا قوة فيه و لا حلاوة و لا طعم قال الإمام أبو سالم لا تكاد تفرق بينه و بين لحاء الشجر.

قلت و فيه تمر جيد يجعلونه بمساليخ و أما جل ما يتقوتون به فكما قال قال

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٢٥

و بهذه البلدة قبر الولي الصالح ذى الكرامات الكثيرة، و المآثر الشهيرة، سيدى مفتاح و هو على تل مرتفع بساحل البحر بينه و بين البلد في مكان يعلوه البهاء، و يتفجر منه السناء، تسكن النفوس إذا حلت به، و تطمئن به القلوب إذا نزلت بقربه، و هذا السيد ممن تؤثر عنه الكرامات الكثيرة و جربت إجابة الدعاء عند قبره فلا ينبغي لمن مر بذلك البلد أن يهمل زيارته و قد قيل أن قبره كان مختفيا و أظهره سيدى عبد السلام الأسمر و كان قد أظهر قبورا كثيرة للأولياء بذلك الساحل و أظهرت فرسه أيضا آخرين و ذلك انه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها في الأرض فيقول لهم الشيخ احفروا فإن هنا قبر ولى فيجدونه فظهرت بذلك مزارات كثيرة و فقراء الساحل إلى الآن يعرفونها و يقولون هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ و لا بدع في ذلك فإن الكرامة في ذلك لراكب الفرس لا للفرس فقد بركت ناقة النبي صلى الله عليه و سلم في مكان مسجده و عند ما دخلت الحرم يوم الحديبية و إذا كانت بركة النسبة للأنبياء عليهم السلام و للأولياء رضوان الله عليهم يظهر أثرها في العجاومات فما بالك في الآدمى الذى هو أشرف المخلوقات فلا تقصروا أخوانى من خدمة الصالحين و زياراتهم و ملاقاتهم و حبهم و حسن الاعتقاد فيهم فإن لذلك أثرا عجيبا في تليين القلوب و تسخير النفوس و الله تبارك و تعالى يجعلنا من المحبين لأهل ولايته و يحشرنا مع حزبهم و فريقهم فى دنياهم و آخرتهم.

و بازاء روضة هذا السيد بئر عذبة الماء باردة ثم قال و مررنا على آثار ساقية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين هناك يقال لها عين كعام و فيها صنعة عجيبه و أبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة تحار فيها العقول منها أحجار من أربعة أذرع فأكثر منقورة فى وسطها نقرا متقنا و الحجر فى غاية الصلابة قريب من حجر الصوان.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٢٦

قال شيخنا العياشى و الحاصل أن من رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر واصله إلى ذلك المقدار و علم أن دهرا أفنى أولائك الأقوام جدير بأن يستأصل شأفة الأنام قال و فى هذا البلد تلقانا الشيخ الأخ فى الله سيدى على بن عبد الصادق فى جماعة من طلبته و شيعنا و بات معنا و بالغ فى القرى و أحضر تمرا و شعيرا و خبزا و دجاجا و لحما جيدا و دلاعا كثر الله خيره و هذه البلدة مثل التى قبلها انتهى بالمعنى و أكثره باللفظ مع زيادة من عندى و نقصان بما يناسب كل مقام.

تنبيه ما ذكره سيدى أحمد بن ناصر شيخ شيوخنا من أن سيدى على بن عبد الصادق من بلدة زليتن فيه نظر أو أنه سبق قلم أو نسيان أو أنه أتى إليه و لقيه فى ذلك الوطن و ظن انه منه و أما احتمال أنه انتقل الشيخ من وطنه الذى هو ساحل حامد فأنى قد سألت عنه و فحصت عن هذا الخبر فقال لى من يوثق بخبره أنه لم ينتقل من ساحل حامد أصلا غير انه يحتمل فاللائق الذى يعتمد لعيه هو الأول و إلا فالشيخ لا طيش معه لأنه فى غاية التمكين رضى الله عنه و نفعنا به آمين.

تمتة بلدة زليتن هذه الآن عامرة أكثر من ساحل حامد بزيادة عظيمة و شجرها أكثر منها و كذا كل نوع إلا أكثر ففيها الآن الخير

العظيم دينا و دنيا.

و في هذه البلدة فضلاء و صلحاء و علماء و في الرجعة اجتمعنا مع علماء الوقت كالفاضل الكامل الأديب الفقيه سيدي سالم و إخوانه و طلبته و قد عمر أوقاته بتدريس العلم نحوا و فقها و له فهم جيد.

و هذا سيدي سالم الفطيسي فانه أجاد في إكرامنا نهارا و عزم بنا إلى بيته تبركا بنا أحسن الله إليه إحسانا كلياً و أتم عليه ما هو به و على ذريته و إخوانه إلى قيام الساعة فقد أقرى لنا لحما و كسكسا و تمرا و مانا بحيث عدد علينا أنواع القرى و القرى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٢٧

القوى هو الفرح و الرغبة في العلم و أهله و كذا اجتمعنا مع فضلاء تلك البلدة كالمشارك في العلوم سيدي إبراهيم نجل الشيخ سيدي سالم فإن له اشتغالا بالتدريس نفعه الله و نفع به أمين و كذا جماعة من أهل الخير لا أعرف أسماءهم إلا أن الخير و الفضل لائح على وجههم إذ أنوار الله لا تخفى على من له شم لرائحة الحقيقة و كذا لقينا إلى طريق الحاج محمدا رجل خير فاضل محب لصديقنا سيدي محمد الشريف البلغيثي و أتى إلينا بالرطب و الخبز و اللحم و جميع من مر من الركب أكل منه كثر الله خيره و بسط عليه رزقه.

هذا و أنا زرنا الولي الصالح و القطب الواضح سيدي عبد السلام الأسمر في الطلعة و الرجعة أفاض الله علينا من بركاته و جعلنا في زمرة بجاه النبي صلى الله عليه و سلم و آله و آل البخاري و رجاله و بالجملة فكراماته مشهورة و مآثره كثيرة و معاليه بينة عند الخاصة و العامة فلم يبق إلا التعلق به و بأمثاله لتجبر قلوبنا و تشفى أسقامنا لا سيما أسقام الدين فإنها قد عمت ظواهرنا و بواطننا مع أعظم المفسدات له و هو ادعاء النفس ما لم تصل إليه غير أن بعضهم لا يدعى ذلك قولا و إنما يدعيه حالا بحيث إذا ذم و حط عن ما تدعيه نفسه من المقامات العالية تغير و تكدر أمره غايته إن كان من أهل العلم سكت عن قول السوء و يحمل نفسه على الصبر و لو لا ادعاؤه ذلك ما تغير إذ غايته ما قيل فيه أنه كذلك في الواقع و أما الجاهل فلا يصبر بل يبادر للسوء و يغلظ القول عليه بل ربما آل أمرهم إلى الضرب مع الشتم بل إلى القتال كما عينا ذلك من كثير من فتنه المرابطين في وطننا و قتالهم فإن أهل ذلك كله هو رعونته الدعوى و تمكنا منه اللهم بجاهه عندك و بجاه أمثاله أن تمن علينا بالبرء من الدين و شفاء أسقامه و احفظنا من كل بلاء دينا و دنيا بمنك و كرمك.

نعم هو رجل كما قال أبو سالم في رحلته من أهل المائة العاشرة كثير الكرامات

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٢٨

عالي المقامات من أجل تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس و الغالب عليه الجذب في أول أمره و آخره و له تصرف قوى و يؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها و أخباره في قهر الجبابرة و فكك الأسارى من أيدي الفرنج في حياته و بعد مماته شهيرة و هو من بلدة يقال لها الفواتر و أمه مغربية درعية و لم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين و وكر العابدين من قديم الزمان تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين قالوا و هم ظاهرون بها حتى الآن و ليس عليهم سمة متفجرة الوقت بل هم على هيئة العوام في ملابسهم و مساكنهم و حرفهم إلا أنهم قائمون على منهاج الشريعة و كل من رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه الله و لا يدخلها أحد بتجبر و تكبر إلا أذله الله و يذكر عن أهلها كرامات كثيرة.

قال و قد ذكر لي بعض الإخوان أن سيدي عبد الحفيظ قدم لزيارة أهل هذه البلدة و معه بشر كثير كما هو شأنه إذا خرج فلما قرب من البلد نزل عن فرسه و مشى راجلا متواضعا إلى أن زار و خرج فقيل له في ذلك فقال لو دخلتها على الحالة التي كنت عليها خارجا من الركوب كهيئة المتبوع تخشيت على نفسي أو كلاما هذا معناها و بلدة الفواتر هذه بإزاء زاوية سيدي عبد السلام قريب منها بنحو من فرسخين و فيها مزارات كثيرة للأحياء و الأموات.

لطيفة أخبر الإمام العياشي في رحلته أنه أخبره أخوه في الله المجدوب السالك سيدي أحمد بن محمد بن نجيب انه لما حدى بقى

أمام النبي صلى الله عليه وسلم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٢٩

فقال في نفسه أنى لا أذهب لزيارة حمزة ولا لغيره هذا يكفينى قال فأخذتنى سنة فرأيتة صلى الله عليه وسلم فقال لى يا أحمد يا حبيى عم الرجل عوض أبية قال فقمتم فى الحين و ذهبت لزيارة سيدنا حمزة وحدى و كان وقت خوف و لقيت هناك ثلاثة رجال أحدهم الخضر عليه السلام.

و نقل عنه عن اللقانى أن الوزغ يتغذى بعينيه و انه أى اللقانى كان ذات يوم يأكل و وزغ ينظر إليه من السقف فأمر من قلته قال و شقوا بطنه فوجدوا فيه من الخضرة التى كان الشيخ يأكل منها انتهى.

و ممن لقيه هذا الشيخ فى هذه البلدة سيدى محمد بن سالم الزليتنى و كان متبعا لسنة كثيرا و آثار الصلاح على وجهه تلوح و عرف الفلاح من بشره يتضوع و يفوح و كان من أهل الكشف نفعنا الله به ثم قال.

نادرة كان سيدى عبد السلام الأسمر الشيخ الأكبر يستعمل السماع بالدف إلا أنه كان رضى الله عنه ذا حال صادقة لا يقتدى به فى ذلك و أراد خلفه و المنتسبون إليه اقتفاء أثره فى ذلك فحقهم إتباع السنة و اجتناب مواقع الظنة و ليست الأحوال مما يورث و لا مما يصح فيه التقليد لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالا جبريا فليس لغيره أتباعه فى ذلك إن لم تظهر له موافقته المشروع.

و مما يحكى من ذلك عن الشيخ سيدى عبد السلام انه سمع ذات يوم بالدف فلما نقره سمعه كل من حضره يقول الله الله بحيث لا يمترون فى ذلك قاله فى رحلته شيخنا أبو سالم قال و هذا شاهد صدق فى صحة سماعه و صدق حاله مع الله و مثل هذا له أن يسمع بأى شىء أراد من دف و مزمار لانقلاب سمة الملاهى فى حقه ترياقا فعادت المخالفة للمشروع بانعكاس الثمرة وفاقا فسبحان من يخرج من بين فرث

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٣٠

و دم لبنا خالصا سائغا للشاربين و من بين الدف و المزمار أحوالا سنية للمقربين.

و كان حج مع شيخنا الوالد رضى الله عنه و أرضاه بعض أهل زاويته و كان يسمع بالدف على عادتهم فبعث إليه الشيخ فقال له أن أردت مرافقتنا فأترك هذا السماع و إلا فاعتزلنا فاعتذر بان ذلك من عادة أسلافه فلم يقبل منه الشيخ ذلك و لم يزل به حتى ترك السماع.

قلت و قد عمت البلوى و العياذ بالله بانكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف و المزامير و سائر الآلات و الأشعار و الألحان و اتخذوا ذلك صراطا مستقيما، و أتبعوا فيه شيطانا رجيمًا، و نبذوا السنة وراء ظهورهم، و زالت هيئة الشريعة من صدورهم، و كان لهم ذلك ديدنا فى سائر الأزمان، فصاروا مسخرة للشيطان، و فى الرسالة لأبى إسحاق الاولاسى قال رأيت إبليس فى المنام على بعض سطوح الأولاس و أنا على سطح و على يمينه جماعة و على يساره جماعة و عليهم ثياب لطاف فقال لطائفهم منهم قولوا فقالوا و غنوا فاستفزعنى صيته و هممت أن أطرح نفسى من السطح ثم قال ارقصوا فرقصوا أطيب ما يكون قال لى يا أبا الحارث ما أصبت شيئا أدخل به عليكم إلا هذا انتهى.

و لعمرى كيف تسلم ديانة من يتعاطى السماع بالأغانى و إنشاد الألحان و الأشعار إذ هو معشش الدسائس و أحق بالنزاع و مغرس التخليط و التلييس و أدخل فى الابتداع إلا من عصمه الله و قليل ما هم فلذلك كان إنكار السماع من كثير من العلماء و تحذيرهم منه لا سيما فى حق العوام الباقية نفوسهم القائمة حظوظهم و كثير استعماله لكثرة الغرور و طفوح الجهل حتى ربما رأوه من أركان الطريق و ربما

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٣١

توغلوا فيه حتى تعاطوه بالآلات الملهية والأصوات الحسنه من الأحداث الملاح حتى كأنهم محاضر المنادمة و ما أبعد هذا عن الدين و أهله و قد يكون الفتى من أهل البطالة و الغواية و اللهو و الشرب ثم انه يتوب على أيديهم فيحضره في أمثال هذه المجالس و هذا الغناء و هذا اللهو فلا تزداد نفسه إلا قوة و جموحا، و لا شهوته إلا كلبا و طفوحا، نعم كان قبل التوبة منكسر القلب معترفا على نفسه بالإساءة متمنيا للخير و الصلاح و اللحاق بأهله و الخير كله في هذا الوصف و في الحديث القدسي أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى ثم الحالة الأولى إلى الثانية و هذا العجب و الاغترار هو العيب كله و الشيطان يكتفى منه بذلك فلا- يوسوس له أن يتعاطى تلك المعاصي السابقة لأن هذا العجب و الاغترار أعجب إليه إذ لا يتمنى الانتقال و التوبة عن هذه الحالة أصلا و عدم الوسوسة بذلك تزيده اغترارا و إعجابا فيكون في مرضاة إبليس ما دام على تلك الحال و في سخط الكبير المتعال نسأله العافية.

و لهذا قال أمام الطريقة الجنيد رضى الله عنه إذا رأيت المرید يحب السماع فاعلم أن فيه بقیة من البطالة.
و قال الشيخ الإمام القدوة الهمام أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه سألت أستاذي رضى الله عنه عن السماع فأجابني بقوله تعالى: (إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا آباءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ).

و قال أيضا رضى الله عنه رأيت في النوم كأن بين يدي كتاب الفقيه ابن عبد السلام و أوراقا فيها شعر مرجز و إذا بأستاذي رحمه الله واقف فتناول كتاب الفقيه بيمينه و تناول الأوراق بشماله فقال كالمنتهر أتعدلون عن العلوم العزیه الزکیة و أشار بيده إلى كتاب الفقيه إلى الأشعار ذوات الأهواء المردية و أشار بيده إلى أوراق الشعر ثم رمى بها الأرض و من أكثر من هذه فهو عبد مركز لهواه، أسير شهوته و مناه،

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٣٢

يسترقون به قلوب الغفلة و النسوان، و لا- إرادة لهم في الخير و اكتساب العرفان، يتمايلون عند سماعها تمايل اليهود، و لم يحظ أحد منهم بما حظى به أهل الشهود، لئن لم ينته الظالم ليقبلن أرضه سماء، فأخذني حال وجد و بكاء، و أنا أقول إلا أن النفس أرضية، و الروح سماوية، فقال بلى إذا كانت الروح بأقطار العلوم دارة، و النفس بأعمال الصالحات نباتة، فقد ثبت الخير كله، و إذا كانت النفس غالبية، و الروح مغلوبية، فقد وقع القحط و الجذب و انقلب الأمر و جلب الشر كله فعليك بكتاب الله الهادي، و كلام رسوله الشافي، و لم تزل بخير ما لزمتهما، و قد أصاب الشر من عدل عنهما، و أهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه و إذا سمعوا الحق أقبلوا عليه و من يقترب حسنة نزد له فيها حسنا انتهى.

و قال الإمام أبو العباس زروق و قد اتفقوا على منعه لما حدث فيه و به من المفاسد حتى قال الشيخ محيي الدين رحمه الله السماع في هذا الزمان لا يقول به مسلم و لا يقتدى بشيخ يعمله أو يقول به.

و قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه في قوله تعالى: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلشُّحِّ نزلت في اليهود و من كان من فقراء هذا الزمان مؤثرا للسمع بهواه آكلا مما حرمه مولاه فهي نزع يهودية لأن القوال يذكر العشق و ما هو بعاشق و يذكر المحبة و ما هو بمحب و الوجد و ما هو بمتواجد فالقول يقول الكذب و المستمع سماع له و من أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع يصدق عليه قوله تعالى: لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ الآية.

قال و عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرأون التوراة فتخشعوا فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه و سلم نزل عليه جبريل عليه السلام فقال اقرأ قال و ما اقرأ قال اقرأ أ و لم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٣٣

فعبتوا إذ تخشعوا من غيره و هم إنما تخشعوا من التوراة و هي كلام الله فما ظنك بهذا أعرض عن كتاب الله و تخشع بالملاهي و الغناء انتهى كلامه.

و قال الإمام محيي الدين و كل ما سمع من الخشوع فهو على أحد أمرين أما قبل أو تحصل له مرتبة التمكين فالسمع عندنا حرام في

ذلك الوقت أو سمع بعد التمكين بشروطه المعروفة التي قد ذكرناها في غير هذا الموضوع فيعلم من هذا انه قد نزل من المقام الأعلى إلى مقام هو أسفل و أدنى لحظ نفسه ثم ذكر السماع و انه نزول كله و إن من لم يجد حاله إلا في السماع و يفقده إذا فقده فقد مكر به و استدرج فلييك على نفسه و لبيح على ما جنته يده فيجد ذنبا ضرورة لا بد من ذلك ثم قال و الله يلبسنا و إياكم رداء التقوى و العافية، و يحلنا و إياكم المراتب السامية، و لا يجعلنا و إياكم ممن له إلى السماع أذن واعية، فيكون من أهل القلوب الملهية انتهى.

و له في التدبيرات الإلهية السامعون شخصان شخص يسمع بنفسه و شخص يسمع بعقله و ليس من سامع آخر و من قال أنه يسمع بربه فهو نهاية درج سمع العقل لكن للعقل سمعان سمع من حيث فطرته و سمع من حيث الوضع فالذى له من حيث الوضع هو الذى قيل عنه أنه يسمع بربه و قوفا عند قوله عليه السلام عن ربه كنت سمعه الذى يسمع به فالذى يسمع بعقله يسمع فى كل شىء و من كل شىء و على كل شىء لا يتقيد و علامته فى ذلك البهت و خمود البشرية و الذى يسمع بنفسه لا بعقله لا يسمع إلا فى النغمات و الأصوات العذبة الشهية و علامته أن يتحرك عند السماع بحالة فثائه عن الإحساس و مهما أحس المتحرك فى السماع فانه مسخرة للشيطان و إن لم يحس و فنى عن كل شىء فهو صاحب نفس و تحت سلطانها و حاله صحيح الفناء و لا يأتى بعلم أبدا عقب هذا الفناء و الحركة فى السماع فان ادعى انه أتى بعلم فلم يكن فانيا و لم يكن سمع بعقله فانه تحرك و لم يبق له إلا أن يكون كاذبا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٣٤

فإن سماع النفس لا يأتى بعلم البتة و سماع العقل لا تكون معه حركة فمن جمع بين الحركة و العلم فهو كاذب جاهل بالحقائق انتهى الغرض منه فقس هذا الكلام على أهل زمانك تر العجب العجاب و الله يلهما الصواب و يعصمنا من الزلل و يوفقنا لصالح القول و العمل.

قال الشيخ أبو القاسم القشيري سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله تعالى يقول السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم مستحب لأصحابنا لحياء قلوبهم انتهى.

قلت و إلى هذا الكلام و الله اعلم يشير صاحب نظم المباحث الأصلية حيث يقول:

و إنما أبيع للزهادو ندبه إلى الشيوخ باد

فهو على العوام كالحرام عند الشيوخ الأجلة الأعلام

قال الإمام زروق أما أباحته للزهاد الذين لا أرب لهم فى الشهوات المستلذات و لم يبلغوا مرتبة التحقيق و الذوق فانه لا يضرهم فيمنع و لا- ينفعهم فيندب و أما الشيوخ فانه يثير منهم الحقائق فتنتشر فى عوالم الأجسام ثم تتسع فى ميادين الحضرة فيكون للحضار منها نصيب لأن من تحقق بحاله لا يخلو حاضروه منها و كل ما أفضى إلى الكمال فهو كمال و أما تحريمه على العوام فمن جهة أنه يثير نفوسهم و يحرك شهواتهم و غيرها من الطباع و العوائد الرديئة و هذا فيما يحتمل و صور له و فيما يوافق الحق بمعناه من حيث الطباع لأن الشعر من محامد النفس فهو يقويها ما لم تكن ميتة.

و فى ذلك قالوا أن الغناء مرقاة الزنى و انه يثبت النفاق فى القلب انتهى قلت و كلام أبى على الدقاق هذا هو فصل الخطاب و التوسط بين الخطأ و الصواب.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٣٥

و نحوه قول الشبلى و قد سئل عن السماع قال ظاهره فتنه و باطنه عبرة فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة و إلا فقد استدعى الفتنه و تعرض للبلية و قال بعضهم لا يصح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة و قلبه حى فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة و قلبه حى بنور الموافقة.

و اتفقوا انه لا بد للسماع من زمان و مكان و إخوان و لذلك قيل للجنيذ رضى الله عنه ما لك لا تسمع فقال ممن قيل من الله فقال و مع من و قولوا السماع على قسمين سماع بشرط العلم و الصحو فمن شرط صاحبه معرفة الأسامي و الصفات و إلا وقع فى الكفر

المحض و سماع بشرط الحال فمن شرط سامعه الفناء عن أحوال البشرية و التنقى عن آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة و هذا و الله اعلم هو فى سماع الأشعار المشتملة على الأوصاف الصالحة لأهل النفوس و لأهل الأرواح قد علم كل أناس مشربهم كسماع أبى الحسن فى الطريق قول القائل:

رأى المجنون فى البيداء كلبا- الأبيات و القصه

و أما الأشعار الوعظية المشتملة على التذكير بالله تعالى و الترغيب فيما عنده و التنفير عن الدنيا و التحضيض على التقوى فهى سليمة الجناب تصلح للعوام و العباد و الزهاد و بالجملة فالسماع ورطه لأهل النفوس و الشهوات و روضه لأهل الفهم عن الله تعالى و هؤلاء يسمعون من كل شىء و لا يتوقف سماعهم على طيب النغم كما تقدم عن صاحب التدبيرات و يشهد له حكاية يا ستر برى و ما فهم منه كل من الثلاثة المذكورين فى حكاية أنظرها فى لطائف المنن انتهى.

أقول و حاصل معناه أن شخصا نادى آخر يبيع السعتر البرى فالمريد فهم أسع تر برى و السالك فهم الساعة ترى برى و الواصل فهم ما أوسع برى فكل قد فهم بحسب مقامه و شربه قد علم كل أناس مشربهم فالمريد مأمور بالعمل ليرى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٣٤

الإحسان من الله و البرور و السالك ينظر الفتح و لذلك فهم الساعة ترى برى و الواصل فى حال شهوده و تجلى المحبوب على قلب ففهم فى حال شهوده من هذا اللفظ ما أوسع برى.

هذا معنى قوله يسمع من كل شىء و لا- شك أن فى كل شىء آية تدل على الله فى الجملة و عند أهل الحق لهم خطاب منهما يخصهم بحسب مقامهم من الحب و غيره.

و قد قال بعض العارفين مكثت أربعين سنة أخطب الخلق بخطاب الحق و ذلك لغلبة الشهود عليه و الحضور لديه فلم يصح تصور الغفلة عليه و لا النسيان منه و لذلك كان به و منه و إليه فكان الله سمعه و بصره كما هو فى الحديث القدسى فليس عند هذا فى الوجود إلا الحق أن سماع سمع به و الباطل منعدم البتة فى حقه فلا تقسيم فيه و إنما التقسيم فىمن يغيب عن نفسه تارة بمشاهدة محبوبة و يشاهدها أخرى فإن كان يسمع بالله و من الله فسماعه حق لا يقول مسلم بحرمة و إنما هو آثار عليه حال الشهود و إنما الكلام فى غيره و التفصيل فيه بين الزهاد و غيرهم و أهل التمكين و سواهم فاعلمه فانه مما يجب التفطن إليه و قد أشار إليه قبل غير أنه لا يفهم ما قاله كل قاصر فى هذا العلم و المتبصر يعلم الحقائق على حالها.

و بالجملة فالبحث بالإباحة و التحريم و الندب إنما هو فىمن يلتبس عنا قصده و حاله ففيه التفصيل السابق و الكلام حينئذ على أسلوبه و الجرى على نمطه نعم قرائن الأحوال تميز أحوال السامعين فمن علم انه قصد أمرا مذموما فى الشرع منع باتفاق و من علم أن قصده صحيح لا علة فيه شرعا كالزهاد و العباد جاز قطعاً من غير خلاف لكونه ترياقاً مجرباً أقل ما فيه من الدواء استراحة النفس مما حصل لها من التعب فى حال المجاهدات و كذا أهل التمكين من الشيوخ فإنما سماعهم من الحق و لا شك أنه مطلوب منهم لتسع دائرة علومهم و تقوى أنوار معارفهم و هذا إذا سلم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٣٧

الموضع من الفتن الدينية كحضور الشبان الناعمة من النساء لا سيما إذا كانت مكشوفة العورة فإن ذلك حرام من غير خلاف إلا إذا كان صاحب الوجد زال عنه عقل التكليف و حركه الحق فلا أثم عليه لأنه ليس بمكلف إذ هو مضطر مقلوب و لا يقتدى به فلا بأس عليه من النساء و غيرهن و إنما الكلام مع من بقى معه التكليف.

حاصله أمر السماع فى زماننا و غيره مع القصد الصحيح بشروطه و انتفاء الموانع كخلو المكان ممن يفتتن به من النساء و الشبان ممن لا قصد له قصداً خبيثاً فهو على التقسيم المتقدم بين الإباحة و الندب و إما مع القصد الفاسد فلا يجوز اتفاقاً.

لطيفة و تنبيه مما يجب التنبه إليه اجتماع النساء و الرجال فى بلدنا فى الظاهر على طريق الخير و الصلاح و التشبه بالقوم الأول و فى

الواقع ما اتخذوا ذلك إلا للتوصل للزنى و مقدماته يشهد لذلك من رآه بالعيان لأنهم فساق فلما تعذر عليهم الوصول إلى الشر من بابه اتخذوا سلما يرقون به و هو السماع ليتوصلوا لأغراضهم الفاسدة و يتجردون للزنى نحو اليومين و الثلاثة ليتمكن لهم الاختلاء و قد قال صلى الله عليه و سلم ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما و قال أيضا باعدوا بين أنفاس النساء و أنفاس الرجال و قال أيضا لو كان عرق الرجل فى المشرق و عرق المرأة فى المغرب أو بالعكس لتحانا أو كلاما هذا معناه فإذا كان الأمر كذلك فكيف يحل لمسلم يرى ذلك منهم أن يترك حريمه أى زوجته أو أخته أو ابنته أو ابنه معهم حاصله أى قريب كان ذكرا أو أنثى فلا يتركه أن يحضر ذلك السماع المعلوم بهذه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٣٨

المفاسد بل يمنعه منعا مؤزرا أن قدر عليه بنفسه و إلا طلب المعين أن يعينه فيه من جماعة المسلمين إن لم يكن حاكم إن كان فيهم إيمان و إن كان فيهم حاكم بلغ إليه الأمر فيجب على من ولاه الله أمور المسلمين أن يرفع ذلك بالسيف من كل وطن من أوطاننا لا سيما وطن عامر و بنى دراج و طننا أى بنى ورثيلان و كذا ما يصير فى بجاية آخر رمضان و مسجد البلوط فى بنى يعلى و كذا محل الأولياء فى كل مكان كقبر جدنا سيدى أحمد الشريف و سيدى يحيى العيدلى و سيدى على بن شداد و سيدى على بن موسى و سيدى عبد الرحمان الثعالبي فى الجزائر و سيدى سعيد السفري فى قسنطينة و جبل المثقوب فى بنى ورثلان و غيرهم.

نعم الذى ذكرناه إنما هو فى حق المخذول الذى لم يخف الله و نبذ وراء ظهره حجاب الهيئة ففعل ما بدا له و إلا فمن غلبه الحال و الوارد و الشوق من وطننا أو غيره رجلا- أو امرأة مع الرجال أو النساء أم لا فلا كلام لى معه إذ هو مقهور و بحب الله مغلوب مضطر فحشاه أن أمس جانبه أو أشير إليه و كذا غيرى ممن نبه عليه ممن ذم السماع و حرمة إذ مقصودهم و مقصودنا سد الذرائع و سد الباب على مثل المجوزين ذلك مطلقا لا سيما المفتونين المخذولين المتحيلين للوصول إلى الأغراض الفاسدة أو يعتقد من له توجه صدق و رغبة فى الخيار ما هم عليه هو الدين القويم و الصراط المستقيم فيدخل فى زمرتهم و يجعل نفسه منهم فإن أصابه بعض الفتن و البلاء من الشغف بحب النساء ممن يحضر ذلك الموضوع فيتشتت أمره و يتكدر عليه و قته حتى يغلبه حال الشيطان فيقع فى مهواة الضلال و ربما سقط من عين الله إلا أن يتداركه الله بفضلته بان لا يجد سبيلا لمراده إذ من العصمة أن لا تجد موقعا فى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٣٩

فساد و ندم على ذلك و انكسر قلبه من أجله فأخذ الله بيده لما علمه من قلبه فذل بسبب ذلك فتكون معصيته أولى من طاعة غيره لأن المعصية مع الذل و الاحتقار أولى من الطاعة مع العز و الاستكبار لأن المقصود من العبودية التذلل و الخضوع و الاحتقار فلما كانت المعصية بذلك صارت خيرا من الطاعة التى مع العلو و الاستكبار.

أقول قال الشيخ زروق الولي ولى و أن أتى حدا أى ما يستوجب الحد لأنه ليس بمعصوم إلا إذا أصر على ذلك فينتفى عنه الحكم بالولاية و بالجملة فالحذر مطلوب و السلامة فى الفرار من تلك الجموع أولى و الديانة فى عدم زيارة النساء و لا حضور سماعهن و أما السماع الخالى عنهن و عن الأحداث غير انه بذكر الغناء بالحدود و القدود مع الأصفياء الأتقياء ففيه الكلام بالإباحة و ضدها لا سيما مع آله الله فمنهم من رغب فيه لما يزيد ذا الشوق شوقا و ذا المعرفة معرفة و منهم من ذمه نظرا لما يقتضيه اللفظ من المعانى المعلومه شرعا .

و بالجملة فالذى فيه الخلاف إنما هو ما كان بآله الله و الغناء بالأشعار التى فيها ذكر الحدود و القدود و تسمية المحبوبة من النساء المرغوب فيها الفساد غير انه سالم من النساء التى يدعن من فتن و أهله أتقياء و ليس لهم غرض إلا سماع ما يدل على الحب و الشوق هذا الذى فيه كلام مع أهل العلم فمنهم من يستدل على مدحه شرعا و منهم من يستدل على ذمه كذلك و أما إذا كان فيه النساء الأجانب التى فيهن الفتنة لا سيما مع الشبان فيحرم اتفاقا و فيه سخط الله قطعا إلا إذا كان الحاضر

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤٠

له مغلوبا مقهورا بالوارد و الحال فلا حكم فى حقه إذ هو مكره غير انه لا يقتدى به فى ذلك لأنه مريض لما علمت من الفقه إذا تيمم المريض و إن كان ممالكا أو أبا حنيفه أو الشافعى أو أحمد فلا يأتى الصحيح و يتيمم اقتداء بهؤلاء الأئمة إذ هم مرضى و هو صحيح فالمغلوب لا حرج عليه دينا.

و أما السماع الذى فيه الوعظ و الذكر و مدح الرسول صلى الله عليه و سلم فلا خلاف فى ندبه و مطلوبيته و أما للزهاد و العباد الذى فيه الخلاف فمباح لهم من غير شك فافهمه و هذا حاصل ما فيه كلامهم و لو لا الإطالة لأتيت على كل قوله بدليل.

فأقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه و هذا كله مع شروطه المقررة و قد عدت الآن فتعرض لمتعاطيه عند تعاطيه تر ما ذكرت لك عيانا نسأل الله تعالى السلامة و العافية و يتعاطون ذلك بالآلات ملهيات و كفيات منكرات و أما التصفيق و هز الرأس و الرقص و التحرك فإن كان بغلبة فالمغلوب معذور و إن كان بغير غلبة و هو للإيهام فهو حرام لما دخله من الرياء و التصنع و التظاهر بما ليس له حقيقة عنده و إن كان مع بيان الحال بحيث يعلم الحاضرون أنه غير مغلوب و إنما أراد إراحة نفسه فهو للباطل أقرب و ليس من الحق فى شىء و لذلك لما سئل بعض العلماء عنم يفعل ذلك ضحك حتى بدت أنيابه ثم قال أمجانين هم و أما الدفوف و الطناير و المزامير و المزهرة و الطرور فكان الوالد يضرب فيها بالعصا و النعال و يجلى فيها و ينفى متعاطيه و يغرى عليهم و يبحث فى نفهم و يبالح فى زجرهم و لا- يسكت عنهم بحال إلا أنه يخفف فى رفع أصواتهم بالأذكار عند الاجتماع المجرى عن الزعفات و الهاعات و صرب الأكف و غير ذلك من الآلات و إن طرأ شىء من ذلك سمعه بالغ فى الزجر بل المرضى عنده ترك كل شىء من ذلك و اختلاء المرء بسره و الإخفاء

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤١

لذكره و كان الفقراء ذات يوم مجتمعين بالزاوية على الكيفية التى ذكرنا انه يخففها و يسكت عنها و جلس وراءهم خفيه عنه و ظفر به بعض أصحابه فقال له يا سيدى ما أجلسك هذا المجلس فقال أطلب الله فى هؤلاء و ادعو لهم و فى المباحث الأصلية.

و لا يجوز عنده التكلم و لا التلاهى لا و لا التبسم

قلت و إن كان و لا بد فمن أسلم الهيات و أحسنها و أبعدا من الظنة و ذكر الإمام الساحلى رضى الله عنه و هو أن الفقير إذا اشتغل بالإيرادة فحقه أن يقطع العلائق كلها و ينبذ اللذات و الراحة و يهجر المألوفات و يستعمل العزلة و الخلوة و ذلك أمر شاق على النفس فى الابتداء فإنها شديدة الحنين إلى ما تألفه من البطالة و الأنس بالخلق و يخشى عليها من هجم عليها بقطع جميع ذلك على الدوام أن تنفر فوجب ترويحها حيناً بعد حين بالاجتماع ليكون ذلك استجماعاً و لا يكون ذلك على الدوام لثلا ترجع إلى طبعها من الألفة بل يكون ذلك بحسب الحاجة ثم يجب أن لا يكون الاجتماع بالبطالة و ترك ما هو عليه فانه لا بد من مواصلة الأوراد و الدوام على العمل بلا فترة فلزم أن يكون الاجتماع على الذكر الذى كان يستعمله المريد فى خلوته بنفسه حتى كأنه لم يخرج عن خلوته و لم ينتقل عن حالته غير أن ما كان يعمل وحده عمله مع إخوانه ليفيد النفس تأنيساً بهم و صفة الاجتماع أن يعقدوا الميعاد ليوم معلوم فيحضرون و يجمعون من الطعام ما تيسر مع غاية البعد عن التكلف و الرياء و التباهى إلى أن قال و صفة الذكر أن يجلسوا حلقة ثم يرفعوا أصواتهم بذكر واحد من الأذكار التى عندهم كالهيلة و الصلاة على النبى صلى الله عليه و سلم خافضين رء و سهم غاضين أبصارهم على غاية الوقار و السكينة و الخشوع من غير اضطراب و لا حركة إلى أن ينزل على أحد حالة غالبه ترعجه من غير اختيار و ليس

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤٢

لأحد أن يتمنى نزول ذلك و لا إن يتعاطاه بل يستعيذ بالله من شر الوسواس و الخواطر الشيطانية.

و أما السماع بالأغانى و إنشاد الأشعار فهو أدخل فى الابتداء و أحق بالنزاع و هو معشش الوسوايس و مغرس التخليط و التلبس إلا من عصمه الله و قليل ما هم أنظر تمامه انتهى.

انعطاف و قد ظعنا من الساحل و نزلنا قرب السبخة ثم بعد ذلك ظعنا بعد ملاقاء الأفاضل و زيارة الشيخ الولي الكبير القطب الشهير سيدى عبد السلام كما تقدم لنا و نزلنا قرب مسرارة ثم بعد ذلك ارتحلنا و نزلنا أبعد من قبر الشيخ الولي الصالح، البدر الواضح، ذى التصانيف المفيدة، و التأليف العديدة، ذى الترياق و الدواء المجرب أبى العباس سيدى أحمد زروق البرنسى ثم الفاسى فبعد نزلنا هنيئة توجهنا لزيارته و التبرك بضريحه قدس الله روحه فانه لا شك أنه حى فى قبره يستشعر ذلك من له ذوق سليم، و طبع مستقيم، فأن الحواس الباطنية تشهد بذلك و تتخيل روحانية الداخل روحانية المزار فإنها تتلاقى بغير حجاب فى حضرة الشهود، فى مرقى الصعود بتأييد الرب المعبود، فتستفيد النفس الزيارة من الروح المزاراة من الأمداد الإلهية و الأنوار الصمدانية و اللطائف الرحمانية و العلوم اللدنية ما كتب لها فتستعد بذلك للدخول فى زمرة النبئين و الصديقين، و الشهداء و الصالحين، فترجع ذات أنوار و أسرار تظهر بسبب المحقق العلامة المدقق العارف بالله قطب مغربنا، و شمس سرائرنا، و إمام أئمتنا، و حضرة ودنا، و عروة اعتصامنا، و محل اعتقادنا، شيخ الطريقة، و أمام الحقيقة، سلطان العارفين، و المحققين، قوى الله فيه محبتنا، و حقق إليه نسبتنا، الشيخ المذكور فانه من قوم لا يشقى بهم جليسهم، و لا شك أن

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤٣

زائرهم، و محبهم، و خديمهم، و متشبثهم، هو منهم، فإن هذا الولي قد ظهر أمره فى الأفق، و اشتهر سره فى الأقطار و الرفاق، و تقوى نوره فى عصره إلى زماننا هذا بل علمه و أسراره قد عمت مشارق الأرض و مغاربها فصار مغيئا و معينا لكل من التجأ إليه نعم إليه يهرع المنكسرون على انه حصن للضعفاء و المساكين لأنه يأخذ بيد الجميع و لم ترفى الناس من رفيق، أولى منه فى إصابه الحق و بيان الطريق، و لا أدخل فى أتباعها بل أجد فى بيان البدع المضلة، و دسائس اللعين المعلقة، حتى جمع بين الشريعة و الحقيقة جمعا متواطئا فالملازم لتأليفه بصدق التوجه و خلوص الاعتقاد يشرح الله نوره للإسلام فحينئذ يكون على نور من ربه و بالجمله هو طيب نبوى، و ترياق ربانى، يعلم ذلك من شمر أزاره لمطالعة أحواله و أسراره و توجهاته و كلامه فى سائر تأليفه لأن تأليفه تكاد أن تكون معجزة إذ لا- يقدر و لا- يستطيع أحد أن ينقل كلامه و لا يسلمه إلا من طبع على قلبه إذ هو لسان الحق و عين التحقيق فلم يبق لمن كانت بصيرته نافذة إلا سلوك طريقه لتستتير سريرته و تعلقو همته و يظهر أمره عند الأكوان فيكون شمسها لها و غيئا لقلوبها و دواء لعلها فيرحم الله به أمه ضعيفة و يسقى به قلوبا ضمائه من لم يصبها وابل فطل و يغنى أشخاصا فقيرة و يعز أناسا ذليلة و يجبر أفئدة كسيرة فإن الشيخ المستمد منه بحر المعارف و سلطان العوارف إذ هو حجة الله فى أرضه فمن يصل إليه و يستعن به يعن به على أموره الظاهرة و الباطنة و ينتصر على أعدائه و ذلك مجرب عند العباد كلهم بل قد أرتفع صيته عند العامة و الخاصة فهو كعبة الزوار، و حرم الأنوار، و معدن الأسرار، جعله الله لنا و لذريتنا و لطلبتنا، و كل من تعلق بنا ذخرا فى دنيانا و ذخرا يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤٤

و ها أنا أتوجه إلى الله و أسأله بجاه و علومه و إتباعه و محبته أن يشفى الله أسقامنا الظاهرة و الباطنة و بمنه و كرمه و أن لا يجعل فى رأينا ما يكون هلاكا فى ديننا و دنيانا و أن يرزقنا بجاه سره ما فيه رضاه مع العافية التامة و النعمة الشاملة و المغفرة الواسعة و الرحمة القوية لنا و لمن تشبث بنا مع الغنى عن الناس و الإيأس مما فى أيديهم و حسن الخاتمة آمين يا رب العالمين.

أقول قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه لما نان بروضة الشيخ حجة تسع و تسعين و ألف خطر لنا ما سبب سكنى هذا الإمام الأعظم، و الشيخ المكرم، فى هذه البلدة البعيدة عن المدن و الحواضر فنطق أخونا فى الله سيدى عبد الله بن غلبون كأنه مطلع على ما فى ضمائرنا و الله عليم بذات الصدور فقال سئل الشيخ رضى الله عنه عن سكناه بهذه البلدة فقال أما ما ذكرت من استيطاننا فى هذه البلدة فأمر خارج عن قياس النظر غير مصحوب بالحزم و لا معقود لشيء نعلمه بل اتفاقى ظهر وجوده فلزم موجوده إلى ما يقتضيه الحق.

و ما أنا بالباغى بسلمى بديلة بليلى و لكن للضرورة أحكام

قلت و لعل فائدة استيطانه هذه البلدة و الله اعلم استيناس الأركاب بزيارته و استمدادهم من معونته و تقويتهم على ما هم بصده بمطالعة حضرته.

و قد شاع عند الحجاج أن من مر بقبره و أودع عنده نفسه و ماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع و يفعلون ذلك إذا مروا به فى البر أو حاذوه فى البحر فيجدون بركته و لا بدع فى ذلك و لا غرابه فإن الله تعالى حفيظ لا يضيع و دائع و الأولياء أبواب الله فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبوابه كيف لا يحفظه فيه و الله خير حفظاً و هو أرحم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٤٥

الراحمين.

و اطلعنا أصحابنا هنالك على نسخة من شرحه على الرسالة بخط يده الكريمة و على وصيته على أولاده لما حضرته الوفاة نفعنا الله به آمين.

فائدة قال أبو سالم فى رحلته وجدت ورقة فيها زمام تركه الشيخ وعدة أولاده و نساءه و من خلفه من بعده و عدد متخلفه من كتبه و أمتعته و لنقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد منها استفادة عدد أولاده و أين استوطنوا بعده فأنى لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه و منها التأسى به فى قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد و نساء فى بلد يشق فيه العيش و لا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لانتشار صيته و خدمة الدنيا و أهلها له و مع ذلك لم يخلف منها إلا ما ستراه.

و نصه بعد الافتتاح بعد أن توفى إلى عفو الله الشيخ الفقيه العالم العلامة الصالح العارف المحقق القدوة المتبرك به أبو الفضل أحمد بن الشيخ المقدس المرحوم أبى العباس بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى الشهير بزروق غفر الله له و لوالديه انحصر أثره فى زوجته أمه الله الجليل ابنة أحمد المكرم أبى العباس أحمد بن الفقيه العدل أبى زكرياء الغليانى المسراتى و أولاده منهما أحمد أبى الفضل و أحمد أبى الفتح و عائشة و زوجته فاطمة ابنة أبى عبد الله محمد الزلاعية الفاسية و ولده منها الفقيه الشاب الطالب الأسعد أبى العباس أحمد الأصغر و ابنه الشيخ الفقيه القدوة المدرس أبى العباس أحمد الأكبر لا غيرهم فى علم شهوده.

ثم توفى أحمد أبو الفتح المذكور و انحصر أثره فى والدته أمه الجليل و شقيقه أبى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٤٦

الفل و عائشة المذكورين و أخيه لأمه أحمد بن الشيخ الفقيه الأجل الأسعد الصالح أبى على منصور ابن أحمد بن محمد البجائى لا غيرهم فى علم شهوده.

ثم توفيت عائشة المذكورة و انحصر أثرها فى أمها أمه الجليل المذكورة و شقيقها أبى الفضل و أخيها لأمها أحمد بن الشيخ منصور المذكور ثم توفى أبو الفضل المذكور و انحصر أثره فى والدته أمه الجليل و أخيه لأمه أحمد بن الشيخ منصور المذكورين و أخويه لأبيه أحمد الأكبر و أحمد الأصغر المذكورين لا غيرهم فى علم شهوده و كان من مخلف الشيخ أحمد المذكور نصف الفرس الشهباء كبيرة السن شركة بينه و بين الحاج عبد الله ابن عازة التكريانى المسراتى بالنصف الثانى مع برنس أبيض و جبة صوف بزّر مختم مع ثوب بالغزل و سبعة فقل كان أخذها الشيخ أحمد المذكور من الشيخ سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى اليمنى نفعنا الله به آمين مع أربعة عشر سفراً و كناس فمّن الكتب فى الفقه من مختصر ابن عرفه رحمه الله و أسفار فى الكبير مع حاشية الوانوغى و المشد إلى على المدونة مع سفر فيه مختصر الشيخ خليل و الشامل للشيخ بهرام رحمهما الله مع شرح ابن عسكر فى الفقه للشيخ أحمد المذكور ألفه و من غير الفقه الديباج المذهب فى التعريف برجال المذهب لابن فرحون رحمه الله و معه تأليف للشيخ أحمد المذكور القواعد فى علم التصوف و معه شىء من علم الطب مع سفر فيه قواعد الوانشريسى و المذكور شىء من علم الطب مع سفر فيه الزركشى و السبكى فى أصول الفقه و بلوغ المرام لابن حجر و البلاغى اختصار الأحياء مع سفر فيه شرح التفتازانى فى أصول

الدين و الحكم لابن عطاء الله و المنهل الروى فى علم الحديث و غيره مع سفر من ملتم الحديث بخط الشيخ أحمد المذكور و تأليف الشيخ سيدى عبد الرحمان الثعالبي مع إجازة له و شىء من ابن حجر فى علم اللغة رحمهم الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤٧

الله و سفر فيه تفسير القرآن و كناشه محتو على و طائفه و غير ذلك.

و قد كان استوطن الشيخ أحمد الأكبر بعد موت أبيه ببلاد المغرب و استقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة حرسها الله و أرسل مراسيل للإتيان بالمخلف المذكور بخط يده و ثبت منها بالعدالة حسبما بيانه كما أذن بأن يوجه له ذلك مع من أمكن و كان جميع ذلك تحت يد الشيخ منصور المذكور و امتنع من ذلك لعدم الأمن و الأمين حتى وصل الفقيه الطالب أبو العباس أحمد الأصغر المذكور فى عام تاريخه لمدينة طرابلس حرسها الله تعالى و لم يأت بموجب يقتضى له قبض ذلك لأخيه فتوقف أصحاب الشيخ المذكور فطلب الشاب أحمد المذكور ان يعطى ذلك فى زمامه يطلب نصيبه و نصيب والدته فاطمة المذكورة لكونه وراثها و نصيب أخيه أحمد الأكبر المذكور فوافقوه على ذلك بعد ثبوت الأذن المذكور بان يعطى ذلك لأخى حضر إلى شهيديه الفقيه أحمد المذكور الأصغر نائباً عن نفسه و عن أحمد الأكبر و أشهد أنه قبض جميع المخلف المذكور عدا نصف الفرس فانه قبض ثمن ذلك و هو ثمانية دنانير ذهباً منجزة من الشيخ منصور المذكور قبضاً تاماً و أبراه بتاريخ أوائل ذى الحجة الحرام متم عام ثلاثه عشر و تسعمائة انتهى و صلى الله على سيدنا محمد و على آله نقلت الرسم المذكور بحروفه من غير زيادة و لا نقصان مع وجود بعض التصحيف به و لم أغير شيئاً بل تركته كما وجدته و لم أكتب من الرسم الأصلي بل من رسم نقل منه و الله أعلم انتهى.

لطيفة أقول فى مدحه و الاستغائة به لتزول عنا حجب الغفلة و كدرات النفس و غطاء البشريات و لعلى أرقى إلى مراتب التجليات و أشرب من عين اليقين و أتحلى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤٨

بحلية المعارف و لذلك قلت و على الله اعتمدت :

ألا أيها القطب الهمام تعلقت مجامع قلبى بالسعيد المنور
شغفت بحبه لأنه مذبدا يقوم بأوراد و يسعى باجدر
فقد دنفت نفسى بأوصاف ما به تحلى أماننا من كل مصور
من الذى أبدع الإله فى رسمه من أحسن زينه و أحلى تذكر
فطبعه قد أسبى من الناس أفكارا و لفظه قد أعمى بصائر بالسحر
و لكنه سحر من الحق قد أتى ليجذب أقواما تأيدوا بالنصر
على عدو لسنا نراه تحققا و إنما يختفى ليقطع بالفكر
فصده قد بدا عن كل كريمة و لعنته حق من الله للغدر
فمكره بين لكل من الملاو غايته العصيان منهم إلى الكفر
و نفسنا قد جرت علينا بوصفها و أخدمت أنوار لبعدها عن ذكر
فصححت فى نجوى الضلال نايئة عن الحق و التحقيق بل هى بالنكر
فاودعت سموما فليس لنا تخفى فقد مزجت بكل حلو مع الضر
و فى كل رتبة تلوح بفكرها و أنها تثبط العباد عن الظفر
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٤٩ فكيدها قوى و ليس له دواء إلا عصمة من الله لى بالنصر
و دنياك عدو لترمى بحبلها بسجن من الهوى و قيد من الكبر

فكل خطيئة بجبها يا فتى و أنها تضليل و صد عن البر
و أنها لعنة من الحق بالقلافمن حيث أنها تصد عن الشكر
فيشكر ذو نعمى بخدمه ربها و صرف من أجلها ليلحق بالظفر
و إلا فكفران من المولى ظاهر و ليس لها قيد يحدها بالجبر
و أكبر أعداء من الناس يا هذا عداوة حساد مليمة بالضر
فإنه لن يرضى من الله بشىء سوا نعمه تزول بالكشط بالظفر
عداوة إنسان تصد عن الهدى و ليس لها دوا إلا الطب بالصبر
فهذه أعداء لإنسان قد رمى بسهم من النوى و قطع عن الذكر
فصرت أسيرا للشقاوة و الهوى فمنعت أثوابا من التقى بالضجر
و لست أمورا من العلى بالدعوى و زعم ليس له من الحق ما يبرى
و لا شك أنه من الداء معضل و يمنع أذواقا من الله للسر
و يحجب أرواحا عن كل رائقه و يسرى إلى العمى عن الحق فى السير
فليس له فتح ما دام بزعمه و ليس له نور ما دام بذو السكر
و لا أنت تعتبر حلاوة كلمة فإنها عند الله أدهى من الصبر
فمدع كذبا من الله لا يرى فى دهره أحوالا تحق من النور
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٥٠ و إن كان واقعا بمكر نزل به و حسبه من أفك و علة فى الصدر
و مكر به أجل و وصمة بالهوى فأقوى فى قطعه من القطع للظهر
فدعوة كاذب تسد لأبواب من الفتح من الله و قته بالعسر
فأوقاته مقت و قطع لوصله و نوره ظلمة و صفوه بالكدر
و وصفه عجب و سمعة و ربا و كبر و بغض ثم حقد مع المكر
و بخل و جبن ثم أقباح خلق و سوء بظن فى العموم من الغير
و شك فى رزقه و ما به قد قضى من السعد و الشقا و قدر من العمر
و ضدها أمال و طول فى حظه يعلل بسوف طول عمر من الدهر
فطبه تفويض لما به قد قضى و حقه تسليم لربه بالقدر
سعادة لامرئ و ضدها يا أخى عند اختتام الأعمال بالموت بالقهر
و كلها علل و أسقام للفتى و قاتلها سم و أسرع من سقر
و كلها آفة و نقمة أبدأتافى رضى المولى و توديك فى القبر
وزد لها أمراضا من الدنيا تعتبر أمورا و علة مع الذل و الفقر
و هتك لأعراض من الناس مع أذى لنفس و مال فهو أبلغ للضر
و نقض لحق يستحقه ذو العلابعلم و قدر لا يعاين بالنكر
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٥١ و موته أحلى من حياته فى الورى لرافع مثله يعامل للخير
و عامله رفع و ليس بخافض فجره عصره بلا عامل الجبر
فحزنه دائم و علته بدت فصبر جميل حتى يرفع بالنصر

فعله كسره بلا سبب ترى وتكن لالتقاء الساكنين بالضر
فهذه ثلمة و ليس يسدها إلا عالم قد فاز فى الكون بالظفر
فانه ترياق لكل من البلاو طبه نبوى فيبرى من الضر
فلا غرو أن نزلت ثم برحه يكون لكك طبا لأمراس فى السر
و يمنحك عزا فى ذلك بالهوان و بيدلكم يسرا فى أزمته العسر
و يغنى أقواما بفتح من المولى و يكسى عريانا بأجمل من ستر
و يظهر خاملا بأعظم سطوة و يجبر مكسورا فى وقت من الدهر
و يرفع مخفوضا و يروى من السماو أمواج نفعه أجل من البحر
فأنوار بحره تحق بأهلهاو أسرار علمه تعد من النهر
فأنواره تبدو فى كل من الفنون و أضواء شمسه تعالت عن البدر
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٥٢ فهو أبو السراج فى سماء العلاو ليس معه نجم يلوح إلى قطر
فإنه ضيغم لكل من العدا فمن رآه حقا فيخضع بالصدر
قمين بعلمه و ليس بعارض يعارض أصله و فرعه بالنكر
و قد أطبق كل بصحة نقله فليس له نقض لما صح من خبر
فوده قد بدا يعظم فى الورى يوده سيد مع اسمه فى الذكر
فانه بقدر يبين فى الملا و ليست عبارة توفى بذى الفخر
فكل طنين المدح أعلى و أكملن فى علم عالم الكال فى السر و الجهر
فانه نيراس من الله فى الورى و يزداد شوقنا لعلمه بالذكر
و مذرمى وصله إلى الهدى طائفهوه دليل ليس ينقض بالغير
و كم من ضعيف قد أذاق بحبه و قلبه عرش للتجلى من السر
فكل من انتمى إليه فيرتقى و يسعى لحضرة مؤندا بالنور
فيشهد أمور تغيب عن الفتى فى أيام غفلة و ذلك بالفقر
و يشرب من عين اليقين بعلمه و سطوة حبه مع الجد بالفكر
فيسكر من ذوق الحقيقة معلنا و يفهم أسرارا فى حاله بالسكر
و يدعى بين الورى عزيزا مكرما بالحاظ شيخنا المعظم فى القدر
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٥٣ و يجلى أنوار من العلم فى العلاو يحظى بأسرار تعز عن النشر
فيسرى بروحه إلى سماء السنا فما ينطق إذا عن الهوى بالضر
فليس لنا سعد إلا الليث فى الورى و ليس بنا جاه إلا سيد النصر
و قد شنف سمعى لذكره فى الملاو أضنانى حبه فى جسمى مع الصدر
و حركنى ذكر الأغانى لحضرة يجول فيها المسكين من غير ما زجر
و رؤية علمه تذوق أرواحناو تذكر بالعهد القديم من الظفر
و ذلك فى يوم الست بربكم و لم تنكر أبدا لعقدها المنتشر
فانه إنسان من الجسم فى الهوى فلا حجب تبدو من القفص بالسر

فانه استار من الجسم مع هوى و ان هوان المرء من ذلك بالستر
إلا أيها الإنسان فاسأل بجاهه و بالذى قد علاه فى كل مضمرة
و عزه فى الورى بكل ما قد ترى و عظمه المولى بكل مسير
و قد أسمع صم القلوب بذكره و أبصر أعينا بحكم المنور
و أنطق أفواها بذكر حبيبنافما هو فى السنا بأحسن مفخر
و حرك أرجلا لا زخر روضه و فيهن أعظم الخليفة فى القدر
على أنه حى يمتع بالرؤيا و يطعم بطعم الجنان مع الفكر
و كل موجه لقبره يا فتى يراه بعينه عيانا بلا خدر
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٥٤ فحق لنا بالشكر من حيث أننا وفقنا بروضة الخليل بذا البحر
و فضله فى الورى يعمنا كلنا و يحيى أموات القلوب من الذكر
طريقته تعلق على كل رتبة و أنوار سره تعد من الجهر
و ها أنا عبدكم قريع لبابكم ليحظى بعزكم و يصحو من السكر
و قد اسكرتنى المعاصى من الشقاو خلفنى ذنبى عن الفوز بالظفر
و أنى ذو لؤم سفيه بين الورى و أنى محجوب فى صرف من العمر
عساكم ترحموا عبيدكم قد أساتجوله منكم لضعفه كالسفر
و أنى خديكم بما عله يكن محر ككم للجبر منا من الكسر
و لحظكم عز و منحكم رفعة وجودكم جمع فيغنى من الفقر
و لست أعنى به إلا الذى قد علاو هو الذى يدعى بالزروق فى النثر
و قد سألت رضى الكريم بجاهه و توفيقى للهدى و حظا من النصر
و سترنا من المولى مع الجد فى العمل و رزقنا موسعا مقارنا بالستر
و سعدنا من المولى فى كل مهمة و مغفرة لنا مع البرء فى الصدر
و خاتمة حسنى و أزكى عافية و طفا جميلا فى احترام و فى القبر
و كونه فى الدنيا يناسب حالنا و يرفع قدرنا عن كل محذر
و هب لنا ربنا بعلم مع التقى لكل نجل لنا و طالب مضطر
و يا ربنا احفظنا من كل بلية من الدين و الدنيا و خلق من الشر
الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٥٥ و يا ربنا سلم و صل على الذى برحمته أهدى الخليفة بالأمر
وصل على آل و صحبه أجمعا فى مدة مرور الجديدين فى الدهر

أقول مدحت الشيخ زروق بهذه القصيدة و لعل الله أن يكسونى بكسوة المعارف و أن يحلينى بما حلى به أولياءه المقربين و يديقنى
ذوق العارفين بالله تعالى و أن تكون لنا حجابا و براءة من نار الافتراق و نار الاحتراق و ان يورثنا بها سعادة الدارين و لكل من تعلق بنا
مع النظر إلى وجه الكريم آمين يا رب العالمين.

لطيفة فائدة استقرار الشيخ فى هذه البلدة و هى بلدة مسراته إذ هى ليست من الأمصار و مع ذلك أن الأكابر يختارون سكنى الأمصار
للتذكر و الاعتبار قلت و فى المدن من الخيرات الدنيوية و الأخروية ما لا يحصى فإنها محل العلم و أهله و أنها أيضا مواطن الزيارة لما
فيها من قبور الصالحين و المؤلفين لا سيما أفريقية و مصر و بغداد و دمشق و البصرة و الكوفة و غيرها من مدن المشرق و كذا مراکش

في المغرب وفاس و أرض الجدار تسلمان لأن فيها أبا مدين الغوث و الشيخ السنوسي و الإمام ابن زكري و الإمام ابن مرزوق و العقبايين و غيرهم و كذا بجاية لأنها من أعظم المدن و فيها أبو زكرياء يحيى الزواوي و الشيخ عبد الحق الأشبيلي صاحب العاقبة و أبو حامد الصغير صاحب التذكرة و هو أبو علي المسيلي و الشيخ عبد الحق بن أبي ربيعة و الشيخ الوغليسي و الشيخ الصباغ و الشيخ الفملي و غيرهم و هؤلاء كلهم مؤلفون إلا القليل و إن الدعاء مقبول عندهم و قد زرنا جميعهم و الحمد لله.

و بجاية كانت من المدن المعتبرة و إن الإسكندرية كانت من عمالتها و كذا المغرب و ان عساكرها قد أحرقوا باب فاس و إلى الآن يسمى باب المحروق و قد أفردها

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٥٦

بعض بالتأليف و من أراد العجب العجاب فليطالع نبذة المحتاجة في ملوك صنهاجة.

انعطاف إلى ما كنا بصددده فلما استقررنا بوطن مسراته و أقمنا فيه يومين انتظارا لبعض الحجاج من الأشراف أعنى صهر أختنا في الله سيدى محمد الشريف النوفلى المذكور البلغيثي و الحاج أحمد السعداوي و أن أهل مسراته أقبلوا علينا بالزيارة و الكبير و الصغير لقوة اعتقادهم فينا أصلح الله حال الجميع و زرق لهم الخصب و الرخاء بمنه العليم السميع و قد كثر فيهم محب الخير و من فيه سيمه الصلاح و من كل صنف منهم من الطلبة و الفقراء و العامة و أولاد الأتراك.

حاصله بلدة طيبة و رب غفور و قد ظهر عليهم جاه الشيخ زروق إذا عنايته ظاهرة على من زاره و عبر عنه فضلا عن جيرانه و قد شهدنا بركته معنا و انه من الذين يتصرفون بالخير لدينا و ما مررنا عليه إلى الحج و أصابنا شيء إلا فرج في الحين وق وقعت في أيدي الحرامية أي المحاربين من العرب و تمكنوا من هلاكى فنجانى الله منهم بجاهه و جاه أمثاله إذ محبتى فيه قوية و مددى منه عظيم و قد وجدته من نفسى و قد قلت في بعض الأسفار فيه.

فيالها من بشره تفوق لكوننا استودعنا الزروق

و من العلامات الظاهرة و الكرامات الباهرة أن أهل وطنه أقبلوا علينا و ظهرت محبتهم لدينا و أنهم أكرمونا غاية الإكرام بالأرزاق الحسية و المعنوية و المعبر الثاني قل بفضل الله برحمته فبذلك فليفرحوا و هو خير لهم مما يجمعون هذا و أن أرض الشيخ منورة به يشهد ذلك من له ذوق سليم و طبع مستقيم.

ثم ظعنا منه أواخر شعبان عام التاريخ و هو عام تسعة و سبعين و مائة و ألف

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٥٧

(١١٧٩) و ودعنا من فيها من الأحباب من صلاة الصبح إلى قرب الضحى فمنهم من رجع بالتوديع و منهم من سار معنا مدة لغلبة سلطان المحبة في قلبه و هذا كله بعد أن ودع أصحابنا قضا حوائجهم التى اشتغلوا عليها و كذا الإجمال الضعيفة عند أحبائنا في الله تعالى من مسراته و أن أهل الركب أيضا رفعوا الماء من سيدى أحمد زروق إلى معطن الزعفران خمسة أيام و لا ماء في هذه المدة إلا ما لا يصلح للشرب لمرارته و ملوحته.

ثم مررنا صبيحة ذلك اليوم بالشيخ الولي أبى شعيبة في جماعة من الفضلاء و شيخ الركب وصلينا الضحى عنده و قبره على شاطئ البحر و قد ذكر شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر أنه اجتمع مع الأفاضل في وطن الشيخ زروق و سماهم.

تتمه و قد ذكر شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر أيضا ما نصه خذوا ماء خمسة أيام إلى مورد الزعفران إذ ليس بينكم و بينه من الماء إلا ماء العريعر على نصف ميل وق ما يمر به الركب و بالقرب منه ماء يسمى بالسامرة و هو قليل آجن و بعده بيوم و نصف ماء الهائشة و هو أفتح ماء لا يشربه إلا من اضطر إليه و بعه بيوم بئر حسان و قل أن يوجد فيها ماء و من هنا يستقبل الحاج مسافة برقة العريضة الطول و العرض و لا ترى العمارة من قصر أحمد إلى الإسكندرية إلا أن يلقى الناس أحياء من العرب إلى أن قال و بإزاء روضة أبى شعيبة المذكور مزارة في مغارة بساحل البحر يتعبد بها الصالحون لا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها لأنها صغيرة

مستقبله البحر يغلب على الجالس بها الحضور إذ لا يرى إلا البحر ولا يسمع إلا تسيحه و تحميده لربه و إن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسيحهم لغفلتكم عنه و من امتزج

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٥٨

تعظيم الحق و تسيحه بلحمه و دمه و أنس بذلك سمع تسيح كل شيء أما بحاله أو بمقاله و فى الفتوحات المكية للإمام الأكبر و العقلاء من الأنس أصحاب الأفكار من أهل النظر و الأدلة المقصورة على الحواس و الضرورات و البديهيات يقولون لا بد أن يكون المكلف عاقلاً بحيث يفهم ما يخاطب به و قد صدقوا و كذلك الأمر عندنا العالم كله عاقل حتى ناطق من جهه الكشف بخرق العادة التى هم الناس عليها أعنى حصول العلم بهذا عندنا غير أنهم قالوا هذا جماد لا يعقل و وقفوا عند ما أعطاهم بصرهم و الأمر عندنا بخلاف ذلك فإذا جاء عن نبي أن حجراً كلمه و كتف شاة و جذع نخلة و بهيمة يقولون خلق الله فيه الحياة و العلم فى ذلك الوقت و الأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة فى جميع العالم و ان كل من يسمع المؤذن من و رطب و يابس يشهد له و لا يشهد إلا من علم هذا عن كشف عندنا لا عن استنباط من فكر بما يقتضيه من ظاهر خير و لا غير ذلك و من أراد أن يقف عليه فليزِم طريقة الرجال و ليزِم الخلوة و الذكر فإن الله سيطلع على ذلك كله عينا فيعلم أن الناس فى عمياء عن إدراك هذه الحقائق انتهى كلامه.

قال الشعرانى فى لوائح الأنوار القدسية المتفاهة من الفتوحات المكية بعد ما تقدم و قد وقع لى ذلك سنة تسع و عشرين و تسعمائة فسمعت تسيح الجمادات و الحيوانات كلها فى سائر أقطار الأرض و ذلك فى صلاة المغرب و استمر ذلك إلى آخر الليل حتى خفت على عقلى و سألت الله الحجاب عن سماع ذلك فحجبه عنى رحمه بى و أبقى على علم ذلك و كان من جملة ما سمعت من تسيح الحيوانات فى البحر المحيط سبحانه الله خالق الأرزاق و الأقوات و النباتات و الحيوانات انتهى كلامه.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٥٩

قال الشيخ أبو سالم وق أخبرنى سيدى أبو تركية مفتتح هذه المغارة رجل من العباد اسمه سيدى فرج و هو الآن بالجزائر و كانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها انتهى.

قلت إلى أن قال و إنما زرنا أبا شعيفة على تل مرتفع على ساحل البحر ثم استقبلنا المغارة و توسلنا إلى الله تعالى بمن يأوى إليها من العباد و الزهاد و اعتمدنا على تلك الأقطاب و الأبدال انتهى.

قلت و لما زرنا أبا شعيفة و من معه رأينا سفينة مرساة بالبحر ذهب محبنا فى الله سيدى محمد بن قسوم من أصحاب المخزن غرير أنه يحب الخير و أهله و كان محبنا و ينتسب إلينا و هو رجل ذار متمسك بأهل السنة و قد حج بعياله و أولاده جميعاً ذهب إلى تلك السفينة فلما رجع إلينا و لحق بنا فى الطريق طفق يخبرنا على ما شاهدته من أمر المغارة إذ تعجب من أمرها و ما شاهد من تجليات الحق فيها كأنه أصابته هيبه و جلال حين رآها كاد أن لا يملك نفسه و نحن لا نعرفها و لذا استخفنا بأمرها و إلا لبحثنا عنها عند الرجوع نعم من عادتي إذا دخلت وطناً أو زرت مقبرة أو صالحاً نويت من كان فى ذلك الوطن من الصالحين و أهل الخير جميعاً سواء كان حياً أو ميتاً ظاهراً أو خفياً ذكراً أو أنثى من أول عمارة ذلك المحل إلى أن يرث الله الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

و قد كان سيدى أحمد بن ناصر حين رجع مع أصحابه ذهبوا إلى تلك المغارة فلم يجدوها لعدم من يخبرهم بها و من أهل البلد فيزوروا و الشيخ من بعد هذا و أنا ركبنا من الشيخ أبى شعيفة و ذهبنا على ساحل البحر مع فضلاء الركب و الحمد لله

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٦٠

من حين خرجنا من بلدنا إلا و صلاة الجماعة لم تفتنا فى كل الأوقات ليلاً و نهاراً تقبل الله من جميعنا ذلك بمنه و كرمه آمين. و نزلنا أبا كدية قبالة تورغا و هى بلدة عظيمة كثيرة النخل جدا و تمره أحسن من تمرها وطن طرابلس كلها و فى هذا الموضع ماء قبيح لا يشرب و أن أبا كدية هذا معلوم خبث مائه و تورغا هذه بلدة عظيمة كثيرة النخل.

قال سيدى أحمد بن ناصر ما نصه تورغا و هى بلدة منقطع أول برقة و فيها نخيل كثير و تمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل و

أجود منه و إن كان على وصفه من عدم اذخاره إلا يازاله النوى و طيبه و الله اعلم لبعده شيئا ما عن البحر و رطوبته و دخوله قليلا إلى الصحراء حيث تكاد اليبوسة تستولى على أبدان الحيوانات فضلا عن النبات قاله الشيخ أبو سالم فى رحلته.

و ماء هذه البلدة غزير فى وسط السبخة و هم ساكنون فى الأخصاص و لا يبنون بالطين إلا مواضع الخزين يبنونها بالطين و الأحجار يحفرون عليها فيستخرجونها بنحت الأرض و هى أحجار سود و بناؤهم لا يكاد ينهدم و هى واسعة جدا لا يقدر الإنسان أن يحيط بها فى يوم واحد و عينهم غزيرة تسع ألف ساقية فيما ذكروا و لا يحرثون حرثا و لا يغرسون غرسا إلا النخل فقط و خراجهم للأتراك كل عام ثلاثمائة و صيف و خمسة آلاف ريال و هذا العدد الأخير أحد ثوبه و لم يكن قبل عليهم و هى إلى الخراب أقرب للعداوة المغرأة بينهم لا تخلو من فتنه وقت الخريف مع تداول الأتراك و الأعراب عليهم انتهى إلى أن قال قال سيدى العياشى و هى سبخة مستطيلة و على جوانبها بناء و قصور خالية و فيها نخل متفرق و كأنه رءوس الشياطين لا ترى

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ٢٦١

أوحش منه و لا- أنقل طلعة على الحاج فى ذهابه لا سيما المعاود لما يستشعر بعده من المهامة و المفاوز و المعاطش التى يحار فيها الدليل كما لا- آنس منه و لا- أبهى منه فى منظر الأتراك أى الراجع من الحج لدلالته على انقضاء المفازة و قرب العمارة و نخيله آخر نخيل يراه الذهاب و أول ما يراه الحاج قال و بآخر الهائشة واد من الملح يعجى الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحا و لا الملح يذوب ماء و أظن ذلك لقوة ملوحة الماء و نداوة الملح انتهى كلامه.

أقول و طعنا من أبى كدية و مررنا على العينات و ماؤها كثير و مع كثرته متفرق غير أن فيه ملوحة إذا لا تستطيع الدواب شربه إلا واحدا أو اثنين من أطرافها من جهة تورغا فماؤه طيب إذ أهل البلد أخبرونا به و أيضا سيدى محمد الشريف صاحبنا يرصده فسقينا منه الدواب و كذا رفع منه من خصه الماء للزاد و ما أحسنا بحر الشمس إلا فى هذه السبخة المذكورة إذ سافرنا بها زمان الشتاء و ان الإبل أيضا قد بقى منها كثير لأنها عطبت من حمل الأتقال العظيمة من مدينة بسكرة إلى طرابلس و إنما خفف الكرب من الأحمال ببعثها فى السفينة إلى الإسكندرية ثم إلى مصر غير أنها أضناها ذلك الثقل أيضا و أنها جاءت أيضا فى إقامة الركب فى طرابلس لقله عيشها و بعد ذلك و بعد تلك المرحلة و المرحتين بقى جمل للأخ فى الله الفاضل الفقيه سيدى محمد نجل الفقيه الشيخ سيدى أحمد بن المبارك و تركه فى الطريق إلى المبيت فلما أخبرنى بذلك أخبرت سيدى محمد الشريف فبعثنا إليه رجلا بدويا من عرب ذلك الوطن أعطيناه له بالنصف فلما رجعنا استخبرنا عنه قالوا أتى به و أعطاه إلى بعض أحببنا من مسراته ثم إن المكرم محب الصالحين آغه أعطى ناقة للفاضل الفقيه أخيه سيدى عبد الكريم لوجهنا رغبة فى دعاء الخير منا و هو يتولى ذلك الجهل

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ٢٦٢

وفقه الله و ستره و جعل البركة فى أولاده بفضلته و رحمته.

و بعد السبخة بئر حسان أقول فيه ما قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر بئر حسان بئر منقور فى حجر تجتمع فيه مياه المطر فإذا فرغ المجتمع فيه بقى محله يرشح بماء قليل يجم فى قعره يبل به الظمان فمه و يازاء هذا الماغل قرى خالية لم يبق إلا رسومها تسمى فيها مضى قرى حسان إضافة إلى بانيتها و كان عاملا لبنى أمية لما نقض أهل أفريقية العهد فى آخر خلافة بنى مروان بنى هنالك قصورا و أقام فيها نحو من ثلاثين سنين حتى افتتحها بعد ذلك حسبما ذكر من أرخ فتوح أفريقية و سمي المكان باسمه إلى الآن و قد تقدمت إشارة إلى شىء من ذلك أقول و يازاء هذه الطريق بئر مطراو و قد اسقينا خيلنا منه فى الرجعة أنا و سيدى محمد الشريف و صهره الشريف من مسراته و سيدى أحمد بن حمود و غيرهم و ماؤه طيب غير انه واحد و مع وحدته لا يكفى الركب و ليس لقله مائه و إنما هو لكثرة الازدحام و التشاجر.

و بعد ذلك نزلنا الزعفران فوجدنا فيه الخصب العظيم ما رأيناه قط و أنوار النبات تغشى الناظر فلما نزلنا به و رأينا ذلك اطمأنت قلوب الحجاج لأن رؤية الخضرة و البحر و الوجه الحسن تزيل الهم و الغم و الأحزان و ماؤه أطيب المياه و أحسنها و هو أبيض كاللبن لكونه

في رمل صاف ما علمت ماء في برقة كهو في جملة أبارها.

و ظعننا منه فلما وصلنا وقت الضحى مررنا على معطن الأحمر و وجدنا فيه عربا كثيرا و هم عرب عبد الهادي و سيف النصر و هم عرفاؤهم و شيوخهم و هما قد

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٤٣

اصطلحا بعد العداوة البيئة و طلبوا منها النزول للتسوق فامتنع الحجاج استعجالا و في ذلك الموضع تلاقينا مع الركب الفاسي و الفيلاي مغربين و وقفنا مع أميرهما ساعة زمانية استخبارا عن مصر و أرض الحجاز و أنهم طلبوا منا النزول و المبيت جميعا لقضاء كل ما أراد غير أن ركبنا لما رأى العرب نازلين هابوا منهم و جدوا في السير حتى فاتوا و لم يمكننا النزول فلما مكثنا معهم حيناً افترق الكل على أسعد حال و أتمه و بقي سيدي محمد الشريف و أصحابه يطلب شراء الإبل إذ جماله ضعيفة فتأخر من غير علم منا ثم بعد قضاء حاجته جاء وراءنا و لم يلحق بنا إلا بعد النزول.

هذا و إن شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر قال و في قرب الزعفران رأينا سانية غزيرة الماء إلا أن ماءها ليس بذلك فسقى الناس إبلهم و دوابهم و ملثوا أسقيتهم و هي أول عمالة سرت و اكتفى الناس بما ملثوا منها عن ماء الزعفران لضيق الوقت و حيدودته عن الطريق لناحية البحر و هي أحساء في ساحل البحر ماؤها طيب و عليها كثبان من رمل أحمر تظهر من بعيد من وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت تخزن فيها الأعراب ميرتها أي أرزاقها و هي الآن خالية لا عمارة بها.

و بلاد سرت هذه من أخصب البلاد و أمراها أي أكثر أرزاقها ذات مزارع كثيرة بالبعل أي بلا سقى و إنما تسقى بالمطر و عربها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم من بلادهم و شتت شملهم و لا يكاد أمرهم ينتظم و لهم جدار و عقار كثيرة بساحل أحمد ثم قصير الذبان بعد المغرب انتهى.

ثم ظعنا و نزلنا النعيم و ماؤها حلو طيب أحلى ما يذاق و أرضه طيبة غير أن الظلم أخلى هذه المواطن لقوله صلى الله عليه و سلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٤٤

كالظلم و لقوله عز و جل: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْبَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا الْآيَةَ.

و بعد النعيم مفازة عظيمة يعسر أمرها على الحجاج لا سيما زمان الحرف إن الشوب قل من يسلم منه الناس إذ مقطع الكبريت صراط الدنيا لقله مائة مرارته على تقدير وجوده و الماشى فيها يستوحش من تغير لون السماء أكثر من أغبرار الأرض و مع هذا فهو أخفض المفازات و أبعداها من تغير الهواء و إنما ينجو منها الإنسان بفضل الله و كثرة التزود من ماء النعيم إلى معطن المنعم نعم سر الله مع وفده و إلا فبضاعة الإنسان لا تستطيع المفاوز و المعاطب و الله يقول: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ وَ لَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ مَا سَلَماً فِي مِثْلِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمَارِينَ بِهَا فَإِنَّ الْمَاشِيَ بِهَا كَانَ الشَّمْسُ نَازِلَةً إِلَيْهِ وَ مَتَوَجَّهَةً لَدَيْهِ فَلَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ يَعْبُرُ عَمَّا أَدْرَكَهُ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا يَعْرِفُ مِقْدَارَ مَا يَصِيبُهُ إِلَّا مَنْ ذَاقَ مِنْ ذَلِكَ وَ شَارَكَهُ فِي ذَلِكَ السَّبَبِ الْخَاصِّ.

و لذا قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه و تسمى هذه المسافة مقطع الكبريت تغليبا و إلا فالمسمى بذلك موضع واحد في هذه المسافة مياه كثيرة إلا أنها تقل في بعض الأحيان و بعضه أجاج فيحتاط الناس بأخذ الماء الطيب و هي مفازة قبيحة تهب فيها السموم إلى أن قال و نزلنا غربي اليهودية ثم قال قال أبو سالم في رحلته و في الرسالة القشيرية عن بعض الفقهاء انه قال دخلت مدينة اليهودية بأرض المغرب و ساق الحكاية إلى آخرها و لعل تلك المدينة هي هذه إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينة تسمى اليهودية و الله اعلم بحقيقة ذلك قلت و أنى قد وقفت ببعض

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٤٥

مواقع قرب تونس قبر الشيخ البركة الولي الصالح و البدر الواضح سيدي حسن السجومي نفعنا الله به و أفاض علينا من بركاته من

أصحاب القطب الرباني و الغوث الصمداني أبي الحسن الشاذلي من الأربعين يسمى اليهودية حسبما اشتهر ذلك في أول الزمان إلى الآن و يحتمل ما ذكر في الرسالة هذين الموضوعين إذ كلاهما من أفريقية غير أن سيدي أحمد بن ناصر لا يعلم هذا الموضوع. ثم قال و ماؤها لا فرق بينه و بين ماء البحر ثم قال الشيخ بن ناصر قلت و برقة مسافة شهرين من الإسكندرية إلى أفريقية و كانت متصله العمارة لا تكاد تسير فيها بريدا ليس فيه أثر بناء و رسوم عمارة دائره و قد جاء الإسلام و غالبا عامر ثم لم تزل عمارتها تضعف من موج الرعيه و ظلم بعضهم بعضا إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعه و أوائل الخماسه فخرّبوا البلاد و استولوا على القرى فأفسدوها و خلت البلاد من يومئذ و البقاء لله الواحد القهار و بعد اليهودية الكحيله و ماؤها ذو حمأة لا يكاد يشرب و في قربها الحدادية و هي بئر مستطيله و ماؤها ذو حمأة أيضا و هذه السوانى كلها باقية إلى الآن و قد سقينا دوابنا من الجميع حال رجوعنا و أما الطلعه فقد كثر ماء السماء فاستغينا به عن جميع الآبار إذ هذه المياه لا تصلح إلا للمضطر إذ ماؤها مر و مع ذلك فيه بعض الملوحة لكن يختلف ذوقه و قد يتقوى ذلك بحسب كثرة الأمطار و قلتها.

ثم بعد ذلك مررنا على سبخه مقطع الكبريت و في أعلاها معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها الطين و من هناك يحمل إلى طرابلس و كذلك إلى مصر و الإسكندرية و يذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنه أحوال كثيرة غير أن الذي يريده يتقدم الركب إلى أن يقضى حاجته فيلحق الركب في الذهاب و الإياب لما في الكبريت من منافع الإبل.

و بعد ذلك نزلنا المنعم و هي أحساء بساحل البحر ماؤها طيب عليها كتابان من

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٦٦

الرمل ينزل الناس وراءها فيمرون إلى الماء من بينها و قل ما يخلو من عمارة الأعراب و سقينا و استقينا و طعنا منه صبيحة. و مررنا على السبخه و السبخه صعبه جدا كثيرة الوحل و فيها غور في بعض المواضع و لا ينجو منه إلا من يعرفها أو يقدم خبيرا يعرف المسالك لأن طريقها أقرب و إلا فليترك سبيلها و ليذهب حدوها يمينا عنها حال الطلوع و بينها و بين البحر جبال من الرمل تصعب على الإبل طلوعا و هبوطا يعلم ذلك بالعيان و قد تشتت حال الركب فيها.

ثم سرنا يومين و نزلنا معطن اجداييه عند الزوال و سقى الناس و استقوا و ملئوا أسقيتهم ماريين مستعجلين إلى سلوك و وقفنا على مسجد بها يزعم الناس أن الإمام سحنون درس فيه ثلاث سنين و من المنعم فارقتنا البحر فلا تراه إلا عند التميمي.

أقول قال الشيخ العياشى و هذه اجداييه آثار عمارة كثيرة و آبار عظيمة منقورة في الحجر و بنيان هائل بالحجر المنحوت و هناك رسم مسجد قديم تهدم و وجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوش سنه ثلاثمائة قال و هذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه و قيل أنها مدينة بالجبل الأخضر في الجانب البحرى.

و قد أخبرنى صاحبنا سيدي عبد الله بن غلبون أنه رآها و أن رسومها تدل على عمارة قويه و بها آثار سور و أبراج و رخام كثير و قال أن بها قبرا مشهورا يزار و يزعم أعراب البلد انه قبر نبي فقلت له الغالب انه قبر صحابى فقد نص المؤرخون على أن رويغ بن ثابت بن السكن الأنصارى الصحابى قد توفى ببرقة و هو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد و قتل ببرقة أيضا من الصحابة زهير بن قيس البلوى ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فلقى الروم فقاتل حتى قتل و ما ذاك إلا قبر أحدهما فان

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٦٧

كثيرا من العوام يطلقون باسم النبي على الصحابى و قد شاهدنا كثيرا منهم يعتقدون في أبي بكر و عمر و على أنهم أنبياء و يظنون أن أسم النبي و الصحابى مترادفان فلما أخبرته ب ذلك فرح و قال لى ليس الأمر إلا كما ذكرت.

قال و لما رجعنا من الحجاز سنه أربع و سبعين لقيته بمسراته و قال لى ذهبت بعدك إلى المكان المذكور و تأملت القبر و عليه كتابة و أمارات ربما تدل على صحه ما ذكرت قال لى و ذكرت كلامك لبعض الأمراء فى درنة ففرح بذلك و أمر بالبناء على القبر و التثويه به و الله لا يضيع أجر من أحسن عملا و نية المؤمن ابلغ من عمله فان صح أن هذا القبر قبر الصحابى المذكور بتلك المدينة

هي برقة المشهورة لا أجدائية و الأمر في ذلك قريب فان بين المدينتين نحواً من خمسة أيام فكلاهما يصح أن يقال بينها و بين كل من مصر و أفريقية شهر إذ بذلك يعرفها الفقهاء إلا أن التي بالجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما يازائها من المياه و الأماكن المخصصة و المزارع الكثيرة الغياض الملتقبة من أنواع الأشجار بخلاف اجدائية فإنها في صحراء من الأرض مقفرة و الله اعلم بغيبه و مسمى برقة على التعيين عند عرب البلد اليوم هي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك و فيها رسم أبنية كثيرة و إطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقته المجاورة (العلاقة بفتح العين المناسبة) و هذا مما يقوى أن مدينة برقة هي اجدائية و يازاء المسجد الذي بها قبر محوط عليه بالحجارة يزار يقال لصاحبه سيدى يونس و هو من عرب الفواخر.

و قد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوفدوا عليه شمعا كثيرا و بقيت منه بقية فأردنا أخذها للحاجة إليها ثم توقفت في ذلك و بعد ذلك ظهر لي جواز أخذه فبعثت إليه فوجدت الغير أخذه انتهى كلام العياشى.

و ذكر شارح الشقراطية الشيخ محمد بن على برقة فقال أما وصفها فقال

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٤٨

البكرى رحمه الله و اسم برقة بالرومية الإغريقية بنطابلس تفسيره خمس مدن و ذكر أن مدينة برقة في صحراء حمراء التربة و المباني فتحمر لذلك ثياب ساكنيها و المتصرفين لها و على ستة أميال منها الجبل و هي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها الماشية و تنمى على مراعيها و أكثر ذبائح أهل مصر منها و يحمل منها إلى مصر الصوف و العسل و القطران و هو يعمل بها بقرية من قراها بقرب جبل و عر ما يرقى إليه فارس على حال و هي كثيرة الثمار من الجوز و الأترج و السفرجل و أصناف الفواكه و يتصل بها شعر عويصة من شجر العرعر و ببرقة قبر رويغ صاحب النبي صلى الله عليه و سلم.

و أما فتحها فاعلم أن عمرو بن العاص افتتحها في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه و ذلك سنة إحدى و عشرين و صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار و على أن يبيعوا من أبنائهم في جزيتهم.

قال و وجه عمرو بن العاص عقبه بن نافع حتى بلغ زويلة و صار ما بين برقة و زويلة للمسلمين و زويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء و هي أول حد بلاد السودان و بها جامع و حمام و أسواق يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها يتفرق قاصدهم و يتشعب طريقهم و بها نخيل و بسيط الزرع و برقة بفتح الباء المنقوطة بواحدة و سكون الراء المهملة بعدها فاف و الإغريقية بكسر الهمزة و سكون الغين المعجمة و كسر الراء المهملة و كسر القاف و تشديد الباء قيل المراد بالرومية الإغريقية القديمة التي هي أصل لغة الروم و الله اعلم و بنطابلس بفتح الباء المنقوطة بواحدة و سكون النون بعها طاء مهملة و باء منقوطة بواحدة مضمومة و لام مضمومة و آخرها سين مهملة كذا وقع في كتاب البكرى و الذى وقع في المدونة انطابلس بالهمزة قال و جباب انطابلس و مراجل برقة إلا أن هذا الذى في المدونة يؤذن أنهما مدينتان بخلاف ما قال البكرى لكن يحتمل أن تكون إحدى تلك المدن برقة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٤٩

و انطابلس اسم لجميعها كما يقال قسطلية و توزر لإحدى بلد قسطلية و الشعر الشجر الكثير و أرض كثيرة الشعار أى الشجر انتهى كلامه.

قلت و فى رحلة شيخنا العياشى و أرض برقة منقسمة على أقسام أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت و من هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء و من هناك إلى سلوك يسمى برقة الحمراء و منه إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر و منه إلى العقبة الكبرى يسمى البطنان و من العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى بين الأعقاب و من العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغيرة و قد ذكر العبدري تقسيما غير هذا جار على اصطلاح أهل زمانه انتهى.

قلت و سلوك المذكورة آبار متعددة كأبار اجدائية فى صفتها و مائها و يازائها أيضا رسوم بناء إلا أنها قليلة بالنسبة إلى اجدائية و ماؤها يقل فى أيام الحر و به تتعرض الأعراب للإركاب لقصد التسوق و يجلبون إليها الكثير من السمن و الزرع و اللحم و الإبل و منه

يتوجه القاصد مرسى ابن غازى وهى مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوك مسافة يوم وفيها عامل و عسكر لصاحب طرابلس و فى تلك المرسى تصب أودية السمن و العسل و الشحم و الودك من الجبل الأخضر الذى لا أخصب منه و لا أكثر منه أداما فيما رأينا من البلاد و تحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس و جربة و ما يازائهما من البلدان و من هذا الجبل غالبا أدامهم و لحمانهم قال شيخنا العياشى رحمه الله و قد دخلنا طرفا من هذا الجبل سنة تسع و خمسين فى شدة الحر و تسوقنا طائفه من أهله بما قضينا منه العجب من السمن و الغنم و الإبل لم نعهد مثل ذلك فى بلد من البلدان و لا رأينا أرخص منه سعرا و لا أقل معرفة بالبيع و الشراء من أهله يؤخذ منهم زهاء قطار من السمن بالثمن التافه من بز أو عروض

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٧٠

أو غير ذلك من الحوائج و لا يعرفون للدرهم قدرا و كانوا لذلك كنعهم غفلا لم يدخل التجار بلدهم و لا صادرتهم العمال عن أموالهم إذ لا حكم لأحد من العمال عليهم إلا أشياء قليلة يؤدونها فى بعض الأحيان لصاحب أو جيلة أو أوجله قرية كبيرة أو بلد عظيم لا- يخلو من العلماء و الصلحاء بقرب برقة تتسوقه الناس مع كل بلد و هو فى حكم طرابلس لأن غير أن حكمه فيه ضعيف نفعنا الله بأهله.

و أما صاحب طرابلس فلم يكن له عليهم إذ ذاك حكم و أما الآن فهم تحت أيلته و فى أسر طاعته يؤدون الخراج و يدخل التجار من أهل طرابلس و مسراته بلدهم لشراء الإبل و البقر و الغنم و الصوف و الأدام فبذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء و مقاديرها و عرفوا الدينار و الدرهم و أما قبل ذلك فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

غريبة عرب هذا الجبل من أشد العرب كفرا و نفاقا لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ليس عندهم من الدين إلا اسمه لا حرفه لهم بعد تنمية المواشى إلا النهب و الغارة قل ما مر بهم ركب فسلم من انشاب الحرب بينهم و بينه بسبب غدرهم و فتكهم عن اشتغال الناس بالسوق معهم و قد وقع ذلك معهم مرارا قال و أغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة فيحترس الناس منهم نهارا خشية النهب و الغارة و بالليل يبيت الناس رقودا مطمئنين لا تسرق لهم حاجة و ما ذاك و الله اعلم إلا لانقطاعهم عن العمران و توحشهم و السرقة فى الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران و تجتمع أجناس من الناس و تعمر أسواق و يوجد بيع و شراء.

و أما هؤلاء فأعداؤهم بعيدون منهم لا يقدررون منهم إلا على الغارة المرة بعد المرة و فيما بينهم يامن بعضهم بعضا فalcوا ذلك نوادر هذا الجبل فى رخاء الأدام و غفلة أهله عن قيمته و كثرة خصبه و بيعهم لبناتهم و أخواتهم و غير ذلك أشهر من

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٧١

أن يذكر و طول هذا الجبل نحو عشرة أيام من بحرته و سبعة أيام من الناحية الأخرى و أكثر شجر الناحية التى مررنا بها العرعر حتى انه من شدة اشتباكه و التفافه لا ينفذ الناس فيه إلا فى طرق معلومة و شعاب مسلوكة و من خالفها توعر و انتشب فى الغياض بحيث لا يخلص إلا بمشقة لا سيما إن كان ذا دابة و مع كثرة غلب هذا الجبل لا يوجد فيه الأسد و الحجاج يزعمون أن سيدى أبا محمد صالحا دعا عليه فأجلاه الله من هذا البلد لثلا يؤذى صعاليك الحجاج و ذلك أن صح غيظ من فيض فيما لأولياء الله من الكرامات.

غريبة قال و مما شاهدناه فى عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر و حمل الهودج عليها و أناختها عند الركوب و النزول مثل الإبل من غير مشقة عليها و لا- عليهم فى الإناخة لاعتیاد الكل لذلك و لله فى أرضه عجائب و فى طباع الحيوانات غرائب و كذلك الغنم لا يسوقونها إنما يسير صاحبها أمامها قلت أو كثرت و هى تتبعه فإذا أمهل فى السير أمهلت و إذا أسرع أسرع و إذا جرى جرت و يأتى أحدهم بالكبش إلى السوق و هو يتبعه كالكلب المعلم ثم سرنا من أجداييه بعد صلاة الظهر و زيارة مسجد سحنون لبقاء أثره لا سيما المحراب.

ثم نزلنا بعدها بصعدة و بتنا ثم طعنا منه فسرنا مرحلتين فوصلنا إلى معطن سلوك و نزلناه وقت العصر فبتنا فيه و أقمنا يوما انتظارا للتسوق من أهل ابن غازى إذ بعثنا إليهم رسولا من المنعم فأتوا إلينا فى البلدة الثانية بالشعير و بالسمن و العسل و بعض الإبل.

و قدم إلينا بعض أحبابنا من قرية ابن غازى إذ بعثهم الود الصدوق و الخل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٧٢

الفاروق سيدى عبد اللطيف بسمن و شعير و غير ذلك جزاه الله أحسن الجزاء ثم إنهم طلبونا فى الإقامة و امتنع الحجاج لكونهم مستعجلين لأن يدخلوا مصر فى أوائل شوال غير أننا أمهلناهم لوقت الضحى فانصرف الكل على خير و عافية و مع هذا ذهب معنا البعض منهم من الأتراك و غيرهم إلى مصر بالإبل للتجارة فأحسن الجميع بنا و المحسن يجازى بالإحسان و المسىء تكفيه إساءته و الله يقول ما على المحسنين من سبيل.

و لما سقى الناس و استقوا و ملئوا أسقيتهم ما يكفيهم سبعة أيام إلى التميمى لأن السروال أصعب شىء فى طريق الحج لانعدام الماء فيه أعنى الحى و أما ماء السماء فعلى فتح إلهى و وهب فردانى غير أن الله لا يدع وفده إذ هم ضيافته فحاشاه من كريم أن يتركهم عطاشا لأنه أما أن يرزقهم بماء السماء ينزل عليهم فى الحين أو يجدونه فى بعض الأودية و الغدران مخبوا لمثلهم منة من الله و فضلا على قاصديه إذ لا يخلوا وفده من أحبابه الذين حركهم الشوق و الوجد إلى تلك الأماكن الشريفة و المعاهد السنية و المواطن المحبوبة لتتصل بالساكن و تشاهد محبوبها فيها و يزيل ما بها من قلق الشوق و ترتاح من مرض العشق فيخف بعض ما بها لأن الروح يطير إلى المحبوب فيرده فقص البدن فيسكن بعض سكون بنسيم الوصلة و رؤيه حى المحبوب لأن الجوار ترياق المريض أى دواء مجرب و الدرياق بالتاء أو الدال أى الدواء الجرب هكذا فسره القاضى زكرياء فى شرحه للرسالة القشيرية رضى الله عنه و نفعنا بهما آمين.

[إذ قال الأستاذ قبر معروف فى بغداد ترياق أو درياق مجرب أى دواء مجرب]

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٧٣

و لذا تتحرك النفس لإشراق محل النبوءة فلا تتعب بما حصل لها فى الطريق لغيها بالمحبوب عن ذلك فلا تتألم فإذا تمهد هذا فلا تخيب رفته من هذا وصفه فحينئذ أما أن يرزقهم الله بماء جديد أو مستعد أو يكون البركة فى أسقيتهم.

و قد شاهدنا الجميع مرارا و الشكر لمن له المنة و الفضل فلا تحسب الوفد خاليا فتكون فارغا إذ الجامد فارغ من الضمير المتعلق بهم فيحرم من بركتهم و هذا الذى يحصل له التعب لأنه إن وجد الماء فلا يجد الظرف و إن وجد الظرف فربما تتقطع و ان سلمت ربما عطبت الدابة الحاملة و غير ذلك مما يصيب المحروم المزكوم عن شم شذاهم و إلا فمن لم يصبه و ابل منهم فطل.

و قد سمعت من العارف بالله الصدر الأعظم، و العالم الأفخم، و الورع الأفهم، الجامع بين الشريعة و الحقيقة سيدى محمد المغربى الطرابلسى عام (١١٥٤) أربعة و خمسين و مائة و ألف يقول أن العام الذى قبل العام الأول تقبل الله من أهل عرفه سبعا و ما عداهم قد رد ثم إن السبعة قد جدوا فى الطلب و اجتهدوا فى الدعاء من الله أن يغفر لأهل الموسم إلى أن دخل رمضان فشفعهم الله فى أهل الموسم جميعا و لم يرد منهم واحدا.

و أما العام الأول قال قد أتى رجل من أهل الله من فاس ليس له قصد و لا غرض إلا الشفاعة فى أهل عرفه فلما وصلها شفعه الله فيهم و حررهم لوجهه جميعا حتى أهل الترهة.

ثم قال و قول الفقهاء و صح بالحرام و عصى مذهب فقهى و إلا فمذهب أهل الفضل أن الله يغفر لجميع من وقف بعرفة و كيف لا و أن المعلم الأكبر الذى هو صلى الله عليه و سلم حاضر هناك و كذا أصحابه مع النبيين و الصديقين و الشهداء

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٧٤

و الصالحين و أهل التصريف و الخضر و الياس و الملائكة و رجال الغيب و بركة الجميع تنوب عن الجميع و الله يستحى أن يرد جمعا فيه محبوبة أو يمقت أناسا فيم أهل وده و لذا رفع الله المسخ لوجود أهل الذكر فيهم و ما دام ذكره فى الأرض فلا مسخ فيها لقوله عز و جل: و ما كان الله ليعدبهم و أنت فيهم و ما كان الله معذبهم و هم يشتمون فإذا علمت هذا فاعلم أن السروال محل صعب للعاقل

و غيره فيه سبعة أيام لا- ماء فيها غير المرفوع أو الموجود بالفضل وفيه من التعب ما لا يمكن التعبير عنه إلا بالذوق غير أن الله يمن بفضله عليهم و يرحمهم و يرفق بهم بمحبته صلى الله عليه و سلم و أيام هذا الموضوع مفازة في انعدام الماء مثل هذه و لذا قال بعض الحكماء لو لا السروال في برقة و العشاريات في الدرب لحج النساء و الصبيان غير أن فضل الله يوصل و يبلغ و لا تعتقد أن كثرة الزاد مبلغة إذ ربما صاحبه هلك و غيره نجا و سلم و الاعتماد إنما هو على الفضل و المنة من الله تعالى و استصحاب الزاد شريعة و سنة فالوقوف معها وقاية و جنه هذا و أن المخلص من صعب الزمان، و مساواة المكان، الاعتماد على مدد الرحمان، و التخلق في هذا الطريق بالرأفة و الشفقة للضعفاء من أهل الإيمان، فان من رحم يرحم و ان الله في عون العبد ما دام في عون أخيه و ليس التخلص من سموم عقارب الزمان، و أفاعيه إلا بترياق التفضل و الإيثار بحسب الاستطاعة و الإمكان.

ثم إن سعة الصدر و سلامته يحفظان من كل أذية دينية و دنيوية و إن كانت سلامة الصدر ممدوحة في غير هذا الطريق غير إنها في هذا الطريق أنفع و أتم لا سيما مع وجود الرحمة و العفة و كف اللسان عن الخوض فيما لا يعنى و عدم الاسترسال فيما لا يحتاج إليه فكما غاب الإنسان عن أهله و أحبابه يغيب عن مألوفاته إلا ما لا بد

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٧٥

منه مما يقتضيه شرع أو طبع مع كونه مباحا بحيث أن أسبابه ليس منها عنها لأن قبول الحج موقوف على تصحيح بدايته من حيث إقامة الحق عليه في تحصيل أموره و مادة أسبابه و إباحة موصله و رعى الحقوق في جميع ذلك كله من غير مهلة إلا ما أخره الشرع لوقته فسوف يأتي الله بقوم يعينونه على ما هو بصده لقله تعالى: عَلَى الْمَرْءِ وَ التَّقْوَى وَ لا- فتتيسر أسبابه و تجتمع همته و يتحقق مقصده و تتهاى أعماله القبول مع استيفاء الحقوق فمن كان معه حال اجتماعهم به فهذا هو إشراق بدايته و هو يدل على إشراق نهايته لأن من صحت بدايته صحت نهايته مع الاتساع في معاملته و الإنفاق على قدر طاقته و المعاملة بقدر أسرارته و الرأفة بقدر وسعه لينفق ذو سعة من سعته و من قدر عليه رزقه فيحسب قوته إذ لا يكلف الله إنسانا إلا بقدر استطاعته.

و إنما تنزل الرحمة على رفقته بقدر وصفه بما ذكر و نعتة فإذا تقرر هذا فاعلم أن هذه المفازة كما وصفناها أولا غير أن الله تبارك و تعالى يسرها علينا بفضلها لأن مقتضى العادة أن تتعسر على من هو مثلنا لأنى بعيالى ثلاث نسوة زوجة لأبى و زوجتان لى مع كثرة الجماعة و قلة ذات اليد و كثرة البغال إذ كان معى خمسة و مع ذلك لم يصب الجميع جوع و لا عطش و لا خصنا خصب الدواب ففضل الله ظاهر، و وجوده باهر، و سوق أحبابه عامر، و عطفه علينا حاضر، لا سيما أنا تهنا عن الطريق حين دخولنا السروال أنا و جماعة أمير الركب سيدى محمد المسعودى الدكالى الصحراوى إذ تخلفنا لصلاة العصر فلما صليناه غاب عنا الركب بين الجبال فجددنا فى لحوقه فتهنا عنه تيهنا عظيما ثم افترقنا فى طلبه فلم يظهر لنا أثره و لا تبين لنا خبره ثم إن الله تفضل علينا بوجود آثاره بعد الاياس منه هذا و انه كريم لا يخيب من قصده و لا ينعكس معتمده أصلا فلما تفضل علينا و تكرم لدينا لحقناه بعد أن نزل و استقر فى مبيته و وجدنا أيضا الإبل فى مسارحها و الناس متفرقون فى مصالح المبيت

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٧٦

و هى أول منزلة من سلوك.

ثم ظعنا منه صبيحة و مررنا بمخاصب و أماكن كأننا ما رأيناها قط و بعد ذلك اليوم اختلف الناس هل الخبير حصل له تيه أم لا و عند اليوم الرابع ظهر لنا أنه قد تاه بنا غير أن تيهانه ليس بعيدا غايته انه مال بنا إلى جهة الصحراء إذ التوغل فيها يخرج عن سنن الاعتدال فى الطريق بل المقصود المسير نحو جهة البحر و محاذاته آياه غير أن اليوم الخامس صبيحته وقع التنادى فى الركب و التباريح على أن الركب قد حصل له التيه و افترق جميعنا فى طلب من يعرف الطريق ليرد الجميع إلى المقصود فلما افترقنا ساعة و إذا بأثار البغال من مسير الأركاب الماضية رأيناها فحصل اللطف و استبشروا بوجود الطريق و حصوله فى أقرب مدة لما علمت أن وفد الله لا يخيب و لا ينعكس لإسباغ الله نعم الطافه عليه و وجود منته به فحصل لنا السرور بالإشراف على المفازة بالتوجه نحو قرب التيمى.

و في اليوم السادس مررنا على قرية معلومة فقد قيل أنها آخر عماره بركة و هي حديثه العهد بالخراب لأن أشجارها قائمه على أصولها لا سيما الزيتون و فيها آبار لا ماء فيها و أثار بنيانها ظاهرة و أسوارها متطاولة و أزقتها مشهورة و في أسفلها واد كبير يجري السيل إليه و منه ساقية تتصل بتلك القرية عظيمة عند وجود الأمطار فليس شربهم و لا استقاؤهم إلا من ماء الأمطار المجتمعة فيها ثم إن الحجاج تسابقوا إلى ذلك الوادي فوجدوا فيه غديرا صغيرا لا يبقى دوابهم فازدحموا عليه و خوضوه إلى أن صار طينا فلم يوف أحد مقصوده منه و بعد ذلك بمرحلة تفضل الله على الحجاج فوجدوا ماء مستبحرا في مواضع عديدة يكفي أركاب الدنيا كلها سقيا و استقاء و رفعا فأغناهم الله عن النظر إلى التيمي.

و في ذلك اليوم ولدت بعض النساء طفلا و تأخرنا في جماعة انتظارا لها على أن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٧٧

الله تفضل بتيسير طلقها و هي زوج سيدي عبد الرحمن الذويبي ثم العمرى من بلدنا بيننا و بينه مسيرة يوم ففرحنا له و دعونا له بالبركة و بعد ذلك لحقنا الركب بعد نزوله و استقراره بخيامه.

ثم ظعنا بعد ذلك الموضوع فنزلنا التيمي على شاطئ البحر فيه آبار و حسيات قرب البحر غير أن ماء البئر ليس طيبا بل فيه بعض ملوحة كما يعمله ذائقه و الذي ثبت عند الحجاج و استقر عليه أمرهم أن ماء الحسيات أطيب و أعذب منه غير أنها تحتاج إلى معالجة و تنقية رمل و فيه من التعب ما لا يخفى فاستقى الناس بالبئر هربا من الكلفة و طلبا للعجلة و قد وجدنا هناك عربا متفرقين أكثرهم بلا بيوت قد أضر بهم الجوع إذ قل ميرهم و وقع القحط فيهم سنين متعددة و بلادهم في غايه الجذب و مع ذلك الغالب سلب بعضهم بعضا على أنهم مسلوبون إذ تعدى عليهم عرب فأخذوهم بعد أن أخذوهم فكان الرجل يبيع أولاده و كذا المرأة تبيع أولادها إن كانت إيما.

و قد شاهدنا ذلك فنهينا الجميع عما هنالك فمن الحجاج من امثل و منهم من أعرض و اشترى فالقادر منهم ذهب مع الحجاج و غيره طلب ما يقتات به في الحال و بقي الآن الجوع أخذ فيه نعم الحجاج أشبعوهم الطعام جزأهم الله أحسن جزاء إذ سمعت منهم أن البعض منهم لم يذق الطعام نحو الشهر و الشهرين و إنما يأكل النبات من الخضر ليس إلا غير أن الشبعة الواحدة لا تسمن و لا تغنى من جوع [و إنما يحصل بها الأحياء في الوقت و قد فعل الحجاج ما وجب عليهم بل زادوا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٧٨

زادهم الله خيرا] و إنما المشكوك فيه هل يجب علينا رفعهم إلى محل يقتاتون فيه ليحصلوا غرض الحياة إذ بقاؤهم هناك مهلك قطعنا على حسب العادة الجارية غير أن قواعد الفقه لا تقتضى الوجوب لأن استخلاص المستهلك من نفس و مال يجب في الحال و أما في الاستمرار فلا- لأن رفعهم إلى موضع العماره قل من يقدر عليه و الأحكام مبنية على الغالب و قد طال النزاع بين الطلبة من أفاضل الركب فمنهم من يقول بوجوب رفعهم لكونهم انقطعوا عن العماره إذ بقاؤهم هناك موت أبيض لانقطاع مادة الرزق بحسب المؤلف العادي و منهم من يقول يجب إطعامهم في الحال لتحصل لهم الحياة حينئذ و غير هذا غير مكلفين به و هذا الثاني هو الذي يظهر من قواعد الفقه لقول خليل أو فضل طعام و شراب لمضطر يعنى في الحال و أما ارتقاب المثل فالرزق على الله إذ في الغيب عجائب لا يعلمها إلا الله و قد قال تعالى و كائن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها و إياكم و لقوله و عنده مفاتيح الغيب لا يعملها إلا هو و إنما رتب الله الأرزاق على بعضنا بعضا استمطارا للشواب و إظهارا له للمحسن من غيره ليكون محبوبا لديه إذ الله يحب المحسنين و قد قال ما على المحسنين من سبيل أن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون و من يخبل فإنما يبخل عن نفسه و الله الغنى و المانع عند الاضطرار، متعرض للآثام و الإضرار، و ذلك سخط العزيز الجبار، فالعاقل لا يبخل بما لغيره لا سيما عند الأذن منه و إلا حق ضده نعم كل ميسر لما خلق له فأسباب السعادة قريبة و كذا أسباب الشقاوة فالسعيد يشتري رضاه بما له و الشقى بالعكس يبخل بما له عن رضاه و بالجملة ما أفصح نائبا لا يحسن التصريف عن منوبه فيما نابه فيه لأنه أمين في ذلك ليس إلا.

فإذا علمت هذا علمت أن بعض الناس يفتخر ويتكبر بمال الله و هو للورثة

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٧٩

و ليس له فيه إلا ما انتفع به في الحال و بخله دليل على شقاوته لا سيما في هذه الأماكن الشريفة و مع ذلك الله تبارك و تعالى يقول الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء و الله يعدكم مغفرة منه و فضلا فكيف يبخل الإنسان بواجب عليه و هو البخل الممنوع إجماعا و قد شاهدناه فيمن معه فضل و وسع يبلغه إلى أهله يقيمه سنين متعددة و يرى الناس في السياق بالجوع و لا يمد لهم بلقمة من طعام و لا شربة من ماء و مع ذلك يشتري الأحرار ممن أصابه الجوع بفضله ماله فيشقى في الدارين لا رضا الله حصل، و لا مال احتفل، غير أن من سبقت له الشقاوة يخجلك على رءوس العوام بما لا عذر فيه كما سمعته من بعض المخدولين من طلبه ابن غازي إذ يقول متعللا- عند بخله بواجب يمسك عرض الحياة في الإنسان بسبب جوعه أنهم كثروا و تجاوزوا قدر الاستطاعة فلا- يمكن الاستيفاء بما وجب علينا و تبعه على ذلك بعض من ترأس من أهل الدنيا إذ طبع الله على قلبه و العياد بالله لأن القدر الواجب سهل و القائم به لا يعسر عليه و لا يحجف بما له إذ من بلغ حد السياق قليل بالنسبة لمن حصل له الجوع و إقامة البعض منهم بذلك فيه كفاية و إنما حيرهم كثرة السائلين و أدعاء كل الضرورة بل بعضهم أو أكثرهم يدعى حد السياق فالتبس عليهم القدر الواجب فتركوا الكل احتياطا بالبخل و لو أقاموا بالكل لا حثاوا بالمرضى.

و لما اجتمعت معهم زجرتهم عن ذلك و نهيتهم عن الإقامة بحظوظ أنفسهم إذ قلت لهم إن كل من مات فهو في صحائفكم لما علمت أن من منع فضل طعام أو شراب لمضطر حتى حصل له الهلاك يغرمه شرعا حتى استظفروا انه يقتص منه إذ مثلهم لو فرقوا الزمن و الضعيف لم يصعب عليهم.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٨٠

و أما الصحيح فيخدم على نفسه ثم أن رأيهم قد اتفق معي على أنهم يركبونهم في المراكب إلى الإسكندرية و بر الترك و إلى طرابلس و تونس فقلت لهم هذا القدر كاف شرعا و المسألة يتعذر فيها الاستقصاء فإذا تمهد هذا فأقول انعطاف إلى ما كنا بصدده. و هو أننا ظننا من التميمي و أخذنا شاطئ البحر متفرقين لما في الطريق من كثرة الشجر و الحجر إلى أن قربنا ساحل البحر و أشرفنا على عين الغزالة و تلاقينا ببعض الأعراب راحلين إلى التميمي معهم أموالهم يطلبون الكلا و يسألون عن عافية المحل فقلنا له قد انجلى أهله لقله المير و الجور فتسوق بعض أهل الركب معهم.

و في ذلك اليوم سقط ولد الفاضل الكامل الفقيه سيدى أحمد الصداقوى الملقب عياض عن مركوبه فتحيرنا من أجله إذ حين سقوطه لم يبق فيه إلا نفس ضعيف و قد غشى عليه كأنه سكران ثم إن بعض الناس من أهل الخبرة قال اتركوه كذلك من غير أن توقظه فبنفس إفاقته يرتاح و إن أيقظتموه حصل له المرض العظيم الألم الكبير فكان الأمر كما ذكر فتركناه حتى أفاق بنفسه و حصل اللطف من الرحمان عليه و على والده و علينا أجمعين.

و في ذلك اليوم أيضا حصل بعض التشاجر لأهل الركب و وقعت معركة عظيمة بين أهل عامر و أهل قصر الطير بالحجر و العصي غير أن الله رزق لنا اللطف من حالهم حيث لم يموتوا فهو من جملة ما تكرم الله به علينا في عدم حصول القتل ذلك اليوم و بذلك حصلت الفرقة في الركب و تقوى الغيظ بينهم ثم اجتمع أهل الفضل و أصلحنا بينهم أصلح الله حال الجميع بمنه و كرمه.

أقول قال شيخ شيوخنا المذكور و درنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى بينها و بين التميمي مسافة يوم و نصف من غريبه و كانت خالية منذ زمان إلى أن عمرها

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٨١

الأندلس قرب الأربعين و الألف و لم يزالوا بها إلى أن ربطوا فانشبوا الحرب بينهم و بين أمير طرابلس فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل بها مئون من أشرفهم و هي الآن في طاعته و فيها عامله المستولى عليها و على عرب الجبل و مرسى هذه المدينة عجيبه تنزل

بها السفن الجائية من الإسكندرية و من طرابلس و من بر الروم لا سيما مدينة كندية فإن بينها و بين مدينة درنة مسافة يوم في البحر لأنها في مقابلتها و المعاش فيها متيسر كثير لجمعها بين البادية و الحاضرة انتهى.

أقول ثم أن عين الغزاة صلينا عند قربها الظهر و هي عين جارية ماؤها عذب فيه بعض ملوحة تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها و ليس في بركة كلها ماء يجرى إلا هذا ثم قال الشيخ المذكور.

غريبة و في ميسرة الطريق شرقي العين المذكورة و أنت مشرق بيت منحوت في الحجر الصلد قال شيخنا العياشي رحمه الله في رحلته طوله عشرون ذراعا في مثلها و بداخله بيت آخر نحو نصفه و فيه غرف صغار كأنها مخازن و كل ذلك منقور في الحجر الصلد نقرا عجيبا مربعا كهيئة أحسن ما أنت راء من البيوت و باب مربع كأحسن الأبواب و عند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضا فتعجبنا من حسن صنعها و إتقانها و تدبرنا قوله تعالى و تحتون من الجبال بيوتا فارهين.

قال و قد ذكر العبدري هذا البيت و أجاد وصفه و بهذا الموضع أرض طيبة كلها منقسمة فتخدم للحرث و آثار البناء متصل بأطرافها و عن يمانها شعاب تنصب من الجبال و كأنها كانت مجارى السيل و يقسمها أهل تلك الأرض على مزارعهم اهـ.

ثم ظعنا من ذلك الموضع و سرنا نحو المرحلة أو المرحتين فوجدنا آبارا مملوءة

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ٢٨٢

بماء المطر فشرب الناس و سقوا دوابهم و استقوا بل حصل المطر بالفعل فأغنانا عن المعاطن بل كل يوم أو يومين نجد غديرا من الماء بل الماء كثير.

و في تلك المراحل مررنا بشجر التين و الخروب و أظن أن هناك شجر الرمان و غيره و في اليوم الرابع وجدنا ماء كثيرا أعنى ماء المطر إذ وجدنا بئر ماجل كبير عظيم فاستقى منه جميع من كان في المراكب و سقوا منه جميع دوابهم فلم يؤثروا فيه لكبره و وسعه بل شاهدنا فيه أمرا عظيما من وضع البركة التامة لكثرة الخلق إذ فيه ألوف مؤلفة فإن أخذ الركب في المشى لا يستقصيه الراكب من أوله إلى آخره إذ سمعنا من أهل طرابلس و أهل مصر بأن قالوا منذ حصل لنا التمييز ما طلع و لا جاء ركب من المغرب مثله و قد استعظموه غاية و مع هذا أن البئر لما رأينا ظننا أنه لا يكفي العشر منه فكفى و الحمد لله و سلام على عباده الذين اصطفى.

و بعد انصراف الركب تأخرنا في جماعة فرأينا كأنه لم يغرف منه دلو و لم يستق منه بشر ثم إن العجب العجاب في ازدحام الناس على البئر و لم يقع فيه أحد غير أنى وقفت بالعصا على رءوسهم فمن أراد أن يؤذى صاحبه ضربته على ظهره ثم أن القوم أصابهم حياء من جانبنا غفر الله لجميعهم فحصل المقصود على التمام و الوفاء فرأينا فضلا عظيما، و خيرا عميما، و ذلك من خوارق العادة.

تنبيه ما هو أغرب من هذا و أعجب منه كرامة اليوم الذي بعد هذا اليوم حين قربنا من سطح العقبة و مرحولى شيخ الركب يتأخران عن الركب بكثير حتى لا نرى أحدا من الركب بل إنما نلحق الركب عند المبيت نعم من عادتي أتأخر مع الفضلاء سيدى أحمد الطيب و

سيدى أحمد بن حمود و سيدى محمد الشريف النوفلى رفقا

الرحلة الورثيلانية، ج ١، ص: ٢٨٣

بالضعيف من الحجاج و كذا شيخ الركب معنا و أصحابه غير المستعجل منهم.

و في هذا اليوم تركت مرحولى و ذهبت إلى الفاضل الكامل صهرى سيدى عبد الله بن رحاب و الصديق سيدى محمد الشريف و جماعة من الحجاج ليشتروا لى جملا أو جملين خفت من ضعف أو بقاء الجمال الحاملة للنساء فتقدمت أول الركب و كان الركب توجه نحو اليمين للصحراء ثم أن سيدى عبد الله أمر العلام لينشر رايته فإذا رآها الحجاج رجعوا إلى سطح العقبة فلما امتثل الركب و إذا بالحجاج انعكسوا دونه إلى أن رجع الكل إلى قرب السطح و نحن فى ذلك من غير تراخ و إذا بالطامة الكبرى من الخيل قد عمت على الركب فظننا أنهم أهل الوطن أولاد على إذ سطح العقبة وطنهم غير أنهم أحاطوا بالركب فأراد بعض أن يضربهم بالبندق فزجرهم سيدى عبد الله و غيره ظنا منهم أ، هم أهل الوطن فلما بادروا إلى الحجاج سبقت إلى أول الركب فأمرتهم بإناخة الإبل

ليصل آخر الركب بأوله فحصى المقصود الذى رتمه و أن الركب قد اجتمع إذ فيه نكايه العدو فأقام الناس على ساق الجدد الاجتهاد على قدم واحدة و نحن كذلك و إذا بالصريخ و راءنا أن مرحول عبدكم و مرحول الشيخ قد أخذهما المحاربون فرجع الناس صفقة واحدة و ذلك بعد وصول المحاربين إليهما فردهم الله خائنين منعكسين لسابق عنايه الإله و فضل الأشياخ و الأجاب و أسلافنا نابوا عنا جزاهم الله عنا خيرا فلما كنت فى آثارهم و إذا بالمبشر يقول يا فلان قد سلم أهلك و أهل الشيخ فشكرت الله تعالى على ذلك بعد أن حصل الإياس لفرط تأخرهم جدا أو يحصل العطب لأصحابنا فالحمد لله على سلامة الكل غير أننا تغيرنا عن أخينا سيدى محمد الشريف إذ وقع بينهم و صار يجرهم و ينهاهم و يقول لهم هذا وفد الله و وفد رسوله فقبل منه بعضهم و أبى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٨٤

الآخرون إلا الحرب و السلب لما رأوا من كثرة الإبل مع الحجاج فغاروا و صاحوا و شردت بغلته تحته فلم يستطع حبسها فسقط عليها فأخذ من لحق منهم ثيابه مع نسخة جديدة من دلائل الخيرات ثم أنه مسك البغلة و ركبت و لحق بالركب ففزعنا من أجل ما أصابه فعند رؤيتهم الحجاج قاموا على ساق الحرب و علموا أنهم لا يصيبون منهم شيئا اجتمعوا و جاهه الركب و الحالة أنهم أخذوا بغلين و أربعة من الإبل فردوا البغليين و جملين ثم أنى ذهبت إليهم و حدى و الناس يبرحون بالويل خافوا على و أنا لم أسمع لهم فلما وصلت نحو الأثنى عشر فارسا نزلوا إلى و سلموا على يدى ثم على رجلى و رجل البغلة و بعضهم يتمرغ تحت البغلة و يطلب الإقالة و يقول إنما جئنا لأعدائنا أولاد على إذ سلبونا و أخذونا فأخذناهم و قلت لهم أن حصل لكم الندم ردوا ما بقى من الإبل عندكم و كذا ثياب الولي الصالح الشريف سيدى محمد فقالوا أما الأولون منا قد طلبناه فى الدعاء و اللاحقون ما علموا غير أننا نرد الجميع فأمهلونا و سألتهم كم من فارس قالوا نحن فى خمسمائة ثلاثمائة من الخيل و مائتين من الرجال و أنى سألتهم أيضا عن وطنهم فقالوا نحن من وطن الصعيد من عمالة مصر نحو الخمسة و العشرين يوما إلى هنا فلما رجعت و إذا بالحجاج فزعوا فرعة عظيمة ثم رجل من طرابلس قد جرحوه و مات من ذلك الجرح بعد ذلك و لما وصلت وجدتهم أمسكوا رجلا مع فرسه و أطلقتهم منهم و أما فرسه فقد مسكها الطرابلسية فيما ضاع لهم و قد سمعت انه لما ذهب من عندنا لحقه أولاد على فقتلوه و بالجملة ففضل الله وجوده و حفظه بنا ظاهر من غير استحقاق إذ أعمالنا ليست أهلا لقبولها حتى توجه الله إلينا بالفضل بسببها نعم كرمه ليس مختصا بأهل الجدد و الاجتهاد و إنما هو مبذول لمن سبقت له العناية لا لكبيره إن واجهك فضله، و لا صغيرة أن قابلك عدله، فالكريم لا يبالي من أعطى و لا كم أعطى و لا ما

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٨٥

أعطى.

و عشية هذا اليوم نزلنا قرب معطن مقرب و فى ذلك المنزل مات المجروح المذكور و قد مات لنا جمل فيه حقق الله ثوابه و أعطى عوضه.

ثم ظعنا إلى أن وصلنا معطن مقرب عند صلاة الضحى فسقى الناس نهارا و ذهبوا إلا أن البعض لم يحصى المقصود إلا عند الزوال و تخلفنا معهم و ذلك أصحاب الشيخ و بعض الحجاج فلحقنا بعد الظهر بالركب نازلا ينتظر المتأخر ثم أن الله أغاث الحجاج بعد ذلك بالمطر الكثير بحيث استغنيانا عن المعاطن إلى الشمامه لكثرة الغدير بل أحواض الماء فى كل أرض مبسوطة و كذا الخصب و الحمد لله على بسط نعمه و منته الوافرة علينا ببركة أهل الفضل من العلماء العاملين و الفقراء المحبين بل وجد فى ركبنا هذا كل صنف من أصناف أهل الخير و قد رحم الله ركبنا و عم و ابل الفضل علينا فغير المزكوم بالعاصى يشم شذا أنوارهم، و سواطع أسرارهم، و عطر أحوالهم، فمن الله علينا بمحبتهم، إذ من لا خير فيه يتذكر الله برؤيتهم، و قد قالوا إن علامة الولي إذا رأته تذكرت الله أقل المراتب أن يقول هذا فمن يخشى الله و يتقيه.

و بعد ذلك ظعنا نحو المرحلتين فكان أول شوال فصلينا العيد بين معطن مقرب و المدار و لما صلينا العيد ظعنا و نحن على المياه

السماوية و الخضر العشيية و الشكر لله تعالى فلما وصلنا للمدار وجدنا ماء السماء أكثر و لم نر من المعاطن بعد التيمى إلا مقرب و أما الطرفاوى و جرجوف و الجميمة فقد استغنينا عن جميعها و الحمد لله على ذلك و طعنا من المدار و مررنا على العقبة الصغيرة و وجدنا الماء فى أطرافها أعنى ماء

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٨٤

المطر و نحن كذلك فى ماء المطر كثيرا إلى الشاممة و بالجملة ففضل الله علينا عميم وجوده لدينا عظيم جدا و كذا الخصب للدواب قد عم الأرض و مع ذلك أن الأرض خالية من العرب إلا قبل الشاممة بيوم قد وجدنا فيها العرب أعنى نجع الخوابص و معهم نجع آخر قد طلبوا منها النزول للتسوق معهم فأراد بعض من الحجاج مساعدتهم و امتنع الكثير منه و تخلفنا للسقى و الشرب من البئر قربهم ثم أتوا إلينا بتمر من تمر سيوى و هو أجود التمر و لم أر مثله فى الجودة و الحلاوة و حبه كبير و لونه صاف و هو معلوم عند الناس جودته و حلاوته لا- سيما و أنهم يجعلونه فى أوعية تحفظه بحيث لا- يتغير أصلا بل زادت له رطوبة و جودة و هى من الحلفاء على شكل مخصوص من القفف غير أنها طويلة على قدر الاستطاعة و عليها غطاء و أوصاف هذا التمر أشهر من أن تذكر فاشترينا منه مع أصحابنا من طرابلس و اشترى بعض أصحابنا من الركب كأخينا الفاضل سيدى أحمد الطيب ما تزود به فى الطلعة فى الدرب و كذا غيره و اشترينا أيضا منهم شيئا من الروز (الأرز) و كذا غيرنا لانقضاء الزاد عن الغالب من الحجاج فرحمنا الله بهم و تفضل علينا بوجودهم و سكنت روعتنا بالاشترى منهم و كذلك فضل الله على وقده و لما علم من اضطرارهم و غاية احتياجهم فاطمأنت قلوبنا بهم و إلا فمن سرت ما رأينا نجعا إلا هؤلاء قرب الشاممة و هى قرب مصر لأنها خالية بالجور و الظلم إذ العرب من قوى منهم يأخذ غيره و تلك سنة فيهم و عادة أجزاها الله فى أجدادهم ثم سرت إليهم فتمكنوا فيها غير أن الله دمرهم و أخلى منهم أرضهم لقوله صلى الله عليه و سلم لم يكن شىء أسرع بصاحبه كالظلم و لقوله تعالى و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناهم تدميرا و إلا فوطنهم أحسن الأوطان

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٨٧

لاعتدال الهواء فيه و أرضه طيبة المزارع ربوتها أحسن شىء للغرس و نباتها أجمل شىء للضرع فكانت أحسن شىء زرعاً و ضرعاً و كذا خلق أهلها بفتح الخاء أو بضمها أى أوصافهم غير أن الظلم أهلكتهم لا سيما حرب الحجاج فإن الله قد انتقم منهم بسببهم حتى تشاءوا بهم و استطاروا من أجلهم ليتسع الطريق و تأمن الوفود و لو لا- فضل الله لأنسد الطريق إلى بيت الله الحرام، و أما كنه الكرام، فاستمر ذهاب الوفد، و تمام القصد، ليصل الإنسان إلى غاية القرب و الود، و لذا أجلاهم الله بجذب الأرض و الصد، جزاء لهم بتمام الحد، و سعادة لأهل القصد، ليتم من الله صدق الوعد، و تزول عنهم موانع الصد، و ليرتاح ذو الشوق من تعب الكد، فيكون محبا و مجيبا لنداء الفرد، فيصحو ذو قلق مما أصابه من الوجد، برؤية الآثار من العد، و يلتئم بجمع الجمع و ذلك حق بالجد، فالتكليف و التعاريف تقوى بالمد، و لأعدادهم تمنعهم الأخذ و الصولة فيها لها من ورد، و لذا تطير العقول و القلوب من ققص الفند، فيسعد لها أطوارا بالرد، غير أن نسيم الوصلة يمكنها بعض تمكن فى حضرة الود.

هذا و إن المنبعث أقلقه الشوق، و أزعجه العشق، فلم ير ما يؤلم فى الأماكن الصعبة بمشاهدة آثار المحبوب فى الأماكن المرسومة الدالة على الساكن الذى تخيله المصاب فلم يسترح إلا برؤية آثاره فلما أشرف على الرسوم و استحضر و شاهد علو شرفه، و غريب كنهه، استفتح باب الملكوت بالملك و استنشق علم الجبروت بسر اللهوت فلم يبق له صحو غير أن منى، أبقت فيه بعض رؤية المنى، فتكفه بالمشارع و استمطر العطف فى المظاهر و صلى صلاة الجمع فى مسجد الفردانية بإمام العرفانية فى صلاة العظمة فرفع حجاب الكبرياء بسورة الفرق فى عرفة الصمدانية، فهم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٨٨

عقله فى مزدلفة الوحانية، يلتقط درر الكمال، فى سعة مشاهدة الجلال و الجمال، فذلك نسك أهل اليقين باضمحلال، و هذا كله

قد تخيله المحب الصرف في بيت البشر و الأطوار، و دار الشهوات و اللذات من غير استبصار، فصاح صيحة انطوى فيها الليل و النهار، و أظلم الكون طرا فلم يتعب من الأسفار، و لا حرج عليه من شدة المفازة في البر و البحار، إذ رأى أن قلبه ركب مطية الأنوار، و استعد إلى مشاهدة العزيز الجبار، و اتصل في أسرته بسدره الاستقرار، ما ضل صاحبه و ما غوى بالتجلى من النهار، و ما ينطق عن الهوى حال الوصول إليه في عرصات المختار، فاعتراه و حى الهام الحقائق بأنها لا سواها يخفى باستتار، فلما غاب في عين الجمع بملاحظة الفرق إليه صار، إذ بيت الرب فيه فرق بالاعتبار، علمه شديد القوى أسباب الانتقال من الجوار، فاستوطن بسعة الشهود بالاعتمار، فأحال الإحرام عن النظر إلى غيره أصلا بالتعظيم و الاستكثار، و هو بالأفق من الأوصاف العالية ثم دنا فتدلى إلى كعبة القرب و المشاهدة فحيره البغت فذهبت أثار عبوديته، في كنه ربوبيته، فمحتها و لم يبق لها آثار، هذا في قلبه جنون، و في قلبه فنون، فلما حركه لم يسكن إلا بمولاه فلم يرفث برؤية النفس، و لم يفسق بالاعتماد عليها في مقام الأنس، و كذا لم يجادل الأعداء و لا أحدا من الخواطر لغيبته عن الحس، فقد حج قبل سفر الأجباح، بالتنقل و التنزل في عالم الأرواح، فحج الأجباح دليل عليه، و مسبب لديه، فزاد هذا هو فمناه إليه، فإن التعلق بأستار الكعبة علامة على التعلق بعين الذات، و كنه الأسماء و الصفات، و كذا يشير إلى الحضرة و دخول المقام، برعى الحفظ و الذمام، و السعى بين الصفا و المروءة سعى بين صفاء القلوب، في التخلق بأوصاف المحبوب، فلم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٨٩

ينتبه به السير إلا بالطواف على قدم المحو و المحق للمعدومات الوهمية الوجود، في سنن العهود، فمن طاف بحضرة الدنو و بالدره البيضاء فقد طاف القدوم على قضاء شهوده، و ارتوى برؤية وجوده، و هي نزهة القدس من شوائب المحدثات ثم صلى ركعتين الطواف في مقام التخلي و التحلى و التجلى ثم شرب من ماء القرب و هو ماء زمزم المتعلقة بجمال الذات إذ هو طعام الإيمان، و شراب العرفان، فلم يحتج صاحبه إلى طعام الأجباح دائما سرمديا فلما روى و تضلع من ماء زمزم التجلى طاف طواف الوداع لأهل الدنيا بل ودع الكونين، و صلى على الثقلين، بأن لا ينظر إليهما، إلا بنظر الحق إليهما، و كذا إلى نفسه أخذه محبوبه و مطلوبه منه أى من بشرته إلى روحانيته فإنه إياها صرفا و محضا ثم رده إلى بيته و هو قفص البشريات ليوافق و يمثل رب البيت فلم تضره البشريات و إنما هي معنية و مؤيدة للروحانيات و لقد زين سماءها بمصايح البشريات لأن أنوار الشريعة زينة سماء الحقيقة و جعل نجومها و هي امتثال الأوامر و اجتناب النواهي رجوما للشياطين القواطع فأهلكتها و أذابتها فقلب هذا عرش من عروش الحق و قلبه سفينة نوح فما ركب أحد بحره إلا- سلم من طوفان الجهل إذ قلبه يجرى بموج الواردات كالجبال غير أنهم لا يعتبرون عظمتها و غالبتها اعتمادا على رب السفينة و نادى نوح يا ولد القلب أركب معنا في سفر القلب من الخلق إلى الحق و لا تكن من الجاحدين لهذه الطائفة و المعترضين عليها قال سآوى إلى جبل الأسباب يعصمنى من ربها قال لا عاصم اليوم إلا بالاعتماد عليه و حال بينهم الموج من الهلاك فكان من المغرقين في الدعاوى.

هذا و إن من حج بهذا الوصف فقد كان حجه مبرورا بالوصول إليه، و المنتهى لديه، فحينئذ من سبقت له العناية لا تضره إن مس بعض الذنوب لزوالها

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٩٠

بالاستغفار و التوبة على الفور و ربما كان ذنبه دواء له ليرجع إليه، و ينكسر قلبه من أجله، و يرتقى بسببه إلى حضرة ربه، فيثمر الذنب بما يثمر خالص الطاعة المقبولة رب معصية أورتكك ذلا و احتقارا، خير من طاعة أورتكك عزا و استكبارا، نعم غاية اقترافه الذنب ليعرف قدره، و لا يتعدى حده و طوره، فيكون عبدا محبوبا فيا بشره فينتقل أذن من الموجودات الوهمية إلى الموجود على الإطلاق إذ لا وجود لما سواه غير أن الشريعة لا بد منها لصاحب الصحو الذى ملك الحال أو بقيت منه بقية يتعلق بها حال التكليف و إلا فمن ملكه الحال أو لم يبق فيه إلا- و التعريف فقد صاح في أرض المحو و نادى يا حى يا قيوم برحمتك استغيث لأنه دعاء المضطر فالعارف لا يزول اضطرابه، و لا يكون مع غير الله قراره، فكيف يخاف ما أشركوا به و عند ذلك يقول الذين آمنوا بولاية الله لبعض

أهل وده و خواص قربه و لم يلبسوا إيمانهم بظلم و هو النظر إلى سواه و الاستحسان ما منه إلى الله من الأعمال التي بها حلاه و لكن أكثرهم يجهلون هذه المعارف نعم وجود مثل هذه في وفد الله أمام لهم إذ هو كعبة الزوار، يقصده الظمان لمحو الآثار، و رحمة وجوده لديهم فهم مقبولون لوجهه و محترمون لأجله فيا لها من سعادة لمن كان معه و قد حصل نتائج الحج قبل وصوله، و اجتنى ثمرته قبل حصوله، فكان حجه كالتنقل فلا يزال يقترب به حتى يكون له نفسه لأن المناسك في إخلاص المسالك، و السلامة من المعاطب و المهالك، فيرحم به الضعفاء ممن هنالك، و يقبل من بعد بالمعاصي و الذنوب و الموبقات لوجهه بذلك فيسعى لهم لا له فيكون عبدا خلقه الله لمصالح الخلق و هو عين من عيون الحق يستسقى به فهؤلاء كل أحد منهم قد نجا و تخلص بجاهه.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٩١

و لقد علمت أن ركبنا لم يخب من هؤلاء الأفاضل إذ سرهم باق ليس بزائل فلم نعدم السباق و لا تخلفنا عن تلك الرفاق، هذا و إن الواحد يزيد المحو له من الخطاب الاشتياق، إن مع العسر يسر برؤية الحبيب من الخلاق، صلى الله عليه و سلم الراكب البراق، فقد رحم الله جميعنا بحسن الاتفاق.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فلما ظعنا من قرب الجميمة نزلنا معطن الشمامة أي غريبها و هو أقبح المعاطن ماء إلا بئر واحدة على شاطئ البحر من جهة المشرق و هي أطرافها من تلك الجهة و أما باقيها فغير طيب و هو ماء جرف أي مر غير أن الناس اضطروا إليه لعدم ماء السماء هناك و كذا ماء طيب في غير ذلك المحل.

تمت عدد الأيام من سيدي أحمد زروق على الاحتياط إلى مصر بحسب مشينا الجزائرى لا الفاسى فانه أسرع فى المشى لتأخره فمن سيدي أحمد زروق إلى الزعفران خمسة أيام و منه إلى النعيم يومان و منه إلى المنعم خمسة أيام أو صبيحة السادس و منه إلى اجدايئة ثلاثة أيام غير أن الثالث وصلناه عند الظهر و منه إلى سلوكك يومان مع عشية الثالث و منه إلى التيمى سبعة أيام و منه إلى مقرب خمسة أيام مع صبيحة السادس و منه إلى المدار أربعة أيام أو خمسة و منه إلى الشمامة أربعة أيام و منها إلى وادى الرهبان ثلاثة أيام و منه إلى أرياف مصر أعنى كرداسة أو المنصورة إذ نزلنا كفر حمام يومان و منه إلى المنشية على شاطئ وادى النيل ثم إلى بولاق و هذا ليس بمشى و الناس إنما يقطعون إلى مصر فى الزوارق أى المراكب فكل من يأتى من جهة المغرب من

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٩٢

الحيوانات العاقلة و البهائم لا يقطع إلا فيها بالكراء و أما صفة الماء فى برقة فماء الزعفران أطي و أحلى و كذا ماء النعيم و كذا ماء الأحمر و كذا ماء المنعم و أما ماء اجدايئة فبين بين غير أنه إلى الحلاوة أقرب و كذا ماء سلوكك و ماء التيمى فيميل إلى الملوحة و أما ماء الطرفاوى فطيب و كذا ماء جرجوب دونه و دون ماء مقرب و ماء المدار طيب ليس جدا و ماء الجميمة دونه و أقبح المياه ماء الشمامة إلا البئر الذى أشرت إليه قبل فأحسن بالنسبة إليها.

ثم ظعنا من الشمامة إلى وادى الرهبان و هو واد عظيم طويل و فيه قصور للعباد من النصارى ينزلون هناك لعبادة الأصنام يخرجون من مصر إليه و إن مصر فيها طوائف من النصارى يعطون الجزية للسلطان.

و بالجملة فبرقة متسعة و معه اتساعها فيها من العافية ما لا يظنه الإنسان لأن وفد الحجاج يذهب متفرقا و منقطعاً بعضه عن بعض غير انه لا يصيبه شىء بخلاف عرب الحجاز فمن تأخر من الحجاج أخذ و سلب أو مات و لو لا ما أنعم الله على الحجاج من أجلاء أهل برقة لأنسد الطريق و أنقطع رأسا.

و لذا قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه و لو لا فضل الله على الحجاج و رحمته بهم بالانتقام ممن رامهم لتعطلت طريق الحج منذ أزمان خصوصا حجاج المغاربة لضعفهم و قتلهم و بعد الشقة عليهم فكم من قصر و مصر إقليم يقطعونه بلا عسكر و لا عدد و لا

عدد و لكن

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع و عن عال من الاطم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٩٣

أى العالى المرتفع من الحصون نسأل الله تبارك و تعالى بجوده و إحسانه العميم، و بركة نبيه الكريم، أن يحمى وفد بيته بما به قد حمى نبيه العظيم، و ينصر زواره بما نصر به رسوله و ان لا يقطع الطريق بيننا و بين تلك الأماكن المشرفة و البقاع المطهرة فما دمنا فى كل سنة طائفه ممن قدم من تلك المعاهد، و ورد من تلك الموارد، و تشرف برؤية البيت العتيق و المسجد الحرام، و وقف بالمشاعر و نسك المناسك العظام، و صلى بين قبره و منبره صلى الله عليه و سلم و زار محله الشريف و محل أصحابه الأعلام، فلا نشك أن مدد ذلك يسرى فى أدياننا و بلادنا و أبداننا، و سائر متعلقاتنا، و لو انقطعت رؤيتهم نعوذ بالله من ذلك لاختل النظام، و انقطع الخير بين الأنام، اه نسأل الله تعالى الكره إليها بعد الكره أى الرجوع إليها و المرة بعد المرة آمين.

و وادى الرهبان واد كبير ذو رمل و فيه شجر النخل و ماؤه كثير و به من أنواع الوحش و البقر و النعام و الطباء و المها و غير ذلك من أنواع الصيد و إنما أضيف هذا الوادى للرهبان لأن به رهبان النصارى يتعدون فيه ديور كل طائفه فى دير و لا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم و ليس لهم زرع و لا ضرع و أهل الذمه من النصارى الذين بمصر يعاملونهم و يبعثون إليهم بالنذور و الصدقات من الطعام و الكسوة و من هناك تمر الطريق من مصر إلى أوجله إلى أن قال و اشترى الحجاج ما أرادوه من أنواع الطعام الريفيه و تنعموا و زال ما بهم من العياء و ألفت إليهم المسره مقاليدها أى أمرها كيف لا و نحن على ساحل النيل الذى هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجه من الجنة و آثار بركتته ظاهرة بالعيان فى مائه و ترابه و قراره و مدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع و أكثر خصبا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه إلا أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفه الوظائف الجوريه على الرعيه بحيث تملك

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٩٤

رقابهم فضلا عن أموالهم و لا يجدون عن ذلك محيصا بمنعه أو فرار حتى لو أن أحدهم أراد أن يتخلى عن السبب و يترك المزارعه و الفلاحة لم يتركوه و لو فر لا تبعوه حتى يأتوا به أينما كان.

قال الإمام العياشى فى رحلته حتى استفاض عند العمال الفسقه أن ثلاثة لا تقبل فيهم شفاعه شافع فيعدون منهم من يريد أن يتخلى عن الزراعة و الفلاحة قاتلهم الله أنى يؤفكون لا هم ينصفونهم فيخففوا عنهم من المظالم و لا هم يتركونهم يذهبون حيث شاءوا يسبحون فى الأرض يرزقون كم ترزق الطير الالتقاط من نبات الأرض و خشاشها فتغدو خماسا و تروح بطانا اتخذوا مال الله دولا و عباد الله خولا و الله من ورائهم محيط و لا حول و لا قوة إلا بالله.

و قد ذكر ابن خلدون أن مصر لا بد أن تشتمل على طائفتين إحداهما فى غابه العتو و الاستكبار و الأخرى فى غايه الذل و الاستحقار و قد صدقوا لقد كان بها فرعون و ملاؤه فلم ينته دون أن قال أنا ربكم الأعلى و بنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون فى الأرض يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم أى تركهن من غير قتل ثم لم تزل كذلك و أنها فى زماننا بل قبله بأزمان لعلى ذلك الوصف فباشاتها و سناجقها و ولايتها و حكامها بل و سائر جندها و عسكريها فيما يظهر لنا ليس فيها إلا من أعماه حب الدنيا و أصمه و ختم على سمعه و قلبه لا يرحمون ضعيفا و لا يوقرون كبيرا أينما تبدو لهم صبايه من الدنيا و ثبوا عليها إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله أما مع رقبته أو بدونها إن كان فى العمر فسحه و إن كان ميتا ورثوه دون بنيه و بناته و أما رعيته و فلاحته فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم و ما

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٢٩٥

هم فيه من الإهانه و الاحتقار تضرب ظهورهم و تؤخذ أموالهم و لا- مشتكى لهم إلا- لله و من تجاسر منهم اشتكى ضعف عليه العذاب الأليم.

قلت و لعل لأجل هذه الدقيقه يكثر فيهم الصالحون لأن نفوسهم ميته قد تربوا على الذل و الاحتقار و زالت الرياسه و حبها من قلوبهم بل لم تسكنها قط فإذا وفق أحدهم لعمل الطاعة و التفت أدنى التفت لإصلاح حاله لم يبق مانع بينه و بين ذلك لأن أكبر الموانع و

أعظم الآفات حب الرياسة و من جال في أرياف مصر و استخبر أهلها علم صحة ما ذكرنا و من لم يجلب فليطالع الأخبار في الكتب المؤلفة في ذلك كطبقات سيدى عبد الوهاب الشعرانى رحمه الله و غيرها يرى مصداق ذلك و أخبار مصر و ظلم الولاة بها و غش الباعة و حيل المتسبين و مكر العاملين أعظم من أن تحصي و لا- غرض فى تتبع ذلك و من أرادته فيسأل من وردها يخبره ببعض البعض من ذلك.

و بالجملة فمصر أم البلاد شرقا و غربا لا تستغرب شيئا ما يحكى عنها من خير أو شر و مصداق ذلك ما حدثنى به بعض أصحابنا من التجار فى سنة أربع و ستين قال لما دخلنا مصر فى حدود الخمسين سكنت فى بعض الوكائل و كان من قدر الله أن اجتمعنا فى محل واحد جماعة منا فلان و فلان تجار و فلان طالب علم و فلان ممن يميل إلى طريق الفقر و فلان و فلان من أهل الجنون و أهل المجون المسرفين على أنفسهم المطيعين لهواهم ذكر كالا- بأسمائهم قال فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته فإذا جن الليل جمعنا المنزل فتحدث بما رأينا فيقول التاجر ما رأينا مثل هذا البلد فى التجارة فأهله كلهم تجار و يحكى من حكاية ذلك ما شاهد و يقول الفقيه مثل ذلك و الفقير مثل ذلك و ذو المجون مثل ذلك و ما ذلك إلا لكثرة الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن فيظن أن غالب أهل البلد كذلك.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٩٦

و بالجملة فأهلها لهم عقول راجحة و ذكاء زائد فمن استعملها فى الخير فاق فيه غيره و من استعملها فى الشر فكذلك. و قد ذكر ابن خلدون فى كتابه منتهى العبر أن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له أقول لك فيها قولا و اختصر من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه و جده دون ما يتخيل و مصر بخلاف ذلك كلما تخيلت فيها فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك.

و سئل آخر عنها فقال كأن الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحدا يسأل عن أحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه. و قد أخبرنى شيخنا سيدى أبو مهدى عيسى الثعالبي أيام كنت أتردد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجى فقال لى من لدن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحدا يمشى فى أزقتها و أسواقها على مهل و سكينه و تؤدة بل كل من تلقاه تراه مشمرا جادا فى سيره إن كان راكبا فراكبا و إن كان ماشيا فكذلك فتأملت ما ذكر لى فوجدت صادقا و سبب ذلك و الله اعلم أمران.

أحدهما الرغبة و الحرص المستكن فى القلب فيحمل الإنسان على أن لا يفوته شىء من أغراضه و هو يظن أنه لو توانى فى مشيه لفاته غرض مع كثرة الأغراض و تزامم الأشغال. الرحلة الورثيانية؛ ج ١؛ ص ٢٩٦

الآخر كثرة الزحام فى الأسواق فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحاما فإذا خرجت منه إلى الآخر وجدته مثله أو أشد و قد شاهدنا الناس فى بعض الأسواق تارة يقفون هنيئة لا يقدر أحد على أن يتحرك يمينا و لا شمالا من غير أن يكون هناك حاصر لهم من أمام إلا الزحام و ربما رفع بعضهم صوته بالتكبير فيكبون حتى يظهر

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٩٧

لهم بعض تحرك فيندفعون مثل السيل إذا اجتمع فى مكان ضيق فيدفع بعضه بعضا حتى ينفجر من جهة فسبحان خالقهم و رازقهم و عالم نياتهم و ضمائرهم يعلم ما تكن صدورهم و ما يعلنون لا إله إلا هو رب العرش العظيم رب السماوات و الأرض و ما بينهما العزيز الحكيم.

و أخبار مصر و ما فيها من العجائب و جميع ما يحتاج إليه من أحوالهم مستوفى فى كتب تواريخها فلا نطيل بكثير منه. قال و أحسن كتاب جامع فى ذلك مع الاختصار كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة للجلال السيوطى فإنه مفيد جدا و من أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا- المعانيه أو أشياء قليلة من العوارض المشخصات اه- كلامه إلى أن قال و قد تعرض لنا الفلاحون خارج البلد و تلك عاداتهم عند قدوم الراكب كلما قدم يتعرضونه و يتخذون الأصحاب ليودعوا عندهم الإبل و يتركوها

عندهم أمد الإقامة طلوعا و رجوعا و هم كما قيل «الحرص على الأمانة، دليل على الخيانة» فلا ترى أعجب من تلتفهم و ليس خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج فيحلفون بالأيمان المغلظة على أداء الأمانة و بذل المجهود في النصيحة حتى يركن إلى قولهم و لو من جربهم مرارا ثم عند المفاصلة فلما ينفصل معهم أحد بطيب نفس.

قال أبو سالم و من أمثال الحجاج المال المودع بع و استنفع فالعاقل من باع ما فضل عنه من أبله أو ضاع و متى احتاج اشترى و لكن رزق يسوقه الله العباد أي الفلاحين من قديم الزمان لا مطمع لأحد في قطعه ففي كل مرة نقول متى رجعنا لا نودع عند أحد فإذا عدنا استنزولنا بخلب بارق من وعدهم الكاذب حتى نفع في حبالهم و نتورط في مخالبتهم التي يعسر الخروج منها بدين سالم و عرض مصون إلى أن قال أبو سالم بعد ما تقدم.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٩٨

لطيفة و عظيمة و الشيء بالشيء يذكر ذكر الشعراني رحمه الله في طبقاته عن بعض الصالحين ممن يسكن في بعض قرى مصر انه كثرت أذايه أهل القرية التي هو بها له فعزم على الخروج منها فاكترى جمالا لحمل أمتعة فأتى بجمل فجعل يلقي عليه كل ما كان من الأمتعة فلما أكثر عليه قال له الشيخ أنك قد ثقلت على هذا الجمل فقال له صبي هناك يا عم إن الجمل يحمل أكثر من هذا فتفكر في نفسه و قال هذا خطاب من الحق لي فإذا كان الجمل و هو من الحيوانات العجم لا- يعقل و لا يرجو ثوابا يحمل أكثر من هذا فكيف لا أتحمّل أكثر من هذا من إذابة الخلق فحط أمتعته و رجع فسمع منشدا

أن الجمال التي بالحمل قد عرفت تأبى العياء و لو مست من القتب

فأكد ذلك عنده لما فهمه اه- إلى أن قال و قد ذكر شيخنا أبو سالم عن بعضهم أن الوباء قد وقع مرة بمصر و كثر الموت حتى كان يدفن في اليوم الواحد أربعون ألفها فهمّ الباشا و أتباعه بالخروج من مصر و الفرار لما شاهد من كثرة الموت فلما فشا خبر أرادته الخروج طلع إليه رجل مسن من أهل التجربة و الرأي فقال له بلغني أنك تريد الخروج فما الذي يخرجك قال هذا الموت الذريع الذي وقع في الناس فقال و أي موت هنا أبعث شيوخ الحومات بمصر لك كم من حومة بمصر فبعث إليهم فعدوا الحومات فوجدوها أربعين ألفا فقال له ذلك الشيخ ألم أقل لك أي موت هنا إنما هذا ميت من كل حومة فهو أما عبد أو صبي أو امرأة فلما سمع الباشا ذلك خف عليه الأمر فجلس اه-.

و ممن أخذ عنه سيدي أحمد بن ناصر في مصر و قد أخذ عن كثير من الأسيخ إلا أن إمام الجميع و هو أبو الحسن على الزعترى إلى أن قال فيه ما نصه و مما أفادنيه و أنشدنيه:

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٢٩٩ إذا ما مضى القرن الذي أنت منهم و خلفت في قوم فأنت غريب

و أنشدنا أيضا لغزا في الخمر إذا استحال خلا:

و ما شيء إذا فسدتحول غيه رشدا

و إن هو راق و صفا أثار الشر حيث بدا

و أنشدنا أيضا في نيل مصر:

كأن النيل ذو عقل و فهم و ذو علم بما يرجون منه

فيأتي عند حاجتهم إليه و يذهب ين يستغنون عنه

و أملى علينا في ذم الدخان و أهله و هو في مجلس أقرانه:

دخان داء لا دوامن شربه قلبي انكوى

و هد جبلي و القوى فقلت من عظم الجوا

بيوت شعر مفردة و أنفس من أجلها

مقطوعة من أصلها بعشبة لأهلها
مشغولة لأجلها جاءت كنار موصدة
مشعلة لدائهم تجول في أمعائهم
مضرة لبائهم تأتي إلى أفواههم
الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٠٠
؟؟؟

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٠١

فجاء إنسان فكلمه بلغتهم فقلت في نفسي أن فرغ هذا من كلامه أكلمه بما في نفسي فلما فرغ المتكلم و أردت أن أتكلم بادرني الشيخ رضى الله عنه بقوله ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها فسكت و لم أزد شيئا نقول ايش.
و نظير هذه الحكاية ما حدثني به الشيخ محمد أخو الشيخ مصطفى أنه حج مع الشيخ و كانت خيمته بإزاء خيمة الشيخ فقام ليلة متهجدا و قد هدنت الأصوات و نامت العيون قال فقلت في نفسي متعجبا من تهجدي و أنه لم يجارني أحد هذه الليلة أو كلاما هذا معناه قال و لم استتم الخاطر إلى أن سمعت الشيخ يقول و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا قال فخجلت و استحيت و تداخلت فضربت أخماسي في أسداسي أى صرفت الحواس الخمس في الجهات الست أفكر في أمرى معاتبا لأنفاسي.
قلت و مثل هذا و أرفع من كرامات الشيخ لا يعد و لا يحصى، و لا يحفظ و لا يستقصى، فلو تعرضنا لأدنى شيء منه لأملينا أسفارا، و لاستغرقتنا دهورا و أعصارا، نسأله تعالى أن ينفعنا به، و أن يجعلنا من حزبه، و إنما ذكرنا هاتين إيذانا بمنقبة هذين السيدين إذ الكرامات لا يراها إلا من أهل لها و صار من أهلها.

و كنا ذات يوم جلسنا معه في مجلس أقرائه و قال لنا كم هذا في غشت فقلنا له خرج و انصرم و هذا أول شتبر و قال هذا لا يصح فقلنا له صحيح فأخذ بيده جداول التاريخ فاخبره فوجد كلامنا صحيحا فقال سبحان الله غلظتموني في جمعة و حكى لنا قصة فقال كان الإمام السبكي في زمانه يسكن بولاق و له منزل على شاطئ البحر يجلس فيه و فيه كتبه و كان السبط المارديني يأتيه و هو رحمه الله رجل مغفل و يجلسه الشيخ في مجلسه و يتحدث معه و يتذاكر ثم بعد ذلك ينصرف الشيخ بيت بمنزله و يتركه هو بيت هنالك فكلم الشيخ رحمه الله يوما نوتيا معه سفينه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٠٢

حيدة سريعة السير و فيها كثرة المقاذيف و قال له كيف تصنع و تحيل على هذا السيد إذا نام تأخذه برفق و تضعه في السفينة و تقذف به بسرعة حتى تصبح به في دمياط فإذا بلغت دمياطا خذه برفق وضعه في مكان معلوم عينه له و اتركه هناك أسبوعا ثم أفلح به ما فعلت أولا و تصبح به في مكانه هذا ففعل النوتى ذلك و أصبح به في دمياط و جلس يقرأ فيه السيد أسبوعا و كان ذلك ليلة الأحد فلما كان ليلة الأحد الأخرى فعل به مثل ما فعل به أولا فأصبح به في بولاق في المكان الذى أخذه منه أولا و جاءه الشيخ السبكي صباحا على عادته و سلم عليه و قال له المارديني أنا أتيت من دمياط فقال له السبكي متى جئت من دمياط ألم تكن هنا ليلة الأحد و هذا يوم الأحد فقال له المارديني بل أتيت دمياطا و قرأ على فلان و فلا و جعل يعد له من قرأ عليه و غلظه السبكي في جمعة و هذا مراده حتى فعل به ذلك رضى الله عنهم أجمعين و أنشدنا أيضا رضى الله عنه:

أرى الإحسان عند الحر ديناو عند النزل منقصة و ذما

كقطر الماء في الأصداف دراو في جوف الأفاعي صار سما

أشار بهذين البيتين إلى ما ذكره أهل الهيئة من أن ماء النيسان ينعقد جواره في بطن الأصداف و يصير سما في بطن الحيات.
أعجوبة ذكر صاحب الفلاحة النبطية أن بالمشرق جبلا عاتيا ذا مدارج لا يستطيع الصعود إليه فإذا كانت أيام النيسان أتت الرفاق من

أقصى البلاد و تنزل حوالبه لتصغى لأصوات طيور تظهر فى تلك المدارج و لها ريش كرىش الطاوس و مناقير حمر و صفر فى غلظ شبر و طول ذراع و فى تلك المناقير أبخاش متعددة فتستقبل الريح و تفتح مناقيرها شهرا كاملا حتى تمتلئ حواصلها ريحا ثم يأخذ فى انعكاس مناقيرها فيخرج الريح على أصوات عجيبة و نغمات مطربة حتى أن رقيق الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠٣

النفس يموت طربا من السماع فإذا تم شهر استفرغ الريح و زعقت زعقة عظيمة و اشتعلت نارا و تبقى رمادا فى مواضعها إلى قابل فإذا نزل ماء النيسان خلقت منه فأحييت به و فى أيام نزوله تكثر الضفادع فى البر فإذا ماتت بقيت فرائسها إلى قابل فتحى حين نزوله بتقدير العزيز العليم.

و حكى أن فرعون لعنه الله كان يفتن الناس بها فيعد تراب فرائسها فيحفظه عنده و يعد مطر النيسان فى قوارير و يقيم عليها و كيلا و إذا أراد فتنة أحد أمر قيم التراب فيأتيه بقبضة منه و يأمر الآخر فيأتيه بشيء من مائه فيجعله فى يده و يضمها عليه مدة حتى يحس بتكوينه ضفدعا فيفتح يده فإذا بها ضفدع تثب فيدعى أنه خلفها عليه لعنه الله و الملائكة و الناس أجمعين. و أنشدنا أيضا رحمه الله أبياتا مطلعها.

لعمرك أن أخذت إزاء قوم فلا تعجل بتوكيد الوداد
فإن الغدر فى النسما طبع تعود الورى من قبل عاد
و صاحب من صحبت بحرص عزم و لا تودعه أسرار الفؤاد
فبعض الناس ظاهره بياض و باطنه أخال من السواد
و لا تحقر عدوك لو تراه أقل إذا نظرت من القراد
و كن حذرا و لا تركز لخل وعد الناس كلهم أعادى
و كن كالغيث فى أرض بخصب و فى أرض عذاب للعباد
و كن كالغصن ينبت فوق صخرو كن كالماء يجرى من جماد
و كن كالسيف حد المتن عضبا و فى الاغماد يرفع بالنجاد
فكم صاحبت قبلك من أناس فخانونى و خاب بهم مرادى
و خلان حسبتهم دروعافكانوها و لكن للأعادى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠٤ و خلتهم سهاما نافذات فكانوها و لكن فى فؤادى

و قالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا و لكن من و داد
و قالوا قد سعينا كل مسعى فقلت نعم و لكن فى فساد
و أنشدنا أيضا رضى الله عنه

أرزاقنا شتى و نحن طيور هانلقطها من جانب بعد جانب

ثم قال لما خلق الله الأرزاق سلط عليها الريح ففرقتها فى الدنيا فكل واحد يجعله الله حيث رزقه.

قلت مراده و الله أعلم أن أرزاق العباد فرقها القدرة الإلهية فى البلاد و أظهر ذلك بالمثل بتفريق الرياح و منه قوله:

و أرزاق لنا متفرقات فمن لم تأته منا أتاها

مشيناها خطى كتبت علينا و من كتبت عليه خطى مشاها

و من كتبت منيته بأرض فليس يموت بأرض سواها

و عنه أيضا حكمه إلهية بنت الحكماء عليها قاعدة تفررت لديهم و اطردت و ذلك أن الشمس كلما كانت مسامتة للعرض اشتدت

حرارتها على وجه الأرض و كلما مالت إلى الجنوب خمد حرها و من ثم تجد المياه غالبا تبرد في الصيف لبعده الشمس عن باطن الأرض و تسخن في الشتاء لقربها من باطنها و يعتدل حرها فيما بين انتهاء مسامتتها و ميلها و ذلك في الربيع و الخريف ذلك تقدير العزيز العليم.

و ذكر أيضا أن غاية نصف قوس النهار في بلدنا مائة و سبع و أن الساعة المستوية

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠٥

خمس عشرة درجة دائما و الزمانية هي نصف سدس قوس النهار فيقسم النهار على اثني عشر جزءا يخرج مقدار الساعة الزمانية. و أخبرني أنه ولد عام خمسة و ثلاثين و ألف (١٠٣٥) رضى الله عنه و لقد سألته يوما عن علم النصبه هل لك معرفة به فقال نعم و لكن لم استعمله إلا مرة واحدة و لد لي ولد في أول شبابي و نظرت فيه فخرج لي أنه يموت بعد ثلاث سنين فأخبرت شيخى القيلوبى بذلك فزجرني و لما مضى ذلك القدر توفى.

قلت و الإمام القيلوبى هذا هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن سلامة المصرى القيلوبى الشافعى الإمام العالم الفقيه المحدث أحد رؤساء العلماء المجمع على نباهته و جلالته و علو شأنه جامعا للعلوم الشرعية متضلعا من العلوم العقلية و أما معرفته بالحساب و المقيات و الرمل فأشهر من أن تذكر و إمامته في الأوقاف الحرفية و غير ذلك من الفنون فذلك أمر مشهور و كان في الطب ماهرا خيرا و محبا للفقراء و لا- يتردد إلى الكبراء و لا يقبل من أحد صدقة بل يرى متصدقا و كان متقشفا ملازم الطاعات مهابا لا يتكلم أحد بين يديه إلا مطرقا و له تأليفه عديدة و تقايد مفيدة توفى أواخر شوال سنة تسع و ستين و ألف (١٠٦٩).

و أما الشيخ موسى المصرى القيلوبى فهو من أئمة المالكية المشهورين بحسن السيرة و طيب السريرة شهير صيته بين علماء الأزهر و أرباب الدولة و هو من أجل تلامذة الأ-جهورى أبى السن المتصدرين للأقراء و الفتيا في حياته و له خبرة تامة بفروع المذهب و مشاركة حسنة في غيرها من العلوم و انفرد بالاختصاص بالكشف عن علم الأوقاف و أسرار الأسماء و الحروف بحيث لا يشارك في ذلك و له أخذ و سلوك في طريق القوم على منهج صاحب كتاب الجواهر و قد تلقى و أخذ طريق الأسماء الخلوتية عن الشيخ محمد بن على الشبراملى عن الشيخ محمد الخافى عن

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠٦

الشيخ صبغة عن وجيه الدين العولى عن الشيخ محمد الغوث صاحب كتاب الجواهر و أسماء الخلوة مشهورة عند أهل مصر و هي أربعة عشر.

و ذكر شيخنا العياشى أن بيد هذا الشيخ أثر جراحات كادت أن تتلف يده و أخبرنا أن سبب ذلك أن الشيخ أبى الحسن الأجهورى جاءه بعض طلبة المغاربة يستفتيه في طلاق وقع بينه و بين زوجته فرام أن يترخص له في ارتجاعها فأبى الشيخ رضى الله عنه من ذلك فاحتقدها عليه المغربى و أسرها خفية سوء في نفسه فلما كان ذات يوم جاء مشتملا على خنجر و الشيخ يدرس في المجلس فلم يشعر به حتى ضربه بخنجره فترامى عليه من حضر من الطلبة يقونه بأنفسهم فخرج جملة منهم و وقى الله الشيخ من كيده و جرح في رأسه جرحا كان السبب في ذهاب عينه و كان الشيخ موسى من جملة من جرح فقبض على ذلك المغربى و ضر ضربا شديدا فأراد الولاية قتله فمنعهم الشيخ من قتله ثم قتله الله بعد مدة بأثر ما حصر له من الضرب في المجلس و بعد ذلك ما كان الشيخ يترك أحدا من المغاربة يدخل عليه إلا إن كان معه أحد من أصحابه ممن يعرفه.

قال و لم يزل شياطين الأنس و الجن يضمرون العداوة و السوء لأهل العلم و ينصر الله أوليائه عليهم بمقتضى صادق وعده و كان حقا علينا نصر المؤمنين و ينجيهم من كيدهم و يحميهم من شرهم بحماية ثم ننجى رسلنا و الذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين. قال و حضرت درسه و كان يقرئ في الجامع الصغير للسيوطى بباب رواق الحنفية و من جملة ما قرر في حديث إيما عبد أبى من سيده فمات إلى قوله و لو مات شهيدا أن العبد إذا أبى من سيده و مات في قتال الكفار كان شهيدا من جهة قتله و عاصيا من جهة أباقه ثم

قال كمن شرب الخمر فغصته فمات فهو شهيد لغصته

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠٧

عاص لشربه الخمر اه- كلامه و هذا الأخير عندي غير مقبول لأن الشهادة رتبة شريفة و هي من الرخص التي ترخص الله بها لعباده المؤمنين فأكرمهم بها زيادة في ثوابهم على ما حملوا أنفسهم من المشقة المتلفة لأنفسهم في مرضاته و العاصي في فعله لا يترخص له و لا سعى له في مرضاه ربه حتى يرضيه بالشهادة نعم إذا كانت المعصية بغير ما وقع به القتل كالأباق أو من زنى أو من سرق في سفره فهذا قد يقال فيه شهيد من جهة عاص من جهة لأن الجهة منفكة فجهه قتله غير جهه عصيانه و أما إذا كان سبب القتل في نفسه معصية كشرب خمر فيغص بها أو تمكين امرأه من الزنى بها فيموت فيبعد أن تحصل لهذا رتبة الشهادة أليس الغريق و الحريق و ذو الهدم و المبطون و غير هؤلاء كلهم قد ورد أنهم شهداء فلو أن أحدهم رمى بنفسه عمدا في البحر فغرق أو في النار فاحترق أو تناول سما أو دواء معلوما فمات لا يقال فيه شهيد اتفاق و كذلك هذا تناول معصية كانت سبب حتفه أنى له الشهادة اللهم إلا أن يكون المحترق مثلا ممن قام لنار يريد إطفاءها و لا يعلم أنها تحرقه فغلب حتى احترق أو أراد إنقاذ غريق و هو يظن من نفسه القدرة على ذلك فغلب فغرق أو غير ذلك من الوجوه التي يكون فيها أصل الفعل الذي وقع به القتل مباحا فهذا شهيد بلا كلام و شارب الخمر أن لم يقصد به إتلاف نفسه فهو معصية وحدها و ما ترتب عليه من القتل معصية أخرى سببها معصية و إن لم يكن القتل مقصودا فإن المعصية لا يتوقف كونها معصية على القصد إليها و نيته إنها معصية فإن الطاعة هي التي تتوقف على النية دون المعصية فيؤاخذ بها عاجلا و يعاقب آجلا نواها أم لا ألا ترى أن من تعمد ضرب إنسان و لم يرد قتله و لا قصده فمات منه فإنه آثم آجلا و يقتص منه عاجلا لأن السبب الذي نشأت عنه المعصية معصية كشرب الخمر في مسألتنا فهو معصية و نشأت عنه معصية أخرى و هي قتل نفسه إلا أنها ليست مقصودة له فلا ينفعه عدم القصد و لا يدرأ عنه الآثم و لو سلما أن آثم القتل مندفع عنه لكونه غير مقصود له

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠٨

فمن أين له الشهادة التي هي أشرف مقام خص الله بها من جاهد في سبيله ثم من صبر لضر أنزله به مولاه حتى لقي ربه و هو راض عنه نعم إن لم يمت هذا المغصوص بأثر الغص و طالت حياته حتى تاب من فعله توبة صادقة ثم مات بأثرها من تلك الغصة لا يبعد أن يقال هو شهيد بغصته و لو قيل أنه مرتكب في المعصية بعد توبته لبقاء أثر ما سبب فيه كما قال إمام الحرمين في الخارج من المغصوص تابا لما بعد ذلك و الصحيح صحة توبه هذا المغصوص إن لم يمت بأثرها كتوبه الخارج من المغصوب. اه- فليتأمل قلت ما ذكره من النظر فيه نظر عندي إذ لا فرق بين الأبق الذي مات في قتال الكفار و بين من غص بشربه خمر إذ كلاهما عاصيان بسببهما لأن الأبق نفس سفره معصية و هو السبب في موته و كذا شرب الخمر فانه السبب أيضا فإن سلم الأول أنه يثاب من جهة القتل و يعاقب من جهة الأباق لزمه أن يسلم الثاني أيضا لأنه يثاب من جهة الموت لكونه شرب بشربه فمات فهو شهيد لظاهر ما ورد فيه لأنه لا فرق فيما غص فيه انه مأذون فيه أم لا فيشمل المحرم لأن الشهادة حاصلة بالإشراق فمن غير اعتبار لما حصلت به فيعاقب من جهة و يثاب من جهة.

فإن قلت الأباق ليس سببا مباشرا للموت لأن الموت إنما حصل بقتال الكفار مباشرة و الأباق سبب السبب الذي هو حصول القتل من الكفار فافتراق فلم يكن حينئذ الغص مثل الأباق لما علمت من كون الغص مباشرا في الموت بخلاف الأباق.

قلت لا فرق بينهما عند التأمل لأن سفر الأباق معصية و حصول الموت له نشأ عن معصية كذا الغصة فإنها معصية نشأ عنها الموت و قتال العدو لمسلم يوجب له الشهادة كما يوجبها الإشراق أيضا فلا فرق بينهما حينئذ حصل عن سبب مباح أو غيره لأن ما به الموت موجب الشهادة و لا علينا من غيره فإن كان السبب طاعة أئيب

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٠٩

من جهتين و إن كان معصية أئيب من جهة و عوقب من أخرى فحصى ما قاله أولا لما تقرر لك أن الأبق عند القتل و المغصوص عند

الإشراق كلاهما في معصية و حصول الإشراق و القتل موجبان للشهادة كما هو ذلك في صحيح الخبر من غير اعتبار السبب أو الوقت نعم وزانه ما ذكره في باب قضاء الفوائت و هو أن من عليه القضاء ثم ترك ما عليه من القضاء و اشتغل بالتنفل فانه يحرم عليه ذلك غير انه يثاب على التنفل و يعاقب على ترك ما عليه من القضاء لما علمت من تعميم الوقت بالطاعة و ان كان غير وقت للنفل إذ هو عاص في ذلك لأنه وقت قضاء و مثاب لكونه اشغله في طاعة فهذه طاعة نشأت عن معصية و كذا ثوابها نشأ عن سبب منهي عنه فلا فرق في كل ذلك و المسائل من هذا النهي لا تعد و لا تحصى.

و أما قوله أن الإنسان إذا ضرب ما لا يحل فنشأ عنه الموت فانه آثم و يقتص منه بعيد عن هذا المرام لكونه تعمد الضرب فيما لا يحل و نشأ عنه إتلاف النفس و هو مذموم شرعا بل هو من الكبائر فنشأ عن هذه المعصية معصية كبيرة و جناية عظيمة بخلاف الغص فانه نشأ عنه كرامة عظيمة و هي الإشراق كما أن الآباق الذي هو حرام و سبب منهي عنه نشأ عنه أيضا كرامة جلييلة و هي القتل من العدو لأنهما أي الإشراق و القتل الموت بهما شهادة شرعا.

و بالجملة المعتبر في الحاصل الذي هو الموجب في الشهادة لا في المحصل إذ لا عبرة به فتأمله منصفاً و الله تعالى اعلم.

قال الشيخ المذكور و ذكر انه حضر مجلس شيخ الإسلام الشبراملسي يقرأ عليه المواهب اللدنية قال و قرر تقريرات عجيبه في حديث أول ما خلق الله نور محمد صلى الله عليه و سلم إلخ و قرر وجه انقسام ذلك النور و كيفيته مع أن الحقيقة الواحدة لا تنقسم و ليست الحقيقة المحمدية إلا قسما واحدا من تلك الأقسام و الباقي إن كان

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣١٠

منها أيضا فقد انقسمت و ان كان غيرها فما معنى الانقسام و حاصل جوابه أن معنى الانقسام زيادة نور على ذل النور المحمدي فيؤخذ ذلك الزائد ثم عليه نور آخر ثم كذلك إلى آخر الأقسام.

قال و هذا جواب مقنع بحسب الظاهر و التحقيق و الله اعلم وراء ذلك.

و ذلك إنما يدركه على الحقيقة من عرف معنى تعالى الله نور السموات و الأرض و معنى قوله صلى الله عليه و سلم لما قيل له هل رأيت ربك فقال نور أني أراه كما في بعض الروايات بفتح الهمزة في أني و نونه كلمة استفهام أو نوراني بياء النسب آخره كما في بعضها و تحقيق ذلك على ما ينبغي ليس مما يدرك ببضاعة القول و لا مما تتسلط عليه الأوهام و الإفهام و إنما يدرك بكشف إلهي و إشراق حصه من أشعه ذلك النور في قلب العبد فيدرك نور الله بنوره فيكون الحق في الحقيقة هو المدرك لنوره بنوره و نسبة الإدراك حينئذ إلى العبد مجاز و أقرب تقرير يعطى القرب من فهم معنى الحديث أن يقال لما كان النور المحمدي هو أول الأنوار الحادثة التي تجلى بها النور القديم الأزلي و هو أول التعينات للوجود المطلق الحقاني و هو مدد لكل نور كائن أو يكون فكما أشرق النور الأول في حقيقته فتتورت بحيث صار هو نوراً كما دل عليه قوله عليه الصلاة و السلام في دعاء الأنوار و اجعلني نوراً أشرق نوره المحمدي على حقائق الموجودات شيئاً فشيئاً فهي تستمد منه على قدر تنورها بحسب كثرة الوسائط و قلتها و عدمها و كلما أشرق نوره و فاض على نوع من الحقائق ظهر النور في مظهر الانقسام فقد كان النور الحادث أولاً شيئاً واحداً ثم أشرق في حقيقة أخرى فاستنارت بنوره تنورا كاملاً- بحسب ما تقتضيه حقيقتها فحصل في الوجود الحادث نوران مفيض و مفاض و في نفس الأمر ليس هناك إلا نور واحد أشرق في قابل الاستنارة فتتورت تعددت المظاهر و الظاهر واحد ثم كذلك كلما أشرق في محل ظهر

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣١١

بصورة الانقسام و قد يشرق نور المفاض عليه أيضا بحسب قوته على قابل آخر فتتور بنوره فيحصل انقسام آخر بحسب المظاهر و كلها راجعة إلى النور الأول الحادث أما بواسطة أو بدونها و هذا غاية ما يمكن أن تصل إليه العبارة في هذا التقرير.

قال و مثلى في قصور باعه و عدم تضلعه من العلوم الإلهية إن زاد في التقرير خشى على إيمانه و لو لا تأييد الحق جل و علا ما كنا لنهتدي على أقل من هذا و الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

واقرب مثال يضرب لذلك إذ بالمثل تتضح الأشياء بعض الوضوح نور المصباح الذي ليس في البيت الكبير إلا- هو فتصبح منه مصابيح كثيرة [و يصبح بعضها من بعض فليس هناك في الحقيقة إلا نور المصباح الأول وقد انقسم إلى مصابيح كثيرة] و هو في نفسه باق على ما هو عليه لم ينقص منه شيء.

واقرب من هذا المثال إلى التحقيق و أبعد عن الإفهام نور الشمس المشرق في الأهلة و الكواكب على القول بأن الكل مستنير بنوره و ليس لها نور من ذاتها فقد يقال بحسب النظر الأول نور الشمس منقسم في هذه الأجرام العلوية و في الحقيقة ليس هناك إلا نورها و هو قائم بها لم ينقص منه شيء و لم يزيلها منه شيء و لكنه أشرق في أجرام أخر قابلة للاستنارة فاستنارت.

واقرب من هذا للفهم ما يحصل في الأجرام السفلية من إشراق أشعة نور الشمس على الماء أو قوارير الزجاج فيستنير ما يقابلها من الجدران بحيث يلمح فيه نور كنور الشمس مشرق بإشراقه و لم يفصل شيء من نور الشمس على محله إلى ذلك المحل و من كشف الله حجاب الغفلة عن قلبه و أشرقت الأنوار المحمدية على قلبه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣١٢

بصدق أتباعه له صافية بصفاء إيمانه بالله و رسوله من شبه الباطل أدرك الأمر إدراكا آخر لا يحتمل شكا و لا و هما نسأل الله أن بنور بنور العلم الإلهي بصائرنا، و يحجب عن ظلمات الجهل سرائرنا، و يغفر لنا ما اجترأنا عليه من الخوض فيما لسنا له بأهل بل نحن عن أهله بمعزل، و لم نطف قط بساحته فضلا عن المنزل، و نسأله أن لا يؤاخذنا بما تقتضيه العبارة من تقصير في حق ذلك الجنب، ناشئ عن القصور في مقام العرفان و نزول منازل الأحياب.

و لقد أجاد كل الإجادة صاحب منارات السائرين إلى الله لما قرر معنى كون النور المحمدي أصل الموجودات و لأجله خلقت مع مجيئه آخر و ضرب لذلك مثلا قريبا إلى الإفهام ببذر الشجرة مع الشجرة و الثمرة فجعل النور المحمدي الذي هو الأصل كالبزر و العالم كله شجرة و اللطيفة المودعة في ذلك البزر سارية في جميع أجزاء الشجرة من أوراق و أغصان و أزهار فيه قامت و لولاه ما وجدت ثم الحقيقة المحمدية الموجودة بصورتها آخرًا بمنزلة الثمرة هي عين اللطيفة البزيرية السارية في عوالم الشجرة إلى أن ظهرت آخرًا على أكمل وجه مع عوارضها المشخصة فهي ثمرة الوجود بأسرها و لولاهما ما غرست الشجرة و لأجلها كان غراسها و هي أصلها و بزرها و هو مثال حسن قريب من الفهم و قد جعل صاحب الكتاب المذكور هذا المثال أصلا بنى عليه فصول كتابه كلها و هو حسن جدا مفيد في بابه إلا أن فهمه يعسر على غير أهله اه-.

و من أكرمنا بهذه الديار و استدعانا لمنزله الشيخ عبد الرؤوف نقيب كسوة

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣١٣

الكعبة المشرفة و هو من خواص أصحاب شيخنا الشيخ على الزعترى ذهب معنا يوما لداره باستدعائه و بالغ في الإكرام و المبرة و الاحترام و حدثنا و باسطنا حسبما يجب و أخبر أن الكسوة تقام كل سنة باثنين و عشرين ألف كيس و الكيس خمسمائة غرش و المحمل سبعة أكياس من أحباسها و ربما يزيد القيم المذكور من عنده أربعة أكياس إلى ستة و كان كثيرا ما يبحث عن علم الكيمياء و سر الحروف ليستعين به على ما هو بصده و حسبنا أننا نتعاطى من ذلك شيئا و استعظم كوننا غير معتنين بتلك الحرفة و لم يعلم أن طريقتنا كطريقه أشياخنا عدم استعمال الأسماء و الأوفاق بل و لا الأذكار طلبا لفائدتها العاجلة بل و لا الآجلة في الغالب و إن كانت حاصله ضمن ذلك و الكفاية بالله أولى من التعلق بالآثار.

و لله در شيخ شيخنا القطب الكامل وارث المقام المحمدي أبي محمد سيدي عبد الله بن حسين الرقي إذ قال لما بلغه أن بعضا اتهمه بعلم الكيمياء خدما لا إله إلا الله حتى وجدنا له بركة و من ظننا بخلاف ذلك فقد ظلمنا.

قلت و من أحق الناس من لم يرض بقسمة الله في حاله و مقامه و صار يتشوق لما لم يقدر له و لا تحمله قواه غافلا عن تدبير الله آياه قال و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء.

و لقد ذكر شيخنا أبو سالم في رحلته عن الشيخ على الصوفى و كان ممن يبحث عن هذا الفن أنه حدثه أن بعض من ينتحل علم الأسماء أخبره انه كان يستعمل دعوة آية الكرسي و يشتغل بها على طريق أهل ذلك و لا يبيت عندك منها درهم واحد فقال له لا أقدر على هذا فانه لا يكاد يخفى و أخاف على نفسى أن ظهر ذلك على من أرباب الدولة فلو كنت تأتيني كل يوم بشريفى واحد أو اثنين أو عشرة ففيها الكفاية فقال له لا بد من الألف على الشرط المذكور و إلا فلا و لم يزل راجعه فى الاقتصار

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣١٤

على الكفاية حتى أبى عليه فأيس منه و ترك قراءة الدعوة.

قال و هذا من أعظم دليل على حرق الراغب فى الدنيا فإن الله قد تكفل له بالكفاية على وجه يرضاه لى على قدر حاله و يعلم فيه صلاحه أن رضى و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء فلو أعطى ما فوق اللائق بحاله لم يستطع ألا ترى أن هذا لما رد إلى حال لا تليق إلا بالملوك و من يحاكيهم أى و من يماثلهم لم يقدر على ذلك لأنه فوق طوره و لا استغنى بالحال التى أقامه الله فيها فانه اعلم بشئونه لاستراح و لكنه أراد أن يدبر لنفسه حالا ظن أنه أولى به ممن خلاف مراد الله به فنبهه الله بما أراه على أن ما كان يظنه من أن كثرة المال هو اللائق بحاله و يحسن فى رأى و غلط فى التدبير لعجزه عن القيام به و هذا رجل ملطوف به و لو لا- لطف الله به لقبول ذلك فيكون فيه حفته قريبا و لكنه نظر ما آتاه الله من نور العقل و الحكمة فعلم أن ذلك لا يتم له لأنه على خلاف مقتضى الحكمة الإلهية اه-.

تنبيه الكسوة المذكورة إذا كان النصف من شوال أو قبله أو بعده يخرج المحمل الخروج الأول فيوتى بها من دار الصنعة فتضرب سجافة على باب القلعة فتخرج السناجق كلهم و الولاة و الأمراء و الحكام و القاضى كل واحد مع أتباعه و لكل واحد مجلس معلوم فى السجافة المضروبة و مجلس الباشا فى الوسط و عن يمينه مجلس القاضى و كلما أتى واحد من الأمراء و أرباب الدولة جلس فى مجلسه المعهود له و قربهم من الباشا بحسب قربهم من مناصبهم فإذا تكاملوا كلهم و أخذوا مجالسهم و صفت الخيل عن يمينهم صف كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذى هو أمام مجلس الباشا و هو ميدان كبير يسع من الخيل الألف و آخر من يخرج الباشا فتخرج أمامه طائفة من عسكره بعضه أثر بعض على ترتيب معلوم و قانون مضبوط

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣١٥

و آخر من يخرج معه طائفة من الشاوشية على أرجلهم عليهم جلود النمر و على رؤوسهم طراير طويلة من اللط لها ذيول معكوفة بين أكتافهم و على جباههم صفائح من الفضة مستطيلة مع الطراير إلى فوق مموهة بالذهب تلمع لمعانا فإذا خرج هؤلاء خرج الباشا بأثرهم راكبا فإذا وصل إلى السجافة قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس و كذلك يفعل من تقدم للجلوس من الأمراء مع من يأتى بعده فإذا جلس الباشا جىء بالجمل الذى يحمل المحمل و عليه المحمل و هو قبة من خشب رائقة الصنعة بخرط متقن و شبايك ملونة بأنواع الأصباغ و عليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب و رقبة الجمل و رأسه و سائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم و عليه رسن محلى بمثل ذلك و الجمل فى غاية ما يكون من السمن و عظم الجثة و حسن الخلقة مخضوب جلده كله بالحناء يقوده سائسه و عن يمينه و شماله آخر و يتبعه جمل آخر مثل صفته ثم يؤتى بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعا لكك قطعة منها على أعواد شبه السلالم معدة لذلك يحملها رجال على رؤوسهم و الناس يتمسحون بها و يتبركون و يؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد و تسمى البرقع كلها مخصوصة بالذهب حتى لا يكاد يظهر فيها خيط واحد بصنعة فائقة و كتابه رائقة ثم يمر بكل ذلك بين يدي الباشا و الأمراء و يقومون لها إذا مرت بهم تعظيما لها ثم يخلع على الذين صنعوها بمحضر ذلك المجمع ثم يذهب بها كذلك حملتها و يمرون بها فى وسط السوق و الناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسينى فتشرف فى صحن المسجد و تخاط هناك.

قال الشيخ العياشى فى رحلته فإذا كان اليوم الحادى و العشرون من شوال خرج المحمل من القاهرة و هذا اليوم هو يوم خروج

المحمل الكبير الذي هو من أيام الزينة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣١٦

و يجتمع له الناس من أطراف البلد و يؤتى بكسوة البيت الشريفة المعظمة المنيفة من موضع خياطتها و تجعل في المحال التي تحمل فيه و يجتمع الأمراء و السناجق و الجند جميعا على الهيئة المتقدمة في الخروج الأول إلا أن هذا أتم احتفالا و أكثر جمعا فإذا تكامل جميع الأمراء على الوجه المتقدم وصفت الخيل و الرماة و خرج الباشا جىء بجميع ما يحتاج إليه أمر الحاج من إبل و قرب و مطابخ و خيل و رماة و غير ذلك من الأسباب التي تخرج من بيت المال فيحضر جميع ذلك في ذلك الميدان كل طائفة لها أمير مقدم عليها حتى الطباخين و الفراشين و السقائين ثم يؤتى بالمحمل الشريف على جملة المذكور أولا يقوده سائسه حتى يناول رسن الجمل للباشا فيأخذه بيده و يناوله الأمير الحاج بمحضر القاضي و الأمراء و معاينتهم ثم يناوله أمير الحاج لسائسه فيذهب به و ذلك كله كالشهادة على الباشا بأنه مكن لأمر المحمل و كل ما يحتاج إليه أمير الحاج من ذهابه إلى إياه و على أمير الحاج بأنه تسلم ذلك و يشهد على ذلك القاضي و الأمراء و يكتب بذلك إلى السلطان فإذا مر المحمل بين يدي الباشا و ذهب جىء بالإبل يمر بها بين يديه بما عليها من القرب و المطابخ و الآلات كل طائفة بمقدمها فإذا مرت الإبل كلها جىء بالمدافع و هي خمسة تجرها البغال ثم جاء الرماة الرجالة من ورائها فيمرون ثم تأتي الخيل فتمر فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا جاء أرباب الطوائف كل طائفة من مشائخ الصوفية بشيخهم و لوأئهم رافعين أصواتهم بالذكر كالقادرية و الرفاعية و البدوية و الدسوقية حتى السعاة يأتون بشيخهم فيمرون بين يدي الباشا و يعطيهم ما تيسر فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحاج خلعة و على كل أمرائه الذاهبين معه كالكخيا و الدويدار و غيرهما ثم يودعه و ينصرف ثم يمر بالمحمل و سائر الإبل و العسكر

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣١٧

وسط المدينة و الناس مشرفون من الديار و المساجد التي تلى الشوارع و يتعطل غالب الأسواق في ذلك اليوم. قال أخبرنا أن بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تكرر من أول السنة و لا يسكنها مكتريها و لا ينزلها إلا في ذلك اليوم قصدا للتفرج و فيما سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره.

و بالجملة فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة و لا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفاته و يقرب منه أيضا يوم قدوم الحاج فهذه الأيام الثلاثة هي التي يحتفل لها عندهم غاية الاحتفال و يهتبل أتم الاهتبال فإذا خرج المحمل من الميدان الذي على باب القلعة إلى فضاء الرملة بقي الكثير من الخيل هناك للعب و لا يذهب معه إلا المعينون للسفر معه و الرملة فضاء واسع خارج قلعة الجبل فيه تباع الإبل و الخيل و سائر الدواب و به يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث و الأمتعة و تنصب فيه أيام الموسم اراح متعددة لتدشيش الفول يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها و قد أعطوا قوة على ذلك يطحن الرجالن أراذب متعددة في يوم واحد فتكون بالرملة صبر من الفول المدشش كل صبرة تزيد على المائة أردب و من هناك يكيل غالب الحاج قولهم و يعمرونه هناك من غرائهم و يمكنونه للجمالين فيذهبون به فلا يراه صاحبه إلى المكان المشترط معهم و هو المويلح في الغالب و في الرملة كثير من حلق المعجبين يلعبون هناك في سائر الأيام كأنواع المشعوذين و أصحاب القروذ و من ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب و الحمير و التيوس و الكلاب.

و بالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد و حيل غريبة قد سخرت لهم أنواع الحيوانات فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرا مذلا فسيحان

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣١٨

الذي خلق لابن آدم ما في الأرض جميعا و لقد كرمنا بني آدم و حملناهم في البر و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا.

قال و بطرق الرملة الذي يلي المدينة مسجد السلطان حسن و هو مسجد لا ثاني له في مصر و لا في غيرها من البلاد في فخامة البناء و نباهته و ارتفاعه و أحكامه و اتساع حناياه و طول أعمدته الرخامية و سعة أبوابه كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه كما تفعل في شواهد الجبال و في أحد أبوابه سارية و رخامية لطيفة يقال أنها من أيوان كسرى و فيها نقوش عجيبة يقال إنها على صورتها وضعت أبواب المسجد قال المقرئ لا يعرف ببلد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة في كبر قلوبها و حسن هنداسها و ضخامة شكلها قال و ذريع إيوانها الكبير خمسة و ستون ذراعاً في مثلها و يقال انه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع و قد وجدنا ركناً منه قد انهدم فكانه طرف جبل قد سقط فملاً ما تساقط منه الشوارع و الرحاب التي يازاته و وجدناهم مجددين في ترميمه.

و قد أخبرنا أنه أعطوا ستين كيساً من الريال على جمع أنقاضه و رفعها في الشوارع و الرحاب لتعاد للبناء ثانياً فإذا كان هذا أجره النقض فما بالك بأجره البناء قال و لما رجعنا من الحجاز بعد سنة و نصف وجدناهم قد فرغوا من ترميم ذلك الجانب المهديم و بالغوا في إتقان صنعه و رفع بنائه ليناسب البناء الأول فكان كما قيل :

يا بارقا بأعلى الرقمتين بدالقد حكيت و لكن فاتك الشنب

و الشنب الماء أو نقط بيض الأسنان اه قاموس فرحم الله أفاضل الملوك

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣١٩

الذين درجوا، و الذين من خلفهم على منهجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم، و وصول الدعاء ممن بعدهم إليهم، و لم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد و الخانات و بياعون في تعظيمها و يتأنقون في ذلك و يبادرون إلى إصلاح ما و هي منها.

و أما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجداً عظيماً قد أحدث بل و لا مهتماً قد جدد أو واهياً قد أصلح بل لو سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه أن كان مينا برخام أن يعاد بآجر و جص و إن كان مجصصاً أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي فيه من كل لون رقعة و إلى الله المشتكى و ما أرى ما حل بمغربنا من الوهن إلا بسبب أمثال هذا من عدم تعظيم شعائر الله و لو في الأمور الظاهرة فضلاً عن الباطنة و قد قيل إذا أراد الله خلاء بلد بدا بيته ثم يتبعه ما سواه و إذا أراد عمارته فكذلك.

ثم يسار بالمحمل على هيئته و تعبيته حتى ينزل ذلك اليوم بالعادية خارج باب النصر فيقيم هناك إلى اليوم الثالث و العشرين فيرحلون من هناك إلى بركة و يخرج أمير الحاج و جميع عسكره و يخرج مع الركب من المشيعين و من العساكر و الأمراء أضعافهم فتتصب الأسواق هناك و يخرج غالب الباعة و المتسبين بحيث يوجد هناك ما يحتاج إليه السفر بأرخص من سعر مصر و يقيمون هناك إلى آخر اليوم السابع و العشرين إلى أن قال.

تنبه أكثر العلماء مائلون في القهوة إلى الإباحة و ترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم في المطاعم و المشارب زاعمين أنها تعين على السهر في العبادة و يستعين

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٢٠

بها الطلبة كثيراً في المطالعة الليلية.

قال الإمام أبو سالم و لا شك أنها تزيل ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر و خلو المعدة صباحاً فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطاً و أحس بخفة رأسه و هذا في الغالب لمن اعتادها و هي مخففة اتفاقاً و هاضمة.

و صحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء و تكره لمن طبعه الصفراء و هي نافعة لصاحب البلغم و غيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره و لا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها.

والحاصل أن الشاربين لها فريقان يشربونها في أماكن معدة لذلك مزخوفة قلما تخلو من لهُو حضور من لا يحل حضوره من الجوارى و المرد فهؤلاء الحامل لهم على شربها أتباع الأهواء و التلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة فلا يبعد أن يقال أنها في حق هؤلاء محرمة لا لذاتها بل لما قارنا و فريق يشربونها في مساكنهم و حوانيتهم أو يشربونها في السوق و يشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول فهؤلاء الحامل لهم على شربها الفهم لها حتى أنهم ربما يتضررون ضررا خفيفا بتركها كما يتضرر من آلف الحجامه بتركها و من آلف شرب المسهل بتركه و غير ذلك من الأمور التي يعتادها الناس و يحملهم عليها أيضا تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر و من إزالة التدويخ صباحا و غالب ما يستعملونها مع طعام خفيف ككعك أو كسر خبز فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء هذا كله مع خفة المؤنة إذ بفس واحد يشرب ما يكفيه من ذلك مع تيسرها في أى وقت أرادها و لا يحتاج فيها إلى أكبر مؤنة و لا مقارنة أدام أو ملح أو أبراز أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة و يزداد

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٢١

على ذلك و هو أكبر منافعها عندهم أنها تقدم للضيف و تقوم قام الطعام عندهم و لا يستحي أحد في تقديمها للباشا فمن دونه و يقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في الأحيان دينارا فأكثر و درهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد بل لو قدم إليه أى طعام و لم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئا و إن قدمت هي كفت.

قال أخبرنا شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني أن شيخنا الإمام صفى الدين القشاشى كان يقول مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البن أى القهوة لأنهم ضعفاء فقراء فى الغالب و الناس يقدمون عليهم من الأفاق و الإنسان لا بد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه و لا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل أحد يدخل عليهم و هذه القهوة خفيفة المؤنة و الناس راضون بها غنيهم و فقيرهم و رئيسهم و رؤسهم فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأن اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعا.

قال ذلك بعض الشراح و قد سئل عن حكمها قال و كلام هذا الشيخ مع جلاله قدره و جمعه بين العلم الظاهر و الباطن و كلام غيره من أئمة الطريق مما يتقوى به قول من قال بإباحتها لأن المسألة إذا كانت ذات قولين و كان الصوفية مع إحدى الطائفتين ترجح قولهم لا محالة لما رزقوه من صدق الإلهام و نفوذ البصيرة مع تأييد الله لهم عند اشتباه الأمور فيميلون مع الحق أين ما مال لرفضهم دواعى الهوى نص على ذلك غير واحد من الأئمة و قد شاع و ذاع عند كثير من الناس بل ذكره غير واحد ممن تكلم عليها أن أول من أحدثها و أخرجها من أرض اليمن الشيخ الولي الصالح المتفق على ولايته سيدى على ابن عمر الشاذلى اليمنى و أمر أصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر فى العبادة ثم لم يزل أمرها يفسو شيئا فشيئا و من بلد إلى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٢٢

بلد إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية و كثيرا من المغربية فيحمل منها فى كل سنة من بلاد اليمن لكل أفق من الأفاق شرقا و غربا آلاف من الأحمال فتدفع فيها أموال قلما تدفع فى غيرها من التجارة فيبلغ الحمل منها فى مكة إذا رخص فوق العشرين ريالاً و بمصر إلى الخمسين و فى البلاد الشاسعة كأفريقية و بلاد الروم من القسطنطينية و غيرها فوق المئين ثم قال لكل جواد كبوة و لكل صارم نبوة.

رأيت فى مكة كلاما لابن حجر الهيتمى المكي فى إباحة القهوة بالغ فيه بالثناء عليها و ذكر محاسنها و كان من جملة ما ساقه مساق الاستدلال على أنها مباحة و أنها من شراب الصالحين و معينة على العبادة أن كثيرا من السلاطين و الولاة و الحكام قد بالغوا فى أرادة قطعها و النداء عليها فى الأسواق أن لا تشرب و لا بد من أراقتها و زجروا عليها بأنواع الزجر و مع ذلك لم تزد إلا شهرة و شيوعا فى البلاد فدل ذلك على أنها من شراب الصالحين و أنه قد شمل نظر مخرجها و مبدعها فلا يقدر أحد على قطعها أو كلاما هذا معناه لطول العهد به.

قال و هذا الاستدلال كما ترى ساقط فإن الدخان الذي شاع في الأفاق أكثر العلماء على تحريمه و هو الصحيح إن شاء الله لما اشتمل عليه من المفساد و لا منفعة فيه أصلا و أنفق أرباب القلوب شرقا و غربا على التنفير منه و كراهته و لم يزل الأمراء مجتهدين في قطعه و مع ذلك فلا- يزداد إلا- شهرة بل الخمر المحرم بالكتاب و السنة و الإجماع قد اشتهر في كثير في الأمصار و عمت البلوى به غالب الأقطار فالاستدلال بالشيوع و عدم القطع الولاء و الحكماء على الإباحة لا يخفى ضعفه و بطلانه على من له أدنى معرفة و تمييز بين صحيح الأدلة و باطلها فكيف بذلك الإمام اللهم إلا أن يقال لما لم يقتصر على الاستدلال عليه و ضم غيره إليه فكأنه لم يعتمد دليلا بل ذكره مقويا للأدلة و مستأنسا به و هو الظاهر من كلامه و مع ذلك فلا يخفى ضعفه فان

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٢٣

داعى الهوى لا سيما فى الأواخر غالب مع ميل النفوس إلى المطلوب و ضعف داعية الردع من الطالب انتهى.

قلت الاستدلال بما ذكر ظاهر و نظيره ضعيف و بيانه إن محدث القهوة إمام صالح عارف ولى و لم يحدثها سدى و إنما أحدثها لنفع ظاهر شامل إذ فعل مثله لا يخلو عن الفائدة و هو مصون عن العبث قطعاً و الولي محروس بعناية الله فلم يكله إلى نفسه طرفه و لا أقل م ذلك فلما أطلع الله على نفعها للامة و الخاصة أبدعها و أعلم بها أصحابه ثم سارت بها الركبان فى المشارق و المغرب و لم يذمها أحد من أولياء الله الصالحين و كذا أرباب القلوب فاشتهرت من غير نكير إذ لو كان هذا الحكم من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فركب الدليل عليها [من أحداث الولي لها و عدم النكير من أرباب القلوب و كذا من العلماء فأقبلت عليه] إذ قال الأجهورى إقبال العامة على الحديث دليل على صحته ذكر ذلك فى شرحه لألفية العراقي فى السيرة النبوية بخلاف الدخان فلم يحدثه ولى و كذا أنكره أرباب القلوب و ذمه أكثر العلماء بل حرموه فلا يشربه إلا خسيس الهمة و قد علم فى وطننا انه لا يشربه إلا من لا دين له أو ضعيف عقل بهوى.

و بالجملة فممنور السريرة لا يشربه و يزجر عن شربه بخلاف القهوة إذ أرباب القلوب وجدوا شربها مغيرا لها و مكذرا لصفوها و مانعا من الفتوحات اللدنية و العوارف الإلهية و صارفا عن الحضرة الربانية فشربه كأكل طعام محرم و آكله يعصى الله شاء أم أبى فإذا كان كذلك فإنكاره دليل على ذمه شرعا لا سيما و إن

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٢٤

أفاضل العلماء قالوا بحرمة لما فيه من ضرر الأبدان بل فى بعض الأحيان انه يغيب العقل و يوجب إسرافا فى المال من غير منفعة دنيوية و لا دينية بل مضرهما.

و قد قال الشيخ عبد الباقي فى شرحه على العزية عند ذكره لشربه فقال بجوازه إذ لا دليل على تحريمه شرعا و الأحاديث المروية فى منعه موضوعة يدللك على وضعها ركاكة أفاظها غير أن جوازه مقيد بقيود منها أنه لا يضر بالبدن فان اضربه حرم و كذا لا يمنع السلطان من شربه فإن منع منه حرم أيضا لأن السلطان له أن يمنع المباح فإن منعه صار حراما نص عليه غير واحد من شراح خليل و غيرهما من القيود فالمنع حينئذ من شربه طوق فى عنق و أيضا فى شربه التشبيه بأهل النار فى قوله تعالى و ما أدراك ما الحطمة ٥ نار الله الموقدة ٦ التى تطلع على الأفئدة ٧ إنها عليهم مؤصدة ٨ فى عمدة ممددة ٩ و لا شك أن الدخان كذلك يطلع على الأفئدة و ناره موصدة فى عمد الذى هو الغليون فى لغة مصر و السبسى فى لغة المغرب.

فإذا تمهد هذا ظهر أن نظر العارفين ليس كنظر غيرهم لأنهم لهم أدلة زائدة على القدر استدل به جميع العلماء و هى الإطلاع على خبث الأشياء الملتبسة التى وقع فيها الخلاف بين العلماء و كذا الأشياء الطيبة الملتبسة أيضا عندهم و إذا وقع الخلاف فى الكل فيستدل حينئذ برأى العارفين فى الجواز و المنع فيكون حينئذ من المرجحات لما لهم من الكشف التام و الإدراك الحقيقى على أتم حال و أكمله إذ لا يشك فيهم لغيتهم عن الأكوان و الآثار و الأوهام لأشراق شمس الحقائق على قلوبهم فلم تبق ظلمة الأوهام فيها قل جاء الحق و زهق الباطل فإذا لاح على قلب العارف فعل المختلف فيه مع كونه كاملا فى علمه مستوفيا لشروط الاقتداء بفعله فإن ذلك

يستدل به على كونه مأذونا فيه لا سيما إذا كان مما يستعان به على العبادة أو ينور القلب فلا جرم في جوازه و أن وقع لبعض العلماء فهي النهى لا سيما إذا كان فحاً أى الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٢٥ لا ذوق له فلا يعتبر.

فإذا علمت هذا علمت الفرق بين الدخان و القهوة فإن القهوة أقبل عليها المتلبسون بالصدق و الدخان الغالب فيه إقبال أهل الفسق عليه بل لا تجد صديقا عارفا يشمه أو يشربه فلا تساعد من يشربه و لا تسمع لقوله لما علمت قبل من اتفاق أرباب القلوب على ذمه و كفى و سلام على عباده الذين اصطفى.

انعطاف إلى ما كنا بصددده قال شيخنا المذكور ما نصه و من أحسن ما رأيت من الأسئلة و الأجوبة في شأن القهوة نظماً ما اشتملت عليه هذه الأبيات التي كتب بها العلامة رضى الدين محمد بن إبراهيم الحلبي الحنفى المعروف بابن الحنبلى للشيخ على بن محمد بن عراق إلى أن قال في الجواب عن إباحتها بحيث لا يحرمها ما عرض لها مما لا يحل حضوره من الشبان و النساء و آله اللهو غاية الأمر أن من ولاه الله أمور المسلمين يجب عليه أن ينكر ذلك و يزرع فاعله بان يفرق تلك الجموع و يشتت تلك المحافل و أما هي فحلال قطعاً.

و جوابى أنها حل و لا يقتضى ما قلت من تحريم عين و على ذى الأمر أنكار الذى شأنها حتى تصفى دون رين و إذا لم يستطعه دون أن يمنع الأصل ففعل منه زين و التدانى من حماها و هى فى وصفها المذكور شين أى شين و الصفا فى شربها مع فئة أخلصوا التقوى و شدوا المترين ثم ناجوا ربهم جنح الدجى بخشوع و دموع المقلتين فابتداء الأمر فيها هكذا قد حكاه عن ولى دون مين ذا جوابى و اعتقادى انه فى اعتدال كاعتدال الكفتين الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٢٦

قال و الإمام ابن عراق مشهور فضله و علمه و ورعه و هو صدر فى علماء الحرميين علماً و عملاً جوابه فى المسألتين هو الحق إن شاء الله و إلى مثل ذلك تميل أجوبه كثير من الأئمة إنها إذا خلت مما يضاف إليها من المحظورات فهى فى نفسها مباحة و على ذلك عمل كثير من الأئمة فى جميع الأمصار التى هى محل الاقتداء و ربما رأينا من يبالغ فى التنفير عنها من الأئمة المتعمقين فى الورع تركا لما لا بأس به حذراً مما فيه ألباس كما هو شأنهم فى غيرها من المباحات التى هى من الفضول انتهى كلامه.

قلت: و فى الخطاب ما نصه فائدة ظهر فى هذا القرن و الذى قبله بيسير شراب يتخذ من قشور البن يسمى القهوة و اختلف الناس فيه فمن متغال فيه فيرى أن شربه قربة و من غال يرى أنه مسكر كالخمر و الحق انه فى ذاته لا- إسكار فيه و إنما فيه تنشيط للنفس و يحصل بالمداومة عليه ضراوة أى استئناس و ألفه تؤثر فى البدن عند تركه كمن اعتاد أكل اللحم بالزعفران و المفراحت فيتأثر عند تركه و يحصل له انشراح عند استعماله غير أنه تعرض له الحرمة لأمر منها أنهم يجتمعون عليها و يديرونها كما يديرون الخمر و يصفقون و ينشدون أشعار من كلام القوم فيها الغزل و ذكر المحبة و ذكر الخمر و شربها و نحو ذلك فيسرى لذلك مع ما ينضم إلى ذلك من المحرمات و منها أن بعض من يبيعها يخلطها بشيء من المفسدات كالحشيشة و نحوها على ما قيل و منها أن شربها فى مجامع أهلها يؤدى للاختلاط بالنساء لأنهن يعتاطين بيعها كثيراً و للاختلاط بالمرد أى الشبان الذين لا شعر لهم لملازمتهم لمواضعها و سماع الغيبة و الكلام الفاحش و الكذب الكثير من الأردال الذى يجتمعون لشربها مما يسقط المروءة بالمواظبة عليها و منها أنهم

يلتهون بها عن صلاة الجماعة غنية لوجود ما يلهمي

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٢٧

من الشطنج ونحوه في مواضعها منها ما يرجع لذات الشارب لها كما أخبرني والدي رحمه الله وحفظه عن الشيخ العارف بالله تعالى العلامة أحمد زروق انه سئل عنها في ابتداء أمرها فقال أما الأسكار فليست مسكرة و لكن طبعه البلغم فإنها توافقه وقد كثرت في هذه الأيام واشتهرت و كثر فيها الجدل، و انتشر فيها القيل و القال، و حدثت بسببها فتن و شرور و اختلفت فيها فتاوى العلماء و تصانيفهم و نظمت في مدحها و ذمها القصائد و الذى يتعين على العاقل أن يتجنبها بالكليّة إلا لضرورة شرعية و من سلم من هذه العوارض كلها الموجبة للحرمة فإنها ترجع في حقه إلى أصل الإباحة انتهى.

قلت: وهذا هو الحق الذى لا معدل عنه و الله يدعو إلى دار السلام و يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

و ممن اجتمع به شيخنا المذكور الأستاذ الشيخ محمد البقرى و إليه انتهت اليوم بالديار المصرية رياسة علم القراءات و أخذ عنه علم القراءات إلى أن قال و حرر كتبه يوم السبت المبارك السابع عشر صفر من شهور سنة ألف و مائة و عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام و الله اعلم.

و ذكر لنا أن من أراد قضاء الحاجة و قدم إليها انه يكتب على خنصر يده اليمنى محمدا و فى إبهامها دحطه بالدال و الحاء و الطاء المهملات و التاء المثناة من فوق و يذهب إليها فإنها تقضى بحول الله و قوته و أفادنا أيضا أن من قرأ سورة إذا زلزلت إلى آخرها ثم يقول سبحان الله ملء الميزان و منتهى العلم و عدد المنعم و مبلغ الرضى و زنة العرش فإن الله يكتب له من الأجر قدر ما بين حروف إذا زلزلت إلى أول القرآن و يمحو عنه بقدر ذلك من السيئات و يرفع له بذلك درجات.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٢٨

و عنه أيضا من وضع يده على جبهته و قرأ يا مبدئى يا معيد ثلاث مرات ذكّرني ما نسيت فانه يتذكر الشىء الذى نسيه و عنه أيضا تكتب الفاتحة أحرفا مقطعة و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و هذه الأحرف ف ج ش ت ث خ ز تمحى بماء ورد و سكر و يشرب فإنها تزيل جميع ما فى الإنسان من الأوجاع.

و عنه أيضا:

لا تعترض من تراه تكتب من الأحباب

و احذر تكن منكرا تترد عن الأبواب

أهل الولا فى الورى أخفاهم الوهاب

كليلة القدر أخفاها عن الطلاب

و قال هذان البيتان لسيدى عبد الوهاب الشعرانى من الملحون و لم يقل منه شيئا سوى هذين البيتين و أقول زرت ما زاره الشيخ المذكور بمصر غالب ما بها من المزارات بالقرافتين الكبرى و الصغرى من أئمة الإسلام و علماء الدين و ما بداخل المدينة كذلك و من أجل المزارات و أعظمها بركة و نجح المشهد العظيم المحتوى على جماعة من أهل البيت رجالا و نساء أشهرهم السيدة نفيسة الطاهرة و إليها ينسب المشهد و بها يعرف و عليه بناء عظيم و بازائه مسجد و بيوت تسكن فلما تخلو من زائر و راغب إلى الله فى كشف كربه و قبرها معروف بإجابة الدعاء فهو ترياق لنيل كل مراد، كقبر ابن عمها موسى الكاظم ببغداد، و هى السيدة نفيسة بنت الأمير حسن بن زيد بن على بن الحسين دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق و كان الإمام الشافعى يصلى بها التراويح فى رمضان رضى الله عن جميعهم.

وزرنا أيضا قبر الإمام الذى لا ينبغي لأحد دخل مصر أن يهمل زيارته إذ هو صاحب التصريف التام بمصر رئيس الأئمة، و شيخ شيوخ

الأمة، محمد بن إدريس

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٢٩

الشافعي رضى الله عنه و عليه بناء عظيم و مسجد و خانقات و قوم من الفقراء يسكنون هناك و قيم المشهد لا يفارقه ليلا و لا نهارا و هو من المشاهد الكريمة، و المآثر العظيمة، له أوقاف كثيرة و يتخذ عند قبره كل ليلة سبت مولد يجتمع فيه أناس كثيرون يضيق بهم المسجد و أفنيته ما بين فقراء و أمراء رجال و نساء يبيتون طول الليل بين ذكر بجماعة و صلاة و قراءة قرآن لا يفترتون إلى طلوع الفجر و ذلك دأبهم أبدا في كل ليلة سبت و لا يخلو ذلك المجمع من جماعة من الصالحين فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني أن جماعة من الأولياء يحضرون كل يوم لزيارة الإمام الشافعي رضى الله عنه و هو حقيق بذلك و جدير فانه بالمحل الذي لا يدرك علما و عملا- و حالا- و فتوة و حسن أخلاق و زكاء أعراق و نصره للدين و حماية له باذلا في ذلك نفسه و ماله و جاهه فقد اتفق العلماء على انه ليس في أصحاب الأئمة مالك رضى الله عنه أثبت و لا أعلم و لا أفقه من الإمام الشافعي كما اتفقوا على أنه ليس في مشائخ الإمام الشافعي أجمع للخصال المذكورة من الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه و عن جميعهم و ما علم من تعظيم كل واحد منهما للآخر و ثنائه عليه يدل على أنهما عالما الأمة و ناصرا السنة و شيخا المشرقين و المغربيين و قمر سماء الكتاب و السنة المنيرين فالعلماء في كل قطر من بعدهما عيال عليهما فهما فرسا رهان، و قطبا فلكى الإتيقان، و أن أنفرد الإمام مالك رضى الله عنه بفضيلة السبق و رتبة الأستاذية و سكنى المدينة و دار الهجرة و السنة إلى أن مات فللإمام الشافعي رضى الله عنه مزايا كثيرة، و مآثر شهيرة، استحق بها أن يشهر و يذكر، و يحمد في دين الله و يشكر، نسال الله تبارك و تعالى أن يرزقنا محبتهم و تعظيمهم و محبة سائر الأئمة المجتهدين، و العلماء المهتدين، خصوصا شريكهما في تقرير المذاهب، و حيازة التشريف باسم الأئمة بالغبلة و ذلك من أعظم المواهب، الإمام الأعظم أبا حنيفة و ناصر السنة أحمد بن حنبل فكلهم على هدى من ربهم، و مهتد حقا من اهتدى بهم، فرضى الله عنهم و عن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣٠

سائر العلماء أجمعين، و جعلنا لمناهجهم السديدة من خيار المتبعين.

وزرنا أيضا الإمامين الشهيرين، الشامخين الهمامين الحاملين، لرأية مذهب مالك، السالكين في ذلك أحسن المسالك، رأية المذهب، عبد الرحمن بن القاسم و حاميه و ناصره أشهب، رضى الله عنهما و قبراهما متجاوران يستجاب الدعاء عندهما مجرب و ذكر الإمام أبو القاسم القشيري رضى الله عنه في رسالته أن من وقف بين قبريهما و قرأ قل هو الله أحد مائة مرة ثم استقبل القبلة و دعا أجيب دعاؤه و يازائهما قبور كثيرة لمشائخ الأئمة رضى الله تعالى عنهم و زرنا بائع نفسه في مرضاة الله المجاهد في سبيل الله عقبه بن نافع الصحابي رضى الله عنه و عليه بناء عظيم، و مسجد كريم، و زرنا أبا الفيض ذا النون المصري و شيخ المشتهرين بحب الله لسان المحبين أبا حفص عمر بن الفارض رضى الله و قبور السادة بنى الوفا، مناهل الصفا، و مشائخ العارفين الإمام تاج الدين ابن عطاء الله صاحب الحكم و الإمام شرف الدين البوصيري و إمام المحققين ابن أبي جمرة و تلوه في المعارف و العوارف ابن الحاج صاحب المدخل و غير من ذكر من المشائخ لو تتبعنا ذكر أسمائهم لطلال الكلام و لا نستقصيهم و زرنا محل الشيخ أبي عبد الله المغاوري على حرف الجبل مشرف على القرافة كلها و بالجملة بفضل القرافة و ما اشتملت عليه من المزارات أشهر من أن يذكر، و أظهر من أن يشهر، و قد ورد في الآثار أنها بقعة من الجنة و لذلك أمر الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه بجعلها مقبرة للمسلمين قائلا لا أعلم تربة الجنة إلا مقابر المسلمين رضى الله عنه ما أصدق فراسته، و أجل إمامته، و زرنا تربة المجاورين، و من اشتملت عليه من الأئمة المحققين، و العلماء العاملين، و سمي هذا المكان بتربة المجاورين لأنه قريب من الجامع الأزهر و به يدفن غالب أهله و المجاورين له بل الأماكن القريبة من الجامع كلها تسمى حارة المجاورين إذ لا يسكنها في الغالب إلا العلماء و الغرباء و الفقراء و قل أن تجد يازائه دار سنجد أو أحد أرباب الدولة لضيق

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣١

المحل و هم يريدون السعة و القرب من القلعة التي هي محل الباشا و أكابر دولته و زرنا كذلك غالب من بالقرافة الصغرى من الصالحين و زرنا قبر الشيخ خليل رضى الله عنه و قبر شيخ الشيخ أبى عبد الله المنوفى و هما فى مكان واحد و بقربهما تربة الأئمة اللقائين و زرنا أيضا قبر السلطان المرحوم الملك المعظم المهاب العدل المعدود من الأولياء الأتقياء كما ذكر غير واحد من الأئمة السلطان قايت باى رضى الله عنه و أرضاه و نفعنا ببركاته و على قبره بناء عظيم و بازائه مسجد متقن و محلات لسكنى الفقراء و لقيم القبر و هو لا يخلو من عمارة و عند رأس القبر حجر منبى عليه بناء حسن فيه اثر قدمين شاع عند الناس أنها قدما النبى صلى الله عليه و سلم و هناك حجر آخر فيه اثر قدم أخرى يقال أنها قدم الخليل و الناس يزورونهما و يذكرون أنها من الذخائر التي ظفر بها قايت باى أيام سلطنته فجعلت عند قبره رجاء بركاتهما و لا يبعد ذلك فقد كان ملكا عظيما عدلا موقرا مهايا محبا إلى الخلق ذا سيرة حسنة فى الرعية و اجتهاد فى عبادة ربه إلا أنه لم نر من نص على أنه ظفر بشىء من هذه الآثار من المؤرخين بل قد ذكر جماعة من حفاظ المحدثين أن ما استفاض و اشتهر خصوصا على السنة الشعراء و المداحين من أن رجل النبى صلى الله عليه و سلم فى الحجر لا أصل له و لم يذكر أحد أن اثر الخليل عليه السلام موجود فى غير حجر المقام.

أقول قال شيخنا المذكور قال شيخنا العياشى فى رحلته و بالمدينة المنورة و مكة و القدس آثار يقال أنها آثار بعض أعضاء النبى صلى الله عليه و سلم من قدم و مرفق و أصابع و الله اعلم بصحة ذلك و لكن لم يزل الناس منذ أعصار يتبركون بها من العلماء و الصلحاء و يقفون الأخير منهم الأول قال فلاجل ذلك لما دخلنا إلى مزار السلطان المذكور صب القيم على الأثرين شيئا من ماء الورد فغمسنا فيه أيدينا و مسحنا به على وجوهنا و رؤسنا و أبداننا رجاء البركة بحسن النية و جميل الاعتقاد لأن المنسوب إليه ذلك عظيم و رائحة النسبة مع حسن النية كاف فى ظهور الأثر

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣٢

و حصول المرام و لم يزل الناس يتعرفون البركة و إجابة الدعاء فى الأماكن المنسوبة إلى الأنبياء و الأولياء و العلماء و لو لم تصح النسبة فما بالك بما نسب إلى سيد الوجود فالكل فى الحقيقة إليه منسوب إذ هو أصل الموجودات و سر المشهودات فأى محل كان مظهرا لبعض كمالاته بالفعل أو بالقول أو بمجرد النسبة مع أصل النسبة الحقيقية عمت البركة و غشيتهم الرحمة يدرك ذلك بالذوق أربابه، و يتعرفه بالبصيرة النورانية أصحابه، و الله المسئول أن يمدنا بمدده السارى فى أسرار محققى أتباعه، و ينظمننا فى زمرة حزبه و أشياعه، و صلى الله عليه و سلم و على آله و أصحابه الطيبين الطاهرين انتهى كلامه.

و من يوم خروج المحمل شمر الناس عن ساق الجد فى التجهيز للسفر باتخاذ الزاد و شراء الإبل أو كرائها و أزيحت العلل و كان الناس قبل ذلك فى سعة من أمرهم و يقدم الجمالون من الصعيد و الأرياف طالبين الكراء و اختلفت رغبات الناس فى ذلك فمن مائل للكراء و من مائل للتدرب بإبله فمن أراد راحة بدنه و تعب قلبه و الخصومات آناء الليل و أطراف النهار اكرت و من أراد سلامة قلبه و دينه و المخاطرة بماله اشترى إبله ثم أتى عرب الدرب للكراء على حمل الفول من مصر إلى المويلح و من أراد المخاطرة فلا يكرت شيئا و يشتري فى كل بندر ما يحتاج إليه إلا أنه ربما يقل فى بعض الأحيان فيشتري فى بعض المحال غالبا و غالب الأوقات يكون الأمر متقاربا فى الشراء و الكراء و ربما كان الشراء أرخص من الكراء.

قلت و فى وجهتنا هذه كان الشراء أرخص بكثير و التقى الناس من رخص الأسعار فى جميع البنادر ما لم يخطر لهم على بال و كاد يعد من المحال و كذا فى الحرمين الشريفين فسبحان من بيده الأمر كله يفعل فى ملكه ما يشاء تبارك و تعالى و هو أرحم الراحمين.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣٣

و لا- يقطع الكراء مع واحد من عرب الدرب حتى يأتي عريفهم لأمير الركب فيتقاطع معه فى الكراء و يعطون له حملاء هناك بمصر لثلا يغدروا و ربما غدروا فى بعض السنين فيغلى الفول فى بعض البنادر فيكابد الناس لذلك ما الله به عالم فإذا كان اليوم الحادى و العشرون من شوال خرج المحمل من القاهرة و هذا اليوم هو يوم خروج المحمل الخروج الكبير الذى هو من أيام الزينة و يجتمع له

الناس من أطراف البلاد إلى أن ينزل خارج باب النصر بالعادية فيقيم هناك إلى اليوم الثالث والعشرين فيرحل من هناك إلى البركة و يخرج أمير الحاج و جميع عسكريه و يخرج مع الركب من المشيعين و من العساكر و الأمراء أضعافهم فتنصب الأسواق هناك فيخرج غالب الباعة و المتسبين بحيث يوجد هنالك ما يحتاج للسفر بأرخص من سعر مصر و يقيمون هنالك إلى آخر اليوم السابع و العشرين و أما المغاربة فلا يخرج منهم إلا من قصده هنالك مع المصري مؤثرا مشى الليل على مشى النهار مستسهلا مشقة الشهر بالليل عن حر النهار لا سيما في أيام الصيف و إنما يؤثر ذلك غالبا صنفان من الناس أهل القوة و الثروة الذين لهم شقاذف و محامل و هودج ينامون فيها بالليل على ظهور الإبل و يصبحون بالنهار كأنهم مقيمون و لا شك أن هذا أولى لهم من السير نهار إذ وطنوا أنفسهم على بذل الدينار و الدرهم للجمال و العكام و السقاء و الطباخ و قائد الإبل و غيرهم وهم في ذلك متعاطون من النوم على ظهر الدابة ما تأباه الشريعة السمحة المبنية على الرحمة و الشفقة. و الصنف الآخر الفقراء الذين لا إبل لهم و لا أمتعة فيسترقون عند المصري بالماء المسبل في أوقات من الليل و عند الرحيل نهارا مع ما ينالهم من أهل الثروة من التصدق بفضل الأطعمة إلا أنهم يكابدون مشقة عظيمة في المشى و السهر ليلا و في النهار يشتغلون بالسعى على ما يقوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا و أما المستوقة و الباعة و الجمالون من فلاحى مصر فلهم قوة و فرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك فبالليل يسيرون و بالنهار يعملون فى البيع و الشراء

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣٤

و السقى و الطبخ و علف ال بالسعى على ما يقوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا و أما المستوقة و الباعة و الجمالون من فلاحى مصر فلهم قوة و فرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك فبالليل يسيرون و بالنهار يعملون فى البيع و الشراء و السقى و الطبخ و علف الإبل و إصلاح أقتابها و مداواة جراحاتها فلا يكادون ينامون حتى القليل.

أقول قال شيخنا أبو سالم و قد أخبرنا عن بعض من اعتاد السفر فى درب الحجاز من الجمالين أنه لم ينم من يوم خرج من مصر إلى أن رجع إلى مصر مائة يوم و هذا كالمحال عادة فان صح فهو من أغرب الغرائب و لعله كان لا يضطجع للنوم على هيئة القاصد لذلك بل يغفى إغفاءة تارة على ظهر بعيره و تارة فى وقت انتظار حاجه أو فراغ من أكل أو ما يظاهى ذلك فإن كان مثل هذا فلا يستبعد انتهى.

و أما من لم يقصد الذهاب مع المصري من المغاربة فلا يخرجون إلى اليوم السابع و العشرين من شوال و ينزلون بالبركة عند رحيل الركب المصرى أو قبله بقليل.

قلت و هكذا كانت العادة و قد يؤخرون فى هذه الأواخر بحسب تجهيزهم و تهيئه زادهم و ما يحتاجون إليه لمسافة الدرب أمامهم و لله در العلامة الصلاح الصفدى :

درب الحجاز مشقة لكن إذاالجمال هان تسهلت أهواله

أصبحت فى تصريف جمالى على ما يشتهى فكأننى جماله

قد كان خف على فؤادى لو غدامن فوق ظهرى بالسوا أحماله

و يكون طوعى فى الذى أختاره لكن قسا و تضاعفت أثقاله

و قال أيضا فى المعنى:

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣٥ درب الحجاز مبارك لكنه يحتاج صبرا زائد الأجمال

و غبونه شتى و لا مثل الذى أصبحت ألقاه من الجمال

و قال أيضا:

غدا سفر الحجاز كما تراه لأخلاق الرجال بدا محكا

فكم من صاحب أمسى عدوا به و صحيح ود قد تشكى

و جمال جميلك لا يراهو عكام أتى من أرض عكا

كما أن المقوم فى أعوجاج و حين تقيمه بيديك دكا

ثم بعد الأسفار تحملنا بحملنا ما لا- مندوحة عنه فى الأسفار فعوضنا الخيام من المسك، و فوضنا إلى الله الأمر فى المحرك و المبرك، و نحن نتوقع تواتر الأذى، و نتوقى توالى القذى، فما وجدنا و المنه لله إلا- اللطف الخفى و الإعانة، و تسهيل الطريق منه تعالى و سبحانه، و نكبنا البركة ذات اليسار، و شمرنا ذبول التيسار، أمين الدار الحمراء، مستمدين من مالكة الغبراء و الخضراء، و هان علينا بذل البيضاء و الصفراء، بل سررنا بذلك لما أملناه، و خف على النفس كل ثقل لما قصدناه.

سررنا و طبنا حين سررنا لطيبه و لم نخش من طول المسير التماديا

و قلنا اجتهد يا سائق الركب إنماتهون المنايا أن بلغنا الأمانيا

و بركة الحاج المذكورة هى بركة واسعة مد البصر يتموج فيها ماء النيل العذب الفرات تنصب فيها الأسواق الحافلة بشاطئها و القهاوى المزخرفة و الفساطيط المؤنقة و يخرج غالب أهل مصر لوداع الحاج و التفرج هناك و التنزه فى بساتين و مقاصير على شاطئ النيل المنصب إلى تلك البركة و فى جانبها الغربى قرى متعددة فى أحداها مسجد لسيدى إبراهيم المتبولى حسبما ذكره الشيخ الشعرانى فى الطبقات فنزلنا غربى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣٦

الدار الحمراء فاستهل لنا هلال ذى القعدة و هو كالسنان المنعطف فوق الصعدة.

انعطاف و تنبيه لما ظعنا من كفر حمام أردت أنا و من اتبعنى من الفضلاء السفر مع الركب المصرى لما اشتهر من ظلم الركب الجزائرى للناس و للهرج فيه أيضا حتى أن الإنسان يتمنى لم يقدم إلى الحج و ان شيخ الركب ليس إلا يساعد الناس على ما هم عليه من ظلم و غيره و أنا لا أملك نفسى عند ظهور الظلم و ساعدنى الأخ فى الله سيدى أحمد الطيب و سيدى أحمد بن حمود و غيرهما من أفاضل الركب فلما ظعنا و أرننا الفرقة رحل جميع الركب و راءنا من غير تراخ إلى أن وصلنا إلى إمبابة و جاهة بولاق فنزلنا فرادى و نزل معنا بعض الركب و بقينا أياما هناك غير أن الناس لم يتزجروا عن التعدى عن زرع الناس بل حصدوه و رعوه بالإبل و الفلاحون يتشكون و يبكون و يتباكون فنهيناهم و زجرناهم بل ضربنا بعضهم فلم يتزجروا بل زادوا ظلما و عدوانا فذهبت للشيخ فقلت له ليس إلا- الانتقال إلى بولاق فرحلنا و قطعنا النيل بأجرة كما هو العادة غير أن أهل الركب يقطع أكثرهم و يمتنع من إعطاء الأجرة فلما رأينا ذلك منهم و شاهدنا عدم توبتهم نزلنا فرقتين فالشيخ مع بعض الركب نزل محاذيا لبولاق و نحن نزلنا بين مصر و بولاق ثم أن من نزل معنا من لم ينكف عن الظلم و التعدى فاكثرنا عن رجل جندى غير أنه لما طلب قبض ثمن الكراء اتهمناه فأتينا به إلى شيخنا الفاضل الكامل المحقق العلامة المدقق صاحب التصانيف المفيدة سلطان العارفين و إمام السالكين الشيخ البركة سيدى محمد الحفناوى نفعنا الله به و بأمثاله أمين فعاهده و توثق جميعنا بحضرتة.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٣٧

نعم قد ألزمت نفسى أنى لا أعطى دراهمى أحدا إلا بعد رفع الأحمال و الدخول فى السفر فأخذ ذلك الجندى الدراهم من بعض الحجاج اعتمادا على الشيخ المذكور فبعد يومين أو ثلاثة هرب بالدراهم على أنى بعثت له جملا بعشرين ريالاً أبو طاقة و الأجل مكة فذهب الجمل إلى أن وصل بولاق فرجع الجمل بنفسه من غير قائد و لا سائق و هو من خوارق العادة إذ من غفل لى دابته طرفه عين أخذت من غير شك فلما علمنا بهروبه ربطنا ولد أخيه و أعلمنا حاكم بولاق فحبسه و أعطى الحجاج ما وجد بين يديه من المال فلعناه و قسمناه بينهم فصار لكل نصف ما أعطى إذ قد أحاط الدين بجميع ماله.

نعم فلا- تغتر أيها الحاج بحلاوة اللسان من الشياطين و لا بإظهار المودة و لا بكثرة الإيمان فإنهم ذئاب فى ثياب و كذا أن أتوا لك

بهديئة لا تقبلها منهم فإنهم يريدون التحيل بالوصول بها إلى مالك فتقع في شبكة لا مخرج لك منها فلا يعتبرون عهدا ولا مودة ولا يمينا ولا صحبة ولا شيخنا ولا وليا إلا المكر والخديعة فلا يرجى منهم إلا الخيبة والخسران والنكث والعكس ولا ينجو منهم إلا من اشترى إبلا لنفسه وحمل عليها وإلا فقد قطعوا الطريق وأسبابها لأنهم أن قدروا على أخذ المال تحيلا فعلوه وإلا أخذوه بإعطاء رشوة لأصحاب المخزن من الدعاوى الكاذبة والفجور وإظهار الشكوى بلسان الباطل وغير ذلك من فضائحهم فلم يبق إلا النصره بالله والاعتماد عليه ليحفظك من شرهم وبسبب ذلك انقطعنا عن الركب المصري.

نعم اجتمعنا و تشاورنا فظهر لنا السفر مع سلطان فزان و حاكمه لما ظهر لنا فيه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٣٨

من الحكم والعدل فتعينت أنا والفاضل الزاهد الورع سيدي محمد الشريف النوفلي الطرابلسي للمشي إليه لطيلون إذ هو نازل هناك فلما وصلنا إليه أخبرناه بالسفر معه وأخبرناه بالسبب ففرح و سر بنا سرورا عظيما فلما رحل رحلنا معه و نزلنا عليه خارج مصر و بعد ذلك اختلط معنا ركب الجزائر ثم رحلنا معه في النهار إلى البركة لينذهب مع الشيخ كل من يريد ركبا فبتنا جميعا فلم يزالوا على النهب والتعدى في البركة ذلك اليوم وبتنا جميعا والركب الفزاني نزل حده فلما طعنا صبيحة ذلك اليوم تأخرنا إليه أعنى جميع من يتبع سيدي أحمد الطيب و سيدي أحمد بن حمود و سيدي محمد الشريف و زابر هذا الكتاب فاجتمع أهل وطننا أعنى من الجزائر إلى قسنطينة معنا وما بقي إلا أهل عامر وقصر الطير وأولاد عبد النور وأولاد سعيد بن سلامة و من تعلق بجمعهم وكذا أهل بسكرة وأهل مدكال وأهل المسيلة وأهل الصحراء وأهل الزاب وغيرهم الكل مع الشيخ سيدي محمد المسعود وقد رفع منهم ما رفعت الأرض من أعباء الثقلين جزاه الله عن المسلمين خيرا.

تنبه و قد زرنا في هذه الحجة شيخنا الفاضل الكامل سلطان العارفين، وإمام الطريقة والسالكين، الجامع بين الحقيقة والشريعة، سيدي محمد الحفناوي، والشيخ الصالح، والبدر الواضح، نخبة العارفين، و درة الموحدين، الشيخ الجوهري وزرت أيضا من بالأزهر من العلماء والطلبة وغيرهم واجتمعت مع أبي الحسن شيخ رواق المغاربة وأعارني الشيخ الحطاب شارح المناسك لخليل وهو شرح جليل قد سافرت به إلى مكة أحياء الله على السنة النبوية وأعلمته بشرحي على خطبة شرح الصغرى فلما رآه ورأى حاشيتي على المحقق المراكشي السكتاني استحسنت جميع ذلك وقد

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٣٩

شرح هو أيضا هذه الخطبة غير انه اختصره كثيرا ثم اجتمعت الطلبة وكلموني على مسألة الجوهر الفرد إذ عندنا معشر أهل السنة موجود وأما عند غينا فمستحيل لشبهات أوردتها من منع فردها أهل السنة بأمر معلوم نص عليها غير واحد كابن التلمساني في شرح المعالم والسعد والإمام السنوسي وغيرهم أن البعض ممن يدعى التحقيق من الأفاضل المحققين يسلم أدلة المنع ويمنع أجوبة أهل السنة لتمكن الشبهة في قلبه فلما أوردوا تلك الأدلة فمنهم من فهم الشبهة فمنع جواب أهل السنة ومنهم من لم يفهم الشبهة ولا الجواب عنها ففتح الله على بسد تلك الثلمة ومنع تلك الشبهة من أصلها ورفع ما عسى أن يرد من المحال على وجود الجوهر الفرد فأشرق على نور العرفان حتى علم الحق كل من حضر وتعجب الكل في ردع المفصح بها فصعق من حضر ذلك المجلس.

نعم شهدوا الفضل و انه باق و ان الفتح والوهب لا ينقطعان أبدا حتى أن بعض من كان في المجلس لما أفاق من سكرة البغت أراد ببضاعه عقله وضعف ملكته أن يرد ذلك الجواب بالحل والنقض فلم يقدر لكونه سماويا إلهيا نزل من عند الله طريا ولو أن أهل المعقول آمنوا و صدقوا بفتوحات القوم لفتح الله عليهم من بركات السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذوا بحجاب الجهل وأطوار البشر بغتته من غير تراخ فسكت لكسف نور شمس.

نعم بعد ذلك طلب مني جميعهم قراءة الكبرى للشيخ السنوسي وقالوا لا بد أن تحضر الشيخ على الصعيدي وقت أقرائه إياها وأنك لا بد أن تشتي عندنا فوافقتهم على أقرائها ومساعدتي لهم عليها فكل من سمع من الطلبة فرح و سر بذلك غير أن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٤٠

منعنى من الإقامة في مصر لما كان من الهرج والفتنة والنزاع بين الحجاج [و الشيال لأن من دخل بولاق من الحجاج ربطوه و حسبوه و من دخل منهم الركب ربطه الحجاج] فوق هول عظيم و جميع الفضلاء يجرى بين الجميع بالصلح حتى خفنا على أنفسنا من كثرة الظلم الواقع من الجانبين غير أن الحجاج مظلومون بالنسبة للمال إذ أفرضوهم في الطريق فأكلوهم و أرادوا الزيادة منهم و أما الحجاج فقد ظلموهم بالضرب في الطريق و الشتم و كل عمل قدروا عليه فانتم الله من الجميع رزق الله الكل التوبة و الندم على ما صدر من الجميع بمنه و كرمه.

و قد زرت في الحجة الثانية الشيخ البليدي و هو عالم فاضل محقق مؤلف و قد ألف حاشية على الشيخ عبد الباقي إذ رأيتها على هوامش الكتاب المذكور و أجازني في العلوم كلها و زبر ذلك بخط يده و قد حضرت عليه في الحجة الأولى بعض الدروس في الرسالة.

وزرت أيضا الشيخ الفقيه المقبول المنور العارف بالله تعالى إذ شرح خليلا شرحا مختصرا بالمزج و قد رأيت في داره و هو شرح مبارك لا بأس به و هذا الشيخ هو شيخنا الإمام العمروسي و قد أجازني أيضا غير أنه زبر الإجازة بعض تلامذته بإذنه و إملائه عليه و قد ختمها و كتب على ذلك بخط يده و طبع عليه بطابعه.

وزرت أيضا شيخنا المحقق العلامة المدقق خاتمة المحققين و إمام الإجلاء العارفين الشيخ خليل المغربي و هو في العلوم بحر لا ساحل له و ان العلوم كلها ضروريات عنده لا سيما علم المعقول و قد قرأت عليه القطب على الشمسية أعنى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٤١

التصورات و العكوس و التناقض بحاشية السيد عليه و قد أجازني بخط يده في سائر العلوم نفعنا الله به و الذي أخذنا معه عليه هو الفاضل بالاتفاق و العلامة على الإطلاق سيدى أحمد بن عمار و الفضلاء الإجلاء سيدى أحمد بن حمود و سيدى الصالح القصارى و سيدى أحمد الصديق الجزائرى و الفاضل المحقق البغدادي وفق الله الجميع آمين و أن محل القراءة الروضة المنورة و النخبة المشتهرة التي يستجاب الدعاء عندها و هو مسجد سيدنا الحسين فقرأنا عليه قراءة بحث رضى الله عنه و أرضاه.

وزرت أيضا الشيخ العلامة و الفاضل الفهامة الشيخ المؤلف ذا التصانيف المفيدة و التأليف العديدة شيخنا الملوى و قد أجازني في سائر العلوم و زبر ذلك تلميذه لأنه أقعد لا يقدر أن يقوم و هو مضطجع على سريره و قد كبر سنه بان عمره زاد على مائة سنة و الذي رأيت من تصانيفه الشرحان الكبير و الصغير على السلم و الشرحان أيضا الكبير و الصغير على رسالة السمرقندى في الاستعارات و كلاهما عندنا و الأولان عند سيدى أحمد بن حمود و كذا نظم الموجهات و شرحها و هو ممن له الذوق السليم و الطبع المستقيم رضى الله عنه و أرضاه آمين و قد سمعت انه حشى المراكشى على الصغرى و غير ذلك من تأليفه نفعنا الله به آمين.

و ممن زرتة أيضا و حضرت مجلسه و هو من المؤلفين و العلماء المحققين و قد صنف كثيرا و إليه النظر في وقتنا هذا في الجامع الأزهر بل إليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب و قد بلغ صيته علمه مشارق الأرض و مغاربها شيخنا سيدى على الصعدي و قد أجازني بخط يده في جميع العلوم و قد حضرت مجلسه في الفقه في

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٤٢

مختصر خليل بشرح الشيخ الخرشي و هو يحشى فيه و قد كملت حاشيته الآن عليه في نحو الخمسة أجزاء و قد باحثته في بعض المسائل الفقهية في مجلس أقرائه إذ وجدته في السهو من الشيخ الخرشي المذكور فأورد على الشيخ الخرشي اعتراضات غير انه يغلط عليه و يكثر من قوله كلام الخرشي فاسد فلما سمعت ذلك أصابتنى غيره عليه و لما وصل إلى قوله لا سنة خفيفة كتشهد إلى قوله و إعلان بكآية إذ قال الشيخ الخرشي قوله و إعلان معطوف على قوله كتشهد إلى آخره فقال الشيخ على هذا العطف فاسد و قال في بيانه أن التشهد متروك و إعلان ضده و العامل في المعطوف عليه هو العامل في المعطوف و لا يصح تسلط الترك على الإعلان لأن

الترك هو العامل في التشهد فلما تم كلامه أغلظت عليه القول فلم يؤاخذني بذلك بل قال ما البيان فقلت له المعطوف في الحقيقة محذوف تقديره كتشهد و سر في بعض الفاتحة أى كترك تشهد و ترك سر بأن أعلن و قد صور المصنف الشيء بضده لأن القراءة يكتنفها أمران السر و الجهر و لا يترك أحدهما إلا بفعل ضده و لذلك قلنا المعطوف في الحقيقة محذوف كما سبق فسلم رضى الله عنه على يدي و قبلها و بعد ذلك لا- يكتب قوله على الشيخ الخرشى إلا- أن يعلمنى بالبحث بها و معه شخصان عالمان فى غاية التحقيق و هما ضريران لا يكتب شيئا عليه إلا بعد أن يخبرهما و يختبرهما فان سلما نزاعه و بحثه كتبه و إلا فلا و قد أجازنى أيضا كما سبق من الشيوخ غير أنه صاحب تواضع بان قال فى نص الإجازة لست أهلا لأن أجاز فضلا عن أن أجزى إلخ رضى الله عنه و أرضاه و نفعنا ببركاته آمين.

و لقد رأى أيضا شرحى المذكور فى هذه الحجة و أجازنى بالتأليف أمدنا الله و إياه بمدده و جعلنا من عده و عدده .

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٣

و ممن أجازنى أيضا وزرته الشيخ على الفيومى الفاضل العارف بالله ذو الأحوال المرضية و المحبة الصافية و الحقيقة النبوية و الواردات الإلهية و العلوم اللدنية و الفتوحات الربانية و كذا عنده تفريد التوحيد و تجريد التفريد و سهم فهمه نافذ إذ علمه يطابق علوم الإنسان الكامل و هو عبد الكريم الجبلى و فتوحات ابن العربى الحاتمى و شوارق عبد القادر الجبلى و أبو حفص عمر بن الفارض و أكثر عباراته فى المحو و الغيب و الفناء و فناء الفناء و له شطحات و تحركات فى الوجد و هو ممن يرقص و قد أنكر عليه شيخنا الحفناوى و غيره و قد علمت أن علامة الصديق انه لو شهد عليه ألف صديق بأنه زنديق لا يضره ذلك و من علامته أيضا كثرة أعدائه و أنه لا يبالي به و قد ألف رسالات فى التوحيد الخاص و عندى من تلك الرسائل رسالة فى اسم الجلالة رسالة عظيمة بحيث يهتر من رآها و يخشع قطعاً لأن فيها علوما لا تكاد توجد فى غيرها إلا على سبيل التفريق و القلة و قد قال فيها و فى الخبر يا عبدى خلقت كل شيء لك فلا تتعب و خلقتك لأجلى فلا تلعب و بالجملة ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح و هو ممن يلقتن أذكار الشيخ البدوى و يلبس الخرقة و قد حققت منه الكشف غير ما مرة و قد نهانى عن الصوم إذ كنت أسرده فلم يتيسر لى بعد إلا الفرض رضى الله عنه و قد أخذت عنه أيضا نفعنا الله به آمين.

و ممن أخذت عنه أيضا و اجتمعت به الشيخ البركة المحقق الفاضل الكامل الزاهد الورع المقتفى طريق النبى صلى الله عليه و سلم الشاذلى شيخنا و من على الله ثم عليه اعتمادنا و انه من المتوكلين على الله حق التوكل و أن الجالس معه يحدث فى قلبه خشوع و يقين و إيمان قوى و حلاوة و وجد يعلم ذلك من حاله و صحبته

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٤

و رؤيته لا- سيما إذ تلك أخذ القلوب و من فارقه و غاب عنه أحب الرجوع إليه بل يجد الإنسان الداعى و الباعث إلى الرجوع إلى مشاهدته و مشاهدة حضرته و أنى جربت من نفسى ذلك فلا أصبر عليه و لو لحظة فإن غبت عنه ساعة وجدت محركا يحركنى [إلى الوصول إليه و أن كل هم و غم يزول برؤيته و الاجتماع به فإنه يفيد صاحبه] بأقواله إن نطق و بأفعاله أن سكت و كله رضى الله عنه علم و حال فانه ينهضك بحاله، و يدلك على الله بمقاله، و قد اتقى رضى الله عنه جميع الشبهات، و حلى بسائر الكمالات، و قد تقدس رضى الله عنه المتشابه فضلا عن الحرام فلا يركن إلى ظالم و لا يقبل هديته و قد تحقق عنده حب النبى صلى الله عليه و سلم بدليل إتباعه و اقتفاء آثاره صلى الله عليه و سلم و هو من أهل القدوة إذ جمع بين الحقيقة و الشريعة جمعا متواطئا فلا نظير له فى زمانه رضى الله عنه و قد أخذنا عنه الطريق و رسم الحقيقة و انه لقنا الأذكار و جددنا عليه العهد فى الطريق الشاذلية المحضة و أجازنى إجازة مطلقة فى سائر العلوم العقلية و النقلية و قد بالغ رضى الله تعالى عنه فى حبا و اعتقادنا و من عجائب ما رأيت له أنه أمرنى بالذهاب معه إلى زيارة الصالحين و الأولياء العارفين و العلماء العاملين فى القرافة الكبرى و الصغرى ملازمته للأدب فى الزيادة غاية قل أن يوجد مثله فى ذلك و كذا معرفته للعلماء المؤلفين فلا يخفى عليه شيء من قبورهم كأنه هو الذى دفنهم فمهما وصلنا قبرا

أو رأيناه إلا قال هذا قبر فلان و في جواره قبر فلان و في تجاهه القبلة قبر فلان أيضا إلى أن يعد الجهات و القبور فعلت أن ذلك ليس من طريق الحفظ و التمرين بل ذلك إنما هو من طريق الكشف لاستحالة أن يكون ذلك من رسم الصفة لأنه من خوارق العادة قطعا.

هذا و أنى قد شهدت أنوار صحبته في حال الزيارة معاينه و مع ذلك ما تركنا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٥

ناحية من النواحي إلا زرتها من الصباح إلى الظهر و قد رجنا وصلينا الجمعة في الجامع الأزهر.

و بالجملة فالذى زرناه تلك المدة لا يزار إلا في أيام عديده و مع ذلك وجدنا حلاوة ما وجدناها في غيرها من الزيارات فأنى قد جبلت على حبها من صغرى و قد كثرت منى غربا و شرقا و جوفاً و قبلة بمعنى وجودها منى للأحياء و الأموات فمهما ذكر لى و لى أو صالح أو عالم حيا أو ميتا إلا ذهبت إليه و اقتبست من نوره لا سيما عمالة الجزائر فأنى قد خضتها و بحثت عن أهلها بحثا شديدا تاريخا و سيرة و طريقه و حالا و كرامه لما رأينا من وقوع الإهمال في ذلك في وطننا فرسمنا كل ذلك رسما جيدا فحفظت من كل خلف و صف أسلافه و نقلت من كل فرع أخبار أصله علما منى أنه لا يمجه السمع السليم و الطبع المستقيم ريحانه لما يجده المتأخر بعدنا و رحمة لما يحصل له من اقتباس الأنوار في وطننا فما تركت من جهدى شيئا و لا في استطاعتي أمرا إلا حاولته في التفتيش عنهم و الاستقصاء بالطلب و الفعل في آثارهم لا سيما أهل بجاية فإنها مدينة عظيمة يكاد زيتها يضىء من علم أهلها و قوة أحوالهم و أنوار مواجدهم و من أراد استقصاء أخبارهم فليطالع عنوان الدراية للغبريني و رياض الصالحين للثعالبي و غيرهما.

و كذا بالغت في الزيارة و الاستقصاء لمدينة الجزائر و أرض الجدار أعنى تلمسان و كذا مليانة التى تشرفت بالولى الصالح، و القطب الواضح، ذى الأحوال الفاخرة، و الكرامات الباهرة، سيدى أحمد بن يوسف و قد سمعت أنه أخذ عن الشيخ زروق

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٦

فصار يترقى حتى أخذ زروق عنه نفعنا الله بهم و أفاض علينا من بركاتهم و بركات أشياخهم.

و كذا الشيخ الكامل، و الولي الفاضل، صبغة الله في أرضه، و عين الرحمة في خلقه، سيدى على بن المبارك القليعى نفعنا الله به و مثله من تأتية الوفود و تؤخذ عنه العهود الولي بلا ارتياب سيدى فرج القريب من الجزائر على شاطئ البحر فقبره معلوم و روضته تريقا مجرب و هو الذى أخبر عنه شيخنا و وسيلتنا إلى ربنا سيدى أحمد بن ناصر بأنه هو الذى أظهر الخلو المزاره المتعبد فيها الأولياء تحت أبى شعيب على شاطئ البحر فى أرض مسراته من عمالة طرابلس الغربية لبرقه و هى التى كان فيها الشيخ زروق.

و كذا البليدة و قد زرنا فيها الأكابر كالولى الصالح الشيخ سيدى الكبير و غيره نفعنا الله بهم آمين و مثلها المدية و قد زرنا فيها الشيخ سيدى محمد ابركان و غيره.

و كذا دلس و ما قاربه و كذا جبال زواوة على اختلاف أنواعها و لم تكن بلدة أوسع منها كادت أن تلحق بمصر أو أعظم منها.

و كذا المسيلة و قد زرنا فيها الشيخ القطب الغوث سيدى محمد بن عبد الله بن أبى جملين و غيره.

و كذا زرت مدينة بسكرة و سيدى عقبه و النبى سيدى خالد و غيرهم و سيدى عبد الرحمن الأخرى صاحب التأليف المشهورة و التصانيف المذكورة و قد زرت أيضا تبسة و من فيها.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٧

و كذا قسنطينة و من فيها من الأحياء و الأموات لا سيما سيدى سعيد السفرى .

وزرت أيضا بونة أى عنابة و من فيها لا سيما من يستجاب الدعاء عند قبره و هو أبو مروان و أولاد سيدى أحمد ابن الشيخ سيدى زروق لا سيما من كتب اسم محمد صلى الله عليه و سلم بقلم القدرة فى يده اليسرى و هو من العلماء العاملين لا نظير له فى المعقول و المنقول و قد حلاه الله بحلية القبول من رآه أحبه و هابه و قد جبل على السخاء و الكرم فأخلاقه و خلقه أخلاق النبى صلى الله عليه

و سلم و خلقه ما رأيت أحسن منه باطنا و لا ظاهرا و قد سألتني فيه فأجبتة بأنه إنما كتب الله بذلك اليد إعلاما لنا أنك يمين كلك فجهة اليسرى منك منفية عنك و سألتني أيضا عن قوله تعالى في مريم و اسجدى و اركعى مع الراكعين و ان كانت الواو لا تقتضى الترتيب إذ كلام البلغاء لا بد فى سبقه بشيء من الحكمة.

قلت و الله اعلم أن الله خاطبها أولا بسجودها نظرا لمقامها الخاص بها و خاطبها ثانيا بالركوع مع الراكعين نظر إلى حالها مع قومها لأن العارفين بالله تعالى قلوبهم مع الحق و أجسامهم مع الخلق فكانت مريم من هؤلاء المتمكنين الراسخين فى العلم و لما سمع كلامنا هذا استحلاه و كتبه و كان أجود الخطوط و ما رأيت خطأ أحسن منه و انه أجازنى رضى الله عنه فى سائر العلوم النقلية و العقلية و دراهم دار الولاية من أعالي أسلافهم إلى الآن و ان والده رضى الله عنه كان من المؤلفين و تأليفه كثيرة لا تحصى كثرة و قد نظم [مختصر] خليل بتمامه و نظم أيضا عقائد الشيخ السنوسى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٨

الخمسة و قد رأيت له جوهره نظما و كذا ياقوته نظما و رأيت أيضا كتابا ألفه فى أخبار العلماء السابقين و أوصافهم و ذكر حكايات و أسماء الله و فوائدها و ذكر الخضر و أمثاله حاصله كتاب عجيب و له كتاب حسن ذكر فيه السيد عكاشة انه ولى من أولياء الله و ليس الصحابى المعلوم و قد شطر البردة تشطيرا حسنا.

و بالجملة فمن رأى أولاد سيدى أحمد ابن الشيخ رأى أنوار فيهم و عناية كاملة لهم و فضلا عاما لديهم و الآن فى الحياة ولده الفاضل الكامل سيدى محمد و قد مكثت عنده نحو الجمعة نعم [كنت] ذلك الزمان مشتاقا للحج فقال على طريق الكشف انك تحج السنة و مع ذلك أنى فقير و الركب فى البر قد انقطع من أمر الوباء فى الجزائر و كان الأمر كما ذكر فأتى الله بولد سيدى أحمد بن يوسف و هو سيدى أحمد بن طيبة فذهب الركب معه و الحمد لله رب العالمين.

و بالجملة فما رأيت أفضل من شيخنا الشيخ العفيفى أسبغ الله تلك النعم على أولاده و علينا أجمعين بمنه و كرمه فقد أجاز أيضا ولدى محمدا و كان صغيرا و لقنه الذكر على طريق الشاذلية رضى الله عنه و أرضاه آمين و أحواله و نعوته لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى.

و ممن أجازنى سلطان العارفين، و إمام المحققين، شيخنا و عمدتنا العالم على الإطلاق، و شمس الأنوار بالاتفاق، الشيخ الحفناوى نفعنا الله به و بأمثاله و كتب الإجازة بخط يده رضى الله عنه فى المعقول و المنقول.

و كذا لقنى الذكر على طريق أشياخه و أذن لنا فى الإعطاء و الأذن نعم كان فاضلا كاملا جامعا للعلوم النقلية و العقلية و جامعا بين الحقيقة و الشريعة و يكاد أن يكون ممن يجدد الدين و ما رأيت أحسن منه فى إقراء العلم كأن الجواهر تخرج من فيه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٩

و ذلك منه من غير كلفة و لا صعوبة فالعلوم كلها طوع يده بحيث لا يحتاج إلى كبير مؤنة فى استحضارها و قد حضرت فى مجلسه المعلوم عند أقرائه الرحبية بالشنشورى يتمنى الإنسان أن يتجرد لصحبته لأخذ العلم منه بحيث لا ينظر إلى وال و لا ولد و لا صاحبة و لا غيرهم و له تأليف كثيرة و ان نسبت إلى الشيخ يوسف أخيه فهى فى الحقيقة له و عندى من تأليفه حاشيته على رسالة الوضع و هى حاشية عظيمة نعم حاله حال الملوك و قد قال أبو الحسن الشاذلى و من الأولياء من يظهر على هيئة العظامه و الجبر و الانتقام لأن الله تجلى على قلوبهم بذلك فلا يصحب ذلك الشيخ من المريدين إلا من محق الله نفسه و محاها و الشيخ من ذلك القبيل فمن سلم له و لغيره و صدق أحواله و أموره انتفه به فلا تسمع لمعاصره من إنكار بعض الأمور عليه إذ قد جرت عادة الله مع أحبابه أنه يسلط عليهم أهل زمانه فلا بد لمتبع ما تحقق لمتبوعه فلا بأس فى ذلك و لا قدح أصلا بل يزيد الصادق صدقا و المحق حقا.

و بالجملة فالشيخ أنوار الشريعة ظاهرة عليه، و أنوار الحقيقة بادية لديه، و هو من أهل الكشف تحقيقا و أنى ذات يوم جلست معه فقال لى قدم بعض المغاربة مصر زمان كذا و كان من نجباء الطلبة و فى قلبه انه يختبر المحقق فى الجامع الأزهر فيقرأ عليه و يأخذ العلم منه

فصار يتردد في مجالس العلم و يبحث مع أهلها أبحاثا قوية حتى اشتهر في المسجد بتلك الأبحاث و ما كان قصده إلا خيرا كما سبق قال ذات يوم أتاه رجل من أهل الخير فقال له لا تعد إلى مثل هذا و إلا هلكت أو سلبت أو كلاما هذا معناه أعلاما لي إذ حالي مثل حال هذا الرجل و قصدي كقصده لأنى أتردد في الدروس بالبحث و السؤال حتى اشتهر أمرى في المسجد فقال لي إياك ثم إياك فبعد ذلك لم أعد إلى ذلك أبدا و زال عنى ذلك كله بل كنت مولعا بالتزاع و محبا له غير أنى بالإنصاف فكنت معافى بحيث لا أحبه و لا أرضاه أصلا بعد ذلك ببركات الشيخ و أن أحتمل أنه حصل له العلم بحالى و ثبوته عنده غير أن الكشف أقرب إليه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٠

و أيضا كان لا يأتي إلى المسجد ذلك الزمان إذ قد رفع ذلك من قلبى ببركاته رضى الله عنه و هو دليل على انه من أهل الكشف و أيضا أتى له شخص حديث السن نحو العشرين سنة في عمره جاءه من مسافة بعيدة كسبعة أيام أو أكثر و الشيخ لا يعرفه و لا يعرف محله فقال له ذلك الرجل أتيت إليك لأدخل تحت طاعتك و أكون من أولاد قلبك فقال له الشيخ ارتجالا حتى تتوب من عقوق والدك إذ أنت على مدة طويلة عاق له و عاص من أجله فإن أردت اخذ العهد منا فكن على بروره و تب إلى الله من عصيانه فبكى ذلك الشخص و قال نعم منذ مدة طويلة و سنين عديدة و أنا على عقوقه و عصيانه فصاح بالتوبة و الاستغفار فعجبنا من حال الشيخ و أصاب ذلك الشخص عبرة بل أصابه بعض الغيب عن حسه فلا أصعب من حيرة البديهة و هيبة الفجاءة.

و بالجملة فأحوال الشيخ ساطعة، و علومه نافعة و أسراره واقعة، و آثاره رافعة، و أهل السلوك قلوبهم خاشعة، و أصحابه مطيعة سامعة، و قد زحلق عن القوم الأول، و كل ملهوف و ضعيف عليه عول، رضى الله عنه و نفعنا به آمين.

و ممن حضرت درسه الشيخ عمر الطحلاوى و قد جمع المعقول و المنقول و انه كالشيخ الحفناوى فى كونه تخرج من فيه جواهر العلوم و عباراته سلسة تصدر من غير كلفة و لا تعب و لا تعسف قل نظيره فى الجامع الأزهر و سمعت منه بعض الرسالة الوضعية و بعض التفسير و هو ذو الجلالين و قد سألته عند قوله فى أن المعارف غير العالم هل وضعت وضعا جزئيا أو كليا و قد أوردت عليه كلام القرافى فتعجب من كلامه لأنه غير معهود به إلخ و كذا سألته أيضا فى قوله تعالى:

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥١

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ الْآيَةِ لَأَنْ قَوْلُهُ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ظَرْفٌ مَتَعَلِقٌ بِنَصْرِ فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ قَلْتُ لَهُ إِذَا كَانَ النَّصْرُ حِينَئِذٍ لَمْ يَكُونُوا أَذْلَةً أَى فِي قَلْبِهِ فَقَيْدُ النَّصْرِ بِالْمَلَائِكَةِ لَيْسُوا عَلَى قَلْبِهِ فِي الظَّاهِرِ وَ لَا فِي الْبَاطِنِ فَلَمَّا عَجَزَ عَنِ الْجَوَابِ صَارَ يَغَالِطُنِي بِكَلَامٍ لَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ وَ هِيَ الْمِغَالِطَةُ الْخَارِجِيَّةُ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَى مَجْلِسِهِ بَعْدَ غَيْرِ أَنَّهُ مَشْتَهَرٌ بِالتَّحْقِيقِ وَ هُوَ مِنْ مَشَائِخِ الْمَالِكِيَّةِ الْكِبَارِ.

و ممن سمعت منه أيضا الشيخ العالم العلامة، المحقق الفهامة، ذو الأبحاث الرائقة، و النكت الفائقة، الشيخ الزياتى الشافعى بعض المسائل من النحو أعنى كلام الأشمونى و هو ممن يحب البحث و الإنصاف فمهما أوردت عليه شيئا إلا قال بلزوم الإيراد و إنما ينظر الجواب عنه و هو ضرير فى غاية التحقيق و قد اشتهر بذلك فى الجامع المذكور و حضرت عليه أيضا دروسا فى المحلى نفعنا الله ببركاته آمين.

و من أشياخى الشيخ الفاضل، و العالم الكامل، إمام الجامع، ذو الصدر الواسع، الحافظ على الإطلاق، و الناقل بالاتفاق، و له باع قوى فى المنقول و المعقول و قد أخذ عنه كل من كان فى زمنه من الشافعية و الحنفية و المالكية و غيرهم فقد حقق المذاهب رضى الله عنه الشيخ سالم النفراوى و لقد علم من حاله أن كل من يحشى أو يشرح بفوائد غريبة أو نقول عجيبة إنما ذلك منه رضى الله تعالى عنه و نفعنا به آمين.

و قد قرأت عليه مدة مختصر السعد غير أنه ما رأيت مثله أبدا نعم لا يسأله أحد فى المجلس لأن جميع ما يخطر ببالك إلا ألقاه فى الدرس و إن بقى للإنسان شىء ألقاه عليه بعد الفراغ منه و أما أ، فأسأله دائما و هو يجيبنى من غير غضب و لا عنف لكونى غريبا من آل المصطفى صلى الله عليه و سلم و كان يحضر مجلسه نحو السبعين طالبا نعم لما رأونى أسأله و لا يمتنع من الجواب تعجبوا من

ذلك و صاروا بعد ذلك يرغبون و يحبون منى دوام السؤال له بل تارة يأمرون بالسؤال و تارة بالإشارة إلى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٢

ذلك لأن الشيخ نفعنا الله به ضرير أى أعمى و مع ذلك انه من أكابر الأئمة و أفضل علماء مصر فلا ترى أحدا فى الجامع مثله لأنه شيخ الجميع كما سبق و إمام المحققين على ما تقرر و اشتهر.

هذا و قد وقع بيننا و بين الوالد رحمه الله نزاع فى بعض المسائل من مسائل الفقه فاستظهرت أنا و العلامة الفاضل و المحقق الكامل عمنا سيدى محمد الصغير أمرا و الوالد جزم بفهم آخر و هو قول خليل و تفكر بدنيوى إذ ذكره فى باب المكروهات فقال جميع من شرحه محل ذلك إذا درى ما صلى و إلا بطلت صلاته أى أن لم يدر ما صلى بطلت إلخ فقال الوالد يصدق ذلك أى عدم الدراية و لو بركة واحدة لأنه لم يدر ما صلى فقلنا له فى الرد عليه هذا بينى على المحقق و يأتى بالمشكوك فيه لأن قولهم أن لم يدر ما صلى إلخ إذا صدرت منه أفعال كثيرة و لم يظبطها أصلا و لم يتحقق عنده و لو ركعة فهنا تبطل الصلاة لأن الفعل المضارع فى سياق النفى كالنكرة فى سياقه يفيد العموم فلما ذكرت ذلك له أجبني بما قال به أبى نعم عندنا أنه لا بد لمن يضبط شيئا من الصلاة بمنزلة من صدرت منه أفعال أجنبية منها فتبطل صلاته غير أن الشيخ ابن أبى جمره ذكر فى مسألتنا هذه قولين و الله اعلم.

حاصله علمه مشهور، و تحقيقه مذکور، و قد حضرنا موته فى الحجّة الثانية و قد ازدحم الناس على الصلاة عليه بان لا تجد موضعا فى الجامع الأزهر إلا- و هو عامر فقد أتى للصلاة عليه أكثر أهل مصر و مات فجأة رضى الله عنه و خطب الإمام عليه على المنبر خطبة عظيمة بأن ذكر علمه و حاله و نسبه و هو متصل نسبه بالشيخ أحمد الرفاعى أفاض الله علينا من بركاته و جعلنا فى زمرة و خرجت مع جنازته مع بعض

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٣

الطلبة فوق الازدحام على نعشه أى سريره الذى حمل عليه حتى أن بعض الولاة أقام شواشا يدفعون عنه نعم لم يفيدوا شيئا فلما خرجنا إلى القرافة الصغرى لم نر جنازة و لا قبرا و لا قبره من كثرة الخلق فمن الجبل إلى مصر لا ترى موضعا خاليا يكاد من خرج لجنازته أن لا يحصى كثرة و انه لا يقع ذلك الجمع أصلا فى بلد من البلدان فلو كان فى غير مصر ما ظننت أن يتفق جمع مثله و لا عمارة تساويه و لا محلا يأويه نفعنا الله به و بأمثاله آمين.

و ممن أخذت عليه المحقق المدقق الكامل ذو الفضائل و الفواضل و الحافظ الورع الزاهد المدرس صاحب الأنوار و العوارف و الأسرار شيخنا سيدى أحمد الأشبلى تلميذ الشيخ الحفناوى و هو ممن ظهر عليه آثار الفضل فى ابتداء أمر الشيخ و قد اشتهر حاله فى الحرمين الشريفين علما و حالا و سرا و قد كان من المحققين فقرأت عليه بعض مختصر السعد فى البيان قراءة تحقيق ما رأيت مثله بتدقيق المسائل و تحريرها و فى آخر أمره كان ملتزما للحرم الشريف رضى الله عنه و نفعنا به.

و فى الحجّة الأولى اجتمعت مع الولي الصالح و العالم الواضح فكان ديدنه و شأنه الهجرة للعلم من داره فى الإسكندرية إذ كان ملازما لإعطاء العلم فى الأزهر و كان فاضلا فقيها متكلميا بيانيا مفسرا أصوليا نحويا لغويا أدبيا حاصله قد جمع المعقول و المنقول و الحقيقة و الشريعة واعيا للمذاهب الشيخ الصباغ السكندرى نفعنا الله ببركاته آمين بمنه و كرمه.

و كان ممن يحضر مجلسه النبى صلى الله عليه و سلم و الخلفاء الأربعة يقظة و قد سمعت ذلك ممن سمع منه و الذى سمعت منه هو الفاضل العدل الثقة المبرز فى العدالة و العالم الفقيه المحدث المفسر صاحب المنقول و المعقول سيدى أحمد زروق نجل الشيخ المؤلف البركة سيدى أحمد بن الشيخ العنابى المتقدم ذكره قال غير أن

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٤

ذلك ارتفع عنه مدة و سبب ذلك أن بعض الناس من أصحاب الشرطة من الظلام جاء ليقرا عليه و يحضر مجلسه فخطر لهذا الشيخ أعنى الشيخ الصباغ كيف يحضر هذا من أصحاب الشرطة مجلسى و النبى صلى الله عليه و سلم فيه مع أصحابه أى استعظم ذلك فلما

علم الجميع منه ذلك قام أبو بكر فقال له ألم تعلم أن هذا من أمتي صلى الله عليه وسلم و تبعه عمر بأن قال قوله ثم عثمان كذلك ثم على كذلك ثم محمد صلى الله عليه وسلم وقال بمقالة الجميع ثم قال الصباغ المذكور فصرت لا أراه صلى الله عليه وسلم إلا في النوم و أراه كما تراه الرعاة و قد كان أذن لي في الكلام معه و بعد هذا أن رأيت لا أتكلم معه.

يؤخذ من هذا أن العبد لا يحقر أحدا بين عينيه و لا يذمه بقلبه و لا يفر من مجالسته و لا من مخالطته إن جاء طالبا للخير كائنا من كان و لو كان ممن يجاهر بالمعاصي و لعله يكون بمخالطتك و حضوره معك تائبا راجعا إلى الله تائبا إليه نادما على ما صدر منه مقلعا فتكون سببا في صلاحه و قد قال صلى الله عليه وسلم و لئن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم أو كما قال و أما ازدرأؤه و غمصه بين عينيك أو التحاشي عنه بحيث لا يسمع منك كلاما من الخير أو تقول هذا لا يجالس مثلي و لا يكون في زمرة الأخيار تعظيما لجانبك أو جانب من كنت معه فكبر و بطر عن الحق فالذي يجب عليك أن تنقذه مما هو فيه بأن تداويه بالوعظ و الزجر إن كان لا يفر و إلا فباللين حتى يرجع عما هو عليه و مع ذلك أعتقد أنه أولى منك إذ من كان على شر أولى ممن كان على خير و يقول أنا فيان الطاعة لا- تكون مع الكبر و العجب و رؤية العمل للنفس و استحسانها له و المعصية لا تكون معصية مع النذل للنفس و انكسار القلب من أجلها أي المعصية.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٥

حاصله خواطر الحق بينه و خواطر الباطل ظاهرة مضملة فمن راعى خواطره رعى إذ لا يراها إلا سعيد و لا يهمل نفسه و خواطرها إلا شقى و العياذ بالله تعالى.

حاصله الشيخ الصباغ صبغة الله لخلقه و رحمة للعالمين في أرضه لا سيما الغرباء و الضعفاء و الفقراء فلا تجد أحدا في زمانه يرحم الأمة المحمدية مثله رضي الله عنه و قد كان رضي الله عنه أكثر زمانه في مصر مجردا عن أهله إذ أهله في الإسكندرية و هو في مصر يعلم الناس ليلا و نهارا و بركاته قد عمت الخلق جميعا فلا ترى نصوحا للأمة مثل و قد حلاه الله تعالى بحلية القبول فمن رآه أحبه و قد صدق عليه قوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا.

و بالجملة فكل من أخذ عنه العلم أو الطريقة إلا- ظهر عليه آثار الفضل و حلي بحلية العارفين و نعت بنعت الزاهدين و كان ممن يخشى الله و يتقيه نفعا لله به و قد حضرت عليه دروسا في العلم و مع ذلك تعلقت به رضي الله عنه و أرضاه و ان أخلاقه و خلقه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم و خلقه كان غير منقبض جدا و لا منبسط كذلك بل إلى البسط أرجح و البسط مقام محمود فلا يكون صاحبه إلا منتفعا به بخلاف صاحب القبض يقل نفعه في جانب الرحمة و إنما يغلب ضرره و هلاكه فلا يصلح للمريدين و الذي يصلح لأهل السلوك هو صاحب البسط أفاض الله علينا من بركاته و جعلنا من أهل زمرته بمنه و كرمه.

و ممن أخذت عليه القراءات السبعية أفرادا الأستاذ المحقق و الفاضل المدقق سيدي أبو القاسم الربيعي القسطنطيني إذ قرأت سورة البقرة و الفاتحة عليه و أظن أن الشيخ البغالي من أشياخ أشياخه و قد سمعنا انه قرأ على شهورش الطيار و هو قد

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٦

أخذ قراءته على النبي صلى الله عليه وسلم و هو من أهل الصلاح قطعا و قد أجازني أيضا نفعا لله به.

و ممن اجتمعت معه و صاحبته أيضا و هو من أهل الله حقا و كان عالما فاضلا صاحب حال و وج و شوق له كشف قوى و فتح إلهي و وارد صمداني و له كلام في الحقائق رائق و إذا ورد عليه كلام في الفتوحات تكلم به من غير كلفة و لا تعب و قد جعل كتابا عظيما في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على نهج دلائل الخيرات غير انه لا يكتب تأليفه إلا إذا وجدها في سره رضي الله عنه و هو الولي الصالح و العارف بالله الواضح سيدي الهاشمي المغربي إذ اجتمعت معه في الحجّة الأولى و سبب معرفتي إياه أني وجدت رجلا فاضلا عليه سيمه طيبة يقرأ عند باب الجامع الأزهر و تعلق قلبي به فجلست عنده فوجدته يقرئ في ابن هشام أعني المحاذي على الألفية بشرح السيد خالد أعني التصريح و حاشية الشيخ يس عليه فما رأيت مثله في التحقيق و حسن العبارة نعم كلامه عليه حلاوة و

طلاوة سيدى إبراهيم نجل الشيخ سيدى على شعيب التونسى وقد اجتمع فى هذه النخبة العلم و الصلاح و العبادة و المجاهدة و قد قيل لى أنه غلب عليه القيام و الصيام كأنه لم يبق لسواه فيه نصيب فقد كان كله لله رضى الله عنه و نفعنا به و ان العلوم النقلية و العقلية طوع يده.

حاصله محاسنه لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى نعم كنت حينئذ أسرد الصوم و واصلت نحو ثلاثة أيام من غير أكل طعام إلا- إذا أفطرت على الماء القراح فلما ورد على اليوم الرابع تغيرت نفسى و تحركت طلبا للطعام فكنت فى المجلس أتردد هل أزيد اليوم الرابع كذلك أو أذهب لرفقتى فى بولاق لتحصيل الطعام معهم أو أبيت فى الأزهر صبيرا حاصله تشوقت نفسى للطعام و إلى تحصيله فلا ختم المجلس السيد إبراهيم المذكور تفرق أهل مجلسه فبقيت هناك و الله اعلم ساعة زمانية

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٧

ثم قمت فدخلت المسجد و إذا بالفاضل المذكور سيدى الهاشمى واقف معى فأعطى لى نحو رطل من تمر معجون معه شىء من الرغيف حاصله أتانى بما يكفى الإنسان الجائع فقال من يتوكل على الله و يعتمد عليه لا يتحير فى أمر العيش و لا ينتظر غير الله تعالى فتعجبت من كلامه و اطلاعه على ما بنفسى و ما رأيت قبل قط فكأنه حاضر فى قلبى فعلمت أنه ولى من أولياء الله تعالى فرغبت فى صحبته و إذا هو راغب منى فتعلق بى تعلقا كليا فأعلمت به الأخ فى الله و المحب من أجله صاحب الكشف أيضا و الصدق تحقيقا سيدى محمد الشريف البلغى الطرابلسى و ابن عمى سيدى محمدا صالحا و تلميذى سيدى محمدا الجوادى فتعلق الجميع به ظاهرا و باطنا ثم أنه لم يفارقنى إلى أن سافرنا إلى الحج فنفعنا الله به آمين.

و لما رجعنا من الحج وجدناه ينتظر جماعتنا خارج مصر ثم ذهب بنا إلى داره رغبة و محبة و فرحا و سرورا فأقمنا عنده ثلاثة أيام و مع ذلك ما ترك أحدا منا يخرج من داره أصلا.

هذا و أنى كنت لا أكل سمنا و لا لحما و لا أداما فإن رمت شيئا من ذلك خرج عقلى فلما وصلت داره فأتى بكل ما منعت منه فقال لى كل و لا- تخف قلت خفت زوال عقلى إذا جربت نفسى فى ذلك فقال لى كل فأنت مأمون من كل ما تخافه بإذن الله تعالى فأكلت و ما صار لى شىء من ذلك بإذن الله تعالى فعلمت أن له حالا قويا مع الله تعالى ثم كان معنا كذلك إلى أن سافرنا إلى بلدنا نعم مرضت مرضا فى مصر و أشرفت فيه على الموت و كنت حينئذ فى الوكالة فيضيق على الحال مع الوحشة إذ أصحابى ربما خرجوا و تركونى وحدى فحين يتقوى التوحش على و إذا به وارد يؤنسنى و يقول لى لا تخف فإن الله يعافيك أو كلاما هذا معناه.

و الحاصل أن هذا السيد من أكابر الصالحين و العلماء العاملين فينبغى أن تشد

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٨

إليه الرحال نفعنا الله به و بأمثاله و أما من زرتة مت الصالحين، و العلماء العاملين، فكالشيخ العارف بالله المبصر بنور الله و هو من الواصلين حقا، و من العارفين صدقا، من له كشف تام، و نفع عام، الشيخ كشك فإنه رضى الله عنه يحكى عنه انه ما دخل أحد مصر من أهل الله غالبا إلا سلبه و كان له التصرف التام و قد أخذنى حال غيبتى عن إحساسى أظنه خارج مصر غير أن المواهب تجرى على لسانى فضبط منى أصحابى كلاما على هذا الشيخ و أنا غير مستحضر له غير أنى ذكرت كلاما على طريق النظم فى شأنه و الآن طال عهدى به أو على غيره و الله أعلم.

ثم إن تلك الورقة التى فيها ذلك الكلام حملها سيدى محمد الشريف المذكور معى بحيث لم يرها أحد فلما اجتمعنا مع رضى الله عنه قال له مد لى تلك الورقة فتعجبنا منه ودعا لنا من قريحة قلب و عزيمة همة فعلمنا أننا قد نلنا منه ما لا يحصى كثرة و أنا زرنا فى مصر أولياء و صلحاء قد تعذر علينا ضبط أسمائهم لغلبة النسيان على البشر أفاض الله علينا من فضلهم وجودهم و إحسانهم.

و ممن اجتمعت معى أيضا فى هذه الحجة المنور على الإطلاق، و الولى العارف بالاتفاق، صاحب الجذب الإلهى، و الحال الناهى، و الوجد الزاهى، العالم بالحقائق، و الراسخ بالدقائق، المنفق من الفتح، من قد جبل على الصفح، أنوار معارفه مشرقة، و لوائح أسراره

رائقة، فقد توفى في أوقاته، و تشكل روحانيا في سماواته، فكاد أن يكون من عالم الأمر لطافة، فغالبه بشر و قلبه ملك ف الخلافة، أن امتحنته وجدته لم يرق أحد مرقاه، و لا سلك شخص مسلكه وحيدا في مثواه، أن تكلم أغرب، و أن أفصح أعرب، جدير بما يقول، و عندي هو أكثر ما نقول، الشيخ محمود الكردي نفعنا الله به و بأمثاله و قد اعتقدنا فيه أكثر مما نقول لأن ما خامر القلوب فعلى الوجه الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٥٩

تلوح أثاره و الأسرة تدل على السريرة و ما كان فيك ظهر على فيك.

و قد سمعنا الأخ في الله سيدى محمدا الشريف يذكر عنه أمورا يكاد أن يكون صاحب وقت إذ لا غرابه في صدور مثلها من مثله. حاصله لا يخفى عليه شيء في الكون و له اسراء آت بروحه متعددة كثيرة و مجاهدات عظيمة يكاد العقل أن يحليها منها ما سمعت انه مكث أربعة عشر عاما ما شرب ماء.

حاصله مجاهدته قوية عظيمة و تتبعها كثير نعم لما اجتمعنا معه أخذ بمجامع قلبي و كلامه كله طب نبوي و ترياق مجرب و لو ساعدنا الحال ما فارقناه طرفه عين لأنه كثر لا يفنى و الله اعلم انه ممن يقلب الأعيان فعند مجالسته تزول الهموم و الغموم و قد حصلت فيه علامة الولاية و هو انه إذا رأته تذكرت الله تعالى و انه أيضا لا يفتر عن ذكر الله تعالى و من أعطى الذكر فقد أعطى منشور الولاية و من سلب شيئا من الذكر فقد عزل عنها و لا تسمع من يعترض على مثله من أهل زمانه فإن ذلك شقاوة و العياذ بالله تعالى فقد جمع و أوعى و لا غرابه في كون التلميذ أعظم من شيخه إذ شيخه الشيخ الحفناوى كما سبق في الشيخ زروق مع سيدى أحمد بن يوسف. حاصله أن الشيخ المذكور بلغ الغاية في الترقى و المجاهدة رضى الله عنه و أرضاه و لا جعله آخر عهد بيننا و بينه أمين ليطم ما أردناه. و ممن اجتمعنا معه أيضا وزرناه من لاح نوره، و اشتهر أمره، و ارتفع صيته، العالم الفاضل، المحقق الكامل، العبقري الحافل، الذى هو البحر من غير ساحل، من رآه تحقق صلاحه و ولايته بلا ناقل، الشيخ الجوهري نعم أهل مصر اتفقت كلمتهم على انه ولى من أولياء الله تعالى و ما حصل من الجود من الله عليهم، و الفضل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦٠

لديهم، إنما هو لوجود مثله و كفى به علما و عملا و خشية و إتباعا للنبي صلى الله عليه و سلم و اقتفاء آثاره عليه الصلاة و السلام و قدوة للأمة المحمدية نفعنا الله به و بأمثاله أمين و أظن أنه ممن لا يشقى جلسه نعم أنوار الولاية تلوح على وجهه من غير شك فهو محقق الفلاح و النجاح فلا تجد أحدا يسوء ظنه فيه بل قد حلاه الله بحلية القبول و كذا أطلق السنة الخلق بالثناء عليه عموما و السنة الخلق أقلام الحق متع الله المسلمين بطول حياته و جعل البركة في أيامه و أفاض علينا من بحر أنواره بمنه و كرمه.

و ممن اجتمعت معه وزرته مرارا الشيخ الصالح، و الولي الواضح، الشيخ الغريانى نفعنا الله به و بأمثاله و هو ممن ظهر عليه الفضل و الخير و الناس أفواجا في مصر تتبعه تقتبس الأنوار و الفتح منه و تتوسل بجاهه و قد اشتهر عند أهل مصر أيضا أنه هو الحارس للركب فإن أهل الخير جعلوه رقبيا عليه و مأمونا من أجله فلا يقع مكروه به لوجهه و الظن منا به كذلك نفعنا الله به و بأمثاله رضى الله عنه و أرضاه و رزقنا العافية في الدنيا و الآخرة مع كفاية همهما بمنه و كرمه.

هذا و أن مصر قد حشيت بأولياء الله و أنهم فيها كالنجوم في السماء فالمستور فيها أكثر من الظاهر إذ الخامل فيها أكثر من أن يحصى و الغالب أن أسواقها لا تخلو منهم فمن أزيل عنه الحجاب رآهم عيانا.

و بالجملة فأحوالهم كمثل بحر و وجودهم كثير فهم ينتون فيها دائما لا- تنقطع آثارهم، و لا تغيب شمسهم و أقمارهم، فعلى من دخل مصر أن يجعل معتمده عليهم فإن بحث عنهم وجدهم لا سيما أن كان بصدق الطلب فوطن مصر ليس كغيره رضى الله عن أولياء الله أين كانوا و نفعنا الله بهم و جعلنا في زميرهم آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦١

و ممن اجتمعت معه في مصر أيضا الفاضل المحصل، و العالم المؤمل، الفقيه المفسر، المحدث المخبر، المنطقى الكلامى، المؤرخ

الأصلى البيانى، المرتقى أعلى رتب التدقيق الجامع بين الحقيقة و الشريعة الشيخ المنور التلمسانى، تلميذ الشيخ القطب الربانى، و العارف الصمدانى، سيدى أحمد الحبيب الفيلالى نفعنا الله بجميعهم آمين و قد كان يقرئ الكبرى فى رواق المغاربة و اجتمع عليه خلق كثير من مصر و من المجاورين و غيرهم غير أن الغالب منهم مقصودهم البركة و معه التحقيق من غير شك.

و كان الشيخ العمروسى يحضر درسه و مع ذلك أنه شرح خليلا و كان الشيخ خليل المغربى قد وقع بينه و بين الشيخ نزاع فى بعض المسائل فى الكبرى فى كلام الشيخ السنوسى فلما طال نزاعهما و قد ظهر لنا ما ظهر للشيخ خليل قلت الحق مع الشيخ خليل فلما خرجنا قال لى و الله لقد أساءنى نصرحك للشيخ المذكور فأجبت بما هو حاصله أن الحق أحق أن يتبع و ما ذكره هو الحق و الله تعالى اعلم فلما علم الشيخ خليل منه ذلك انقطع عن مجلسه و قبل ذلك أوردت عليه مسائل من العلوم منها فى البيان على من يقول فى قولهم أنبت الربيع البقل انه استعارة بالكناية أى شبه الربيع بالفاعل الحقيقى الذى هو الله تعالى فى كونه منبتا فحذف المشبه به و هو الله و أثبت له شيئا من لوازم المشبه به و هو الإنبات لأنه من فعل الله تعالى فالحق أن يسند إليه ثم أن الربيع فاعل حقيقى ادعاء و مبالغة فى التشبيه أى فرد من أفراد الفاعل الحقيقى ثم استعير الربيع للخالق الذى هو الله تعالى بأن جعل اسما من أسمائه على مذهب السكاكى إلخ فقلت له يلزم من ذلك أن يكون اسما من أسماء الله تعالى و أسماء اله توقيفية فلا يجوز إطلاقه عليه بناء على ذلك القول لأنه تصرف فى الذات و لا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦٢

يتصرف فيها إلا- الله تعالى و كذا على القول الآخر لأنه لفظ يوهم النقص فلا يجوز أيضا فتحير فى الجواب بعد جهد جهيد فى الوصول إلى الإشكال فضلا عن الجواب على أن الادعاء فى الاستعارة كاف فى انفكاكه.

قلت هب على انه كذلك فلا- يسمن و لا- يغنى من جوع لأن الكلام فى إطلاقه على ذاته و هو حاصل قطعا على هذا المذهب لأن المستعار هو الربيع فيكون إطلاقا على الذات من غير شك و أما على القول بأن المستعار هو الفاعل الحقيقى و المستعار له هو الربيع فلا يلزم فيه شىء كما علمت و يظهر لك من قولهم أنشبت المنيئة أظفارها قيل أن المنيئة استعير لها السبع إلخ أو أنها فرد من أفراد السبع ثم استعير اسم المنيئة له على ما اشتهر بينهم و عليهما فانبت الربيع البقل على كونه استعارة بالكناية و أما على القول بأنه من المجاز فى الإسناد فلا يلزم فيه شىء أصلا فلم يأت بجواب رأسا.

أقول فيه و الله اعلم أن التحقيق فى الجواب هو أن ذلك الإطلاق ليس المقصود منه التسمية لله تعالى باسم الربيع و إنما المقصود التشبيه لأن الاستعارة مبنية عليه و إن كانت تباين التشبيه فى الاستعمال و الله تعالى اعلم.

و منها أنى أوردت عليه أيضا من علم الكلام مسائل عديدة فلم يفصح عن جميعها بجواب و أن أجاب عن البعض فلا يسلم من أمور ترده.

حاصله أن الأسئلة باقية إلى الآن فالسؤال الأول العلم بالوقوع تابع للوقوع و لو كان الوقوع تابعا له لدار كما ذكره الشيخ السنوسى فى الوسطى فسألته عن بيان الدور و عن معنى هذا الكلام فوجدته كأنه ما سمعه قط فلم يتعب نفسه فى شىء أصلا فلما علمت منه ذلك تبين لى أنه لا- خبرة له به رأسا و الكلام فيه معلوم و إنما اختلفت عبارة الجميع فى تفسيره و بيان معناه و إلا فهو كثار على علم إلا أن التحقيق

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦٣

أن العلم بقدم زيد يوم الخميس تابع لقدمه بالفعل و لو كان القدوم بالفعل تابعا للعلم بالقدم لدار و هو محال لأن القدوم بمنزلة التصور و العلم به كالتصديق و قد علمت أن التصديق تابع للتصور و لو كان التصور تابعا له لدار و هذا معناه و الله اعلم ذكره بعض أفاضل المحققين و قال بعضهم إرادة قدوم زيد كما سبق متبوع و العلم بقدمه تابع لإرادة قدومهم و لو كان العكس لدار نعم العلم بالأشياء [كلها سابق تعلقا على إرادتها و أما العلم بوقوع شىء فهو] مسبق بإرادة وقوعه و غير ذلك أنظر القاضى زكرياء على الرسالة

القيشرية.

و السؤال الثانى فى أن البصر فى حقنا يتعدد بتعدد المبصرات فما لم تره فلما نعان قام بالعين فلزم عليه أن الجزء الواحد قامت به أبصار و موانع و هى أضداد يستحيل اجتماعها فى محل واحد فلم يتفق له الجواب أيضا كأنه رضى الله عنه و ان حصل له العلم تحقيقا فقد طال عليه العهد برؤية الكتب لما علمنا من حاله انه ذهب للسيد الشيخ المعلوم ذى الطريقة المشهورة و الأنوار الظاهرة و الكرامات الحاضرة و الأحوال الباهرة و كيف لا و هو من ذرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقد سرت فيه روحانيته صلى الله عليه و سلم فاشتغل عنده بالأسماء و خواصها حتى نسى العلم و قد مكث عنده مدة طويلة أكثر من عشر سنين فأثر فيه ذلك النسيان. أقول فى الجواب أن الموانع و الأبصار و إن كانت متضادة بحسب المعنى غير أن ما تعلق به البصر غير ما تعلق به المانع فلا تضاد ذكر هذا الجواب بعض المحققين من الأفاضل.

فإن قلت إنما يتم لو تعدد المحل فلما كان المحل واحدا و قام فيها المتضادات

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦٤

امتنع لأن المانع مضاد لأصل البصر و ضد المثل ضد.

قلت نعم غير أنه إنما يلزم فى غير المتعلق بالألوان و الأكوان لأن اللون إذا قام بمحل منع قيام ضده به فإن قام السواد مثلا بمحل واحد منع قيام البياض به و أما قيام بصر زيد فى جزء من محل عين عمرو فلا يمنع من قيام مانع بصر بكر فيجتمع المانع و البصر فى محل واحد غير أنهما مختلفان تعلقا كما ترى و هذا كلما مررت بهذا المحل إلا خطر لى هذا الإشكال فى صميم القلب فادفعه بما سبق من الجواب غير أن فى القلب منه ما ذكرنا فتأمله منصفنا و الله اعلم.

و السؤال الثالث و الرابع بالنسبة لعلم الكلام فى تعلق علم الله بالمحال هل تعلق به تصورا أو تصديقا و هو سؤال قوى فقد زلت فيه الأفاضل و الفحول فلم يفصح لى بالجواب أيضا نعم تعل علم الله بنفى الشريك و شبهه من كل محال و إنما الخوض فى علمنا الذى يتعلق تصورا و تصديقا و أما علم الله فمتمزه عن ذلك و ان بقى فيه نوع خبط غير انه خوض فى ما لا يليق به تعالى إذ أكثر من هذا مستحيل عليه تعالى.

و السؤال الخامس فى قول السيد الخرشى فى شرح خطبة خليل و حمد المؤلف العام و شكره الخاص فى مقابلة قول البرادعى على ما خص و عم من نعمه فما للبرادعى ترق و ما للمؤلف محتمل له و للتدلى فقال فى تقرير ذلك و نسبه لابن مرزوق أن الأصوليين اختلفوا هل الخاص أفضل أو العام فى ذلك قولان فإذا بنينا على أن العام أفضل فقول البرادعى ترق لأنه بدا بالخاص ثم العام و أما قول خليل فيحتمل القولين فإذا كان العام أفضل فهو تدل و إن كان العكس فترق.

قلت هذا منقوض لأن البرادعى كخليل أى عبارتهما معا تحتمل القولين فلا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦٥

فرق بينهما و التفريق بينهما تفريق بلا مفرق و هو من التحكم قطعا.

حاصله قد اتحد نسبة القولين إلى كلام الإمامين أى نسبة واحدة فلما ذاق هذا و حققه سلم الإيراد لم يفهم وجه الترقى و التدلى.

فقلت له و لمن حضر من العلماء فى الجواب أن الترقى فى كلام البرادعى انه بدا بالأخص إذ هو أقل أفرادا ثم العام إذ هو أكثر فهو ما تزايد من النعم يحتمل أن يكون على الحامد نفسه فيقدر حمدا يوافق ما تزايد على و فى قوله و الشكر له على ما أولانا من الفضل إلخ النون للتشريك أى على و على غيرى فيكون عاما.

حاصله أن الحمد خاص كما سبق و الشكر عام فهو ترق فكأنه قال يوافق ما تزايد على و الشكر على ما أعطانى أى لى و لغيرى فيكون ترقيا كما للبرادعى أو يكون تدليا و هو الظاهر فإن حمد المؤلف عام أى يوافق ما تزايد من النعم على و على غيرى و شكره خاص فبدا بالعام ثم الخاص و قد تقرر أن العام أكثر أفرادا من الخاص فهو تدل قطعا و بالجملة فكلام خليل يحتمل التدلى و الترقى غير أن

التدلى فيه أظهر.

فإن قلت قول الخرشى و حمد المؤلف العام و شكره الخاص إلخ مناف لهذا التقرير لكونه جزم بقوله و حمد المؤلف فما هذا منك إلا شبه تناف لكلام خليل.

قلت و لا منافاة إن شاء الله تعالى لأن جزمه بذلك على الظاهر من الاحتمال ما سبق فتأمله منصفاً و قد جعلت فى رسالته على نحو ما سبق فاستحسن الجواب كل من حضر المجلس و هذا الذى قررت شىء فتح الله به على فى هذا المقام إذ كل من يمر به يستهوله و يستصعبه و إنهم لا يفصلون عنه كبير انفصال.

و قد أوردنا هذا الكلام على الوالد رحمه الله لأنه افقه زمانه و ما رأيت مثله فى

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦٦

الفقه إذ انه فى التحقيق بمكان فاستصعبه غايةً و لما سمع بما فتح الله به على شكر الله على ذلك و فرح بسببه فرحاً عظيماً. و السؤال السادس فى النحو و هو قولنا فى قول ابن مالك:

و صالحاً لبديئة يرى فى غير نحو يا غلام يعمر

و نحو بشر تابع البكرى و ليس أن يبدل بالمرضى

أما بشر تابع للبكرى فهو ظاهر المنع لأن البدل على نية تكرار العامل و لا تصح هنا لأن المحلى بالألف و اللام لا يضاف إلا لما هو كذلك و هنا ليس كذلك و أما يعمر بالنصب فأعرابه عطف بيان صحيح لكونه تابعا للمنادى المضموم لفظاً المنصوب محلاً فنصب و أما إعرابه بدلاً فلا يصح لأنه على نية تكرار العامل و العامل هنا ياء النداء كأنه قال و ذلك قول الشاعر [و هو المرار الاسدى]

أنا ابن التارك البكرى بشر عليه الطير ترقبه وقوعا

يا غلام يا يعمر فيضم مع أنه لم يقع مضموماً غير أن هذا لا يظهر كونه علةً للمنع و أما المثال الأول فقد ظهر فيه علة المنع و أما المثال الثانى فليس له علة للمنع غاية مخالفة ما نطق به المتكلم و ذلك ليس بمنع فليس من باب القراءة لأن القراءة سنة متبعة فيصح حينئذ عطف البيان فيه و كذلك البدل أيضاً فلا تأثير لمتابعة ما نطق به المتكلم من النصب فيجوز حينئذ اعتبار الوجهين قطعاً البديئة و عطف البيان فتأمله منصفاً.

و قد استخبرت عليه أناساً غرباً و شرقاً فلا أجد أحداً يقول غير ما ذكرناه من وقوع النطق به منصوباً و إنما أسأل الناس هل أجد أحداً منهم حفظ هذا اللفظ و هو يا غلام يعمر من الشعر و انه وقع بالنصب رعيًا للقافية إذ لو ضم لخالف الحرف

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٦٧

الروى فى القصيدة لأنها منصوبة فلو ضم لوقع فيه المخالفة المذكورة.

أقول جميع من شرح الألفية لم ينبه على هذا السؤال و لا على الجواب نعم أنا أظن أنها من قصيدة شعر رويها منصوب فلو ضم على البديئة لأنه على نية تكرار العامل لوقع الخلف فيها غير أنى لم أطلع على انه من الشعر فانظر رحمك الله لعلك تطلع عليه فى ديوان الشعراء فيزول اللبس فيما وقع فيه الكبس من سائر الطلبة المسئولين عنه انتهى.

و السؤال السابع عن الكيمياء أى عن الأكسير فقال أمره إذ قال أنه مستور بشعرة فعلت من كلامه أنه يعرفه و أشار لى أيضاً ببيانه فتغافلت عنه ظناً منى انه لا يعرفه.

و السؤال الثامن سألته و من حضر عما نقله الشيخ إبراهيم الشبرخيتى فى شرحه لخليل فى باب الجنائز من أن الموت عرض قائم بيد ملك فمسه بها مات و هو انه عرض و العرض إذا قام بمحل أوجب الحكم لمن قام به لا لغير من قام به و هنا أوجب الموت لغير من قام به و أما من قام به فلم يمت و هى اليد التى قام بها و القضية العقلية يستحيل تبديلها عقلاً فلن ترتفع فتحير الكل فى الجواب.

نعم فلا جواب عنه على مقتضى القواعد العقلية غير أن المعتزلة خالفوا فى هذه القضية و أمثالها لكنه لا يكون جواباً فإذا علمت هذا

علمت أن كون الموت في مخلوق عند المس باليد التي قام بها الموت ليس من إعطاء الصفة الحكم لغير من قامت به بل أن الله أجرى عادته أن يخلق الموت في الحي عند ذلك المس فيخلق عنده لا انه

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٨

أوجه وصف الموت القائم بتلك اليد ولا أنه به فالحاصل أنه يخلق عنده لا به ولا أنه موجب الحكم المذكور إلخ و أما اتصاف اليد بالموت فلا مانع منه أيضا أن قام به الموت حقيقة.

فنقول أنها ميتة و تلتزم ذلك على قواعد العقل و مع ذلك متحركة حركة اضطرارية فإن الميت يتحرك بتحريك من غيره إياه. حاصله أن اليد و إن ماتت فلا مانع من أن يحركها الله بمحرك كما يتحرك الميت بغيره تحرت خرق عادة لأن الحياة ليست شرطا عقليا في الألوان و الأكوان و الحركة و إنما الحياة شرط عقلي في الإدراك لا غير و قد توقف في هذا السؤال جميع من رأيناه و لقيناه من أكابر العلماء غربا و شرقا نعم و قد من الله على بالفتح في هذا المقام الذي يستهوله و يستصعبه و يقول بإحاطته كل من سمعه أو مر عليه فلا تستحقر فان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء و ممن توقف في هذا السؤال أيضا الشيخ على الصعيدي و غيره انتهى.

و السؤال التاسع قد سألته عن التناقض الذي بين المذاهب لأن النبي واحد و الملة واحدة و مع ذلك تناقضت الأحكام و تضادت و القائل بها في الواقع واحد و هو النبي صلى الله عليه و سلم و الواحد مثلا لا يقول في صلاة واحدة باطلة صحيحة كيف و أن مالكا يقول بأن الصلاة التي بسمل المصلي في أول الفاتحة مكروهة و ان تركها أولى و يلزم من ذلك صحة صلاة تاركها قطعا و إما الإمام الشافعي فيقول بطلانها أن تركت لأنها آية من الفاتحة و من ترك آية عمدا بطلت صلاته و مذهب مالكا أنها ليست آية من الفاتحة فإعجابا كيف تكون الصلاة في دين واحدة باطلة غير باطلة هذا على من يقول أن المذاهب كلها على الحق في الواقع إذ قال الإمام الشعراني يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الأئمة الأربعة كلهم على

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٤٩

الإصابة في نفس الأمر فيلزم أن بطلانها و صحتها حق و هو باطل لما علمت من أن اجتماع النقيضين محال و أما من يقول أن الإصابة بحسب ظن المتجهد فلا كلام أو أن حكم الله هو ظن المجتهد في حقه و حق مقلده فلا قدح أيضا و إن المصيب واحد غير أن الله لم يكلفنا بتعيينه فلم يبق إلا- ثوب التناقض فيما إذا حملت الإصابة لكل في نفس الأمر و لذا قال الإمام المذكور حصلت لي وقفة منذ أزمته متطاولة في مثل هذا التناقض إلى أن دخلت الخلوة ففتح الله على بأن بعض الأئمة شدد و بعضهم رخص إلخ ما ذكره.

و هذا الجواب لا يغني شيئا لأن مالكا قد كرهها مطلقا و ذلك ليس لمقلده فقط و الشافعي أوجبها على كل مصل باجتهاده إلخ. فلما ذكرت ذلك بحضرة شيخنا الشيخ العفيفي و جماعة من العلماء فمنهم من فهم السؤال و صار ينظر في الجواب عنه و منهم من لم يصل إلى السؤال فضلا عن أن يجيب و الشيخ المذكور فهم السؤال و أنكرو وجود قوله بإصابة الجميع في نفس الأمر للأصوليين. نعم قلت قد كان ذلك في المحلى فلما أتوا بنسخة منه وجدناه كذلك و أنكروا ما ذكره الشعراني بأن قالوا لم يذكره فإذا بشيخنا العفيفي قد أخرج كتابه فأصنبه كذلك أيضا فبعد ذلك سلم الكل الإيراد إلا الفاضل سيدي أحمد بن عمار مفتي الجزائر قد أنكرو صادر عن المطلوب غير انه لم يقصد عنادا و بعد ذلك سلم رضى الله عنه و عن الجميع آمين.

و لا غرابة أن يمن الله على بعض الناس بالجواب و قد من الله علينا بالجواب بما هو حاصله أن ترك البسمل في الصلاة مبطل على مذهب الشافعي و غير مبطل عند

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٧٠

مالكا و ذلك تناقض قطعا نعم الإصابة بحسب الثواب و نفي العقاب إذ كل من المذاهب مصيب في نفس الأمر بحسب الثواب في صحة العبادة على من يقول بها و عدم العقاب على من يقول بطلانها و فسادها و أما في الواقع عند الله فأما صحيحة أو فاسدة لاستحالة الجمع بين صحتها و فسادها في علم الله و إنما يصح و يثبت في علمه تعالى أحد المذهبين فقط لما علمت من عدم اجتماع

النقيضين فحينئذ فترك البسمله في الصلاة أما أن يوجب خللا عند الله في الواقع كما هو مذهب الشافعي أو لا يوجه كما هو مذهب مالك فالحق في الإصابة في علم الله أحدهما دون الآخر و أما بالنسبة للثواب و عدم العقاب فكلاهما صحيحان يعتد بهما في ظاهر الشرع لأن مالكا يرى أن البسمله ليست آية من الفاتحة و لذا قال تركها لا يوجب خللا بل التلبس بها مكروه لما فيها من التلبس في قراءتها في أول الفاتحة و إبهام أنها منها و هي ليست كذلك لأدلة عنده قولية و فعلية من أهل المدينة لأنه يقدم عمل أهل المدينة و ذلك قاعدة من قواعده و لذا جزم بأنها ليست من الفاتحة فإذا كل كذلك عند الله فالحق معه ظاهرا و باطنا و إلا فيحصل الثواب من تلك الصلاة المتروك فيها البسمله و إن كانت في علم الله فاسدة فإصابته حينئذ بحسب الثواب عليها و عدم العقاب على ترك البسمله و إن كانت فاسدة بسببها تركها في علم الله تعالى.

حاصله أن مالكا مصيب فيما أما بحسب علم الله و غيره و أما مصيب في الثواب عنها و عدم العقاب على تحمل المفسد في علم الله تعالى و هذا معنى إصابته.

و بالجملة فهو مصيب قطعاً في صحة الصلاة ثوابها و أما مصيب في الثواب و عدم العقاب فقط و إن كانت فاسدة في علم الله تعالى و هذا معنى الإصابة في كل مذهب و ذلك مطلقاً أي في العمليات و العبادات و على هذا تحمل الإصابة في نفس الأمر و إلا فالتناقض ظاهرين لا ينكره عاقل فضلاً عن عالم و كذا مذهب الشافعي

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٧١

في حمل الإصابة فيما يناقض غيره من المذاهب فإذا قلنا بفساد الصلاة عنده بترك البسمله أما عند الله تعالى فتكون فاسدة ظاهراً و باطناً و إما أن تكون فاسدة بحسب رأيه و اجتهاده بالأدلة الواردة في ذلك أي بأنها آية من الفاتحة فيكون حينئذ أما مصيباً في نفس الأمر و في الظاهر فقط.

و حاصله أن إصابته أما بحسب علم الله أنها فاسدة بتركها أو بحسب الظاهر من الأدلة فيكون مصيباً قطعاً غير انه إن كان مصيباً في فسادها بحسب علم الله فيكون مالكاً مخطئاً بحسب صحتها غير انه مصيب بحسب الثواب و عدم العقاب و أما أن يكون مالكاً هو المصيب في صحتها بتركها في علم الله تعالى فيكون الشافعي مخطئاً في فسادها بحسب علم الله و إنما يكون مصيباً في فسادها بحسب الظاهر من الأدلة و يكون حال من ينتمى إليه يعاقب و لا يثاب عليها أيضاً لمخالفته ما دل عليه الحديث أنها آية من الفاتحة و من تعمد ترك آية منها عوقب و آثم.

فإن قلت قد اجتمع الثواب و العقاب في صلاة واحدة لأنك حملت الإصابة على ذلك قررت منه من اجتماع النقيضين وقعت فيه فهو مشترك الإلزام قطعاً.

قلت السؤال قوى غير أن لطف الله موجود و كرمه معهود و فتحه ممدود فلا منع أن يجعل الحق حيث شاء.

أقول و على الله اعتمدت أن الصلاة إذا كانت صحيحة عند الله مع ترك البسمله فالفاسد حينئذ ليس إلا في الظاهر و مخالفة الظاهر ضعيفة لا سيما مع عدم التعيين فيه فلا أقل أن يكون مع ما عند الشافعي من الحكم بفسادها بحسب الظاهر من الأدلة من أنها آية من الفاتحة غير مجزوم به و لا مقطوع به أصلاً لا سيما على ما تقدم أن صحتها هو الواقع في علم الله تعالى فيكون بطلان الصلاة بتركها أمراً خفيفاً لما لم

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٧٢

يكن في علم الله تعالى فخف أمره و تيسر حاله فكأنه معفو عنه فالالتفات إليه التفات إلى حال الأدلة و اعتبار لقواعد اجتهاده فيصير العقاب و الفساد أمراً عارضاً غير موثوق به إذ المعتبر ما عند الله من الصحة فيها بتركها فيكون الشافعي مصيباً بحسب الأدلة أنها آية من القرآن أي آية من كل سورة فيلزم أن تكون آية من الفاتحة فعلى من اجتهد و لاحظ أنها آية من الفاتحة من غير أن يعتره شك في ذلك بأن كان عنده ظن قوى بأنها آية من القرآن ففساد الصلاة بتركها ظاهراً و هو مصيب من هذه الحيثية و معاقباً على تركها

عقاب أقله توبيخ و تفریح علی مخالفة الشافعی فی ظنه أنها آية من الفاتحة إذ المعتمد علی مذهبه لا بد أن يعمل به و إلا عوقب علیه لأن العمل بمقتضى المذهبین تناقض و الإصابة فیهما مستحلیة إذ لا يمكن الجمع بین النقیضین.

و بالجمله فالإصابة علی المذهبین هو أن لا مؤاخذه علی کل من عمل بهما و علی هذا تحمل الإصابة فی نفس الأمر و لا شك أن کل مجتهد فی المظنونات بشروط الاجتهاد غیر مؤاخذ فی نفس الأمر و كذا مقلده و أن أخطأ بحسب علم الله تعالی بخلاف المجتهد فی الاعتقاد فلا بد أن يكون مصیبا فی نفس الأمر و إلا عوقب هو و مقلده لأن الناس مکلفون فیها بالعلم و یقین و لا یصح فیها الظن القوی و لذا كان المصیب فی العقائد واحدا لأن العلم له وجه واحد و المطلوب فیها العلم بالاحتمال فإذا علمت هذا علمت صحبة إصابة کل مجتهد فی الفقه فی نفس الأمر بحسب عدم المؤاخذه فیها عند الله تعالی فمن صلی حیثئذ بغير بسمله كما هو مذهب مالک لا مؤاخذه و كذا علی مذهب الشافعی أن یسلم و ظن أنها آية من الفاتحة نعم كذا کل مذهب فی الفقه.

حاصله أن التناقض الواقع بحسب المذاهب الفقهية إن كانت مدونة و مقتفية مالک و الشافعی و أحمد و أبی حنیفة یجب أن یحمل کل رأى منهم علی الإصابة فی

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٧٣

نفس الأمر بمعنى أن من عمل بمقتضاها غیر مؤاخذ شرعا و إن كان المصیب فی علم الله و أحدا إذ لا يمكن الإطلاع علیه إلا بالوحي أو الأدلة العقلية و قد تعذر ذلك أما الوحي فقد انقطع به صلی الله علیه و سلم و كذا الأدلة العقلية لأن هذه الأحكام نقلية و لا مجال للعقول فیها فإن كان كذلك فلا یكلف الله نفسا إلا وسعها و ترجیح المصیب من المجتهدین فیها تحکم نعم یصح فیما ظهر فی المدرك أو كثرة القائل نعم فلا يكون ذلك دلیلا علی انه فی علم الله تجب الفتوى بالراجح و العمل به و أما فی العمليات فالمصیب فیها واحد و العمل بما فی علم الله انه الحق واجب و البحث علی ذلك بالأدلة العقلية لازم متحتم و المعتقد علی خلافه مأثوم أو كافر و أن اجتهد بإمكان التوصل إلى ما فی علم الله من المعتقد الصحيح بالأدلة العقلية.

فظهر ذلك أن المصیب فیها بحسب المؤاخذه واحد بخلاف المجتهد فی المظنونات صح أن يكون کل مصیبا بحسب عدم المؤاخذه هذا و هو التحقیق فی الجواب و الله الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

و لتعلم أن الله قد من علی بفتح منه و إلا- فهذا المحل یستهوله کل من مر علیه و یستصعبه فلا یفصلون عنه إلا علی بطلان القول بالإصابة فی نفس الأمر و إنما الإصابة بحسب ظن المجتهد و ان ظنه هو حکم الله فی حقه و حق مقلده كما هو تحقیق فی فن الأصول و الإصابة لكل فلا لما علمت من التناقض و النقیضان لا یجتمعان و لا یرتفعان غیر أنك قد سمعت الجواب عنه الله هو الفتح العلیم.

و السؤال العاشر و الله اعلم هو برهان القطع و التطبيق إنما یستحیل فی الحوادث دون القديم إذ قولهم ما دخل فی الوجود متناه و ذلك و الله اعلم فی القديم و الحادث و أظن أن المحقق ابن التلمسانی فی شرح المعالم قال أدلة ذلك أى إحالة التسلسل فی الحوادث خالص بها لتوقف وجود بعضها علی وجود بعض قبلها و أما القديم فلا

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٧٤

لعدم السبقية فیها و لهذا قال ابن التلمسانی المذكور و تبعه المحقق المراكشي فی حاشيته علی الصغرى و كذا الیوسی فی حاشيته علی الكبرى أن کمالاته تعالی لا نهاية لها بحسب الواقع و إنها صفات موجودة قائمة بذاته غیر متناهية و دعوى الإجماع أن کل ما دخل فی الوجود قديما أو حادثا متناه منقوض بمذهب الإمام الصعلوكی فی قوله أن علمه تعالی یتعدد بتعدد المعلومات و معلوماته غیر متناهية لأن الإجماع لا ینعقد بدونه إلخ ما ذكره الشيخ الیوسی فظهر لك أن الأدلة العقلية غیر جاریة فیها و كذا الإجماع لما ذكر الصعلوكی و كذا ابن الحاجب فی تعدد القدرة سلمنا الإجماع غیر انه دلیل ظنی.

قلت سلمنا ذلك غیر أن عدم إحالته ممنوع و سند المنع أن أمر الكمالات عدد و کل عدد أما أن يكون زوجا أو فردا أو غیر زوج و لا فرد أو زوجا فردا و کل ذلك لا- یصح لأنه أن كان زوجا أو فردا فهو متناه و أما غیر زوج و لا فرد فمستحیل و كذا زوجا فردا

فمستحيل أيضا فإذا علمت هذا علمت استحالتة في القديم أيضا وإن كان هذا الجواب أفحاما إذ أكثر أدلة الكلام أفحامية أو اقناعية. نعم حصول الفائدة للناظر من هذه الأبحاث إشكالا و جوابا ظاهرا للمعنى بالعلم والراغب فيه و إما غير فضائع فيه كتعليق و عاء فيه مسك للحمار أو نثر الجواهر للدجاج.

و بالجملة فأمر مصر و حالها من يوم عمارتها إلى الآن أمر غريب و عجائبها في العلوم و المعارف و العوارف و الولاية لا تحصى و غرائبها كادت أن لا تستقصى فمن اختبرها و عاين بعض أحوالها حصل له اليقين الخاص و العبرة العظيمة.

و من عجائبها في كل شيء أنك إذا رأيت شيئا عظيما ثم رأيت شيئا أعظم منه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٧٥

نسيت الأول ثم كذلك إلى هلم جرا.

نعم أحوال مصر داخل المدينة و خارجها كافية في الاعتبار إذ في أهلها و أسواقها و دكاكينها و أزقتها و ديارها و وكالاتها قهواتها و مساجدها و مدارسها و عجائب قرائنها و علمائها و صلحائها و طلبتها و فقرائها و ظلامها و بطارقتها و أهل شرطتها و جنودها و عساكرها و أمرائها و كثرة خلقها و كذا سحرتها و زناديقها و كذلك كثرة اليهود فيها مع النصارى و كذا مقابرها في القرافة الصغرى و الكبرى و كذا عجائب ما فيها من البنين و أعجب من ذلك ما فيها من العلماء المؤلفين و الأولياء الصالحين ممن يستجاب الدعاء عند الجميع و كذا خارج المدينة ففيه من القصور و الغرف و صهاريج من الماء و كذا ما في داخلها من الحمامات و الأفران على أن سعة الديار فيها و علو أسوارها و تزينتها بالنحاس و الذهب و الفضة فبعض الديار إن كان أحد في طرفها و الآخر في الطرف الآخر لا يسمع كلامه بل و قد لا يرى له شخصا فإن رآها بعض الناس غاب عن حسه لما أصابه من مشاهدة رونقها يكاد المرء أن تكون عنده الجنة عجائب و غرائب لا تكاد توجد في غيرها من البلدان أيا كانت هذا الذي سمعته بعد أن دمرها الله و غيرها بسبب الفسوق و العصيان على أنها الآن قد كثر فيها الظلم حتى سمعت من الشيخ العارف المحقق الفاضل سلطان الموحدين شيخنا الشيخ الحفناوى يقول في حجتنا هذه إن ظلم ولاتها قد وصل كل جنس من أجناس الآدميين حتى بلغ ظلم الحاج المغربي و العلماء و الطلبة و الفقراء و الأشياخ و الصناع و التجار و المجاورين و سائر الناس قاطبة و لذلك ابتلاههم الله بالشقاق و الفتنة فكانت مصر لمن غلب و قد قال صلى الله عليه و سلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم.

فإذا علمت هذا علمت أن والى بولاق قد تعدى على ركبنا أهللكه الله و أخلى منه الأرض و كذا معينه يمسك جماعة بعد جماعة من الحجاج و يلقبهم في السجن فإن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٧٦

أخذ منهم شيئا من الدراهم سرح لهم من غير أن يدعوهم أحد للشريعة عدو نفسه إلا أنه لا يقدر أن يربط من الركب هو و غيره من الولاة و إنما يربطهم من الأسواق و قد نجاني الله منه و الحمد لله.

و سبب ذلك الشيالة أى الحاملون للحجاج فيشتكون إليه بباطل قصدا منهم أن يأكلوا ما عليهم من الدين الذى أقرضوه و تسلفوه منهم إذ كيدهم عظيم فإننا سلمنا منهم فى الطلعة و الهبطة لقوة الركب فلم يغن عنهم ما أرادوه من إتلاف أموال الحجاج بالباطل عند أمير الحاج من مصر فلم يوافقهم على الظلم و لما وصلوا إلى مصر رجعوا إلى فعلهم الردى غير أنهم لم يأخذوا شيئا منهم و إنما ذلك الظالم هو الذى أخذ منهم.

نعم ما خرجنا من مصر حتى أوقع الله بها فتنة عظيمة و غلاء قويا بركة الحاج.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٧٧

ذكر خروجنا من مصر

و لما ظعنا من البركة نزلنا الدار الحمراء و هي لا- ماء فيها بل إنما يأتي الحاج بالماء من النيل يصحبه إلى أن يصل دار عجود أو يجاوزه إذ ماؤه قبيح لا يشربه إنسان إلا خرج من حينه بل يغير طبيعة شاربته فلما يسلم شاربته من مرض البطن فيستعدون الماء تلك المرحلة إلا الفقراء فيضطرون لشربه فلا يسلمون منه غالباً بل الطعام الذي يطبخ به تصيبه مرارة فلا يؤكل إلا بشدة الجوع.

نعم الذي عنده وسع في ماله و قوة في زاده يشتري الماء العذب إذ يأتون به من النيل فيباع في الأسواق إذ أسواق الركب المصرى كثيرة لا يمكن عدها إذ فيها كل خير مما تشتهي الأنفس و تلذ الأعين و ترغب فيه الناس إلا كان فيه سواء كان نازلاً أو سائراً فإن من لم يصحبه زاد من طعام و شراب و عنده فلوس يشتري كل ما يحتاجه منه غير أنه يشتريه بزيادة الثمن و إنما الرخاء فيه بكثرة ما يباع فيه من المطاعم و الملابس و الفواكه و الخضر حتى يحكم الإنسان و يجزم أن مصر خرجت برمتها و ما فيها إذ تجد الطباخ من أنواع الأطعمة و الأشربة و الأغذية أحسن مما يوجد في الأمصار الكبار و مع ذلك هم سائرون فالمضطر الجائع يجلس عند الطباخ و يأكل عنده ما يحتاجه بثمنه فتجتمع نعمتان الاستراحة و الشبع بل عنده نعمة شاملة كأنه حاضر في سفر و نزهة في كدر و عبرة في ضرر و رحمة في سفر.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو أن عجوداً هذا قد يوجد فيها بعض المياه العذبة في نواحيه و كذا في نواحي الدار الحمراء غير أنها ليست في كل الأوقات و لا أنها تكفي الحاج و مع ذلك لا يعلمها الحاج و إنما يخبر بها بعض الأعراب.

ولذا قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر المذكور ما نصه قرب هذه الدار مرنا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٧٨

على واد به ماء طيب بأبار قريبة القعر يحفر الإنسان بيده فينبع له الماء قريباً بحيث تتناول الدابة منه بفيها من غير كلفة و أخبرنى بعض من كثر ترده في هذه الطريق أن هذا الموضع يجدون به الماء و لو في الصيف هذه الأزمنة و هذه السنة زاد الماء فيها كثيراً من كثرة الأمطار و نداوة الأرض إلى أن قال و هو عن يمين الذهاب لعجود فسرنا و مرنا كذلك على واد به فيعان من ماء يسيل سيلاً تاماً من المطر بإزاء عجود فقلت لأعرابي حجازى هذا الماء طيب فقال مجيباً نعم زى الشهد إلى أن قال و ماء عجود يضرب به المثل في القبح و اشتهر بذلك مع وجود ما يضاويه كثيراً في مياه الدرب إلا أنه لما كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاق الطريق مع اعتياد الناس قبل ذلك لمياه النيل و وجود فضله منه لا يكادون يسيغون منه جرعة إلا و همت بطونهم بالرجعة.

و في هذه المورد حصنان متقاربان مبنيان بأوثق بناء يترك الناس فيهما ما استقلوه من الأزودة و الأمتعة إلى الرجوع و كثيراً ما تعطب المؤمن من الإبل في هاتين المرحلتين بجد السير و ثقل الأحمال إذ لم يخفف منها شيء و الإبل قد ألفت الراحة بمصر و يغلب عليها السمن و كثير من الناس لا يشفقون عليها فيحملونها فوق طاقتها و لا يرخون عليها في المشى لما يتوقعون من خوف اللصوص على من تأخر فكل واحد يريد أن يتقدم و قد لطف الله بنا عادةً عودناها تعالى في جميع الأحوال فتأخر عن الركب و نكون في أخرياتنا فنسير على مله يابلنا و ينضم إلينا من ضعف من الناس أو تأخر لغرض فكان لنا في ذلك و للناس خير كثير فلم نر ما رأى الناس من المشاق و موت الإبل و في أحد الحصنين اللذين هناك بئر كبيرة تسنى دائماً بالبقر و يخرج الماء من البندر إلى برك ثلاث خارجات اثنتان صغيرتان و الثالثة كبيرة و بهما عسكر لا يفارقهما أبداً و كذلك غيره من البنادر في كل سنة يأتى قوم فيذهب الذين كانوا به و لهم جراية من بيت المال على ذلك و لو لا لطف الله بالعباد بوجود هذه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٧٩

البنادر في الطريق لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها و قلته مرافقها و لكن الله سلم أنه عليم بذات الصدور و من هنا يعدل عن طريق الحاج ذات المصانع ذات اليمين للنابعة و المصانع سوارى مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق و كذا في الرمل القريب منها فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدلوا بها على الطريق و جعلوا في رؤوس الأبنية حجر مستطيلاً خارجاً لناحية الطريق ليستدل بها الماشى ليلاً و ربما علقوا على بعض الأعلام مصابيح ليلاً لبعدها ما بينها و بين كل علم و علم نحو فرسخ أو أقل أو أكثر في محالها و على هذا

الطريق يسلك الحاج المصرى و المغربى دائما إلا فى أوان الحر و خوف العطش فيعدلون إلى النابعة عن طريق المصانع و هى واد كبير ذو رمل به احساء كثيرة تزيد على المائة بل أينما حفرت مقدار قامه أو أقل وجدت ماء حلوا باردا فى غاية الحلاوة كأنه ماء النيل ربما يتوهم أنه أحسن منه شرقى مدينة سويس.

و هى مدينة صغيرة ذات أسواق و مساجد و وكالات مستطيلة على شاطئ البحر المالح الذى يأتى من الهند و هناك يقف بين جبال شامخات و بينه و بين البحر الرومى نحو مرحلتين قاله الشيخ أبو سالم فى رحلته.

قلت و ذكر المقريزى أن ما بينهما هو البرزخ الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى قوله تعالى: **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ** و بهذه المدينة ترسى السفن التى تأتى من جدة و مكة و اليمن فيها السلع التى لا تحصى و البضائع التى لا تستقصى و من هناك تحمل إلى مصر فى البر.

قلت و هى بموضع مدينة القلزم التى ينسب إليها هذا البحر و بالقرب منها غرق فرعون قال المقريزى فى خططه و قد عرف بهذا البحر و ذكر فى تفاصيله و ان مبدأه من البحر الكبير المحيط بالأرض المسمى ببحر الظلمات لتكاثف البخار

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٨٠

المتصاعد منه و ضعف الشمس عن حله فيغلظ و تشتد الظلمة و يعظم موج هذا البحر و تكثر أهواله و لم يوقف من خبره سوى ما عرف من بعض سواحله و ما قرب من جزائره و فى جانب هذا البحر الغربى الذى يخرج منه البحر الرومى الجزائر الخالدات و هى فيما يقال ست جزائر يسكنها قوم متوحشون كما أن فى جانبه الشرقى مما يلي الصين ست جزائر أيضا تعرف بجزائر السيلي نزلها بعض العلويين فى أول الإسلام خوفا على أنفسهم من القتل و يخرج من هذا البحر المحيط ستة بحار أعظمها اثنان و هما اللذان ذكر الله تعالى فى كتابه فى قوله تعالى: **مَرَجَ الْبُحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** و فى قوله تعالى: **بَيْنَ الْبُحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْسَ فَاكُفْرَانِ** من جهة الشرق و الآخر من جهة الغرب فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصينى و البحر الهندى و البحر الفارسى و البحر اليمانى و البحر الحبشى بحسب ما يمر عليه من البلدان و أما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومى و أما البحر الهندى الخارج من جهة الشرق فيبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاث عشرة درجة و يجرى إلى ناحية الغرب فيمر على بلاد الصين و بلاد الهند إلى مدينة كتيان و إلى التبر من بلاد مكراف ينقسم هناك قسمين أحدهما يسمى بحر فارس و الآخر يسمى بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن ينزل خارجا من البحر يسمى هذا الركن رأس الجمجمة فيمتد من هناك إلى مدينة ظفار و ساحل بلاد حضر موت و إلى عدن فإذا انتهى إلى باب المنذب يخرج بحر القلزم و المنذب جبل طوله اثنا عشر ميلا و سعة فوهته قدر ما يرى الرجل من البر تجاهه فإذا فارق باب المنذب مر بجهة الشمال بساحل زبيد فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب و مر إلى القصير

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٣٨١

و من القصير إلى عيذاب إلى بلد الزيلع و هو ساحل بلاد الحبشة و يتصل برا و طول هذا البحر ألف و خمسمائة ميل و عرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها و هو بحر كرية المنظر و الرائحة و أما البحر الرومى فقد تقدم أن مخرجه من جهة الغرب و هو يخرج فى الأقليم الرابع بين الأندلس و الغرب سائرا إلى القسطنطينية و إذا خرج هذا البحر من شرقا فى بلاد البربر و شمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد المغرب على إفريقيه و برقة و الإسكندرية و شمال التيه و أرض فلسطين و سواحل بلاد الشام ثم يعطف من هناك إلى العلايا و انطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية حيث ينتهى إلى البحر المحيط الذى خرج منه و طول هذا البحر خمسة آلاف ميل و قيل ستة آلاف و عرضه من سبعمائة ميل إلى ثلاثمائة و فيه مائة و سبعون جزيرة عامرة.

و ذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية و بين بلادها أى و بين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت الجميز و كانت مسكونة و كان أهلها قوما من اليونانية و كان لاسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض و كان فيها فيما يزعمون الطائر الذى يقال فه فقنّس و هو طائر حسن الصوت و إذا حان موته زاد حسنا فى صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن

أحدا يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع وانه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم و سرور فلا يهدأ من الصياح و زعموا أن بعضا من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت فقس في تلك الحال فخشى أن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسد أذنيه سدا محكما ثم قرب إليه فجعل يفسخ من أذنيه شيئا فشيئا حتى استكمل فسخ الأذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة و لا يسمعه في أول مرة فيأتي عليه و زعموا أن ذلك الطائر هلك و لم يبق منه و لا من فراخه شيء هجم عليه الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٢

ماء البحر و على رهطه بالليل في الأوكار و لم تبق له باقية و يقال أن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فاعطاه قدحا فيه سم ليشربه و اعلمه بذلك فظهر منه مسرة و فرح فقال له ما هو هذا أيها الحكيم فقال له هل أعجز أن أكون مثل فقس انتهى كلام المقريزي مع بعض حذف و لو الإطالة بما لم يكن لنا بصدده لاستطرنا ذكر البحور السبعة و مواقيها و كيفية مجاريها في أمكتها و إنما تعرضنا لهذين لأن لهما تعلقا بطريق الحاج و مجاورتهما له ذهابا و إيابا و الله الغفور بفضله و طوله. قال شيخنا أبو سالم.

تتميم قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ البكري و أظنه شيخنا محمد ابن الشيخ زين العابدين ذكر فيها منازل الحج و دياره ذهابا و إيابا و حقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات و الدرج و الدقائق و صعوبتها و سهولتها بنثر بليغ و عبارة راقية و ذكر في كل منزلة شعرا يتعلق بأحوالها فأردت أن اقتطف منها ما يكون في أذن هذه الرحلة شنفا إذ كلامي بالنسبة إلى كلامه لا يعد معه صنفا و لما كانت المنازل التي ذكرها قد لا تتفق مع منازلنا و مراحلنا تزيد أو تنقص عن بعض مراحلنا لم أذكر في كل مرحلة ما يناسبها من كلامه فأخرت ذلك إلى آخر مرحلتين أو ثلاث أو أزيد فاخترت لإدراج كلامه المراحل التي فيها البنادر لأنها في الغالب متفقة فإذا جاء ذكر بندر من البنادر ذكرت من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبله ليكون ذلك أسهل لمطالعة و أبقى لرونق كلامه من التقطيع و كثير التوزيع.

قال فلندكر الآن من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبل عجرود فأقول قال الشيخ البكري رضى الله عنه فأول المنازل البركة المباركة، التي توحدت في مشارق أنوارها و مشارع شوارع أقطارها عن المشاركة، و قصرت عن أوصافها ذوو اللسن، و جمعت بين الماء و الخضرة و قدوم الوجه الحسن، فهي مخضرة الأكناف، بديعة الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٣

الأوصاف، قد مدحت أطيارها، و نفحت بالنسائم أزهارها، و بها الخيام منصوبة و مرفوعة، و الخيرات لا مقطوعة و لا ممنوعة، مع وقوف أشائها على الأقدام، يستدل بضوئها في الليل من له على القدوم إقدام، كأنها في جنح الليل نجم الثريا إذا اقترنت بالثرثرة، أو الأكليل إذا قارن الزهرة، و بها سوق يساق إليه بدائع البضائع، التي يحتاج إليها المسافر في أكثر الوقائع، ما قصد نحوه قاصدا، إلا و عاد منه موصولا بالصلة و العائد، و كان هذا النعيم المقيم مسامرنا و مسائرتنا في الذهاب و الإياب، إلى أن رجعنا إلى بركة الحاج ثانيا و لاقينا الأحباب، قال الشاعر:

في بركة الحج ترى نخلا زها لكن عجب

زبر جدا يحكى و ماثمارة إلا ذهب

فيها نسيم رائق بلطفه يشفى الوصف

و الطير فوق مائها يشدو بأنواع الطرب

فيا لها من بركة تبلغ القلب الأرب

عودتها من طارق و غاسق إذا وقب

و بعد ما كملت الركائب، و اجتمع بعد التفريق نجائد النجائب، و انقضى مقام المقيم، و نودي في ذلك المكان الرحب بالرحيل، و

حمل المحمل الشريف، و فارق المربع و الظل الوريث، و سار الركب سير السيل، و تسابقت العيس لجهات الخير كأنها الخيل، حتى وصل إلى قرب البويب المعروف بالتصغير، و فى الحقيقة هو باب الدرب و مفتاح المسير، فاجتمع شمل الركب فى ذلك المكان، و رجع المودع فى خبر كان، فاستراح الناس و البهائم، و استيقظ بسهر الليل كل نائم، ثم أطعمت الجمال العلائق، و قطع الحجاج من تلك المحطة العلائق، و مدة المسير فى تلك المرحلة، ثلاث ساعات مكملته، ثم نادى منادى الرحيل، فسار الركب إلى أن أصبح مقاربا للبئر الطويل، و هو المكان المعروف بالمصانع، و مطلب راحة الناس فى الإقامة لولا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٤

الموانع، و به تقطير الجمال و ضبطها فى سير الركوب، و احتياج الماشى من تعبته إلى الراحلة و الركوب، فى له من يوم تقطر فيه الدموع، و يطول فيه الوقوف و الوقوع، و تشرب فيه الفقراء كاسات الردى، لشدة ما يحصل لها من جور الجنود و اعتداء الاعتداء، فما من فقير إلا و يحتاج إلى غنى يسعفه، و إلى عادل من ظلامته ينصفه، قال الشاعر:

قد أتينا إلى محل المصانع فاصنع الخير فيه إن كنت صانع

و انفع الناس فى كثير جميل على تلقى خيرا كثيرا و نافع

و اعلم أن عدة درج المسير، إلى هذه المنزلة ست ساعات على التحرير، ثم قام دليل الركب للمسير، و أمر الناس من تقطيع أزمه الجمال بالتقطير، فسرنا طول ليلنا إلى الأسفار، و استرحنا بالوصول إلى عجرود عن مشقة الأسفار، فوصلنا إلى بندر عجرود، و ماؤه ملح أجاج غير مورود، فأتانا أهال بندر السويس، و عطفوا علينا انعطاف الأغصان فى الميل و الميس، و أهدوا إلينا الأخطاب للمشاعل، و الأغنام للمآكل، و عدة درجة هذه المرحلة المبهجة، سبع و ثمانون درجة، انتهى كلام الشيخ البكرى.

فلنرجع إلى ذكر مراحلنا، و حيث انتهى سيرنا، فأقول لما قضى الناس من هذا البندر الأوطار، و عانقوا أعناق التسيار، و جدوا السبخة لكثرة ما توالى عليها من الأمطار، بركة واحدة من جميع أرجائها و الأقطار، فنكبوها و عدلوا ذات اليسار، و نزلنا بعد ما توغلنا فى الرمل مغيربان، فى أفصح بسيط و أوسع مكان، ثم ارتحلنا من ذلك الموضع يوم السبت و بلغنا وادى الرمل قبل الظهر و وجدنا به غدرانا من الماء غدرها السيل، لما جر عليها الذيل، و للناس إليه أى ميل، و أدركنا الركب التونسى هنالك، و كان قد خرج من مصر قبلنا لما تأخرنا للتوارك، كما ذكرنا و سرنا حتى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٥

خلفناه وراء ظهرنا، فأرحنا ركبنا، و نزلنا لصلاة الظهر، و إراحة الظهر، و لما بلغنا ركبنا و كنا فى أخرياته و زالت الشمس، و لم يبق فى زوالها لبس، إذنا لها، ثم أقمناها، فصليناها جماعة، و كان ذلك لأهلها أريح بضاعة، فتمطينا مطايا المسير، و شمرنا لقطع المراحل أبلغ تشمير، حتى أنخنا بغربى وادى السدر و الخروبة، و السرقة فى تلك الليلة من كل ناحية من الركب أعجوبة، و لكن الله تعالى سلم وفده، فرد على السارق فى نحره كيده، فأخذوا بغلة لسيدى أحمد بن أطاع الله و ضايقوهم عليها ففروا عنها و أخذها صاحبها و سمي الوادى بشجرة كبيرة من الخروب و من السدر فى أصل الوادى ثم ارتحلنا من هناك يوم الأحد رابع ذى القعدة الخامس و العشرين من دجنبر الرابع عشر من الليالى و سرنا مع الوادى برهه و مررنا بالعقبة المشرفة على التيه وقت الضحى و نزلنا بعد أنا جاوزناها فى أوائل التيه فى انتظار الركب و تناول الأغذية و هى عقبه فيها بعض صعوبة إلا- أنها سويت حتى صارت طريقا بينا و منها ينزل إلى أرض التيه و هى أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور فى الطروس، لم يلحقها على قدم العهد الدروس، و هذا المحل من المحال التى تعظم فيها المشقة أيام الحر و قد تتلف فيه أنفوس كثيرة بالعطش.

قال أبو سالم و قد وقع لنا مثل ذلك فى سنة تسع و خمسين ارتحل الناس من عجرود ظهرا و لم يمروا على النابعة فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود الذى لا يتجرعه الضمآن و لا يكاد يسيغه فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر و قل الماء فى اليوم الثالث و مات بعض الإبل و جعل الناس يعصرون ما فى بطون الإبل من الفرث و يشربونه و فى ذلك قلت:

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٦ و لم أنس بالتيه يوما به تفانى الحجيج صدى و ولوها

و ان يستغيثوا يغاثوا بماء م عجروود كالمهل يشوى الوجوها

قلت و كذا يشتد أمره في زمان الشتاء لأن أرضه عراء لا حطب فيها و قد تتلف به النفوس من البرد و أما عامنا هذا فسلكناه في أطيّب هواء و لا حر و لا قر و لا مخافة و لا سامة و وجدنا به اصفرار غدران من الماء في أحاديث ما كفى الله به شر العطش و أوامه فتوسطنا التيه فنزلنا بعيد المغرب.

و التيه كما في خطط المقریزی أرض بالقرب من آيلة لا يكاد الراكب يصعد إليها لصعوبتها إلا أنها مهدت في زمان جاروبه بن أحمد بن طولون و هو مقدار أربعين فرسخا في مثلها و يسير الراكب مرحلتين في فحص التيه حتى يصل بحر فاران و فيه غرق فرعون و فيه تاه بنو إسرائيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة و لا أووا إلى بيت و لا بدلوا ثوبا و فيه مات موسى على نبينا و عليه الصلاة و السلام و يقال أن طول التيه نحو من ستة أيام و اتفقوا أن الممالك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين في سنة اثنتين و خمسين و ستمائة و طائفه منه بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ثم تراءى لهم في اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه فإذا مدينة عظيمة لها سور و أبواب كلها من رخام أخضر فدخلوها و طافوا بها فإذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طمر أسواقها و دورها و وجدوا بها أواني و ملابس و كانوا إذا تناولوا منها شيئا تناثر من طول البلى و وجدوا في صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبها عليها صورة غزال و كتابة عبرانية و حفروا موضعها فإذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء ابرد من الثلج ثم خرجوا و مشوا ليلة فإذا طائفه من العريان حملوهم إلى مدينة الكرك فدفعوا الدنانير إلى بعض الصيارفة فإذا عليها أنها ضربت أيام موسى على نبينا و عليه الصلاة و السلام و دفع لهم في كل دينار مائة درهم و قيل لهم أن هذه المدينة الخضراء من مدن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٧

بنو إسرائيل و لها طرفان رمل يزيد تارة و ينقص تارة أخرى لا يراها إلا تائه و الله تعالى اعلم ثم ظعنا منه يوم الاثنين و غلسنا الرحلة و انفرد عن الركب مسائره بإزائه رجل من أهل توات مع ولده و عبده بعد ما حلموا على جملهم و لقوا جماعة من المتلصصة فأخذوا الجمل و ما عليه و هو كل ما يملكك و ذلك مقدار ثمانمائة مثقال تبرا بعد ما شجوه فخر صريعا نسأل الله السلامة و العافية التامة فالله يخلف له من فضله الفياض أنه الكريم الوهاب و أتينا ببرد النخيل قرب الزوال و وجدنا الركب التونسي نازلا و استقرت بهم الدار و حططنا الرحال و تسابق الناس لسقى الجمال و البغال و صادفنا فيه بقيه من السوق به بعض الفواكه الشامه أتى بها أهل غزه مثل الزبيب الفاخر الحلو و نحو ذلك و ذلك عادتهم أبدا يتعرضون للركب هنا ذهابا و إيابا بالكثير من أنواع الفاكهة الشاميه.

و هنالك بندر حصين فيه بئر ماء عذبة كثيرة لا- تنزح أبدا يسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن و هي ثلاث بركات مثل ما بعجروود إلا أن هذه أكبر و قد وجدنا الماء فيه فاضلا عن الكرب المصري و أخذ الناس منه حاجتهم و هو من المواضع التي يصعب فيها الماء إذ ليس فيه إلا بئر واحدة فإذا شرب المصري ما في البرك وقعت الزحمة على البئر فلا يصل الناس إلى الري إلا بعد تعب شديد و مشقة فادحة و اتفقت الأركاب المغربية على الذهاب و عدم البيات به فلما قضوا منه الغرض، و وفوا الحق المتفرض، سرنا و نزلنا بعيد المغرب و قل في ركبنا الفلاحون فضبط أمر الركب بعض ضبط.

قال الإمام أبو سالم و قد كانوا في غالب السنين يكترون عليهم في الركب المغربي فرارا من جور عساكر المصري فيكثر ضجيجهم و خصوماته فلا يكاد ينضبط للركب المغربي أمر من كثرتهم فيه فيرحلون في غير أبان الرحيل و يتبع الآخر الأول

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٨

من غير تأن لا سيما في محل الضيق و الخوف و لا يبالون بما أتلفوا من أنفسهم و أموالهم خشية التأخر و المزاحمة على القرب من أول الركب لغلبة الجبن و الخوف عليهم إذ لا يعرفون في بلادهم قتالا و لا مدافعة عن الأنفس و الأموال لكونهم رعايا أن شتموا مروا، و أن ضربوا فروا، و كلما نقص الله من جهدهم و جرأتهم، و بطش أيديهم زيد في ألسنتهم، حيث لا يخافون فيبالغون في الشتم و

السب حتى لا يكذب سامعهم يملك نفسه فإذا رأوا من هم بضرب خضعوا وقالوا عافية يا مغربي عافية و يقولون المغاربة مجانين لا يعرفون إلا الضرب و كان الضرب عندهم أبعد بعيد يصدر من شخص عاقل و لعمري انه لكذلك في حق كل مسلم لمسلم و لكن الغريزة الغضبية لا- سيما ممن لم تذلل الأحماء، و لم تكسر من سورته شدة الأيام، لا يملكها إلا الأقوياء و هي لا تنتهي دون أبلغ عقوبة تمكنها نسال الله تعالى أن يكفينا شرها، و يسخر لنا أمرها، أنه سميع مجيب انتهى.

قال البكري في رحلته من عجرود إلى النخيل ثم سرنا إلى النواظير و رأس وادى المنصرف، و هو واد بكثرة الرمال و الكثبان قد عرف، ليس به ماء و مرعى، و إنما عيون الناس بمضيق أرجائه ترعى، قال الشاعر:

نزل الراكب بوادى المنصرف و على لقياه كم مال صرف

نحمد الله الذى جئنا له و جميع الهم عنا منصرف

ثم سرنا إلى وادى القباب، و هو واد فسيح الرحاب، تهيم به قلوب الأحاب، و يتذكر به عهد زينب و الرباب، لا- سيما اجتماع الأصحاب، فى مواطن البعد و الاغتراب، قال الشاعر:

شافنا وادى القباب المرتضى فى اسمه و هو فسيح فى الربى

فوصلناه و قد قلنا عسى بعده نأتى إلى وادى قبا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٨٩

و ميقات المسير إليه عشر ساعات على التمام، و بعد إقامتنا به إلى وسط النهار تهيأنا للقيام، ثم نادى المنادى بالرحيل، فسرنا إلى وادى تيه بنى إسرائيل، و هو واد واسع الفضا، يعتبر فيه بأحوال من مضى، ليس فيه ماء ترده الأنام، و لا ظل سوى ظل بنى إسرائيل من الغمام، قال الشاعر:

لا تسلكن بوادى التيه منفردا بلا دليل ترى وقع الردى فيه

فما سمعت كلاما من أخى ثقة فى الناس إلا و قال أحذر من التيه

و مدة المسير إليه عشر ساعات، حررها أهل الميقات، ثم سرنا إلى قلعة تحل الحصينة المحمية، و تعجبنا من كثرة الفواكه الشامية، من سفرجل و رمان، و عنب على اختلاف ألوان، و الخيرات الكثيرة، و ما يحتاج إليه من الذخيرة، و الفساقى المملوءة بالماء البارد، المعدة للغادى و الوارد، قال الشاعر:

إلى نخل الحصينة سر حميد اترى فيه المنى و الخير باقى

و لا تشك الظمأ لفقده ماء فساقىها مقيم بالفساقى

و مدة المسير إليه ست ساعات محررة، و خمس من الدرج مقدره، انتهى كلامه رضى الله عنه.

رجوع و انعطاف إلى التعداد لمراحلنا و الائتلاف ثم فوضنا الأخبية، و حلمنا الامنية، من منزلنا الذى جاوزنا النخيل إليها فى صر شديد، و برد متزايد جديد، تخال الأيدى منه رميت بالشلل، و الأرجل نظمت بالسلا و الاسل، قال الشاعر:

رحلنا العيس نمشى فى هواءه برد على الغادى يشق

فما فى الراكب إلا من تراه له حنك بسورته يدق

و لم يزل الهواء كذلك إذا سد منه منخر جاش منخر، و عم بيرده المفرط المتقدم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٠

و المتأخر، و سرنا و لم يزل البرد ساحب أذياله، إلى أن حان وقت العصر فاشرف جرحه على اندماله، فصلينا صلاة العصر ببئر الصعاليك و تسمى ببئر البارود و هى بئر كبيرة طويلة مطوية بحجر و بناء متقن فى أصل واد و بجانب البئر أثر بناء و بركتين إلا أنه لا عمارة عليه و ماؤها باردا إلا أنه قبيح لا يكاد الشارب يسيغه فتقدمنا و نزلنا بعد المغرب ثم ارتحلنا منه بعد صبح يوم الأربعاء سابع ذى

القعدة الثامن والعشرين من دجنبر سبع عشر الليالي في اشتداد القر، و تزايد الصر، و لما تعالى النهار تراءت للركب خيل و إبل للمحاربين فأخذ الناس حذرهم، و كفى الله شرهم، ثم تبين بعد ذلك أنهم سلم للحجاج لا حرب لهم و إنما أغاروا على بعض أعدائهم و أكلوا و التقوا مع الحاج و بتنا بسطح العقبة.

انعطاف و رجوع إلى ما عليه ركبنا و إنما نقلت كلام شيخنا سيدي أحمد بن ناصر و ما رأى في هذه المراحل و ما رآه فيها من العجائب و الاعتبار حتى يعلم الإنسان أنه لا يسلك تلك الطريق أحد إلا بفضل الله و قوته و السلامة فيها من المعاطب من أكرم الكرامات لا سيما زمان الحر و زماننا هذا لزيادة ظلم الظالمين، و عتو المجرمين، و مكر الجمالين، و سرقة الحجاج و صولة تحيلهم إلا من أجاره الله برحمته و قد وصلنا بندر عجروود بعد صلاة العصر في يوم حر شديد و عجروود هذا كثر ماؤه غير أنه لا يمكن شربه من قوة قبحة و تغير مائه و بتنا هناك و نزل رحلنا في حرف الركب و بعد جواز ثلث الليل و إذا بالسراق أتوا إلينا أى إلى ناحيتنا فرفعوا جملا للحجاج عبد الله الشباخي و قد كان جمال شيالنا و كذا عندى جملان أمرت عند النوم بزوالهما من ذلك الموضع إلى موضع آخر فأتوا إليهما فوجدوا المكان فارغا و وجدوا هذا الجمل هناك و لم يكسب صاحبه إلا هو فذهبوا به نعم بنفس رفعه استيقظ جيراننا و ممن

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩١

استيقظ ابن عمنا خالى عبد العزيز الشريف فذهب في أثارهم و كذا أنا تبعته و قد جاء بعض الناس فى أثرنا و ذهبنا فى ظلمة الليل فى ذلك الوادى حتى لا نسمع صوت الركب و لا عرفنا أثرهم فلم يرجع أحد منا حتى أيسنا من لحوقهم فرجعنا خائبين. فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه و سلطنا طريق اليمين إلى النابعة لكثرة مائها و عذوبته و قلته فى الطريق الميسرة و لما انفصلنا عن دارنا سبقنا أنا و الفاضل أخونا فى الله سيدي أحمد الطيب فى غيم شديد و رياح شديدة حيث لا يمكن الركوب معها فلحقنا الفاضل الكامل الأخ الشقيق و الودود الصديق سيدي محمد الشريف البلغيشى النوفلى و الفقيه الأديب سيدي محمد بن عزوز و سيدي الحاج أحمد المسراتى الجميع على البغال و الحالة أن الركب تأخر عنها كثيرا بحيث لا نرى له أثرا فنزلنا على البغال فى موضع منخفض على الريح نرتقب الركب فصلى من صلى منا الضحى و اطمأن بنا المجلس إلى أن لحق الركب و نحن كذلك حتى دخل السبحة فركبنا و لحقنا ثم سرنا كذلك إلى قرب الزوال فنزلنا النابعة فى رمل عظيم بين آبارها المحفورة إلا أنها مملوءة بالرمل إلا البعض منها غير أن التى عذب ماؤها عذبا شديدا لم ينزل عليها الركب لأن ماءها يكاد أن يكون كالنيل.

و بالجملة فماؤها عذب و أن اختلفت عذوبته فاشتغل الجميع بالسقى إلى أن ملئوا أسقيتهم فسقوا و استقوا مع كثرة الهرج من الحجاج لقله الحكم من الأمراء إذ لا- يقدر عليهم لكثرتهم و كثرة تعصبهم غير أن فضل الله عليهم لما لم يكن فيهم قتال و موت ذريع حسبنا الله منهم و نعم الوكيل.

و ظعنا منه حين تنفس الصبح فانفصل ركبنا بخير و عافية فسار فى تلك الرمال و هى كالجبال ترى كشيئا منه تقول لا يخرج منه أحد على خير فإذا دخلتها خرجت منه على أحسن حال و نحن كذلك إلى أن وصلنا إلى دار بعدها فنزلنا بعد العشاء و منهم

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٢

من نزلها بعد المغرب و نحن و الحمد لله فى جماعة لا نسير إلا آخر الركب صونا للضعفاء و من بقى رحله و قد بقى رحل ولد الشيخ الناصح و القطب الواضح سيدي محمد بن عبد الله بن أبى جملين المسيلى الغوث فرفعناه على بغالنا إلى أن لقينا صاحبه سيدي أحمد فرفعه و بعد ذلك و الحمد لله سرنا ساعات فدخلنا التيه الذى تاه فيه بنو إسرائيل و قد سبق ما فيه من الكلام ما أوحشه من موضع و أصعبه من محل لكثرة حره و شدة أمره مع انعدام الماء فيه و قد كثر فيه الهلاك من العطش زمان الحر فلا تجد من يسخى بالماء إلا من قوى يقينه و غلب عليه الرقة و الشفقة و الرحمة و الخوف من الله تعالى ترى القوم فيه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية من ثوران الحر فى ذلك الموضع إلا أن رحمة الله واسعة و رأفته قوية و نعمته بالحجيج شاملة خصوصا أهل المعرفة بالله

تعالى فلا تراهم فيه و في غيره مما هو نظيره في الصعبة إلا كالعرائس تتلألاً وجوههم نورا و تنبسط أثار محبة الله في طلعة خدهم علما منهم أن غاية أمرهم غيهم عن اليم ما هم فيه و هو بيت الله و حرمة و كذا حضرة الله و حضرة رسوله صلى الله عليه و سلم و حرمة أيضا فلما شهدوا مطلوبهم غيهم ذلك عما لا قوه من العذاب و بعد تلك المرحلة وصلنا بندر النخيل فنزلنا عند الضحى الأعلى و الله اعلم في فرح و سرور لما سلمنا من أرض التيه.

و قد مات لنا واحد من أصحابنا و هو رجل من العامة رجل صالح مديم للصوم كثير الصمت قليل الاضطراب فلا ترى عليه إلا آثار الخير دائما و هو الحاج محمد بن مدشر اسمامة من قرى بنى و رثيلان و بندر النخيل بندر عظيم فيه عسكر كما في عجرود و فيه أسواق فكل ما تريده موجود لأنه يأتي من ناحية الشام أناس بذلك أى من بيت المقدس و قربها محل فيه أبسط الخيرات و أنواعه المملذوات لا سيما الفواكه في زمانها فلا ترها في غير ذل المحل و الشكر لله تعالى و هذا البندر رحمة للحجاج فوضعوا فيه أمتعتهم تخفيها و رحمة بالإبل إلى أن يرجعوا و كذا اشترى من

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٣

خصه الإبل أو بدله فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه عند الضحى فلما انفصلنا تأخر بعض من أحبنا و هو الحاج بلقاسم الحريلى ثم اليعلاوى يشتري جملا من بعض العرب فتأخرنا مع فاشتره فلما أقبض الدراهم لصاحبه هرب الجمل فتبعته على بغلتي حتى آيست من لحوقه و خفت اللصوص من الحراميين و رجع سيدى أحمد المسراتى على فرسه و لحقه ثم وقع الصياح فى آخر الركب أن فلانا و أصحابه قد أخذه اللصوص فرجع البعض إلينا بأسلحتهم فلم نر إلا خيرا و الحمد لله حتى لحقنا بالركب و صاروا يحمدون السلامة لنا لما علمت من كثرة عطب الطريق و كثرة محاربه و لصوصه فلا ترى أحدا تأخر إلا أخذ و سلب أو هلك فالحمد لله علينا نتأخر نحن معاشر الإخوان عن الركب كثيرا و اللصوص فى آثارنا فلا نرى منهم ما يكره فلم يسلب أحد إلى أن وصلنا إلى مكة المشرفة ثم كذلك نسير و الحمد لله حتى قربنا بئر الصعاليك فبتنا من الحجاج من سقى من البئر المذكورة و هى عميقة جدا و ماؤها بارد فكاد أن يكون كالثلج إلا أنه قبيح لا يكاد يساغ من مرارته و فى آثاره بناء قديم و لما ظعنا سرنا بعد فى أودية و شعب صعبة فى يوم قوى ريحه و اشتد أمره فلا تنفع فيه استراحة و لا نزول و نحن كذلك سائرون إلى قرب سطح العقبة فنزلنا و بتنا فى خير و عافية و مات بعض من أهل وطننا فدفناه ليلا.

و لما صبح الله بخير الصباح ذهبنا إلى أن بلغنا سطح العقبة فانتظر الحجاج بعضهم بعضا يسرون على قدم واحد فاستعدوا بأسلحتهم و افترقوا فرقا فممنهم من سبق و ممنهم من تأخر و ممنهم من توسط خوفا من متلصصى العرب لكونهم فى الغالب لا يتركون الشر فى ذلك الموضوع فنحن معاشر ركبنا لم نر منهم أحدا و الحمد لله غير أن كل من كان من أهل الركب إلا نزل و لو كان من أهل المخدرات فيسيرون على أرجلهم و لو نساء الملوكة فرأينا نساء السلاطين ذاهبات على أرجلهم و أنا و الحمد لله عيالى ما نزلوا أبدا نعم جعل الله البركة فى الجمل الذى حمل اثنتين من

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٤

النساء فى المهيا و هو يسير كأنه ليس فى ذلك المحل الصعب و المنه لله فتعجب كل من رأى ذلك و ذلك كله من فضل الله تعالى علينا فلما انفصلنا و انحدرنا من العقبة إلى ساحل البحر اشتغل الناس بالغداء فلما فرغوا منه اخرجوا أسلحتهم و أمامهم من البارود و اجتمعوا على قدم واحدة و قدموا أمامهم سلطان فزان بالبارود و اللعب بالخيل و كذا الناس على الأرجل إرهابا لعرب العقبة إذ العام الذى قبل عامنا أخذوا ركب المغربى لقلته و قله سلاحه و بينما نحن كذلك و إذا عسكر من الركب المصرى خرج و لقينا برعود من البارود و الخيل تعلق و الناس كذلك إلى أن وصلنا إلى البندر فتعجب كل من كان فى ذلك من أهل ذلك الوطن من العرب و من تسوق من غيره حتى بلغ ذلك أقصى عرب الحجاز فلا تجد سارقا يدور بنا و لا قاطع طريق ليلا و نهارا خوفا من الركب المغربى لكثرتة و كثرة سلاحه لا سيما الركب الجزائرى نعم الركب المصرى يخاف منا و مع ذلك هو فى قوة عظيمة أمد مروره ثمانى ساعات

كما رسمه من اعتنى بذلك بالدرج فكل عام أمير الحاج من مصر يربط من الركب المغربي و يفعل فيه ما شاء إن شاء قدمه و إن شاء أخره و إن شاء زاد في الكراء زاد و غير ذلك من ظلم الغزّ أما عامنا و ركبنا هذا فليس عليه حكم و لا له عبرة على أن ركبنا تعصبوا و قالوا إن أبي إلا أن يحكم علينا منعناه و ضربناه و فتناه فلما رأوا منهم ذلك فروا عن الحكم عليه فلا نقول إلا سلم سلم كما سمعت منه ذلك و مع ذلك أنه رجل حليم لا يرضى بالفساد و لا الظلم الكثير و الحمد لله على ذلك.

قال شيخ شيوخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه ثم ظعنا بكره يوم الخميس ثامن ذى القعدة التاسع و العشرين من دجنبر و ثامن عشر الليالى و ما تعالى النهار، و تفتحت للشمس عيون الأزهار، حتى رأينا عقبه ايله و خبرها قد روع القلوب،

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٥

و نوع المهابة لأمرها فما من الركب إلا من هو من لباس الصبر مسلوب، فحصل هناك من الزحمة، ما تقطعت به القلوب رحمة، و تصادمت المحاف و تكسرت، و برزت أنياب النوق و تكشرت، فما كان بأسرع من خمود أمرها، و ركود حرها و جمرها، و هى عقبه كؤد، صعبة الهبوط و الصعود، إلا أن الطريق بها منحوتة، قد سويت فى أكثر الأماكن الصعبة، و بنيت حافاتها ببناء متقن.

و لما كان المحل معروفًا بلصوص الأعراب و حربتهم، تهيأ الناس و أخذوا حذرهم و أبرزوا أسلحتهم، و عبوا تعبيتهم، خوفا من أعدائهم فإن الغالب لا بد أن يتعرضوا للركب فى هذا الموضع لصعوبته و تقدمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب و تأخرت طائفة و كفى الله المؤمنين القتال و كان الله قويا عزيزا فلم نر بها سارقا و لا غائرا، و لا عاتيا و لا غادرا، فانفجرت هذه الشدة، و كفى الله منها مديّة المدّة، فما زهقت روح، و لا أثيرت جروح، و خلص الناس من تلك الضغطة، و خرجوا من ضيق القبض و جلسوا على بسطة البسطة، و نزل الناس منها سالمين، و قيل الحمد لله رب العالمين، قال الشاعر:

كم قد فككتنا رقة لا اقتحمنا العقبة

و كم لنا من أمنيّة فى حجنا مرتقبة

و بعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوى فى شعاب كأنها أزقة يكثر فيها المخاوف و المتآلف فىرى البحر من بعيد فيظن أنه قريب و وصلنا البندر ظهرا و لم يبلغ الحاج إلى قرب العصر و وجدنا المصرى به مخيما و أرسل إلينا أمير الحاج إمامه، و أبلغنا سلامه، و اسمه إبراهيم أبو شنب و أقمنا بها الخميس و الجمعة و فيها حصن حصين فى قرية على شاطئ البحر فى سفح الجبل و بها آبار كثيرة و فيها نخيل و سوق كبير يحضره أهل غزة و تأتية العرب بالإبل و الغنم و السمن و العسل و العلف

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٦

للدواب و وجدنا الفول فيها رخيصة أرخص ممن اكرى عليه من مصر و بتنا بها و بات المصرى هناك و أوقد بالليل نيرانا كثيرة و ضرب المدافع و رمى المحارق فى الهواء و لها منظر عجيب، و أسلوب غريب، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء فتراها فى الجو طالعة حتى ترى من أعالي هام شوامخ الجبال دونها ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان أحمر ثم يسمع لها صوت و تخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك أتبعها بأخرى و خرجهن فيما نرى من نار زرقاء كأنها نار الكبريت تشتعل اشتعالا قويا فتطلع منها تلك الشهب و لا نعلم صنعة ذلك و هى من الغرائب و الرمى بها و بالمدافع عادة المصرى فى كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل قاله الإمام أبو سالم.

ثم ارتحل فى الغد و أقمنا بعده و لم نر فى مبيتنا و لا إقامتنا ما يسؤنا من سارق و لا غيره.

قال شيخنا أبو سالم و قد سألنا هناك و بحثنا عن القرية التى كانت حاضرة البحر هل بقى من رسومها شىء فقد ذكر المفسرون أنها ايله فلم نجد من يشفى لنا خبرها.

و قد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادى أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينه و لعلها هى و قد أخبرنا كثير من متسوقه الأعراب الذين هناك أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل و ماء إلا أنها خالية و يمكن أن تكون هى فإنها قريبة من البحر و العلم

عند الله تبارك و تعالی.

قلت و فى الخطط للمقریزی أن ایلة مدینة فى شاطىء البحر المالح سمیت بأیلة ابنه مدین بن إبراهیم علیه السلام و قد كانت مدینة جلیلة القدر بها التجارة الكبيرة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٧

و أهلها أخلاط من الناس و كانت حد مملكة الروم فى الزمان الفائت و على ميل منها باب معقود لقيصر قد كان مسلحته يأخذون المكس و بین ایلة و بین القدس ست مراحل و الطور الذى كلم الله تعالى علیه موسى علیه الصلاة و السلام على يوم و ليلة من ایلة و كانت فى الإسلام منزل بنى أمية و أكثرهم موالى عثمان بن عفان رضى الله عنه كانوا سقاء الحجاج و كان بها علم كثير و أدب و متاجر و أسواق عامرة و كانت كثيرة النخل و الزرع.

قال و كانت بايلة مساجد عديدة و بها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم بردا للنبي صلى الله عليه و سلم و انه بعثه إليهم أمانا و كانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا فى الثياب قد أبرزوا منه قدر شبر فقط.

و يقال أن ایلة هى القرية التى ذكرها الله فى كتابه العزيز حيث قال: وَ سِئَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ و اختلف فى تمييزها فقال ابن عباس و عكرمة و السدى رضى الله عنهم هى ایلة و عن ابن عباس أيضا أنها مدینة بین ایلة و الطور و عن الزهرى أنها طبرية و قال قتادة و زيد ابن أسلم هى ساحل من سواحل الشام بین مدین و عينونى.

و سئل الحسن بن الفضيل هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا و الحرام يأتيك جزافا قال نعم فى قصة ایلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا و يوم لا يسبتون لا تأتيهم انتهى المراد منه مع بعض حذف و لما التقينا بالمصرى بالعقبة أخبرونا عن حالهم مع البرد و انه قتل منهم واحدا أو اثنين ليلة العقبة و قرب عجرود ما ينيف على خمسين نفسا و ذكروا أن الإنسان يكون فى حمل الخشب فيوجد ميتا بالبرد و على الدابة كذلك.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٨

و حدثنا بعض حجاج القدس التقوا مع المصرى فى سطح العقبة أنه لاقوا من البرد و الثلج و المطر ما يقضى منه العجب مكثوا يومين و ليلتين ما أوقدوا نارا و لا قدروا عليها و لا أكلوا من كثرة المطر و أخبرنى واحد منهم أنه عليه عدة لباس من الأقيية و القمص و جوخة فوق ذلك و بات من أول الليل إلى آخره واقفا و رجلاه داخلتان فى الطين إلى ركبته و المطر يصب عليه حتى أفضى إلى لحمه و عاينوا من ذلك الموت الأحمر و نحن و الحمد لله سلمنا الله من ذلك كله.

تمتة فى ذكر كلام البكرى من النخيل إلى العقبة قال ثم سرنا من النخيل إلى وادى القريض المشهور، و هو واد ينبت به الشوك عوضا عن الزهور، فكم أذى بشوكه أقدام، و عطل من له على المشى إقدام، و لا سيما الفيحاء لاتساع أرضه، و زيادة فضائه فى طوله و عرضه، قال الشاعر:

فى وادى القريض كم سائر من غير نعل ثابت الكعب

قد صار كالأعجام من شوكه يرقص من رقص على الكعب

و سيرنا اثنتا عشرة ساعة كاملة، محررة من الميقات متواصلة، ثم سار الركب إلى بئر العلاء فى التجريد، و هى محطة بئرها معطلة و ليس بها قصر مشيد، و بقر بها حدره منحدره، و أشجار أتل منتشرة، و بجانبها فسقتان ليس بهما منفعة، فما ورد عليها حيوان ظمآن إلا و قام عند رؤيتها بالأربعة، قال الشاعر:

إلى بئر العلاء قد أتينا و فرنا بالنجاح و بالهناء

شكرنا للدليل و قد دعانا إلى شىء يوصل للعلاء

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٣٩٩

و مدة المسير، إليه اثنتا عشرة ساعة بالتحير، و بعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير، و هو سطح واسع الأكناف، متسع الجوانب و الأطراف، لا يوصل إليه إلا بالاستطاعة، لأن مدة المسير إليه اثنتا عشرة ساعة، ثم سرنا إلى العقبة، و ما أدراك ما العقبة، فكم بها من حدره و مضيق، و جبال في شكل الحمره و البياض و هي عقله في الطريق، و صعود و انهباط، و علو و انحطاط، قال الشاعر:

عقبات يسلك الناس بهابلوب لم تزل مرتعبه

قد قطعناها بوقت هين لم نرى فيها أمورا متعبه

نحمد الله الذي خلصنا فاسترحنا من عقاب العقبه

فقطعنا تلك الحدره الكبرى، ثم سرنا إلى واد بشاطئ البحر و أحطت به خيرا، و بجانب البحر مغائر ماؤها عذب فرات، و آبار تسقى منها الناس بسائر الجهات، و رأينا نخلا زاهية، و قلعه حصينه عالية، فأقمنا بتلك المنزله ثلاثة أيام، و نحن في زياده إنعام، و ذبح أنعام، و قد وردت الفواكه من غزه و أعمالها، فنصبت للبيع و انخفضت الأسعار و رفعت البواقي على أحمالها، و بقلعتها يوضع البضائع و دائع إلى الإياب، و مدة المسير تسع ساعات في الحساب، انتهى كلام البكري.

وزرنا قبر الشيخ إبراهيم اللقاني في مقبره هنالك محوط عليه بالأحجار على يسار الذهاب إلى منزل الركب و أوقفنا عليه مغربي ساكن في بندر العقبة نيفا و عشرين سنه ثم ارتحلنا من العقبة صبيحه السبت فسرنا في مسلك ضيق بين البحر و الجبل لا يمر به إلا جمل أثر جمل كأنه مثل الصراط إلا أنه غير مستقيم و قلما يخلو

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٠

هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب فتشتد أذائهم و تعظم نكايتهم لا سيما عند البرج قرب بندر العقبة و لكن ذلك في الرجوع أكثر و لم نر فيه و الحمد لله بأسا و لا بؤسا و وصلنا ظهر الحمار بعد الظهر و وجدنا أخريات المصري و وقفنا حتى غاب عنا و سار وصلينا العصر و هو بسيط من الأرض أحرش مرتفع يطلع إليه من مسلكين لا يخلوان من صعوبه و تحته على ساحل البحر إحساء كثيرة في وسط حدائق النخل و قلما يخلو من عماره بعض ضعفه الأعراب لا سيما في وقت جذاذ النخل و يكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد و ماء هذا المحل كله عذب طيب قال شيخنا أبو سالم في رحلته و يسمى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل و خلفا البحر يمينا فسرنا و نزلنا بعيد المغرب في فسحه من الأرض بين جبلين ثم ارتحلنا منه يوم الأحد الأول من يناير حادى عشر ذى القعدة و بلغنا عش الغرب قبل الظهر و جاورنا دار المصري بشرفات بنى عطيه بموضع يقال له أم العظام و هناك أرقام كالشعاب عن يمين الذهاب. ذكر العبدري في رحلته أن ذلك قبر الشفاف و الشفاف رجل كان يقطع الطريق على الحاج هناك في غابر الزمان و قصته مشهوره في رحله العبدري و من وراء الجبل الذى على يسار الذهاب بلد واسع فيه ماء جار و أرض مخصبه و ربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتى العرب بماء يبيعونه و نزلنا قبيل مغيب الشفق و بنو عطيه هم عرب هذا البلد.

قال الإمام أبو سالم و يقال لهذا المكان يعنى الشرفات عش الغراب.

غريبه تزعم العرب أن الإبل تنفر في هذا المكان و يقولون أنها تسمع صوت

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠١

سقب ناقه صالح و انه في ذلك الجبل و أن هنالك الصخره التى دخل فيها لما عقرت أمه فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المكان تسمع صوت العشار فتفر و لا أدري من أين لهم ذلك و هو بعيد إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقه و هم قوم صالح على نبينا و عليه الصلاة و السلام ثم منه يوم الاثنين و صلينا العصر بالمكان المسمى بمغائر سيدنا شعيب على نبينا و عليه الصلاة و السلام فى حش ملتف ملنا إليه لأجل الحريم الذى معنا و هى احساء كثيرة فى مضيق بين جبلين فيها نخيل و ماؤها طيب حلو خفيف نافع و عادة أعراب مدين أن تسوق الأركاب هنالك بأحمال كثيرة من أنواع العنب و غيرها من الفواكه و تنخفض أسعار ذلك كله و بينها و بين مدين مسيره نصف يوم و هى بلدة بساحل البحر كثيرة الفواكه و المياه الغزيره و سكانها أعراب أهل بادية و كانت قبل ذلك مدينه و

يذكر أن أثر البناء باق فيها إلى الآن.

قال شيخنا العياشى و على يسار منزل الركب خارج المضيق مغارة يقال أن فيها كان شعيب على نبينا و عليه أفضل الصلاة و السلام يأوى بغنمه و بإزائها بئر كبيرة معطلة و بجانبها بركة و يقال إن هنالك كانت البئر التى سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام و فى ذلك الوادى دوم طويل كأنه نخل صنوان و غير صنوان و عريش كثير فى الوادى و هو محل مخافة فلما يخلو من لصوص الأعراب.

قلت و لمدين أخبار و آثار ذكر المقرزى منها نبذة و لما صلينا العصر بالمغارة كما تقدم تجاوزنا و نزلنا بين العشاءين فى بسيط أفح ثم ارتحلنا منه يوم الثلاثاء و نزلنا عيون الأقباب بعد العصر و هو ماء جار فى مضيق بين جبلين فى محل كثير القصب الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٢

و الدير و فى أعلى الوادى نخل و أرض صالحة للحرث فلما يخلو ذلك المحل من أعراب نزول به فيكثر الخوف و يعظم ضررهم لا سيما مع نزول الليل يأخذ الناس حذرهم فيطلعون الرماة إلى أعلى الوادى مراقبين حتى يأخذ الناس حاجتهم من الماء و يكتفوا فيأتى الرماة لمنازلهم على شفير الوادى عند منزل الركب مسجد بنى بالحجارة المنحوتة و منبر بإزائه.

ثم ارتحلنا منه يوم الأربعاء إلى أن قال إلى بندر المويلح و بنينا الأخبية بحيث تقرب الأمواج من الأستار و ماء هذا البندر كثير حلو فيه آبار كثيرة و بساتين حسنة و نخل و هناك حصن كبير و فيه عسكر و أمير و تخزين فيه الميرة و الفول كثيرا و على بابة سوق كبير يوجد فيه غالب المحتاج و به موسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من السويس و القادمة من جدة و من القصير.

تتميم قال البكرى رضى الله عنه فى ذكر المراحل من العقبة إلى المويلح ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار، و هى محطة عالية كثيرة الأوعار، يصعد إليها من عقبتين، و اليمنى أوسع من اليسرى فى المسلكين، قال الشاعر:

صعدوا على ظهر الحمار لعلهم أن يبلغوا بعصودهم كل الأمل

تعب الحمار من الطريق و طولها و مديدها و اجتث من بعد الرمل

حتى الجمال به شكت يا هل ترى يقبل به عذر الحمار أم الجمل

و مدة المسير إليه ثمانية من الساعات، محررة عند أهل الميقات، ثم سرنا إلى بين الجرفين، و هو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج، فى أيام السيل إلى البحر المالح الأجاج، قال الشاعر ملغزا فيه:

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٣ و خمسة أحرف فى اللفظ تقرافان صحفتها صحت بحرفين

و إن أسقطت خامسة فتبقى ثلاثة أحرف من أصل ألفين

و منها إلى الشرفة، و هى بطول السير متصفه، تتعب فيها الجمال، و لو رحلت بلا أحمال، لما فيها من الوهاد، و الطلوعات الشداد، و خلفت جبالها قبيلة بنى عطية، المعروفين بالسرقة و الأذية، قال الشاعر:

إذا ما جئت للشرفة ترى العربان مختلفه

و أما العيس فاجعلها بحسن الحفظ متصفه

فان منعت بحارسها و إلا فهى منصرفه

و مدة المسير إليها خمس عشرة ساعة من غير ريب، و بعدها المغار المعروف بمغار شعيب، و هو غار يتبرك به الناس، و ترى فيه الحظ و الإيناس، و به الماء العذب و النخيل، و شجر المقل و الإثل و الظل الظليل، قال الشاعر:

قد وصلنا إلى مغار شعيب فرأينا المياه كالأنهار

فاستقينا من مائه و اشتفينا و ظفرنا بغاية الأوطار

و ذكرنا بغاره غار ثور من حوى للصديق و المختار

خير من أنزل الإله عليه ثانی اثنين إذ هما في الغار
و مدة المسير إليه ثمان عشرة ساعة، محررة عند أهل الصناعة، ثم منها إلى عيون القصب، إذا نظر إليها العاجز أذهبت عنه الوصب،
لأن خضرتها نضرة، و الأشجار بها منتظمة و منتشرة، قال الشاعر:

قد وصلنا لعيون القصب و استراح القلب بعد النصب
الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٤ و عيون الماء فيها قد جرت كسيول الغيث بن القصب
فجلسنا بصفاء حولها و ظفرنا عندها بالأرب
و تشوقنا لشاد مطرب يتغنى بعيون القصب

و رأينا مجاورا لتلك العيون، نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون، و يتعاجبن بظفائر الشعور، فيمنعن من عقل الحب الشعور، كأنهن
الأقمار، و كأنما نبتت في و جناتهن الأزهار، فكأن قطع المفاوز و الأوعار، كالمتزهات في الرياض و الأزهار، قال الشاعر في بدوية
اسمها ساكنة:

بروحى أفدى ظبية بدوية لها و جنة فيها الأزهار نابته
إذا رمت منها أن تكلمنى غدت تكلمنى ألاحظها و هى ساكنه

و مدة المسير إليها أربع عشرة ساعة و ثلاثة من الدرج، يتعب في سيرها من ركب و من درج، ثم ارتحلنا منها إلى بندر المويلح
المشهور، و رأينا بساحله المراكب من السويس و الطور، فيا له من بندر فاق البندر، يأتي إليه الوارد و الصادر، و به جملة من الكروم،
التي تذهب برؤيتها الهموم، و بمخازن القلعة تودع الودائع، و إلى سوقها تساق نفائس البضائع، من ثمار تجلبها العرب، و زلاية عجينا
كاللجين فإذا قلت أشبهت الذهب، و بهذا البندر رجل من أرباب الأحوال، حاز رتبتي الجلال و الجمال، صاح مجذوب، تميل إليه
محببة القلوب، و له أسرار ظاهرة، و مكاشفات باهرة، يعتقد الناس، و يحصل لهم بهم الإيناس، لا يعرف الدرهم و لا الدينار، و لا
يقبل إلا القوت عند الاضطرار، لباسه جبة من صوف، و رأسه في غالب الأوقات مكشوف، إن نطق تكلم على الخواطر، و إن صمت
نطقت عليه ألسنة الناس بالثناء العاطر، و يكسوه المارة العدد، فيقبلها و يعطيها لمن وجد، لأن من رآها عليه، يطلبها فيدفعها إليه،

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٥

و هذا شأن الكرام، الذين قطعوا علائق الدنيا على الدوام، فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام، و بعدها طوينا المضارب و الخيام، و مدة المسير
ثلاث عشرة ساعة، و خمس من الدرج في علم الصناعة، انتهى كلام البكري إلى أن قال.

و نزلنا بالموضع المسمى بدار أم السلطان قبل الغروب و به آبار عذبة المياه، تستلذه الأفواه، على انه سخن و لكنه سريع الانفعال للهواء
و هى محدثة و أحلى ما في الدرب من الماء و مثلها ماء النبط أخبرني بعض كبراء أعراب هذه النواحي أن الأمير إبراهيم الفغاري هو
الذي تسبب فيها و انه طلع للحج و بعث إلى أخيه بمصر و قال له أن الماء الطيب بهذا المنزل إن مت فاحفره و أكد عليه في ذلك و
مات بمكة لما حج و حفر أخوه آبارا و لها نحو من عشرين سنة و المحل قبل لا ماء به انتهى كلامه إلى أن قال.

و مررنا بالمضيق الموسوم بشق العجوز و سايرنا البحر المالح عن يسارنا جبال سلمى و كفافه و مررنا ضحى بقبر سيدى مرزوق
الكفافي على ساحل البحر عليه أعواد قد علم بها عليه و الناس يتبركون به و طلعت الشمس فارتفعت حارة و نزلنا بندر الأزلم قبيل
الاصفرار و وجدنا به شردمة من الأعراب يبيعون الحشيش و الغنم و به ثلاث آبار كبيرة محكمة و البناء و مأوها غزير إلا أنه زعاق
يصلح للإبل و لضرورة الناس من غسل و نحوه و لا يسيغه إلا المضطرون قال الشيخ أبو سالم و على يسار البندر بعيدا عن الآبار
حسى أى ماء حى محفور فى الأرض ليس بمطوى مأوه أحسن من ماء الآبار إلا أنه قليل و لا يعرفه الكثير من الناس و هذا البندر قليل
الجدوى لقبح مائه و قربه من المويلح و من الوجه هما أتم منه منفعة فليس فيه كبير فائدة و قد انهد ما فى داخله من البيوت و تلم
بعض سوره و الخلاء أقرب إليه من العمارة شعر:

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٦ إذا لم يكن فيمكن ظل ولا جنى فابعد كن الله من شجرات انتهى ثم ارتحلنا منه إلى أسطبل عنتر وفيه ثلاث آبار قليلة الماء وهو حلو طيب للشراب وأما الإبل فلا تكاد تطمع فيه. ثم مررنا بوادي الأراك وهو واد واسع يأتي من ناحية الشمال والبحر عن يمينه قريب منه وفيه كثير من شجر الأراك الأخضر الناعم ثم يسير الماشى فى مضائق بين فدافد من جبال ذات حدور وصعود إلى أن يصل إلى بندر الوجه وفيه حصن حصين فى حرف واد كبير يخرج بين جبلين والناس يتهبئون النزول فى أصل الوادى إذا كان الوقت وقت السيول فيرتفعون عن جنبى الوادى وفى الوادى عدة آبار بعضها أحسن من بعض والى فوق البندر أحسن من التى تحته و داخل البندر بئر تسنى بالبقر وتصب فى ثلاث برك لصق حائطه أحدهما من بناء الأمير رضوان فى آخر أيامه و اثنتان من بناء مملوكه الأمير غيطاس عام تولى إمارة الحاج بعد مولاه والبرك الثلاثة ملاصقة لسور البندر.

قال أبو سالم وفى أعلى الوادى بين الجبلين ماء يسمى الزعفران و مأوه طيب إلا- أنه قليل فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل الجراء من الناس وربما هجمت عليهم العرب هناك فيقع بينهم قتال إلا- أن الموضع قريب من البندر فيغاثون واستقى الناس ما احتاجوا إليه و أوردوا إبلهم بالغوا فى حمل الماء [و تعاهدوا أسقيتهم و أوثقوا أوكيتها و لم يألوا ما ملثوا من الأوعية و باتوا ليلتهم فى الآبار إذ نرحت و كابد الناس لذلك مشقة فادحة] لأنهم استقبلوا المياه القبيحة و المسافة العويصة التى ليس فى الدرب أصعب منها لتوالى المياه القبيحة فيها و بعد العمارة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٧

و وحم هوائها و سوء أخلاق أعرابها .

قال أبو سالم و هذا البندر أكد البنادر إلى الخزن لأن الركب فى الإياب قد يسبق الملقى من مصر إلى هذا المحل فيغلى فيه الفول و الطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان فى بعض الأوقات و فى حجتنا عام تسعة تجاوزناه لقله مائه و نزلنا قرب العشاء بعد مجاوزته بأميال إذ لم نجد به شيئا من المنال.

قال الشيخ البكرى فى ذكر المراحل من المويلح إلى الوجه ما نصه ثم سرنا من المويلح إلى دار أم سلطان، التى هى لعرب البادية أوطان، و نزلنا بوادي سلمى و كفافه، و حصل مزيد الأمن بعد المخافة، و خلف جبلها الغربى البحر الأصيل، و بجانبه القسطل البرى و هو كثير طويل كالنخيل، و حفائر مائها عذب بارد، يشرب منها الغادى و الوارد، قال الشاعر:

إن وادى سلمى بهى بهيج حيث فيه قبر الولى المسمى

صاحب السر و المعارف مرزوق م الكفا فى طاب روحا و جسما

فإذا جئت قبره قم فنادى و توسل بجاهه ثم سل ما

فأقمنا بتلك المرحلة الإقامة المعتادة، و حصل لنا ببركة الشيخ مرزوق فى الرزق الزيادة، و مدة المسير كاف تمام، و عددها معروف من غير اتهام، ثم سرنا إلى بندر الأزلم، و لا يرغب فيه من بحقيقته يعلم، فمأوه ملح أجاج، ما شربه إنسان إلا احتاج إلى العلاج، فأقمنا به من غير إقبال، و رحلنا منه بعد الزوال، و مدة المسير إليها ست

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٨

عشرة ساعة محررة، و خمس من الدرج مقدره، ثم سرنا إلى مرحلة تسمى أسطبل عنتر، و قد اختفى بها العربان للأذى و تستر، و المسير إليها بين جبال صاعدة، و حدورات و أوعار متقاربة و متباعدة، و بها آبار عذبة، يود كل ظمآن شربة، قال الشاعر:

إن جئت للأسطبل لاتغفل به عند النزول

و أحذر من العرب الذى بجباله أبدا تصول

و اعلم فديتك انه صعب و لكنى أقول

قد سمي الإسطل من عرب به شبه الخيول

ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة في العدد، صحيحة الضبط و السند، ثم سرنا منه إلى وادي الأراك، و هو واد ليس لانفراد محاسنه اشتراك، و بعده دخلنا بين جبال و أوعار، و مضيق و أحجار، و حدرات طوال، و صعودات و تلال، حتى نزلنا ببندر الوجه المبارك، و صار حصنه متقاربا متدارك، فرأينا به الآبار الخالية، و حفائر الماء العذب غير خالية، فأقمنا به إلى قبيل العصر، و قد زال من الناس الحصر، قال الشاعر:

قد دخلنا بندر الوجه الذي فيه قوت كل عام يخترن

و شربنا من مياه عذبة شربها يجلو عن القلب الحزن

نحم الله الذي أسعفنا و رأينا ذلك الوجه الحسن الرحلة الوريثانية؛ ج ١؛ ص ٤٠٨

مدة المسير إليه سبع عشرة ساعة و ثلثا ساعة بالإجماع، حررها أهل العلم و الاطلاع، انتهى كلامه رضى الله عنه.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٠٩

ثم منه إلى الأكره و هو واد كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة و يذكر أن سيل المدينة المشرفة على من تشرفت به أفضل الصلاة و السلام و أزكى التحية و الإكرام يصل إليه و مأوه قبيح جدا إلا أن يكون عقب سيل فيحسن و به احساء كثيرة و أشجار ملتفة و وجدنا جل ماء آباره جيدا لقرب العهد بالسيل و سقى الناس منه و أخذوا من مائه ما ليس لهم عنه بد و سقوا إبلهم و تجاوزوه قبل الظهر باتوا غربى بئر الدرकिन ثم ارتحلنا منه و بلغنا بئر الدرकिन مع طلوع الشمس و هو منزل الحاج المصرى و سمي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر و أعراب الحجاز فإن ما بعده من عمل الحجاز و فى درك أعرابه إلى أن قال.

و لما بلغنا العقبة السوداء و هى عقبه صغيرة فى حرة سوداء ذات أزهار و أشجار و يقال إنها أول أرض الحجاز و لا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها و تباين الجبال ما سواها و يشتد شبهها بجبال الحجاز السود و يتقوى الحر إلى أن قال.

و هذه المرحلة و التى قبلها يشتد فيها الحر و هى أرض سهلة مطمئنة ليس فيها جبال إلا ما يتراءى عن شمال المار بها و البحر يتراءى عن يمينه و فيها غياض من شجر الطلح و هى من أنواع الكلال الذى ترعاه الإبل كثيرا إلا أنها تترك للرعى فإن المحل مخوف تغير فيه أعراب بلى و جهينة و غيرهما إلى أن قال.

نزلنا الحوراء بعد المغرب و تفرق الناس فى مياهاها و هى على حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير و فيه ملوحة كثيرة و القريب العهد بالحفر أجود من غيره و كلما طال فى القرب خبث و الإكثار منه يورث إسهالا مفرطا كماء الاكره و الأزلم و عجرود و الحاج منها راق على تلال واديهها و أكامها و روايهها لكون المحل محل

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٠

الغارات إلى أن قال و من أمثال الحاج لا رجال إلا رجال الحوراء و لا جمال إلا جمال الدورة و يعنون بالدورة الرجعة يعنى لا يعد صابرا من الجمال إلا من صبر فى حالة الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر و محل قلة العلف و منه ذاهبين مع واديهها الكثير الأشجار من أراك و غيره ثم يعدل الحاج يمينا إلى الوادى المسمى على السنة الحجاج بوادى العقيق.

قال شيخنا أبو سالم و لا مناسبة بين الاسم و المسمى بل تسميته بوادى العقوق انسب لشدة جراءة أعرابه على السرقة فإنهم من أجرأ الناس على ذل ثم منه إلى النبط و به آبار محكمة البناء بالحجر المنحوت و مأوها عذب حلو غزير فى الغالب.

قال أبو سالم و غزارة ماء أودية الدرب إنما يكون بحسب كثرة المطر و قلته فإذا حمل الوادى و لو مرة فى السنة غزر مأوه سائر السنة و منهم إلى الخضيرة مرحلة لا ماء فيها و لا فى الخضيرة إلى الينبع حاصله يومان لا ماء فيهما و من النبط إلى الخضيرة واد حار و هو مكان يتشوق الناس فيه و يموتون عطشا إلا إذا وجد فيه ماء المطر و هذا الوادى قد وافق فيه الاسم المسمى قلما تخلو سنة من شدة تقع للحجاج فيه من عطش أو موت و هو واد كبير طبق ما بين جبلين لا سعة فيه من النبط إلى الخضيرة فإذا اشتد الحر فى النهار

حجبت الجبال عنه الهواء البحرى فينعكس غريبا أو شرقيا صاعدا من الوادى أو منهبطا فيصير سموما محرقا و لا ماء هناك فربما أتلّف الناس فيه العطش المهلك و ربما أحدث ذلك سمية الأبدان بقبح الهواء مع حرارته فتموت المئون بل الآلاف من الخلق فى أسرع مدة فياخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١١

قال الشيخ أبو سالم و وقوع ذلك فى الإياب كثير و فى الركب المصرى أكثر و قد غمرتنا فيه و الحمد لله أطفاه تعالى الخفية، و حضرنا منته و مواهبه السابعة الوافية، فلم نر به بأسا فى الحر و لقر و الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات و تنزل البركات. و نزلنا مغيب الشفق قبيل الخضيرة و صلينا بها الصبح و قطعنا الوعرات السبع المسماة على ألسنة الحاج بسبع و عرات و خرجنا إلى متسع من الأرض و بلغنا ينبع النخل غروب الشمس و لما قربنا مضيق ينبع تأخر كثير من الصعاليك فخرج عليهم المحاربون و جردوا صعلوكا فصاحوا و رجع إليهم بعض الحجاج فهربوا و جلسوا تحت أحجار و رموهم ببنادق و رماهم الحجاج فكفى الله شرهم و استبشر الناس بقدمهم ينبع لأنها أول بلاد الحجاز العامرة و فيها قرى كثيرة و مزارع و نخيل و عيون جارية و ذكروا أن عمرانته متصل نحو ثلاثة أيام و القرية التى ينزل بها الركب هى آخر القرى التى من ناحية البحر و ليس بعدها إلا ينبع البحر الذى هو المرسى و غالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التى ينزل بها الحاج للتسوق و تعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج و تجلب إليها البضائع و السلع ذوات الأثمان و يجلب إليها من الثمار و الفواكه و الحبوب و الفول شىء كثير و هناك وجدنا أخبار المدينة و مكة زادها الله تعالى تشريفا و تعظيما، و تجيلا- و تكريما، و وجدنا أيضا أخبار سائر بلاد الحجاز و تعرفنا على رخصتها من غلائها و خصبها من جذبها و من هناك تجلب الميرة للمدينة الشريفة لأن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها للمدينة يرسى بينع البحر و ما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة فإذا وصل الطعام إلى ينبع حمل منها إلى المدينة تحمله أعراب تلك الناحية من بنى سالم و جهينة و يتداركون بالطريق من هناك للمدينة.

قال شيخنا أبو سالم و أكبر جبال تلك الناحية جبل رضوى و هو المشرف على

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٢

بلاد ينبع و ليس هو الجبل الصغير الذى هو بجانب ينبع بل هو الجبل الكبير المشرف عليه و إلى هذا البلد كانت غزوة العشيرة من غزواته صلى الله عليه و سلم و مسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة المعدود فى المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه و سلم. قال السيد السهمودى ما نصه و مسجد العشيرة معروف ببطن ينبع و هو مسجد القرية التى يزلها الحاج المصرى و لابن زباله أن النبى صلى الله عليه و سلم صلى فى مسجد ينبع بعين بولا.

قلت و عنده عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم انتهى.

و قد دخلنا هذا المسجد و قلنا فيه حتى صلينا الظهر و العصر و توضأنا من هذه العين و عليها نخيل و فى ينبع ملتفة ناعمة و وجدنا بها العام ييس ماء العين و انهدم بعض سقف المسجد و ذبلت النخل و فى ينبع مزاراة على تل مرتفع لأبى الحسن النفاتى و قبر الحسن المثلث فوق القرية لم نصل إليه لبعده و ذعارة عرب البلد يزار من بعيد بالنية و بهذا البلد موطن طائفة من الأشراف و منهم شرفاء بلدنا القاطنون بسجلماسه.

قال البكرى فى ذكر المراحل من الوجه إلى ينبع ما نصه ثم سرنا من الوجه إلى مشرف النعام، ثم إلى حدرات و اكام، و أماكن يرى منها البحر الأجاج، و شدة تلاطمه بالأمواج، ثم إلى حدارت كبيرة المقدار، كثيرة الصخور و الأوعار، و نزلنا فى مرحلة يقال لها بركة اكره، و هى أرض بها حفائر ماء تكره، ماؤها مر المذاق، من تقيد

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٣

شربه حصل له الإطلاق، و هى مرحلة لا تراح بها النفوس، و لا يضحك بها العبوس، قال الشاعر:

يا من أتى اكره فى سيره ابشر بنيل القصد و المنه

لا تكره المكروه فى اكرهه فبالمكاره حفت الجنة

و مدة المسير إليها تسع ساعات بتمامها، و ثلث ساعة ثابتة فى أحكامها، ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك، و لها من بين القرى اسم مشترك، بين فضاء واسع المجال، و مراعى أعشاب للجمال، إلا أنها خالية من الماء للوراد، و الإقامة بها إنما هى على طريقة السير المعتاد، و مدة المسير إليها أربع عشرة ساعة من الزمان، حررها أهل الإتقان، ثم سرنا منها إلى العقبة السوداء المشتهرة، و قطعنا مفاوزها و نزلنا بالحوراء النضرة، و هى مرحلة رملها غزير، و مخاطبها كثير، و بها شجر الأراك الأخضر، و الماء من حفائر رملها يتفجر، قال الشاعر:

جننا إلى الحوراء و هى محطة فيها الأراك نراه للرائى

ناديت خل قف بها متأملا و انظر لرمل مغمم بالماء

و اغنم زمانا مقبلا بسعوده فيه اجتماع الشمل بالحوراء

و مدة المسير إليها فى جمل الإعداد، حررها أهل الإرشاد، ثم سرنا منها إلى مفازة نبط، و هى حد عربان جهينة فى الشيل و الحط، و بطرقها مضائق و حدرات، و جبال راسيات شامخات، و شجر أثل كالنخيل، و حفائر ماء عذب يشفى العليل، قال الشاعر:

و فى اكره و التى بعدها مرارة ماء تزيد القساوه

فجننا إلى نبط نشكر الظمافانعشنا ماؤها و الطلاوه

و لما صبرنا على مرها فاعقبنا صبرنا بالحلاوه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٤

و مدة المسير إليها عدد كاف، و هى عشرون ساعة من غير اختلاف، ثم سرنا إلى طراير الراعى، و هى مكان تحمد فيه المساعى، و هى جبال سود فوق الجبال، و تسمى أيضا بالأباطح كما يقال، ثم إلى واد يسمى وادى النار، و هو واد بين جبال و وعر و غبار، ثم نزلنا بالخضراء و قيل الخضيرة بالتصغير، و هى من أعمال بندر الينع فى المسير، قال الشاعر:

أنظر إلى الخضراء و اغنم بسطها تلقى رباها نزهة للرائى

فلرب حشاش شكا من همه قد زال عنه الهم بالخضراء

و مدة وصولنا إليها فى المسير ثم رحلنا منها و استقبلنا دار البقر، و رأينا أول الوعرات قد ظهر، و هى سبع و عرات كبيرة، أصعبها الأولى و الأخيرة، بين كل و عرة فضاء و بعده عقله فى الطريق، و يليها شفاء جبل هائل و مضيق، ثم أنخنا الركاب ببندر الينبوع، و هو أول بلاد الحجاز فى الذهاب و آخرها فى الرجوع، به حدائق و نخيل، و عيون بين زروع تسيح و تسيل، و كان به سور، منبع و جامع مفرد و سيع، و بيوت فسحة الرحاب، قال أمرها إلى الخراب، و به الآن سوق الحجاج، يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج، و به أفران و حيشان كبار، و عشش تسقى فيها القهوة من أيدي الجوار، قال الشاعر:

حبذا بندر ينبوع و مافى ربا من رياض و عيون

و سقاء من ملاح نهديصر عن الصب من نبل العيون

فارتحل عنهن و اذهب و انتصح فإذا خالفت أذهبت العيون

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٥

و جميع تلك الأسواق خارجة عن المساكن، و يعم نفعها الساكن و الظاعن، فنصبنا بهذا البندر الخيام، و أقمنا به ثلاثة أيام، و مدة المسير إليه سبع عشرة ساعة فى العدد، محررة فى ميقاتها صحيحة السند، انتهى كلام البكرى.

ثم رحلنا من الينع و مررنا على السقائف و دار الوقدة ثم كذلك من الرمل المشرف على بدر ثم كذلك إلى أن نزلنا بدرا و سمي

هذا المنزل دار الوقدة لأنهم يوقدون فيه الشمع الكثير يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك و يبيعونه في الركب و يجعلونه على اقتاب الجمال بالليل فترى الركاب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها في أحد المواسم.

قال أبو سالم و شاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هناك نيرانا كثيرة فنحن نشبته بهم و تلك غفلة منهم و خطأ من وجهين أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النار الكثيرة إنما كان في غزوة الفتح بمر الظهران كما هو معروف في كتب السير و أما بدر فلم يقل فيها أحد بذلك و ثانيها لو سلم أن ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو و إظهار قوة المسلمين و كثرة عددهم فحيث لا ضرر فلا عدو له و لا شك أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه و الاستبشار بالأماكن التي اعز الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن ما لم يؤد ذلك إلى محذور مثل اعتقاد أن الوقود سنة متبعة بل ربما ظن بعضه أنها من أفعال الحج فلتعظم بغير ذلك من فرح و سرور و صدقة و عبادة و إعلان بشكر و قد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون و يقولون لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده ظانين أن ذلك من مناسك الحج و شعائره و كم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات نسأل الله أن يثبتنا على سنة النبي صلى الله عليه و سلم المستقيمة التي لا ترى فيها عوجا و لا أمنا انتهى.

ثم إن الركب يتوسط و توسطنا بين الجبلين جبل الرمل الكبير المشرف على بدر

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٦

يسرى الطريق و الجبل الآخر يمناه فإذا بالناس يشرعون يريدون الصعود لجبل الرمل أفواجا رجاء أن يسمعو ما يوتر هنالك من صوت الطبل و زعم كثير من الحجاج أنهم يسمعون هنالك.

تتمه ذكر الإمام ابن مرزوق في شرحه على البردة ما نصه و من الآيات ببدر الباقية ما كنت اسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهينه طبل الملوك الوقت و يرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان قال و ربما أنكرت ذلك و ربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فيستجيب فيه حواجر الدواب و كان يقال لى انه دهس رمل غير صلب و غالب ما يسيرى هنالك الإبل و إخفاها لا تصوت في الأرض الصلبة فكيف بالرمل قال ثم لما من الله تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشى و بيدي عود طويل من شجر السعدان المسمى بام غيلان و قد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع فما راعني و أنا أسير في الهاجرة إلا واحد من عبيد الأعراب الجمالين الذين كانوا معنا يقولون أتسمعون الطبل فأخذتني لما سمعت كلامه قشعيرة بينة و تذكرت ما كنت أخبرت به و كان في الجو بعض ربح فسمعت صوت الطبل و أنا دهش مما أصابني من الفرح أو الهيبة أو ما الله اعلم به فشككت و قلت لعل الريح سكنت في هذا الذي في يدي و حدث مثل هذا الصوت و أنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآيه العظيمة فألقيت العود من يدي و جلست إلى الأرض أو و ثبت قائما أو فعلت جميع ذلك فسمعت صوت الطبل سماعا محققا أو صوتا لا أشك انه صوت طبل و ذلك من ناحية اليمن و نحن سائرون إلى مكة المشرفة فظلت أسمع ذلك الصوت يومي أجمع المرة بعد المرة و لقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس انتهى.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٧

و قال الإمام المرجاني رحمه الله تعالى و لقد ضربت طبلخانة النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة نقله عنه السيد السمهودي في تاريخه الكبير و الصغير.

قال شيخنا أبو سالم و قد كثر كلام الناس في هذه المسألة و إذا ذكر من يوثق به كابن مرزوق و غيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض و قد مررت ببدر سبع مرات و أنا في كلها ألقى الببال لذلك فلم أسمع شيئا اتحققه و في هذه المرة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخرا وراءنا و تحققنا ذلك بجلوسنا مر بنا و كثير من الناس ممن لم يتحقق ذلك زعم أنه الطبلخانة المذكورة و قد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا أبا بكر السجستاني رضى الله عنه فقال لى كنت حريصا على تحقيق ذلك و لقد مررت ببدر نحو من سبع و عشرين مرة فلم أسمع شيئا أتتحقه و العلم عند الله.

قلت و هذه المسألة مثل ما شاع على السنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قربهم من الينبع و يقولون أن وادى النار اسمه وادى النور لأجل رؤيتها منه فحرف الناس التسمية و قد ألقيت البال لذلك فكلما قالوا أنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تخفق من بلاد بعيدة و تحققنا ذلك بظهوره مرات كثيرة في غير ناحية المدينة و تارة في ناحيتها و يتصل خفقانه حتى يقرب إلينا فتتحقق انه برق و تظهر أمارات أخر تحقق ذلك مثل رؤية غيم متراكم و أصوات رعد و أرض الحجاز معروفة بكثرة الرعد و البرق و كثير من الحجاج يصممون على أنها أنوار و لو ظهرت الأمارات و لو كان من غير ناحية المدينة.

قال و قد سألت شيخنا أبا بكر السجستاني رضى الله عنه عن هذا فقال لى كنت

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٨

أتأمل ذلك كثيرا فلم أر شيئا مما يزعمه الحجاج إلا البرق نعم قال لنا رضى الله عنه و أرضاه الذى لا يمتري فيه انه نور النبى صلى الله عليه و سلم حقيقة و إن كنت جميع الأنوار من نوره ما عايناه مرارا و نحن مجاورون بالمدينة المشرفة فى الحرم الشريف فأنا نجلس أحيانا نهارا حتى يستفيض من ناحية الحجره ما يخالف ضوء النهار فيغشى الحرم الشريف كله فيراه الناس.

قلت و لعل هذا الذى ذكر شيخنا رضى الله عنه أنه خاص أيضا به و بأمثاله ممن تنورت بصائرهم فاستنارت بها أبصارهم فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة و إلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذلك و الله يختص برحمته من يشاء و الله ذو الفضل العظيم. و فى آخر المضيق الذى بين الرمل و الجبل عريش إلى الآن يزعم الناس انه موضع العريش الذى بنى لرسول الله صلى الله عليه و سلم يوم بدر و إن ذلك موضع الواقعة و ليس به.

و نزلنا بدرا بعيد المغرب و هى قرية حسنة ذات نخيل و ماء عذب فيها بركة كبيرة تكفى الأركاب كلها و مادتها من عين هنالك و على ذلك البلد أنوار تلوح، و رياح النصر تغدو و تروح، و ينشرح فيه الصدر و القلب، و يتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الرب، سبحانه و تعالى، و معالم النبوة لا تخفى، و مواطئ أقدام الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه رضى الله عنهم لا تعفى، و قد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول صلى الله عليه و سلم معلنين بذلك فأسعارها فى الغالب أرخص من غيرها مع صغرها و انقطاعها عن البلاد و أهلها محفوظون آمنون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم و كان نزولنا خارج البلد.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤١٩

غريبة و زرنا قبور الشهداء و عليهم جدار قصير محيط بقبورهم.

قال الإمام أبو سالم و بالقرب منهم قبور السادات الأشراف الزيدنية من أهل اليمن نزل أسلافهم بهذا البلد و لهم إتباع فى طريق القوم و مجلس ذكر قال و كبيرهم اليوم السيد أبو الغيث و زرنا أيضا المسجد المسمى بمسجد الغمامة و هو موضع العريش يوم الواقعة بيدر كما نص عليه غير واحد و انشرح صدورنا بذلك و وجدنا به المصرى و نزل علينا الشامى سحرا و أخذ المصرى ساعتئذ فى الرحيل، و حثوا ركبهم بالرسيم و الذميل، و ظعننا نحن بعد صلاة الظهر و مررنا على قبور الشهداء و موضع العريش مع الأخ سيدى محمد الأخصاصى وجدناه هنالك ينتظرونا إذ هو مجاور بالمدينة المشرفة و قبور الشهداء أسفل الوادى من جهة البزوة و ليس بالموضع الذى تزعمه العوام تحت الكتيب على طريق القادم من مصر.

قال البكرى ثم سرنا من ينبع إلى الدهناء فى فضاء و رمال، و آكام و جبال، حتى وصلنا إلى الأبرقين، و هى كناية عن جبلين متفرقين، احدهما رمل صاعد، و الآخر من وعر و جلامد، و بينهما تدق الطبول الحربية، لنصرة خير البرية، فيسمعها من كان أهلا للسمع، و يحجب أهل الزيع و الابتداع، ثم دخلنا قرية بدر و حنين، التى حماها الله من كل شين، و بها جسر طويل، و عيون تجرى بين حدائق و نخيل، و بها مسجد العريش و قيل مسجد النعام، و موضع حوض المصطفى عليه الصلاة و السلام، و محل النصره لجيوش الإسلام، على أهل الأنصاب و الأزلام، و هى الغزوة العظيمة المقدار، التى بها شأهت وجوه الكفار، فيا لها من غزوة قاتلت فيها الملائكة، و ضاقت بها على أعداء الدين المسالك، و أخزى الله أهل الشرك و الغواية، و استشهد من

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٠

المسلمين من سبقت له العناية، و خرج فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم للجهاد، و قتل فيها أبو جهل رأس أهل العناد، فبلغت الشهداء من السعادة أوفر نصيب، و قلبت أعداء الله في القليب، و وجدوا ما وعدهم ربهم من العذاب الأليم، و الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، قال الشاعر:

يا أهل بدر لقد طابت مئاثركم و قد علا قدركم في أرفع الدرج

فترتم بغفران أوزار و حسن ثنا على المدى نشره من أطيب الأرج

يكفيكم في علاكم قول مادحكم هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

فيا لها من ليلة بت و قد أشرق بدرها، و سما قدرها، أذهبت عن العيون الهجوع، لاشتغالها برؤية القناديل و الشموع، و أما الشموع فقد ملأت الأرجاء بالنور، و محت بضوئها ظلمة الديجور، و قد دقت طبول الأفراح، و زالت عن القلوب الأتراح، و أحضر السكر الماد، و أذيب في الماء للوراد، و ملئ به البواطي و الحلل، و سقى به جميع الطوائف و أهل العمل، فشرب كل منهم أوفر نصيب، فكانت ليلة من صفائها أقصر من جلسة الخطيب، و قضينا الأوطار من مشاهدتها المبتهجة، و عدة المسير إليها ثمان ساعات و اثنا عشرة درجة، انتهى كلام الشيخ البكري رضى الله عنه.

فسرنا نظوى المراحل، و ننضى الرواحل، إلى أن رعت الغزاة نرجس الكواكب، و صلى المكتوبة كل راجل و راكب، إلى أن نزلنا بقاع.

البزوة و الناس بقرب المزار في فرح و نشوة، من رجال و نساء، و هو قاع لا يظفر غائضه بقاع، و لا يرى المسافرون نظيرا له في البقاع، و نزلنا بعيد المغرب، و لا يرى من الناس إلا مضطرب و مطرب، إلى أن تفجر ينبوع الفجر، و قبض كل متهجد في مصلاه جائزة الأجر، فשמرنا الذيل لقطع بسيط البزوة، و كم فيه من غدوة و سرودة، فهو حقا قاع صنفص، و مهمه ننف، لا ترى فيها عوجا و لا أمتا، و لا تجد فيه إلا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢١

السماء سمتا، و لله در القائل:

قد سلكتنا القاع المديد الذى م أصحى مضافا دون البقاع لبزوه

فهو قاع لا نبت فيه تراه عين ساروكم لنا فيه سره

فأعاننا الله على قطع مسافته، و كان لنا في طرى مراحل و إتمام مغازته، فسرنا و بلغنا أول سبيل، و قلنا مستظلين بظله الظليل، حتى وصلنا الركب فسرنا و بتنا غربى مستورة، حيث تراءت لنا بخلوة مشهورة، فرأينا هلال ذى الحجة، أبيض و أصفى من الحجة، ليلة السبت ثانى عشر يناير من شهور العجم و هى قرية و بها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت إلا أن الرمل قد غلب عليها و حولها عمارة قليلة و بها قبر يزار عليه بناء و اسم صاحبه الشيخ يحيى قالوا انه شريف من أهل اليمن.

ثم ارتحلنا من منزلنا ذلك و خلفناه، و والينا المصاحبة غيره فغزلناه، فجد بنا السير، و كادت المطايا من سرعتها تحكى الطير، حتى أوصلتنا قرب الظهر رابع، و كم لها علينا من فضل شائع سابغ، و وجدنا بها الأركاب المصرى و الشامى قد خيموا، فإذا الشاميون على الرحيل قد صمموا، فنقضوا أحييتهم، و عانقوا أرديتهم، فارتحلوا ملين، و للسير مزعين، و وجدنا واديه قريب من العهد بالسيلان، و جلسنا للصلاة فى ظل النخيل و الفسلان، و جاء ركبنا فاخذ الناس منازلهم، فالتحقنا بأصحابنا و أناخوا رواحهم.

و رابع قرية فيها نخيل و آبار كثيرة فى واد يأتى إليه السيل من بعيد تزرع فيه مفاشى كثيرة و دخن و ذرة و هو من أخصب أودية الحجاز ثم اشتغل الناس بغسل ثيابهم و الاغتسال، و التنظيف و شراء النعال، توجد هناك معدة للمحرمين إلا أنها فى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٢

الغالب غالية.

و لما حان للشمس أفول، شمر الركب المصرى الذبول، فقام و أرتحل، و عن رابع انتقل، و بنتنا هنالك و فى غد تهيأنا للإحرام، فاغتسلنا و أزلنا ما فى أزالته فضل و رغبة من الشعث، و ألقينا التفث، و أخرنا الإحرام، فارتحلنا ضحى الأحد ثانى الشهر إلى أن وازينا مهيعه، و تراءت أبنية الجحفه، اتحفنا هدايانا بأكمل تحفه، فقلدنا و أشعرنا، و جللنا و تجردنا، فركعنا و أحرما ملبين، بالحج مفردين، و للفرض الكفائى ناوين، و حافظنا على استحضر النية، و واصلنا الإحرام بالتلبية، و اتبعنا فيها السنة السنية، و تابعنا السير بها صارخين، غير مفرطين، و لا مفرطين، مستبشرين آمين، مسرورين مطمئنين، و لبث الناس فى ثياب إحرامهم، كأنهم نشروا من قبورهم بأكفانهم، يزفون و يهرعون للموقف.

و سرنا كأموات لففنا جسومنا بأكفاننا كل ذليل لمولاه

لعل يرى ذل العباد و كسرهم فيرحمهم رب يرجون رحماه

ينادونه لبيك لبيك ذا العلى و سعديك كل الشرك عنك نفيناه

و لو كنت يا هذا تشاهد حالهم لأبكاك ذاك الحال فى حال مرآة

وجوههم غير و شعث رؤسهم فلا رأس إلا للإله كشفناه

لتزداد روعا من خضوع لربناو ما كان من درع المعاصى خلعناه

و ذاك قليل فى كثير ذنوبنا فقد طالما رب العباد عصيناه

إلى زمزم زمت ركاب مطايناو نحو الصفا عيس الوفود صففناه

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٣ نؤم مقاما للخليل معظما إليه استبقنا و الركاب حثناه

و نحن نلبى فى صعود و مهبطكذا حالنا فى كل مرقى رقيناه

فكم نشز عال علتة و فودناو تعلقنا الأصوات حين علوناه

نحج لبيت حجه الرسل قبلنا لنشهد نفعنا فى الكتاب وعدناه

دعانا إليه الله عند بنائه فقلنا له لبيك داع اجبناه

أتيناك لبيناك جئناك ربما إليك هربنا و الأنام تركناه

و وجهك نبغى أنت للقلب قبله إذا ما حججنا أنت بالحج رمناه

فما البيت ما الأركان ما الحجر ما الصفوا ما زمزم أنت الذى قد قصدناه

و أنت منانا أنت غاية سؤلناو أنت الذى دنيا و أخرى أردناه

إليك شددنا الرحل تخترق الفلاكم فدفد فى السواد خرقناه

كذلك ما زلنا نحاول سيرنا نهارا و ليلا عيسنا ما أرحناه

إلى أن بدا إحدى المعالم من منى و هبت نسيم اللوصال نشقناه

و نادى بنا الحادى البشارة و الهنأ فهذا الحمى هذا تراه غشيناه

و سرنا و جاوزنا الرمال، التى تتيه فيه الأركاب كالجبال، و أخذنا بطن هرشاء و نزلنا بعيد المغرب شرقى السيل و غربى قديد و هى

قرية غالب أبنيتها حيشان و فيها قهاوى و فواكه تباع و لا ماء بها إلا ما يسقى من بعيد ثم ارتحلنا منه و مررنا و قد متع النهار بالمشلل و

يسمى اليوم بعقبة السكر.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٤

قال الإمام أبو سالم و أكثر الناس خصوصا المصرية يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هناك و يؤثرون فى ذلك أثرا لا أصل له

يزعمون أن رمل ذلك المحل انقلب للصحابة سكرًا فشربوه و هي عقبه في جبل صغير فيها رمل يتعب الإبل [مع كثرة التلاحي و شدة التلاحم، و إفراط التراحم، و عدم التعاطف و التراحم، و فيها قيل:

كم جمل منتصب للشقما جره الجمال إلا انكسر

و كان في الركب يرى مبتدافما له من بعد هذا خبر]

و قد سوى البناء في جانبيها و التقطت أحجارها و بنى مسجد صغير بأحد جانبيها و بينها و بين خليص نحو من ثلاثة أميال.

و ذكر السيد السهمودي أن هناك بالمشلل مسجدا للنبي صلى الله عليه و سلم على يسار الذهاب إلى منى و لعله هو هذا المبني هناك اليوم فقد دخلناه و زرناه و تبركنا بالآثار المضافة له صلى الله عليه و سلم و شرف و كرم و مجد و عظم فبلغنا الكديد قبل الظهر و نزلنا في قبة عظيمة بإزاء بركة عظيمة تحت القرية و في خليص هذا عين تجرى و أبنية و قهاوى و سوق حافلة و قد سيق الماء في قنوات محكمات من العين يفجر عنها و يبرز في مواضع للسقى و الوضوء إلى أن خرج الماء إلى البركة المذكورة و كانت عميقة يغرق فيها من لا- يحسن العوم و يخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد رجل حرثهم الدخن و يكترون من المقاشي و ماء هذه العين أحلى و أعذب إلا أنه سخن و نمنا هنيئة ريثما يحين وقت الصلاة فتوضأنا و صلينا الظهر و تلاحق الركب و سقى الناس و استقوا و ركعنا بمسجد هناك فوق البركة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٥

ينسب لسيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و قد تهدم و امتلأ أوساخا و صار إصطبلا للدواب فأنا لله و إنا إليه راجعون لقد ضعف الدين و قلت الرغبة في الخير حتى يكون بهذه المثابة المكان الذي دخله سيد الأولين و الآخرين عليه أفضل الصلاة و أزكى التسليم و صلى فيه و كان من حقه أن يذهب و يفضض و قد أشرت بذلك لأمر الحج المصرى و وعد بإصلاحه و الله يوفقنا و إياه.

و سرنا في غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل و غيره و في خلالها فدادين يزرع فيها المقاشي و الدخن و غير ذلك و نزلنا بين العشاءين في بسيت من أشجار بريئة من السيال و غيره ثم منه قبيل الفجر و مررنا بالثنية التي يهبط منها إلى عسفان أسفارا و الطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارها كعقبه السكر إلا أن هذه أطول منها و أسهل و بأحد جانبيها مسجد فلما خرجنا من العقبة وصلنا عسفان ضحى و فيها سوق و آبار من جملتها البئر التي يذكر أن النبي صلى الله عليه و سلم تفل فيها و ماؤها حلو غياة و شربنا منه تبركا بآثاره صلى الله عليه و سلم و استفاض ذلك على ألسنة العوام و لم أقف عليه في شىء من التواريخ التي بأيدينا و عثرنا عليها و الله اعلم بحقيقته و به مسجد و لم أدر ما أصله فسرنا و قطعنا تلك المفاوز كلها من أرض تسمى ببرقة و هي أرض طيبة ذات مزارع و وادى العميان إلى أن أنخنا بمر الظهران بعد العشاء و يسمى وادى فاطمة و وادى الشريف و وجدنا به الشامى و المصرى خيما و بفور نزلنا رحل الشامى و تبعه المصرى آخر الليل و هو واد كبير فيه قرى متعددة ذات نخيل و بساتين و عيون تجرى و أعظمها القرية التي ينزل بها الحاج و فيها سوق و عين كبيرة و بساتين مؤنقة، وجدنا بها الثمار مزهوة، فالقلوب بالنظر لنضارتها من الأحزان مجلوة، مع ما غمرها من السرور بقرب الديار، و مشاهدة الآثار، ففرح الناس، و تزايد الإيناس، و أعبق عليهم بأرجه الأريج، و عرفه المتكاثر البهيج، شجر

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٦

الكادى ، باستنشاق الحاضر و البادى، فغمر عبقه كل نادى، و لما بلغنا عام تعسة هذا الوادى، قلنا بعريش هنالك و جرى ذكر الكادى فى النادى، و سألنا عنه صاحب العريش و أخبر أن شجره كشجر النخل و بعث من أتانا بشىء من أوراقه و إذا فيها رائحة طيبة جدا و أوراقه عريضة، و أنواره و مية، فسبحان من يخصص من يشاء بما شاء.

تكملة قال الإمام البكرى رحمه الله تعالى فى عد المراحل من بدر إلى هنا ما نصه ثم سرنا من بدر إلى قاع البزوة و تسمى طرق النجحان، ثم إلى عالج و جبل القروود و مكان يسمى ودان، ثم نزلنا بسبيل محسن المشهور، و تنزهنا فى خضرة أعشابه و سرحه المعطور، قال الشاعر:

قد شكنا لى بعض المحبين يومائماً الماء قلت ذا غير ممكن

كيف تشكو الظماً و تجزع منهو بهذا السبيل أحسن محسن

و مدة المسير منه ثمان عشرة من الساعات، و عشرون درجةً محررةً بالميقات، ثم سرنا منها إلى بستان القاضى، و نسينا بقرب الديار
تعب السير الماضى، ثم نزلنا براغ محل الميقات، و تجردنا عن لبس المخيط بصدق النيات، و أحرمتنا بالعمرة و الحج، عملاً بقوله
الحج العج و الشج، و أهللنا بالتلبية لعلام الغيوب، و سألنا الله تعالى غفران الذنوب، و رأينا حفاى ماء تنبع، و مزارع بطيخ يتنوع، و
مسجداً قديماً الأثر، و يسمى ذا الجحفة كما ورد فى الخبر، و هو محل إحرام المصطفى، صلى الله عليه و سلم زاده الله شرفاً، قال
الشاعر:

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٧ تجرت لما أن وصلت لرابغ و لبيت للمولى كما حصل النداء

و قلت إلهى عندك الفوز بالغنى و أنى فقير قد أتيت مجرداً

و مدة المسير إليها ست عشرة ساعةً بالتمام، و عشرة من الدرج ثابتة الأحكام، ثم سرنا إلى الجريبات و نزلنا بطارق قديد، الذى لا يحل
فى حرمة للمحرم الصيد، و إرجاؤه واسعة المجال، كثيرة الوعر و الرمال، إلا أنها تبشر بقرب البلاد، و هى مواطن الأمجاد، قال الشاعر:

قد نزلنا بطارق لقديدو دخلنا حماك نرجو الحماية

فتفضل على عبيد وفودمك يرجو دفع العنا و العناية

و مدة المسير إليها سبع عشرة من الساعات، محررةً بالميقات، ثم سرنا إلى عقبه السويق، و هى عقبه عالية الرمال فى الطريق، ثم منها
إلى خليص الشهيرة، و بعدها فسقية من الماء كبيرة، يخرج منها إلى الديسة، و يحترز فيها من اللصوص أصحاب النفوس الخسيصة، ثم
خرجنا من مدرج عثمان، إلى قرية عسفان، و بها البئر التى تغل فيها سيد البشر، صلى الله عليه و سلم و هى بئر من يشرب من مائها زال
عنه الضرر، قال الشاعر:

أن عسفان تسامت رفعة و علت قدرا على كل القرى

و بها بئر النبى المصطفى خير من صلى و صام و قرا

فإذا جئت لها كن محسناً فعسى تحسب من أهل القرى

و مدة المسيرة إليها زاي فى العدد، معلومة فى العدد، ثم سرنا منها إلى جبل العميان، الذى تجتمع فيه الفقراء بقصد الإحسان، و نزلنا
بالوادي، و هو نهاية سير

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٨

الوادي، و هو واد خصيب، يرى فيه طالب النزاهة أوفر نصيب، أغصانه زاهية، قطوفها دانية، و أطياره ناطقة، و جداوله دافقة، و مزارعه
تنبت من كل زوج بهيج، و يفوح من أزهارها كل عرف أريج، و هى زائدة الابتهاج، و على كل حديقة سياج، فلو رآه مصرى من
الناس، نمى الروضة و المقياس، به عشم تسكنها عرب الوادي، و بأرضه ينبت شجر الكادى، قال الشاعر:

يا حبذا واد فسيح الفضاً أريجه قد عطر النادى

كم فيه من باغية قد زكت و فيه زهر الفل و الكادى

و كم ثمار و زروع بهو الماء فيه ينعش الصادى

قلت لخلي حين شاهدته و لاح لى نور السنا بادى

هل دار ليلى قد تدانت لنا فقال لى أنك بالوادي

و وصوله خمس عشرة ساعةً فى السير، و خمس من الدرج بالتحريم، ثم سرنا إلى سبيل الجوخى المعروف، و رأينا جنان مكة دانية
القطوف، ثم مررنا بمسجد ميمونة بالعمرة، و قد اقترن لسماء سموها كوكب الثريا بالزهرة، و لاحت لنا أعلام الديار، و مشاهد

المشاعر والآثار، ووصلنا ثنية كدا، وبعدها المعلى التي بها مشاهد أهل الهدى، وكنا عند خروجنا من عدم الوصول خائفين، حتى تلقينا هواتف البشائر لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمين، فدخلنا من باب السلام، وشاهدنا البيت والمقام، وطفنا طواف القدوم، وذهبت عنا الهموم، وجئنا إلى محل الصفا، وسعينا في طلب الوفا، ولما تم سعينا بالطواف، وحفتنا من عناية الله الألفاف، أقمنا بمكة بالإحرام، إلى سابع ذى الحجة الحرام، انتهى كلام البكرى.

ولنرجع إلى تعداد مراحلنا، وذكر منازلنا، ولما اطمأن المنزل بنا بالوادي،

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٢٩

ولاحت لنا من أعلام القرب الهوادي، رحلنا آخر الليل سحرا، وما جعلنا سوى شد الحمولة وطرا، فسرنا ونسمات الوصال تهب علينا، وبشائر التلاقي تترادف إلينا، وظفرنا بمسرة ما ظفر بها مسرور، ولا طوى كشحه عليها مصرور، وقلنا بالقلوب والقوالب، الحمد لله الذي أدانا وأنانا المطالب، وبلغنا جميع المثارب، وبلغنا سرف ضحى وبها قبر أم المؤمنين ذات النقبية الميمونة، الهاللية السيدة ميمونة، رضى الله عنها وأرضاها، بمقاصير فراديس الجنان حباها، توفيت بهذا الوادي، وكان من غريب الأنفاق، الذي ليس للأذهان إليه انسياق، أن بهذا الوادي بنى بها سيدنا صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهما وكان تزوجها بمكة وهو محرم في عمره القضاء وبنى بها بسرف في رجوعه وعلى قبرها بناء، ومسجد فزرها خارج البناء، معظمين لرحمتها، راجين حسن بركتها، وزار من معنا من الحرم معظمت للحرم، وركعنا في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم هنالك، وتجاوزنا نفري المسالك، إلى أن جئنا التتيم وقد متع النهار حيث المسجد المنسوب للسيدة عائشة رضى الله عنها بنى في المكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن رضى الله عنه بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ومن ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها وهو أدنى الحل حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تسمية للشىء باسم ما يقع فيه فنمنا هنالك واسترحنا، وطبنا واطمأننا، وقمنا وتوضأنا، وفي مصلاه صلى الله عليه وسلم ركعنا، فسرنا وتجاوزنا المكان المسمى بالزاهر ويسمى جنان مكة وبه آبار وبه قبر يذكر انه قبر الصحابي الشهير الإمام المشهور أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضى الله عنها.

قال الإمام أبو سالم فقد صح انه مات بمكة بعد الحج فقبل أنه دفن خارجها

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٠

بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه فمن قائل أنه بهذا الوادي ومن قائل أنه بالوادي الذى بطرف المحصب وهو الذى شهره كثير من الناس إلا أنه ليس هناك قبر ينسب إليه قال وقد زرنه في هذا المكان بحسن النية وأكثر الناس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة اقتداء بمن قال إن هذا هو ذو طوى الذى بات به صلى الله عليه وسلم واغتسل فيه واستحب أكثر العلماء الاغتسال فيه والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام هذا وليس بينه وبين مكة واد آخر هو الوادي الذى وراء قيقعان وأسفله الموضع المسمى بالشبيكة حيث الثنية السفى التى يخرج منها الحاج فأعلى هذا الوادي هو ذو أطوى وأسفله هو الشبيكة انتهى ونزلنا ذا طوى ظهر الأربعاء خامس ذى الحجة الخامس والعشرين من يناير وبتنا به فى مسرة أعظم بها من مسرة، لم تدع من العناء ذرة، ويا لها من مبرة، نولت كل قلب قرارا وكل عين قررة، فلما صلينا الصبح اغتسلنا غسلا خفيفا كما هى سنة المحرم لدخول مكة بنى طوى وبللنا بذلك غلة الجوى، فارتحلنا آمين أم القرى، ودخلنا من باب المعلى، وهو الثنية العليا التى دخل منها المصطفى سيد الآخرة والأولى، عليه أفضل الصلاة والسلام وإنما هما وأعطرهما وأزكى وهى المسماة بكدا بالفتح وقد بالغت الولاية فى حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة ومع ذلك ففيها صعوبة ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون وهى إحدى المقابر التى تضىء لأهل المساء كما تضىء الكواكب لأهل الأرض كما ورد فى الحديث.

انعطاف إلى ما كنا بصدد فلنرجع إلى تعداد مراحلنا من العقبة إلى مكة المشرفة ولما أن قربنا العقبة دخلناها بشرهه عظيمة ونزاهة كبيرة والحجاج قد شاك جمعهم السلاح التام وقامت الصيحة والتنادى وارتفع حس البارود وصوت البنادق إلى أن دخلنا منزل

العقبه فخيما فيه البيوت قرب الركب المصرى إذ وجدناه هناك و أقمنا فيه ما كتب لنا فى نشاط عظيم و تسوق قوى و فيها سوق لا يكاد أن يحصى ما فيها من

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣١

أنواع البز و الثياب و الأمتعة و الأطعمة و أنواع الخير من كعك و خبز و أنواع الطباخ بتابل و غيره من أوزار منوعه الأجناس و مفترقه الأصناف فناقص العقل إن دخل السوق كاد أن لا يرجع بدرهم عنده غير أن الله مكن العقول و أثبتها فلم تكثرث بما هنالك لما غلب من شوق الحبيب و محبته عليه الصلاة و السلام فلم تعتبر شيئا إلا الوصول إليه و مشاهدته أثره صلى الله عليه و سلم فخف عليها كل ما تشاهده من مشاق السفر و وعته و كذا تغيب عما تشاهده من الملدوذات فطابت النفس بما قصدته و أرادته من التنقل فى منازل القرب و مراتب الإسهاد و مقامات السعود و الحضور و الاستبداد بما فيه الغنيمه العظمى و الفوز بحضرة العزيز الغفار لما به من الموبقات التى بهال الإنسان يتعامى.

حاصله أننا أقمنا بها فى عزة و منع و سرور و جدل و فرح و هناء إذ أعظم شىء مذلة الأعراب الذين صدوا الحاج فى العام الذى قبلنا و قد أصابه خزي و ذل حتى إن الإنسان يأخذ بعض ما لهم فلا يستطيع أن يتكلم لما رأوا من شوكة الركب المغربى و قوته فجزاهم الله جزاء وفاقا لأنهم أخذوا ركب الحجاج الجزائرى و الطرابلسى بل أخذوا منهم كيت و كيت من الدراهم و بذلك خلوا سبيلهم و لولا عطاؤهم ذلك و إقامة أمير مصر ما جاوزوا العقبة و لا مروا عليها بل فضل الله و جاه النبى صلى الله عليه و سلم انعطف عليهم و إلا لهلك كلهم أو جلهم فكل ما كان رحمه بهم فلما علم الحجاج أى ركبنا ما جاز عليهم أرددوا و أبرقوا و ترجوا و اتعظوا فقاموا على ساق واحدة و رمية متحدة فما ملكت أنفسهم إلا القتال غير أن أعراب العقبة سكنت شوكتهم و طوى بساطهم و أنسد سبيلهم علما منهم أنهم لا يستطيعون مقاومه هذا الركب لا سيما و أن فيه أفاضل و صلحاء و علماء فالحمد لله.

نعم أودع الناس فى القصر و دائعهم و بضائعهم لوقت الرجوع فلما ظعن الركب

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٢

المصرى و انفصل عن محله ظعنا فى أثره بعد ملء سقايتنا فإن مياه العقبة بين بين إلا أن بعض الآبار فيه ماء عذب و هو بندر عظيم يكاد أن يكون فى أسواقه مثل المدينة فيه يشبهها فى الارتفاق به و الاستعداد منه للزاد فترى الحاج كأنه جدد السفر لحصول الاستراحة فيه حسا فلا تعمل نفس ما فرق فيه من قره أعين فيه ما تشتهيهِ الأنفس و تلذ الأبصار فلا ترى فيه عوجا و لا أمتا يوم نزولها يتبع الداعى ما كتب له من الملدوذ و البز المتنوع و كذا الفواكه فيه صنوان و غير صنوان تساق من غزه و أطرافها من نواحى الشام فيشترى منها القانع و المعتر كل على حسب قدره و قوة زاده و ضعفه على أن أهل الأموال فى نزهة و تنعم فتجد أحدهم يشرب ماء النيل إلى مكة المشرفة و بعضهم إلى الرجوع.

و قد ذهبت أنا و الفاضل الأخ سيدى أحمد الطيب الزواوى إلى الكخية أعنى خليفة الأمير لأمر يتعلق بأمر أصحابنا بل بالركب جميعه لأن شيخنا الولى الصالح، و القطب الواضح، سلطان العارفين، و خاتمة المحققين، شيخ المریدين، الشيخ محمد الحفناوى بعث معنا مزبوره ليكون مع الحجاج فلما وصلنا إليه قام إلينا و عظمتنا غاية التعظيم و مع ذلك هو فى رفعة عظيمة و مرتبة منيفه و معه عسكر عظيم لا يصل إليه الضعيف إلا بعد شدة كبيرة و انتظار قوى و أما نحن و الحمد لله فبنفس سماعه بنا لقينا و أدخلنا محله الخاص به و ذلك المحل الذى هو فيه يخطف الأبصار فلا يكاد الضعيف يطمئن به و يسكن فى محله لاختلاف الألوان و كثرة الأوانى المزخرفة فجلسنا عنده ساعه إلا و الطعام حضر قرب الاصفرار فأتوا بالأطعمة المختلفه و الطباخ المتنوعه فى الموائد المستحسنه لا يكاد أن يحصى ما عليها من الأوانى فأجلسنا عليها و ألح علينا فى أكلها.

حاصله هذا الأمر فى السفر فكيف هو فى الحضر نعم فما عندنا إلا الصبر و طلب

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٣

عوضه في الآخرة وهذا وأنا ظعنا منه على خير و عافية و منة و فضل من الله قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون.

ولما انفصلنا عن بندر العقبة و وقفنا على الحصن الذي فيه العسكر نعم الأعراب دائرة بالحصن على عادتهم من اجتماعهم مع كونهم بسلاحهم تأمين للسلاح ينتظرون فرصة أو غفلة من الحاج يأخذون ما بدا لهم خلسة و مكرا أو تتخلف بعض الرواحل فيأتون إليها ظاهرين قهرا و نحن و الحمد لله سلمنا من ذلك كله إذ الركب معه هيبه عظيمه لا يستطيعون ذلك فتخلفنا على العادة من التخلف شفقه على ضعفاء الركب أنا و سيدي محمد الشريف الطرابلسي و من معه من أصحابه و كذا سيدي أحمد الطيب قل أن ينفرد عنا و ذلك من توافق الطباع و نحن كذلك من المشى بالتدريج على شاطئ البحر في آخر الركب فما علمنا أحدا من العرب وراءنا علما منهم لا قوة لهم بنا خفيه أو ظاهرا إلى أن وصلنا شاطئ البحر قرب الزوال قبل وصولنا إلى ظهر الحمار فتوضأنا وصلينا الظهر ثم ركبنا بغالنا فسرنا ساعة و إذا ببعض الإجمال لأصحاب سيدي محمد الشريف المذكور و قفت من شدة السير و كثرة الحمل فذهبتنا ساعة معها ثم خلفناها و أشرفنا على ظهر الحمار و فيه نخل على شاطئ البحر و لا بأس به و في وسطه آبار طيبة الماء عذبة من أحسن المياه فسقت الناس إبلهم و ملأت سقاياتهم فلم تنزل بطرف النخل و إنما ينزل فيها الحاج بعد الرجوع و وجدنا ثمت آخر المصري بل جميع الركب لم يستقيموا على المشى و إنما ينتظرون استقامة الأقطار و رجوع كل إلى موضعه ثم صعدا العقبة التي بعد الآبار و فيها طريقان كما سبق و هي صعبة الصعود غير أنها ليست طويلة جدا و الحمد لله و إلا لهلك جلسه أو بعضه فلما صعدا بعد الظهر في حر عظيم نزلنا في وسع كثير و رحث قوى فوق العقبة لما علمت أن المغربي يمشى في النهار بخلاف المصري فانه يمشى ليلا.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٤

و هذه المرحلة قصيرة و مع قصرها أنها شديدة الحر و الخوف من الأعراب موجود فان شوكتهم هناك قويه إذ طريقه ضيقه و قد تنزل الأعراب في زمان الثمرة فيه فلما مر أكثر الليل و إذا بالركب ارتحل ليلا فسرنا بعض الليل إلى طلوع الفجر [فسق من كان على الخيل و البغال لنستعد لصلاة الصبح حسبما هو العادة منا فلما طلع الفجر] و تنفس الصبح صلينا ثم ركبنا إلى وقت الضحى و نزلنا إلى صلاة الضحى كذلك كل يوم ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى الشرف و قد ذكر وصفه الشيخ أعنى سيدي أحمد بن ناصر.

و يسمى هذا المحل الآن أم العظام نزلناه عند وقت العصر ثم بتنا فيه على خير و عافية ثم ظعنا آخر الليل و الحمد لله و لم تكن مرحلة أطول منها فإن الإبل أكثرها يموت في هذه المرحلة لطولها و شدة تعبها فظعنا منها على خير و عافية فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى مغار شعيب بعد الظهر و فيها نخل عظيم و غيضة كبيرة و ماء جار فلا يجرى ماء إلا هنا و في عيون القصب في جميع مراحل الدرب و قد تقدم أخبار مدين فيما سبق و فيها بعض الخصب للدواب و للإبل نعم الحجاج يتأمنون في هذا المنزل كأنهم حصلت لهم راحة و سرور فان خاصة من توجه إلى بيت الله الحرام يشاهد أنوار النبوة و الرسالة في أرض الحجاز فيتيسر عليه حمل بعض الأثقال فإذا تجلى ربه على قلبه سبحانه مما حصل لي في الخيال من بعض التوهيمات في التجلي نعم نودي في سره يا موسى المحجة أنى اصطفتك على الناس برسالتى أى الإلهام إذ لم ينقطع بالنبي صلى الله عليه و سلم و إنما انقطع به رسالة الوحي و قال رسالة الإلهام أيضا في سره و أنى اصطفتك على الناس بكلامى أى نداء الحق يا أيها الحبيب و يا أيها العبد فخذ ما أتيتك من التوجه إلى الله و كن من الشاكرين حيث أسعدك التوفيق

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٥

للتوجه للأماكن الشريفة دون من يساويك في البشرات فإن الأواني تتشرف بما فيها من سر الملك و الملكوت، و نسيم الجبوت، و كذا بالمعاني قال الشاعر:

قلب بذكر الله أضحي روضه و واحد باللهو صار مزبله

ما منبت الورد كنبت غيره و لا شذا المسك كريح البصله

لو سقى الحنظل شهدا دائما ما أنبت الحنظل إلا حنظله

و قال أيضا:

و من حضر السماع بغير قلب و لم يتحرك فلا تلم المغنى

قلت هذه المترلة شذاؤها طيب و أنوارها بينة فالعارف تجده فيها منشرح الصدر طيب الوقت منبسط الظاهر و الباطن لأن آثار المحبوب حاصله فيه إلا من أصابه زكام محبة الدنيا فهو لا يشم شيئا من هذه العواطر الإلهية و الروائح النبوية و ذلك معلوم فى الشاهد ثم ظعنا منها ليلا أيضا على ما أسلفناه إلى أن وصلنا عيون القصب و فيها ماء حار عذب قريب من البحر و هو كثير القصب و ذكر وصفه شيخنا سيدى أحمد بن ناصر و كذا ذكر المسجد الذى يزار هناك فنزلنا به عن صلاة العصر و نزلنا على أكمل الخير و أتم العافية و ارتحلنا أيضا ليلا ثم كذلك على ما علم منا من جد السير على شاطئ البحر إلى بلوغ بندر المويلح و قد نزلنا عند الظهر و الله اعلم و هو بندر عظيم كثير الأرزاق ثم أن أسواقه تامة و فيها ما لا يحصى من أنواع النبات و الأطعمة المختلفة و الملابس المزخرفة و الطبائح المنوعة و علف الدواب كثير و فيه مرسى قوية النفع و أن هذا البندر أعظم بنادر الدرب نفعنا و أسرعها لقضاء الحاجة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٤

فلا تعلم نفس ما يوجد فيه من منافع الخاصة و العامة فلا حرج إلا فى قلة الفلوس و ضعف اليقين و عدم الصدق فى التوجه مع الحق و مع الخلق فالذى زلزلت أرضه بالبهتان و الكذب و الخيانة و عدم الحياء من الله و من الناس قل أن تصحبه السلامة فى دينه و دنياه نعم هذا البندر فيه آبار كثيرة و مياه عظيمة مفترقة و فيه نخل كثير و بساتين متعددة و كذا زروع لا تحصى و هو حصن قوى عامر بالعسكر و بالبيوت الكثيرة و الديار المتعددة.

حاصله قد سكن فيه من شاء بنية الإقامة و إن الحاج يضع فيه أمتعه إلى الرجوع من الحج يتزودون به إلى مصر و قد وضع أصحابنا ما فضل عنهم من الزاد و ما لا يحتاجون إليه من الأمتعة و كل ذلك بأجرة ثم أقمنا فيه ما كتب فى أكمل حال و أتمه و ما معنا إلا البركة و الحمد لله على ذلك و قد ظهر فضل الله علينا و على أصحابنا و تمت عندنا النعمة فله الحمد لله و المنه نعم انفصلنا عنه فى عافية فسرنا على شاطئ البحر ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى آبار السلطان و هو محل عظيم ينشرح فيه الصدر و تلتذ به الأعين و تنبسط إليه النفس فلا ترى أحدا إلا اطمأن قلبه به غير أنه كثير السراق من متلصصى الأعراب فينبغى للإنسان أن يحتاط فيه بمزيد الحذر غاية جهده و هذا المحل كان لا ماء فيه و إنما حفر آباره الأمير إبراهيم إذ هو الذى تسبب فيه و كمل ذلك أخوه بوصية أخيه المذكور كما تقدم فى كلام شيخنا المذكور و يسمى هذا الموضع دار أم السلطان و ماؤه عذب سخن سريع الانفصال كما سبق ثم ظعنا منه سائرين و مررنا بالمضيق الموسوم بشق العجوز و سرنا عن يميننا و عن يسارنا جبال سلمى و كفافه و مررنا بقبر الشيخ مرزوق المتبرك به دائما و عليه أعواد دليل عليه فيزوره من يعرفه ثم كذلك فنزلنا ببندر الأزلم بين الظهر و العصر و فيه ثلاث

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٧

آبار كبار محكمة البناء و ماؤها غزير إلا أنه مر يصلح للإبل فقط و لضرورة الناس من غسل و نحوه و لا يسيغه إلا المضطرون و بتنا فى ذلك المحل فى أكمل حال ثم ظعنا منه و سرنا بين جبلين فى مضائق و عقبات صغار إلى أن وصلنا إسطلب عتتر قرب العصر و فيه ثلاث آبار و ماؤها حلو إلا أنها قليلة الماء يستقيه الناس للشرب غير أنه لا يكفيهم فلا تكاد الإبل تطمع فيه ثم ظعنا منه و مررنا بوادى الأراك و هو واد واسع كثير الأراك الأخضر الناعم و بعده مضائق بين جبال صعودا إلى أن وصلنا بندر الوجه عند العصر و الله أعلم و فيه حصن حصين فى حرف واد كبير بين جبلين كبيرين و الناس نازلون أطرافه إذا كان ليس الوقت وقت سيول و إلا ارتفعوا عنه و فيه آبار و التى فوق البندر أحسن من التى تحته و فيه داخل البندر بئر ماؤها عذب طيب [و فى أعلى الوادى ماء بين جبلين يسمى الزعفران إلا- أنه قليل الماء كما تقدم عن شيخنا و ماؤه طيب] غاية ثم ارتحلنا من الوجه صبيحة و نزلنا الأكره بين المغرب و العشاء على حرف الآبار فسقى الناس إبلهم و دوابهم ثم إن ماءه لا يكاد أحد يسيغه لحرافته مرارته إلا بعض الآبار فأنى قد وجدت فيه ماء

يكاد أن يكون عذبا من جهة المشرق و هو بئر قريب من الغيضة في وسط الوادى.

وقد حكى لنا بعض الناس من الركب انه وجد بئرا ماؤها عذب طيب و ذلك يستغرب فى هذا الموضع و هذا المنزل أشد منازل الدرب و أصعبها مرارته مائه و كثرة حره و سخونة ربحه فيشتد ذلك على الحجاج حتى يهلك كثير منه بالعطش و أن ماء خبيث أخبت شىء فى هذه المراحل فترك مائه متعين لأنه مضر فله الحمد على سلامتنا منه.

ثم ارتحلنا إلى أن وصلنا إلى الدركين قرب العصر و هو منزل الحاج المصرى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٨

و سمي بذلك بئر درك أعراب مصر و أعراب الحجاز فان ما بعده من أعمال الحجاز إذ تتغير بعد ذلك البلدان و يتضح أمر الحجاز و تباين الجبال ما بعدها لما قبلها و يشتد شبهها لجبال مكة لسوادها.

و فى هذا المحل غياض من شجر الطلح و هى من أنواع الكلا الذى ترعاه الإبل كثيرا إلا أنه لا تترك للرعى لأن المحل مخوف تغير فيه الأعراب إلخ ما ذكرناه آنفا.

ثم ظعنا منه إلى أن نزلنا الحوراء عند العصر و تفرق الناس فى مياهاها و هى حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير و فيها ملوحة قوية و قريب العهد بالحفر أجود من غيره و هو مكثر للإسهال لا سيما مع الإكثار منه و هو مفرط فى علته البطن كماء الاكر و الأزلم و عجروود و من أمثال الحجاج لا رجال إلا رجال الحوراء و لا جمال إلا جمال الدورة أى الرجعة من مكة و فيه الآن آبار قد حدثت أحدثها بعض الناس و هى بعيدة عن ساحل البحر و ماؤها أطيب من القديمة و أجود و عليها ينزل المصرى فى عصرنا هذا و كذا سائر الأركاب و قد علمنا عذوبة مائها أن لم يطل جدا و إلا خبت كالقديم.

ثم ظعنا منه آخر الليل فصلينا الصبح مع جماعة الفضلاء فى الوادى المضيق ثم سرنا فى تلك المضائق إلى الوادى المسمى الآن بوادى العقيق بل تسميته بوادى العقوق أولى لتلصص أعرابه و جرأتهم على الناس بالسرقه ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى النبط بين الظهر و العصر فيه آبار أربع محكمة البناء بالحجر و الصخر و ماؤها عذب حلو طيب غزير لا ينقطع مدده.

و فى هذا المنزل تنشرح النفس و تمرح فيه لطيب مائه و حلاوة مكانه و طلاوة منظره و قربه من الأماكن الشريفة و المآثر كالينبع و نحوه ثم ارتحلنا منه أيضا ليلا إلى

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٣٩

آخره ثم سرنا كذلك إلى أن دخلنا وادى النار و هذا الوادى قد وافق فيه الاسم المسمى إذ لا يخلو من شدة تقع للحاج فيه من عطش و موت و مرض و هو واد كبير قد انطبق عليه الجبلان من النبط إلى الخضيره فلا ينفذ فيه الهواء غالبا لأن الهواء إذا تحرك بالرياح انطبق عليه الجبلان فينعكس الريح إلى ما وراء و تحدث الحرارة و السموم فى الهواء فينشأ الهلاك منه و لا ماء هناك من النبط إلى الينبع فإذا قبح الهواء مع الحرارة مات من الناس ألوف مؤلفة فى أسرع مدة يأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت و قد صار ذلك فى رجوعنا.

نعم اشتد بنا العطش أنا و جماعة من الفضلاء كثيرا قرب وصولنا إلى النبط و إذا بأعرابي أتانا بقربة ماء عذب و أظنه من ماء المطر بارد كأنه من ماء الثلج و سقى جمعينا لوجه الله العظيم و لو طلب الدراهم لأخذ منها كثيرا لقرب الموت و الهلاك منا فاستغربنا حال الرجل و ما صدر منه إلينا من غير طلب شىء و لو دعوة خير إذ عادة الأعراب لا يعطون شربة الماء إلا بفلوس كثيرة لا سيما عند العطش و نحن و الحمد لله قد وقع بنا فضل عظيم و جود كريم.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا الخضيره أو ان العصر و هذا المنزل لا ماء فيه أصلا و بتنا فيه على أحسن حال و أتمه و ارتحلنا منه آخر الليل ثم كذلك إلى أن صلينا الصبح و قطعنا الأمكنة المسماة بسبع و عرات فخرجنا إلى متسع من الأرض و بلغنا إلى ينبع النخل بين الظهر و العصر فى حر شديد و وجدنا المصرى نازلا هناك فنزلنا حذاه الفلالى و الجزائرى و الفزانى فلما خيمنا البيوت تفرقت الناس

على المياه و شراء علف الدواب و ما يحتاجونه من الزاد إذ سوقه عظيم و نخله كريم و استبشر الناس بوصولهم إلى هذا المحل لأنه أول بلاد الحجاز بالعمارة و فيها قرى كثيرة و مزارع و نخل و عيون جارية و هو انتهاء موضع وصله صلى الله عليه و سلم و فيه أخبار الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤٠

المدينة و مكة و غيرهما و الحاج إذا وصل هناك كأنه وصل إلى مكة.

و هذا المحل تزهى فيه النفوس و هو روضة من رياض الله تعالى تصلح للمنقطعين و للغرباء و المساكين و هى باب من أبواب الله تعالى يتيسر فيها الذهاب إلى المشرق و المغرب لأنها مرسى و فيها أسواق كثيرة فلا تكاد تنعدم فيها الخيرات، و تقضى فيها جميع الحاجات، و فيها غالب الحبوب و الثمرات، و كذا الخبز أعنى الدلاع و جميع الأقوات، و المشتهاة فأقمنا فيها ما شاء الله ثم ارتحلنا منه مع المصرى قرب الزوال إلى قرب الاصفرار فنزل الركب المغربى و معه أهلنا و أنا قد وقع لى غيظ من أجل ظلم الحجاج بعضهم بعضا فأقسمت بالله أنى لا أبيت معهم فسرت مع الركب المصرى راكبا على بغلتى مع بعض أصحابنا و هو الحاج يوسف إلى أن شرفنا على بدر بعد صلاة الصبح و عند طلوع الشمس هبطنا بين الكديتين من الرمل ثم مر بنا على الحجارة المجتمعه التى يظنونها اليوم أنها قبور الشهداء و ليست هى و إنما قبور الشهداء ناحية القرية فوق منزل الركب و قد زرناها و الحمد لله فلما نزل الركب المصرى ذهبت أنا و صاحبى الحاج يوسف الشيبانى إلى قرب القرية لنستظل بظل جدار المدشر فجلسنا هناك ننتظر الركب المغربى إلى أن وصل و نزل أعلى الركب المصرى قرب الجبل و بينما أنا كذلك و إذا بأخينا فى الله سيدى محمد المحفوظى قد رآنى عند السقائف التى تشرب فيها القهوة فأخذ بيدي و ذهب بى إلى شياله المصرى و دخلت خيمته ففرح بى فرحا شديدا فقام فجعل لنا الغداء و تكرم علينا غاية و أخذت فى القيلولة عندهم و كل ذلك أنا و الحاج يوسف المذكور إلى أن صلينا الظهر و زال حر النهر فذهبنا إلى أصحابنا و أهلنا فنزلنا ذلك اليوم و أقمنا الذى بعده و زرنا فيه قبور الشهداء ضحى فاجتهدنا فى الدعاء عندها إلى أن حصل لنا وجد عظيم تكاد النفس تزهق من شدة ما تجلى لها من الأنوار التى هى حاصله منه صلى الله عليه و سلم و من أصحابه الذين قاتلوا هناك رضى الله عنهم و أرضاهم.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤١

و قد قيل أن صوت الطبل الذى وقع به النصر للنبي صلى الله عليه و سلم يضرب هنا و يسمعه من خصه الله بتلك المزية العظمى و قد سمعته فى الحجبة الأولى و فى الثانية و هذه على شك إلا أن بعضهم يقول هو حوافر الدواب تضرب بأرجلها فتسمع كالطبل و قال بعضهم الريح تهب و تلتقى مع بعض الأجرام الخاوية فيردها حائط الجرم فيسمع صوتها كالطبل و هذا من التأويل المرجوح استبعادا لأن يبقى صوت الطبل إلا الآن إعجازا لقدرة الإله بل ذلك سائح و واقع غير مستبعد و هو من معجزاته صلى الله عليه و سلم الباقية إلى الآن غير أن بعض الأكابر الثقات اعترفوا بها و صدقوا بذلك يقينا و بعضهم يقول إنما هو تخيل بعضهم ينكر أصله و يقول بنفيه بل الحق الذى اجتمع عليه أهل الخير قاطبة و أنه واقع قد سمعه خاصة كل ركب بل كاد أن يكون أجماعيا.

نعم قد سمعت ممن يوثق به أنه سمعه الناس فى غير أبان الحج فلم يبق إلا تسليمه أو التصديق به.

نعم الذى يحتاط بنفى ذلك عن نفسه لا أنه يقول لا أصل له أو يؤول أن طبل الناس من المصرى يتأخر فى الطريق فيسمع صوته فيظن الناس أنه طبل القدرة و لو كان الأمر كذلك ما وجد صوته إلا يوم دخول الركب البندر و قد سمعناه يوم الإقامة بعده.

نعم الصوت شاهدناه فى ذلك المحل قطعا كما شاهدنا الأنوار تبرق جهة المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام و إن قال بعضهم أنها أبراق تلمع لأن الحجاز تكثر فيها الرعود و الإبراق غير أنه و ان احتمل ذلك فالحق أن البرق و النور متباينان فلا يلتبس أحدهما بالآخر أصلا و فوق كل ذى علم عليهم.

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤٢

و بدر هذه قرية عظيمة حلوة طيبة روضة من رياض البلدان من رآها يتمتع بنظرها و يشاهد فيها أنوار الجلال، و لوائح الجمال، كأنه

صلى الله عليه وسلم مستقر فيها لم يغب فسورته صلى الله عليه وسلم وصور أصحابه هناك تشاهد لدى المحبين فتنبسط النفس هنالك أتم انبساط فهي تمرح في تلك الرياض، وتتردد في تلك الحياض، فما زالت قائمة على أصول التجليات، والمشاهدات، لأثار النبوة فتجد العارف بالله منشرح الصدر، مستنير السريرة، منور البصيرة، عالي الهمة، قوى المحبة، تعلوه أنوار، وتفتح له أسرار، وتتكشف له أمور فينسى كل قريب له، ومحبه لديه، بما شاهد فكأنه عروس فبدر من أعياد العارفين، ومواسم المقربين، في ضيافة حبيبه صلى الله عليه وسلم ونزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر يطمئن قلبه بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكيف لا وهو محل النصر من الله وأن ملائكته قد قابلت أعداء الله هنالك فلا تعلم نفس ما حصل لمحبيه صلى الله عليه وسلم.

وأن هذه القرية قد توطنها الأشراف ونزلوا بها من قديم الزمان وفيها أهل السنة وكذا الزيدية أعنى الخوارج الظاهرية وهم في الاعتقاد قدرية وفيها نخل كثير وبساتين وماؤها طيب حلو عذب وفيه أيضا بركة تكفي الأمصار العظيمة فضلا عن الأركاب وهي مستمدة من عين هناك وفي بدر توقد النيران الكثيرة والنزهة القوية وهي أزيد من كل بندر بشيء كثير ثم انفصلنا عن هذا المحل على خير وعافية ومنه وفضل عظيم بعد انفصال المصري عند الظهر ومررنا بواد ثم كذلك إلى وقت العصر فصلينا العصر بعد خروج ذلك الوادي فسرنا في أرض متسعة واسعة سهلة طيبة غير أن الهواء تقوى علينا ثم كذلك إلى بعد العشاء فنزلنا والبعض خيم الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤٣

البيوت والبعض إلى أن طلع الفجر وتنفس الصبح ارتحلنا في فرح وسرور ونشاط كبير فرحنا بقرب الوصول والوصول، إلى الأماكن الشريفة وحضرة الاتصال.

نعم تقوى علينا شذاء القرب من الرب الكريم فتشنت الأحوال والنوعت، فربحت تجارة الحاج بمجاورة اللهوت، ثم كذلك إلى أن وصلنا قاع البروة وهي محل نزول الركب عند الزوال فوجدنا المصري إذا راحلا وقد أدركنا آخره فلم ينزل ركبنا هناك بل جاوزنا سائرين آخر المصري ذاهبين معه إلى وقت المغرب فتزلا وبتنا والحمد لله في عافية وسرور بقربنا مكان الإحرام والمصري سائر على حاله إلى قرب طلوع الفجر فارتحلنا منه آخر الليل ثم كذلك مجدين السير إلى منزل يقال له مستورة وهي بلدة طيبة ووصفها كما ذكره شيخنا سيدي أحمد بن ناصر.

ثم ارتحلنا منها أيضا فجد بنا السير ليلا وسرنا في الليل إلى وقت الضحى فقربنا منزل رابع نعم دخلنا وادى رابع من جهة المغرب عند قوة حر النهار قرب الزوال [فدخلنا رابع ووجدنا المصري قد خيم فيه ونزلنا فوقه قبل الزوال] وبعض الركب يستظل بالنخل والبعض بالبيوت إلى أن حان وقت الظهر فصلينا الظهر ثم أقمنا نستعد لأحوال الإحرام، وكثير من الركب لا يعرف أحكام الإحرام، فصار جميعنا معشر الطلبة نعلمهم فرائض الإحرام، وسننه وشرائطه وموانعه والناس كلهم ذكور وإناث في غسل وغتسال، وغسل ثياب و موانع الإحرام في انتقال، حتى قرب وقت العصر فآن إحرام الكل فشرنا عن ساعد الجد، ليتأهب جميعنا لما فيه الكمال بالكبد، ورمينا ما كنا بصدده من مجاورة الضد، ونبذنا ما كنا عليه من مجاوزة الحد، بل طوينا مسافة الإعراض، ومتابعة الدنيا وما فيها من الأغراض، وسعينا لما فيه رضاه، وفعلنا ما أمرنا به وارتضاه، وأزلنا ثياب الحياة، ولبسنا ثياب الممات،

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤٤

وحظناها كاللكن، وأيقظنا العيون والجفن، وقصدنا بالإحرام الانسلاخ، من طبائع الاجباح التي هي كالسباح، فوجهنا النفوس لعلام الغيوب، وما مسنا في ذلك من لغوب، ولبسنا الأزرار والرداء، وتركنا ما طغى منا واعتدى، وأزلنا أيضا المخيط والمحيط، ليتسع الوارد علينا وينبسط، ويتحلى كلنا بالرضى وما به الإنسان يغتبط، فالحج قصد للمولى، وارتباط وترق لمراتب العلى، بعد غسل القلب من الأدران، ويطلب حينئذ المحرم غاية الغفران، ويتهيأ للوصول إلى ما به الامتنان، سمعا وطاعة لما فيه رضى الرحمان، فصلى المحرم ركعتين، على نوعى الكونين، فبالتكبير لم يبق فيه قلبه أحد الثقيلين، فلما استوى قائما في حضرته، قال لييك اللهم لييك وسعديك في فضله ورحمته، فقال له الرب جل جلاله تفضل عليك الإله بمنته، ثم تجلى بما هو أعلى فتدلى له ربه وهو في منصبته،

فكان أقرب إليه، من ريقه في فيه، قريبا من سطوته، فصار محرما بإحرام البشر، وهو في الحقيقة غيب نفسه عما لا يعتبر، وعن الأكوام بمشاهدة المكون ولكنه الذات يعتمر، فأناخ نفسه ليحمل عليها أعباء التكليف، ويشد عليها أحمال الحقيقة مع الهودج من التعريف، فجمع بين الذكر والتذكر، والسعي والتفكير، والمعرفة والشكر، متوجها لبيت الله الحرام، بالشوق والعشق وقوة الغرام، فركب مركوب العز والتقوى، ونال من الله الفوز والقرب والغاية القصوى، حينئذ قد زالت بشريته، وانبسبت عليه روحانيته، فإذا نطق نطق به، فيه يسمع ويبصر به، هذا هو الإحرام على التحقيق، وصاحبه معزول عن التعويق.

نعم هذا صاحب الإصابة والسعد والتوفيق وهذا رابع، مشتهر وسائح، ورضه العز والدنو والقرب، وفيه المشاهدة والمجاهدة والحر، والإغاثة من كل شدة وكرب.

هذا وانه قرية عظيمة كثيرة المزارع والمقائى والنخل والمياه وسوقها عظيمة

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤٥

وفيها النعال الكثيرة مستعدة للبيع قبل أوانه، مدخرة لزمانه، غير أنها غائلة الأثمان، وبعد امتثال الناس أوامر الرحمان، انفصلنا في غاية المنه والفضل والشكر لله تعالى لما وصلنا إلى ميقات الإحرام فلم يعقنا عائق، ولا أرهقنا شيء مانع غير لائق، فانفصل الكل بالتلبية والإحرام، مع الخضوع والخشوع والدعاء لجميع الأنام، بالتقشف والتذلل للرب الكريم شعنا غيرا منكثين الرءوس، فرارا من غضب الله والمقت والباس والبوس، يطلب جميعنا رحمة المنان، والمغفرة والعفو من الرحمان، قد أصابنا شدة الحر، حتى انسلخ الجلد عن الرأس والظهر، فما أروعى أحد بذلك، ولا رجوع وانزجر بما هنالك، لعل الله أن ينظر إلينا بعين الرحمة، ويغمس جميعنا في بحر النعمة، حشا من كريم أن لا يمن على وفده بجنة الرضوان بذهابه وعوده ووقت انفصالنا عنه بعد صلاة العصر بمدة بل قبل الاصفرار سائرین فصلينا المغرب ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء كذلك ساعة طويلة نزلنا فبتنا خير مبيت وأقمنا ليلا فارتحلنا في مدة من الليل ننتظر الصباح إلى أن صلينا ثم كذلك و كان ذلك اليوم يوم حر شديد بحيث لا يقدر الإنسان أن يقف للشمس حتى أصاب الحر كثيرا من الناس فحملهم ذلك على أن غطوا رؤوسهم لأن الدين يسير و لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه والله تعالى يقول: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ إِلَّا جَمَاعَةً الْأَفْضَلِ فلم يغط أحد رأسه وهو الفاضل سيدى احمد الطيب ومثله سيدى أحمد بن حمود وسيد محمد الشريف الطرابلسى والفقير سيدى أحمد عياض وسيدى محمد بن خنوش رحمه الله وأصحاب الجميع كالأشراف منا وكذا أهل وطننا فلو غطينا رؤوسنا ما بقى أحد إلا غطى رأسه وأما أمير الركب فقد غطى رأسه وكذا جميع من كان معه من كبار الركب وبالجملة فلما اشتد الحر علينا غطى جل الناس رؤوسهم لقيام العذر بل كاد أن يكون ما فعلناه من عدم التغطية أن يكون منهيًا عنه نعم ثم سرنا كذلك فى تلك

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤٦

الرمال أول النهار غير أن فيها حرا عظيما من طلوع الشمس إلى غروبها إلى أن نزلنا قديد وهى قرية غالب أبنيتها حيشان وقهاوى وفواكه تباع ولا ماء فيها إلا ما يسقى من بعيد نزلنا عند الظهر وما خرجنا من تلك الرمال القوية الواسعة التى تتيه فيه الأركاب بعض الأحيان إلا بمشقة عظيمة.

وقد بتنا فى قديد ثم ارتحلنا منه آخر الليل سائرین إلى طلوع الفجر فصلينا الصبح فى جماعة ثم ركبنا و سرنا كذلك إلى عقبة السكر فصعدناها وهى صعبة على الجمال والرجال لا سيما من صعداها فى زمان الحر غير أن من علم قرب الوصول إلى مكة المشرفة هان عليه أمر ذلك وسهل عليه حالها وأشرفنا على الكدية التى بها البناء المعلوم وفيها أبنية كثيرة نعم من وصل هناك شم رائحة الجوار واستراح من التعب بل الإنسان يغيب عن حسه إذا وصل إلى ذلك الموضع ويتقوى عليه شذاء تلك الأماكن العالية والمواقع الطيبة فلا تجد أحدا إلا انبسط وجهه وانشرح صدره وتمكن قلبه واطمأن بالله صدره وطابت بذلك نفسه وبتجلى البيت انخشع قلبه وتزاحم الأركاب وتلاحم حتى لا ينعطف بعضهم على بعض رحم الله الجميع بمنه وكرمه.

وقد زرنا ذلك المسح و قد قيل فيه مسجد للنبي صلى الله عليه و سلم و لما هبطنا تلك العقبة سرنا فى طريق ذات أحجار كثيرة و أوعار صعبة بينها و بين خليص ثلاثة أميال فسرنا غير بعيد إلى أن دخلنا على خليص و فيه عين جارية قوية ساقيتها مبنية محكمة البناء لا تجد أعظم منها بناء و فيها بركة عظيمة عميقة يعطب فيها من لا يحس السباح لعظمتها و منها تجرى ساقية إلى أرض الحرائث و فيها مزارع و مقاشى و بساتين و أكثرها الدخن و فيها قرية حلوة طيبة لا يكاد الإنسان يحزن فيها بل داخلها منبسط

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٤٧

على الدوام إذ يغلب آثاره صلى الله عليه و سلم فيها و يتقوى شهوده بتحقيق النظر فيها ما أعذبها من قرية و ما أحلاها من منزلة و أسعده من موضع كأنه صلى الله عليه و سلم خيم هناك فترى الأنوار ساطعة و اللوائح مشرقة، و لوامع النبوءة منبججة، و سر الكائنات صلى الله عليه و سلم يلاقينا بالرحب و التكرمة و التحية الطيبة و الأوصاف السنية صلى الله عليه و سلم و شرف و كرم فقد زال الحجاب عن الخاصة من خلقه فشاهده محسوسا طالعا فى فلك الأقبال، و أزهى نوره فى عوالم الوصال، تغدر الحجاج خماسا و تورح بطانا بالتمتع بالنعيم الشريف، الذى لا يكيف، فلا يدرك إلا بذوق مثله و فى خليص تنعم النفس برؤية من الكمال التام و الشفاعة الكبرى صلى الله عليه و سلم و حينئذ ترى الوجوه تتألألأ- نورا إذا هب عليها نسيم الوصل فيتعطر شذاء قرب المنزل فتكون النفس شائقة خافقة فيردها قفص البدن فيعصهما اللطيف القوى فيحنئذ نظر الوعد الربانى، و الفتح الصمدانى، ساعئذ أن لم يصيبها وابل فطل.

و قد نزلنا خليص عند الضحى الأعلى إلى وقت الظهر فصلينا فيه جماعة و بين الظهر و العصر انفصلنا من خليص و ارتحلنا منه إلى أن حان وقت العصر فصلينا جماعة ثم كذلك إلى قرب المغرب أشرفنا على العقبة التى يصعد منها إلى الثنية التى يهبط منها إلى عسفان عند المغرب و الطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارها كعقبة السكر إلا أن هذه أطول منها و أسهل و بأحد جانبيها مسجد.

فلما خرجنا العقبة وصلنا عسفان و مررنا كذلك عند العشاء سائرين غايه الناس أن بعضهم شرب من ماء عسفان تبركا بآثاره صلى الله عليه و سلم إذ قد قيل أن ماء بئرها كان مرا فتغل فيه صلى الله عليه و سلم فصار حلوا طيبا و ماؤها عذب كماء خليص و ان كان سخنا و هذه البئر التى تغل فيها صلى الله عليه و سلم سمعنا بها قبل

الرحلة الورثيانية، ج ١، ص: ٤٤٨

و ليس ذلك من ألسنة العوام فقط كما قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر بل سمعناه من أهل العلم بل من كتب التاريخ نقلناه و فى خليص مسجد و لا- أدرى أنه للنبي صلى الله عليه و سلم أو لا- و سرنا ليلا- و قطعنا تلك المفاوز بل لم انفصلنا عن خليص فى ليلة مقمرة بعد صلاة العشاء بأمد سمعنا النساء يصرخن و لهن صوت التلول كان عروسا تزف لزوجها و صوت البنادق و البارود و غير ذلك من أصوات الناس [التي تدل على الفرح فلما سألنا عن السبب قالوا نوره صلى الله عليه و سلم هو الذى يلوح و يلمع] فلما نظرنا أبصرنا نورا يلمع و يلوح جهة اليسار نحو المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام يلمع كالبرق و هو يخفص غير انه ليس كالبرق لأن له لونا يخالف سائر الألوان كأنه حديث عهد من ربنا طرىء النزول، ليم سرور الحاج و يستبشر بالقبول، و يترقب كرامة النزول، فلا أقل أنه من كرامة الحاج و ان احتمل أن يكون من البرق لكثرة رعود أرض الحجاز نعم الرعد بين و علامته ظاهرة و آثاره سحب و تغير فى الهواء بالتحرك و ان لم يكن معه مطر.

و أما ما وقع هذه الليلة فلا رعد و لا ريح و لا حركة و لا تغير فى الهواء بل و لا سحب أصلا و لا غيم بل السماء صاحية و ليس فيها شىء من السحاب أصلا و إنما هو النور الذى تواتر نقله عن الحجاج قديما و حديثا لا مجال لجحوده فهو من فضل الله الذى يجب الإقرار به إذ ليس خاصا بأحد حتى يقع للإنسان فيه شك أو طروق احتمال خوفا من الاستدراج أو تمكن به النفس الأميارة و قد اتفقت كلمة الناس من القرون الماضية و العلماء السالفة و الصلحاء الخالية و الأولياء السابقة و العامة و الخاصة أنهم يرونه و أنهم يعرفون حال البرق فلم يحصل لهم شك أنه ليس هو بل أطبقوا على أنه نوره صلى الله عليه و سلم فمن طرّق الاحتمال فيه فقد طرق

الاحتمال

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٤٩

فيما لا- يخفى انه نور لأن البرق لا يلزم جهة المدينة المشرفة وإنما يختلف بحسب الجهات وهذا لا يرى إلا من جهة طيبة كما شاهدنا في غير هذه الحجة وهذا معلوم عند الحاج سابقا ولا حقا فلا يخفى أمره والله اعلم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده ثم أعلم لما سرنا كذلك إلى مغيب القمر نزلنا وبتنا مفترقين وأنا تهنا أعنى الركب شيئا قليلا عن الطريق غير أننا سبقنا أول الركب فلما قرب طلوع الفجر ارتحلنا و سرنا إلى أن صلينا الصبح في جماعة فقطعنا المفاوز و بعد الضحى الأعلى دخلنا الشجر القريب من الجبل المشرف على وادي فاطمة يسمى جبل العميان الذي يجتمع فيه الفقراء لقاصد الإحسان نزلنا بالوادي و هو نهاية سير البوادي عند الزوال بل قبله بقليل نعم الحر في ذلك النهار قوى عظيم كأن النار اضطربت في الأرض و اشتعلت فيها بحيث لا- يستطيع أحد أن يصل إلى الماء و إلى السوق فلما تحرك نسيم الرواح، [و استبشرت الناس بالأرواح، أذهب علينا ريح التلاقي بالغدو و الرواح]، لم يبق لنا نص و لا- تعب لما ذاقته الأرواح، من لطائف الوصل بالمحجوب، و قرب مشاهدة جوار علام الغيوب، لا خير في أوقات الحياة سوى وقت رؤية آثار المحجوب، فتراحمت الواردات الإلهية على القلوب، فزال السدد عن أقفالها من غطاء الحجب، فلا- يسمع المحب حسييسن اعتراض النفس، و في ذلك الوادي ما تشتهي النفس، و تلذ الأعين لا سيما فتوحات الجبار، ترد هناك على الإنسان من غير اختيار، فليس على مثله للإنسان اصبطار، أن رحمة الله قريب من المحسنين بلا افتخار، و في هذا الوادي مياه كثيرة، و عيون جارية، و بساتين مشهورة، و مزارع قوية و فواكه مختلفة، نعم بقينا هناك إلى أن حان وقت العصر فصلينا جماعة ثم تأهبنا للرحيل فلما حان وقت العشاء ارتحلنا من الوادي بفرح و سرور بالوصول

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٥٠

إلى بيت الله الحرام، و كل ما أصابنا من تعب و نصب كطيف المنام، فلما حصل المطلوب، و بلغنا غاية المأمول و المرغوب، استبشرنا برسوم الحرم و زوال الكروب، بفضل الله قرب النائي و الصعب، إذ لو لا ذلك ما تيسر بالكد و الحرب.

ثم سرنا كذلك بنية الخشوع و الإنابة، و الخشية و الخضوع و المهابة، إلى طلوع الفجر و صلينا الصبح جماعة ثم ركبنا و سرنا إلى أن وصلنا قبر السيدة ميمونة زوجة النبي صلى الله عليه و سلم و قد تزوجها في هذا الوادي كما سبق فزرنه بنية خالصة من غير دخول للروضة إذ أدب من يزور نساءه صلى الله عليه و سلم لا يدخل محل البناء بل يزورهن من خارج كأنهن حال حائتهن رضى الله عنهن و على قبرها بناء و مسجد فعظمتها من خارج و في ذلك مصلى للنبي صلى الله عليه و سلم فمن وفق يركع فيه.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى التنعيم صبيحة قبل الشروق و فيه مسجد لعائشة رضى الله عنها كما سبق ذكره و في ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم و غيرها ثم سمي هذا المكان [باسم ما يقع فيه توسعا و مجازا و هو أدنى الحل فيطلق عليه اسم العمرة لأن المحرم بالحج أو العمرة لا بد أن يحرم من الحل و أدنى الحل هذا المكان] ثم سرنا فوصلنا إلى الزاهر و قد قيل انه ذو طوى فيغتسل فيه استجابا داخل مكة و الحق إن ذا طوى هو القريب لمكة و ليس بينه و بين مكة واد آخر و هو الوادي الذي وراء قيعقان و بأسفله الموضع المسمى بالشبكة حيث الثنية السفلى الذي يخرج منه الحاج فأعلى الوادي هو ذو طوى فزرنه التنعيم ثم سرنا إلى أن وصلنا

الرحلة الوريثانية، ج ١، ص: ٤٥١

ذا طوى وقت الضحى فقرت الناس على الاغتسال من غير نزول فخيّم بعض الناس الخيام للستر في الغسل فخيّمنا خيمة لا فاغتسلنا نحن و الأصحاب غسلنا من غير ذلك خشية قتل بعض الدواب حسبما هو غسل المحرم فلما اغتسلنا ركعنا ركعتين للضحى و وظيفة الطهارة لما ورد عنه صلى الله عليه و سلم من أحدث و لم يتوضأ فقد جفانى و من أحدث و توضأ و لم يركع فقد جفانى و من أحدث و توضأ و ركع و لم يدع فقد جفانى و من أحدث و ركع و دعا و لم أجه فقد جفانيته و أنا لست برب جاف فرك كل منا

ركعتين من وظائف الوضوء و منهم من صلى الضحى أعنى الذى يلازمها فلما حصل كل فضيلة ذى طوى قام الركب على ساق الجذ و الحزم لدخول مكة المشرفة فركب من ركب و مشى من مسى فاستقبلنا جبل قيعان و صعدا إلى الثنية قاصدين أم القرى أعنى مكة و دخلنا من باب المعلى.

و هى الثنية العليا التى دخل منها صلى الله عليه و سلم سيد الأولين و الآخرين عليه أفضل الصلاة و السلام و إنماها و أعطرها و أزكى هى المسماة بكداء فتح الكاف.

و قد بالغ الولاة فى حفر هذه الثنية و تنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة و مع ذلك ففيها صعوبة و منها يشرف الإنسان على مقبرة مكة المسماة بالحجون و هى إحدى المقابر التى تضىء لأهل السماء كما تضىء الكواكب لأهل الأرض كما ورد فى الحديث عنه عليه الصلاة و السلام.

المجلد ٢

دخولنا مكة المشرفة زادها الله تشريفا و تعظيما و تكريما

إشارة

فدخلنا مكة فلم تغادر فى النفس ترحه، و أزالنا عن الجفون كل فرحه، فدخلناها فى زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب و النصب كأن النفوس فى وليمة عظيمة لا يعلمها و ما فيها من الفرح إلا من منحه الله بل الأرواح قد تجلى عليها ربها فخرت صعقة مغشية عليها فغيبها عن الأكوان كلها بمشاهدة مكوناتها و من جملة من غابت عنه هذا الغيب فلم تكثر بما أصابها من الهم و المشقة فلما هب نسيم جوار الحبيب عليها أيقظها و أشهدا رسوم مكان الوصال، و دلائل الحضرة و سواطع الانتقال، فعلمت بيت الرب، و تعلق به الجبح و اللب، سدل كل حبيبت سوى هذا الحبيب وراءه، فأقام كاس الجوار و أداره، و صار شذاؤها انتظاره، فهبطنا منحدرين إلى أن وصلنا قرب البيت فدخلنا المسجد من باب بنى شيبه، فأفاض الله علينا من جوده كرامه و هيبة، فظفرنا بالأمن و الأمان و السلام من باب السلام.

ثم أقول كما قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه فشاهدنا البيت العتيق الذى تزيح أنواره كل ظلام و قد تدلت أستاره، و أشرقت أنواره، و قد شمر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون به ذلك من أول تقدم الوفود، و لا يطلقون أستاره حتى تعود.

قال الإمام أبو سالم و قد قلت فى هذا المعنى، و أبديت فيه تشبيها غريب المبنى:

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٥٣ فكأنه لما بدا متشراو الطائفون به جميعا أحدقوا

ملك همام ناهض للقاء من قد زاره و له إليه تشوق

فتبادر الغلمان رفع ذيوله حتى إذا رجعوا أطلقوا

قال و من رأى أكابر الملوك عند قيامهم، و تسمير الغلمان لفاضل الذبول عن يمينهم و شمالهم، علم غرابة هذا التشبيه و حسن موقعه، و أنه واقع فى موضعه، و علم ما بينه و بين من شبهه بهند و ليلى، و انه لم يجد و صفا و لم يحسن قولاً، فلما وقعت عليه أبصارنا، و افتضح ما أكنت من الشوق إليه أسرارنا، قطعنا التلبية لما رأينا، و قلنا من الدعاء ما روينا، و تجلت لنا الكعبة الشريفة، و رأينا جماعة الناس بها مطيفة، فيا لذلك المنظر الذى ملأ القلوب مهابة، و العيون جلاله تسكن لها الرياح الهابة، و لما تطوفنا من الجرد قبل ما تطوفنا به عقدا نظيما، رفعنا أيدينا و قلنا اللهم زد هذا البيت تشريفا و تعظيما، بعد أن بسمنا و سلمنا و صلينا و هللنا و طبنا، و للحجر الأسعد يمنا، و لم نقدم على تقيله شيئا، و لا التحفنا من ظلال غيره فيئا، و قبلنا يمين الله فى أرضه، و الشاهد لمن قبله فى يوم عرضه.

إلى سيد الأحجار في الحرم الذي قضى الخالق البارئ بتعظيم شأنه

حثنا مطايا الشوق و السوق في الفلاجات بنا إنسان عين زمانه

و طفنا بالبيت سبع طوفات، للقدوم نوبنا هذه الحركات، فأتتمناه و لم نبال بما لنا في تقبيل الأحجار من الازدحام، و المورد العذب كثير ازدحام، و بعده أوقعنا ركعتين خلف المقام، و عدنا للبيت فوقنا بالملتزم، و شربنا من ماء زمزم، و دعونا في ذلك كله بالأدعية المأثورة، و نظم كلماتها المنثورة، فعاودنا بالحجر بالاستلام، ناوين سنة السعي كما ورد عنه عليه الصلاة و السلام، فخرجنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا، كما روى عن معدن الصفا، و بدأنا بما الله به بدا، فارتقينا على الصفا، و وقفنا،

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٥٤

و للكعبة الشريفة استقبلنا، فهللنا و كبرنا، فوشينا الصحف بالدعوات المأثورة إلى أن قال و سعينا بين الميلين الأخضرين سعيا رفيقا سديدا انتهى.

ثم اعلم أننا خيمنا بوادي سيدى أبى طالب و المسجد الحرام و ذلك الوادي تحت أبى قبيس فذهبنا كما سبق إلى المسجد فدخلنا من الباب المذكور، و قلنا الدعاء المأثور، عند رؤية الكعبة حسبا ذكره شيخنا آتفا فلما دخلنا المسجد بالذكر الوارد فيه قصدنا المطاف لطواف القدوم فبدأنا بتقبيل الحجر مع الزحمة العظيمة من الرجال و النساء فاكثفى الكثير منا بالتكبير و معى جماعة كثيرة تكاد أن لا تحصى أطوف بهم علمتهم كيفية الطواف و من الحجر البدء إلى السبعة الأشواط و كان البدء من الحجر الأسود غير أن من قبله أمرته بالبدء من مكان يحاذيه و لا يتم الشوط إلا من ذلك المكان الذى به البدء و كذا أمر المقبل للحجر الأسود للرجوع إليه إذ ربما رجع منه مقهقرا فينقض له الشوط حسبا يفعل الجاهل فطفت بهم طوفا كاملا بشروطه و انتفاء موانعه مع الدعاء الوارد فيه أعلمهم إياه و لما رأى أهل مكة فعلى ذلك تغيروا و قالوا ألم تعلم أن أهل مكة لا ينتظرون إلا هذا الموسم فقالوا طف لنفسك و اترك الناس فقلت أنا أطوف بهم و أعلمهم و انتم خذوا الأجرة منهم فلما كملنا الأشواط السبعة صلينا ركعتين خلف المقام و بعد الفراغ منهما أقمنا بالملتزم لأن الدعاء به مستجاب بعد أن شربنا من ماء زمزم و سألنا الله فيه ما شاء الله ثم مشينا للحجر قمنا من قبله و منا من كبر عنده لكثرة الزحمة فذهبنا للسعى فى حر عظيم و ازدحام قوى فبدأنا بالصفا و صعدنا درجها إلى أن رأينا لكعبة كما هو السنة فدعونا الله بالدعاء الوارد فيها فمررنا كذلك إلى المروة ثم كذلك إلى تمام السبعة فلم نكمل السعى حتى اشتد على الحال فظننت عدم التمام فكملمته راجلا بمنه الله و الفضل من السلام لأن محل

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٥٥

السعى محل شوق عظيم و ازدحام عظيم.

و أقول كما قال شيخنا ما نصه و لو أيقظ الله الأمراء لمنعوا الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان فى ذلك نفع كثير و أجر كبير فلما قضينا الوطر من العسى نزلنا بذلك الوادي ثم أننا أكثرينا دارا مع أصحابنا معلومة طريقها و الله أعلم من المروة غير أن أهلى ما دخلوها إلا بعد الرجوع من عرفه و نحن بتنا فى ذلك الوادي أى أهلى و أصحابى و أما أنا فقد بت فى الحرم و الله أعلم و بعد ذلك اليوم هو يوم الذهاب فيه لمنى ثم إلى عرفه ثم إلى مزدلفة فى الرجوع.

نعم حين نزلنا مبكئة طفنا نهارا أى الرجال و أما أهلى النساء و كذا نساء من يحجب من الركب أى المخدرات طفن طواف القدوم ليلا فبعد ذلك اليوم عند صلاة العصر ارتحلنا إلى منى اليوم الثامن من ذى الحجة فانفصلنا عن مكة فى ازدحام عظيم من كثرة الأركاب.

و فى ذلك اليوم قتل لى جملا طيبا قل نظيره سيدى محمد ابن سيدى خروف تلميذى فنزلنا بمنى قرب مسجد على أى استندنا لحائطه من جهة اليمين بينه و بين الجبل الذى فوقه و هذا المسجد الدعاء فيه مقبول مستجاب و ورد فيه فضل عظيم، و ثواب جسيم، و الصلاة فيه كذلك فصلينا فيه المغرب و العشاء و إن بعض الأركاب من المصرى و الشامى و العراقى و المغربى لم يرحل إلى نصف الليل أو الثلث الأول ثم ارتحلوا إلى عرفه فترك الكل الفضيلة و هو النزول هناك إلى شروق الشمس على ذلك الجبل فلما تحرك الكل إلى

الرحلة وقع الكلام في ركبنا بالرحلة ليلا فتشاورنا على المبيت ثم مرة أخرى تحركوا ظنا منهم أن من رحل ليلا ليدرك المبيت في عرفة لأنها ليلة شكتم أن الجميع ارتحل فارتحلنا. فلما خرجنا من مزدلفة و وصلنا بينها وبين عرفة طلع الفجر أى بين العلمين فوجدنا أكثر الأركاب هناك نائمين أو الكل والله

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٥٦

اعلم و بطل ظننا الذى أنهم ارتحلوا ليدركوا الوقوف ليلا فى عرفة فوصلنا ضحى مسجد نمره الذى ينبغى الجمع بين الظهريين فيه بالقصر و لو لأهل مكة أى لغير أهله فنزلنا ثم كذلك إلى قرب الزوال فاغتسلنا أيضا الوقوف بين ذلك المسجد و مسجد عرفة فامتأ المسجد ناسا و كذا مراحه و اشتد فيه الحر بحيث لا يقدر أحد أن يضع رجله على الأرض عند الضحى و ورد على رجل ضرير فقيه عظيم يحفظ أكثر الشراح و هو مالكي من جزيرة العرب أعنى البحرين فلما سأته عن أكثر أهلها فقال مالكيون نعم مسائل الفقه كلها أوجها على طرف لسانه ليس يبغى إلا رضاء الله تعالى فجدير على أنه من أهل الفضل و الكمال و وعدنى بالملاقاة بالمسجد الحرام ثانيا فلما حان وقت الظهر صلينا فى زحمة عظيمة يكاد الإنسان أن يموت من شدة الحر و أن العرق علينا يسيل فلا تجد أحدا إلا كاد أن تزهق روحه فصلينا خلف واحد من الأئمة و نوينا القصر و صلى هو بالإتمام من علم منا لما فرغ أعاد جميع أهل بلدنا و هو أننا نوينا القصر و نوى هو الإتمام فلما اختلفنا فى النية بطلت صلاتنا ثم أعدناها جماعة جمعا و قصرا ثم حثنا مطاينا للوقوف بعرفة إلخ. فلنرجع إلى ما ذكره شيخنا و نصه و الله اعلم بما نال وفد الله من الطرب و الفرح، و نسيان العناء و الترح، لما عاينوا تلك المشاهد، و شاهدوا تلك المراسم و المعاهد، فلا ترى إلا ضاجا بالذكر، و صارخا بالدعاء بالسر و الجهر، كما قال قائلهم و لله دره:

و ما زال وفد الله يقصد مكة إلى أن بدا البيت العتيق و ركناه

فضجت وفود الله بالذكر و الدعاو كبرت الحجاج حين رأيناه

و قد كادت الأرواح تزهق فرحة لما نحن من عظم السرور شهدناه

تصاحفه الأملاك من كان راكباو تعتق الماشى إذا تتلقاه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٥٧ و طفنا به سبعا رملنا ثلاثة و أربعة مشيا كما قد وعدناه

كذلك طاف الهاشمى محمدطواف قدوم مثل ما طاف طفناه

و سالت دموع من مآقى جفوننا على ما مضى من أثم ذنب كسبناه

و نحن ضيوف الله جئنا لبيته نريد القرى نبغى من الله حسناه

ينادى بنا أهلا ضيوفى تباشروا قروا عيوننا بالحجيج أضفناه

غدا تنظرون فى جنان خلودكم و ذاك قراكم مع نعيم ذخرناه

فأى قرى يعلو قرانا لضيفناو أى ثواب فوق ما قد أثبناه

و أبدانكم قد طهرت من ذنوبكم و ما كان من رين القلوب غسلناه

و كل مسيء قد أقلنا عثاره و لا وزر إلا عنكم قد وضعناه

و لا نصب إلا و عندى جزاؤه و كل الذى انفقتموه حسبناه

سأعطيكم أضعاف أضعاف ضعفه فطيبوا نفوسا فضلنا قد أفضناه

رفعت لكم ما لم تر العين مثله و لا علمت نفس ما قد رفعناه

فيا مرحبا بالقادمين لبيتنا إلى حججتم لا لبيت بنيناه

على الجزآ منى المثوبة و الرضى ثوابكم يوم الجزآ نتولاه

و جاهى و أجلالى و عزى و رفعتى و جودى و من قد أمنا ما رددناه

فطبيوا و سروا و أفرحوا و تابشروا و تيهوا و هيموا بابنا قد فتحناه
و لا ذنب إلا قد غفرناه عنكم و ما كان من عيب عليكم سترناه
فهذا الذى نلناه يوم قدومنا أول ضيق للصدور شرحناه

و لما كان اليوم الثامن هو يوم التروية و زالت الشمس طفنا فخرجنا لمنى إذ السنة
الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٥٨

الخروج وقتئذ بقدر ما يدرك به الظهر كل على قدر حاله فإن المراد بقولهم يدركون بمنى الظهر أى يدركون أواخر الوقت المختار و
يكره التراخى عن ذلك إلا لعذر كما يكره التقدم قبل ذلك و من خاف خروج وقت الظهر قبل أن يصل إلى منى صلاها فى الطريق
و تردد مالک فى قصره و إتمامه و استحسنت سند القصر.

تنبيه الطواف يوم التروية ذكره أبو الحسن قال أبو الحسن فى مناسكه و إذا كان اليوم الثامن و يسمى يوم التروية طاف سبعا بعد الزوال
ثم يتوجه إلى منى مليبا و السنة أن يخرجوا بقدر ما يدركون بمنى الظهر و كذلك ذكره خليل فى مناسكه و نصه ثم إذا كان اليوم
الثامن و يسمى يوم التروية فإذا زالت الشمس منه طاف بالبيت سبعا ثم يخرج من مكة إلى منى مليبا و فى مناسك ابن هلال ابن
حبيب و غيره إذا مالت الشمس يوم التروية فطف بالبيت سبعا ثم أركع ثم أخرج إلى منى و كذا فى مناسك ابن فرحون.

و إنما ذكرت هذا لأننا لما أردنا الخروج إلى منى و أنكر بعض أن يكون الطواف وقتئذ عن أهل المذهب و لعله اغتر بما حكاه ابن
المنير و الدمامينى و ابن حجر عن مالک من أن الحاج لا يتنفل بطواف بعد طواف القدوم حتى يتم حجه فإن ذلك غريب ذكره
الخطاب فى مناسكه و مررنا بمسجد العقبة و دخلناه و صلينا فيه و دعونا الله تعالى و كان نزولنا بمنى شرقى مسجد الخيف قريبا من
بابه الشرقى و صلينا بمسجد الخيف الظهر و كذلك العصر خارج القبة التى التواتر أنها موضع خيمة مولانا على كرم الله وجهه.

و اجتمعت هناك بالشيخ محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن مفتى الهند و هو

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٥٩

رجل عالم له تأليف على رجال البخارى و اختصر البخارى فى مجلد خذف الأسانيد و المكرر و هو ضرير كبير السن به مرض ملازم
بيته و يوم النحر قدمناه من منى للإفاضة و لما رجعنا إلى منى التقينا محفة و بها رجل كبير مستلقى و لما لحق بنا الأخ الشقيق الصالح
سيدى محمد الأخصاصى أخبرنى أنه هو و أخبرنى ولده الشيخ محمد انه شرح نخبه ابن حجر عشرين كراسه و له تأليف فى الرد على
الروافض و هو رجل صالح محقق فيما ذكروا و سألناه عن المسافة بيننا و بين الهند فقال أربعون يوما فى البحر و أربعة أشهر أو ستة فى
البر و أن بلده هو السند و بينه و بين الهند ثلاثون يوما انتهى.

و لما صلينا العصر و جلسنا فى مناخنا هنيئة إذ أخبرنى بعض أصحابنا أن أهل تونس زعموا أنهم رأوا الهلال ليلة الثلاثين و الراؤن له
سبعة أحدهم من طلبة العلم و سألنا عنهم لنستخبر رؤيتهم فنكون على يقين من أمرهم فوجدناهم ذهبوا مع الذاهبين لعرفة لأذن
الأركاب كلها ذهبت كما هى للجبل و لم ينزل أحد بمنى سوانا و جماعتنا و هذه السنة عيادا بالله أميتت منذ أزمان.

و قد ذكر ذلك الكثير من المرتحلين كالعبدرى و ابن رشيد و من بعدهما و ذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب
الاركاب و قد من الله علينا بإحياء هذه السنة و لم تفتنا فى حدة من الحجات و لله المنه و الحمد و لما طرق أسماعنا ما ذكر من الخبر
عن التونسيين اجتمع رأينا على الذهاب وقتئذ لعرفات فنستيقن الخبر فرحلنا وقتئذ و بلغنا نمره و قد غاب الشفق و بتنا بإزائها فإذا بخبر
الرائين خبر سجاج، ثم اضمحل مدارج الرياح، و لا هدى علينا فى ذلك على ما شهر فى المذهب و نقل التادلى و الجزولى عن ابن
العربى انه يلزمه الهدى و لم يحك غيره فى سقوط الدم خلافا و من تورع فليهد و لا حرج عليه فيه و نزل بإزائنا الشيخ عبد القادر بن

أبى بكر مفتى

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٦٠

الحنفية و أتاني ضحى مع ولدين صغيرين له و سألته عن البناء القائم الآن بمسجد الخيف و نمره و أخبر انه بناء قايت باى و لما زالت الشمس أفضنا علينا الماء للإحرام و اغتسلنا غسلا خفيفا و تلك سنه هذا الغسل و جمعنا بين الظهرين مع أصحابنا و من انحاز إلينا من أهل الافاق باذنين و بأقامتين و تقدمنا إلى المنوقف و وقفنا تحت الجبل الذى عليه القبة المنسوبة لأدم عليه السلام و الخطيب لم نر له شخصا و لا سمعنا له صوتا و إن لم يكن بالبعد منا لكثرة الازدحام و اختلاط الأصوات، مع اختلاف اللغات، و تباين الرغبات بأصوات التلبية لاشتراك الكل فيها و لا سبيل لأحد إلى تغييرها و وقفنا على إبلنا و أرحنا بغالنا اغتناما لبركة سنه سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و لم نزل فى موضعنا ذلك واقفين مستغفرين مكبرين مهللين داعين إلى أن غربت الشمس تحققنا أنا أخذنا جزءا من الليل فإذا الإمام نفر و نفر الناس و نفرنا معهم فى زحمة محفوفة بالألطف، مصحوبة من الله بالمواهب و الإتحاف، و لم نر أحدا نفر قبل ذلك فى سنتنا هذه و إن كانت الجمالون و الأعراب تنفر قبل ذلك فى غير هذه السنه و الحمد لله على ذلك فانصرفنا بين المأزمين بلا كلفة و لا تعب و لما وصلت إلى الشعب ملت إليه ففعلت كما به فعل سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم.

ثم سرنى آمين المصلى بالمزدلفة فبلغناها بعد مغيب الشفق فجمعنا بين العشاءين و نزلنا فبتنا فيها فتفرق للقط الجمار هناك من أراه من الناس قلو شاهدت يا هذا تلك الحال و ما عليه الناس فى جبل عرفات، و وقوفهم بتلك العرصات، لهالك ذلك المشهد الذى هال أمره، و عجز عن وصفه زيد البيان و عمره، إذ ترى الملوك فى مقام الافتقار و الذلة، و الفقراء فى محل الاضطراب و القلة، و الجميع يرغبون فى المغفرة من الرحمان، و يطلبون الرحمة و العفو من العفو الرحيم الحنان المنان:

جاؤا بأحمال أوزار تؤدهم منها جبال و حسن الظن و طاها

فسأل لما رأى الرحمان ذلتهم طوفان عفو و غفران فغطاها

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦١

فكم دموع تدفقت، و كم ضلوع تحرقت، و كم نسيمات هبت، و كم سحائب رحمة صبت.

فكم حامدكم ذاكركم مسبح و كم مذنب يشكو لمولاه بلواه

و كم خاضع كم خاشع متذلل و كم سائل مدّت إلى الله كفاه

و ساوى عزيز فى الوقوف ذليلنا فكم ثوب ذل فى الوقوف لبسانه

و رب دعانا ناظر لخضوعنا خبير عليه بالذى قد أردناه

و لما رأى تلك الدموع التى جرت و طول خشوع مع خضوع خضعناه

تجلى علينا بالمتاب و بالرضى و باهى بنا الأملاك حين وقفناه

و قال انظروا شعنا و غيرا نراهم اغشنا أجرنا يا إلهنا عبدناه

و قد هجروا أموالهم و ديارهم و أولادهم و الكل يرفع شكواه

إلى فأنى ربهم و مليكهم لمن يشتكى المملوك إلا لمولاه

ألا فاشهدوا أنى غفرت ذنوبهم ألا فانسخوا ما كان عنهم نسخناه

فقد بدلت تلك المساوى محاسناو ذلك وعد من لدنا فعلناه

فيا صاحبي من مثلنا فى مقامناو من ذا الذى قد نال ما نحن نلناه

على عرفات قد وقفنا بموقف به الذنب مغفور و فيه محوناه

و قد أقبل البارى علينا بوجهه و قال ابشروا فالعفو فيكم نشرناه

و عنكم سمحنا كل تابعه جرت عليكم و أما حقنا قد وهبناه

أقلناكم من كل قد جنيتهم و من كان ذا عذر إلينا عذرناه

فيا من عصي من يا أسالو رأيتناو أوزارنا ترمي و يرحمنا الله
وددت بان لو كنت حول رحابناو ترجو رحيمنا كلنا قد رجوناه
وقمنا إليه تائبين من الخطاوغفراننا من ربنا قد طلبناه
الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٢ أمرنا بذاك الظن و الله حسبناعليه و هذا فى الحديث نقلناه
عليه اتكلنا و اطمأنت قلوبنالما عنده من وسع عفو عرفناه
فظوبى لمن ذاك المقام مقامه و بشره فى يوم التغابن بشره
يرى موقفا فيه الخزائن فتحت و والى علينا الله منها عطايه
و صالح مهجوار و قربت مبعدا فذاك مقام الصلح فيه أقمناه
و دارت علينا الكأس بالوصل و الرضى سقينا شرابا مثله ما سقيناه
فإن شئت تسقى ما سقينا على الحما فخلّ الونى و احلل محلا حللناه
و فيه بسطنا للرحيم اكفناو قال كفيتم عفونا قد بسطناه
و اعتقنا كلا و اهدر ما مضى و قال لنا كل العتاب طويناه
و إبليس مغموم لكثرة ما يرى من العتق محقور ذليل خزيناه
على رأسه يحثو التراب مناديا بأعوانه و يلاه ذا اليوم و يلاه
و أظهر منه حسرة و ندامه و كل بناء قد بناه هدمناه
تركناه يبكى بعد ما كان ضاحكا فكم مذنب من كفه قد سلبناه
و كم من منى نلنا بيوم و قوفناو كم من أسير للمعاصى فككناه
و كم ذا رفعنا للإله مسائلو لا أحدا ممن نحب نسيناه
و خصصت الأباء و الأهل بالدعاو كم صاحب نودى به و دعوناه
كذا فعل الحجاج هاتيك عادة و ما فعل الحجاج نحن تبعناه
فظل حجيج الله الليل واقفا فليل انفروا فالكل منكم قبلناه
فلما سقط قرص الشمس نفروا و كشفوا عن وجوه الاستبشار و اسفروا
الهنا الهناو عدتنا منك الهنا

فإن تجد برحمة فكم مضى عنا العنا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٣

و لما أصبحنا بالمزدلفة، و صارت القلوب على حصول الرحمة و المغفرة مؤتلفة، غير مختلفة، و أسفر الفجر عن وجه الغرض، و أدينا
من صلاة الصبح الحق المفترض، غلسنا الرحلة، و نادى منادى النقلة.

أفيضوا و أنتم حامدون إلهكم إلى مشعر جاء الكتاب بذكره

و سيروا إليه و اذكروا الله عنده ذكرنا كما رب العباد هداياه

و وقفنا به إلى الأسفار، و ما تركنا من الدعاء و حميد الأذكار، فسرنا حتى جئنا بطن وادى محسر و هو وادى النار فأسرعنا و حركنا
دوابنا و هو أول ما تحاذى البركة الخبرة التى على يسارك أن مررت بطريق الأركاب و أنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ فى الطلوع
إلى منى و ترتفع بك الأرض و بهذا عرفه أعلم أهل عصره بالمناسك خليل المكي المالكي حسبما نقله عنه البلوى فى رحلته إذ سأله
عن حده و الإسراع فيه مشروع ذهابا و إيابا فمضينا كما نحن على الطريق الكبرى التى تشق منى إلى أن أتينا جمرة العقبة حين الطلوع

بعيده ورميناها بسبع حصيات من أسفلها مكبرين مع كل حصاة كما كنا راكبين غير راجلين كما هو السنه عن سيد الأولين و الآخرين، عليه أفضل صلاة المصلين، و أزكاه سلام المسلمين، فعدنا لرحالنا و مناخنا، و نحرنا هدايانا، و دعونا لحلاقنا، أخينا و ودينا الحاج عبد القادر فحلفنا فسرنا إلى مكة فاتيناها على هيتتنا، من ثياب إحرامنا، فطفنا للإفاضة و وجدنا البيت مفتوحا و الناس على ظهره يكسونه و لما قضينا فريضة الطواف، عرض لى و فى المطاف، الأخ الحاج أبو عزة المراكشى و حث على فى الدخول للبيت فامتنت تأدبا و تعلت له بالزحمة و قال لا زحمة بداخله و هو فارغ منبسط و ما ترى من الزحمة لا يتعدى بابه و لا يتجاوزه الآن و إذا بأمر الحاج المصرى إبراهيم أبو شنب واقف بالباب و خاطبه قائلا أن فلانا ذا واقف بالباب يتغى الدخول للبيت و أشار إلى و فرح بى و رحب، و هش و اطرب، و تقدمت و أخذ بيدي و أطلعنى من غير كلفه و لا زحمة فدخلت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٤

البيت و علانى من الهيبة ما الله به عالم فركعت به ركعتين لناحية الباب مواجهه غافلا عن السنه بأن اجعله خلف ظهرى لما علانى من الخجل، و الدهش و الوجل، و دعوت بما أمكننى و حضر لى من الدعوات، معما و مخصصا أهل المحبة و القرابات، و لم تطل مدة فتحه و إنما يفتحونه هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة و إزالة العتيقة و ليس بيوم دخول عام و إنما يدخل القيم و أمير الحاج المصرى و أتباعهما المعينين فى ذلك و لا- ينصب سلم للدخول و إنما يدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء و على الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكثرونه فإن منعوا من جانب دخلوا من جانب و ربما يتعامى عن البعض و يحصل لكثير من الناس فى ذلك المكان سوء أدب من ضرب و شتم بألفاظ يتره المكان عنها فألولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفوا و صفحا من غير إيلاام و لما دخلت إليه المرة الثانية فى حجتنا هذه إلى أن قال ركعت فيه إلى الجهات و جعلت الباب أولا خلف ظهرى و كبرت فى نواحيه و أجلت النظر فى نواحيه و طوله و عرضه و سمائه و أرضه طلبا للتحقيق و إن كان الأولى خلاف ذلك إلا أن الأمر سهل إن كان لطلب العلم و الوقوف على حقيقة الشىء و لم تزايلنا فى ذلك السكينة و الوقار، و الإعظام و الإكبار، و الإجلال، و الابتهاال، و الله يغفر لنا و يتقبل.

و أما لطلب التفرج و التنزه فلا بل يستشعر الداخل عظمتة و حرمتة و روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت عجا للمراء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف ليدع ذلك إجلالا لله تعالى و إعظاما ما دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها صلى الله عليه و سلم و البيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود و نقضوا منها من جهة الحجر مقدار السلم و لما فرغنا من الطواف ركعنا خلف المقام و أكثرنا من شرب ماء زمزم و لم نسح لأنا سعيانا أثر طواف القدوم كما هو السنه.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٥

تنبيه قال الإمام أبو سالم و كثير من العوام يظن أنه يلزمه سعي آخر أثر الإفاضة و بعض المتفقهة أفتى من لم ينو فرضية القدوم بإعادة السعى اغترارا بظاهر قول المختصر و نوى فرضيته و إلا قدم و التحقيق أن من شروط السعى وقوعه أثر طواف أى طواف كان و كونه فرضا إنام هو واجب يجبر بالدم و لا يلزم منه بطلان السعى و معنى الفرضية كونه يتوقف عليه صحة السعى لا كونه فرضا فى نفسه و هذا القدر يعلمه كل من له أدنى معرفة بالمناسك و إذا كان كذلك فلا إعادة على من سعى أثر طواف القدوم و لو لم يستحضر نية فرضيته إذ كان عالما بذلك فإن نية الإحرام كافية فى الحج لأنه عبادة واحدة و لا يشترط فيه أفراد نية لكل جزء منه كالصلاة و تمييز الفرائض من غيرها أمر مختلف فيه فى كونه شرطا فى صحة الصلاة أم لا- و الحج أوسع من الصلاة و لا- إعادة عليه أيضا لو جهل فرضية طواف القدوم لأن الشرط كما تقدم هو وقوعه أثر طواف و هذا واقع أثر طواف فإن كان عالما بالتلازم بينهما فلا دم أيضا إذ ذلك القدر هو المعبر عنه بالفرضية و إلا قدم و هذا ما حققه بعض المشائخ و أدلة ذلك يطول سردها و كثير من المتفقهة لا يحقق المسألة هذا التحقيق و يشغب على الناس بإلزامهم الإعادة و يقول لا بد من أفراد نية لطواف القدوم أنه فرض و إلا بطل السعى و

العجب كيف يجعلون نية الفريضة شرطا في صحة السعي و لا يجعلونها شرطا في صحة الطواف ذى النية فتكون نية الفرض في ركن شرطا لركن آخر لا له و الشرط إذا لم يؤثر عدمه في محله فكيف يؤثر في محل آخر فشد يدك على ما ذكرنا من التحقيق و لا تلتفت إلى من طريقه التقيد بظواهر ألفاظ المختصر و الله تعالى اعلم انتهى كلامه.

قلت و في مناسك الشيخ يحيى الحطاب أما تقديم طواف صحيح على السعي فقال ابن عبد السلام انه متفق عليه فلو سعى من غير طواف لم يجزه ذلك السعي بلا خلاف و لا يشترط كون ذلك الطواف الذى يتقدمه واجبا بل ذلك من الواجبات

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٦

التي تجبر بالدم فيجب عليه أن يوقعه إن كان في حج أثر طواف القدوم أو أثر طواف الإفاضة و إن كان في عمرة أثر طواف عمرة فإن أوقعه بعد طواف الوداع أو بعد طواف التطوع إعادة ما دام بمكة فإن لم يعاوده حتى بعد عن مكة لزمه الهدى باتفاق انتهى.

و قال والده في شرح المختصر بعد نقول فعلم مما تقدم أن معنى قول المصنف و نوى فرضيته إلخ أن الطواف الذى يقع بعده السعي يجب أن ينوى فرضيته بأن يكون طواف الإفاضة أو طواف القدوم فى الحج أو طواف العمرة فإن أوقعه بعد طواف لا ينوى فرضيته كطواف الوداع أو طواف تطوع كمن أحرم بالحج من مكة و طاف و سعى فإنه يؤمر بإعادته بعد طواف واجب فإن لم يفعل حتى تباعد فعليه دم و قول المصنف و إلا قدم فيه مسامحة لأن ظاهره أنه لا يؤمر بالإعادة و ليس كذلك.

و لما فرغنا من الطواف و توابعه جلسنا للاستراحة فى أخريات المسجد و اشترينا خبزا و سمنا و عسلا فأكلنا و رجعنا لمنازلنا بمنى و صلينا بها الظهر كما فعل المصطفى صلى الله عليه و سلم و قيل إنما صلى الظهر صلى الله عليه و سلم بمكة على قول الأكثر و كان نزلنا إزاء ثبير قرب الغار الذى أنزلت فيه و المرسلات على النبى صلى الله عليه و سلم و خبره مذكور فى الصحيح و قد بنى عليه بابه محوط شبه مسجد صغير و الناس يقصدونه للصلاة فيه و الدعاء و هو فى أصل جبل ثبير بينه و بين مسجد الخيف رمية حجر و كان نزلنا بهذا المحل إثارا للقرب من هذا المكان و قرب المسجد مع كونه أنظف و أوسع و استر و أمكن للإنسان فى حاجته و الناس يتحامون من القرب من الجبل تقيه من أذى السراق فيستجير بعضهم ببعض و يفرون إلى الدخول فى غمار الناس و لا يباليون بما نالهم فى ذلك من وطء الأقدام و تقطيع الحبال و تعفن الأرجاء و استنشاق الروائح الكريهة و نحن استسهلنا أمر السرقة فى جانب

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٧

هذه المضار و كذلك فعلنا فى كل ما مضى من الحججات و الله يعيدنا إليه الكرات بعد الكرات و قد ذبح بمنى فى ذلك اليوم و الذى بعده من الغنم ما أكسب الغنى و الفقير، و كفى البصير و الضرير، و أغنى الورد و المستوطن فامتألت الطرقات و أفنية المنازل باللحم و أما الجلد و الساقط و الأكارع فلا ترى أحدا يأخذها ضيافة الله الملك الحق الذى لا يقدر أحد على كفاية الخلق سواه فقد ورد من أفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصي أغنياء و فقراء فأكل الكل من ضيافة مالكمهم و تزودوا ما قدروا و فضل ما أعجز الطير و الوحش و الهوام. قال أبو سالم فاقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريبا من ذلك فى قفولى من الطائف فوجدت فيه عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها و عظامها لم تمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها و المرجو بل المحقق من كرم الملك الوهاب ذى الطول كما عم وفده بالضيافة المحسوسة التى صيرت الفقير كالغنى فى أيام الضيافة كذلك أو أعظم منه ضيافته المعنوية بالمغفرة و قبول الدعاء و أجزل المثوبة لعباده فوق ما يخطر بالبال، و ما ينال بقياس و مثال، فما سعدنا به من رب كريم منعم متفضل وهاب، جواد محسن متطول لا إله إلا هو مالك الملوك و رب الأرباب، و لا يهلكك على الله إلا هالك نسأله سبحانه أن يعننا بفضل و كرمه، و يتحننا برضوانه، و يعاملنا بإحسانه، آمين و بتنا بمنى تلك الليلة فى نعمه كاملة، و رحمه من الله شامله، و انقضى ذلك النهار و قد عيدنا، و علينا مناسك الحج و شيدنا، و فوق أمانينا أعطينا.

بلغت يا نفسى المنى فى منى و قد أزال الله عنك العنا

فاستفدى وسعك فى حمده و شيدى منك بناء التنا

ثم فى الغد عمرت الأسواق، و كثر الأفاق، و أخرجت البضائع ذوات

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٨

الأثمان و صنوف التجارات و تراحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان فى ذلك الزمان و أكثر التجار يقولون إن من اشترى شيئاً من منى و جعله فى تجارته وجد بركته، و ظهرت له ثمرته، و لا يبعد ذلك فانه موسم شريف، و محل بركة و تشریف، يأتيه الناس من كل فج عميق ليشهروا منافع لهم و يذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، و قد عمهم الله فيه من أمر دنياهم و آخرهم بغاية الإنعام، و لما زالت الشمس توضحنا فخرجنا لرمى الجمار من غير تراخ و لا توان مبتدئين بالأولى التى تلى مسجد الخيف ثم بالوسطى و ختمنا بالعقبة فوقنا أثر الأولين بقدر الإمكان، مجتهدين فى الدعاء لنا و لعامة المسلمين و خاصتهم و سائر الأحبة و الإخوان، و ما نسينا أحداً فى ذلك المكان.

و لما كانت الليلة الثانية من ليالى منى بالغ أهل مصر و أهل الشام فى إيقاد المصابيح و أتخاذ المصانع منها و صور الأشجار و الأخبية و إكثار الرمي بالمدافع و البنادق و المحارق المرتفعة فى الجو و فى ذلك نزهة للأبصار، و تسلياً للأفكار، و مجال للتعاظ و الأذكار، و القبول و الإنكار، فنزل جميع أصناف العباد، و حشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية، و مبانيه أحسن الأبنية، تشرق فى النهار فساطيطه المؤنقة، و بالليل مصابيح المشرقة.

قال الإمام أبو سالم و بالجملة فليالى منى غرر فى أوجه الزمان، و مواسم فرح و سرور لأهل الإيمان، و مناهل رحمة و مغفرة من الله و رضوان، و محال بركة و عافية و أمان، يتجلى فيها الحق لوفده بصفه الجمال، جزاء على رضاه قبل ذلك بتجلى الجلال، فهناك يستصغر المرء ما قاسى فى طريقه من الشدائد، فى جنب ما حصل له من النعيم و الفوائد، انتهى.

فلما أصبح الناس فى اليوم الثالث أخذوا فى الرحيل متعجلين، فمن تعجل فى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٦٩

يومين، فلا آثم عليه، و من تأخر فلا آثم عليه، لمن اتقى و تعجلت الأركاب و طويت الأخبية، و نقضت القبة و الأبنية، و لم يبق إلا جماعتنا و بعض أهل البصرة و الإحسا نزلوا تحت الجبل، على بعد منا و لواء السلطان المكي تعجل، و كان من عادته إلا يتعجل، و بتنا وحدنا و لم نر و الحمد لله بأسا و بتنا آمنين أين ما كنا و الله يختم بخير و اغتمننا الصلاة بمسجد الخيف فى هذا اليوم منفردين بعمارته دون غيرنا من أهل الأفاق.

نكتة و هذا المسجد أعنى مسجد الخيف يسمى مسجد على قيل أن على بن أبى طالب رضى الله عنه أول من بناه و هو موضع منزل النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه رضى الله عنهم فى حجة الوداع.

قال الإمام أبو سالم و طول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذى يقابله أربعمائة قدم و عرضه ثلاثمائة و أربعون و بوسط المسجد قبة مثمثة كل ثمن منها أربع و عشرون قدما و رأيت فى بعض التواريخ أن فى محل هذه القبة كان فسطاط النبى صلى الله عليه و سلم و صحن هذا المسجد كبير إذ المسقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف و من سائر الجوانب غير مسقف قال و قد رأيت قبل هذا فى إحدى سوارى هذا المسجد مكتوبا ما أظن أن صورته هذا:

أيها الغائبون بالله جودوا لغريب بدعوة إن قدمتم

كان من قبل هاهنا مثل ما قد كنتم حاضرا كما قد حضرتم

و تحته مكتوب ما نصه :

قد حضرنا بذا المكان و غبتم و شهدنا به كما قد شهدتم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٧٠ و ذكرناكم بكل جميل فاذكرونا بمثله إن حضرتم

و وجدت فى سارية أخرى بيتا مفردا و هو:

إن في الجنة نهرا من لبن لعلی و حسین و حسن قال و قد صدق قائله إلا أنه تشم منه رائحة التشيع و إن هذا النهر خاص بهم رضى الله عنهم و بمن والاهم دون غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم و هو مذهب الرافضة و مذهبنا معشر أهل السنة أنه لهم و لغيرهم من الصحابة و صالحى الأمة رضى الله عن جميعهم و جعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين انتهى.

و لما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من منى و رمينا الجمار بلا زحمة بعد الزوال و أرغمتنا انف الشيطان بقذف تلك الحصيات التى تكونت من طينة الوبال.

قد رميت الشيطان فى يوم حجى بجمار بطاعة الرحمان و عجيب أن لم يكن قد تظلى و هى سبعون جمرة بالعيان و ملنا إلى مسجد الكبش فرناه ثم بعده، مسجد العقبة أتينا، و هو المكان الذى بايع فيه الأنصار رضى الله عنهم ببيعة العقبة فهو من المساجد المنسوبة إلى النبی صلى الله عليه و سلم المتبرك بها و هو معدود من الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء و هو فى الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك و أنت ذاهب من مكة إلى منى فسرنا فجتنا المحصب فنزلنا به بإزاء مسجد عائشة فصلينا به الظهر و العصر و المغرب و العشاء و رقدنا رقدة.

ثم ذهبنا للعمرة و أحرمتنا بها من التعميم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف و قلة الرفيق بعد أن اغتسلنا لإحرامها هناك مع من لم يغتسل بالمحصب من أصحابنا و اتينا مكة فظفنا و وطىء إنسان على بنصر رجلى اليسرى و لا أظنها إلا انكسرت و أتممت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٧١

الطواف و أنا أحجل و لم أقبل الحجر مباشرة فى أكثر الأشواط.

هل أنت إلا إصبع دميت و فى سبيل الله ما لقيت

و خرجت إلى السعى و سعيت من الصفا إلى المروة و من المروة إلى الصفا على رجلى و تعبت جدا فعجزت عن إتمامه راجلا فأتيت بدابة فركبت و أتممتها راكبا و أتيت المنزل الذى أكثريناه و رقدت رقدة و أصحابنا بمكة يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة ثالث فبراير و أقمنا بها بعد قضاء النسك تسعا، و فى هذه المدة فى تلك العرصات نجول و نسعى، و دخلنا البيت الشريف كما قدمنا فتمتعنا بإجاله النظر فى نواحيه، حرصا على تحقيق مبانيه، كما قيل:

و ردت إلى البيت الحرام و فودناتحن له كالطير حنّ لمأواه

و طفنا طوافا للإفاضة حوله و لذنا به بعد الجمار و زرناه

و من بعد ما زرنا دخلناه دخلة كأننا دخلنا الخلد حين دخلناه

و نلنا أمان الله عند دخوله كما أخبر القرآن فيما قرأناه

فيا منزلا قد كان أبرك منزل نزلناه فى الدنيا و بيت و طئناه

ترى حجة أخرى إليه و دخله و ذاك على رب الورى تتمناه

و إخواننا ما كان أحلى دخولنا إليه و لبثنا فى حماه لبثناه

و إخواننا او حشتمونا هنالكم فيا ليتكم معنا أو ان حققناه

نطوف به و الله يحصى طوافنا ليسقط عنا ما نسينا و احصاه

و بالحجر الميمون لذنا فإنه لرب السما فى الأرض للخلق يمناه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٧٢ قبله من حبا لإلهنا فكم لثمة طول الطواف لثمنه

على لثمة للشعث و الغبر رحمة فكم اشعث أغبر قد رحمانه

و ذاك لنا يوم القيامة شاهدو فيه لنا عقد و عهد عهدناه
و نستلم الركن اليماني رحمة و نستغفر المولى إذا ما لمسناه
و ملتزم فيه التزامنا لربنا عهدا و عفو الله فيه لزمانه
و كم موقف فيه يجاب لنا الدعا دعونا به و الفضل فيه نوبناه
و لما قضينا للإله مناسكا ذكرناه و المطلوب منه سألتناه
فمن طالب حقا لديناه ما له خلاق بأخراه إذا الله لاقاه
و من طالب حسنى بدنيا لدينه و حسنى بأخراه و ذاك يوفاه
و آخر لا يبغى من الله حاجة سوى نظرة فى وجهه يوم يلقاه
الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٧٣

ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة شرفها الله تعالى

منها الدار التي ولد فيها سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و قد اتخذت الآن مسجدا و مزارا عظيما تفد إليه الوفود من كل ناحية أيام المولد النبوى هذا على ما علم مما وقع من الاختلاق فى كتب السير فى مولده صلى الله عليه و سلم هل هو بمكة أو بالأنواء و على انه بمكة فقيل بالشعب و قيل بالمحصب إلى غير ذلك من الأقوال و لا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده صلى الله عليه و سلم فيترجح القول بأنه فى مكة بقضية عادية و هى أن ولادة الإنسان فى الغالب فى منزل والده و أن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذى انحاز إليه مع بنى هاشم و بنى المطلب فى قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله و العجب أنهم عينوا محلا من الدار مقدار مضجع و قالوا انه موضع ولادته صلى الله عليه و سلم. قال شيخنا أبو سالم و يبعد عندى كل البعد تقييد ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها و على القول بأنه فيها ففى أى شعابها و على القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور و على القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضوع من الدار، بعد مرور الأزمان و الإعصار، و انقطاع الآثار، و الولادة وقعت فى زمان الجاهلية و ليس هناك من يعنى بحفظ الأمكنة لا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك و بعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة و تابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعى لصرف اعتنائهم رضى الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة و الذب عنها باللسان و اللسان و كان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الإسلام و من مساجده عليه الصلاة و السلام و مواضع غزواته و مدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك فى

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٧٤

المشاهد الجليلية فما بالك بما وقع فى الجاهلية لا سيما ما لا يكاد أن يحضره أحد إلا من وقع له كمولد على رضى الله عنه و مولد عمر و مولد فاطمة رضى الله تعالى عن جميعهم فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان و ذلك مولد فلان و فى ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه و سلم لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه و سلم فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات و إن كانوا أهل جاهلية و أما مولد غيره ممن ولد فى ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بنفسه أو أحد أهل بيته و حاصل الأمر أن هذه الأماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية رعاية لتعظيم قدر من أضيفت إليه صلى الله عليه و سلم فليستحضر الزائر فى قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة و عظمة تلك النسبة و لا يشغل قلبه بصحة النسبة و ضعفها لوجودها فى الخارج و لو عدت فى نفس الأمر لرعاية تعظيم الموجودة على النسبة له أثر كبير فى الجلب و الدفع نسأل الله تبارك و تعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرمانه و شعائره تعظيما يوافق أمره و من المزارات أيضا مولد فاطمة

رضى الله عنها و النفس أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره و منها البيت الذي سكنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم مع السيدة خديجة رضي الله عنها و ولدت فيه الأولاد و فيه توفيت و لم يزل صلى الله عليه و سلم مقيما به حتى هاجر و منها مولد على رضي الله عنه و منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه و بقربها حجر في جدار فيه كأثر المرفق يقال أن مرفق النبي صلى الله عليه و سلم غاصت فيه لما استند إليه و الناس يتمسحون به و يتبركون و منها دار الخيزران عند الصفا فله فيها صلى الله عليه و سلم تردد و إقامة و منها مسجد العقبة الذي بايع فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم الجن و منها مسجد إبراهيم بعرفة و هو غير الذي يصلى فيه الإمام و لا يعرف اليوم و منها مسجد الكيش بمنى الذي نزل فيه فداء إسماعيل عليه السلام و منها مسجد بأجباد

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٧٥

يقال له المتكأ قيل أنه صلى الله عليه و سلم اتكأ هناك و منها مسجد العقبة حين بايع الأنصار و منها غار جبل ثور الذي اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر رضي الله عنه في هجرتهم و صرح القرآن بذكره في قوله تعالى: تَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ و جبل ثور على ثلاثة أميال من مكة إذا مر السالك إليه فيما بين الخندمة و أبي قبيس و هو وراءهما و أما من مر بأسفل مكة حتى يدور إليه بأضعاف ذلك و عليها يسلك من مر راكبا مع بعدها لتوعر القريه و هو جبل منقطع عن الجبال التي حوله ذاهب في الهواء مشرف على كل ما حوله من الجبال مكسو جلاله و مهابة صعب المرتقى غاية و ارتفاعه في السماء نحو من ثلاثة أميال و الغار في أعلاه من الناحية الموائية لمكة و هو من عجائب آثار قدرة إلهه تعالى و له بابان بابه الأصلي الذي دخل منه النبي صلى الله عليه و سلم مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه من ناحية الغرب و هو صغير جدا ملاصق بأرض الغار و هو شق صغير بين صخرتين عرضه نحو ثلاثة أشبار و ارتفاعه أزيد من شبرين.

قال أبو سالم و لقد خيل لي عند ما رأيته أن أحدا لا يمكنه الدخول منه فأيست من الدخول منه حتى رأيت من هو أعظم مني جثته قد دخل منه فتحات و دخلت من ذلك الشق مع مشقة و ترتيب أعضاء من تقدم إحدى اليدين إلى المنكب و إتباع الرأس لها و إرسال اليد الأخرى مع الجنب.

و لقد طال تعجبي من معرفة الناس بكون غارا و اسعا من داخل فهو إن لم يكن معروفا عندهم قبل ذلك معهودا فالأقرب أنه بالوحي أو إلهام من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه و سلم لأن العادة تكاد تقطع بأن مثل ذلك لا يكون كهفا متسعا من داخل إذ هو صخرة واحدة منقطعة عن غيرها منكفئة على أخرى منقورة في وسطها قدر قامه الإنسان ارتفاعا وسعة نح العشرة أذرع و لو لا عظم الصخرة و تواتر الخبر

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٧٦

بأنه كذلك من قديم الدهر لتوهم أنها صخرة نقرت في وسطها ثم قلبت على أخرى بصنع آدمي و أما الباب الآخر فإنه إلى ناحية المشرق و هو واسع يدخل منه الإنسان و يخرج كيف يشاء و زعموا أنه مفتوح بصنع آدمي و أن سبب فتحه أن شخصا تكلف الدخول فلم يقدر على الخروج و كرهوا تغيير الباب الأصلي بتوسعته ففتحوا هذا الباب من الناحية الأخرى لخروج هذا الشخص و ليدخل منه من لم يقدر على الدخول من الباب الأصلي.

و بإزاء هذا الباب المفتوح مصطبة محوط عليها بأحجار شبه مسجد مفروش برمل و الناس يصلون فيه و يصلون أيضا في داخل الغار و فوق الغار في قنة الجبل غار كبير واسع تحت صخرة عظيمة مفتوح من جوانبه محوط عليه بأحجار شبه مسجد آخر يجلس فيه الناس و لا أدري ما أصله و فيه منظر رائع يشرف منه الإنسان على بلاد كثيرة قال و لم أر في تلك الناحية جبلا أعلى منه إلا جبل اكرى الذي يصعد منه إلى الطائف.

وقد ذكر بعض من ألف في أخبار مكة و جبالها أن من زار هذا الغار و كان به حزن آلمه و سأل الله إذهابه أذهب الله عنه و لا يحزن بعد ذلك و كأنه اقتبس ذلك من قوله تعالى: إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا. انتهى.

و منها جبل حراء و فضله مشهور و فيه الغار الذى كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يتحنث فيه قبل النبوءة و فيه نزل الوحي أول ما نزل و فيه نزلت سورة اقرأ كما فى الصحيح و هو جبل متوحد بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها و على رأس قبة.

قال أبو سالم ترى هذه القبة من المسجد الحرام و الغار فى أعلاه من الناحية الغربية الموالية لمكة و هو مع صعوبته قد سويت طريقه و أزيلت الأحجار المتعرضة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٧٧

من غالب طريقه و بنى ما يحتاج للبناء فيها حتى أن الدابة يمكنها الصعود براكبها إلى أعلاه و فى أعلاه شبه مسجد على باب القبة يصلى فيه و الغار أسفل من القبة بين صخرات هنالك و هو صغير جدا يسع ثلاثا أو أربعا فيما أظن و يصلى فيه الناس للبركة و قد جلسنا هنالك هنيئة و باب الغار متنكب إلى ناحية الشمال.

قال و قد كنت أسمع قبل هذا و رأيته منصوصا أن الجالس فى الغار يرى الكعبة و لذلك اختار النبي صلى الله عليه و سلم التحنث فيه لأين النظر إلى البيت عبادة فتجتمع له فيه أنواع العبادات التى لا تكاد تجتمع فيه غيره و هذا لا يصح إلا أن أريد المحل الذى هو فيه فإن البيت قبل أن يتكفه البنيان العظيم قد يظهر من الخارج و أما من الغار فلا.

قال و أخبرنا شيخنا أبو مهدي أنه خرج ذات مرة للتحنث بهذا الغار و كان يخرج إليه بهذا القصد قبل ذلك و خرج إليه فى هذه المرة مع ثلاثة من أصحابه من الهنود و كان اثنان مقيمين معه و الثالث يتردد عليهما بما يحتاجون من ماء و طعام.

قال كان معى بداية المجتهد للحفيد ابن رشد أطلع فيها أحيانا فبينما هو ذات يوم فى الغار و صاحبه فى القبة و الثالث تحت صخرة هنالك إذ عرض فى السماء عارض غيم و برق ثم أرمز الرعد و أتى بأمر هائل ما رأيت مثله قط فلم أشك أنه الموت و لزمت مكانى و طبت نفسا بشرف البقعة فقلت حبذا لقاء الله تعالى فى هذا المكان و أزلت نفسى حضور القلب منتظرا حلول القضاء حتى انكشف ذلك و خرجت من الغار فإذا صاحباي اللذان فى القبة قد ماتا و أحدهما جالس على هيئته لم يتغير منه شعرة و الآخر شاقط قد سال الدم من بعض منافذه فلم أر منظرا أهول و لا أفرع من ذلك فالتست الثالث من أصحابي فوجدته تحت صخرة و قد سلمه الله تعالى فبعثته إلى مكة ليعلم أصحابنا فبقيت هنالك وحدى منفردا معهما فى الليل

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٧٨

فلم أر أمرا أفرع و لا- أو حش من ذلك و لا- أعظم و اشق على من الحال التى كنت عليها فى الغار فما جاءنى الناس مع صاحبي حتى كدت أهلك غما فاحتملنا صاحبيننا و ذهبنا فممن ذلك الوقت ما رجعت للتحنث إلا أن أذهب زائرا ثم أرجع.

قال أبو سالم و الانفراد عن الناس لا سيما فى المفازات و المغارات البعيدة عن العمران لا يقوى عليه إلا من أيد بروح القدس و كانت له هممة عالية و سقطت من قلبه مخافة غير الله تعالى فإن الإنسان دنى الطبع لا يحتمل وحشة الانفراد لا سيما إن نزلت به ملمة و هو منعزل عن الناس فإن عيشه يتكدر و حاله يتغير و تضيق نفسه و تخرج من معتادها فربما يتلف من ذلك أو يذهب عقله و أما من كان قلبه متعلقا بالله لا يلتفت إلا إليه فى السراء و الضراء فذلك هو قره عينه و لو انطبقت السماء على الأرض ما زاده ذلك إلا تلذذا بما فيه لأنه فى تلك الحال يقوى تعلقه بربه و انحياشه إليه و تنتفى الخواطر المشتتة له فى أودية الأغيار و أى شىء هو طلبه المريد و بغيته إلا هذه الحال و لذلك قيل مواسم الفاقات أعياد المريدين.

قال و لا أظن أن شيخنا فى ذلك الوقت كان من أهل هذه الحال لما غلب عليه من محبة العلوم الرسمية و صرف بعض الهمة إليها يدل على ذلك استصحابه لكتاب بداية المجتهد و من كانت هذه حاله و إن كانت محمودة لا يقوى على تحمل واردات القدر الخارجة من باب القهر المتلفعة بمروط الجلال و الهيبة لتعلق قلبه بأمور و خيالات و علوم هى فى الحقيقة و سائل فإذا تجلى الحق بصفه القهر ذهب الوسائل و حق الحق و بطل ما كانوا يعلمون فيفجأ القلب أمر غير معهود له و لا مألوف و لا متصور قبل ذلك فلا تسأل عما يكابده من ألم الغربة و الوحشة و الخروج عن المألوف نسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا و يؤيدها بنور المعرفة عند كل وارد

و عند واردات القهر خصوصا و يشهدنا اللطف المصحوب بها و يغرقنا فى بحار التلذذ بمشاهدته

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٧٩

حتى لا نحس بذلك و عافيتك أوسع لى يا أرحم الراحمين انتهى.

و منها الجعرانة و هى موضع بين مكة و الطائف و هى إلى مكة أقرب بكثير بينها و بين مكة ثمانية عشر ميلا و منها كانت عمرة النبى صلى الله عليه و سلم فى ذى القعدة حين قسم غنائم حنين كما فى الصحيحين و ذكر المحب الطبرى عن الواقدى أن إحرامه صلى الله عليه و سلم بالعمرة منها كان ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة.

قال المحب الطبرى و منها يحرم أهل مكة كل عام فى ليلة سابع عشرة من ذى القعدة و ذلك خلاف ما ذكره الواقدى.

قال القاضى تقى الدين الفاسى مؤرخ مكة فى شفاء الغرام و ما ذكره الطبرى يخالف ما أدرنا عليه أهل مكة فإنهم يخرجون من مكة فى اليوم السادس عشر من ذى القعدة و يقيمون السابع عشر بالجعرانة و يصلون المغرب بها ليلة الثامن عشر و يحرمون و يتوجهون إلى مكة و هو يلايم ما ذكره الواقدى.

قال الخطاب و على ما ذكره القاضى تقى الدين أدرنا عمل أهل مكة.

قلت و لا- أدرى متى أنقطع عمل أهل مكة هذا فإنهم الآن لا يحرمون منها و لا تكاد تجد أحدا يعلم أنها من مواقيت العمرة إلا من مارس كتب الفقه و أما العوام فلا يطلقون أسم العمرة إلا على التنعيم و مكانها وادى أفيح كثير العضاء و ماؤه شديد الحلاوة غزير و بها بئران عظيمنتان مطويتان بالحجر المنحوت و عنده دوحات عظيمة و على شفير الوادى مكان مسجد يقال أن منه أحرم النبى صلى الله عليه و سلم.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨٠

و من فضائلها ما يروى أنه أحرم منها بالعمرة ثلاثمائة نبى و يقال إن النبى صلى الله عليه و سلم فحص موضع مائها بيده المباركة فانجست فشرب منه و سقى الناس و يقال انه غرز فيه رمحه فنبع و منها مسجد التنعيم حين اعتمرت عائشة رضى الله عنها و فى مكة غير هذا من المساجد التى صلى فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم و آثار مشهورة عند أهل مكة قد تناولت عليه الأعصار و وجدنا التنصيص على اشتهاها فى القرون الماضية من كثير من المؤرخين و المرتحلين مع العلم بعدم اشتهاها فى القرن الأول و الثانى و ما يقرب منهما فتزار بالنية المتقدمة و بنى من دخلها و تبرك بها من المسلمين من لدن تلك الأعصار إلى الآن و قد علم اختلاف الأئمة فى القديم و الحديث فى تنذه هذه الآثار و المشاهد التى لم يرد بها خبر صحيح بمكة و المدينة و القدس و ميل أكثرهم لا سيما المالكية إلى عدم التقييد بذلك لما علم من شدة حرصه على الإتيان فقد ورد أن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ارتحل إلى المسجد الأقصى فلما دخله لم يزد على أن صلى فيه ركعتين و دعا و رجع من يومه و لم يقف إلى الصخرة و لا إلى غيرها من الآثار و المشاهد الكائنة هناك مع كثرتها إذ لم يصح فى الحديث إلا إتيانه للصلاة فاقصر على ما صح عنده و لم يعرج على غيره و الكل إن شاء الله تعالى مصيب، ففاز من الأجر بأوفر نصيب، قل كل يعمل على شاكلته، و حسن نيته و صفاء طويته.

انعطاف إلى ما كنا بصده و هو أننا لما صلينا الظهر و العصر فى المسجد المشهور و هو مسجد نمرة توجهنا إلى محل الوقوف و المشاهدة، و مكان التضرع و المساعدة، زاد الاشتياق إلى الجليل، و التعلق بكل حبيب و خليل، فأصاب الناس شدة الحر و الوهج، حتى كاد أن يذيب الأكباد و المهج، فتفرقت الناس على رفع أحمالها، و سلكت مسالك جمالها، فركب من ركب و مشى الماشى و الغريب، و ساق الإبل كل أجير و نقيب، و قد انفصل الجميع بالتوجه و الأدب، إلى محل الاعتراف و الاغتراف

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨١

من فيض القرب، و عند ذلك تظهر زفرات المحبين، و لوعة المحبتين و المشتاقين، فحركها ريح السعادة لمأوى الرضى و التوفيق، إن لم يصبها وابل فطل من رضى مولاها بالتحقيق، نعم كادت النفوس ترجع إلى أصولها، و تتنور بنور المعارف فى تنقلاتها، فقذف ما

بها ما سكن فيها حين تحرك، و أزعجها تلاقي الأرواح في ذلك الفلك، ثم القوالب و الأجاج تابعة، و الصفقة السعيدة رابحة، فشمروا لما وصلوا، و أهلوا لما به أهلوا، فدخلنا محل الوقوف بالذل و المهابة، و الروح و الخوف و الإنابة، و الدعاء و التضرع و الاضطراب لتقع الإجابة، فوقفنا راكبين، لسنة نبينا صلى الله عليه و سلم و سنة الخلفاء و التابعين، غير أن الركوب على الإبل أفضل، اقتفاء به صلى الله عليه و سلم و أجمل، و أنا وقفت على بغلتي و كذا أخى فى الله سيدى أحمد الطيب و مثله سويداء القلب سيدى أحمد بن حمود و إنسان غين قلبى سيدى محمد الشريف الطرابلسى و قد وقفنا عند الأحجار قرب الجبل و أما تحت الجبل فيه الزحمة الكثيرة التى تمنع الإنسان الدعاء فألزمنا الدعاء لأنفسنا سرا و جهرا عموما و خصوصا مجتهدين غير مقصرين لعل الله يقضى حوائجنا الظاهرة و الباطنة، و أن يجعل هممنا عالية و نفوسنا كاملة، و أن يطهرها من التعلق بسواه، لتكون مطمئنة به و صاحبها معتصما بمولاه، فألزم الكلل التضرع و الابتهاج، و اللجأ و الاضطراب و التنقل من حال إلى حال، فعم الله الجميع بالعفو و المغفرة و المنة و الأفضال، و كيف لا- و الموسم فيه النبى صلى الله عليه و سلم و جميع الأنبياء و من خص بالإرسال، و كذا أهل الوقت من أهل التصريف و الخضر و إلياس و من نعت بالكمال، فاستمر جميعنا إلى تحقق الغروب و الخطيب يخطب، و بدعائه تقضى الحوائج و تنفج الكرب، ريحانة أو عرفه موضع جود و كرم و رحمة و وسع تعم الحاج و غيره كالمسوقين و المنتزهين لأنها فيها الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨٢

قوم لا يشقى بهم جليسهم و هو محل عظيم لا يغضب فيه الرب تعالى و إنما ينظر بالرحمة إلى أهل السعادة من أوليائه فتصيب جميع من فيها و أن الله يغفر الذنوب الكبائر و الصغائر لأهل عرفه و انه يعطى عنهم التبعات و يتولاهاهم بالخصوصية و إن الواقف بها يستأنف العمل فهو كيوم ولدته أمه.

و هذا كله نص عليه الفاسى فى شرح دلائل الخيرات و أن الشيخ زروق رجح القول بالتكفير بالحج للصغائر و الكبائر خلافا لابن عبد البر و من تبعه القائل بأن الكبائر لا تغفر إلا بالتوبة أو بفضل الله تعالى لأن التكفير خاص بالصغائر و هذا القول خلاف المعتمد و إن قال بعض انه مجمع عليه لأن من فضل الله تعالى أن تغفر الذنوب بأعمال الصالحات و هو من فضل الله قطعا إذ لا مانع عقلا و نقلا لا سيما و قد نص عليه غير واحد و انه روى فى ذلك أحاديث صحيحة فلم يبق إلا- الجزم به أو ترجيحه و يعضد هذا ما وقع لنا من المرائى الحسنه التى لا شك فيها إذ لا يمكن إفشاؤها و فى التلويح، ما يغنى عن التصريح، و فى الإشارة، ما يغنى عن العبارة.

ثم أن من فضل الله على أنى نزلت على بغلتي و نويت رؤية الخطيب الذى يخطب بها لتعلق همتى به و تاقى نفسى أيضا لسماع كلامه و هو لا تمكن رؤيته لزدحام الناس عليه ربما قاصده أن احتمل المشى إليه و الاجتماع به مات أو أنكسر و ذلك معلوم بالعيان إلا- من سبق إلى مكان قبل اجتماع الجموع فيها فتوجهت إلى موضعه و رأيت فدخلت الصف الذى يليه و الناس حوله بالأعمدة يضربون من يريده فلما توجهت إليه و دخلت من حوله و إذا بالناس تركوا لى ممرا إليه و فرجة لديه إلى آن وصلت إلى الضرابين بالأعمدة فأتى إلى واحد منهم فأخذ بيدي إلى أن بلغ بين إليه و سلمت على ركبتة و سمعت كلامه أعنى خطبته و تبسم فى وجهى و انبسط و لم ينقبض و هو رجل شريف كبير السن و كلامه عليه حلاوة و طلاوة يعلوه نور و هو أجمل خلق الله قدا الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨٣

و خدا بياضه مشرب بحمره و سيع الوجه يتلألأ نورا قد شاب فلم تبق فيه شعرة سوداء و الله أعلم و لو حواجه لا يسأم الناظر فيه فعلمت أن الله نور بصيرته و طهر سريرته و أعلى همته فوجدت قلبى حين رأيتة بل أخذ مجامع قلبى و ان الله أسعدنى برؤيته فلما قضيت ما ربى منه رجعت إلى موضعى و اشتغلت بالدعاء إلى أن تحقق الغروب لأخذ جزء من الليل لأنه ركن يبطل الحج بتركه بخلاف الوقوف نهارا فانه واجب يجبر بالدم فنفر جميعنا بعد المغرب و تحقق الأخذ من الليل و الإمام قد نفر قبلنا غير أنه لا يخرج من عرفه إلا بعد تحقق الليل.

نعم قد وجدنا قلوبنا فى ذلك المحل و أننا شاهدنا فيه أمرا عظيما لا يمكن التعبير عنه إذ يعلم الإنسان من حاله آثار الوجود و القرب

من الحبيب فعمنا بفضل الله تعالى بدعائنا القريب والبعيد والخالص والعام لأن الوقت واسع فمن الله تعالى بفضلته وكرمه وجوده أن جعلنا من أهل ذلك الموقف فنفرنا راكبين و ماشين بين المغرب والعشاء متفرقين لا يعرف أحد صاحبه إلى أن وصلنا بعد العشاء مزدلفة فحط الجميع رحالهم إذ السنة هو ذاك فجمع الله بين المعارف والأقارب وصلينا المغرب والعشاء إذ السنة التأخير فبتنا هنالك في نعمة شاملة، و زحمة كاملة، و رفعة عظيمة، فحمدنا الله على ذلك، و شكرناه على ما هنالك، فله الكمال والتمام فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا مغسلين كما هو الأثر والسنة وصلينا الصبح والتقطنا الجمار الجميع من الحصى ثم كذلك إلى قرب الأسفار وصلنا المشعر الحرام على أكمل حال و أتمه فوقنا به وقفه عبد خاضع، و ذليل خاشع، انصدع القلب بالشوق إليه، والعشق لديه، فكل من له الفقه التام نوى بوقوفه منا الوجوب إذ بعض المذاهب يقول بوجوبه والورع ينوى به الخروج من الخلاف حسبما ذكروا ذلك في قراءة البسمله في الفرض ناويا الخروج من الخلاف.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٨٤

فإن قلت قراءة البسمله في الفرض مع نية الخروج من الخلاف و كذا نية الوجوب بالوقوف بالمعشر الحرام مخالف لمذهب مالك و القائل به ممن يقتدى بما لك فكيف يمكن الجمع بينه و بين هذه المذهب.

قلت لا أشكال في ذلك و الله اعلم لأن مذهب مالك كراهة البسمله و استحباب الوقوف بالمعشر الحرام فما هذا إلا كونه احتياطاً مع نفى الخلل بفعل ذلك فالحاصل أن الاحتياط في الشيء مع كونه غير موجب للخلل في نفس العبادة هو من قواعد مالك إذ مذهبه مبنى على سد الذرائع و الاحتياط فهو من لازم مذهبه و إن كان ليس صريحاً من مذهبه و إنما تكره البسمله في الفرض إذا نوى أنها آية من الفاتحة جز ما فذلك مكره على مذهب أمامنا و أما أن نوى الخروج من الخلاف احتياطاً فإن مالكا لا يقول بكرهته بل لو سئل لقال بكونه حسناً و كذا نية الوجوب في الوقوف بالمعشر و مثلهما في الفقه كثير.

فلما وقفنا وجدنا أمير مصر واقفاً هناك داعياً مستقبلاً المحل المذكور و هو من طرف المزدلفة من جهة منى فسألنا الله تعالى في الوقوف به سؤال مضطر ذليل خاضع و كل من رآنا من الركب وقف معنا و سألنا عن ذلك الموضوع فأخبرناهم به و انه يستحب الوقوف عنده و انه من شعائر الحج و من يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب و وقفنا عنده و قوف قربة و طاعة إلى طلوع الشمس و انتشارها فسألنا الله تعالى قبول حجنا و إخلاص سغينا و ربح تجارتنا و زال الحجاب عن سرائرنا و الدخول لحضرة الله و التمتع بالنظر لوجه الله تعالى و الموت على حسن الخاتمة بمنه و كرمه و أن يجعل البركة في ذريتنا و أن يرزق الأخذيين عنا بالعلوم و المعارف الإلهية و الفتوحات اللدنية و المواهب الربانية و الأخلاق المحمدية و التخلق بأوصاف الله تعالى التي يجوز

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٨٥

التخلق بها و التعلق بجميع أسمائه و الخروج عن الأكوان بمشاهدة المكون و إتباع الشريعة و نهج الحقيقة و التأدب بالآداب الأشياخ و مواساة الإخوان و موادتهم على لسان الشريعة و النصيحة للأمة المحمدية بان يجعل الكبير أبا و الصغير ابناً و المساوى أخاً و تعليم الجاهل بالرحمة و الشفقة و أخذ العلم بالتواضع و حرمة الأولياء و حسن الظن في جميع المسلمين عند عدم المخالطة و إلا فسوءه حتى يظهر خلافه و التسليم للفقراء فيما لم يكن مجمعا عليه و التصديق بأحوال أهل الله تعالى من مواجدهم و مواردهم و خرق العادة في حقهم إذا كان مغلوباً مطلقاً أو كان متبعاً للسنة هذا و إن المشعر الحرام موضع عظيم لا يكاد يخفى فضلته على كل مسلم فضلاً عن الأتقياء.

و لما وصل وقت الأسفار سرنا منه إلى أن وصلنا إلى بطن محسر و كثير من الناس لا يعرفه و قد شغفت بالسؤال عنه فلم أجد من يعرفه بالعيان نعم لما توجهنا إلى الطلوع إلى منى رأينا الناس يسرعون فيه بالمشى فلدناهم في ذلك فأسرعنا فيه فذلك هو و الله اعلم.

قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه و هو وادي النار و أسرعنا و حركنا دوابنا و هو من أول ما تحاذى البركة الخبرة التي على يسارك أن مررت بطريق الأركاب و أنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى و ترتفع بك الأرض و بهذا عرفه أعلم أهل

عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلوي في رحلته إذ سأله عن حده و الإسراع فيه مشروع ذهابا و إيابا فمضينا كما نحن على الطريق الكبرى التي تشق منى إلى أن أتينا جمره العقبة و رميناها بسبع حصيات من أسفلها مكبرين مع كل حصاة كما كنا راكبين غير راجلين كما هو السنة عن سيد الأولين و الآخرين عليه أفضل صلاة المصلين و أزكى سلام المسلمين انتهى.

انعطف فسرنا إلى قرب منى فتسارعنا كالناس المسارعين في وادي النار فعلمت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨٤

أنه هو و إن لم نعرف الحدود ثم كذلك إلى أن وصلنا جمره العقبة فرميناها كما قال شيخنا بالتكبير إلخ.

فرجعنا فمن عنده هدى ذبحه ثم حلقنا كما هو السنة ثم ذهبنا إلى مكة في غير وقت الفضيلة و هو قرب العصر لطواف الإفاضة و هو ركن فطفنا ذلك الوقت فوجدنا باب الكعبة مغلقا لأنه يفتح ذلك اليوم غير أنه عند الزوال فمن أسرع أدركه و من لا فلا و نحن أشغلنا أمر الأهل فمنعنا من المشى ذل الوقت غير أن الأركان قد تمت و ان فاتنى الدخول ذلك الوقت فقد دخلناها مرة أخرى و الحمد لله إذ دخلت في الليل غير أن الزحمة كثرت على الباب فلما دخلت الكعبة وجدت فيها فسحة عظيمة و هي مملوءة بالناس و الزمان زمان الحر و ركعت ركعتين و جعلت الباب وراء ظهري ثم ركعتين ركعة لكل جانب منها و قد علاني من الهيبة ما لا يعلم به إلا الله فينبغي للإنسان أن يصحبه الإجلال و الهيبة النورانية و العظمة و الابتهاج و الخشية و التذلل و المسكنة فيعتقد أنه ضيف ربه و أن الرحمة قريبة منه هناك فلا- ينبغى أيضا النظر إلى السقف إلا للعلم به فيخف الأمر كما ذكره شيخنا المتقدم حاصله يستحب الدخول إليها إلا إذا كانت زحمة فلا يليق دخولها بل تركه أولى هذا كله إذا كان فيه السلامة من الأذى للمسلمين و إلا فيحرم نعم الحال يحمل الإنسان على أكثر من هذا و قد حصل لى عند الدخول أمر عظيم لا أستطيع التعبير عنه إذ ورد على حال عظيم و ابتهاج قوى و قد طال بقاؤنا فيها حتى قضينا حوائجنا على التمام و الوفاء فالله يتقبل منها و من كل من كان معنا بمنه و كرمه إذ يحدث عند الدخول أمر عظيم لا- يمكن التعبير عنه غير انه لا- ينبغى رفع البصر فيه إلى السقف بل يستشعر الداخل عظمتة و حرمتة و روى عن عائشة رضى الله عنها قالت عجا للمراء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف ليدع ذلك إجلالا و إعظاما دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها صلى الله عليه و سلم.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨٧

و البيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود و نقضوا منه من جهة الحجر مقدار السلم و لما فرغنا من الطواف ركعنا خلف المقام و أكثرنا من شرب ماء زمزم عند ذلك و أنى شربته بنفس اشتياق قذفت منه طعم الحليب السحن و لقد سألت عن ذلك من ظننت فيه الذوق أخبرنى بذلك و لا سعى بعد طواف الإفاضة [لمن قدم السعى عند طواف القدوم و نحن قد سعينا عنده فلا سعى بعد طواف الإفاضة] و كثير من الجهال يعيد السعى و هو عذاب من غير فائدة إذ الأول كاف حاصله أن السعى لا بد و أن يكون بعد طواف و أما كونه بعد طواف واجب فيجبر بالدم و كثير من المتفقهة يعتقد أن من لم ينو الفريضة أعاد السعى كما حكاها الإمام أبو سالم و ليس كذلك إذ شرط صحة السعى أن يكون متوقفا على الطواف و أما كونه واجبا فيجبر بالدم إذ كونه بعد طواف شرط و كونه بعد الفرض واجب فيجبر بالدم فإن من سعى بعد طواف القدوم صح و لو لم يستحضر نية الوجوب لأن نية الإحرام كافية إذ النية عند الأجزاء غير شرط كما فى الصلاة. و بالجملة فإن علم التلازم بين السعى و الطواف فلا دم و إلا قدم إذ الفريضة هى العلم بالتلازم بين السعى و الطواف إلخ ما ذكره انتهى.

و قد ذكر الشيخ يحيى الحطاب و كذا والده فى شرحه على المختصر أن من سعى بعد طواف الوداع أو طواف تطوع يؤمر بإعادته إن كان بمكة و إن تباعد لزمه الهدى و قوله و نوى فرضيته أى فلا بد أن يكون السعى بعد طواف ينوى فرضه كطواف القدوم و طواف الإفاضة هذا معناه و إن كان هذا غير ظاهر منه أنظر الشيخ إبراهيم الشبر خيتى و غيره.

و لما فرغنا من الطواف استرحنا ساعة فى أخريات المسجد بل صلينا المغرب فيه و قد خالفنا السنة لأنه من السنة أن يأتى الإنسان قبل

الزوال فيطوف و يرجع و يصلى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨٨

الظهر بمنى كما هو فعل النبي صلى الله عليه و سلم. و قيل إنما صلى الظهر بمكة و كان نزولنا فى منى بسفح الجبل وراء المسجد الكبير قرب مسجد محوط أعنى غارا يشبه المسجد الصغير و الناس يزورونه و يصلون فيه و قد زرتة و الله اعلم انه الغار الذى نزل فيه و المرسلات و خبره مذكور فى الصحاح و اسم الجبل تبير انظر رحلة شيخنا سيدى أحمد بن ناصر و إنما نزلنا هناك لقرب المسجد و الاستخلاء و التستر و إمكان المشى إلى الجمرات لقله الخلق فيه و لقد جمع الله فيه أصناف الخلاق ما لا يعد و لا يحصى و كذا ما ذبح فى منى من الهدايا فلا تعلم الغنى و الفقير و هى ضيافة عظيمة لا يقدر على القيام بها إلا خالق هؤلاء الخلق لقد كثر اللحم و انتشر حتى استغنى الخاص و العام فضلا عن الفقراء و منى زمان الحاج آية عظيمة تدل على وحدانية الله و عظيم كبريائه و كذا مكة إنها متسع الحاج بلغ ما بلغ و كذا مسجدها فانه يسعهم للصلاة و كل ذلك من الخوارق المستمرة إلى قيام الساعة فالسعيد يحصل له اليقين التام و المعرفة الكاملة من اعتبار تلك الجموع و من كفايتها ماء و طعاما و حطبا و علفا و سعة و فواكه و بز التجارة فكيف يتوهم عاقل ثبوت الكمال لغيره تعالى و أتى يصح لمتكبر أن يقول أنا أو لذى جاه أن يقول قدرت أو لغنى يقول ما ملكت أو ذى سلطان يقول عندى عساكر فلم يبق إلا التوكل على الله و الاعتماد عليه فإن العاقل تضحل نفسه عند رؤية ذلك هيبه و إجلالا و عظمه و حينئذ يرى سطوة البارئ عز و جل فينطق المعتبر قهرا و غلبة بقوله سبحان الملك الخلاق إلا له الخلق و الأمر له الملك و له الحمد هذه الضيافة الحسية ما أشد و سعتها إذ الغنى ذلك اليوم إن سخا صار من ملوك الجنة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٨٩

و الفقير صار غنيا فيه فالضيافة المعنوية أعظم لأنها المغفرة الشاملة، و الرحمة التامة، و النعمة العظيمة، و المثوبة القوية، بحيث يكون كل أحد مغفورا له، و منعما عليه و مقربا منه، و محبوبا لديه و آخذا بيده، إذ ما كل موضع من تلك الأماكن الشريفة، إلا له خاصية عظيمة، فى الغفران و الاستجابة و كل ذلك فضل من الله تعالى نسأله سبحانه أن يعمننا فضله، و يتحفنا برضوانه، و يعاملنا بإحسانه، و قد انقضى عنا يوم العيد و بتنا تلك الليلة فى منى فى نعمة شاملة، و بركة عظيمة، و علينا منار الحج.

بلغت يا نفسى المنى فى منى و قد أزال الله عنك العنا

فاستفدى وسعك فى حمده و شيدى منك بناء التنا

ثم عمرت الأسواق، و كثرت الإنفاق، و أخرجت البضائع ذوات الأثمان و صنوف التجارات و تراحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان فى ذلك الزمان و أكثر التحار يقولون من اشترى شيئا فى منى و جعله فى تجارته وجد بركتة و ظهر له ثمرته و لا يبعد ذلك فانه موسم شريف و محل بركة و تشرية يأتيه الناس من كل فج عميق ليشدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله فى أيام معدودات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام و قد عمهم الله فيه من أمر دنياهم و أخرهم بغاية الإنعام و لما زالت الشمس توضحنا فخرنا لرمى الجمرات الثلاث بلا مهلة و لا توان مبتدئين بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف و وقفنا عندهما وقفا ظاهرا بينا سائلين الله تعالى حوائج الدنيا و الآخرة مبتهلين متضرعين لله عز و جل إذ المطلوب الوقوف عند الأوليين مقدار سورة البقرة عند الأولى و فى الثانية دون مقدار آل عمران و إن لم نقف كذلك فقد وقفنا قريبا من ذلك عند الأوليين ثم سألنا الله الرحمة و العافية و التوفيق لنا و للأحبة و لجميع المسلمين عامهم و خاصهم لا سيما القريب لنا فى الله و فى الدم.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٩٠

قال شيخنا المذكور و لما كانت الليلة الثالثة بالغ أهل مصر و أهل الشام فى إيقاد المشاعل و المصابيح و اتخاذ المصانع منها و صور الأشجار و الأخبية و إكثار الرمي بالمدافع و البنادق و المحارق المرتفعة فى الجو و فى ذلك نزهة للأبصار، و تسلية للأفكار، و مجال للتعاظ و الأذكار، و القبول و الإنكار، منزل جميع أصناف العباد، و حشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية، و مبانيه أحسن الأبنية،

تشرق في النهار فساطيطه المؤنقة و في الليل بالمصايح المشرقة.

قال الإمام أبو سالم و بالجملمة فأيام منى غرر في أوجه الزمان، و مواسم الفرح و سرور لأهل الإيمان، و مناهل رحمته و مغفرة من الله و رضوان، و مجال بركة و عافية و أمان، يتجلى فيه الحق لوفده بصفته الجمال، جزاء على رضاهم قبل ذلك بتجلى الجلال، فهناك يستصغر المرء ما قاساه في طريقه من الشدائد، في جنب ما حصل له من النعم و الفوائد، انتهى.

و في اليوم الثالث أخذ الناس في الرحيل و التجهيز للانتقال إلى مكة لقوله تعالى:

فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَ تَعَجَّلَ الْأَرْكَابُ وَ طَوَّيْتُ الْأَخْيِيَّةَ، وَ نَقَضُوا الْأَبْنِيَّةَ، وَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ لَا تَقَعُ صَلَاتُنَا إِلَّا فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ الَّذِي نَزَّلْنَا حِذَاءَهُ وَ هُوَ الْمَسْمُومِيُّ بِمَسْجِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلِ مَنْ بَنَاهُ وَ هُوَ مَوْضِعُ مَنْزِلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي حِجَّةِ الْوُدَاعِ.

قال الإمام أبو سالم هذا المسجد من المحراب إلى الباب أربعمائة قدم و عرضه ثلاثمائة و أربعون و بوسط المسجد قبة مثمثة كل ثمن منها أربعة و عشرون قدما و رأيت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٩١

في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاط النبي صلى الله عليه و سلم و صحن هذا المسجد كبير إذ السقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف و من سائر الجوانب غير مسقف قال و قد رأيت قبل هذا في أحد سوارى هذا المسجد مكتوبا ما أظن أن صورته هكذا:

أيها الغائبون بالله جودوا الغريب بدعوة أن قدمتم

كان ما قبل هاهنا مثل ما قد كنتم حاضرا كما قد حضرتم

و تحته مكتوب ما نصه:

قد حضرنا بذا المكان و غبتم و شهدنا به كما قد شهدتم

و ذكرناكم بكل جميل فاذكرونا بمثله إن حضرتم

و وجدت في سارية أخرى بيتا مفردا و هو:

إن في الجنة نهرا من لبن لعلی و حسین و حسن

قال و قد صدق قائله إلا أنه تشم منه رائحة التشيع و ان هذا النهر خاص بهم رضى الله عنهم و بمن والاهم دون غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم و هو مذهب الرافضة و مذهبنا معشر أهل السنة أنه لهم و لغيرهم من الصحابة و صالحى الأمة رضى الله عن جميعهم و جعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين انتهى.

فلما رمينا الجمار الثلاث عند الزوال و أرغمنا بها أنف الشيطان. زرنا المساجد أحدها فوق العقبة و لا تعرف ما اسمه و الثانى مسجد فى الشعب و أظنه الذى نص عليه شيخنا فى رحلته و نصه و ملنا إلى مسجد الكيش فزرناه ثم بعد مسجد العقبة أتينا و هو المكان الذى بايع فيه الأنصار رضى الله عنهم بيعة العقبة فهو من المساجد المنسوبة للنبي صلى الله عليه و سلم المتبرك بها و هو معدود من الأماكن التى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٤٩٢

يستجاب الدعاء عنده و هو فى الشعب تحت الجمره ييسر على يسارك و أنت ذاهب من مكة إلى منى قال فسرنا فجتنا المحصب فنزلنا بإزاء مسجد عائشة و صلينا الظهر و العصر و المغرب و العشاء و رقدنا رقدة ثم ذهبنا إلى العمرة و أحرمتنا لها من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف و قلّة الرفيق انتهى.

هذا و أن شيخنا المذكور نزل المحصب للسنة و تأخر عن التعجيل ليحصل الفضيلة المتروكة و الناس فى زماننا قد تركوا ذلك كله إلا

من شد من الناس لكثرة الأذية والخوف من اللصوص وقد زاد الفساد والظلم والتعدى من الأشراف وغيرهم من أصحابهم فلا يكادون يرجعون عن التعدى بل على أقل شىء يقتلون عليه العبد ولقد قتلوا صاحب أختنا فى الله سيدى محمد بن قسوم الريغى على شربه الماء.

حاصله أنى دخلت على سلطان مكة المشرفة فى داره فى منى فى بعض الإبل ذهبت للحجاج أغار عليها العرب فاستأذنا فى الدخول عليه أنا وجماعة من الفضلاء فأذن لى منفردا فى الدخول وحدى و من معى بقى عند باب الدار ينتظرون ما أرجع به فلما دخلت عليه وجدته جالسا على فرش مرتفعة مواجهها باب طاق ينظر الأركاب و يعتبر و معه أشخاص قليلة فلما قربت منه تحرك عن موضعه فقبل كتفى و قبلت كتفه ثم قال ما تريد قلت الجمال لأن العرب أغاروا عليها عند البئر الفلانى و قلت له ألم تعلم أن النبى صلى الله عليه و سلم يقول كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته.

نعم لما سمعنى قلت كلكم راع و كلكم الحديث و قد فرح بى و سر سرورا عظيما لما علم أنى صاحب علم و انبسط وجهه انبساطا كاملا فتحرك و جدا و قال نعم فإن دخلنا مكة نأتكم بالإبل التى ضاعت لكم و اعتذر لى بان قال ما ضيع الأحكام إلا الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٩٣

الأشراف فإن أمرهم قد قوى على و على غيرى أو كلاما هذا معناه و الله اعلم و قد سألتنى عن وطنى و نسبى فأجبت بما حاصله أنى من عمالة الجزائر و أنى شريف فلما أردت الانفصال سألتى الدعاء له و لذريته و قام و ودعنى توديع الحبيب لحبيه و هذا السلطان اسمه مساعد و أما الحجة الأولى فقد كانت فى ولاية أخيه السلطان مسعود و هذا كله يرشد إلى أن الزمان قد زاد فى الظلم و التعدى نعم الحج قد كاد أن يكون ساقطا من الظلم من الولاة و أصحابهم و العرب و الظلم الكبير من الشياطين زادوا فى الارتياش للظلام و الشكوة.

تتمه قد دخلنا مكة و سكننا دارا بالكراء أنا و أهلى و أما أصحابنا الفضلاء سيدى أحمد بن حمود و سيدى أحمد الطيب و سيدى أحمد الشريف الطرابلسى و أصحاب كل قد أكثرى كل واحد دارا لنفسه مع أصحابه و إنما يكون اجتماعنا فى المسجد الحرام و قد لزمته أيامى هناك فلا- أخرج إلا لأمر مهم لا بد من الخروج إليه و أنى دخلت الكعبة كما ذكرنا أولا و الله اعلم أنى لقيت صاحب السعد الكامل فى الطواف و فى بعض الجمرات تقبل الله من جميعنا ثم بعد ذلك أتينا بالعمرة من التنعيم لتعذر الجعرانة من الخوف كما سبق مع اغتسال جميعنا هناك و أحرمتنا بها و قضيناها ليلا بسعيها و طوافها و حلقها و الحمد لله على التمام و لله در شيخنا حيث قال:

و ردت إلى البيت الحرام وفودنا نحن له كالطير حنّ لمأواه
و طفنا طوفا للإفاضة حوله و لذنا به بعد الجمار و زرناه
و من بعد ما زرنا دخلناه دخلة كأننا دخلنا الخلد حين دخلناه
و نلنا أمان الله عند دخوله كما أخبر القرآن فيما قرأناه
إلى أن قال:

و كم موقف فيه يجاب لنا الدعا دعونا به و الفضل فيه نوبناه
الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٩٤ و لما قضينا للإله مناسكا ذكرناه و المطلوب منه سألناه
فمن طالب حظا لديناه ما له خلاق بأخراه إذا الله لاقاه
و من طالب حسنى بدنيا لدينه و حسنى بأخراه و ذاك يوفاه
و آخر لا يبغي من الله حاجة سوى نظرة فى وجهه يوم يلقاه
قال شيخنا المذكور ذكر المشاهد التى ينبغى للحجاج أن يزورها بمكة شرفها الله تعالى:

منها الدار التي ولد فيها صلى الله عليه وسلم وقد جعلت الآن مسجداً و مزاراً عظيماً تفد إليه الوفود من كل ناحية أيام المولد النبوي هذا على ما علم مما وقع من الاختلاق في كتب السير في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأنواء وعلى انه بمكة فليل بالشعب وقيل بالمحصب إلى غير ذلك من الأقوال ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده أو جده صلى الله عليه وسلم فيترجح القول بأنه في مكة بقضية عادية وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده وأن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله والعجب أنهم عينوا موضعاً من الدار مقدار مضجع وقالوا انه موضع ولادته صلى الله عليه وسلم. قال شيخنا أبو سالم ويعد عندي كل البعد تقييد ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف من كونه في مكة أو غيرها وعلى القول بأنه فيها ففي أي شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار مع مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار، والولادة وقعت في زمان الجاهلية وليس من يعتنى بحفظ الأمكنة لا سيما مع عدم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٩٥

تعلق غرض لهم بذلك وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقيد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي لصرف اعتنائهم رضي الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذب عنها باللسان واللسان وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام ومن مساجده عليه الصلاة والسلام ومواقع غزواته ومدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة فما بالك بما وقع في الجاهلية لا سيما ما لا يكاد أن يحضره أحد إلا من وقع له كمولد على رضي الله عنه ومولد عمر ومولد فاطمة رضي الله تعالى عن جميعهم فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان وهذا مولد فلان وذلك من البعد أبعد من تعيين مولده عليه الصلاة والسلام لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم وقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وإن كانوا أهل جاهلية وأما مولد غيره ممن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته إلا- أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بنفسه أو أحد من أهل بيته وحاصل الأمر أن هذه الأماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية لعظم قدر من أضيفت إليه صلى الله عليه وسلم فليستحضر الزائر في قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة وعظمة تلك النسبة ولا يشغل قلبه بصحة النسبة وضعفها لوجودها في الخارج ولو عدت في نفس الأمر لرعاية تعظيم الموقوفة على النسبة له أثر كبير يعنى الجلب والدفع نسأله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته وشعائره تعظيماً يوافق أمره وقد مر قريباً ذكر باقي المزارات التي تزار في مكة.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٩٦

ذكر من لقبهم في الحرم المكي من الأئمة

الشيخ أحمد المخيلي الشافعي والشيخ عبد الله بن سالم البصري الشافعي والشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية وابناه الشيخ عبد المحسن والشيخ عبد المنعم والشيخ عبد القادر بن أبي بكر الحنفي المفتي كان تولى الفتوى قبل والشيخ محمد أكرم الهندي والشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي الشافعي وله تأليف على التاريخ ذكر فيه علماء الحادي عشر و صلحاءه وأدباءه و ملوكه و شعراءه أطلعني على سفر منه ذكر فيه المحمدين فقط ولم يكمل إلى الآن وله رحلة إلى اليمن ولقي الوالد وأخذ عنه وجعل له ترجمته والشيخ محمد بن عبد الباقي الإسكندراني المالكي والشيخ إدريس بن أحمد الصعدي الشافعي وهو نسبة إلى صعده بلدة باليمن والشيخ عبد الرحمن السندي والد أكرم والشيخ عبد الكريم الهندي.

وفي عام ستة وتسعين التقينا بمكة وأكرمنا بها الشيخ الحسين العجمي والشيخ الحسين الحنفي المكي وأهدى لنا عكازاً من

الخيزران و الشيخ على اليمنى و الشيخ عبد الله اليمنى و هما من أصحاب سيدنا الوالد رضى الله عنه و طلعا معنا إلى جبل أبى قبيس فجلسنا هنالك سويعات للدعاء و مشاهدة البيت العتيق و المسجد الحرام و مكة كلها قعيقعان و غير ذلك من الأمكنة العظيمة و زرنا هناك وليا مدفونا بروضته عليه بناء بأحجار و هناك بيت فوق شعب بنى هاشم قالوا من حوله و حياله انشق القرم له صلى الله عليه و سلم و زارا معنا غير ذلك جزاهما الله خيرا انتهى.

و أما من أجازة فى مكة فأنظره فى رحلته و كذا من لقيه فيها و أما من لقيته فيها فقد

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٩٧

لقيت كثيرا من الفضلاء الآجلة و البدور الأهلة و كذا زيارة المواطن فقد زرت مقبرة مكة كالشيخ ابن حجر الهيتمى شارح الهمزية و كذا قبر زوج النبى صلى الله عليه و سلم خديجة و كذا الأماكن المذكورة فى مكة.

و أما الغار الذى اختفى فيه صلى الله عليه و سلم و كذا غار تحثه أى غار حراء فإنما زرناهما بالنية فقط عن بعد و كذا الجعرانة.

تتمه أذكر من أخذ عليه شيخنا سيدى أحمد بن ناصر فأقول قال عن شيخنا الأنصارى و هو عن أبى محمد بن طاهر الحسنى و أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن الدلائى و الشهاب أبى العباس المقرى التلمسانى.

أما الأول فأخذه كذلك عن غير واحد و من أجلهم أبو العباس أحمد بن على المنحور الفاسى و هو عن جماعة منهم أبو محمد عبد الرحمن بن على بن أحمد القصرى المعروف بسقين و العلامة أبو الحسن على بن هارون المضغرى و أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن اليسينى و أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسى الفاسيون و هم أربعة أخذوه عن حافظ المذهب فى عصره أبى عبد الله محمد بن أحمد بن غازى و زاد سقين عن أبى العباس أحمد زروق الفاسى و زاد عبد الواحد عن أبيه أبى العباس أحمد بن يحيى الونشريسى التلمسانى ثم الفاسى مؤلف المعيار المعروف فى النوازل.

و أما الثانى و الثالث فأخذه عن أبى عبد الله محمد بن قاسم القيسى الشهير بالقصار و هو عن اليسينى و غيره و السيتنى عمن تقدم و عن الفقيه أبى العباس بن على الزقاق الفاسى و هو عن أبيه على بن محمد الزقاق و زاد الثالث و هو الشهاب المقرى فأخذه عن عمه إمام الفتوى بتلمسان بالمغرب ستين سنة أبى عثمان سعيد المقرى و هو عن أبى عبد الله محمد بن محمد التنسى و هو عن أبيه الحافظ أبى عبد الله

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٩٨

محمد بن عبد الجليل التنسى التلمسانى و قد انتهت الطرق باعتبار ما وقفنا عليه إلى خمسة أعيان من أعلام فاس و تلمسان الإمام ابن غازى و الشيخ زروق و العلامة الونشريسى و المحقق الزقاق و الحافظ التنسى أما ابن غازى فعن جماعة من أجلهم أبو عبد الله محمد بن قاسم القورى اللخمى المكناسى و المحقق النظار أبو العباس أحمد المزدغى و أبو زيد الكاوانى أما القورى فعن الجاناتى و أما المزدغى و الكاوانى فعن أبى مهدى عيسى بن علال و أبى القاسم التازغدرى و الجاناتى و ابن علال فهما عن العبدوسى الفاسى و هو عن القورى الفاسى صاحب التقييد على المدونة المنسوب لأبى الحسن الصغير و عن شيخ الرسالة و المدونة أبى زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولى و القورى عن شيخ الإسلام أبى الحسن الصغير بضم الصاد المهملة و فتح العين المعجمة و تشديد المثناة التحيه و هو و ابن عفان الجزولى عن الشيخ أبى الفضل راشد ابن أبى راشد الوليدى الفاسى و عن شيخ المدونة الأعرج صاحب الطرر على المدونة و هما عن أبى محمد صالح الهسكورى الفاسى و هو عن أبى موسى المومنانى و أبى القاسم بن البقال و هم عن خلف ابن عبد الملك بن بشكوال و هو عن ابن عتاب و أبى الوليد ابن رشد و القاضى أبى بكر ابن العربى و غيرهم.

و أما الشيخ زروق فعن القورى و عن عالم الصلحاء و صالح العلماء أبى زيد عبد الرحمن الثعالبى الجعفرى مؤلف شرح ابن الحاجب و غيره و عن أبى العباس حلولو شارح المختصر و غيره و عن قاضى الجماعة الرصاع التونسى شارح حدود ابن عرفه و غيره و الثلاثة الرصاع و الثعالبى و حلولو أخذوه عن النظار البرزلى مؤلف النوازل المشهورة و زاد الثعالبى عن العلامة محمد بن خلفه الأبى مؤلف

إكمال الإكمال و الحافظ أبي الفضل ابن مرزوق الحفيد زواد حلولو عن ابن ناجي شارح الرسالة و المدونة و زاد الرصاع عن ابن عقاب التونسي و زاد الرصاع أيضا مع الثعالبي عن عبد العزيز بن موسى بن معطى العبدوسى الفاسى و الجميع ما عدا العبدوسى عن أبى عبد الله محمد

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٤٩٩

بن عرفه الروغى التونسي و زاد البرزلى عن قاضى الجماعة أحمد بن حيدرة التونسي و أما العبدوسى فعن أبيه أبى عمران العبدوسى بسنده المتقدم و أخذه الإمام ابن عرفه و القاضى ابن حيدرة عن جماعة منهم قاضى الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهوارى التونسى شارح ابن الحاجب و هو أخذه عن جماعة منهم العلامة المعمر و الإمام المجتهد محمد بن هارون التونسى شارح ابن الحاجب و مختصر المتيطة و هما أخذه عن جماعة منهم ابن هارون القرطبي ثم التونسى و هو عن أبى القاسم ابن بقى القرطبي و هو عن محمد بن عبد الحق الخزرجى القرطبي و هو عن ابن فرج مولى ابن الطلاع.

و أما الحافظ الونشريسى فعن جماعة أعلام أجلهم أبو الفضل قاسم بن سعيد العقبانى التلمسانى و ولده أبو سالم و العلامة محمد العبادى التلمسانى و أخذ أبو العباس عن أبى الفضل قاسم المذكور عن إمام المغرب و قطبه الحافظ المطلق أبى الفضل محمد ابن مرزوق الحفى التلمسانى و هما أخذه عن أبى عثمان سعيد العقبانى و زاد الحفيد عن أبيه و عن العلامة المحقق أبى محمد عبد الله بن محمد الشريف التلمسانى عن الإمام ابن عرفه بسنده المتقدم و أما العقبانى و ابن عرفه أيضا فأخذه عن أبى عبد الله محمد بن سليمان السطى و زاد العقبانى عن التلمسانيين أبى زيد و أبى موسى ابنى الإمام و هما أخذه عن جماعة منهم ابن تميم اليفرنى و هو و الحافظ السطى عن أبى الحسن الصغير.

و أما والد الحفيد ابن مرزوق فعن والده الإمام الجليل ابن مرزوق الخطيب و هو عن السطى بسنده و عن العلامة ابن راشد البكرى القفصى شارح ابن الحاجب و هو عن العلامة المجتهد شهاب الدين أحمد ابن إدريس القرافى مؤلف الذخيرة و غيرها الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٠

و هو عن القاضى ناصر الدين الأبيارى و عن العلامة النظار أبى العباس ناصر الدين ابن المنير الاسكندراني و ثلاثتهم أخذوه عن إمام التحقيق و فارس الإتقان أبى عمر جمال الدين عثمان بن أبى بكر ابن الحاجب و هو أخذه عن العالم الراسخ شمس الدين أبى الحسن الأبيارى بكسر الهمزة و سكون الباء الموحدة بعدها مثناء تحية و هو أخذه عن أبى طاهر إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى من ذرية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه و هو عن الإمام الكبير أبى بكر الطرطوشى.

و أما العلامة عبد الله الشريف التلمسانى فعن والده الإمام النظار التلمسانى و هو عن ابنى الإمام أبى موسى و أبى عيسى و عن الحافظ السطى بسنده المتقدم و هو عن الرزلى و هو عن أبى الحسن الصغير بسنده.

و أما أبو الحسن الزقاق الفاسى فعن القورى و عن الحافظ العبدرى الغرناطى المعروف بالمواق و هو عن جماعة منهم الإمام القاضى محمد بن محمد بن السراج الغرناطى و هو عن فرج ابن قاسم بن أحمد بن لب الغرناطى أيضا و هو عن أبى عبد الله المعروف بابن أبى بكر الملقى و هو عن الحافظ الكبير أبى جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير و هو أخذه عن جماعة منهم القاضى الجليل أبو عبد الله ابن غازى الأنصارى السبتي و القاضى أبو الخطاب السكونى و هو عن أبيه أحمد بن خليل و هو و ابن غازى عن إمام الشورى أبى الفضل عياض ابن موسى اليحصبى مؤلف التنبهات و غيرها و هو عن شيوخ المذهب أبى عبد الله التميمى السبتي و قاضى الجماعة بقرطبة أبى الوليد ابن رشد القرطبي مؤلف البيان و التحصيل و المقدمات و غيرها و الإمام أبى عبد الله

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠١

ابن الحاج القرطبي صاحب النوازل و غيرها و القاضى أبى بكر ابن العربى الأشبلى مؤلف القبس و غيره و الإمام ابن عتاب القرطبي أيضا و بالإجازة مثله.

و أما الحافظ التنسي فعن جماعة منهم الحافظ أبو الفضل ابن مرزوق الحفيد و هو عن تقدم و من جملتهم العلامة عبد الله بن محمد الشريف التلمساني و هو عن تقدم و عن الإمام القباب و هو عن قاضي الجماعة أبي عبد الله القشتالي صاحب الوثائق و هو عن أبي الحسن ابن سليمان القرطبي و هو عن أبي عمر ابن حوط القرطبي أيضا و هو عن أبيه و هو عن الإمام الجليل أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد مؤلف بداية المجتهد و نهاية المقتصد و غيره و الحافظ البرزلي عن أبي عبد الله بن سعيد بن زرقون مؤلفا لأنوار في الجمع بين المنتقى و الاستذكار و غيره فالأول و هو الحفيد أخذه عن أبيه عن جده و عن الإمام النظار المجتهد القوي الباع في تحقيق النظر أبي عبد الله محمد بن علي التميمي المازري مؤلف شرح التلقين و غيره و الثاني و هو ابن زرقون أخذه عن القاضي أبي الفضل عياض.

جامعة، مشارق أنوارها لامعة قد انتهت الطرق إلى أعلام الطبقة و شيوخ الفتيا و أئمة الشورى الإمام المازري و أبي الوليد ابن رشد و ابن الحاج و أبي بكر الطرطوشي و ابن العربي و أبي محمد ابن عتاب و القاضي ابن عيسى التميمي أما الإمام المازري فعن أبي الحسن علي بن محمد اللخمي مؤلف التبصرة و المحقق النظار أبي محمد عبد الحميد المعروف بابن الصائغ مكمل تعليقه التونسي و هما عن أبي إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي مؤلف التعليق على المدونة و العلامة ابن محرز القيرواني مؤلف التبصرة و هما عن الإمامين أبي بكر بن عبد الرحمن و أبي عمران الفاسي و هما عن شيخي المذهب و موسى طرازه المذهب أبي محمد عبد الله ابن أبي زيد مؤلف الرسالة و النوادر

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٢

و المختصر و غيرها و أبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي و زاد أبو بكر بن عبد الرحمن عن أبي القاسم الغافقي الجوهري المصري و زاد أبو عمران الفاسي عن و هما أبي عبد الله المعروف بالوشاء المصري و هما أعني الوشاء و الجوهري أخذه عن أبي إسحاق ابن شعبان المعروف بالقرطبي بقالف مضمومة و راء ساكنة و طاء مهملة بعدها ياء النسبة المصري مؤلف الزاهي و مختصر ما ليس في المختصر و هو عن أحمد الصدفى المصري المعروف بالزياتي و هو عن رابع المحمدين أبي عبد الله محمد ابن عبد الحكم و هو عن أبيه و ابن القاسم و أشهب و ابن وهب.

و أما الشيخان الراسخان أبو محمد ابن أبي زيد و أبو الحسن القابسي فأخذه عن أبي ميمونة ابن إسماعيل الفاسي و عن الأبياني بكسر الهمزة و الموحدة المشددة المكسورة بعدها مثناة تحتية و زاد ابن أبي زيد عن الحافظ أبي بكر محمد بن اللباد القيرواني و عليه عمدته و عن أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي أما أبو ميمونة ابن إسماعيل المذكور فأخذه عن جماعة منهم الحافظ ابن عبد الله ابن أبي مطر و هو أخذه عن محقق المذهب أبي عبد الله محمد بن المواز مؤلف المختصر المعروف بالموازية و هو أخذه عن محمد ابن عبد الحكم و ابن الماجشون و اصنع و الحارث بن مسكين و الأخيران أخذه عن ابن القاسم و أشهب و ابن وهب.

و أما الثلاثة أبو العباس الأبياني و أبو بكر ابن اللباد و أبو العرب التميمي فأخذه عن الإمام المجاب الدعوة أبي زكرياء يحيى بن عمر الأندلسي القيرواني مؤلف اختصار المستخرجة و عن الحافظ المقدم أبي جعفر المعروف بابن الصواف و عن أحمد بن محمد الأشعري المعروف بحمديس القطان و ثلاثهم أخذه عن الإمام أبي سعيد

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٣

عبد الله بن سحنون القيرواني مؤلف المدونة و تسمى أيضا المختلطة و هو أخذه عن علي بن زياد التونسي و أبي أشرس و ابن غانم و ابن القاسم و أشهب و ابن وهب و عبد الله بن عبد الحكم و عبد الملك بن الماجشون.

و أما زعيم فقهاء وقته أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد و أبو عبد الله أحمد بن الحاج فأخذه عن جماعة منهم ابن زرقون القرطبي و عن أبي عبد الله محمد بن فرج مولى الطلاع مؤلف كتاب الشروط و كتاب الأحكام و هما أخذه عن أحفظ الناس للمدونة ابن اقطا و هو أخذه عن ابن حدّون القرطبي و عن الشيخ ابن الشقاء القرطبي أيضا و هما أخذه عن ابن المكوي مؤلف كتاب الاستيعاب في

المذهب و هو عن أبي بكر اللؤلؤى القرطبي أيضا و عن ابن مسرة مؤلف كتاب النصائح فاللؤلؤى أخذه عن أبي صالح المعافى القرطبي و الثانى و هو إبراهيم عن أبي عبد الله ابن لبابة و عن ابن عبد الملك ابن أيمن القرطبي و الثلاثة أبو صالح و ابن لبابة و ابن أيمن أخذوه عن ابن عتبة ابن أبي سفيان مؤلف العتيبة و يقال لها المستخرجة أيضا و عن ابن وضاح القرطبي و عن أبي زكرياء يحيى ابن مزين القرطبي مؤلف المستقصية و غيرها و عن النظار ابن مطروح الأعرج و الأربعة أعنى العتيبي و ابن وضاح و ابن مزين و ابن مطروح أخذوه عن يحيى بن يحيى الليثى القرطبي و عن أبي عبد الله أصبغ بن الفرخ المصرى و زاد الثلاثة سوى ابن مزين عن الإمام سحنون و زاد ابن مطروح و ابن مزين عن فقيه الأندلس أبي محمد عيسى بن دينار القرطبي صاحب الأسمعة و هو و سحنون و أصبغ و يحيى عن ابن القاسم و زاد ابن وضاح عن القاضى أبي عرو و الحارث بن مسكين المصرى و عن الفقيه أبي مروان عبد الملك بن الحسن المعروف بزوان و عن عالم الأندلس أبي مروان عبد الملك بن حبيب مؤلف الواضحة و غيرها و الأولان ابن الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٤

مسكين و زوان أخذاه عن ابن القاسم و أشهب و ابن وهب و الثالث و هو ابن حبيب أخذه عن أصبغ بن الفرخ و عن الغازى ابن قيس و عن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون و عن مطرف و ابن الماجشون و عبد الله بن نافع و عبد الله بن عبد الحكم. و أما شيخ الشيوخ أبو بكر الطرطوشى فأخذه عن النظار المعروف بالباجى الأندلسى مؤلف المنتقى و غيره و هو عن أبي الأصبغ ابن سهل القرطبي مؤلف الأعلام بنوازل الأحكام و من طريق القرويين عن مكى القيسى و من طريق العراقيين عن أبي الفضل ابن عمرو البغدادي أما ابن سهل فعن القطان بسنده و عن شيخ المفتين ابن عتاب القرطبي و لازمه و اختص به و عن الفقيه أبي بكر يحيى بن محمد الغسانى القليعى أما ابن عتاب فأخذه عن جماعة منهم القاضى أبو المطرف ابن بشير المعروف بابن الحصار و لازمه و اختص به و كان يفخر به و عن أبي بكر عبد الرحمن بن أحمد التجيبى المعروف بابن حربيل فالأول و هو ابن بشير أخذه عن قاضى الجماعة ابن ذكوان و هو عن ابن اصبغ البيانى و هو عن ابن وضاح و الثانى و هو ابن حربيل التجيبى المذكور فأخذه عن الخشنى مؤلف كتاب الاتفاق و الاختلاف فى المذهب و هو أخذه عن أبي بكر بن اللباد و أبي جعفر أحمد بن أبي نصر الهوارى و هما أخذاه عن يحيى بن عمر و محمد بن عبدوس و محمد بن سحنون و جميعهم عن سحنون. و أما القليعى فأخذه عن محمد بن عبد الله بن أبي زمنين بفتح الزاى و الميم و كسر النون البيرى مؤلف كتاب المنتخب فى الأحكام و هو عن ابن مسرة بسنده.

و أما أبو محمد مكى فعن شيخه ابن أبي زيد و القابسى بسندهما. و أما ابن عمرو فعن البغدادي المعروف بابن القصار مؤلف عيون الأدلة فى الانتصار للمذهب و عن عبد الوهاب البغدادي مؤلف التلقين و المعونة و غيرهما و هو الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٥

أخذه عن الحافظ ابن الجلاب مؤلف التفریح و هو و ابن القصار و عبد الوهاب أخذوه عن الأبهري مؤلف الشرح لمختصر ابن عبد الحكم و هو عن الليثى البغدادي مؤلف الحاوى و عن أبي عمرو محمد بن يوسف و عن ابن الجهم المعروف بابن الرواق مؤلف كتاب مسائل الخلاف و الحجّة لمذهب مالك و شرح المختصر الصغير لابن عبد الحكم و هو و أبو الفرخ و أبو عمر و أخذوه عن سهيل بن حماد البصرى و هو أخذه عن أحمد ابن المعدل البصرى و هو عن ابن الماجشون و محمد بن مسلمة.

و أما المعافى الإشبلى فأخذه عن الطرطوشى بسنده و عن ابن العربى و هو عن ابن عتاب بسنده أما ابن عتاب فعن أئمة بسنده. و أما محمد بن عيسى التميمى السبتي فعن النسيلي و ابن عبد الرحيم ابن العجوز و عن الغسانى القرطبي أما النسيلي فعن فقهاء سبته إبراهيم بن يربوع السبتي و ابن غالب الهمداني السبتي و هو عن ابن أبي زيد أخذه عنه جميع كتبه بسنده و ابن يربوع و هو الهمداني أخذ عن الباجى و هو عن ابن لبابة و ابن أيمن بسندهما.

و أما أبو عبد الله ابن العجوز فعن أبي محمد عبد الرحمن و هو عن أبي إسحاق التونسي بسنده و عن أبيه أبي عبد الرحمن عبد الرحيم السبتي و هو عن ابن أبي زيد بسنده.

و أما أبو علي الجباني فعن ابن عبد البر مؤلف الكافي و الاستذكار و التمهيد و غيرها و هو عن ابن المكوي بسنده و عن ابن القاضي القرطبي و هو عن جماعة منهم ابن الفخار البيروني و عن ابن أصبغ البجاني بموحدة فجم مشددة أما ابن الفخار فعن ابن سلمة مؤلف مختصر الواضحة و هو عن ابن مروان الهمداني القيرواني و هو عن ابن عبدوس و هو عن سحنون و أخذ ابن مروان أيضا عن سحنون و عن ابن عبد الحكم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٦

أما مجاهد ابن أصبغ فعن سعيد البجاني و هو عن المغامي الدوسي من ذرية أبي هريرة رضي الله عنه و عن ابن ميسر بفتح السين المهملة فالمغامي عن يحيى بن يحيى و ابن حبيب و ابن مزين و غيرهم بسندهم و ابن ميسر أخذ عن ابن المواز بسنده.

جامعة من المدنيين الإمام الثقة المغيرة المخزومي و ابن دينار الجهني مولاهم و ابن مسلمة و ابن مطرف اليساري و ابن الماجشون و ابن نافع مولى بنى مخزوم و من المصريين عبد الرحمن ابن القاسم العتقي و أشهب و ابن وهب و ابن عبد الحكم و من الأفريقيين ابن زياد التونسي و ابن اشرس الأنصاري و ابن راشد القيرواني و من الأندلسيين الغازي ان قيس القرطبي و أبو عبد الله ابن شبطون و يحيى بن يحيى الليثي و جميعهم أخذوه عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس و هو أخذ عن الزهري و ربيعة و يحيى ابن إسحاق الأنصاري و أبي نمر الليثي و العلاء بن يعقوب مولى الحرقة و الحرقة فخذ من جهينة و أبي عبيدة حميد الطويل و أبي عبد الله الثقفي و أبي عثمان بن ميسرة مولى المطلب ابن حنطب المخزومي و هؤلاء عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه و سلم و منهم ابن يدرس مولى حكيم بن حزام و أبو عبد الله المنكدر التيمي القرشي و أبو أسامة مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه و أبو نعيم وهب بن كيسان مولى ابن الزبير بن العوام و هؤلاء عن جابر بن عبد الله و زاد بن وهب عن عمر بن أبي سلمة و منهم أبو عبد الله نافع و ابن دينار مولى ابن عمر و هما عن سيدهما و مولاهما عبد الله بن عمر و زاد نافع عن أبي سعيد الخدري و أبي لبابة رضي الله عنهما و منهم سلمة بن دينار مولى بنى ليث و هو عن سهل الساعدي و كذا ابن شهاب الزهري أيضا و منهم سعيد بن أبي سعيد و اسمه كيسان مولى بنى جندع و هو عن الكعبي و منهم نعيم بن عبد الله و هو عن أبي هريرة و الجملة من الصحابة المذكورين تلقوه عن سيد الكونين و جمال الثقلين أبي القاسم سيدنا و مولانا و نبينا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه و سلم و شرف و كرم و عظم و مجد و هو عن

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٧

الروح الأمين جبريل عليه السلام عن رب العالمين جل جلاله و تقدس كماله انتهى ما نسب لجامعها و صاحب سلسلتها سيدي عيسى بن محمد الثعالبي.

انعطاف الأماكن التي ينبغي زيارتها بمكة خلاف ما تقدم دار الأرقم التي اختفى فيها النبي صلى الله عليه و سلم و بها كان إسلام عمر رضي الله عنه و خبرها مشهور في السير و هي الآن مسجد قرب الصفا و منها موضع بسوق مكة يسمى المودع يقال أن فيه ودع النبي صلى الله عليه و سلم أهل مكة في حجة الوداع لما أراد الخروج إلى المدينة و هو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة و ليس في أسواق مكة محل تظهر منه الكعبة إلا هذا فيقف الناس للدعاء و قريب من هذا المكان رباط ينسب للشيخ عبد القادر الجيلاني يسكنه الفقراء و له أوقاف و به قبور تزار لا أتحقق أصحابها و منها مسجد الجن و هو بأعلى مكة بجانب الطريق بين الدور فيه شجرة يأوى إليها الفقراء و يستظلون فيه و هو المكان الذي جاء فيه الجن إلى النبي صلى الله عليه و سلم و أسلموا و منها شعب أبي طالب الذي انحاز إليه هو و بنو هاشم و خبره مشهور في السير و منها جبل أبي قبيس يشرف منه على مكة كلها و المسجد و البيت و فيه مغارة يقال أن بها قبر آدم عليه السلام و الحجاج يشترون من مكة رؤوس الغنم المشوية و يصعدون إليه يأكلونها و يزعمون أن من

فعل ذلك أمن من وجع الأسنان و الرأس و منها قبه على الجبل الذى على يسار الذهاب إلى الشبيكة يقال ان فيها مولد عمر رضى الله عنه و منها محل فى الجبل المشرف على المحصب على يمين الذهاب إلى منى يزعم أهل مكة أن به قين عبد الله بن عمر رضى الله عنه فيخرجون إليه فى إحدى ليالى ذى القعدة أظنها الثالثة عشرة رجالا و نساء كبارا و صغارا يبيتون هنالك عامه ليلتهم.

قال أبو سالم و سألت أهل العلم بمكة عن ذلك فأخبرونى أنهم لا يعلمون لذلك

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٨

أصلا و من جملة خرافاتهم المتعلقة بتلك الليلة فى ذلك أنهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه بالأرض فى ذلك الجبل تلك الليلة و يزعمون أن من دفن شيئا حصل له فى تلك السنة بعدده ريالاً- أو دنانير و أغرب من ذلك ما حكى لى بعض أصحابنا تصديقا لزعمهم ذلك أن الشيخ على بن الحمال الشافعى و كان من فقهاء مكة المعتبرين خرج مع بعض أهل مكة فى بعض السنين إلى هذا المحل فلما رأى فعلهم ذلك أنكره ثم انه جمع شيئا من النوى حتى جمع نحو المائتين فدفنها ثم وجد سبعا أخرى و دفنها و هو فى ذلك كالمتلاعب فلما كان وقت الموسم بينما هو جالس فى المسجد الحرام إذ جاء شخص من أهل العراق يسأل عنه حتى وجده فناوله صرة كبيرة و قال له أن جماعة من طلبه الإحساء كانوا يقرءون هنا عندك قبل ذلك و قد جمعوا لك هذه الدار هم بقصد التبرك منك و قد سلموا عليك و هذه مائتا ريال قال فوقع فى نفسى تصديق ما زعموا و أنى كنت دفنت مائتى نواة ثم قلت و أين السبعة التى دفنتها بعد ذل فلم أرم مكانى حتى رجع إلى ذلك الشخص و قال لى يا سيدى و هذه سبعة أخرى قد تبغى بها شخص بعد ما فارقت الجماعة و قال لى أوصلها إلى الشيخ قال فتعجبت من ذلك و من موافقته للحال و الله اعلم.

و لأهل مكة فى هذه الليلة أيضا عمل مولد كبير فى مشهد العيدروسى رضى الله عنه عند الشبيكة يجتمع هناك جماعة من أولاده و إتباع السالكين على طريقه و يعملون هنالك سماعا و قراءة و تلاوة و يجتمع فيه خلق كثير و قد فرش المشهد كله و ما حوله و أعدت للحاضرين أطعمة و أشربة و يستكثرون هنالك من المصاييح فهو من المشاهد المشهورة بمكة و المزارات المعظمة و بيتهم له صيت و مكانة عند الخاص و العام.

و أما المقابر فالحجون كله مزارات و أشهر المزارات فيه قبه أم المؤمنين السيدة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٠٩

خديجة رضى الله تعالى عنها و قبه فيها قبر الفضيل بن عياض و غير ذلك و محوط فيه قبور كثيرة لأئمة من العلماء الغرباء قال أبو سالم قرأت على حجر فيه هذا قبر الإمام أبى القاسم القشيري و هذا غريب إلا أن يكون قد نقل بعد موته إلى هنالك و لم نر أحدا من المؤرخين ذكر انه مات بمكة.

و قد رأيت فى طبقات الإمام تاج الدين السبكي التعريف بولد أبى القاسم القشيري و ذكر انه توفى بمكة المشرفة فعلمت أن القبر قبره لا قبر أبيه رضى الله تعالى عنهما و عل حجر آخر قبر أبى حامد بهاء الدين السبكي و جماعة كثيرة و أسفل الحجون بجانب الطريق قباب كثيرة غالبها للشرفاء أمراء مكة و منها قبه سامية يقال لها قبه أبى طالب و عوام الغرباء يظنونه أبا طالب عم النبي صلى الله عليه و سلم و بعضهم يقول أبو طالب المكي و إنما هو أمير مكة المتأخرين من أشرفها من آل نبي نمر اسمه أبو طالب قالوا كان فى حياته شجاعا مقداما فاتكأ دوح بلاد الحجاز و قهر عربانها غايه القهر و أهل نجد و تهامة إلى الآن يؤرخون بعهدة فيقولون كان هذا فى زمان أبى طالب و كان سفاك للدماء و مع ذلك كان حسن السيرة و لم يكن أحد يأتيه بالولاية لما هو عليه من الفتك و البطش إلا أن بعض أهل الكشف كان يقول هو مظهر من مظاهر أسمائه تعالى القهرية أقيم فى مقام الجلال فلما توفى ظهرت له كرامات كثيرة و صار قبره من أعظم المزارات.

فمما ظهر منها أنهم قالوا جلس جماعة من القراء حول قبره يقرءون القرآن قرب موته كما هو عادتهم و بين أيديهم شمعة تضىء بليل فوقت إلى الأرض فانطفأت فتحيروا فلم يجدوا من يوقدها لهم فانشق القبر عيانا فخرج منه و أوقد لهم الشمعة فرجع و منها أن بدويا

قال ولم أر أسرع مشيا من حمر الحجاز ولا أوطأ مركبا ولا أقل لغبا من السرعة المفرطة في المشى فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافى هل يتحرك فيها شيء مع الإسراع فى المشى فلا يكاد يتبين حركة شيء منها مع أن مركوبى من أجادوها فلقد أخبرت انه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلى المغرب بجدة فيركب عليه و يصلى الصبح بمكة و هى مسافة القصر تحقيقا و هم يتغالون فى ثمن ما هذه صفته منها فيبلغ الحمار مائة دينار ذهابا. و قد رأيت حمارا عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجيل رافقنا عليه من المدينة إلى مكة تقتحمه العين فأخبرت أنه اشتراه بقریب من ذلك الثمن.

و منها بلد الطائف فإن فيها مزارات كثيرة و يمر إليها على طريق الحاج إلى منى ثم إلى مزدلفة ثم إلى بسيط عرفة و الطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوى يستريح المارة بالنزول فيها و اشتراء المحتاج من طعام و علف كما ذلك أيضا بطريق جدة و يسلك مع طريق الساقية التى من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر ثم إلى مكة و منها تأتي المياه إلى مكة فى هذه الأزمنة بعد اندثار الأخرى التى تأتي من الجعرانة.

و قد ذكر المؤرخون أخبر العينين معا و أن التى من الجعرانة من عمل بنى أمية و هذه من عمل بنى العباس و هى من صدقات زبيدة بنت جعفر المنصور إلا أنها ما وصلت إلى مكة إلا فى دولة بنى عثمان ملوك العصر من الترك.

قال أبو سالم و قد شاهدنا فى بنیان هذه الساقية ما يدل على فخامة ملكهم و قوة اعتنائهم بأمر الحرمين فكلما مررنا غلوة أو غلوتين وجدنا عينا منها مفتوحة عليها بناء وثيق و وجدنا الفعل فى وقتنا جادين فى إصلاح ما و هى من بنائها و كسر ما تهوور من أرجائها و هى صاعدة مع وادى نعمان الأراك بفتح النون الذى أكثر شعراء العرب فمن بعهدهم من ذكره و هو واد عظيم افيح منحدر من جبال نجد به أدواح يانعة يضافحها نسيم نجد فتهتر أغصانها طربا و تميل إلى أن تلثم أفواه الأزهار الغضة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥١٣

الناعمة الملتفة بجانبى ذلك الوادى و قد كساه الخصب من مروط الزهر ألوانا و عمم رؤوس هضابه أفاحا و أرجوانا.

قال فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل أكرى فعدلنا يمينه مع بعض تلك الهضاب و آوانا الحر إلى قهوة بأصل الجبل بين صخور عظام حولها ماء صاف يجرى على حصباء كالزبرجد عذب بارد سهل التناول للصادر و الوارد قال فما رأينا فيما سلطنا من بلاد الحجاز مكانا أشبه ببلادنا منه فلما زالت الشمس و توضحنا للصلاة أخذنا فى صعود الجبل العظيم الذى لا يماثله فى عظمه جبل من جبال تهامة و سلطنا فى طريق تميل مع الهابط من أعلاه و غالب الطريق فى هذا الجبل قد نقى من الصخور العظام و نضدت الحجارة فيه بناء و وثيق مصفح على ممره و يقال أن ذلك من عمل بنى العباس لكثرة اعتنائهم ببلد الطائف و نزول ولاة الحجاز منهم به و قد أثرت السيول مع طول العهد فى أماكن كثيرة من هذا الجبل فخربت بناءه و كثرت للسالك عناه.

قال و وجدنا فى هذا الجبل أشجار عظيمة من العرعار و غيره من أشجار بلدنا فأنسنا بذلك غاية و رأينا القروود به تصيح و تشب فى أعالي تلك الصخور فتعجبنا من ذلك فأخبرنا أنها توجد فى ذلك الجبل و ما سمعنا قط أنها بأرض الحجاز و إنما يقال أنها تجلب من الشام و الروم إلى مصر و الحجاز و قد لقينا فى صعود هذا الجبل مشقة و نزلنا عن الدواب و ارتحلنا أوعاره و أغواره كرها و ما كدنا نصل أعلاه حتى تمكن وقت المغرب و صليناه و تلفنا بثيابنا لشدة البرد و تعجبنا من صنع الله تعالى و بديع قدرته فقد قاسينا أول النهار من شدة الحر و سموه ما كادت العظام منه تذوب و تفتقر القلوب و كابدنا من شدة البرد آخره ما ارتعدت المفاصل منه و كلت القوى عنه.

قال ثم وصلنا إلى قهوة هنالك و نزلنا بها بعد العشاء فدخلنا محلا أوقد أصحابنا فيه نيرانا عظيمة فاصطلينا بها عامه ليلنا من شدة البرد و حدنا الله تعالى على ذلك و كان

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥١٤

هذا فى أبان الحر الشديد و لذلك خلفنا ثيابنا بمكة و لم نلبس منها إلا ما يوافق الوقت و قضينا عجا من شدة الحر و البرد فى

المكانين المتقاربين قال ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح و هبطنا عقبه هنالك و هي دون التي طلعتها بكثير إلا أنها و عرة و سلكتنا في شعاب ذات مياه غزيرة و نبت ملتف إلى أن خرجنا إلى قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد بإزائه قرية ذات مزارع و أشجار من أنواع الفواكه حولها واد يسيل ماؤه و تجاوزناها قرب الطلوع و سلكتنا بين تلون هنالك في صعود و هبوط و استواء إلى أن وصلنا بلد الطائف و هي و قصور في مستو من الأرض تحيط به جنات من نخيل قليل و أعناب كثيرة و فواكه مما يشتهون و قصدنا المسجد الأعظم.

و من الأماكن التي تزار ببلاد الطائف البلد نفسه فقد وردت آثار تدل على فضله و انه منقول من الأرض المقدسة نقله جبريل عليه السلام بإذن الله تعالى و ورد في الحديث ان النبي صلى الله عليه و سلم حرم عضاه و ج و هو الطائف و هو عند الشافعية كحرم مكة لا يقطع شجره و كفاه هذا هذه فضيلة شارك فيها الحرمين الشريفين.

و منها قبر ترجمان القرآن حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما و هو في قبلة المسجد الأعظم من يمناه و عليه بناء فخم و حوله على يسار الداخل من الباب قبر البطل الهمام و الليث المقدم فارس بنى هاشم سيدنا محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين مولانا على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه و فضائله مشهورة و سبب انحيازه هو و ابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما إلى الطائف مذکور في التواريخ و بإزاء

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥١٥

قبر ابن عباس قبر يقال انه قبر عبد الله الطيب الطاهر ولد سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و الناس يتبركون به بهذه النية.

و منها المسجد الأعظم نفسه فانه في محل نزول عسكر النبي صلى الله عليه و سلم عند محاصرة ثقيف بعد غزوة حنين و في صحن المسجد مسجد صغير يقال انه منزل النبي صلى الله عليه و سلم في الحصار المذكور و فيه محل يقال انه محل قبة أم المؤمنين أم سلمة بفتح اللام و قبة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنهما و خبر حضورهما معه صلى الله عليه و سلم في هذه الغزوة و انه اتخذ لكل واحدة قبة و مصلاه صلى الله عليه و سلم بين القبتين مذکور في كتب السير و هناك محال متعددة فيها آثار في الصخر الصلد كأثر ظلف الغزاة و الناس يتبركون بها و يقولون أنها أثر غزاة جاءت إلى النبي صلى الله عليه و سلم و سلمت عليه في ذلك المحل و لم نر لذلك ذكرا في شيء من كتب السير.

و منها مسجد على شفير الوادي بأعلى البلد فيه شجرة كبيرة لها أصلان متقاربان بينهما مثل ممر الشاة يقال أنها الشجرة التي اعترضت للنبي صلى الله عليه و سلم في طريق له فانشقت شقين حتى مر بينهما و خبرها مذکور في بعض الأحاديث.

قال أبو سالم و لم أر من ذكر أنها بهذا المحل و لا إنها باقية إلى الآن و أظن أن حديثها مذکور في معجم الطبراني الصغير و الله تعالى أعلم.

قال و في هذا البلد أسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف نجد و يجلب إليها من الحبوب و الثمار و الزبيب و العسل ما قضينا العجب من كثرته بحيث يخيل لنا أنا لم نر مثل ذلك في الكثرة في أسواق الأمصار العظيمة و ذكر في رجعتة هذه أنه طلع لهم الفجر بمنى قال فدخلت مسجد الخيف و صليت فيه الصبح و ليس به داع و لا مجيب و قد كان في وقت الموسم ربما لا يجد الإنسان أين يضع جبهته من الأرض أحيانا لكثرة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥١٦

الزحام قال و تأملت بسيط منى و شعابه و تبينت سعتها و امتدادها و كانت في أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق و من رأى منى و ما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيهه من قال من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فليتنظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله.

و منى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها قصور عالية و أسواق حافلة و جنود مجندة و ملابس فاخرة و أطعمة شهية و مراكب هنية و

بضائع غير معدودة و متاجر ثمينه إلى أنواع العبادات من تكبير و تهليل و صلاة و قراءة و نحر و ذبح و إطعام طعام و رمى جمار و ما الدنيا محمودها و مذمومها إلا ما ذكرنا و لا تمر على ذلك كله إلا ثلاثة أيام حتى لا تحس منهم من أحد و لا تسمع لهم ركزا فلا ترى في منازلهم إلا عظاما نخرة و خرقا باليه و فضلات منتنة و غثاء أحرى و قثاما أغبر تسفيه الرياح و تذروه و هذا هو المثل الحقيقي للدنيا فليعتبر أولو الأبصار من سكان البادية و الأمصار انتهى كلامه.

و مزارات مكة كثيرة جدا بل أعظم المزارات و محط آمال الراغبين و منتهى سير الأملين و مناخ همم العارفين و غاية منية الشائقين و قبله العابدين و وجهة المعبرين و إليها تفد الوافدون و مسقط رأس سيد العالمين صلى الله عليه و سلم و على آله و أصحابه أجمعين فيا لها من بلدة ما أعز سناها فأهون بالطريف و التليد في الاحتماء بحماها جنه من دخلها كان من الآمنين و من نحا نحوها من الفائزين و لله در الإمام أبي على اليوسى رضى الله تعالى عنه و أرضاه و أناله منه بغايه مناه إذ يقول و ما أحسن ما يقول فى وداع وفد الله:

أحجاج بيت الله سيروا و أبشروا بما لم ينله رائح و مبكر
و طيروا عجالي فوق أجنحة القطاو أجنحة الشوق المبرح أطير
إلى أن قال:

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥١٧ لقد ضاع دهرى فى المقام بمغرب و مطلع وحي الله يرجى و ينظر

أنهه نفسى فى السياق إلى العلى فشمس عن ذاك الرهان و تنفر

و أسمو بها عن روضة الغى و الهوى فيقعدا صلصالها المتكدر

و أذفع عنها فى الوغى لاجيرها فتنهك أجناد الهوى و تكثر

فهل لى من صوب من الغيب باهر يشيعها فيما تروم و ينفر

و هل لى من ريح تثير ركائبى إلى روضة فيها النبى المبشر

عليه صلاة الله ما انسجم الحيا بروض و رضوان من الله أكبر

و أصحابه الغر الذين تالفوا على الله فى الدين القويم و شمروا

خصوصا أبا بكر رفيق نبيه و صاحبه و هو الكبير المؤثر

و أيضا أبا حفص و كان محدثا يكشف أحلاك الدجى و ينور

فيا روضة فيها لنبي محمد سفاك من الغيث السجيم المكرر

و يا روضة تزهو بشمس منيرة و بدرين ملتحين فيها و تزهو

دعائك غريب أو ثقته بمغرب مساوى المساعى و القضاء المقدر

فهل تسمح الأيام فيك بزوره و يشفى غليل فى الفؤاد مسعر

و هل تنجز الدين الذى مطلت به فتكفى بقايا ذنبها و تكفر

فيا رب تحرم عبيدك سؤله و أبلغه ما أبلغت من تتخير

و قد جاء سعيا بالحشا إذ تعذرت عليه خطاه و هو أشعث أغبر

سألتنك بالمختار أحمد أنه لأنفس علق فى المطالب يذخر

عليه صلاة الله ثم سلامه و رضوانه ما فاح روض معبر

و أصحابه والال ما ذر شارق فأجلى الدياجى ضوءه المتفجر

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥١٨

بعد قضاء المناسك كلها و الإتيان بالعمرة على تفصيلها و الإحرام بها من مكان الإحرام فقد تم ذلك على الوجه الأكمل تقبل الله منا جميع ذلك و أننا مكثنا في مكة ما مكثنا أعنى المدة المعلومة كما قيل.

أقمنا بها يوماً و يوماً و ثالثاً يوماً له يوم الترحل خامس

إذ مدة إقامتنا في مكة نحن مشغولون بالطواف و الذكر و النظر في الكعبة على أكلم حال و أتمه ليلاً و نهاراً و الحمد لله تعالى على ذلك و قد انفصلنا من مكة عند الظهر و البعض عند العصر أما أحماننا و أهل بيتنا فعند صلاة العصر إذ ودعوا البيت عند ذلك الوقت و أما أنا فقد ودعته ذلك الوقت ظناً منى الانفصال ثم ظهر لى بعض الشئون لا سيما المحب في الله و الأخ من أجله سيدى محمد الشريف الطرابلسى فانتظرتة إلى أن صلينا المغرب فودعت التوديع بقلب حاضر فلما كمل الوداع، و تم الانتفاع، و اشتاق الروح و أصابه الاتساع من ألم الفراق، و اضطربت نار الشوق فى الفؤاد و أصابه حر الاحتراق، فركبنا و انفصلنا و الحمد لله فوصلنا إلى موضع الخيام عند العشاء أو بعدها بقرب و خرجنا من أسفل مكة من الموضع المسمى بكدى بضم الكاف و هو الموضع الذى خرج منه النبى صلى الله عليه و سلم إذ يستحب الخروج منه و هو باب الشبيكة و نزل الركب هناك فى منزله المعلوم ينتظر كمال الرفقة و العالم بالأحكام كلها يخرج من كدى اقتداء به صلى الله عليه و سلم فى حجته على أن ابن رشيد ذكر فى رحلته عن بعض الأئمة أن الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضا فروى عن الحافظ أبى محمد بن أحمد الأندلسى قال كداء الممدودة هى بأعلى مكة عند المحصب حلق رسول الله صلى الله عليه و سلم من ذى طوى إليها أى صعد إليها و كدى بالضم و التنوين بأسفل مكة عند ذى طوى بقريب من شعب الشائعين

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥١٩

و الشعب بكسر الشين و ذلك عند قعيقان حلق رسول الله صلى الله عليه و سلم منها إلى المحصب إلى أن قال بات صلى الله عليه و سلم بذى طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها و فى خروجه إلى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب. قال أبو محمد الأندلسى الظاهرى أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العذرى عن كل من لقى بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث فى ذلك قال ابن رشيد و إنما سلك رسول الله صلى الله عليه و سلم هذا الطريق محلقة شبه الدائر لأنه لا يحصل التيامن فى النزول و الدخول إلى مكة و الخروج عنها إلا كذلك فتأمل و الله تعالى اعلم.

قال الشيخ أبو سالم و ما نقله ابن رشيد ابن حزم الظاهرى من أن خروجه صلى الله عليه و سلم إلى عرفات من كدى لم أر من ذكره من أهل السير و الحديث مع شدة تتبعهم لأفعاله صلى الله عليه و سلم فى حجته لما جمعت من معالم الشريعة و قواعدها و حضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط فى حياته صلى الله عليه و سلم و مثل هذا لا يخفى من أفعاله فى ذلك المجمع العظيم فقد حفظ من أفعاله صلى الله عليه و سلم فى تلك الحجة الجلى و الخفى حتى مباله صلى الله عليه و سلم فى الشعب قبل الوصول إلى المزدلفة فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث و السير مع أن الحافظ أبى محمد ابن حزم مغرماً بجميع الغرائب مع سعة اطلاعه و وفور علمه و كثرة حفظه الذى لا ينكره له موافق و لا مخالف فقد ذكر بعض الأئمة أنا أبى محمد ابن حزم ساق حجة الوداع فى كتابه الذى أفرد له حجة الوداع لا- يمكن أن يسوقها كذلك حتى بعض من حضر لكثرة ما جمع و مبالغته فى التبع للطرق و جمع الروايات و ترجيحها و هو أهل لذلك و المذكور عند سائر المحدثين أنه صلى الله عليه و سلم لم يزل من يوم دخوله مكة نازلاً إلى أن ارتحل ذاهباً إلى منى يوم التروية و يبعد أن يرتحل من الأبطح و ينحدر إلى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٠

مكة ثم يخرج من كدى ثم يصعد إلى كداء فينزل منها إلى الأبطح فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة لما فى ذلك من المشقة الفادحة الحاصلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان إلى ارتحل منه و مثل هذا ليس من الأفعال الجليلية و لو فعله صلى

الله عليه و سلم لكان يه أقوى دليل على مشروعيته و تأكيد العمل به و لسأله أصحابه عن السر في ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية و لو كان كذلك لنقل نقلا مستفيضا و صار من أفعاله المطلوبة و ليس هذا مثل إدارته ناقته في محل لخفة الإدارة و قد تكون لغرض اقتضاه الحال مثل قصد العدول إلى ناحية أو إرادة تكليم أحد فدارت الناقه لأجل ذلك و ذلك كثير ما يقع للإبل و مع ذلك فقد نقل فليتامل ما ذكرنا و الله تعالى اعلم انتهى.

انعطاف و هو أننا نزلنا في محل الركب مع نزول المصري أي المغربي على ناحية و هو على ناحية ثم أن أمير الحاج المصري أي حسين باي مملوك عمر باي و هو رجل صالح محسن عاقل و مع ذلك انه أراد أن يتخلف المغربي وراء المصري قهرا إذ العادة السابقة أن الركب المغربي يتخلف في الطلعة و في الرجعة يسبق على أن المصري لما تقوى و كثر فيه الظلم من الجند و ضعف الركب المغربي جعلوه وراءهم ذهابا و إيابا نعم لما تقوى ركبنا كثر نحو المصري غاية المصري كثر فيه الإبل و الخدام فتشعب أمر المغربي فاجتمع رأى جميعهم على السبق أعنى الفلالى و الجزائرى و الطرابلسى لا سيما أن سلطان فزان هو الذى قدم بنفسه قد اشتهر بالعدالة فاتفق أمرهم على التقدم بل تعاهد الجميع على ذلك غير أن الفزانى تأخر فى مكة و كذا الفلالى فلم يسبق إلا ركبنا الجزائرى غير أنه قوى قوة عظيمة لو اتفقت كلمته إلا- أنه وقع فيه النزاع لأن الشيخ سيدى محمد المسعود نجل الشيخ سيدى الموهوب نجل البركة سيدى محمد الحاج

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢١

سهل الحكم لين العريكة يترك الناس على هواهم فلما حان وقت الظهر و إذا بالناس ارتحلوا خوفا من سبق المصري لأن أميره يبعث إلينا و يقول بالذهاب جميعا إلى منزل الينبع أما أنا و أمثالى فقد رضينا بذلك و أما باقى الركب فلم يرض إلا بالسبق و لو أدى ذلك إلى الفتنة العظيمة بين المسلمين فارتحلوا و ما بقى إلا العبد الضعيف لأن من اكرتت منه قد هرب بالجمال فلم يترك إلا أربعة منها و مع ذلك أنها ضعيفة و قد دخل المصري إذ الجمال إذا هرب و دخل الصرى تعذر وجدانه فلم يبق فى المنزل إلا خيمتى و عزمت على المشى فى المصري و لم يبق معى إلا سيدى أحمد بن حمود ببلغته مع سيدى أحمد الشريف الطرابلسى و أصحابه كانوا متأخرين فى مكة بأعمالهم فوقع بنا أمر عظيم ثم إن فضل الله علينا إذ جاءنا واحد من الجمالين الذين هربوا فمسكناه و ربطناه و إذا بواحد من أصحابه قد استغاث به ليسرحة فلما ذكرنا له الحجة قال سبحان الله أكرى لكم و أكرى لنا ثم إن واحدا من أصحاب عسكر المغربي من الجزائرى أتى ليسرحة منها قهرا لكونه جعل له رشوة فلما عرفنى و علم بحالى رجع عليه و و دخل المصري نعم لحقه و مسكه و قال له لا- بد أن تأتى بالجمال الذى هرب للشيخ و هو يوم قد اشتد فيه الحر و نحن نبحت فى المصري عليه أنا و ولدى و ذلك الشخص فأصبانى عطش عظيم قد بلغ بى حد الموت فلما رآنى بعض من المصري علم بحالى فسقانى سقاه الله من حوضه صلى الله عليه و سلم فأحيانى ثم أدخلنى لخيمته حتى زال عنى ذلك فرجع إلى ذلك الجزائرى أسعده الله ديننا و دنيا فذهب بى إلى خيمة عسكر المصري أعنى بيت كاخيتهم و هو رجل مسوسى قد فرح بى فرحا شديدا و أمر بالبحث عن جمالى و قال لا تذهب به إلى أمير المصري فانه تغير شديدا على تقدم ركب

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٢

المغربي فقالوا له لا تبقى إلا خيمة الشيخ فقال لا بأس عليه ثم أنهم أنوا إلى بجملين فى محل جمالى قالوا و أما هو فلم نجد له خبرا و ذلك عند وقت العصر فذهبنا إلى الخيمة فرفعنا الأهل و الدبش على تلك الجمال و ذهبنا منفردين ثم لحقنا الركب الفزانى ثم ذهبنا كذلك إلى أن صلينا المغرب بعد مرورنا بالتنعيم و لم نزل كذلك فى أثر الركب الفزانى حتى مضى وقت العشاء بمدة فوجدناه نازلا فنزلنا معه ثم صبيحة تلك الليلة ظعنا معه إلى أن بلغنا وقت الضحى الوادى الشريف المسمى الآن فى السنة العوام بوادى فاطمة فنزلنا فيه بخيامنا بعد أن أردنا اللحوق بركبنا الجزائرى منفردين فلما سمع السلطان الفزانى بعث إلينا فكلمنا فقال بعد زوال الحر عن وقت الظهر نرتحل و نسير ليلا إلى أن نلحق بالركب فى عسفان ثم لم يخلف الوعد كذلك فظعنا عند الظهر و لم نزل كذلك إلى أن قرب

الصباح و إذا بزوجه أى السلطان المذكور توفيت فنزلوا فى الغيضة المعلومة بين عسفان و الجبل فلما دفنوها ارتحلنا عند الضحى .
ثم سرنا كذلك إلى أن اشتد الحر فوصلنا عسفان فنزل فأردنا الذهاب إلى الركب فى خليص فتشارونا مع السيد الشريف الطرابلسى فقال إلى أن الفراغ من الغداء فلما فرغنا من شغله ارتحلنا مع خيمتين للشريف المذكور مع أصحابه متقلدين بالحديد نحو الأنتى عشرة بندقة فذهبنا إلى ان طلعتا الثنية التى بعد عسفا فوجدنا فيه سباله فشرينا و توضحنا و صلينا الظهر و لم نزل كذلك ذاهبين فى الطريق المعلومة فعند العصر رأينا جموعا من العرب أصابنا منها خوف شديد لأنهم لا يغادرون أحدا إلا قتلوه و أخذوا ما له و ذلك معلوم ضرورة فاستعدنا لهم مع الخوف الشديد غير أن أصحابنا من طرابلس فيهم قوة و شجاعة إذا حلفوا بالله تعالى أنكم لا ترون شيئا إلا بعد موت جميعنا و لم نزل كذلك سائرين و هم بمرأى منا و مسمع فبعد ساعة زمانية إلا و رجل الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٣

انفصل منهم جاءنا نذيرا و محذرا منهم فقال اجمعوا أمركم و لا تهملوا حالكم و أظهروا شوكتكم فان العرب قد استعدوا لكم و أرادوا شركم و قال حسبنا الله و نعم الوكيل أو كلاما هذا معناه فعلمنا انه رجل صالح مع الاحتمال انه منهم أو من غيرهم فالذى دلت عليه القرائن انه منهم ثم تركناه و انفصلنا عنه متوقعين أمرهم و متخوفين شوكتهم فهم أكثر من أن يحصوا غير أن الله تفضل علينا بقوة اليقين فى قلوبنا فلم نستشق منهم رائحة خوف نعم لم يتحرك إلينا أحد و لا التفت إلى جهتنا شخص فهم على حالهم و نحن على حالنا بعد أن صلينا العصر جماعة فلم نزل كذلك إلى أن صلينا المغرب فرأينا النار بعدية فظننا أنه عمارة خليص فلم نزل كذلك إلى العشاء فقرنا العمارة و لم نزل كذلك إلى أن وصلنا إلى الساقية الكبيرة التى تخرج من خليص فوجدنا ركبنا نازلا بإزائها و فرحوا بلحوقنا فرحا شديدا و قالوا ما نزلنا إلا منتظرين أمركم لا سيما من انفرد عن رفقة منقطعنا عنها و هم جماعة انقطعوا معنا يأكلون و يشربون فى رحلنا نحو الثلاثة أيام إلى أن بلغنا إلى خليص فتلاحقت الناس و تم الأمر و اجتمعت الأحاب.

ثم ان الركب صار مقيما ذلك اليوم إلى أن صلينا الظهر فظعنا بعد صلاة الظهر بعد السقى و الاستقاء و دفنا من مات هناك و هو الحاج عبد الله بن الحاج الشبانى و قد جعلنى وصيا على أولاده و لم يكن له ابن و إنما له بنات فوجدنا عند زوجته طفلا جعل الله فيه البركة و لم نزل سائرين إلى أن بلغنا عقبه السكر و فيها بناء و قد كتب فى بعض أحجاره أن أقبح الناس من أتى إلى الحج بامرأة و كتب فى أخرى أن أقبح الناس من أتى بلا زوجة فهما منهما أن القبيح إذا كان قادرا و لم يأت بزوجه فعليه الذم المكتوب و أما الذى لا يقدر و أتى بها فعليه الذم المسطور و هو كذلك و نحن و الحمد لله ذهبنا بأهلنا و لم نر ما يخل بديننا و مع ذلك قد علم قلة زادنا و ضعف حالنا نعم لما تفضل الله علينا سرنا سيرة الملوك و ذلك كله بفضل من الله و منه و لم نزل كذلك الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٤

سائرين إلى الصباح ثم إلى قرب الظهر فنزلنا و بتنا فيه و لما أن أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه و نزلنا رابعا و هى قرية كبيرة ذات أسواق و نخيل كثير و واد عظيم.

ثم ظعنا منه و النفس مسرورة إلى أن نزلنا مستورة و أكثر الناس يسمونها قاع البروة و أظن أنهما مكانان متباينان ثم ظعنا منه فنزلنا بدرا و هى قرية عظيمة ذات أسواق و مساجد و مياه و نخل كثير و أتى الناس إلى الركب من كل فج عميق إذ اجتمعت الأركاب كلها هناك و أقاموا فيه يوما صحيحا فى شرهه عظيمة و نزهة كبيرة و هى بدر التى ذكرها الله فى القرآن و هى مزارة عظيمة لا سيما قبور الشهداء ثم ارتحلنا منه بعد صلاة الظهر قرب صلاة العصر و سبقنا الركب المصرى بل وقع الازدحام فى الوادى المعلوم فكثيرا لا يجد الإنسان فرجة يخردها منها غير أن المصرى لا يستوى ذاهبا إلا بعد صلاة المغرب لأنه حينئذ يسوى الأقطار و يتسع الطريق و لم نزل كذلك سائرين فى الليل الراكب ركب و الماشى ماش على أن أكثر الناس من الفلاحين و من لا قصد له فى زيارته صلى الله عليه و سلم يذهب من بدرا إلى الينبع حاصله نحن سائرون فى الليل فى ذلك الوادى و فيه قرى كثيرة ذات بساتين و انه قد وجد فيها شجر الموز و قيل انه يصلح فيها و يثمر و لم نزل راكبين كذلك سائرين فى الوادى و فى تلك الخيوف فلم يكن أشد حرا من تلك

الخيوف بل في بلاد الحجاز.

ثم كذلك إلى أن نزلنا القرية المعلومه التي ينزل فيها الركب و هي جديدة و في هذه القرية مسجد جامع له بناء متقن تجرى العين من تحته من بناء الأمير رضوان رحمه الله تعالى و كم له في طريق الحجاز من مآثر و معالم تدل على همته ثم طعنا منه عند الظهر ثم ذهبنا على الطريق المعلومه و هي الوادي و لم نزل كذلك و لم نزل كذلك إلى أن وصلنا مسجد الغزاة و هي من الأمكنه التي صلى فيها النبي صلى الله عليه و سلم و هو المسمى عند المؤرخين بمسجد عرق الظبية فرنا و سألنا الله تعالى فيه كل ما يصلح ديننا و دنيا.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٥

ثم صعدنا كذلك مع الوادي إلى وقت المغرب فبتنا إلى الصبح و مررنا ببناء عظيم و أظنه ما نقله شيخنا المذكور و نصه أتينا الروحاء وقت الظهره و تفرق الناس بأشجارها و لوقت الظهر ينتظرون و وجدنا بئرها لا ماء به و حوله بركة معطلة و يازائها مسجد و ثيق البناء صحيح و صلينا به الظهه و لوقيض الله تعالى لذلك الموضع من يعمره لكنت فيه أعانه للحجاج لكن الله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و قد ذكر السيد السهمودي قريبا من البئر مسجدا من مساجده صلى الله عليه و سلم و لا أدري هل هو المبني الأول أو غيره.

ثم سرنا و صلينا العصر بملل بعد ما تجاوزنا السيالة و مررنا على شرف الروحاء و هو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء و قد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمى بهم المكان قوم قتلوا هنالك ظلما.

و قد ذكر السهمودي أيضا مسجدا من مساجده صلى الله عليه و سلم بشرف الروحاء قال أبو سالم و كان هناك مكان محوط عليه بحجارة شبه مسجد يزوره الناس و أظنه هو و في شرف الروحاء آثار آبار معطلة و بيان دائر و قد كانت في القديم هناك قرية و لم يبق بها الآن شيء من ذلك و أخبرنا أن وراء الجبل بلدا خاليا فيه آبار و بعض نخيل و أظنه أنه السقيا فإنها قريب من شرف الروحاء فلما تجاوزنا شرف الروحاء سرنا و رأينا هلال المحرم ليلة الاثنين حتى مغيب الشفق و أهل طيبة على مشرفها أركى السلام و أطيبه رأوه ليلة الأحد انتهى.

فأقول لم نزل سائرين إلى أن بلغنا قبور الشهداء عند الظهر فوجدنا الركب المصرى نازلا هناك و مررنا سائرين كذلك إلى أن صلينا المغرب و نزلنا إلى الصبح بل قبل طلوع الفجر طعنا مبكرين عازمين نهارنا و ليلنا دخول المدينة المشرفة فسرنا نهارا و ليلا فتراسلت الناس أفواجا، و تتابعت بحور الأركاب أمواجا، كأنها البحر في

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٦

سيرها، أو البرق في خفة أمرها، و لم يسأم الناس مما لقوا من النصب و التعب لشدة الفرح، الذي استولى على الترح، و قد خف بعض ذلك بل أزاله من أصله و إذا عمرت القلوب بالمسرات، ذهلت الأجسام عما تلاقى من المضرات، و إذا تنعمت بروح القرب الأرواح، لم تبال بما حصل من المشقة الأشباح، و أى مسرة أعظم من الدنو من دار الحبيب الرسول صلى الله عليه و سلم، و أى لذة أهنأ و أتم من رؤية حضرته صلى الله عليه و سلم و الوقوف عند روضته التي هي غاية المنى و السؤل، فلعمري لقد انتعشت الأجسام بعد ما ذبلت، و طلعت شمس الأفراح بعد ما افلتت، و انبسطت أنوارها من القلوب إلى الوجوه فأشرققت، و سرى أجلالها و أعظامها من الأفتدة إلى الرؤوس فأطرققت، و ظهر أثر النشاط و المراح في الركائب فأسرعت، و خبت من دون حاد و لا سائق و أوضعت، و كأن ما ينالها من سموم النصب و لهيب التعب نسيم السحر، و كأن عرفها السائل مع الأعناق بليل المطر، لا تلوى إلى سمرة خضراء، و لا تألو ما أسرعت في موامة غرباء.

قال أبو سالم و عند ما شاهدت من صنعها الغريب ما شهدت ترنمت، فوق الأكوار و أنشدت:

خليلى ما للعيس فى سيرها تعدوو من قبل اعيت من يسوق و من يحدو

أظن لها علما يقينا بأنهالقبر رسول الله قد أصبحت تغدو

لذلك لم تجزع لحر أصابها كما جزعت بالأمس إذ مسها الجهد

فلا تعجبوا من علمها باقترابها وليس لها بالدار من قبل ذا عهد
ففضل رسول الله في الكون ظاهرا قرت به العجماء و الحجر الصلد
و أنوار أرض حلها قد تألأت أحست بها الأبصار و العظم و الجلد
دنت فدنت أعلامها فبدالنامن الشوق في الاحشاء ما لم يكن يبدو

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٧ عليها من الرحمان أزكى تحية تدوم دواما ما لأخره حد
تكاد من الأشواق أرواحنا لها تطير و لم تجزع و أن نالها كد
و لو لا الذي قد عافها من جسومنا لطارت و لكن الجسم لها قيد
و كنا نزن القرب يذهب بعض ما بها فإذا بالقرب زاد لها الوجد
و لم لا و آن الوصل محكم ذكرها غدا ناسخا ما كان يقرأه البعد
أناح لنا الرحمان فيها إقامة بخير إلى أن يحوى الجسد للحد
بجاه حبيب الله أفضل من به توسل من لم يغنه الجد و الجد
عليه الصلاة الله ما دام وصله يزيد له شوقى إذا ذكرت نجد

و لم نزل كذلك بصواعق الشوق ترتعد الجوارح منها و تطش، و لا تشاهد العين إلا مشاهدة الضمير فجنح العشق له ريش ، و الزوار
في كل واد يهرعون، و إلى الارتقاب فى كل مرقب يسرعون، ليشاهدوا بعض تلك القباب، فتمتع العين قبل تتمتع الجسم بالدخول من
الباب، و أول مكان ترى منه قبابها و أسوارها، و تشاهد منه بالبصر و البصيرة أنوارها، الجبل المسمى بمفرح، إذ لا يبقى بعد الصعود
إليه همّ مبرح، فتسارع الناس عند الدنو منه لصعوده، و تباشروا برؤية منزل الرسول و شهوده، فلم يتخلف عن الصعود إليه، إلا من لا
قدرة له عليه.

قال شيخنا المذكور عن شيخه أبى سالم و فى ذلك قلت هذه الأبيات، ذاكرنا لبعض المعالم التى هى للقرب من أصدق الآيات:

يا صاحبى نلت المنى فاستبشرو دنوت من دار الرسول الأطهر

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٨ و بدت معالم طيبة لك فاستمع أوصافها من صادق لك مخبر

هذا مفرح كاسمه و كأنه ياقوته رشت بذائب عنبر

و أمامه البيداء يسطع نورها البصائر الزوار هل من مصر

و على يمينك قد بدا غير يرى بالقرب كالثور العقير الأعفر

و انخ ركابك بالمعرس انه لمبارك و بمائه فتطهر

واحد الركاب مع العقيق منعما عينيك فى ذاك المكان النير

يا حبذا أحد نراه يحبنا و نجبه جبل جميل المنظر

فكأنما هو حلة من عسجد صبغت جوانبها بمسك اذفر

و إذا اتيت لحره غريبه و علوت غاربها علو مشمر

و دنا النقا و بدا المصلّى فاغتبطا بالقرب من أصل المفاخر و افخر

و أترك قبا من عن يمينك و اجعلن سلعاغ فديتك فى الجناب الأيسر

و اصمد تجاهك يعترضك مهنيابطحان دون مناخه و العنصر

ما بعد ذا إلا الدخول لطيبة بسكينة تمشى بدون تكبير

يهديك للحرم المكين شذاه من باب السلام أدخله دون تصبر

و عن الصلاة على النبي مسلمامهما قربت لداره لا تفتري
 و اعلم بانك أن وقفت مصلياما بين روضة سيدى و المنبر
 فى روضة من جنه متقلبا من أرضها فى طاهر و مطهر
 تغشاك من رحمت ربك نفعه تحظى بها دنيا و يوم المحشر
 فلا أنت بينهما يقينا واقف ما بين جنه عدنه و الكوثر
 فإذا وقفت أمام وجه نبيه حياك بالرضوان منه الأكبر
 الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٢٩ فهناك تستحلى البصيرة إن صفت اصل الجمال بدا بأعظم مظهر

فترى العوالم كله بجمالها و جلالها حضرت بأقدس محضر
 أصل الوجود و منبع الجود الذى عمّ المظاهر فى جميع الأعصر
 نور الإله به استنار عباده دنيا و اخرى ذى المحيّا الأزهر
 محمود كل الخلق أحمد حامدو محمد بمقام حمد أشهر
 صلى عليه الله خير صلاته و الآل و الأصحاب أكرم معشر

لما تجاوزنا جبل مفرح بمسيفة قطعناها دون مين، وصلنا إلى منتهى أبعد الحرمين، و هو حرم الشجر الذى هو بريد فى بريد، و حده
 طرف البيداء التى بها الهموم تبيد، و قطعناها بفرح و سرور، و نشاط و حبور، و جتنا قبيل الزوال ذا الحليفة قد نسي كل ألف من شدة
 السرور ألفه، و هى البلحة المباركة المكيئة، و ميقات ساداتنا أهل المدينة، و بها المعرس الذى أمر النبي صلى الله عليه و سلم
 بالتعريس فيه، فنحن فى ذلك نقتفيه، و اغتسل من أصحابنا من أراده هنالك و توضأت و صلينا بمسجد ذى الحليف و بالمعرس أيضا
 انتهى.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو أننا سرنا بالليل إلى طلوع الفجر فقربنا المدينة المشرفة ثم كذلك إلى الإشراق بل إلى الضحى دخلنا
 المدينة المشرفة و نزل الركب المغربى عند الباب الذى يذهب منه إلى جبل أحد و تخلف أكثر أصحابنا و معهم ولدى محمد حتى
 ظننت أنه نام فى بعض المواضع و خفت أن يأخذه اللصوص فكنت أسأل عنه فأخبرت أنه تخلف مع الأصحاب راكبا على فرس الشيخ
 سيدى محمد المسعود و هو راكب على بلغى إذ هو مريض قد أشرفه المرض على الموت و أوصانى على أهله و أولاده بأن أكون
 لهم حافظا و مراعىا إلى أن يصلوا مدكال فبرئ و الحمد لله ثم بعد وصول ولدنا.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٣٠

حاصله لما أشرفنا على المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام غشنا نور عظيم و بهاء قوى لا يخفى عن أهل الذوق
 السليم و الطبع المستقيم إلا من حجب بالحجاب الجسمانى و الهوى النفسانى و نزغات الشيطانى و أقول كما قال شيخنا المذكور و لم
 نزل يوما هذا فى حل و ارتحال، و انتقال من حال إلى حال، حتى إذا لاحت حدائق النخيل من المدينة و القباب، و تلك المآذن فى
 الحرم الشريف على باب، تذكرنا قول القائل و لقد صدق من قائل :

و لما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤادا لعرفان الرسوم و لا لبنا
 نزلنا على الأكوار نمشى كرامة لمن بان عنه إن نلّم به ركبا
 انتهى.

و لما استقر بنا المنزل، و اجتمعت فيه الأصحاب و الأهل، ذهبنا إلى الحرم الشريف، و المسجد المنيف، إلى أن وصلنا فدخلنا من باب
 السلام، على صاحبه أفضل الصلاة و السلام، و لقد تاه القلب فى الجلال، و البهاء و الكمال، و انبسط علينا النور فى الحال، و كنا فى
 التثقل فى مراتب التجلى أعز انتقال، فاطمأن الفؤاد و طاب الحمد و الثناء على الوصول إلى روضة المتعال، فبلغ القلب منا فغاب عن

الأ-كوان بكامل البدور و قمر العزفتزه عن سواه غير أنى خفت بل تيقنت أنى لست أهلا- لمشاهدة الرسول، و لا ممن يتأدب بأدب الفحول، نعم الفضل و المنه على الأصاغر لا يزول، فتوجهت إلى الموضع الذى صلى فيه الرسول، و هو القريب من العمود المخلق لأنه ليس بمجهول، فركعت تحية المسجد و مع ذلك أنى فى مرض و نحول، و هو مرض الإسهال و تقوى على السقم غير أن القلب منى قوى يجول فى العالم العلوى يسرى و بالعلوم اللدنية يقول، فلا يكاد يرجع بل يتيه و يتعالى فى الارتفاع فهو بعيد عن التنزل الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٣١

و النزول، فلم يمر على زمان أحلى من هذا الزمان، و لا استقررت بمكان أحلى من هذا المكان، فذلك الوقت هو عيد الأرواح، و جنة الأشباح، و بستان الفؤاد يزهر بالأقح، و حور المعارف قد حليت بحلل الألمع و الألماح، فيها لها من صفقه قد علت و قامت بالأرباح، فليس لذلك الزمان ثان، و لا لذلك العصر أوان، بخ بخ على زيارة الحبيب، و الأشراف على رحيم قريب، حريص عليكم بالمنى، رءوف بالغنا، رحيم بالهنا، لطيف بالسنا، شفيق يودنا، هنيئا مريئا لنا، إذ قال مرحبا و أهلا و سهلا بوفودنا، و هو أكرم من تكرم من أنبيائنا و رسلنا، حاشاه أن يحرم تلك الوفود و الزوار منا و من أصحابنا، بل ما عنده من خزائن الكرم لضيافه تقتنى، فانه أجل أن يمنع بعض الناس بسوء فعله و ما حصل له من العنا، نعم بسط رداء كرمه لجميع من أتاه فلم يخب أحد مما تمنى، فحقيق و جدير قد حصل للناس كلهم الغاية القصوى و المنى، و كيف لا- و الله يقول حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فليس إلا الفرح و الحبور و الهنا، لأن كل أحد من الواقفين لديه تيقن من نفسه أنه حصل له منه صلى الله عليه و سلم ما به القصد و المعنى، هذا و إن العبد ذهب للقبر الشريف، و المحل العظيم المنيف، يستنشق سباحة طلعت، صلى الله عليه و سلم و كريم نشأته، و طيب ذاته الكريمة و جميل هيئته، لأنه صلى الله عليه و سلم حى فى قبره الشريف و انه روضة من رياض الجنة ينظر القاصدين إليه بأن يكمل الكاملين، و يغسل المتلوثين، فكل يعامله على حسب نيته، و يرفعه على حسب همته، فلما توجهت إليه أقول كما قال شيخنا المذكور.

ما نصه فركعنا بمصلى النبى صلى الله عليه و سلم بإزاء العمود المخلق الكائن فيه روضة الجنة، و عظمت على من الله المنه، فتقدمت إلى الحجر الشريفة، البهية المنيفة، و لما واجهت الضريح، و عدلت عن حديث النفس إلى البيت الصريح، و أفصحت عما فى النفس أى إفصاح، و ألححت أى إلحاح، أخذت الدموع فى الانحدار، و مناداة البدار البدار، على ذلك الحال الأول، من توالى العبرات و العهد الذى ما تحول:

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٣٢ خلى الدموع لوقتهايا مقلتي و تمتعى

و تغنمى طيب اللقاوردى لزيد المشرع

هذا الذى يوم القيامة راج خير مشفع

هذا الذى إن جاد أزرى بالغيوث الهمع

فترقى خلع القبول مع الندى المتووع

و أنا الكفيل إذارحلت من البكا أن تشبع

فزرنا أكرم نبى و أفضل رسول، و سلمنا عليه و على صاحبيه الفائزين من قربه بأعظم مأمول، و أسنى رسول.

وصلنا إليه و اتصلنا بقربه فله ما أحلى و صولا وصلناه

و قمنا و سلمنا عليه و انه ليسمعنا من غير شك شككنا

ورد علينا بالسلام سلامنا و قد زادنا فوق الذى نحن زدناه

كذا كان خلق المصطفى و صفاته بذلك فى الكتب الصحاح و صفناه

و من كان وصى بالسلام لأحمد فبشراه بلغنا السلام و نبناه

و ثم دعونا للأحبة كلهم و كم من حبيب بالدعاء خصصناه

و ملنا لتسليم الإمامين بعده فإنهما حقا هناك ضجيعاه
و تمتعت بذلك الحرم و كرتت في مناهل الفضل و الكرم
انتهى.

نكتة و فائدة قد فعلنا ما أمرنا به و امتثلنا طبق ما نحن بصدده تقبل الله من الجميع و لله المنه فأيام إقامتنا بمسجده صلى الله عليه و سلم
أن لازمنا الصلوات الخمس فيه و الحمد لله ما صلينا صلاة في غيره و بالجملة فقد لازمت المسجد النبوي للصلاة
الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٣٣
و لغيرها فلا نخرج منه إلا لما لا بد منه كالأعراض البشرية و زيارة البقيع و غيره من المزارات و لما استقربن الحال خرجنا لزيارة البقيع
مع البعض من أصحابنا من المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام.
قال شيخنا المذكور.

ذكر المشاهد التي زرناها بالمدينة المنورة إلى أن قال خرجنا إلى زيارة أهل البقيع، ذوى المجد الأئيل و القدر الرفيع، رضوان الله
تعالى عليهم و تتبعنا الأماكن المشهورة إلى أن قال و دعونا الله عند كل مشهد بما نرجو الله قبوله لنا و لإخواننا و أحبائنا الحاضرين و
الغائبين و مشائخنا نسأل الله تعالى أن يعود ببركة ذلك علينا و عليهم في ديننا و دنيانا و قد استوفى السيد السمهودي في تاريخ
المدينة ذكر المشاهد الظاهرة بالبقيع أحسن استيفاء فليراجعه من أراد تحقيق ذلك.
و لنذكر بعض المشاهد ممن زرنها و إلا- فمقبرة المدينة لا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها بالإجماع فهي خارجة من الخلاف
الذي في تفضيل المدينة على مكة إذ لا نعلم مقبرة على وجه الأرض مثلها دفن فيها من سادات هذه الأمة و أفاضلها من الصحابة
خصوصا الخلفاء و أزواج النبي صلى الله عليه و سلم و أولاده و أكابر أهل بيته و سادات التابعين و تابعيهم بإحسان فهم آل زمرة
تحشر مع النبي صلى الله عليه و سلم فيهم خلفاؤه و أعمامه و عماته و بناته و ولده إبراهيم و أزواجه و أكابر أهل بيته و الجم الغفير من
أصحابه و أنصاره و أولادهم و أتباعهم فلا يشك مسلم أن ليس في أمه النبي صلى الله عليه و سلم أفضل من الزمرة التي تبعت من
المدينة.

و قد روى عن الإمام مالك رضي الله عنه انه قال دفن بالمدينة أكثر من عشرة آلاف من الصحابة و بها شهداء أحد و ليس في غزواته
صلى الله عليه و سلم أكثر من

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٣٤

هذه الغزوة شهيدا و بها شهداء الخندق و بها شهداء الحره و ليس فيمن استشهد بعد النبي صلى الله عليه و سلم أكرم منه شهيدا و كم
فيها من مآثر و مشاهد يعلم بعضها بالنظر في تأليف من ألف في فضلها فأول من يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب بالنظر في
تأليف من ألف في فضلها فأول من يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى باب البقيع قبة فيها صفيه بنت عبد
المطلب عمه النبي صلى الله عليه و سلم على يسارك و أنت ذاهب في الزقاق الذي وسط البقيع إلى ناحية المشرق و إن ملت إلى
اليمن مع سور المدينة فهناك مسجد صغير قيل انه موقف النبي صلى الله عليه و سلم حين خرج يستغفر لأهل البقيع و قيل هو زاوية
دار عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها و فيها دفن أكثر أهل البيت روى عن خالد بن عرفجة قال كنت أدعو ليله إلى زاوية عقيل فمر
بى جعفر بن محمد فقال لى: أعن أثر وفت هنا؟ فقلت: لا. قال: هذا موقف النبي صلى الله عليه و سلم، إذ خرج يستغفر لأهل البقيع.
قال المراعى و قد أخبرنى غير واحد ان الدعاء هناك مستجاب فإذا مررت كذلك تحت سور المدينة يمينا إلى أن توازى قريبا من
زاوية سور المدينة الذى فيه مشهد السيد إسماعيل فهناك على يسارك القبة الكبيرة المؤتلة فى الهواء و فيها مشهد العباس و مشهد
الحسن بن على و مشهد أمه السيدة فاطمة الزهراء على المشهور رضى الله عنهم أجمعين.

و قيل أمامهم لجهة القبلة و مشهد زين العابدين و محمد الباقر و جعفر الصادق و كثير من أهل البيت و بين هذا المشهد و زاوية دار

عقيل مشاهد متعددة إلى جهة المشرق و منها مشهد أمهات المؤمنين يروى أن فيها أمهات المؤمنين كلهن ما عدا خديجة و ميمونة رضى الله تعالى عن جميعهن و هو فى قبلة المشهد المنسوب لعقيل و منها المشهد المنسوب لعقيل و فيه قبر ابن عمه أبى سفيان بن الحارث روى أن عقيل ابن أبى طالب رأى أبى سفيان بن الحارث يجول بين المقابر فقال يا ابن عمى ما لى أراك هنا فقال أطلب موضع قبر فأدخله داره فأمر بقبر فحفر فى قاعها فقعده عليه أبو سفيان ساعة ثم انصرف فلم يلبث إلا يومين حتى توفى و دفن فيه و منها مشهد يقال أن فيه بنات النبى

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٣٥

صلى الله عليه و سلم كلهن رضى الله تعالى عن جميعهن ما عدا فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها و هو قرب مشهد عقيل و لا شك أن من مات من أهل بيت النبى صلى الله عليه و سلم فى حياته كان فى قبة قرب قبر عثمان بن مظعون لما ورد فى الأحاديث الصحيحة أن النبى صلى الله عليه و سلم لما مات عثمان بن مظعون وضع عند رأسه حجرا قال اعلم به قبر أخى و أدفن فيه من مات من أهلى و هذا المشهد قريب من ذلك.

و منها مشهد سيدنا إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه و سلم فيه قبره و قبر عثمان بن مظعون فقد جاء فى الحديث أن أول من دفنه رسول الله صلى الله عليه و سلم بالبقيع عثمان بن مظعون فلما توفى ابنه إبراهيم قالوا يا رسول الله أين نحفر له قال عند فرطنا عثمان بن مظعون و فى الحديث ما يدل على أن بنات النبى صلى الله عليه و سلم هناك فقد روى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما لما ماتت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم قال ألقى بسلفنا عثمان بن مظعون و الثابت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم لم يحضر ابنته رقية لغيبته بيدر و انه حضر ابنته أم كلثوم و زينب قال السهوى أصل المروى فى الطبرانى و أرد فى أحدهما ثم قال و الظاهر إنهن جميعا عند عثمان بن مظعون لقوله عليه الصلاة و السلام لما وضع الحجر عند رأس عثمان بن مظعون اعلم به قبر أخى و أدفن إليه من مات من أهلى رواه ابن ماجه بفتح الجيم مخففة و الحاكم و فى ذلك المشهد أيضا قبر فاطمة بنت أسد أم على رضى الله عنه كما حققه السيد و استدل لذلك بأحاديث ثم قال و هذا صريح فى مخالفة ما عليه الناس اليوم فى المشهد المنسوب إليها فى قم زقاق أقصى البقيع من شرقيه بل ليس من البقيع و فى هذا المشهد قبر عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقد روى عن حميد بن عبد الرحمن قال أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما حين نزل به الموت أن هلم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و إلى أخويك فقال ما كنت مضيقا عليك بيتك إنى كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٣٦

و فى المشهد أيضا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه روى عن ابن دهقان قال دعانى سعد بن أبى وقاص فخرجت معه إلى البقيع و خرج بأوتاد حتى إذا أتى موضع زاوية دار عقيل الشقية الشامية أمرنى فحفرت حتى إذا بلغت باطن الأرض ضرب فيها الأوتاد ثم قال إن هلك فادلهم على هذا الموضع يدفنونى فيه فلما هلك قلت ذلك لولده فخرجنا حتى دللتهم على ذلك الموضع فوجدوا الأوتاد فحفروا له هنالك و فى هذا المشهد أيضا قبر عبد الله بن مسعود فقد روى ابن سعد فى طبقاته ان ابن مسعود رضى الله عنه قال ادفنوني عند قبر عثمان بن مظعون و فى المشهد أيضا قبر خنيس بن حذافة السهمى زوج حفصة قبل النبى صلى الله عليه و سلم فقد روى أنه دفن عند عثمان بن مظعون و فيه أيضا قبر أسعد ابن زرارة رضى الله عنه.

قال السيد السهوى بعد ذكره لما تقدم مبسوطا بأدلته فينبغى السلام على هؤلاء كلهم عند زيارة مشهد سيدنا إبراهيم معه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم على القول بأنها بالبقيع و هو الأرجح انتهى.

قلت و قد تقدم إنها فى قبة العباس مع ابنها الحسن و ذريته و هو الأولى إن شاء الله تعالى قاله أبو سالم.

و منها مشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه بموضع يسمى حش كوكب فى أقصى البقيع من ناحية المشرق عليه قبة عظيمة هائلة و فى قبلته خارجه محوط من خشب مخروط فيه قبر النقشبندى رضى الله عنه و منها مشهد ينسب لحليمة السعدية

مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم شامى مشهد عثمان إلى جانب الطريق عليه قبة لطيفة.

ومنها مشهد الإمام مالك رضى الله عنه إذا خرجت من باب البقيع كان مواجهها

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٣٧

لك على يمين زقاق البقيع الذى يشق وسطه وإلى جانبه يقال أنها لنافع مولى ابن عمر وقيل لنافع القارئ وقيل لبعض ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ومنها المشهد المنسوب لفاطمة ابنة أسد بأقصى البقيع وقد تقدم عدم ارتضاء السيد لذلك قال عند ذكره لهذا المشهد والظاهر انه مشهد سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه ومن المشاهد القريبة من البقيع وليست منه مشهد سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق وهو كبير يقابل مشهد العباس فى المغرب وهو ركن سور المدينة هناك وبنى قبل السور فصار بابه من داخل المدينة والمسجد الذى بجانب المسجد لزين العابدين وعرصة المسجد داره والبئر التى بين الباب الأول والمشهد بئرته وقد ذكر انه يتداوى بها.

وقال شيخنا أبو سالم وهناك بئر أخرى فى الرحبة الواسعة التى هى خارج المشهد يقال أنها هى التى يستشفى بمائها.

غريبة قال شيخنا أبو سالم فى رحلته لما قدم ركب أهل العراق وكان غالبهم روافض بل كلهم وكانوا يكثرون زيارة مشهد السيد إسماعيل رضى الله عنه كغيره من مشاهد أهل البيت وكانوا يأتون إليه أفواجا فلما ينقطع زائر منهم أيام إقامتهم بالمدينة قال فينما نحن ذات يوم جالسون إذ جاءت طائفة منهم فيهم بعض من يشار إليه منهم فراروا وسلموا وكان من جملة سلامهم إن قالوا السلام عليك يا سيدنا إسماعيل وبالغوا فى تعظيمه إلى أن قالوا نشهد أنك على دين أخيك موسى يعنون موسى الكاظم رضى الله عنه و نشهد أنك غير مخالف له متبع لطريقه فى هذيان كثير.

وسبب ذلك والله أعلم أن الرافضة قبهم الله منهم طائفة تقدم إسماعيل على أخيه ويقولون أنه الإمام بعد أبيه وأنه أحد الأئمة الأثنى عشر المعدودين عندهم يعتقدون فيهم العصمة وهذه الطائفة تسمى الإسماعيلية وكثير منهم بأرض اليمن الآن لهم مذاهب ينتحلونها وآراء فى العقائد يعتقدونها ومن سوى هؤلاء الروافض

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٣٨

يعتقدون الإمامة لأخيه موسى الكاظم رضى الله عنه ويعتقدون أن أخاه لا ينازعه فى ذلك ويرون إن الإسماعيلية كاذبون عليه مفترون فى ادعائهم الإمامة له ولأجل ذلك يتزهون إسماعيل عن مخالفة أخيه رضى الله تعالى عنهما ومن علم أحوال هؤلاء الأئمة من أهل البيت وأسلافهم وأولادهم رضى الله عنهم وعلم ما كانوا عليه من تعظيم السنه وفور العلم وتعظيم أصحاب جدهم صلى الله عليه وسلم علم براءة ساحتهم من كذب هؤلاء الأرجاس وأفترائهم عليهم أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان، ولا جاء فى سنه نبيه بيان، ولما خرجت الطائفة المذكورة من المشهد وجاءوا إلى البئر الخارجة وقفوا عليها وترحموا ودعوا وقال لهم كبيرهم أن هذه البئر هى التى دخل فيها الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه فغاب عن أعين الناس إلا الآن وهم يظنون أنه قد مات أو كلاما هذا معناه ففضينا العجب من حمقهم وقبح اعتقادهم فى آل البيت الذى آل بهم إلى تنزيههم عن الموت وذلك معتقد الروافض بأجمعهم فى الإمام الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد بن حسن العسكرى رضى الله عنه يعتقدون أنه إلى الآن حى وانه هو المهدي الذى يخرج فى آخر الزمان الموعود به فى الحديث الصحيح أنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا قلت والعجب كل العجب من متابعة بعض أهل التصوف فى ذلك لهم حسبما نقله سيدى عبد الوهاب الشعرانى عن بعض مشائخه وانه اجتمع به وأخبره بمقدار عمره وانه جاوز السبعمائة سنه إذ ذاك بل فى كلام بعضهم ما يشير إلى أن الشيخ محيى الدين يقول بذلك ولو لا الإطالة لنقلت كلامهم فى ذلك والعلم عند الله تعالى فإن صح عن هؤلاء الأئمة أنهم قالوا ذلك فنحن ممن يعتقدهم ويجزم بصدقهم فيما يقولون لأنهم خيار الأمة إلا أنا نكل العلم إلى الله تعالى فى فهم ما ورد عنهم فى ذلك إذ ليس فى الشريعة قاطع يدل على كذب الروافض فى هذه المسألة بخصوصها وإن كانوا كاذبين فى غيرها وموافقة بعض أئمتنا الصوفية لهم فى ذلك من جهة الكشف لا يقدر فى

كمال منصبهم لعدم القاطع في كذبهم ولا يدل

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٣٩

أيضا على صدق الروافض فيما سوى ذلك مما تبين كذبهم فيه و افتراؤهم فإن موافقة المحقق للمبطل في جزئية لا دليل على بطلانها لا يدل على صدق المبطل فيما سوى ذلك ولا على كذب الصادق فيما سوى ذلك وقد وافق كثير من الأئمة المحققين أهل الكشف الصادق آراء الفلاسفة في جزئيات مما ادعوه لم يقيم الدليل على بطلانها كما وافق كثير منها أيضا الجهم الغفير من المحققين من علماء الظاهر أهل الكلام فالأشكال عليك ما تجده في كلام أئمة الطريق رضى الله عنهم موافقا للفلاسفة تارة وللروافض أخرى فذلك لا يقع في كلامهم غالبا إلا فيما لم يقيم دليل على بطلان قولهم فيه وان فرض فيما سوى ذلك و ما أبعد من جلاله منصبهم فهو مؤول قطعا فشد يدك على ما قررنا وهذه الفائدة ساق الله تقريرها في هذا المحل و لم يكن تستطيرها قبل ذلك لنا ببال انتهى.

ومنها مشهد على يسارك و أنت مار في زقاق البقيع يقال انه لأبي سعيد الخدرى رضى الله عنه و قد ذكر السيد السهمودى المشاهد كلها التي ذكرناها إلا هذا و الذى نسب لحليمه فلم يذكرهما و لا أدرى هل حدث بناؤهما بعده أو لم يتضح له صحته نسبتها لمن ذكر مع أن السيد السهمودى قد ذكر أبا سعيد فيمن دفن بالبقيع و روى عن عبد الرحمن ابن أبي سعيد قال قال لى أبى يا بنى أنى قد كبرت و ذهب أصحابى و حان موتى فخذ بيدي فأخذت بيده حتى جاء إلى البقيع فجنّت أقصاه مكانا لا يدفن فيه فقال يا بنى إذا هلكت فاحفر لى هاهنا فإذا ثبت أن قبره أقصى البقيع فلا يبعد أن يكون هذا قبره.

و أما قبر حليمه فقال لم أر أحدا ذكر أنها دفنت بالبقيع و الله تعالى اعلم و على كل حال فيزار كل مشهد نسبة إلى الله أو إلى رسوله صلى الله عليه و سلم و لو لم تصح نسبة المشهد إليه فإن لمجرد النسبة أثرا في حصول البركة.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٠

و من المشاهد التي تزار بالمدينة و ليست بالبقيع ثلاثة أحدها مشهد مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى و هو من شهداء أحد رضى الله عنهم و مشهده غربى المدينة بلصق السور من داخله و عليه قبة قديمة البناء و محله من سوق المدينة القديم روى عن أبى سعيد رضى الله عنه أنه قال أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم من نقل من شهداء أحد إلى المدينة أن يدفنوا حيث أدركوا فأدرك مالك بن سنان عند أصحاب العباء أى الذين يبيعون العباء في طرف الحنطين و لابن زباله فوافوه في السوق فدفن عند مسجد أصحاب العباء و هنالك كانت أحجار الزيت ثانيها مشهد ذى النفس الزكية و هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم أجمعين و هو أخو السيد إدريس أول أهل البيت قدوما إلى المغرب و عامه شرفاء أهل المغرب من نسله إلا شرفاء سجالماسه فإنهم من نسل النفس الزكية استوطن أسلافهم الينبع فقدم جدهم منه إلى المغرب فى السابعة و الله اعلم و مشهده بناء فى جوف مسجد كبير شرقى سلع و فى قبلة المسجد منه من عين الأزرق و هذا هو المستفيض بين أهل المدينة.

قال السيد و ذكر سبط ابن الجوزى أن كثيرا من الناس كان قد بايعه فخرج على المنصور بعد حبسه لأبيه و أقاربه فجهز إليه المتصور عمه عيسى بن موسى فى أربعة آلاف و ذكر قتله عند أحجار الزيت أى عند مشهد مالك بن سنان و أن جسده دفن بالبقيع إلى أن قال و ثالثها مشهد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه و هو بأحد فهذه المشاهد هى المعروفة بالمدينة فينبغى لزارها أن يزورها و يسلم على أصحابها و يتوسل بهم إلى الله تعالى فى بلوغ مآربه.

نكتة مما ينبغى لزار المدينة الإكثار من الصلاة فى المسجد النبوى فقد روى الإمام أحمد و الطبرانى فى الأوسط و رجاله ثقاة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه من

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤١

صلى فى مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار و براءة من العذاب و برىء من النفاق و لفظ الصلاة و إن كان شاملا للفرائض و النوافل فالظاهر من الحديث خصوص تلك بالفرائض بدليل زيادة الطبرانى لأن الفوات فيها أظهر و لا يبعد إلحاق

النوافل الموقته بأوقات معلومة بها كالوتر و ركعتي الفجر و أن ألحقت بها الرواتب أيضا و الضحى و التهجد خصوصا عند من لا يرى التحديد فيها كالإمام مالك رضى الله عنه اتسع الفضل و رجي حصول ذلك الفضل لمن أقام و لو يوما واحدا و حافظ على تلك الصلوات فى المسجد النبوى كحجاج المغرب فإنهم فى بعض السنين لا يقيمون إلا يوما واحدا فليتنبه لهذه الدقيقه و ليحافظ عليها من قصرت إقامته بالمدينه ليحصل له هذا الفضل العظيم الذى فيه خير الدنيا و الآخرة و أما من تطول إقامته بالمدينه ثمانية أيام فانه يحصل له هذا الفضل بالفرائض دون النوافل كأهل الشام فإنهم يتأخرون بالمدينه عن الأركاب المغربيه و المصريه و يتسع مجالهم فى المدينه و ينتفعون بالمشاهد من غير منازع و لا مدافع فيقيمون العشره أيام فأكثر و يتمتعون بمشاهد تلك البقاع و نصبت الأسواق، و اتسعت الأرزاق، و قسمت الصدقات، و كثرت الارتفاقات.

و بالجملة فلا ينتفع أهل المدينه بركب انتفاعهم بأهل الشام فإنهم يقدمون بتجاره كثيره و طعام و زيت و أشربه يبيعونها بالمدينه عند قدومهم و يدخرون ما بقى إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينه.

قال أبو سالم لأهل المدينه عند قدومهم عادة مذمومه و هو انه لا تبقى مخدره من النساء شريفه كانت أو وضيعه إلا خرجت تباشر البيع و الشراء بنفسها و لهن فى ذلك الوقت على الرجال أتاؤه يؤدونها لهن يتعن بها ما أحبين من اللاتق بهن من طيب و شبهه و ربما لا تقع أحدهن من زوجها إلا بالخميس ديناراً فما فوقها فقد حكى ان

الرحله الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٢

امرأة بعض المدرسين بها أعرفه طلبت منه فى ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العاده فدفعت لها عشره دنانير ذهباً فاستقلتها و ذهبت من شدة الغضب فرمت بها فى المرحاض و أتلفتها عليه و قالت أمثلى يخرج إلى السوق بهذا المقدار فلم يملك من أمره إلا أن ذهب و تسلف خمسين ديناراً فدفعتها لها و هذه حسره عظيمه و ذل للرجال الذين جعلهم الله قوامين على النساء فلا ينبغى لذى همه أن يرضى بذلك بيد أن نساءهم يبالغن فى الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة و لو مغرزة إبره حتى من أطرافها يلبسن الخفاف السود و يترفعن و يسدلن من أزهرن ما يكون نهايه فى الستر إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج فيوجد عرف الطيب منهن من مسافه فيكون ما سترنه ظاهراً بدينه باطنا و بهذا فسر بعض العلماء قوله صلى الله عليه و سلم رب كاسيه فى الدنيا عاريه فى الآخرة لأن الحكم فى الآخرة إنما هو للحقائق و من هذه صفته من النساء و ان اكتست فى الظاهر فهى فى الحقيقه عاريه لأن حقيقه التعرى إبداء ما حقه أن يخفى كما ان التستر إخفاء ما لا ينبغى أن يظهر و لا خفاء أن عطره المرأة من أعظم زينتها و ألد ما يشتهى منها و قد أمرت بإخفاء ما هذا سبيله من أوصافها فإذا ظهر منها ذلك فهى فى الحقيقه عاريه و إن اكتست فإن من العورات ما لا تواريه الكسوه و لا يواريه إلا تركه رأساً أو الخلوه ككلام المرأة فالصحيح أنه عوره كذلك عطرها فلا يواريه إلا تركه و لذلك جازلها الطيب المؤنث و هو ما ظهر لونه و خفى ريحه لأن اللون تستره الثياب بخلاف الريح فلا يستره إلا الترك رأساً أو عدم الخروج فلي تأمل. انتهى.

ذكر المساجد التى تزار بالمدينه لنسبتها للنبي صلى الله عليه و سلم فمنها مسجد قبا و هو المسجد الذى أسس على التقوى فى أصح الأقوال و قيل هو مسجده عليه الصلاة و السلام كما ورد فى حديث و جمع بأنه يطلق على كل منهما و ينبغى زيارة هذا المسجد و يختار كونها يوم السبت كما ورد فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يأتى مسجد قبا كل سبت راكباً أو ماشياً و كان عبد الله يفعلها يعنى ابن عمر

الرحله الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٣

رضى الله عنهما و ورد فى فضل هذا المسجد آثار كثيره منها ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل و عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لأن أصلى فى مسجد قبا ركعتين أحب إلى من أن آتى إلى بيت المقدس مرتين لو يعلمون ما فى قبا لضربوا إليه أكباد الإبل و عن زيد بن أسلم رضى الله عنه الحمد لله الذى قرب منا مسجد قبا و لو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل و عنه عليه الصلاة و السلام أنه قال الصلاة فى مسجد قبا كعمرة إلى غيرها من

الأحاديث والأخبار وقد أتينا فدخلناه و صلينا في مصلاه صلى الله عليه و سلم سجدة الضحى و هو إلى حرف الاسطوانة التي في الصف الموالي لمحراب المسجد عن يمين المصلى فيه و هناك أماكن أخر ذكر أنه عليه الصلاة و السلام صلى فيها منها في رحبته و منها في زاويته الشرقية من الصف الأول.

و قد ذكر السيد السهمودي ذلك كله و بينه أحسن بيان و خارج المسجد من قبلته موضع يسمونه مسجد على قال السيد لعله مسجد دار سعد بن خيثمة فقد ورد انه عليه الصلاة و السلام اضطجع فيها و توضع من المهراس الذي فيها قال و في قبلته أيضا دار كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه الصلاة و السلام لما قدم قبا قلت و لعل موضعه مسجد صغير آخر لم نجد من يسميه قاله أبو سالم.

و قريب من مسجد قبا كناسة كبيرة من شرقيه يقال إنها مسجد الضرار و دخلنا الحديقة التي فيها بئر اريس و شربنا من مائها و توضعنا منه و منها مسجد الجمعة و هو في طريق قبا نحو ميل أو أقل من مسجد قبا على يمين الذهاب من المدينة على الطريق التي تمر بين النخل و من مر على طريق الحرّة الغربية فهو عن يساره فقد روى أن النبي صلى الله عليه و سلم لما خرج من قبا في هجرته أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي و هي أول جمعة صلاها عليه الصلاة و السلام بالمدينة و هذا المشهد اليوم الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٤

في منخفض من الأرض قد أحاطت به حدائق النخل من أكثر جهاته و في شماليه أطم خراب قيل أنه محل عتبان ابن مالك رضى الله عنه و فيه أثر مسجد صغير غير مسقف يقال انه المكان الذي صلى به صلى الله عليه و سلم من بيته و مسجد الجمعة في مستبطن الوادي الذي يحول بينه و بين قومه إذا سأل و منازل قومه في غربى الوادي على طرف الحرّة و منها مسجد الفضيخ و هو مسجد صغير شرقي مسجد قبا على شفير الوادي على نشر من الأرض مرضوم بحجارة سود.

فقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال حاصر رسول الله صلى الله عليه و سلم بني النضير فضرب قبته قريبا من مسجد الفضيخ و كان يصلى في موضع مسجد الفضيخ ست ليال و سمي مسجد الفضيخ لما روى أن النبي صلى الله عليه و سلم أتى بفضيخ و هو فيه فشربه و قيل غير ذلك و يعرف الآن بمسجد الشمس. قال السيد و لا أعرف سبب هذه التسمية و منها مسجد بنى قريظة قرب حرتهم الشرقية على باب حديقته هناك و عنده خراب أبيات شمالي الحديقة من دور بنى قريظة و أطم الزبير بن باطيا القرظى داخل في هذا المسجد ففي الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم بعث إلى سعد بن معاذ رضى الله عنه لما نزل بنو قريظة على حكمه فلما كان قريبا من المسجد قال عليه الصلاة و السلام للأَنْصار رضوان الله تعالى عنهم أجمعين قوموا إلى سيدكم و ليس المراد مسجد المدينة لأنه عليه الصلاة و السلام لم يكن بها بل مسجد بنى قريظة كما أشار إليه الحافظ ابن حجر رضى الله عنه و أخطأ من زعم أن لفظ المسجد غلط و هذا المسجد كبير عليه حظيرة من حجارة قريب من القامة و في زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هي موضع منار المسجد قبل انهدامه فقد روى أن النبي صلى الله عليه و سلم صلى في بيت امرأة من الحضر و أن المكان الذي صلى فيه هو موضع هذا المنار.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٥

و منها مسجد مشربة أم إبراهيم عليه السلام فقد روى أنه عليه الصلاة و السلام صلى في مشربة أم إبراهيم و سميت بذلك لأن مارية ولدت سيدنا إبراهيم بن نيبا صلى الله عليه و سلم فيها و كان النبي صلى الله عليه و سلم أسكنها هناك فهي من أموال مخيريق التي هي من صدقاته صلى الله عليه و سلم و هذا المسجد شمالي مسجد بنى قريظة قريب من الحرّة الشرقية و منها مسجد بنى ظفر من الأوس شرقي البقيع بطرف الحرّة الشرقية و يعرف الآن بمسجد البغلة فقد روى أن النبي صلى الله عليه و سلم صلى في مسجد بنى ظفر و انه أتى لبني ظفر في مسجدهم فجلس على الصخرة التي في المسجد و معه عبد الله بن مسعود و معاذ بن جبل و ناس من أصحابه و أمر صلى الله عليه و سلم قارئا فقرا حتى أتى على هذه الآية فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية فبكى الحديث.

و عند هذا المسجد آثار في الحرّة من جهة القبلة يقال انه أثر حافر بغلته صلى الله عليه و سلم و هناك آثار على حجر كأنه أثر مرفق

يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتكا عليه و وضع مرفقه الشريف عليه و على حجر آخر أصابع و الناس يتبركون بها و منها مسجد الأجابة و هو لبني معاوية بن مالك من الأوس و هو شمالي البقيع قريب منه على يسار السالك إلى العريض بإزائه تلول هي آثار قرية بني معاوية ففي صحيح مسلم من حديث عامر بن سعيد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية حتى مر بمسجد بني معاوية دخل فركع ركعتين و صلينا معه و دعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين و منعتني واحدة سألته أن لا يهلك أمتي فأعطانيها و سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها و عن سعد بن أبي وقاص أنه كان مع النبي صلى الله عليه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٤

و سلم فمر بمسجد بني معاوية فدخل فركع فيه ركعتين ثم قام فاجى ربه ثم انصرف و عن محمد بن طلحة بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد بني معاوية على يمين المحراب نحو ذراعين قال السيد فليتحرك ذلك مع الدعاء قائما. و منها مسجد الفتح و المساجد التي في قبلته و تعرف اليوم كلها بمساجد الفتح و الأول هو المرتفع على قطعة من جبل سلع في المغرب يصعد إليه بأدراج شمالية و شرقية و هو المراد بمسجد الفتح عند الإطلاق و يقال له أيضا مسجد الأحزاب و المسجد الأعلى. و في مسند الإمام أحمد برجال ثقة عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا في مسجد الفتح ثلاثا يوم الاثنين و يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرف البشر في وجهه قال جابر فلم ينزل في أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة و روى انه عليه الصلاة و السلام مر بمسجد الفتح الذي على الجبل و قد حضرت صلاة العصر فرقى فصلى به صلاة العصر و روى انه عليه الصلاة و السلام دعا في مسجد الفتح يوم الأحزاب حتى ذهب الظهر و ذهب العصر و ذهب المغرب و لم يصل منهن شيئا ثم صلاهن جميعا بعد المغرب.

قال أبو غسان و سمعت غير واحد ممن يوثق به ان الموضع الذي دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجبل هو اليوم إلى الاسطوانة الوسطى الشارع في رحبة المسجد قال السيد و محل ذلك اليوم ما يقابل محراب المسجد من الرحبة لتوسطه فانه كان على ثلاثة أساطين بنى المشرق و المغرب فمسقفه رواق واحد كما هو اليوم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٧

لكن غيرت أساطينه و ذكر الدعاء الذي ينبغي أن يدعوا به في ذلك الموضع و هو لا-إله إلا-الله العظيم الحكيم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا-إله إلا-الله رب السموات و الأرضين و رب العرش العظيم] اللهم لك الحمد هديتني من الضلالة فلا مكرم لمن أهنت و لا-مهين لمن أكرمت و لا معز لمن أذلت و لا منذر لمن أعززت و لا ناصر لمن خذلت و لا خاذل لمن نصرت و لا معطي لمن منعت و لا-مانع لمن أعطيت و لا-رازق لمن حرمت و لا-حارم لمن رزقت و لا-رافع لمن خفضت و لا خافض لمن رفعت و لا خارق لمن سترت و لا ساتر لمن خرقت و لا مقرب لمن أبعدت و لا مبعد لما قربت اللهم أنت عضدي و نصيري بك أحول و بك أصول و بك أقاتل اللهم يا صريخ المستصرخين و المكروبين و يا غياث المستغيثين و يا مفرج كرب المكروبين و يا مجيب دعوة المضطرين صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما و اكشف عنى كربى و غمى و حزنى و همى كما كشفت عن حبيبك و رسولك صلى الله عليه وسلم كربه و حزنه و همه في هذا المقام و أنا استشفع به إليك صلى الله عليه وسلم في ذلك فقد ترى حالى و تعلم عجزى و ضعفى يا حنان يا منان يا ذا الجود و الإحسان أسألك من خير ما سألك منه عبدك و حبيبك محمد صلى الله عليه وسلم و يدعو بما أحب و ييغى أن يضم لذلك ما دعا به الشافعى عند دخوله على الرشيد في محنته فقد روى أبو نعيم من طريق الشافعى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا به يوم الأحزاب و هو دعاء عظيم و ان كان رفعه غير صحيح كما قال البيهقى و هو شهد الله أنه لا-إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام اللهم أنى أعوذ بنور قدسك و بركة طهارتك و بعظمة كلامك من كل عاهة و آفة و طارق الأنس و الجن إلا طارق يطرق بخير يا رحمان

اللهم أنت ملاذى فيك ألود و أنت غياثى فيك

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٨

استغيث يا من ذلت له رقاب الفراعنة و خضعت له مقاليد الجبابرة اللهم ذكرك شعارى و دتارى و نومي و قرارى أشهد أن لا إله إلا أنت أضرب على سرادقات حفظك و قنى رغبتى بخير منك يا رحمان.

قال و عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ يوم الأحزاب شهد الله إنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الإسلام ثم قال و أنا أشهد بما شهد به و استودع الله هذه الشاهدة و هذه الشهادة و ديعه لى عنده يؤديها لى يوم القيامة اللهم أنى أعوذ بنور قدسك و عظيم ركنك و عظمة طهارتك من كل آفة و عاهة و من طوارق الليل و النهار إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت غياثى بك استغيث و أنت ملاذى بك ألود و أنت عياذى بك أعوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة و خضعت له أعناق الفراعنة أعوذ بك من خزيك و من كشف سترك و نسيان ذكرك و الانصراف عن شكرك أنا فى حرزك ليلى و نهارى و نومي و قرارى و ظعننى و أسفارى و حاتى و مماتى ذكرك شعارى و ثناؤك دتارى لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك تشريفا لعظمتك و تكريما لسبحات وجهك أجرنى من خزيك و من شر عبادك و اضرب على سرادقات حفظك و أدخلنى فى حفظ عنايتك وجد على منك بخير يا أرحم الراحمين انتهى.

قال و تسمية هذا المسجد بمسجد الفتح لأن الاستجابة وقعت به و جاء حذيفة بخير رجوع الأحزاب ليلا به فأصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم و المسلمون و قد فتح الله عز و جل لهم و نصرهم و أقر أعينهم و قد كان النبى صلى الله عليه و سلم قال لهم ابشروا بنصر الله و فتحه و قول ابن جبير إن سورة الفتح أنزلت به لا أصل له انتهى.

قلت إنما أنزلت بين مكة و المدينة فى شأن الحديبية فرجع النبى صلى الله عليه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٤٩

و سلم منها و قد حيل بينهم و بين نسكهم و كان الصحابة بين الكآبة و الحزن فنزلت تسلية لهم و بشرى.

و أما المساجد التى فى قبلته فقد روى عن سعد بن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى فى مسجد الفتح الذى على الجبل و فى المساجد التى حوله.

قال السيد و هو ظاهر فى أنها ثلاثة غيره فأحدها الذى يلى المسجد الأعلى يعرف بمسجد سلمان الفارسى و ثانيها فى قبله هذا المسجد يعرف بمسجد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه و ثالثها فى قبله الثانى على طرف جبل سلع جانحا لجهة الشرق و يعرف بمسجد أبى بكر و هو أصغرهما و فى باب المعروف منها بعلى ماجل مأوه ينزل إليه بدرج و أهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفرج فى أيام كثيرة و لهم يوم معلوم فى السنة يخرجون إليها بالأخبية و الأطمعة الكثيرة فيبيتون بها فى لهو و طرب و هو يوم النصف من شعبان.

و قال شيخنا أبو سالم و قد خرجنا مرة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملؤا نساء و لم نتمكن من الدخول إليه و هن يطبخن فيه أنواع الأطمعة و نساء المدينة لهن عوائد مذمومة فى الخروج إلى التنزه و التفرج فى البساتين و الأماكن المنفسحة و يسمون ذلك القائلة فيقولون نقيل اليوم فى الموضع الفلانى و خروج الرجال لذلك أكثر فتكلف المرأة زوجها من النفقة ما لا قدرة له عليه و من الأماكن التى هى فى عدد المساجد و ينبغى التبرك بها و الصلاة فيها كهف سلع و هو كهف بنى حرام فقد جاء أن النبى صلى الله عليه و سلم جلس به و كان يبيت به ليالى الخندق.

قال السيد السهمودى و الظاهر انه المراد بما فى الأوسط و الصغير للطبرانى من أن معاذ بن جبل خرج يطلب النبى صلى الله عليه و سلم فدل عليه فى جبل ثواب فخرج

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥٠

حتى رقى جبل ثواب فبصر به فى الكهف الذى اتخذ الناس إليه طريقا إلى مسجد الفتح فإذا هو ساجد فقال فهبطت من رأس الجبل و هو ساجد فلم يرفع حتى أسأت به الظن فظننته قبضت روحه قال جاءنى جبريل بهذا الموضوع فقال ان الله تعالى يقرئك السلام و يقول ما تحب أن تصنع بأمتك قلت الله أعلم فذهب ثم جاء إلى فقال أنه يقول لا أسوءك فى أمتك فسجدت فأفضل ما أتقرب إلى الله السجود.

قال السيد جبل ثواب لم أقف له على ذكر لكن وصفه الكهف بما ذكر ظاهر فى إرادة الكهف المذكور بسلع على يمين المتوجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلي بقرب شعب بنى حرام فإن عن يمينه هناك مجرى سائلة تسيل من سلع إلى بطحان فإذا دخلها صعد يسيرا فى المشرق و كان الكهف عن يمينه و أعلى منه فى المشرق و كهف آخر لكنه صغير جدا فالأول هو المراد و إذا توجه من هذه السائلة طالب مسجد الفتح كان شعب بنى حرام عن يمينه و هو شعب متسع به آثار مساكنهم و أثر مسجدهم الكبير الذى زاد عمر بن عبد العزيز فى بنائه و اختلف فى صلواته صلى الله عليه و سلم بهذا المسجد بناء على أن تحولهم إلى هذا الشعب كان فى زمانه عليه الصلاة و السلام فانه روى أنه كان فى زمان عمر رضى الله تعالى عنه اه قال أبو سالم و أثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادى إلا أنه لا بناء عليه و إنما عليه حظير صغير و هو لا يعرفه كثير من الناس و لا يوبه به كذلك الغار المذكور لا يعرفه كثير من الناس و لا يقصد للزيارة و منها مسجد القبلتين و هو لبنى سلمة و سمي مسجد القبلتين لأن القبلة حولت فيه.

قال السيد و الأرجح أن تحويل القبلة كان بمسجد القبلتين و النبى صلى الله عليه و سلم كان يصلى به و ليحيى عن محمد بن الأخنس قال زار رسول الله صلى الله عليه و سلم أم بشر ابن البراء من بنى سلمة فى بنى سلمة فصنعت له طعاما فآن الظهر فصلى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥١

رسول الله صلى الله عليه و سلم بأصحابه فى مسجد القبلتين الظهر فلما أن صلى ركعتين أمر أن يوجه إلى الكعبة باستدار رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الكعبة و استقبل الميزاب و هى القبلة التى قال الله فلنولينك قبلة ترضاها فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين و هو غربى بطحان و سلع قريب من العقيق فى مكان مرتفع و الطرايق إليه فى أكمام سود من الحره و شعاب و منها مسجد السقيا اللاتى ذكرها فى الآبار و ليست السقيا التى بينها و بين المدينة مرحلة بل محل آخر بالحره الغربيه و هذا المسجد على يسار الذهاب إلى المدينة من العقيق فى الحره الغربيه على طريق الحاج عند ما يقرب من المساكن و يشرف على المدينة و قد روى أن النبى صلى الله عليه و سلم عرض جيش بدر بالسقيا و صلى فى مسجدها و دعاء هنالك لأهل المدينة ان يبارك لهم فى مدهم و صاعهم و أن يأتيهم بالرزق من هاهنا و هاهنا.

قال السيد و قد تطلبت المسجد بهذا المحل فرأيت رضما على ربوة هناك فأرسلت إليه بعض العمال ليحفر عن أساسه فظهر تريعه و بقيه محرابه و من جدرانته أزيد من نصف ذراع فى دوره مبيضة بالفضة فى بنى سلمة على أساسه الأول.

قال الشيخ أبو سالم و هو اليوم مبنى ببناء و ثيق يأوى إليه الغرباء فى بعض الأحيان خصوصا أيام الموسم فإن الركب المصرى ربما وصلوا بالنزول فى بعض السنين إلى تلك الناحية و منها مسجد ذباب و يعرف اليوم بمسجد الراية و هو على جبل صغير قريب من سلع من شقيه قريب من ثنية الوداع على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام فقد روى أن النبى صلى الله عليه و سلم صلى على ذباب و عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ضرب النبى صلى الله عليه و سلم قبه على ذباب يعنى فى غزوة الخندق و الأرجح أن الخندق كان من ناحية ذباب قال السيد و قد رأيت لذباب ذكرا فى أماكن كثيرة كلها متفقه على وصفه بأنه الجبل المذكور بحيث لا تردد

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥٢

عندى فيه.

قال و لعل اشتهاه بمسجد الراية لقول الواقدي فى وصف اصطفا فهم على الخندق و كان يزيد بن هرمز فى موضع ذباب يحمل راية

الموالى وصفهم كراديس بعضها خلف بعض إلى رأس الثنية يعنى ثنية الوداع.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥٣

ذكر جبل أحد و ما به أو بطريقه من المساجد النبوية و ذكر مشهد سيد الشهداء حمزة و من معه من الشهداء رضى الله تعالى عنهم

جرت عادة أهل المدينة شرفها الله تعالى بزيارة قبر سيدنا حمزة رضى الله تعالى عنه كل يوم خميس و ربما باتوا هنالك ليله الخميس فى أغلب الأحوال.

قال شيخنا أبو سالم و لا أعلم لاختيارهم الزيارة فى الخميس سببا إلا أن يكون ما ورد أن الأموات يعلمون بزائرهم يوم الجمعة و يوما قبله و يوما بعده فلما كان يوم الجمعة يضيق المشى فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة و زيارة البقيع و يوم السبت لزيارة قبا فلم يبق إلا يوم الخميس.

و زيارة أحد و الشهداء به من السنن المأثورة فى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه و سلم صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء و الأموات و فى حديث أبى داود خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم نريد قبور الشهداء حتى إذا أشرفنا على حرة راقم فلما تدلينا منها فإذا قبور فقلنا يا رسول الله أقبور إخواننا هذه قال قبور أصحابنا فلما جئنا قبور الشهداء بأحد على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار و كان إذا واجه الشعب قال سلام عليكم بما صبرتم فنعم أجر العاملين و روى أن فاطمة رضى الله تعالى عنها كانت تزور قبر عمها حمزة رضى الله تعالى عنهما ترمه و تصلحه و قد علمته بحجر و روى الحاكم عن على أن فاطمة رضى الله عنهما كنت تزور عمها حمزة رضى الله عنهما كل جمعة فتصلى و تبكى عنده و روى البيهقى أن النبى صلى الله عليه و سلم زار قبور الشهداء بأحد فقال اللهم أن عبدك و نبيك يشهد أن هؤلاء شهداء و إن من زارهم و سلم عليهم إلى يوم القيامة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥٤

ردوا عليه و المشهور أن الذين أكرموا بالشهادة بأحد سبعون رجلا أفضلهم و سيدهم حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه و روى أن مصعب بن عمير رضى الله عنه دفن معه ف قبر واحد و أن عبد الله بن جحش معهما قال السيد و الصحيح أنه ليس معه أحد فى قبره و أن مصعبا و عبد الله دفنا بقبره فيسلم على الثلاثة فى مشهد حمزة رضى الله عنهم و المشهد عليه قبة عالية متقنة و بابه مصفح بالحديد و حوله بناء متسع فيه بئر و فيه أخيلة للوضوء متصله بالسطح.

قال السيد و القبر الذى عند رجلى سيدنا حمزة رضى الله عنه و الذى فى الصحن ليسا من قبور الشهداء و باب المشهد فى سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس يأتى القيم من المدينة بالقصد لذلك و لأهل المدينة موسم كبير فى رجب يختلفون فيه لزيارة حمزة و الشهداء رضى الله عنهم يأتى الناس إليه من أقطار الحجاز من مكة و اليمن و الطائف و ينبع فيحشر هنالك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع فى موسم الحج و يخرج أهل المدينة إلا القليل بأولادهم و نسائهم و يخرجون معهم المضارب الحسان و الخيام الكبار و يخرج أمراء المدينة و عسكرها و تنصب الأسواق العظيمة هنالك يخرجون من أوائل رجب و يتلاحق الناس كل على قدر حاله فيتكامل خروجهم فى اليوم الثانى عشر و هو اليوم المشهود عندهم و يوم الزينة فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار و من شاكلهم و يحصل هنالك فى تلك الليلة من أنواع اللهو و الطرب و اللعب بأشياء كثيرة و الرمى بالمدافع و المحارق و يبيت الناس طول ليلهم و يومهم فى القراءة و الزيارة حول القبر و يوقد هنالك من الشمع شىء كثير.

قال الشيخ أبو سالم و أصحاب شيخنا القشاشى هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر لا تنقطع القراءة فى الليل بأجمعه و النهار بتمامه قال و كبيرهم شيخنا الملا إبراهيم رضى الله عنه معهم لا يفارق ذلك المحل و كيفية القراءة أن تجتمع جماعتهم كلهم فيبدأ

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥٥

أحدهم فيقرأ جزءاً فيستمع الباقيون فإذا فرغ من جزئه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون ثم كذلك سائر الليل والنهار. قال وحكى أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب ويقول لهم أن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها والتكلف في النفقات والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم الشبيهة بشد الرحال بل هو مع ما في ذلك من التشبه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القرية واعتقاد يوم في السنة إلى غير ذلك من الأمور التي لا توافق ظاهر الشرع وكذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا ويشدد النكير عليهم في ذلك فبينما هو ذات يوم من الأيام التي تهيأ الناس فيها للخروج جالس في الروضة أو قريباً منها إذ غلبته عيناه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدخل ويخرج من الحجره ويقوم ويقعد كفعل المتهيي للسفر وأثاث السفر معدة بين يديه فقال له يا رسول الله ما هذا الذي أرى أتريد الانتقال عنا والخروج من المدينة قال لا إنما أريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة أو كلاماً هذا معناه فانتبه الفقيه من نومه وتهيأ للخروج مع الناس فتعجبوا من ذلك وسألوه فأخبرهم بذلك ولا بدع فإن النبي صلى الله عليه وسلم تعلقاً معنواً وموافقة روحانية لأخته في سائر شئونهم وتقلباتهم فيهم بما يهتمون ويفرح بما يفرحون ويسوء ما يسوءهم فما بالك بأهل المدينة الطيبة المطيبة وكل ذلك رحمة منه لهم ورأفة بهم وحناناً ولا يمنع من ذلك كون بعض شئونهم قد يلابسها ويخالطها خلاف المشروع فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته معهم على هذا الحال وفيهم المسيء والمحسن والطائع والعاصي بل المومن والمنافق فيعلم جاهلهم ويرشد ضالهم ويرفق بالشرير الأخلاق منهم حتى يتقاد ولم تحمله إساءتهم ولا عصيان بعضهم بل نفاقه على مفارقتهم والتخلي عنهم إذ لو تخلى عنهم لعوجل المسيء بالهلاك وخذل المطيع في طاعته ولم يبال الله بهم باله فكذلك حاله صلى الله عليه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥٦

وسلم مع أمته بعد موته وقد قال حياتي خير لكم ومماتي خير لكم الحديث فهو معهم صلى الله عليه وسلم في كل أطوارهم وتقلباتهم بمدده الرباني وسره الحقاني يستغفر لمسيئهم ويشفع له ويشهد لمحسنهم ويستوهب له من الله الزيادة ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم ولا يغفل عنهم طرفه عين في كل شئونهم فلا يستبعد حضوره صلى الله عليه وسلم بروحانيته في محافل المسلمين ومواسمهم ومحال اجتماعهم على أي حال كانوا فلو فارقتهم روحانيته صلى الله عليه وسلم الشريفة طرفه عين لصلوا عن سواء الطريق، ولهوت بهم الضلالة في مكان سحيق، فسبحان من منّ به على عباده، وجعله برزخاً بينه وبين أهل واداه، فما أرأفه بنا من إله إذ جعله رسولاً إلينا، ورحمة علينا، نسأله سبحانه أن لا يخلينا من مدده صلى الله عليه وسلم طرفه عين آمين.

وتفهم من هذا ما يحصل من الاجتماع العظيم في محال بعض الصالحين واشتماله على بعض المناكر ومع ذلك يحضره الأولياء وأرباب القلوب من الصالحين فيشاهدون حصول مدده لكل زائر، وسرنا سره في كل حاضر، وذلك كمولد سيدي أحمد البدوي بمصر ومولد الإمام الشافعي وعند سيدي أبي مدين وسيدي أبي يعزى وسيدي أبي العباس السبتي بأرض المغرب وعند مولاي عبد السلام بن مشيش يوم المولد النبوي وغير ذلك من الأماكن الشهيرة المنسوبة لكثير من الأولياء شرقاً وغرباً.

فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في كثير من تواليفه عن جماعة من أهل الكشف أنهم يشاهدون النبي صلى الله عليه وسلم في مولد سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه وانه يحضره كل سنة مع اشتماله على كثير من الأمور التي لا تنبغي.

قال قد أخبرنا شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي عن بعض مشائخه أن سيدي عبد الوهاب الشعراني عزم مرة على التخلف عن مولد سيدي أحمد البدوي وإن لا يذهب إليه لما يقع هنالك من المناكر فلما عزم على ذلك وقرب الوقت رأى في المنام

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٥٧

سيدي عبد العالی خديم الشيخ سيدي أحمد البدوي وخليفته من بعده فقال له مباشطاً يا عبد الوهاب لا تنقطع عن زيارتنا ونحن نطمعك ملوخية والملوخية عن أهل المصر والريف من أشهى الأطعمة التي لا كبير مؤنة فيها فلما استيقظ عزم على المشي فذهب

فكان من الأمر الغريب الدال على صدق الرؤيا ليه وصوله لمكان الشيخ أتفق انه لم يطبخ أحد تلك الليلة في الزاوية كلها ولا في القرى التي حولها إلا الملوخية فكانت طعامه و طعام أهل تلك الناحية كلها في تلك الليلة والحكايات الدالة على أمثال هذا كثيرة من انتصار الأولياء لمن آذى من حضر محالهم أو انتهك حرمتهم ولو كان من أدنى ممن يستحق ذلك في بادىء الرأى ومع هذا كله فلا يتخذ هذا ذريعة إلى الاستهانة بإقامة الحدود على من وجبت عليه في تلك المحال وإلى التغافل عن إزالة المناكر الواقعة هنالك لمن قدر عليها وإلى التعامى عن ذلك بل التنبه لذلك والاشتغال به لمن له قدرة عليه من أفضل القربات لمن حسنت نيته ولا يمنعه من ذلك ما يقع لبعض من تعاطى ذلك من الأمور التي هي كرامة لذلك الولي فإن ذلك في الغالب لا يقع إلا لمن لم تكن له نية صالحة في النهي عن المنكر وقصد بذل إظهار نفسه أو تنقيص ذلك الولي فإن فرض وقوعه لحسن النية فهو مما يزيد عند الله قربة و يقيم حرمة عبده المنسوب إليه المكان والله في ذلك أسرار خفية لا تخفى على أهل القلوب الصافية.

قال وإلى مثل هذا التقرير يجنح شيخنا علامة الوقت سيدى عبد القادر الفاسى رضى الله عنه فين يأوى إلى قبور الصالحين من الجناة وقد يكون على أحدهم حد من الحدود فلا ينبغي إهماله وإن أخرج من المحل كان في ذلك هضم لحرمة الولي واستهانة بقدرة عند العامة فليخلص من ابتلى بذلك عمله لله تعالى وليصدق الله في أمره فإن الله جاعل له من ذلك مخرجا والله الموفق انتهى.

تتمه مما يجب التنبه لمثل ما سبق ما يقع عند الصالحين في وطننا من المناكر

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٥٨

و المحرمات التي لا تحصى كثرة كاجتماع النساء والرجال الذين فيهم فتنة عظيمة فإن أكثر ذلك الشبان والشابات المتنعمات فمن شاهد ذلك تاه عقله و خاب سعيه و ضل قصده و فسد مذهبه و قبح عمله إلا من حفظه الله و عصمه بقصده الربانى و سره النورانى و حبه الصمدانى لأن روحانيته صلى الله عليه و سلم امتزجت به فلا يضره ما يقع في ذلك المكان من المناكر لأنه محجوب عن التلبس بها و الإناطة بماهياتها و إن شاهدها بحواسه الظاهرة لأن قلبه مجذوب و ممحو عن سواه فقلبه مشغول بالأحكام الظاهرة و قلبه منور بنور الحقيقة فتاه في حضرة المكون و إن إلى ربك المنتهى إلا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العالمين و ذلك كالا اجتماع بيجاية آخر رمضان فانه موسم عظيم يجتمع فيه العامة و الخاصة و كذا يوم عرفه عند قبر القطب سيدى يحيى العيدلى فإن النساء و الرجال يجتمعون هنالك و كذا عند الولي الصالح سيدى على بن شداد و سيدى على بن موسى بل و عند سيدى عبد الرحمن الثعالبي (نفعنا الله ببركاته آمين) فى الجزائرى و سيدى سعد السفرى بقسنطينة و فى جبلنا المثقوب و كذا قبر جدنا سيدى أحمد الشريف و قبر سيدى على بن عبد العزيز و كذا مسجد حنيف و غيرهم من المواضع التي يكون الاجتماع فيها فى الظاهر على الله و فى الباطن على شهوات النفس و خطرات الشياطين و وساوس اللعين فإن مفاصد تلك المحال أعظم من خيرها.

نعم قد شاهدنا من تلك الجموع حين كنا نجتمع معهم قوة الحب فى الله و الشوق لديه بل و الله كنت شابا لا يخطر لى خاطر فاسد و إنما شغفت بحب الله و حب رسوله صلى الله عليه و سلم و غيرى ممن له قوة نفس و شغف فى النساء قد حصل له مقصوده من هؤلاء الجموع كما حكى لى عن بعض الطلبة من فساقهم و كذا بعض الفقراء المدعين بالكذب بيد أنى لم أشاهد منهم ذلك.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٥٩

و بالجملة فإن كان فى تلك الجموع العلماء العاملون و الصديقون و الصالحون و غيرهم ممن له نصيب قوى فى الله و الرغبة لديه بأن يكون له تعظيم الشريعة و تعظيم أهلها فالغالب أن من له نية صافية و قصد صحيح أفلح إذ الشوق ربانى و الحضرة الإلهية و الدائرة نورانية فلا يخيب قاصدها إن صفا قلبه من اللهو و الفساد فلا شك انه يفوز بنيته لأنهم من قوم لا يشقى بهم جليسهم فلا يقدر بما وقع فيه من المناكر لكثرة المجتمعين لأن روحانيته صلى الله عليه و سلم سارية فى إسرارهم فلا يخلو محلهم ذلك من أهل التصريف و رجال الغيب فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قره أعين من الرحمة و الأسرار النبوية و الفتوحات [الإلهية لما علمت أن كل جمع يستحيل تواطؤه على الباطل لا بد فيه من الرحمة الإلهية و الفتوحات] النبوية و العلوم اللدنية و الأسرار النورانية و لا يضرهم المخالف

لهم فى أفعالهم ومقاصدهم وأحوالهم الشريفة لأن جمعه صلى الله عليه وسلم لا يخلو من المنافقين والعاصين وكذا من الكفار غير انه لا يرضى بذلك وأن حصل له العلم بشيء من ذلك نهى عنه لأنه لا يقر على معصية وأما غيره قد يحصل لهم العلم بذلك فلا يجدون سييلا- للنهى أو للمنع أما لكثرة المجتمعين أو ذلك موكل لأرباب الولاية فإنهم المكلفون به أو قلوب الصالحين من ذلك الجمع غائبة عن ذلك المنكر.

حاصله كل سوق من الأسواق أو جمع من الجموع لا يخلو عن أهل اللهو والباطل لكن إن كانوا غير مقصودين فلا يلتفت إلى ذلك إذ النظر إلى من يصلح منهم فلا يخيب من له قصد صحيح وإن كان أهل اللهو هم المعتبرون فلا يصلح المجتمع

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٦٠

بهم والقصد لديهم فاعلم هذا رحمك الله وأشد يدك عليه حاصله الحق يدور مع أهل المحفل فإن كان الغالب فيهم أهل العلم والعمل والجدب الصحيح والصدق الصريح فقاصدهم يفوز من غير شك لأنهم العبرة وإن كان المحفل أعد لأهل الفساد ومن أجلهم وقع فلا- شك أن قاصدهم خائب لا- يفلح أصلا وإن كان فيه أهل الخير فلا التفات إليهم إذ المقصود أهل اللهو و سطوة المجلس لهم فالأحوط عدم الاجتماع بهم وهذا هو الفارق بين المحفلين فالمحفل الأول ضوء شمس تزايد والمحفل الثانى شمس منكسفة على الدوام والحمد لله على ما من الله به على فى هذا المقام.

قال شيخنا المذكور ما نصه و من الأماكن التى ينبغى زيارتها فى أحد قبور الشهداء سوى قبر حمزة و من معه و أماكنهم ليست معلومة العين على التحقيق لكنها معلومة الجهة فاما مصعب بن عمير و عبد الله بن جحش فليسلم عليهما فى مشهد حمزة كما تقدم و أما سهل بن قيس من بنى سلمة فقبره دبر قبر حمزة شاميا بينه و بين الجبل و أما عمرو بن الجموح و عبد الله بن عمرو بن حرام فى الموطأ أنهما فى قبر واحد مما يلى المسيل قال الواقدى و مع عمرو بن الجموح قبر خارجة بن زيد و سعيد بن الربيع و النعمان بن مالك و عبد الله بن الحسحاس قال أبو غسان و قبرهم مما يلى المغرب من قبر حمزة نحو خمسمائة ذراع.

و قال السيد و قد تأملته فوجدته كذلك بالريوة التى غربى المسيل الذى هناك و مجرى العين بقبرهم من القبلة و قد روى أنا أبا أيمن مولى عمرو بن الجموح معهم أيضا و كذا خلاد بن عمرو بن الجموح فيسلم على هؤلاء الثمانية هنالك قال و أما بقية الشهداء فلا تعرف قبورهم و الذى يظهر أنها قرب قبر الموضع المذكور و بقرب قبر حمزة رضى الله عن جميعهم و أسماءهم مذكورة عن أهل السير.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٦١

و فضل جبل أحد على الجملة معلوم مشهور فقد قال عليه الصلاة والسلام أنه يحبنا و نحبه و كان يأتيه و قال انه على باب من أبواب الجنة فترابه يستشفى به و قال الزركشى ينبغى أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم تربة حمزة رضى الله عنه أى المأخوذة من المسيل الذى به مصرعه لا طباق الخلف و السلف على نقلها للتداوى للصداع.

قال السيد و تربة صهيب أولى بذلك و للطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأحد هذا جبل يحبنا و نحبه على باب من أبواب الجنة و هذا غير جبل يبغضها و نبغضه على باب من أبواب النار و غير جبل كبير على يسار ذى الحليفة و أنت خارج من المدينة و هو يقابل أحدا إلى ناحية مكة من المدينة و أحد إلى ناحية الشام.

قال السيد و سمي أحد أحدا لتوحده و انقطاعه عن جبال أخرى هنالك أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد و لا اسم أحسن من اسم اشتق من الأحديت بخلاف غير الذى هو اسم الحمار المذموم أخلافا و الحب فى أحد من الجانبين حقيقة كما صححه النووى و غيره و لذا كان من جبال الجنة إذ المرء مع من أحب و لا مانع من وضع الحب فيه كما وقع التسييح من الجبال و قد خاطبه صلى الله عليه و سلم مخاطبة من يعقل فقال لما اضطرب أسكن أحدا و لا ينكر وصف الجماد بحب الأنبياء ما حنت الأسطوانة لمفارقتة صلى الله عليه و سلم حتى سمع القوم حينها.

و مما ينبغي لزائر أحد أن يأكل شيئا من نباته فقد روى عن زينب بنت نبيط و كانت تحت أنس بن مالك رضى الله عنهم أنها كانت ترسل أولادها فتقول اذهبوا إلى أحد فأتوني من نباته فإن لم تجدوا إلا عضاها فأتوني به فإن أنس بن مالك رضى الله

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٦٢

عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول هذا جبل يحبنا و نحبه قالت زينب فكلوا من نباته و لو من عضاها قال فكانت تعطينا منه قليلا قليلا فتمضغه انتهى.

لطيفة قال أبو سالم و قد وقع البحث بين الطائفة المالكية و نحن بالمدينة عما يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخبيز و غيره فانه يؤتى به و يباع فى الأسواق فهل يحل للمالكي و من لا يرى جواز ذلك شراؤه و أكله فكنتم أميل إلى الجواز إذا كان القاطع لذلك و البائع له ممن يرى جواز ذلك فى مذهبه لأنه فعل ما يسوغ له شرعا لأننا نقول بأصايبه كل مجتهد و إن كنا نرى أن غيره أصوب و الممنوع عندنا إنما هو قطعه فلو وجد الإنسان منه شيئا مقطوعا بنفسه من غير أن يكون له سبب فى قطعه جاز له الانتفاع به و هذا بعد القطع و وصوله إلى الأسواق بوجه سائغ لمتناول ذلك صار فى حقنا كالمقطوع بلا سبب إذ لا سبب لنا فى قطعه و لا يقاس النبات على صيد الحرم الذى هو ميتة لظهور الفرق بين الصيد و النبات و الإجماع على حرمة صيد الحرم و الخلاف فى نبات حرم المدينة و لو فتح باب الامتناع من الشراء لأدى ذلك إلى فساد كبير و حرج فى المعاملات بالامتناع عن ذبائحهم و الشراء منهم و البيع لهم لوقوع الخلاف بين الأئمة فى فروع كثيرة من الذبائح و الصيد و أبواب الربا فيمنع البعض ما يجيزه غيره فلو كنا لا نشترى إلا ممن يتقى الربا على مذهبنا و يشترط فى الصيد و الذبيحة و اللقطة ما نشترطه لأدى ذلك إلى ضيق و حرج و تضليل بعض الأئمة لبعض و هو بعيد من نظر الشارع فلما صح لنا الاقتداء به فى الصلاة صح لنا أيضا فى غيرها مما يقع فيه الارتباط بين الفعلين فإن البيع حقيقة متوقف حصولها على وجود فعل فاعلين من بائع و مشتر فلا يشترط فى صحة البيع إلا كون كل فعل واحد منهما موافقا للمشروع فى مذهبه و معتقده و كذلك صلاة المأمون متوقفة بصحتها على وجود فعل فاعلين هما الإمام و المأموم فإذا كل منهما ما تصح به الصلاة فى مذهب إمامه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٦٣

صحت الصلاة و لا يلزم كون الإمام فاعلا لما تصح به الصلاة فى مذهب المأموم على المذهب المشهور. قال و بعد أن كتبت هذا رأيت فى نوازل البرزلى ما يدل على أن اجتناب مثل ذلك من الورع و تشتد فيه الكراهية عند بعد المأخذ و نص ما ذكر و قد سئل اللخمي عن تناول ما اختلف فيه الفقهاء كشافعى رأى مالكيًا غصب طعام فنقله أو عقد عقدا فاسدا فى عين و خلطها و قال ملكت ذلك على مذهبي فهل ملكه ملكا صحيحا لا شبهة عليه فيه أم لا و هل يجوز للشافعى أن يعامله بالشراء منه و الأكل له أم لا فأجاب لا ينبغي لمن قلد الشافعى أن يفعل ذلك و هذا مما يتأكد فيه الورع و إن قلد مالكيًا فى هذا و أمثاله فلا بأس به و إن كان شافعيًا مقلدا لمالك فى هذا و لعل هذا مما تشتد فيه الكراهة لعبد المأخذ فيه البرزلى لظاهرة أن العزيمة فى هذا أرجح من الرخصة إلا أن يقال أن هذا مما تعارض فيه الخطر و الإباحة فالورع تركه انتهى.

قال فقد ظهر من قوله لا ينبغي و من قوله مما يتأكد فيه الورع أن لك سائغ لا ممنوع و هذا كله إذا لم نقل بجواز التقليد للمذاهب المختلفة مع القول بصحتها و أما إن قلنا به و هو قول جم غفير من المحققين منهم عز الدين ابن عبد السلام فقد ارتفع الأشكال و اتضح المقال انتهى كلامه.

و من فضائل أحد ما روى عن جابر رضى الله عنه مرفوعا أن موسى و هارون عليهما السلام أقبلا حاجين فمرا بالمدينة فخافا من يهود فخرجا مستخفيين فنزلا أحدا فغشى هارون الموت فقام موسى فحفر له و لحد ثم قال يا أخى أنك تموت فقام هارون فدخل فى لحد فقبض فحشى موسى عليه التراب. قال السيد و هناك شعب يعرف بشعب هارون يزعمون انه بأعلاه و هو بعيد جدا و بأعلى الجبل بناء اتخذ بعض الفقهاء قريبا.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٦٤

قال أبو سالم وقد شاهدت هذا البناء يوم طلوعنا إلى الجبل في الرجبية وهو صورة مسجد قريب منه موضع معد لماء المطر وهو في قبة الجبل في مكان عال مشرف على المدينة وما حولها من البقاع فيه نزهة للناظرين خصوصا وقت طلوعنا إليه في فصل الربيع وبعض الناس يسمون تلك القبة قبة هارون قال وقد أخبرني بعض الناس أن بانيها رجل كان يتعبد هنالك واسمه هارون فسميت به ولم تزل إلى الآن يتعاهدها الناس للعبادة والخلوّة وما أولاها بذلك فقد وجدت بقلبي عند الوقوف بها والصلاة هنالك ما لا مزيد عليه من الحلاوة والتلذذ بالعبادة وكيف لا ومستقبل القبلة فيها يكون الحرم النبوي بين يديه والقبة الشريفة بين يديه وبقاع المدينة المشرفة كلها تلقاه ومكة تجاهه حتى أنه ليخيل عليه انه مشرف على الحرمين الشريفين وما بينهما وما فيهما من الأماكن المشرفة وعلى كل حال لم أر مكانا ينشرح فيه الصدر ويصفو القلب من الأكدار وتتجلي فيه عظمة الربوبية وجلالة النبوءة كهذا المكان يقرب منه في ذلك جبل حراء وجبل ثور بمكة.

وفي أصل الجبل غار يزعمون ان النبي صلى الله عليه وسلم اختفى فيه ولا يصح ذلك ففي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما وجال الناس جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار إنما كان تحت المهراس انتهى.

وفي أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع في الصعود للجبل الموضع المسمى بالمهراس وهو مواضع منقورة في الجبل بين صخور عظيمة يجتمع فيه المطر فلما تخلو منه. ومنه غسل جرحه صلى الله عليه وسلم يوم أحد كما في الصحيح وتحت المهراس بقليل موضع يقال انه موضع الصخرة التي نهض صلى الله عليه وسلم ليعلوها وجلس طلحة تحته رضي الله عنه وقال ابن هشام في السيرة بلغني عن ابن عباس رضي

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٦٥

الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغ الدرجة المبنية في الشعب أي فليست هي الصخرة المذكورة.

ومن المساجد التي تزار في أحد المسجد الملاصق بأحد على يمينك وأنت ذاهب في الشعب إلى المهراس وهو صغير منهدم. قال السيد والناس يسمونه مسجد الفسح ويقولون أن فيه نزلت يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الآية ويقال أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه الظهر والعصر يوم أحد بعد انقضاء القتال وعن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في المسجد الذي بأحد في شعب الخرار على يمينك لازق بالجبل.

قال أبو سالم وبين هذا المسجد ومشهد حمزة في البيداء التي هناك مسجد صغير مبنى بالحجارة المنحوتة مرتفع عن الأرض أقل من قامه يصعد إليه بدرج غير مسقف ولا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية واحدة ثانيا للإنسان قال أن فيه كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وهذا المسجد لم يذكره السيد السمهودي رضي الله عنه .

ومنها مسجد ركن جبل عينين الشرقي على قطعة من الجبل وهذا الجبل في قبلة مشهد سيدنا حمزة رضي الله عنه وهو الجبل الذي كان عليه الرماة يوم أحد وموضع المسجد هو المكان الذي طعن فيه سيدنا حمزة رضي الله عنه وقد روى عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر يوم أحد على عينين الطرق الذي بأحد عند القنطرة. قال السيد يعني بالقنطرة قنطرة العين التي كانت هناك قديما.

ومنها أيضا مسجد الوادي على شفيره شامى جبل عينين قريب من المسجد قبله يقال انه مصرع حمزة رضي الله عنه وأنه مشى بطعته من الموضع الأول إلى هذا الموضع

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٦٦

فصرع وقد روى أن حمزة رضي الله عنه لما قتل أقام فيه موضعه تحت جبل الرماة ثم أمر به النبي صلى الله عليه وسلم فحمل من بطن الوادي ويسمى هذا المسجد أيضا بمصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال السيد و تسميته بالمصلى أما لكونه موضع مصلى الصبح على ما جاء فى غزوة أحد أن النبى صلى الله عليه و سلم صلى بأصحابه الصبح بموضع القنطرة و عليهم السلاح يعنى قبل القتال و أما لما ورد من صلواته صلى الله عليه و سلم على حمزة .
و من المساجد مسجد طريق السافلة و هى طريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة رضى الله عنه يقال انه مسجد أبى ذر الغفارى رضى الله عنه و روى البيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه كان برحبة المسجد فرأى النبى صلى الله عليه و سلم خارجا من الباب الذى يلى المقبرة فخرج على أثره فدخل حائطا من الأسواق فتوضأ ثم صلى ركعتين فسجد سجدة أطال فيها و أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له أن جبريل عليه السلام بشرنى انه من صلى على صلى الله عليه و من سلم على سلم الله عليه و فى بعض طرفه ذكر السجود فقط و قال فسجدت لله شكرا قال السيد بعد نقله لما تقدم و الأسواق قريبة من محل هذا المسجد فلعله مسجد السجدة المذكورة.

قال أبو سالم و فى الطريق إلى أحد أيضا عند آخر النخل مسجد صغير محوط عليه بأحجار يقال أن النبى صلى الله عليه و سلم جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أحد و لم يذكره السيد رحمه الله تعالى.

و من المساجد التى ينبغى زيارتها و الصلاة فيها مساجد مصلى الأعياد التى صلى النبى صلى الله عليه و سلم العيد فيها و قد ورد انه صلى العيد فى أماكن متعددة

الرحلة الورثيلانية، ج ٢، ص: ٥٦٧

و المشهور منها الآن ثلاثة كلها غربى المدينة خارج الباب المصرى بين الموضع المعروف بالمناخة و بطحان أحد يسمى مسجد مصلى العيد و الآخر ينسب لعلى و الآخر لأبى بكر رضى الله تعالى عنهما.

قال السيد و لعل سبب نسبتها إليهما كونهما صليا فيهما العيد أبو بكر رضى الله عنه فى خلافته و على رضى الله عنه لما حصر عثمان رضى الله عنه و لا يبعد أن يصليا فى غير مصلى النبى صلى الله عليه و سلم و روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خرج إلى المصلى يستسقى فبدأ بالخطبة ثم صلى و قال هذا مجمعا و مستمطنا و مدعانا لعيدنا و لفطرتنا و اضحانا فلا يبنى فيه لبنة و لا خيمة و قد حمل بعضهم قوله صلى الله عليه و سلم ما بين بيتى و مصلاى روضة من رياض الجنة على مصلى العيد فتتسع الروضة و فضل الله تعالى أوسع و عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه كان النبى صلى الله عليه و سلم إذا قدم من سفر فمر بالمصلى استقبل القبلة و وقف يدعو و مصلاه صلى الله عليه و سلم عند العلم الذى عند دار كثير بن الصلت و هناك أيضا مسجد ينسب لسيدنا عمر رضى الله عنه و لعل السبب كما تقدم و هذا آخر القول فى المساجد المعلومه العين بالمدينة المشرفة و أطرافها و قد زرتها و الحمد لله رب العالمين مع حسب الإمكان و يتقبل الله بالقبول التام.

الرحلة الورثيلانية، ج ٢، ص: ٥٦٨

ذكر الآبار التى ورد أن النبى صلى الله عليه و سلم تغل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة و الاستشفاء بمائها

و لم نذكر منها إلا ما زرتاه و شربنا من مائه و هى سبعة أولها.

بئر اريس كجليس نسبة إلى رجل من اليهود اسمه اريس و هو الفلاح بلغه أهل الشام و فى الصحيح خبر خروج رسول الله صلى الله عليه و سلم و أن أبى موسى الأشعرى خرج فى أثره حتى دخل بئر اريس و توسط فيها و كشف عن ساقه و أن أبى بكر جاء ثم عمر ففعلا مثل ذلك ثم جاء عثمان و بشر الجميع بالجنة الحديث بطوله و فى الصحيح أيضا أن خاتم النبى صلى الله عليه و سلم كان فى يد أبى بكر ثم فى يد عمر ثم فى يد عثمان حتى سقط منه فى بئر اريس فنزحت فلم يوجد و أما ما اشتهر على الألسنة أن النبى صلى الله عليه و سلم تغل فيها فقد قال العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء لم أقف له على أصل قال السيد و من الغريب قول العز ابن

جماعة في منسكه قد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيه و هذه البئر في حديقة غربي مسجد قبا قريبا منه و ماؤها غزير يسنى منه إلى بركة في الحديقة و في هذه الحديقة أنواع من الفواكه و الأشجار و بها عنب كثير فلما يدخل أحد للزيارة في وقت العنب إلا و يشتره و يأكله فيها حتى ظن بعض العوام أن ذلك من القربات و أهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقاء فيها للتفرج و التنزه و قد جعل لمائها نفق من أسفلها على وجه الماء حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء و هي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس و هي بئر كبيرة قد أمدت بمياه آبار متعددة منها بئر اريس فصارت متبحرة يشخب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار فاتخذت لها أسراب من تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان ثم إلى غربي المدينة فقسمت جداول فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه فأظهرت داخل المدينة في مناهل متعددة و بنى لها بناء متقن يهبط إليها في

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٦٩

نحو ثلاثين درجة محكمة البناء متقنة الوصف واسعة المشى منها يستقى أهل المدينة كلهم لشربهم.

قال أبو سالم و الذي رأيت منها ثلاثة مواضع أحدها شرقي المسجد بينه و بين باب البقيع في المكان المسمى الآن بالحارة و الآخر خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط و الآخر شامى المسجد بعيدا منه إلى ناحية باب الشامى و أما خارج المدينة فأخرجت في محال متعددة أيضا ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلا كما انحدرت في أرض المدينة إلى أن خرجت على وجه الأرض قريبا من الغابة شرقي مسجد رومة بينه و بين أحد و عليها هنالك مزارع و قد رأيت جدولا منها قريبا من مسجد الرابية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج و هذه العين المباركة من أغزر العيون و أحلاها ماء و ألد بها جل ارتفاع أهل المدينة و منها كل السيالات الموقوفة بالمدينة و منها تملأ الدوارق التي توضع في الحرم الشريف للشرب و هي لا تكاد تحصى كثرة فما أعظم بركتها و أوسع نفعها و لقد شاهدت من مستشفى بمائها فيشفى و قد حملنا بعض مائها للاستشفاء و لله در القائل:

لئن قيل في زرق العيون شامة فعندى أن اليمن في عينها الزرقا

و تسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة و صوابه عين الأزرق لأن مروان الذي أجزاها لمعاوية كان أزرق العينين فلقب بالأزرق و كان أجزاؤها لهذه العين بأمر معاوية لما ولاه المدينة و كان لمعاوية رضى الله عنه اهتمام بذلك فأجره في المدينة و ما حولها عيونا كثيرة قد دثرت كلها و لم يبق إلا هذه العين المباركة و قد اعتنى بشأنها من قبل السلطنة فلها أوقاف معلومة و جرايات تأتي من عند السلطان و لها أمير معلوم و له خدام يتفقدون أحوالها على ممر الأزمنة و يصلحون ما و هي منها و لولا ذلك لدثرت

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٧٠

كغيرها من العيون.

قال الواقدي رحمه الله تعالى و كان بالمدينة على زمان معاوية صوافى كثيرة كان يجذب بالمدينة و أعراضها ألف و سق و خمسين ألف و سق و يحصد مائة ألف و سق حنطة انتهى فهذا الذي كان يجده معاوية وحده فما بالك بما كان لغيره من الرعايا و وجوه الناس فقد كان للصحابه رضى الله تعالى عنه و أبنائهم في ذلك الزمان ضياع و قرى و مزارع كثيرة بالمدينة و ما حولها و ما أظن هذا العدد الذي كان يستغل لمعاوية رضى الله عنه بالمدينة قط يستغل في زماننا هذا من أرض الحجاز كلها مع سعة أقطارها ما عدا نجدا فإن بها مزارع كثيرة و بهذا نعلم نسبة زماننا هذا إلى الأزمنة الماضية في سعة الأرزاق و كثرة الخلق مع ان اهتمامهم في ذلك الوقت بالدين كان أكثر من اهتمامهم بالدنيا فأنت ترى كيف انبساطها عليهم و أما الآن فالاهتمام كله بالدنيا و لم يبق من الاهتمام بالدين إلا ما نسبته إلى الاهتمام بالدنيا نسبة الفلك الأعظم إلى الجزء الذي لا يتجزأ و هذا أعظم دليل على قرب انقراض الدنيا و استبدال عمرانها بالخراب و أنهارها بالسراب فإن عمرانها إنما هو بأسباب الدنيا و الدين و أنت ترى ما آل إليه أمرهما معا فسأل الله تعالى الخروج من الدنيا بلا محنة و لا بدعة آمين.

قال السيد و من الغرائب ما ذكره الميورقي في فضائل الطائف عن شيخ الخدام بدر الشهابى انه بلغه أن ميساء وقعت في عين الأزرق

بالبائف فخرت بعين الأزرق بالمدينة انتهى.

قال شيخنا أبو سالم و لعل هذه الحكاية و أمثالها هي السبب في اعتقاد كثير من جهلة الحجاج أن العين الزرقاء أصلها من مكة و أنها هي التي جاءت إلى مكة من

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٧١

ناحية عرفه من جبال وراه و يقولون أنه لما هاجر النبي صلى الله عليه و سلم من مكة تبعته فهي التي ظهرت بمر الظهران ثم بخليص ثم بيدر ثم بالخيف كلها إلى أن وصلت المدينة و يصممون على ذلك حتى أنى رأيت بعض من هو معدود من الفقهاء يعتقد ذلك فقلت له كما قال الإمام أبو بكر بن العربي رضى الله عنه في مسألة الصلاة على النجاشي حيث قال بعضهم رفع له حتى رآه فصلى عليه أن الله تعالى على ذلك لقادر و أن نبينا صلى الله عليه و سلم لأهل لذلك و فيما صح من معجزاته صلى الله عليه و سلم و الآيات الظاهرة على يديه غنية عن انتحال ما لا أصل له و بطلان كون هذه العين من مكة أوضح من أن يذكر فانه لم يكن في زمانه صلى الله عليه و سلم بعرفة و لا بمكة و لا بالمدينة عين تذكر على هذا النعت و لا ما يقرب منه و إنما أجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان.

الثانية بئر البصة بضم الباء و تخفيف الصاد المهملة كما هو الدائر على ألسنة أهل البلد و قال صاحب القاموس انه بالتشديد كأنه من بص الماء بصا رشح و أن روى بالتخفيف فمن و بص يبص و بصا و بصة كوعد يعد و عدا و عدة إذا بلغ أو من و بص لى من المال أى أعطانى فقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يأتى الشهداء و أبناءهم و يتعاهد عيالهم قال فجاءنى يوماً فقال هل عندك من سدر أغسل به رأسى فإن اليوم الجمعة قلت نعم فأخرجت له سدرًا و خرجت معه إلى البصة فغسل رسول الله صلى الله عليه و سلم رأسه و صب غسله رأسه و مرآقه شعره فى البصة و هذه البئر قريبة من البقيع على طريق قبا فى حديقة نخل على طرف بطحان و ماؤها أخضر و هناك بئر أخرى صغيرة.

قال المطرزي و الناس يختلفون فيهما أيتما بئر البصة و الصغرى هي التي تلى أطم مالك بن سنان و والد أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه و رجح السيد أنها الصغرى حاكيا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٧٢

عن غيره فى الأطم المذكور انه الذى يقال لبئر البصة قال و الكبرى لا تنسب لللاطم لبعدها منه و قد ابنتى بقرب الصغرى مسجد و اتخذ لها درج ينزل فيها إليها و قد شربنا من مائها أى الكبرى و غسلنا رؤوسنا اقتداء به صلى الله عليه و سلم و المنه لله وحده.

الثالثة بئر بضاعة بضم الموحدة على المشهور و حكى كسرها و فتح الضاد المعجمة و أهملها بعضهم و بالعين ثم هاء غربى بئر حا إلى جهة الشمال فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قيل لرسول الله صلى الله عليه و سلم انه يستقى لك من بئر بضاعة و هي يطرح فيها ما يكره من التنت فقال الماء لا ينجسه شيء و فى رواية إلا ما غلب على ريحه و لونه و طعمه و عن سهل بن سعد بصق النبي صلى الله عليه و سلم فى بضاعة و سقيته بيدي منها و عن سهل بئر بضاعة قد بصق النبي صلى الله عليه و سلم فيها فهي ينتشر بها و يتيمن قال المجد فى الخبر أن النبي صلى الله عليه و سلم أتى بئر بضاعة فتوضأ من الدلو و ردها إلى البئر و بصق فيها و كان إذا مرض المريض فى أيامه يقول اغسلونى من بئر بضاعة فيغسل مكانما نشط من عقال.

و قالت أسماء بنت أبى بكر كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيعافون و هي فى حديقة كبيرة ذات نخل أقرب أبواب المدينة إليها باب الشامى عن يمين الخارج منه قليلا و حولها مسجد و بركة ماء.

الرابعة بئر بفتح الموحدة و كسرها و بفتح الراء و ضمها و بالمد فيهما و بفتحهما و القصر فيعلى من البراح و هي الأرض المنكشفة و قيل بئر أضيف إلى حاء من حروف الهجاء و هو اسم رجل أو امرأة أو مكان و خبرها فى الصحيح و أنها كانت مستقبلة المسجد و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب و هي اليوم فى حديقة صغيرة قريبة من سور المدينة شماليه بينهما الطريق و أقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع و هي بينه و بين الباب الشامى.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٧٣

قال السيد و الظاهر أن بعضها اليوم داخل السور و قد دخلناها و الحمد لله و شربنا من مائها و سقيت الحاضرين معنا من أصحابنا رجاء للبركة و أكلنا من خضرها المسقى بمائها.

الخامسة بئر رومة بضم الراء و بالهمز و دونه و فى الحديث نعم القلب قلب المزنى فاشتراها عثمان فتصدق بها و ورد أيضا نعم الحفيرة حفيرة المزنى يعنى رومة و عنه صلى الله عليه و سلم من يشتري رومة فله مثلها فى الجنة و كان الناس لا يشربون منها إلا بثمان فاشتراها عثمان فجعلها لله و كانت لرجل من غفار أو مزينة أو ليهودى اسمه رومة فنسبت إليه و هى بئر جاهلية روى أنه استقى منها لتبع لما نزل بقناه و هى بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال و هى بعيدة من المدينة و إلى الجوف أقرب و الطريق إليها على مساجد الفتح ثم يعدل يسارا إلى ناحية مسجد القبليتين ثم يمر تحته أسفل منه قاصدا العقيق فهى هناك و بقربها مزارع فزرناها و شربنا من مائها و استقينها منها ما شربناه مدة.

السادسة بئر اليسيرة من اليسر ضد العسر و تعرف الآن ببئر العين بكسر فسكون و هو لغه الصوف الملون و هى معروفة بالعوالى مليحة جدا منقورة فى الجبل و عندها سدره فقد روى أن النبى صلى الله عليه و سلم جاء بنى أمية بن زيد فوقف على بئر لهم فقال لهم ما اسمها فقالوا عسيرة فقال لا و لكن اسمها اليسيرة و بصق فيها و برك فيها و روى ابن سعد فى الطبقات عن عمر بن أبى سلمة أن النبى صلى الله عليه و سلم سماها اليسيرة و أن أباه أبا سلمة غسل بعد موته بين قرنيها و قد زرتها و الحمد لله و شربت من مائها و هى فى عوالى المدينة قريبا من مسجد بنى قريظة و على بابها حديقة كبيرة حسنة .

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٧٤

السابعة بئر غرس بضم فسكون و قال المجد بفتح فسكون و ضبطه بعضهم بالتحريك كشجر و هى بئر شرقى قبا على نصف ميل من مسجدها إلى جهة الشمال و قد ورد أن رباحا غلاما للنبى صلى الله عليه و سلم كان يستقى من بئر غرس مرة و من بئر السقيا مرة و لابن حبان فى الثقات عن أنس انه قال ايتونى بماء من بئر غرس فأنى رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يشرب منها و يتوضأ. و لابن ماجه بسند جيد عن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أنا مت فاغسلونى بسبع قرب من بئر غرس و كانت بقبا و كان يشرب منها و فى رواية لم تحلل أو كيتهن و كانت البئر لسعد بن خيثمة و روى انه عليه الصلاة و السلام توضأ و أهرق بقیه و ضوئه فيها و روى أيضا أنه قال رأيت الليلة أنى أصبحت على بئر من الجنة فأصبح على بئر غرس فتوضأ منها و بزق فيها و أهدى له غسل فصبه فيها و قد جعل لها درج ينزل إليها منها و حولها حديقة و بجانبها مسجد و قد زرتها و الحمد لله فهذه الآبار السبعة هى المشهورة اليوم عند أهل المدينة و قد نظمها الزين المراغى فيما أنشد عنه السيد فى بيتين و هما:

إذا رمت آبار النبى بطيبة فعدتها سبع مقالا بلا و هن

اريس و غرس رومة و بضاعة كذا بصة قل بير حاء مع العهن

قلت و بقى بئر ان أخريان يتبرك بهما، إحداهما بئر السقيا فقد ورد أنه عليه الصلاة و السلام كان يستعذب له لماء من بئر السقيا و السقيا هذه هى آخر منزلة النقا على يسار السالك على بئر على و هى بالحره الغربية و حولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هنالك و الثانية بئر زمزم و هى قريبة من السقيا على يمين الطريق حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا و هى بئر مليحة فى حديقة نخل حولها بركة و بناء و سميت زمزم تشبيها لها بزمزم فى التبرك بها و نقل مائها للآفاق و لم أقف على هاتين البئرين أما زمزم فوعدنا الأخ سيدى أحمد الاخصاصى أنه يقدم معنا إليها يوم خروجنا و لم يقدر لنا لك فتأسفنا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٧٥

أسفا عظيما أنا لله و إنا إليه راجعون و أما السقيا فلم يكن لى بها علم إذ ذاك و السقيا هذه غير السقيا المذكورة فى الحديث فى قول الراوى لقيته بتعهن و هو قائل السقيا بل تلك مكان قريب قرب شرف الروحاء.

وقد عدّ السيد رحمه الله آباراً متعددة سوى هذه ثم قال فمن ذكر أنها سبعة فقط قصور منه و إنما اقتصرنا على ذكر ما شاهدناه و زرنه منها و شربنا من مائها.

و من المواضع التي يتبرك بها بالمدينة تربة صعيب فقد روى أن النبي صلى الله عليه و سلم أتى بالحارث فإذا هم روي فقال ما لكم يا بني الحارث روي فقالوا أصباتنا يا رسول الله هذه الحمى فقال فأين أتم عن صعيب قالوا يا رسول الله ما نضع به قال تأخذون من ترابه فتجعلونه في ماء يتفل عليه أحدكم و يقول باسم الله تراب أرضنا بريق بعضنا شفاء لمريضنا بأذن ربنا. ففعلوا فتركتهم الحمى قال طاهر بن يحيى العلوي عقب رواية ذلك عن أبيه صعيب وادي بطحان دون الماجشونية و فيه حفرة مما يأخذ الناس منه و هو اليوم إذا و بي إنسان أخذ منه قال ابن النجار و قد رأيت أنا هذه الحفرة و الناس يأخذون منها و ذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحا قال و أنا سقيته غلاما لي مريضا من نحو سنة تواظبه الحمى فانقطعت عنه من يومه و ذكر هو كالمطري ان ترابه يجعل في الماء و يغتسل به من الحمى.

قال السيد فينبغي أن يفعل أولا ما ورد ثم يجمع بين الشراب و الغسل. قلت و قد وصلت إلى وادي صعيب إلى موضع هذه الحفرة و أخذنا من ترابها و استصحبناه معنا لبلادنا بقصد التداوى.

قال أبو سالم و قد نص غير واحد على جواز نقله للتداوى كماء زمزم للتبرك و لم يزل على ذلك عمل الناس قديما و حديثا. قلت و الخلاف في نقل تراب الحرم و أحجاره

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٧٦

و الكيزان المصنوعة من ترابه معلوم مشهور و الورع ترك نقله لاحتمال خصوصية الاستشفاء به لأهل الحرم و إمكان حمل الحديث عليهم و العلم عند الله و قد ذكر أيضا الاستشفاء من الحمى بتراب مشهد حمزة انتهى.

و مما زرنه موقف وقف فيه النبي صلى الله عليه و سلم يوم عرفه و مشربة أم إبراهيم و نخيل سلمان الفارسي و قصة النخيل مشورة في الصحيح و غيره و فيه آيات باهرة، و معجزات ظاهرة، و الله تعالى يوفقنا و يعنا بمنه و يمنه آمين و هو المستعان، و عليه التكلان، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم انتهى كلام شيخنا المذكور فانه حسن لأنه مشتمل على فوائد و نكت مستحسنة لا يملها ذو الذوق السليم و الطبع المستقيم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فأنى قد زرت المدينة المشرفة ثلاث مرات و شاهدنا تلك المشاهد المذكورة على الجملة لضيق مدة الإقامة فيها و إنما يحصل كمال التفيتش و البحث على المواضع المنورة و الأماكن المشرفة بمجاورة المدينة المنورة و استيطانها على الدوام فلا يزول الاشتياق إلا بطول المكث فيها لما علمت أن المسافر لا تفر عينه بالبلدان حال كونه مشغلا بالسفر و شتونه فإن القلب واحد لا يمكن تعلقه بأمر مختلف لا سيما أصداد المعتنى به يعلم ذلك من شد أزاره لتحقيق المراتب و نعوت المقامات لأن الضد لا يجتمع مع ضده نعم قوة الفضل من الكريم الوهاب و شفاعه أفضل الخلق على الإطلاق، و منه الغنى الخلاق، أمطرت سحاب الفتح فإن لم يصبنا منه وابل فطل.

فلما استقر بنا القرار في مدينة الرسول و شاهدنا تلك المشاهد النبوية الفردانية الصمدانية القدسية الروحانية المحمدية الأحمدية ظهرت لنا معالم الأنوار، و نتائج النبي المختار، و ثمرة الود و كشف الأستار، و حضرة القهار، فانعكس في قلوبنا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٧٧

روحانيته عليه الصلاة و السلام فامتزجت بقوالبنا و ظهر نوره صلى الله عليه و سلم على الأجباح، فناط متمكنا منا بعلم الأرواح، فغاب منا عالم الصفات في محو صفاته صلى الله عليه و سلم فاستعقب ذلك سريان آثار اللهوت، فتمكن في المحل الذي هو الناسوت، فلم يبق لوجود الخلق آثار لأن سطوة الحق لا يبقى معها غيره إذ كل شيء ما خلا الله باطل.

و لذلك طبقات الطبقة الأولى مشاهدة الأفعال و الثانية مشاهدة الصفات و الثالثة مشاهدة الذات فمن شاهد من الحق تجلى الأفعال

اضمحت أفعاله لأفعاله و كذا من تجلى الحق [عليه بأوصافه اضمحت أوصافه لأوصافه و مثله تجلى الذات فمن تجلى الحق عليه] أيضا بذاته اضمحت ذاته فلم يبق لسواه أثر فهذا مقام المحو و الفناء لأن الكون كله ظلمة فمن لم يشاهد الحق فيه أو معه أو قبله فقد أعوزه وجود الأنوار، و غابت عليه شمس المعارف في كنه الكون من غير قرار، فالحق سبحانه لا يثبت معه شيء فالوجود وجود واحد بل جميع الموجودات متحدة فلا أصل لها بل هي مستمدة من عين الوجود و بالجملة صاحب المحو يغيب فعله في فعله و وصفه في وصفه و ذاته في ذاته تبارك و تعالى فإذا قوى عليه حال الشهود نسبت إليه شطحات حتى ينطق عن حاله، و عن قوة شهوده و إثبات اتصاله، و محو انفصاله، برعود الهيبة و الجلال فيقول في حضرة الحق و الكمال و عالم الأمر و هو قوله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فتجرد الروح عن مادة الاستعداد فيقول صاحب الشطحات أنا الحق لكونه مغلوبا في حاله، و مضطرا في مقاله، فتكون الشريعة قائمة عليه و على منواله، فإن العارف بالله تعالى يقول رامزا لهذا المقام أعنى ابن مالك ما نصه:

و ذو ارتفاع و انفصال أنا هو أنت و الفروع لا تشبه

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٧٨

أى الضمير المرتفع أى الغائب عن الأكوان بوصوله إلى المكون و انفصاله عن الخلق و اتصاله بالحق أنا هو إذ هو محو محض و فناء صرف و أن صاحب الصحو رجع إلى ظاهر الشريعة فيقول في حال صحوة و أنت و الفروع أى الصديقون لا تشبه أى لا تلتبس لأن الصديق لا يلتبس بالزنديق، فإن ما خامر القلوب فعلى الوجه يلوح آثاره، الأسرة تدل على السريرة، و أن الناس أيضا حوانيت مغلقة فإذا تكلم الرجلان تبين العطار من البيطار، ما كان فيك ظهر على فيك، كل إناء بما فيه يرشح، و لأن الكلام صفة المتكلم، و يعرف صدق الرجل بثلاث عند مغاضبته أن لازم الحق و اتصف بالصدق فلهو ذاك و إلا فليس هناك انتهى.

و قال على بن أبى طالب رضى الله عنه المرء مخبو تحت لسانه فإن تكلم فمن حينه و إن سكت فمن يومهم انتهى.

هذا و إن شطحات العارف تقوى ما ذكرناه و تؤيد ما أصلناه نعم شطحه على قدر غيبته عن الأكوان و قوة اتصاله بالمكون لأن عالم الأرواح بقدر تمكنه و سريانه في عالم الملك و الملكوت و كذا ما دونه من عالم الجبروت تتقوى بصيرته و تتجلى أنواره فتتدلى له العلوم الإلهية، و المواهب الربانية، و الواردات الجسمانية، فضمحل نفسه و تتلاشى أحواله فيغلب عليه الشهود و تتراكم عليه الرعود و الصواعق من زواجر الخوف و سرادق الهيبة و لوائح الجلال فيكون كله بكله فلا يرى في حضرته سوى محبوبه فإن التفت عنه زل قدمه و سقط حظه فيترامى جذبا و يملتى عشقا و يكتسى معرفة فيتغذى بتجريد التوحيد و تجريد التفريد فينادى بلسان الحقيقة إلا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العالمين و حينئذ تكون عنده مفاتيح الغيب فيعرف مسالك البر أعنى الشريعة و طرق البحر أعنى الحقيقة ثم يثمر بثمرات التجلى بأوصافه و يتخلق بمعاني أسمائه ليكون طاهر القلب بالتعريف، و جميل الظاهر، بالتكليف، فتتطبق عليه الصفة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٧٩

المشبهة فيحسن فاعلها بأدبار المحن، و إقبال المنن، فيظهر فيه اللهوت، و يضمحل منه الناسوت، فإذا تنوب أوصافه عن أوصافه و أفعاله عن أفعاله و ذاته عن ذاته و وجوده عن وجوده فليس له ثبوت في عالم الحق فإن استولى عليه ذلك بالمدد ارتقى في المراتب، و تعالى في الدرجات و المواهب، و بحسب ذلك تكون مراتب الأولياء و ذلك من بحر المعارف و عليها تبنى الشطحات و الأمور الربانية الروحانية و الأوصاف الملكية و أهل الديوان لا تخلوا أحوالهم و مددهم و مواردهم و معارفهم و مواجدهم من هذا البسط لأن بسطها إنما يكون من الحقيقة الأحمدية و الدائرة المحمدية و النقط النبوية فإن الحروف قد جاءت لمعنى و هى الأعضاء المكسوة بالتكليف و كلها في جمع الجمع أعنى الحقائق ثم إن الأفعال المتصرفة و المنصرفة إنما تكون في مساجد الرفع و هى الشريعة فمن لا شريعة له لا حقيقة له و من لا حقيقة له فشريعته رسم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون و عند ذلك تناديه حقائق الأكوان إنما نحن فتنة فلا تكفر فإن ترقى نادته هواتف الحق الذى تطلبه أمامك و إن إلى ربك المنتهى.

نعم والله يقول وَأَتُوا النَّبِيَّاتِ مِنْ أَسْبَابِهَا وَبَابُ كُلِّ شَيْءٍ بَيْنَ فُتُوحِهَا الْحَقَائِقُ السُّلُوكِ وَالتَّرْقِي وَ أَخَذَ الْعُهُودَ وَ إِلا فَتَنَعَكْسَ شَمْسِهِ وَ يَنْكَسِفُ نُورَهُ لِأَنَّ ثَدَى الْمَعَارِفِ لَا يَثْبِتُ وَلَا يَتَّقَى إِلا بِغِذَاءِ الْأَرْوَاحِ فَالرُّضَاعُ عِنْدَهُمْ حَوْلِينَ كَامِلِينَ فَإِنَّ تَصْفِيَةَ النَّفْسِ وَ تَنْوِيرَ الْقَلْبِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْفِطَامِ مِنَ الْهَوَى وَ مِنَ الْغِيْبَةِ عَنِ السُّوَاءِ غَيْرَ أَنَّ صَاحِبَ التَّرْبِيَةِ لَا يَبْدُ وَ أَنْ يَكُونَ خَالِيًا عَنِ التَّلْوِينِ مَنَعُوتًا بِنَعُوتِ التَّمَكِينِ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٨٠

الآية بيد أن المطمئن يداوى المتحرك.

وقد قال أبو علي الثقفى لو أن رجلا بلغ العلوم كلها و صاحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بشيخ عارف أو أخ ناصح أو مفت محقق و إلا فلا تعبان به فليس من الله في شيء انظر القشيري و لذا قال بعضهم من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخه لأن النفس كثيرة التلبس عظيمة الخدع و المكر توهم الإنسان أنه صادق و هو كاذب و انه موف بعزمه و هو ناكث إلى غير ذلك من أوصافه الذميمة و هذه العلوم من خزائن الغيب تنبع في القلوب و تظهر في الفهوم من غير مفتاح بل هي لدنيه و هيبة صمدانية فردانية إلهية و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا رأى حكمه أعظم من هذه فتكون على حسب الفضل قل بفضل الله و برحمته و أهل هذا الشأن يسرعون بالجواب، لزوال الحجاب، لفتح رب الأرباب.

تتمه إنما ذكرت هذا الكلام، من فتح الرحيم العلام، إذ هو فيض إلهي من خزائن الغيب، و عطاء الغيب، فأعرضت عن ذكر التحفة التي ذكرها شيخنا المذكور لما فيها من التشابه و وشحت هذه النبذة بما يقرب للإفهام، و لا تزل فيه الأوهام، و قد علمت أن عجائب القرآن لا تنقضى و قد قال شيخنا المذكور ما نصه.

قال الإمام أبو سالم.

لطيفة أخبرنا الشيخ شهاب الدين رئيس الموقتين بالمدينة المشرفة أن والده لما كان في الأسر تكلم مع راهب من رهبانهم فقال له الراهب أنكم معشر المسلمين تزعمون أن كتابكم لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها فقال له الشيخ تاج الدين نعم نقول بذلك فقال له أين تجد في كتابكم أسمى فقال له ما اسمك فقال له كبك فأخرج له تاج

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٨١

الدين المصحف فأراه ما بعد الرأ من قوله ما شاء ركبك فتعجب الراهب من ذلك و صدق بأن في الكتاب كل شيء قال و هذه فراسة قوية و هداية سنية من الشيخ رضى الله عنه و لا شك أن في الذكر كل شيء و لكن لا يهتدى إلى ذلك إلا من خصه الله تعالى بالفهم الربانى و العلم الإلهي.

قال و قد ذكر لى بعض الناس أنه رأى منصوبا وقوع هذه الحكاية لغيره قلت و يحتمل أن يكون هذا الراهب أخذ هذه الحكاية ممن سبقه إليها ممن تقدم و ثبتت في ذهنه و أبرزها في معرض الاختبار للشيخ أو أقرحها من غير ثبوت سلف فيها و يكون من وقع الحافر على الحافر و الله تعالى اعلم.

قال من نظير ما تقدم من اشتمال القرآن الكريم على أخبار كل شيء حتى علم الحدثان و الوقائع ما أخبرنى به شهاب الدين أحمد بن التاج أن ملك بلاد الروم السلطان سليم أحد ملوك الترك و هو أول داخل منهم لمصر و تملكها من يد السلطان الغورى سنة ثلاث و عشرين و تسعمائة كان سبب تملكه لها انه لما تملك بلاد الشام حدثته نفسه بالتملك على بلاد العراق إذ هي أصل منشأهم و مساكن أسلافهم التركمان فخرج من بلد اصطنبول التي هي قاعدة ملكهم فلما وصل إلى الشام بعساكره تعذرت عليه العلوقة لغلاء حصل في تلك الناحية فاحتاج إلى الميرة و التزود من مصر فكتب بذلك إلى الغورى يستأذنه في الامتياز من بلده و كان الشاه ملك عراق العجم في ذلك الوقت لما سمع بتحريك السلطان سليم كاتب الغورى و كانت بينهما صداقة يطلب منه أن يشغله عنه و أن يثبطه ما استطاع و صادف ذلك من الغورى غيره من السلطان سليم و أنفة من تملكه بلاد الشام و خشى أن اتسع ملكه أن يستولى على مصر

و مصر إذ ذاك هي أم البلاد الإسلامية و ملكها أعظم الملوك لانتقال الخلافة العباسية من العراق بعد واقعة التتار إلى مصر و عند ما طلب السلطان سليم من الغورى الميرة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٨٢

تعلم له بان ذلك لا يمكن فى هذا الوقت لغلاء الأسعار و اعتذر له بأعذار ضعيفة فظن سليم لما قصد و علم انه إنما أراد تعويقه عن المسير إلى العراق فحدثه نفسه بالركوب إليه و صرف العنان عن غزو العراق إلى غزو مصر فاستشار فى ذلك من كان بحضرته من العلماء و ذكر لهم عذره و أن الغورى منعه من التزود من بلده و هو محتاج إلى الزاد فكلهم قال إن ذلك لا يبيح لك قتاله لأنه ملك بلاده و لم يخلع لك يدا من طاعة و لا بادأك بحرب فكيف يحل لك الهجوم عليه فى بلاده و محاربتة بلا سبب و كان من جملة العلماء الحاضرين المحقق ابن الكمال باشا و أصغرهم فقال له أيها الأمير أنه يباح لك غزوه فى كتاب الله أنك تدخل مصر فى هذه السنة فقال له و كيف ذلك فقال له لا أفتى بين يدي هؤلاء الأئمة و هم مشائخ الإسلام حتى تؤجلهم سبعا لينظروا و يتدبروا فإن الله تعالى يقول: ما فرطنا فى الكتاب من شئ فكيف لا تكون هذه النازلة فى كتاب الله تعالى الذى فيه تبيان كل شئ فقال لهم سليم أنى أجلتكم سبعا عسى أن تجدوا أو يتبين لكم ما قال. فقالوا كلهم أيها الأمير ما كان جوابنا الآن هو جوابنا بعد سبعة فقال ابن الكمال لا بد من التأجيل و قصده و الله اعلم إظهار مزيتة عند الملك و أنه اهتدى لما عجزوا عنه بعد التدبر و التلوم إذ لو أبدى ما عنده فى المجلس لربما ادعى أن ذلك يمكن الاهتداء إليه بالتأمل و التدبر فأجلهم الأمير سبعا فلما انقضت جمعهم فسألهم فقالوا له جوابنا فيما مضى جوابنا الآن فقال له ابن الكمال أيها الأمير أنهم ليقروا فى كتاب الله العظيم إنك لتدخل أنت و جنودك هؤلاء مصر فى هذه السنة إلا أنهم لا يهتدون لفهمه فقالوا أين هو فقال قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فى الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى الصَّالِحُونَ فضحكوا و قالوا أين هذا مما نحن فيه فقال لهم أن قوله تعالى و لقد فى قوة لفظ سليم بحساب الجمل فإن كل واحد من اللفظين مائة و أربعون عدده فتكون إشارة الكلام سليم كتبنا فى الزبور من بعد عشرين و تسعمائة أن الأرض يرثها لأن الذكر عدده بدون أداة التعريف ما تقدم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٨٣

قال و الأرض فى الآية الكريمة على قول كثير من المفسرين هي أرض مصر و العباد الصالحون فى هذا الوقت هم جنودك إذ لا أصلح منهم فى عساكر المسلمين بأقطار الأرض لإقامتهم سنة الجهاد و فتحهم أكثر البلاد النصرانية و هم على مذهب أهل السنة و الجماعة و غيرهم من عساكر البلاد أما ممن فسدت عقائدهم كأهل العراق و أكثر اليمن و الهند و أما ممن ضعفت عزائمهم عن إقامة شعائر الإسلام كالمغرب و أما ممن استولت عليهم الدنيا ك مصر و بالغ فى تقرير هذا المعنى و سر السلطان سليم بقوله و سلم له الفقهاء حسن الاستنباط و لطف الإشارة إلا- أنهم قالوا له إن هذا لا يكفى فى إباحة قتال من لم يخلع يدا من طاعة و لا حارب أحدا من المسلمين و إن كانت الإشارة القرآنية تدل على أن هذا سيكون فلا بد من إظهار وجه تعتمده الفتوى الفقيهية فقال ابن الكمال أيها الأمير أما هذا فهو أيضا متيسر و ذلك بأن تبعث إلى السلطان الغورى و تقول له أنى لما قدمت إلى هذه الأوطان و لم يتيسر الغرض الذى قدمنا لأجله عزمنا على التوجه للحجاز لأداء فريضة الحج و ليس لنا طريق و لا تزود إلا من بلادكم فأردنا أن تأذن لنا فى المرور ببلادكم و التزود منها فإنه لا- محالة مانعك و صاّدك عن المرور ببلده فإذا صدك عن حج البيت جاز لك قتاله و صار محاربا فاستحسن الفقهاء رأيه فى ذلك لأن الحيل فى مذهبهم سائغة، و انتهاج طريقها عندهم شريعة سائغة، فكتب السلطان سليم إلى الغورى فى ذلك فراجع الغورى بجواب سىء و صرح بمنعه و صده و انه لا يشرب من نيل مصر جرعة ماء إلا أن مشى على ظهور الموتى إلى غير ذلك من التهديد فتقوى حينئذ عزم السلطان سليم على غزو مصر و تهيأ لذلك فكان ما كان من استيلائه عليها و محو الدعوة الغورية من مصر و إنحائه و قتله أكثر العلماء و الصلحاء و الخليفة العباسى و كثير من أرباب المناصب و كان أمر الله قدرا مقدرا فعظمت بذلك مكانة ابن الكمال عنده و خيره فيما شاء من الولايات فاختر الفتوى فتولاها و حسنت سيرته فيها و تصدى لنشر العلم و

تعظيم أهله و الله يتقبل منه

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٨٤

آمين.

و نظائر هذه الحكايات و الاستنباطات كثيرة يتعاطاها أربابها على أن التسلق على مصل هذا و تعاطى فهمه من القرآن مما لا ينبغي إلا لدى بصيرة نورانية يصدق كشفه فتحه و إلا فالهجوم عليه ببضاعة العقل خطر فإن الواقع قد لا يكون كذلك فيؤدى إلى نسبة شبه الكذب لخبر الله تعالى و أن بالفحوى و الإشارة و القرآن ينزه عن مثل ذلك فإن الله تعالى ما أنزله على عبده لهذا و إن كان موجودا فيه و إنما أنزله هدى و موعظة و ذكرى لأولى الألباب فاستعمال الفكر فى معانيه التى حض الله عليها و رسوله أولى من استعماله فى أمثال هذه الأمور التى لم يرد عن الشارع و لا عن السلف الصالح اعتبار جنسها فى أمثال هذه الأمور و أن اعتبرها بعض السلف لكن فى غير هذا الجنس كاستخراج ابن عباس رضى الله عنه تعيين ليلة القدر من بعض آيات سورته و أما المتأخرون فمنهم من اعتبره فى هذا الجنس كاستخراج بعضهم فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ابن أيوب من قوله تعالى: غَلَبَتِ الرُّومُ إِلَى قَوْلِهِ: فِي بَضْعِ سِنِينَ إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ نَادِرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمَدَ وَ ذُو الْحَالِ الصَّحِيحِ، وَ الْكَشْفِ الصَّرِيحِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَدَى بِهِ وَ اللَّهُ الْمُوفِّقُ لِلصَّوَابِ اه و إياك و أن تقفو ما ليس لك به علم فتقع فى مهواة لا قعر لها من العطب حذرا حذرا. الرحلة الورثيانية؛ ج ٢؛ ص ٥٨٤

من التقينا به بالمدينة خطيب الحرم الشيخ إسماعيل قرأنا عليه حديث إنما الأعمال بالنيات فأجازنى و نص إجازته أحمد الله سبحانه و نسأله أن يصلى و يسلم على نبيه و أشرف خلقه مولانا محمد و آله و صحبه و إتباعه و أحبابه أخذت قراءة القرآن و الحديث عن العارف بالله تعالى الشيخ على الشمولسى عن الشيخ الحلبي صاحب السيرة عن القاضي شهورش عن النبي صلى الله عليه و سلم و قد أجزت الشيخ

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٨٥

العارف بالله تعالى أحمد بن محمد ابن ناصر أن يروى بهذا السند الشريف العالى المنيف حديث سيد المرسلين و حبيب رب العالمين ككتاب البخارى و غيره من الكتب و قد قرأ على حديث إنما الأعمال بالنيات نفع الله تعالى به المسلمين و جعلنى و أياه فى بركة سيد المرسلين آمين. إلى أن قال و من عادة أهل المدينة أيضا فى كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء فى آخر أروقة المسجد النبوى الموالى لصحن المسجد فتأتى جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم، و تطريب و تقسيم، و الناس محذقون و لهم إتباع يردون عليهم مثل ما تقدم فى ليلة المولد إلا أنهم لا يحتفلون لذلك فى ليلة الجمعة كاحتفالهم لليلة المولد و لا قريبا منه.

و من عادته فى يوم الجمعة الخروج للبقيع و وضع الرياحين الكثيرة على القبور خصوصا المشاهد المعلومه فيكون عندها أضغاث من الرياحين و يؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضا و يلقي من طيقان الشباييك إلى داخلها فلا يزال هنالك حتى يذبل و يذوى و يخرج فى كناسة الحجرة و يقتسمها الأغوات بينهم مع باقى الشمع الذى يوقد داخل الحجرة و ما يتساقط من الطيب فيجمعون ذلك فيهدون منه لأصحابهم و للأكابر و يبعثون منه إلى من يهاديهم من أهل الآفاق.

و من عادتهم يوم الجمعة أن يكنس المسجد النبوى كله و يؤتى بأغطيه من ديباح أسود مخصوص بالذهب فتعلق على أبواب المسجد و يؤتى برايتين سوداوين من ديباح مخصوص أيضا فيركزان عن يمين المنبر و شماله و تكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجا من ذلك النعت و يعلق أيضا على أبواب الحجرة الشريفة فإذا كان قبل الزوال بقريب من ساعتين طلع المؤذنون على المآذن فيبتدئ مؤذن الرئيسة بالذكر و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و قراءة آيات من القرآن فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر و الصلاة على النبي

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٨٦

صلى الله عليه وسلم و التلاوة على المآذن كلها إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال يقتسمون الوقت بذلك فإذا قرب دخول الإمام قام احد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله فإذا دخل الإمام و رقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذى فى وسط المسجد و كيفية أذانهم انه يبتدئ رئيسهم فيقول الله أكبر الله أكبر فيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله مثنى فيقولونه أيضا بعد فراغه منه دفعة واحدة و هلم جرا إلى آخر كلام المؤذن و أما الخطابة فهى كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التى يأخذها من جامكية الخطباء فمنهم مقل و مكثر و ذلك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة و هو الغالب و منهم من تدور نوبته فى كل شهر مرة و منهم من لا تصل إليه النوبة إلا مرة فى السنة و منهم بين ذلك على حسب أنصباهم فى المال المأخوذ على ذلك.

و من عادة المدرسين بالمدينة أيضا تعطيل القراءة فى المكاتب و التدريس يوم الثلاثاء و يوم الجمعة و يقرءون فيما سوى ذلك من الأيام خلاف عادتنا فى المغرب من التعطيل يوم الخميس و يوم الجمعة.

قال شيخنا أبو سالم و كنت أيام أقرانى بالحرم الشريف يكلفوننى القراءة يوم الخميس فيشق ذلك على لكونه خلاف المعتاد لدينا و لخروجنا فى ذلك اليوم لزيارة أحد و غيره من المشاهد فطالبتهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثاء فأبوا كل الإباءة فجريت على عادتهم كما قيل:

إن جئت أرضا أهلها كلهم عور فغمض عينك الواحد

قلت و لا أدري ما السبب فى تعطيل الثلاثاء و الخميس و الجمعة فسيبها مشهور قلت و السبب فى ذلك كما فى شرح الرسالة أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٨٧

أطال فى بعض أسفاره اشتاقه أهل المدينة فلما سمعوا بأبابه تلقاه الناس رغبة و شوقا فتسابق إليه الصبيان فأتوا معه ليلة الخميس و الجمعة فأجازهم جائزة و أنهم لا يقرءون يوم الخميس و يوم الجمعة إلى صبيحة يوم السبت و هذا حاصل معناه.

ثم قال شيخنا المذكور و من عادتهم أيضا فى الحرمين الشريفين التهئة بالشهر أى شهر كان خلاف المعتاد لدينا بالمغرب فإن التهئة عندنا إنما تكون بالأعياد و ما شاكلها و لديهم لا بد من التهئة فى أول يوم من كل شهر فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صجبة حتى يهنته بالشهر فى منزله و لله در القائل:

أن الأهلة فى السماء مناجل بطلوعها تتحصد الاعمار

أبدا يهنىء بعضنا بعضا بها و طلوعها بأقولنا انذار

و من عادتهم فى إقامة الصلوات الخمس فى الحرم الشريف تقديم الصلاة فى أول الوقت ما عدا الصبح للحنفى فيؤخره إلى قرب الأسفار فيصلون الظهر أول ما تزول الشمس و ما يقبل غالب الناس إلا بعد الصلاة فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة و كان ذلك يشق على الغرباء قبل اعتيادهم لذلك فتكاد صلاة الظهر تفوتهم فى المسجد لأنهم لا يتأهبون لها إلا بعد الأذان و ليس بين الأذان و الصلاة قدر يسع التأهب فمن لم يتأهب للصلاة قبل دخول الوقت فاتته الصلاة فى الجماعة غالبا و ذلك خلاف السنة فى تأخير صلاة الظهر إلى ربح القامة أو أزيد للإبراد فى شدة الحر فأننا لله و إنا إليه راجعون على تفويت الفضائل فى أماكن قطب الأفاضل و أول من يصلى من الأئمة الشافعى ثم الحنفى إلا فى صلاة المغرب فيتقدم الحنفى لضيق الوقت عنده كالمالكي و لا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أهل المذاهب إلا فى الجمعة فيصلى صاحب النوبة على أى مذهب كان فيتناوب الإمامان الصلاة فى المحراب النبوى فإن

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٨٨

صلى أحدهما فيه صلى الآخر فى المحراب الذى على يمين المنبر الشريف و أما المحراب العثمانى الذى فى الصف الأول فلا يصلى

فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس.

ومن عاداتهم في الصلاة على الجنائز إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف فيصلى عليها بالمسجد ثم يمر بها أمام الوجه الشريف ووقف بها وقيفة ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره إلا- جنائز الروافض كالنخالة فإنها لا يدخل بها المسجد ولا يؤتى بها إلى المواجهة بل يأتي بها أصحابها إلى خارج المسجد من ناحية الروضة ثم يرجعون ولقد أحسن من سن لهم ذلك من الولاة فحق من يبغض ضجيعي الرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقه في المحيا والممات أن يبعد عن حماه حيا وميتا قيص الله من يخليهم منها إلى تيماء واريحاء آمين.

ومن عاداتهم في الأملاك أن يكون عقد النكاح بالمسجد الحرام فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب والخطيب فيجلسون صفيين من المنبر إلى الحجر الشريفة صف مستقبل القبلة و صف مسند ظهره إلى جدار القبلة و بإزاء الخطيب المتعاقدان فيشرع في الخطبة فيثنى على الله بما هو أهله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ثم يذكر المتعاقدين ويشير إليهما ويرضيان بذلك ثم يؤتى بأطباق الرياحين وتوضع بين الصفيين وأطباق من اللوز والسكر ويفرق ذلك على الحاضرين ويقوم المنشد ينشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فيفترق المجلس ويقوم الحاضرون إلى المتعاقدين ويهنئونهما وهذه صورة أملاك كل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطة و أما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم فإذا كان ليلة الدخول أتى بالرجل و معه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه ومعهم الشموع حتى يوقف به على باب المسجد بعد العشاء الأخيرة فيدخل ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو فيخرج ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة في دار أهلها عكس

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٨٩

المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تزف إلى زوجها و أن الدخول في بيت الزوج و عند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يزف فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته و أخذ في إطعام الناس طعام الوليمة و جاء الناس لتهنئته و في الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج و لكل قطر عادة و لكل قوم سادة و عادة السادة سادة العادات.

ومن عاداتهم في التعامل أنهم يسمون الأربعين مايدا صرفا فيقولون عشرة أصرف و عشرون صرفا يعنون كل أربعين قيراطا من قراريط الفضة المسكوكة يعد صرفا كقولنا في بلادنا لهذا المقدار مثقالا و يقولون للدينار من الذهب شريفيا و سلطانيا و يقولون للريال المسكوك من الفضة ريالا و قرشا.

قلت و هذا خلاف مصر في القرش فانه أقل من الريال و يقولون للقيراط المسكوك محلقا و في مصر يقولون له فضة و مؤيدا و يقولون للصاع الذي به التعامل ربعيا و يسمون الصروف المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهبا فيقولون عشرون ذهبا و ثلاثون ذهبا يعنون عشرين صرفا من غير قصد إرادة الذهب إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير و أجزاءها.

ومن عاداتهم في الشراء من الأعراب الذين يجلبون اللبن و الجبن و السمن و الغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب الساكنين بالمدينة و أطرافها و لهم اسم يختصون به كالبرغازين عندنا فيدخلونه الأسواق و يشتري منهم أهل المدينة و هذا من تلقى السلع المنهى عنه و لكنهم قد ألفوا ذلك و استمرت عليه عاداتهم و ألف ذلك القادمون أيضا لو أن أحدا من أهل المدينة أراد أن يشتري منهم لم يبيعه إلا بأضعاف ما يشتريه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٩٠

البرغازون فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك و يركنون إليهم و يميلون إلى قولهم و يعرفون كيفية المساومة معهم فلا يتعاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل و غيرهم ليس بتلك المثابة فلا يكاد أحد يشتري منهم لحفائهم و غلظ طبائعهم فاستسهل الناس الشراء من البرغازين بربح قليل زيادة على ما اشتروا به من الأعراب و اغتفروا التلقى لذلك اللهم إلا أن يكون الموضع الذي

يحتون فيه ما يأتون به من اللين و غيره معلوما عندهم لذلك و لا- يقصدون سواه و لا- يتعدون لغيره لبيع ما يأتون به من سوق أو حانوت أو دكان فيكون ذلك كالسوق لسلعهم فلا نهى إذا لا تلقى حينئذ لكون السلع بولغ بها سوقها و محل بيعها و ابتاعها. و من عادتهم فى كراء الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة و الينبع أن بالمدينة رجالا يعرفهم غالب الجمالين فمن احتاج الكراء من أرباب الدواب أو أرباب السلع أتى إليهم فيعقدون لهم الكراء مع صاحبه و يتكلفون بما عسى أن يصدر من الجمال من غرر فى الطريق بهروب أو مكر و يسمى أحد هؤلاء المخرج فلا يعقد أحد كراء إلا بحضرة أحدهم و جلوسهم فى الغالب بباب المصرى و يأخذون بذلك حلاوة من الجمال و من المكروى و ذلك دأبهم بمكة أيضا:

و فواكه المدينة المشرفة فى غاية الجودة خصوصا عنبها و رطبها و أما الخضر فأكثرها وجودا الجزر و الباقلاء و الملوخية و البامية و البصل و اللفت و الخضر البرية ليس فيها إلا الخبيز و لا يأكل أحد فى تلك البلاد المسن القديم و الشحم الغوى إلا أضرا به ما لم يكن حديث عهد بالبلد فإذا طالت إقامته فى البلد تطبع بطبعهم.

قال أبو سالم و طبع ذلك البلد الشريف و هواؤه فلما يوافق أحدا من أهل مغربنا الأقصى ممن بلده ريف ذات مياه و خصب و إنما يوافق أمزجة أهل الصحراء كنوت و تفورارن و أهل السودان و ذلك و الله أعلم لفرط حرارة بلاد هؤلاء فقلما رأيت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٩١

أحدهم مريضا فى تلك البلاد إلا مرضا خفيفا و قلما رأيت أحدا ممن بلده كبلادنا ريف و خصب إلا و قد أظ به المرض إلا القليل ممن طالت إقامته جدا فى البلد و تطبع بطبع أهلها قال من يوم قدومنا للمدينة كل ما تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا استعدوا الحمى المدينة فلا بد لكم منها فإنها تحفة النبى صلى الله عليه و سلم و كرامته لجيرانه لتمحيض ذنوبهم و كان بعض أصحابنا يتمغص من ذلك و يشق عليه سماعه منهم و يقول نحن نرجو أن تكون كرامة النبى صلى الله عليه و سلم لنا بغير ذلك فكان أولنا وقوعا فى المرض و أطولنا إقامة فيه و الله يغفر له و يكفر زلله قال و لا بعد و لا نكر فى تسمية الحمى استأذنت على النبى صلى الله عليه و سلم فقال لها أذهبي إلى الأنصار فإن لهم عينا يدا أو كما قال عليه الصلاة و السلام و روى الإمام أحمد و غيره برجال الصحيح عن جابر رضى الله عنه استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال من هذه فقالت أم ملام فأمر بها إلى أهل قبا فلقوا ما لا يعلمه إلا الله فأتوه فكشوا ذلك إليه فقال ما شئتم أن شئتم دعوت الله أن يكشفها عنكم و إن شئتم تكون لكم طهورا قالوا أو تفعل قال نعم قالوا فدعها و فى روايه و إن شئتم تركتموها و أسقطت بقيه ذنوبكم انتهى.

و لا- تحفة و لا- كرامة لزيارته صلى الله عليه و سلم أعظم مما يظهرهم من الآثام و هل فارقوا الأهل و الأولاد، و قطعوا الأغوار و الأنجاد، و امتطوا ظهور النجائب، و فلوا بأرجلها ناصية السباب، إليه صلى الله عليه و سلم ألا لتحط عنهم أوزارهم، و تغسل أدرانهم، فجزاه الله عن أمته، أفضل ما جرى به نبينا عن قومه.

و قد حقق العارف الإمام ابن أبى جمرة رضى الله عنه أن المغفرة أعلى ما يناله العبد منه الله قائلا أن الرحمة و أن نال منها الإنسان ما عسى أن يناله فيمكن أن يبقى معها

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٩٢

بقية ذنب فيؤاخذ بها بخلاف المغفرة و لذلك أمتن الله بها على نبيه صلى الله عليه و سلم.

قلت فينبغي إذا للعارف أن يكون أهم ما لديه تعطى أسباب المغفرة من الله كصلاة التسيح كل يوم مرة أو أسبوع أو شهر أو سنة أو مرة فى العمر فقد ورد فيها ما يحمل الراغب فى ربه، المشفق من ذنبه، على ان لا يدعها، لا يقدم عليها سواها، و أفضل أوقاتها ما بين الزوال و صلاة الظهر أن تأتي ذلك و إلا فسائر النوافل تصلى فيه أوقاتها من ليل أو نهار و تصلى تارة على ما رواه ابن المبارك رضى الله عنه و تارة على غيره من تقديم القراءة على الأذكار و الجلوس للاستراحة قائلا- الأذكار فيها قبل أن ينهض قائما و قبل التشهد فشديد الضنين عليها و لا يشغلنك عنها شاغل و استبشر بنعمة من الله و فضل أن وفقك الله و أهلك لتعاطيها و نشطك لها إذ لو أراد

بك الأخرى عيادا بالله لثبئك عنها فتكاسلت و توانيت و لا يزهديك عنها زاهد فإن العارفين بالله بالغوا في الحث و الحض عليها و الله يوفقنا و أياك.

و لنذكر هنا الأحاديث الدالة على الخصال المكفرة لما تقدم و تأخر من الذنوب جمع الإمام الحافظ ابن حجر في جزئه المسمى بالخصال المكفرة للذنوب المتقدمة و المتأخرة تيمنا و تبركا فأقول عن ابن حجر بسنده إلى حمران ابن أبان مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه قال دعا عثمان بماء فأكثر ترداد الماء على وجهه و يديه فقلت حسبك قد أسبغت الوضوء و الليلة شديدة البرد فقال صب فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول لا يسبغ أحد الوضوء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه و مسنده و أخرج أبو عوانة في مستخرجه على مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من سمع المؤذن فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و ان محمدا عبده و رسوله رضيت بالله ربا و بالإسلام ديننا و بمحمد الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٩٣

نبيا و فى روايه رسولا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر. فقال له رجل يا سعد ما تقدم من ذنبه و ما تأخر فقال هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و أخرج أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال للعباس بن عبد المطلب يا عباس يا عماء ألا أعطيك إلا أمنحك ألا أخبرك إلا- أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله و آخره خطأه و عمدته صغيره و كبيره سره و علانيته عشر خصال أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب و سورة فإذا فرغت من القراءة فى أول كل ركعة و أنت قائم قلت سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر خمس عشرة مرة ثم ترقع فتقولها و أنت راقع عشرا ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا ثم تهوى ساجدا فتقولها عشرا ثم تسبح فتقولها عشرا ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا فذلك خمس و سبعون مرة فى كل ركعة تفعل كذلك فى أربع ركعات أن استطعت ان تصلها فى كل يوم مرة فأفعل فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرة فإن لم تفعل ففى كل شهرة مرة فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة فإن لم تفعل ففى عمرك مرة انتهى.

و أخرج ابن وهب فى مصنفه عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال إذا آمن الإمام فآمنوا فإن الملائكة تؤمن فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

و أخرج آدم بن أبي إياس فى كتاب الثواب له عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من صلى سبعة الضحى ركعتين إيمانا و احتسابا كتب الله له بها مائتى حسنة و محا عنه مائتى سيئة و رفع له مائة درجة أو مائتى درجة و غفر له ذنوبه كلها ما تقدم و ما تأخر إلا القصاص.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٩٤

و أخرج أبو عبد الرحمان السلمى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من قرأ إذا سلم يوم الجمعة قبل أن يثنى رجله فاتحة الكتاب و قل هو الله أحد و قل أعوذ برب الفلق و قل أعوذ برب الناس سبعا سبعا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و أعطى من الأجر بعدد كل من آمن بالله و اليوم الآخر و فى إسناده ضعف شديد جدا.

و أخرج الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه فى مسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من قام رمضان إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

و أخرج أحمد بن عباد بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال ليلة القدر فى العشر البواقي من قامهن ابتغاء حسبتها فإن الله تبارك و تعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و هى ليلة وتر تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو إحدى و عشرون.

و أخرج أبو سعيد النقاش فى أماليه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من صام يوم عرفه غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

من أهل بحجة أو عمره من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أو وجبت له الجنة أخرجه أبو داود عن أم سلمة من جاء حاجا يريد وجه الله فقد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و شفع فيمن دعا له أخرجه أبو نعيم عن عبد الله بن مسعود إذا خرج الحاج من بيته كان في حرز الله فإن مات قبل أن يقضى نسكه وقع أجره على الله و إن بقى حتى يقضى نسكه غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه أبو يعلى و أحمد بن منيع عن جابر.

من صلى خلف المقام ركعتين غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و حشر يوم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٩٥

القيامة مع الأمنين ذكره القاضي في الشفاء. من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه الثعالبي و ابن مردويه في تفسيرهما.

من علم ابنه القرآن نظرا غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و من علمه آياه ظاهره فكلما قرأ آية رفع الله بها للأب درجة حتى ينتهي إلى آخر ما معه من القرآن أخرجه الطبراني عن أنس.

و أخرج أبو محمد عبد الله بن محمد في فوائد الأصبهانيين عن أم هانئ و كانت تكثر الصلاة و الصيام و الصدقة فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم فشكت إليه ضعفها فقال لها سأخبرك بما هو عوض من ذلك تسبحين الله مائة مرة فتلك مثل مائة رقة تعتقنيها متقبلة و تحمدين الله مائة مرة فتلك مثل مائة بدنة مجللة تهدينها متقبلة و تكبرين الله مائة مرة و هناك يغفر لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر.

من عد في البحر بعين موجه و هو يكبر غفر الله له ذنوبه ما تقدم منها و ما تأخر و إن الأمواج لتحت الذنوب حتا ذكره أبو الحسن الربيعي في فضائل الشام. و روى أيضا عن أنس عنه عليه الصلاة و السلام مدينة بين الجبلين على البحر يقال لها عكا من دخلها رغبة فيها غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و من خرج منها رغبة عنها لم يبارك له في خروجه و بها عين تسمى عين البقر من شرب منها ملأ الله بطنه نورا و من أفاض عليه منها كان طاهرا إلى يوم القيامة هذا حديث منكر جدا.

من قاد مكفوبا أربعين خطوة غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه ابن مندة في أماليه عن ابن عمر.

من سعى لأخيه المؤمن في حاجة قضيت له أو لم تقض غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و كتبت له براءتان براءة من النار و براءة من النفاق أخرجه ابن الناصح في فوائده

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٩٦

عن ابن عباس رضی الله عنهما.

ما من عبيدين متحابين في الله و في رويته ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان و يصليان على النبي صلى الله عليه و سلم إلا لم يفترقا حتى يغفر لهما ذنوبهما ما تقدم منها و ما تأخر أخرجه أبو يعلى عن أنس من أكل طعاما ثم قال الحمد لله الذي أطعمنى هذا الطعام و رزقنيه من غير حول منى و لا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و من لبس ثوبا جديدا فقال الحمد لله الذي كسانى هذا و رزقنيه من غير حول منى و لا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه أبو داود عن أنس و أخرج الحكيم الترمذى عن عثمان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول قال الله عز و جل إذا بلغ عبدى أربعين سنة عافيته من البلى الثلاث من الجنون و الجذام و البرص فإذا بلغ خمسين سنة حاسبته حسابا يسيرا فإذا بلغ ستين سنة حبيت إليه الإنابة فإذا بلغ سبعين سنة أحبته الملائكة فإذا بلغ ثمانين سنة كتبت حسناته و ألقيت سيئاته فإذا بلغ تسعين سنة قالت الملائكة أسير الله فى أرضه و غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و شفع فى أهله قال الحكيم هذا من جيد الحديث و ذكرتها لمناسبتها لما نحن بصدده من المغفرة رغبة أن يعمل بها من وقف عليها أو ببعضها فقد أجزت بها من أراد العمل بها من المؤمنين رجاء الثواب و حسن المآب.

و من عادتهم إذا قرب زمن انقضاء الحر و أقبلت هودى زمن البرد و ظهرت البرودة فى الهواء صباحا و مساء أخذوا يدثرون أبدانهم

فى الثياب الكثيفة التى تلبس فى أيام البرد الشديد و يقولون أن البرد فى أول أبانه يسرع فساد الأمزجة و هو أضر من البرد الشديد الذى يكون فى وسط الشتاء و يقولون أن الناس يلبسون من غليظ الثياب فى آخر الخريف ما لا يلبسون فى صميم الشتاء و شديد الزمهرير.

قال شيخنا أبو سالم و كنا نحن لألفنا البرد الشديد فى بلادنا نتلقاه بأبداننا و نعى

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٩٧

له أطرافنا فرحا بقدمه لما قاسينا من شدة الحر الذى لم نعهد مثله فى قطرنا فكانوا يهوننا عن ذلك و لا ننتهى و يقولون ليس هواء هذه البلدة و بردها كالتى تعهدون فكنا لا نلتفت لذلك ثقة بما نعهد فى أنفسنا فى بلادنا من الصبر على بردها الذى لا يكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه إلا كنسبة زمان الاعتدال قال فكان ذلك مع قدر الله تعالى هو السبب فى حصول المرض المتطاوول لنا و لأصحابنا و يشهد لمقالهم فى ذلك قول أمير المؤمنين مولانا على بن أبى طالب رضى الله عنه اتقوا البرد فى أول أبانه و تلقوه فى آخر أوانه فانه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار فأوله محرق و آخره مورق ذكره الزمخشري فى كتاب ربيع الأبرار له قال و لقد صدقوا فى ذلك خصوصا فى تلك البلاد فان بدن الإنسان يكون مشتعلا حرارة و يبسا لغبلة الحر فإذا فاجأ البرد البدن فى تلك الحرارة أضر به بخلاف البرد الذى يجيء فى آخر الأبان فانه يصادف البدن قد سكنت حرارته و الله أعلم.

و من عادتهم أن لا يتولى خدمة الحجرة الشريفة و المسجد إلا عبيد أغوات موقوفون على ذلك لا يشاركهم غيرهم و شيخ الحرم هو كبيرهم و الأغا بلغتهم كناية عن الخصى من العبيد و اختاروا وقف الخصى دون غيره لكونه أظهر و أنزه و أكثر فراغا من الأشغال إذ لا أهل له و لا ولد يشتغل بهم و هو أبعد من دنس الجنابة و مباشرة النساء و هم عدد كثير قريب من الثمانين يزيدون و ينقصون بحسب كثرة الراغبين فى الوقف و قلتهم و الأربعون منهم هم الكبار الذين يأتى رزقهم و مؤنتهم من بيت المال و ما زاد على ذلك إنما يرزقون من الأوقاف التى لهم بالمدينة أو مما يأتىهم من الهدايا و الصدقات من أقطار الأرض و يسمى ما سوى الأربعين البطالين لأنهم إنما يستعملون فى الأشغال التى هى خارج الحجرة و المسجد النبوى من الأعمال الممتنهنة و لا يجلسون مع الأكابر فى الدكة إنما يجلسون خارجها و لهم ضبط و سياسة كسياسة الملوك فلكل واحد منهم رتبة معلومة و شغل معلوم فإذا مر بالأصاغر أحد الأكابر

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٥٩٨

قاموا له كلهم و كذا الأكابر فيما بينهم فأكبرهم شيخ الحرم فهو يتجدد فى الغالب أما فى سنة أو سنتين أو أكثر و لا يأتى إلا من دار السلطان من عبيده و يليه النقيب و يليه المستسلم و هو الذى يتولى قبض الصدقات و ما يهدى لهم أو للحجرة و بيده مفاتيح الحجرة و حواصل الزيت و الشمع و بيده جميع ما يتصرف فيه الأغوات من مصالح المسجد و من أوقافهم فإذا مات واحد من الأربعين دخل و احدج من البطالين فى موضعه و هو من كان شيخ البطالين و الترتيب فى ذلك بالتقدم فمن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه و ليس فيهم شافعى و لا حنبلى بل كلهم حنيفة و مالكية على مذاهب ساداتهم الذين أوقفوهم و ذلك لأن الشافعية و الحنابلة لا يرون صحة وقف الحيوان و من أوقف عبدا من الأغوات على الحجرة نسب إليه سواء كان من التجار أو من الأمراء أو العلماء فيقال أغا فلان و كلهم بيتون فى المسجد عدا شيخ الحرم و النقيب و أما الآخرون فلا بيت واحد منهم بداره إلا لعذر بين من مرض أو نحوه و لكنهم جزاهم الله خيرا عن تعظيم المكان و توقيره و تبجيله و كلهم أهل خير و بركة قد اختارهم الله لخدمته اشرف البقاع و شرفهم بالنسبة إلى اشرف الخلق صلى الله عليه و سلم و لله در الإمام البوصيرى إذ يقول:

و إذا سخر الإله أناسا لسعيد فإنهم سعداء

و من عادة الأغوات كل ليلة إذا فرغ الناس من صلاة العشاء و رواتبها قاموا بأيديهم الفوانيس الكبار و هى الفئارات عندنا مشعلة ليخرجوا الناس من المسجد فيأتون إلى المواجهة و الصف الأول فيقف بعضهم أول الصف و وسطه و آخره فيخرجون كل من فيه فإذا لم يبق أحد بذلك الصف تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها فينتقلون إلى الصف الذى يليه ثم كذلك حتى لا يبقى فى المسجد

أحد سواهم فيغلقون أبواب المسجد و يطفون المصاييح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف و التي داخل الحجره فيخرجون من المسجد إلى الصحن و إلى الأروقه التي

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٥٩٩

بجانبه فيخرجون فرشهم من الحواصل فينامون هنالك و لا ينام أحد منهم في المسجد بل و لا يأتيه إلا من قصد منهم الصلاة. و منهم أناس على قدم صدق في العبادة و غالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد و من وراء المسجد في الناحية الشامية مياضه كبيره فيها بئر كبيره و اخلية و فتح لها باب إلى مؤخر المسجد و لا تفتح إلا ليلا بعد غلق الأبواب و تسرح فيها المصاييح لوضوء الأوغوات و إزالة حفته من احتاج إلى ذلك ليلا فإذا غلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم و خشعوا فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمه فمن احتاج منهم إلى كلام أحد منهم كلمه كأخى السرار.

قال أبو سالم و لقد رأيتهم يبالبغون في خفض أصواتهم بالليل حتى بالسعال و العطاس و تنزل عليهم السكينه و تلحقهم هيبه المكان و ليس منهم مجرد استعمال لما يخالط قلوبهم من هيبه المكان.

قال و لقد أخبروني أنه لا يقدر أحد منهم بالليل أن يصل إلى الروضه و أطراف الحجره و المواجهه إلا الأفراد منهم و أنهم ليسمعون بالليل قعقه السقوف و فرقه الشباييك حتى يظنوا أن أحد أبواب الحجره فتح و أن بعض السقوف وقع فلا يجدون شيئا من ذلك و ذلك و الله اعلم لتتزل ملائكه الرحمه على قبره صلى الله عليه و سلم أو قدوم بعض رجال الغيب للزيارة و يظهر أثر ذلك باللي للهدو الأصوات به و خلو المكان و أن كان تنزل الملائكه على قبره صلى الله عليه و سلم و غشيان الرحمه له لا ينقطع ليلا و لا نهارا.

قال و لقد شاهدت من الهيئه و العظمه في إحدى الليالي التي بنتها في المسجد ما أعجز عن وصفه و لقد كنت اجتهد إذا عسعس الليل أن أصل إلى المواجهه واقف

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٠

للتسليم و الدعاء فما أصل إلى ذلك حتى تكاد أوصالي تنقطع هيبه فإذا وصلت و سلمت و أردت إطاله الوقوف للدعاء كما كنت أفعل نهارا فلا أقدر فاخفف السلام و الدعاء فارجع.

قال و لقد سمعت بعض ما ذكر من فرقه السقف و ما أشبه ذلك فملت منه رعبا إلا أني كنت أشتغل عنه و التلهي عن سماعه بقراءة القرآن سرا فيها لها من ليله هي عندي نتيجة عمرى و فريده أيامى فلئن كانت ليله القدر خير من ألف شهر فهذه الليله عندي كألف ليله القدر اللهم لا أحصى لك ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فللك الحمد على جزيل عطائك، و لك الشكر على سوابغ آلائك، فإذا كان بعد الثلث الأخير من الليل جاء رئيس المؤذنين ففتحوا له و صعد إلى المآذنه الرئيسيه و إذن و شرع في الدعاء و الذكر و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم فيقوم كل من في المسجد من الأوغوات فيتوضئون ثم يصبحون كل ما في المسجد من المصاييح فإذا فرغوا من الأصباح و قرب الصباح فتحوا أبواب الحرم و لا يأتي وقت فتحها حتى يجتمع بأبواب المسجد جماعات كثيره من المتجهدين ينتظرون الفتح فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين و تسابقوا الصف الأول من الروضه فيما بين القبر و المنبر فمن سبق إلى موضع كان أحق به فإذا أراد القيام لحاجه كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمره له في محله فلا يجلس فيه أحد و لو أبطأ و كثيرا ما يعتدى في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهاره لقصد السبق إلى الموضع و تحجيره فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب إذ ذاك إلى الطهاره و أسبابها و كثير منهم يبطيء في الطهاره فيحجر على الناس المحل و ربما عرض لأحدهم حاجه في منزله أو في السوق فيترك النمره في محله فلا يقربه أحد و أن أبطأ كثيرا و في ذلك من الضرر على المصلين ما لا يخفى على أن في دخولهم مزدحمين و استباقهم إلى الروضه حتى ربما سمع لأقدامهم من شدة العدو دوى سوء أدب لا يخفى و ربما يحتج لذلك محتج بقوله عليه الصلاة و السلام لو يعلم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠١

الناس ما فى الصف الأول لاستبقوا إليه فلا بد من تقييد ذلك بما لا يخل بأدب البقعة المطهرة و ساكنها لقوله عليه الصلاة و السلام و أتوها يعنى الصلاة و عليكم السكينة و الوقار فما أدركتم فصلوا و ما فاتكم فاتموا.

قال و المراد بالمسابقة فى الحديث المتقدم الاهتمام بشأنه و الحرص على الصلاة فيه من غير عدو بالأقدام و مزاحمة بالمناكب. و ساداتنا الأغوات رضى الله عنهم و جازاهم خيرا لا يغفلون طرفه عين عن حراسة الحرم الشريف و تأديب من أساء فيه الأدب بلغظ أو رفع صوت أو نوم و لو فى قائله إلا فى مؤخر المسجد و من وجدوه مضطجعا من دون نوم للاستراحة فإن مد رجله إلى ناحية الحجره زجروه و ان استقبل القبلة بوجهه أو الحجره من غير أن يكون مستديرا لها تركوه و لا يغفلون عن حضور المسجد فى ساعه من ليل أو نهار فإن خرجت طائفة جلست طائفة و لهم ديار و خدم و أتباع و ضياع و خيل و سعة دنيا و لا يشغلهم ذلك عما هم بصدده من خدمة المسجد بل لبعضهم أزواج و سرارى اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع و أحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط و لا يحكم فيهم سلطان و لا غيره و لا يولى عليهم و لا يعزل منهم إلا بأمر شيخهم و لا يرث معهم بيت المال شيئا إن مات أحدهم إنما يتوارثون بينهم و من وجبت عليه عقوبه أو أدب منهم أدبوه من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية كل ذلك تعظيما لجانب النبى صلى الله عليه و سلم أن تكون لأحد ولاية على عبده و خدم حجرته الشريفه و لا يدخل معهم من العبيد الذين يهدون من الآفاق إلا من رضوا إدخاله بمال يدفعه عنه سيده أو يدفعه هو إن كان له مال و مع ذلك يبقى فى مرتبة الصغار المشتغلين بالخدمة الخارجه فإن رضوا حاله و حسنت أخلاقه تركوه حتى تأتي نوبته فى الدخول فى زمرة الأربعين و إن ظهرت منه خيانة أو سوء أخلاق أو سرقة أو شىء يشينه نفوه إلى حيث شاء من البلاد.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٢

و بالجملة فلعبيد سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و خدام مسجده جلاله قدر و عظيم منصب و سعة أرزاق و كرم أخلاق و هم أحقاء بذلك و لكبيرهم كلمة نافذة فى المدينة و تصرف تام و يد مبسوطة و هو أحد عظماء الولاة بالمدينة تنفذ أحكامه و تمضى تصرفاته فى القوى و الضعيف و الشريف و المشروف و يطأ عقبه الكبراء و الأشراف.

و إذا كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز و اليمن كمكة و الطائفة و نجد و جدة و ما ولاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية و زيارة سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه فما من يوم إلا- و تدخل فيه قافلة من مكة و نواحيها و لم يزل الناس يتلاحقون فخرج أهل المدينة إلى أحد من اليوم الخامس و السادس من الشهر و رجعوا فى اليوم الثانى عشر و لم يبق بالمدينة إلا القليل و خرج العسكر لحراسة الناس فى الطرقات من المدينة إلى أحد كما تقدم شرح ذلك.

و بعد الرجوع من أحد نزل الوافدون بالمدينة ينتظرون الرجبية و هى ليلة سبع و عشرين منه ليلة المعراج و قدم خلق كثير من الأعراب و كانت بالمدينة سوق عظيمة و امتلأ المسجد و جوانبه فما من يوم إلا و يزداد فيه الخلق كثرة فإذا كانت الليلة السابعة و العشرون تكامل حشر الناس فمن لم يدخل إلى المسجد من قريب من العصر قلما يجد موضعا لصلاة المغرب و العشاء فيغص المسجد بمن فيه و يفتح الحرم طول الليل و يبيت الناس فى ذكر و قراءة و صلاة كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب فى التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل فى المسجد و صياح و صراخ رافعين أصواتهم بالصلاة على النبى صلى الله عليه و سلم و الاستغاثه به فيرق قلب سامعهم و يحن و يشفق لهم على جفائهم و جهلهم فلا يأتى مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم إلا القليل و عسى الله أن ينفعهم بحسن نياتهم.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٣

و إذا استهل شهر شعبان أخذت القوافل فى الرجوع إلى مكة و يرجع غالب من جاء من أهلها و لا يبقى إلا القليل ممن يريد شهود رمضان بالمدينة.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٤

ذكر بعض أودية المدينة التي تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها

فمنها وادي العقيق وهو أيضا من المواضع المباركة التي ينبغي زيارتها ففي الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بوادي العقيق أتاني الليلة آت فقال صل في هذا الوادي المبارك و روى مرفوعا العقيق واد مبارك و روى أن عمر رضي الله تعالى عنه كان إذا انتهى إليه أن وادي العقيق قد سال قال اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك و إلى الماء الذي لو جاءنا جاء من حيث جاء لتمسحنا به و قال فيه عليه الصلاة والسلام هذا الوادي يحبنا و نحبه و هو واد كبير غربى المدينة وراء الحرة الغربية يأتي سيله من أماكن بعيدة و ربما دام شهرا فأكثر و ورى أنه صلى الله عليه وسلم ركب إلى العقيق ثم رجع فقال يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطأه و أعذب ماءه فقلت يا رسول الله أفلا تنتقل إليه قال و كيف و قد ابنتى الناس و عن أنس رضي الله تعالى عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي العقيق فقال يا أنس خذ هذه المطهرة و أملاها من هذا الوادي فإنه يحبنا و نحبه و عن سلمة قال كنت أصيد الوحش و أهدي لحومها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو كنت تصيد بالعقيق لشيعتك إذا خرجت و نلقاك إذا جئت.

و أسفلها مما يلي الجرف هو المسمى بالعرصة إلى غربى رومة و ما فوق ذلك إلى النقيع يسمى العقيق.

قال أبو سالم و المشتهر فى زماننا بالعقيق من غربى رومة إلى ذى الحليفة قال عياض النقيع صدر العقيق و هما عقيقان أدناهما عقيق المدينة و هو أصغر و أكبر فالأصغر فيه بئر رومة و الأكبر فيه بئر عروة و العقيق الآخر على مقربة منه و هو من بلاد مزينة انتهى. و سمي عقيقا لأن سيله عقى فى الجرف أى شق و قطع و قيل سمي بذلك لحمرة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٥

موضعه.

قال السيد و مرتع بالعرصة و كانت تسمى بالسليل فقال هذه عرصة الأرض فسميت العرصة و مرتع بالعقيق فقال هذا عقيق الأرض فسمى به و فى العقيق بئر عروة بن الزبير رضي الله عنه و هى من أغزر الآبار ماء و أعذبها و أحلاها و هى بئر شهيرة فيها أخبار و أشعار.

قال الزبير بن بكار رأيت الخراج من المدينة إلى مكة و غيرها ممن يمر بالعقيق يتخففون من الماء و يتزودونه من بئر عروة و إذا قدموا منها بماء يقدمون به على أهلهم يشربونه فى منازلهم عن مقدمهم قال و رأيت أبى يأمر به فيغلى ثم يجعل فى القوارير و يهديه إلى أمير المؤمنين هارون.

قال جابر الربعى فيها:

يعرضها الأتى من الناس أهله و يجعلها زادا له حين يذهب

و قال السرى بن عبد الرحمن الأنصارى:

كفنونى إن مت فى درع أروى و استقوا لى من بئر عروة مائى

سخنه فى الشتاء باردة م الصيف سراج فى الليلة الظلماء

و أنشد عبد الرحمن لأم يوسف و هو فى غاية العذوبة و السلاسة:

على ساكنى بطن العقيق سلام و ان اشهرونى بالفراق و قاموا

حظرتم على النوم و هو محلل و حللتتم التعذيب و هو حرام

إذا بنتم عن حاجر و حجرتم على السمع أن يدنو إليه كلام

فلا مئلت ريح الصبا فرع بانة و لا سجت فوق الغصون حمام

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٦ و لا انفقت فيه الرعود و لا بكى على حافتيه بالعشى غمام
فما لى و ما للربيع قد بان أهله و قد فرضت من ساكنيه خيام
ألا ليت شعري هل إلى الرمل عوده و هل لى بتلك الباتنين لمام
و هل نهله من بئر عروءة عذبة أداوى بها قلبا براه أوام
ألا يا حمامات الأراك إلكم فما لى فى تغريدكن مرام
فوجدى و شوقى مسعد و مؤانس و نوحى و دمعى مطرب و مدام

و روى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما اقطع الناس العقيق وقف فى موضع بئر عروءة بن الزبير التى عليها سقايته و هو
يقطع الناس و يقول أين المستقطعون فنعم موضع الحفيرة فاستقطعه ذلك خوات بن جبير الأنصارى فاقطعه تلك الناحية فاشترى عروءة
موضع قصره و يباريه بعد وقت صدقت فراسه عمر رضى الله عنه فى هذه البئر كما هو شأنه فى كل ما يفترسه فيه و للزبير بن بكار أن
النبي صلى الله عليه و سلم اقطع بلال بن الحارث المزنى العقيق و لم يعمل فيه شيئا و أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له إن قويت
على ما أعطاك رسول الله صلى الله عليه و سلم فاعتمله فما اعتملت فهو لك فإن تعتمله أقطعت بين الناس و لم تحجره عليهم و فى
روايه انظر ما أظقت أن تقوى عليه فامسكه و أردد إلينا ما بقى نقطعه فأبى بلال فترك عمر بيد بلال بعضه و أقطع ما بقى للناس و لما
دنا عمر رضى الله عنه من موضع قصر عروءة وقف فى موضع بئر عروءة إلى آخر ما تقدم انظر كلام السيد فقد أشبعه و سيل العقيق عند
أهل المدينة من أعظم المتزهات من سالف الدهر و لشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة مذكورة فى كتب الأدباء.
قال شيخنا أبو سالم إمام المرتحلين فى زماننا و قد حضرت بالمدينة سيلاه ثلاث مرات فخرج الناس على طبقاتهم و نصبت الخيام و
المضارب بحافتيه و طبخت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٧

الأطعمه الكثيره مع سرور و لهو و طرب و أقاموا به يوما أو يومين و قد سال مرة سيلا عظيما منع الرفاق الواردين من مكه للرجيبه عن
الوصول إليها إلا بعد مدة قال و قد حضرني أبيات و نحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها:
جرى العقيق و دمعى كالعقيق جرى فلا تسل سائلى عما هناك جرى
الوجد أورى زنادا فى الحشا فصلى به الفؤاد فسال الدمع مبتدرا
أذكرنى جريه جرى السوابق فى بين الكتائب فى الميدان متعجرا
و ظله و النسيم فى جوانبه اطربنى فسرى الأحزان حين سرى
أذكرنى زمنا عند الذين بهم أفاخر الشهب فى وسط الدجى سحرا
قومى و أهلى و من البست بينهم شرخ الشباب نظيفا طيبا عطرا
ما استبدلت منهم نفس المشوق سوى طيب مجاورة المختار من مضرا
أكرم بذنا بدلاق فاز آخذه لو أنه فى الشراء أذفع العمرا
و من جملتها هذه

سال العقيق و دمعى سال كمثل العقيق

وسيله كالرحيق و أدمعى كالرحيق

فلا تلم يا عدولى و لتسعدن يا رفيقى

و منها وادى بطحان و هو الوادى المتوسط بيوت المدينة و دور الأنصار غالبها على حافتيه شرقا و غربا و لابن زباله يأتى من الحاليتين
حالتى صعب على سبعة أميال من المدينة أو نحو ذلك ثم يصل إلى وادى جفاف شرقى مسجد قبا و أوله من الماجشونية ثم يمر

كذلك إلى أن يمر غربى سور المدينة إلى طرف المصلى ثم يخرج إلى غربى سلع و قرب مساجد الفتح ثم يمر كذلك إلى أن يلتقى مع العقيق بالغابة حيث مجتمع الأسياال فقد روى البزار و ابن أبى شيبه مرفوعا عن عائشة رضى الله تعالى عنها بطحان الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٨

على ترعة من ترع الجنة و يخرج الناس للتفرج فيه و على حافتيه منازل كثيرة لأهل المدينة قد جعلت لها شباييك و مجالس إلى ناحية الوادى و عليه قنطرة كبيرة قرب المصلى و قلما يخلو أعلاه من ماء يسيل به نجلا يقوى إذا كثرت الأمطار و يقل إذا قلت. و منها وادى قناة و هو أعظم أودية المدينة سيلا فإن سيله يأتى من الأماكن البعيدة يروى أن تبع نزله فلما شخص منه قال هذه قناة الأرض فسمى به و يسمى أيضا بالشظاءة. و فى القاموس أنه عند المدينة يسمى قناة و من أعلى منها عند سد نار الحره يسمى بالشظاءة. قال ابن أبى شيبه وادى قناة يأتى من وج أى وج الطائف، و قال المدائنى قناة واد يأتى من الطائف و يصب فى الارحضية و قرارة الكدر ثم يأتى بئر معونه ثم يمر على طرف القدوم فى أصول قبور الشهداء بأحد ثم ينتهى إلى مجتمع السيل بالزغابة. و قال ابن ذبالة سيل قناة إذا استجمعت يأتى من الطائف و هو أحد فحول أودية العرب فيأتى من المشرق حتى يصل إلى السد الذى أحدثته نار الحره بالمدينة و انقطع هذا الوادى بسببه ثم انخرق سنة تسعين و سبعمائة فجرى الوادى سنة على ما بين الجبلين و سنة أخرى دون ذلك ثم انخرق بعد السبعمائة فجرى سنة أو أزيد ثم انخرق سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة بعد تواتر الأمطار فجفر واديا آخر غير مجراه الذى هو على مشهد سيدنا حمزة قبله و قبلى عينين و بقى المشهد و عينين فى وسط السيل نحو أربعة أشهر لا يقدر أحد على الوصول إليهما إلا بمشقة و كان أهل المدينة يقفون على التل الذى خارج باب البقيع فيشاهدونه و لو زاد مقدار ذراع فى الارتفاع وصل إلى المدينة ثم استقر فى الوادى بين القبلى و الشمالى قريبا من سنة و كشف عن عين قريبة قبلى الوادى جددها الأمير ودى ثم دثرت و هذا الوادى هو الذى ورد فى الصحيح فى استسقائه صلى الله عليه و سلم أنه سال شهرا و أهل المدينة يخرجون إلى موضع أعلاه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٠٩

من ناحية المشرق وراء الحره فيقيمون فيه الأسبوع و أكثر.

و قد ذكر السيد من جملة أودية المدينة وادى رانوناء كعاشوراء و وادى مدينب مصغر مذنب و وادى مهزور بفتح فسكون آخره راء و هذه الأودية كلها ترجع إلى بطحان.

قال الزبير بن بكار ثم يلتقى سيل العقيق و رانوناء و اذاخر و ذى صلب و ذى ريش و بطحان و معجب و مهزور و قناة بزغابة و سيول العوالى هذه تلتقى بعضها ببعض قبل أن تلتقى بالعقيق ثم تجتمع فيلتقى العقيق بزغابة عند أرض سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه و ذلك عند أعلى وادى أضم سمي به لانضمام السيول و اجتماعها به.

قال الزبير ثم تمضى هذه السيول فتتحد على عين أبى زياد و الصورين فى أدنى الغابة ثم يتلقاها وادى نظما و وادى نعمان أسفل عين أبى زياد ثم تتحد و تلقى وادى ملل بدى خشب و ظلم و الجينية و يلقاها من الغرب بواط و الخرار و من المشرق ذراوان ثم الأئمة ثم يلقاها وادى رمه من الشام و وادى برعة من القبلة ثم يلتقى هو و وادى العيص من القبلة ثم يلقاه وادى احجر و وادى الجزل الذى به السقيا و الرحبة فى نخيل ذى المروه ثم عمود فى أسفل ذى المروه ثم يلقاه واد يقال له سفان حين يمضى إلى البحر عند جبل يقال له أزاك ثم يدفع فى البحر من ثلاثة أمكنة يقال لها اليعوب و النبعة و خفيف.

قال السيد و ذكرنا فى الأصل ما فى كلام المطرى من المخالفة لما ذكر و أن مصبه فى البحر من ناحية اكرى فى طريق المصرى.

قلت و هو الوادى المسمى اليوم بالاكراه على السنة الحجاج شرقى الوجه بينه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٠

و بين الوجه مرحلة .

تتمه فلما لاح لنا لائح الافتراق، وانقده زناد الاشتياق، تحركت الأحشاء، و ذابت الأكباد و انهمرت العيون بالبكاء، و أصابت النفس العبرة فكادت ان تزهد الروح من شدة ما أصابها من ألم الفراق و اضطرم القلب و انحراق من قوة ما وجد من عذاب اليبين و مفارقة الصديق الأمين صلى الله عليه و سلم فلم يوجد زمان أحلى و أعذب من زمان الوصول إليه و مشاهدة حضرته و التلذذ في محاسن روضته و لا أشهى من الوقوف بين يديه.

نعم و لا أصعب من يوم فراق دائرته و قد انغم القلب حزنا بل أعتل بعله لا يعلمها إلا من وردت منه و خلقها عند قرب مفارقتها فحرارة الجسم كادت أن لا تبرد و قلق القلب قد قوى و ضل وهام فعز أن لا يهتدى.

و بالجمله فأمرض اليبين لا يعلمها إلا من شارك في هذا السبب و هو الذى أصابه ما أصابنا فعند ذلك ينتقى عند اللوم فلا مصيبة أعظم من هذه الآفات فأنا حيران و ولهان، بكثرة الهموم و الأحزان، و ضرورة عند مفارقة الأحباب و الخلان، نعم لما دنا و قرب السفر من المدينة المشرفة ظهر لى ترك السفر و الرجوع فى ذلك إلى الوطن ليزول عن الاشتياق بمجاورته صلى الله عليه و سلم فعزمت على المجاورة و سألت أولاد الفاضل الكامل ذى الحب و الود فى الله أولاد الشيخ الجملى إذ كان الشيخ صديقا لنا فى الحجّة الثانية عن المنزل أسكن فيه فقالوا نعم و فرحوا بذلك و سروا سرورا عظيما فذهبت لخيمتنا فأعلمت أهل الدار بذلك أعنى النساء و قد أصابهن مرض شديد كاد بعضهم أن تصل إلى السياق و هى الحرّة الجليلة الكريمة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١١

الطبيبة النخبة الشريفة المتطلبة فإنها تقرأ نحو الربع و تحفظ بعض الأذكار كوظيفة الشيخ زروق و كانت تحفظ الصغرى للشيخ السنوسى و كذا بعض الرسالة لابن أبى زيد حاصله فى غاية الأدب و الفهم و الفطانة بنت الشيخ الفقيه النزيه الفاضل الكامل صاحب الفضائل و الفواضل الشريف تحقيقا سيدى عبد الله بن رحاب من أولاد الشيخ سيدى رحاب المتوطن فى أولاد دراج و محلهم الولجة فوق قمر تحت جبل بو طالب مشهور عند الناس من غير التباس و قد حج معنا فلما أشرفت على الموت وجدت عذار عند الحجاج إذ لا يستطيعون مفارقتى و اسمها عويشة و كذا أختها فاطمة زوج ابني و الأخرى زوجتى بنت الشيخ الفاضل المحقق المتكلم العالم الصالح خطيب وقته و فريد عصره لا سيما فى أصول الكلام سيدى المسعود بن عبد الرحمن جدها من قبل أبيها و هو منسوب للشيخ أبى محمد صالح الدكالى المعلوم فى الكتب الذى أخذ عن الشيخ أبى مدين و عن الشيخ سيدى عبد القادر فى القرن السادس و محله بنو عيدل بلد الشيخ القطب سيدى يحيى صاحب الوظيفة المشهورة فى وطنه و قد شرحتها و الحمد لله و هو شيخ الشيوخ زروق و قد قيل انه هو الذى ملكه مشارق الأرض و مغاربها نفعنا الله بهم و أفاض علينا من بركاتهم.

نعم لما ظهر ذلك عند الركب اجتمعوا و نادوا بالويل فقالوا و الله أن أقام أقام جميعنا فلما رأيت شدة اتصالهم بنا و كثرة عويلهم علينا و قالوا إن خصه ما يوصله جمعنا له ما يبلغه إلى وطنه بل ما يغنيه علما منهم بأن الذى حملنى على الإقامة قلة الزاد لا سيما و ان الشيالة أعنى أصحاب الإبل هربوا لى فقلت و الله لا أقبل درهما من أحد إذ لا أحمل المنه و غاية أمرى أقبل السلف لأنى ملئى فى بلدى و عند ذلك ذهب سيدى عبد الله بن رحاب و سيدى أحمد بن حمود و كاتب الحاج ابن فانه شيخ العرب الذى هو محبنا سى عيسى فاشترى لى ثلاثة جمال لحمل الأهل و عند ذلك ظعن الركب المصرى و المغربى فتأخرنا عنهم لشراء حوائج الإبل و علفهم لأن أبني محمد ذهب لذلك مع

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٢

ابن عمنا سيدى عيسى الشريف فلم يبق إلا خيمتنا فرفعناها و ركب الأهل لأنهم و دعوا النبى صلى الله عليه و سلم ليلا فلما انفصلوا فى آخر الركب خفنا عليهم غير أن الله حفظهم و أنا بعض الأصحاب منتظرون ولدى و حين وصوله إلينا ذهب لأودعه صلى الله عليه و سلم مع من كان معى من الحجاج فدخلت مسجده صلى الله عليه و سلم و قصدت قبره الشريف و علتى قد زادت فلم أجد لها درياقا سوى الصبر.

نعم لم يبق مودع إلا المعظم المكرم الشريف الفلالي أمير الركب منها فوقفت بعض وقوف عند قبره ثم أنى دخلت إلى الشيخ الصفى الودود النقى ذى الأحوال الصادقة و الأنفاس الطيبة و الأعمال الزكية و المواجد الإلهية و المعارف الربانية و العلوم اللدنية صاحب الأوراد و المریدین الشيخ السمان القرشى المدنى إذ داره عند باب البقيع فوجدت الود الصدوق و الخل الفاروق سيدى محمد الشريف الطرابلسى مع بعض أصحابه فأطعمنا خبزاً و لحماً و ما أحسنه من طعام فلم أذق طعاماً مثله ثم ودعناه عند ذلك توديعاً تاماً قوياً إذ نظر إلينا نظر رحمة علمنا منه أنه سقانا بتلك النظرة إذ وجدت آثارها فى الحين ثم أوصانى بالصلاة المنسوبة إليه و هى صلاة عظيمة تكاد أن تكون كصلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش فعلمت أن الشيخ لا حظنى بخاطره و إن كنت لست أهلاً لشرحها ففتح الله بعلوم لا تكاد توجد فى عصرنا و لا غرابة فى ذلك و عند انفصالنا من داره رجعنا إلى توديعه صلى الله عليه و سلم و عظم على أمر التوديع حتى علا صوتى و ارتفع و كاد أمرى إلى العويل بل أنوح عليه نياح الثكلى العديمة لولدها و كيف لا و هو أن فراقه أعظم المصائب و لم انفصل عنه إلا بصبر عظيم و هول جسيم و حزن شديد فلم أملك نفسى عند ذلك فعظمت المصيبة و عز الصبر غير أن تسليت بانتقاله من دار الدنيا و فراق أصحابه ثم خرجنا منه على أصلح حال و منه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٣

عظيمه مع ما كان فى القلب من مرض البين و حرقة و اضطراب الفؤاد بسببه مسرعين فى أزقة المدينة إلى أن خرجنا من الباب الذى يخرج منه الحجاج و إذا بالناس منها يقولون أن العرب يضرونكم و يؤذونكم لا- سيما أنى تخلفت منتظراً لحمل القول على الجمل فركب ولدى و كذا سيدى عيسى المذكور ثم لحقت بالأخ فى الله سيدى محمد المحفوظى يريد المجاورة و الإقامة بها فألجحت عليه بالذهاب فامتنع فزجرته و قلت له تترك زوجتك خالية عن الزوج فأجابنى بأنى بعثت لها ما تنفقه حتى أرجع و ان اختارت التزويج فلها ذلك و كذا البقاء ثم قهرته على المشى معنا فقال أعاهدك أنى أقدم بعدكم من ينبع إلى الصعيد و إلى مصر فلم أقبل منه بل ذهب معى إلى أبيار على ثم فر من هناك إلى الآن و الحالة خرجنا منها مع الخوف و الحرامية يتبعون وراءنا إلى أن وصلنا إلى الركب.

و بالجملة فأنا أقول فى ذلك كقول شيخنا المذكور و أتمثل به ما نصه و لقد أحسن القائل:

ما اشتفت علتى و هذا فراقى قد تحققت به سبى رفاقى

هذه مهجتي تذوب دموعاً فانظروها تسيل من آماقى

كبدى تظلى و عيني تهمنى هكذا فليكن بديع الطباق

يا رسولاً لنا أتى بكتاب لم تعارض آياته باتفاق

و الكريم المعراج و البرق خلانى طريحا إذ سار فوق البراق

و الذى اقتص من قلوب غلاظأبت الحق بالسيوف الرفاق

يا مزيل الغماء أن جل خطب يا شفيح العصاة يوم التلاقى

آن عن قبرك الشريف انصرافى و انصرامى و ما شفيت اشتياقى

و لئن كنت قد بللت غرامى بالثمام الثرى فعندى بواق

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٤ وقفه بى تجاه حجرتك الغمراء سارت ممالك الآفاق

اتمنى أنى بها أتملى فى محل خلاه لى خلاقى

موقف لذللى خضوعى فيه حين أطرا تأدبى أطواقى

و تلذذت فيه حين تذلت و نلت الأفراد بالأرفاق

معدن الخير مهبط الوحي مثنوى خير هادى الورى على الإطلاق

كيف أسرى من طيبة لسواهاو هي عندي حديقه الأحداق
 آه والوعتي أفارق منها مثل هاذي الأنوار والأشراق
 أنا عبد قد اثقلتنى ذنوبى لم يلق بي إلا إليها أباق ي
 أتري يسمح الزمان بعودى فالأمانى علائله المشتاق
 لا يكن ذا الوقوف آخر عهدى بك يا منبع الهدى الدفاق
 فالكريم الوهاب ذو الفضل حى والذى عنده من الجود باق
 ثم أنى سرت مع بعض الأصحاب، و الدموع فى الأماق أى انسكاب، و مشينا و زاد التصبر ينهب، و القلق قد أطنب، فى توقده أسهب،
 إلى أن قال و ينشد:

لما ترحل ركبنا عن طيبة و وجدت عندي للرحيل محركا
 أودعت فى الحرم الشريف حشاشتى و رجعت لا أدري الطريق من البكا
 قلت و أما نحن فقد انفصلنا بين الظهر و العصر و فقد كل واحد منا الأضطبار، و زال منا أيضا الاختيار، لأن العبد مجبور فى قالب
 مختار، و إلا فكيف يفارق الخيار.

نعم الأرواح باقية فى عوالم الأسرار، فلو لا ذلك لاتنقلت من الجسم بالذثار، و لما نزلنا أبيار على إذ هي أول منزلة بعد فراق المدينة
 الشريفة، و فارقنا تلك المعاهد التى على الكواكب منيفة، رأيت مكانه على الركب و أهله حمول خمود، و على مطيهم
 الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٥
 و جمالهم حمول جمود، ذاقه هذا من ذاقه، و تحفقه من لقلبه بعد الإيمان أدنى علاقة.

يا ليلي ما جئتكم زائرا إلا و وجدت الأرض تطوى لى
 و لا انثنى عزمى عن بابكم الا تعثرت باذيالى

ثم بتنا تلك الليلة و افترقنا عند المغرب لإتيان ما تتعشى به الإبل فصلينا المغرب فى تلك البساتين إلى العشاء فرجعنا إلى الأخيبة و بتنا
 خير مبيت إلى طلوع الفجر ظعنا و أعقل الركب المطايا، و استخرج خبايا شوقه لأهله من حنايا الزوايا، فسرنا مع العافية و السلامة من
 كل مكروه و الحالة أنى راكب على بغلتي مع من ركب على البغال من أصحابنا فى شوق و وجد و حرق و نحن كذلك إلى أن
 وصلنا و الله أعلم قبور الشهداء بين الظهر و العصر و الركب المصرى نازل هناك إذ سبق من المدينة و نحن ركب الجزائر وراءه و إن
 كان عادة المغربى السابق فى الإياب و إنما سبقناه عند الينبع ثم خلفنا تلك المنزلة و سبقنا و تركنا الركب المصرى هناك إلى أن
 تجاوزنا العشاء الأخيرة فنزلا فى الوادى ثم أن الركب المصرى سبقنا فى الليل و أصبح فى الصفراء و قد بتنا هناك فى عافية ثم بكرنا
 قبل طلوع الفجر و وصلنا الصفراء عند الزوال و نزلنا وراء المصرى لتعذر المرور فى وسطه من شدة الضيق فبتنا هناك خير مبيت و
 استقيننا من العين الكبيرة و رجعنا إلى خيامنا و بين هذه المنزلة و قبور الشهداء مسجد الغزاة و قد زرناه مرارا و الحمد لله.

ثم أقام الركب المصرى فيها إلى قرب الظهر ثم ارتحل المصرى و ارتحلنا بعده بعد الظهر و ما ذكرناه من النزول وراء الركب بل نزلنا
 تحت القرية فى القيلولة ثم ان الشيال الذى اكرتينا عليه من مكة الذى هرب لنا ببعض الجمال و ترك البعض فى يدينا و لم يعتبره
 لشدة غلاء الفول و حصلت لنا مشقة عظيمة و كربة قوية إذ طلبناه فى بدر عند الأمير فلم يتفق لنا الاستواء معه لكثرة فجوره و تحيله
 فاختنفى فى المصرى فرارا مما

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٦

يلزمهم منا شرعا ثم اشتكيت لأمير مصر حاله حين نزلنا الصفراء فوعدنى بالاستخلاص منه عند المدينة و لما وصلنا المدينة ذهبت إليه
 فأمرنا إلى كيخة الصوان إذ هو الذى يحكم بين العرب و غيرهم فأمرنى بترك الثلث من الكراء فلم أرض إلا بالربع فاختنفى عند ذلك

أيضا فلما شكوت له المرة بعد المرة أمرني بالذهاب إلى آغة عسكر المغربي فأمرني بترك الثلث أيضا و ظننت فيه و فيمن سبق عدم نصحي فلم يكن الأمر كذلك بل نصحاني جازاهما الله خيرا و لما امتنعت هرب و اختفى و لم أجد له خبرا إلا عند الصفراء فوجدته مارا و مسكنه عند الظهر فضاقت حيلته و لم يجد سيلا و أتى أهله لتسريحه فامتنت من إطلاقه حتى آخذ ما أعطيت له و هو تسعون ريالاً بوطاقة و لما حان وقت الظهر ذهبت للصلاة و خفت أن يهرب و تركته في خيمة الفاضل الكامل سيدي عبد الرحمن بن قري و أصحابه الحاج محمود و الحاج بلقاسم بن دحمان اليعلاوي مسكوه فلما قاموا إلى الصلاة تركوه في يد شيال آخر فهرب منه فتبعه فاخفى فلم يلق له أثر و اختفى في الركب المصري فأدرت أن أغرم الذي تفلت من يده ظنا مني انه هو الذي أفلته فأصابتنى شفقة عليه حين رأيت يبيكي و يحلف أنه ما تفلت منه اختيارا ثم لما ارتحل الركب المصري و لم يبق منه أحد و تبعه المغربي و لم يبق منه شخص و بقي العبد و ابنه و تخلفنا لكثرة الدبش و قلة الأصحاب إذ منهم مريض و من لا يستطيع الخدمة مع ضعف النساء و مرضهن فاحتجنا لكثرة اليد غير أن الله تبارك و تعالی عصمنا من تكشيط العرب و سبلهم لنا إذ كل من مر منهم يقول لنا شيلوا بسرعة و احفظوا أنفسكم.

و لما انفصل المرحول من مدشر الصفراء تخلفت مع بعض الناس من الركب الفلاللي وقع بهم ما وقع بنا من التخلف غير أن المراحل شبقت و وصلت إلى الركب

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٧

و تخلفت مع هذه الرفقة فبعضهم يمشى على الرجل و بعضهم على البغال و قد صحبوا السلاح و البنادق فلم يصبنا خوف و لا روع و نحن في جماعة من العرب في أطراف القرية فلم تقع لهم عين سوء علينا بل فرحوا بنا فرحا شديدا فممنهم من يطلب الدعاء و منهم من يقول لا- تخافوا فلا- بأس عليكم و لا- ضرر لديكم و شيعونا إلى أن برزنا عن بساتين العمارة و أرونا الطريق التي نسبق فيها الركب أحسن الله إليهم و أجزل لهم الثواب فمشينا سويعة من الزمان و إذا الركب قد سبقنا الأكثر منه فافترقنا لما دخلنا وسطه إذ كل ذهب إلى رحله فكنت أنا أطلب رحلنا فلم يتبين لي غير أني وجدت رحل الفاضل الأديب الود الصدوق النخل الفاروق سيدي محمد بن القاضي الملقب أبا و غثوش أمير زاووة راكبا في محفة مريضا مرض الإسهال فلما وقع بصره على فرح بي و رحب و ضحك و سألته عن مرضه و حاله فأخبرني بأنه أشد مرضه في المدينة و بعد خروجه منها ثم كذلك استمر عليه الحال بعد أن عزم أن يقيم بالمدينة المشرفة لظنه الموت فضيق عليه بعض الأصحاب بأن أمره بالعزم على السفر لعل الشفاء يحصل فخرج راجيا ذلك و منتظرا ما هنالك فقلت له لا يكون معك إلا الخير و العافية إن شاء الله فقال متأسفا لا أظن السلامة أو كلاما يقرب منه فعادته الدعاء بالبرء.

ثم قال احكى لك رؤيا أني رأيتها فقلت له و ما هي فقال أني رأيتته صلى الله عليه و سلم و كنت أسأله الشفاعة أو كلاما هذا معناه أعيد له ذلك المرة بعد المرة حتى قال لي أني شفعت فيك أو أنك مغفور لك أو لا تخف مما هو حاصل هذا المعنى فسرني

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦١٨

ما رأى و طمعت في البرء له بيد أني لما أخبرني بأنه صلى الله عليه و سلم بشره بالمغفرة خلت موته ثم أني صحبته كذلك راكبا على بغلتي و هو راكب على جملة إلى بعيد المغرب و أتى على وقته فارقت ثم نحن كذلك نسير إلى العشاء بعدها بسويعات و زمان نزلنا قرب الاستشراق على المضيق قرب الجبل إذ لا يمكن سيره لصعوبة الطريق و كثرة الأحجار و ضيقه بين الجبال فليشكر الله من خرج منه على عافية و سلامة و طيب وقت في نفسه و مع ذلك تكثر فيه فساق الغرب و محاربوهم قل أن يخرج الركب سالمين منهم فبتنا فيه خير مبيت فلما قرب الصباح ظعننا منه و وصلنا المضيق الوعر و الركب المصري قرب و صوله موضع النزول فسرنا في ذلك الوعر رويدا رويدا و خرجنا منه على سلامة و عافية و مع ذلك دارت العرب بينادقها مع ضرب البارود في أطراف الركب فعلى النداء و الصياح فانحجم أول أول الركب و ربضوا إلى أن وصل سلطان فزان في تخته مع أصحابه فسلم الحجاج و ركبا و الحمد لله نعم كل من مر على هذا المضيق قل أن يسلم من المحاربين.

فلما اجتمع الركب سرنا على بركة الله و حسن عونه إلى أن بلغنا المنزلة التي بعد نقب على و هي مشهورة و لما أن استقر بنا القرار في يوم حلا لا قر و في تلك المنزلة شجر كثير و فيها بئر عظيمة بعث لنا الفاضل سيدى محمد السابق ذكره و هو ابن القاضى أنا و المحب فى الله سيدى أحمد بن حمود و سيدى احمد الطيب لكونه أشرف على الموت فأوصى الجميع على حوائجه و حسبنا ماله و علمنا به أين كان و الحافظ له سيدى احمد بن حمود اد بينه هو و قد وصيناها أيضا لأنه هو الذى يصون أموالنا و عند الظهر

الرحلة الوثيلانية، ج ٢، ص: ٦١٩

أخذت الناس فى الرحيل و التأهب للسفر فصلينا الظهر و عند ذلك ظعنا منه على أتم حال و أبركه فتقدم المصرى و تأخر المغربى من حيث هو فانفصل الجميع عن المنزلة نعم تخلفنا آخر الركب حسبما عادتى أنا و سيدى أحمد الطيب و سيدى محمد الشريف الطرابلسى صونا للذى يتأخر من ضعفاء الحجاج ممن ليس له مركوب كالدراوشة فربما يقع لهم الضعف فيكون جميعنا فى عونه فسرنا آخر الركب رويدا رويدا إلى أن صلينا المغرب ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء ثم كذلك إلى أن سرنا سويعة بعدها فاخبرونا بموت أن القاضى المذكور فاجتمعنا لتجهيزه ليلا و هي مقمرة فنزل الركب ذلك الوقت فحفرنا له و كفناه و صلينا عليه أى جميع من كان من الفضلاء فى الركب و علمنا قبره و هو بين تلك المرحلة و منزلة الينبع و أصابنا بموته مصيبة عظيمة لم أنسها إلى الآن لأن ظننا أن يرجع إلى بيته سالما ينتفع به العامة و الخاصة غير أنه لما تاب و قبلت توبته مات بمرض البطن فهو شهيد و فى طريق الحج و انه غريب فكل واحد من هذه الثلاثة تقتضى الشهادة لأن الشهداء غير شهداء القتل معدودون و قد حصر عددهم الشيخ اليوسى فى حاشيته على كبرى السنوسى و لقد أجاد فى ذلك و ما ظننت أحدا أنه ذكرهم كذلك فأنظره و كذا الشيخ إبراهيم الشبراخيتى فى الجنائز فى شرحه لمختصر خليل ثم ارتحلنا آخر الليل و ظعنا من ذلك المحل و تبعا المصرى و عند صلاة الصبح أشرفنا على الغيضة الملتفة بشجر أم غيلان القريبة من الينبع فإذا أنا فى التغليس بعد صلاة الصبح جماعة و ما فاتتنى ركعة و الله اعلم فى جماعة منذ خروجنا من بلادنا إلى أن رجعنا إلى بيوتنا و ذلك مع الفضلاء فى أكثر الأوقات و الحمد لله و إذا برجل أتانى على رجله زى الأعراب غير انه ليس عليه آثار السفر تشم منه رائحة الولاية فلما دنا منى أصابنى منه الرعب و الفزع و مع ذلك أسير مع أصحابى الفضلاء الذين أسير معهم على العادة المألوفة و الحالة أنى مشتغل فى ذلك الوقت بالوظائف و الأذكار الواردة بعد صلاة الصبح نعم أخذتنى شبه سنة و أنا راكب على بغلتى متفكر فى أمر الجمال التى

الرحلة الوثيلانية، ج ٢، ص: ٦٢٠

تركها الشيال فى يدي بأن أسلمها أهلها فصعب على شراء الفول و كذا القيام بها إذ شغلنى أمرها أتم شغل بل تشوش خاطرى غاية فلم أجد مسلكا من ذلك فكلما أمشى إلى الظلام و أرباب الدولة إلا ظننت انه ذهب دينى بل قال لى العارف بالله سيدى محمد الشريف الأخ المذكور لما ذهب مرة معى فى شأن ذلك و أصابه من الجلوس بين يدي الملك ما أصابنى فقال لى سلم فى هذا الأمر و أتركه لله فأخذ ذلك الكلام بمجامع قلبى فكنت أسأل الله الخلاص منهم و لو بالموت أى موتهم نعم قلبى متعلق بذلك الرجل إلا أنه استولت هيبتة و جلالته على فلم استطع كلامه و أنا أسير و هو يسير معى ملاصقا ركبتى أظنها اليسرى فلما تمكن منه قلبى و ملأت عينى من نظره من غير نطق منى إجلالا- و تعظيما له علما منى أنه أحد أصحاب الوقت إذ يعلوه نور و نحن كذلك فإذا هو دفع لى مسوقا رقيقا يساق به مثل البغلة لراكبها كأنه عود الأراك أو من الرياح فلم أميزه لما فيه من اليبس فلما وصل إلى يدي شممت منه رائحة المسك بل أقوى رائحة و تلك الرائحة لا نظير لها كافورا أو عنبرا أو زبدا أو مسكا فهو أى ذلك العود يعبق شذاؤه و بلغت تلك الرائحة جميع جسدى فذاقها الجميع منى ذوقا معتبرا و عند مده ذلك العود فارقنى بان قال لى خذ هذا فههمت أن الله فرج عنى إذ منذ دخلت مكة و أنا فى كرب إلى الوقت الذى لقينى فيه ذلك الرجل الكامل فرال عنى كل ذلك ببركته فعلمت أنه ما جاء إلا إغاثة لى ثم أنى أخذت ذلك العود فى يدي مستحسنا لتلك الرائحة و متعجبا منها و منتظرا الخلاص من تلك الجمال فاستصحبته معى إلى أن نزلنا الينبع و أقمنا به و نزلنا قرب العين فى عافية و سلامة فوجدنا كل خير فى سوقه مع رخاء الأسعار و الحمد لله.

و بعد ذلك اليوم بعث تلك الجمال دينا إلى أن وصلنا إلى مصر فسرني بيعها لأنها

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢١

نعمة عظيمة و كأنى بعدها متجرد فلم يشغلنى شىء و لا همنى أمر سوى ما أحمل عليه شئوننا و حوائجنا فطلبت الكراء فلم أجده فنويت الإقامة فى الينبع بأهلى إذ ذهبت إلى شيخ الركب ليلا ليمهل بالرحيل من الينبع إلى طلوع الشمس و لعلنا نجد ما نحمل عليه بالبيع أو الكراء فرضى هو بالإمهال فلما سمع أكثر الركب بانتظاره أيانا تحزبوا أحزابا إليه و حركوه إلى السفر ليلا قاصدين سبق المصرى إحياء لعادة الركب المغربى لأنه يتقدم فى الرجعة فاجمعوا على ذلك و لو أداهم إلى القتال زعما منهم أنهم يستطيعون محاربتة و ذلك سخافة عقل و تصرف ببضاعة و هم و إن سلّمنا تأتّى الحرب منهم فلا نسلم دخولهم مصر إذ فيها أربعة و عشرون بابا و فوقهم الباشا الذى يأتى من مدينة أصطنبول كل عام ما استوفى أحد عامه إلا ذهب و أتى غيره مع القاضى و ذلك دأبهم فالعسكر المصرى الذى يذهب مع الأمير و قوته غير موجودة فى عساكر ما رأينا و إن ركبنا المغربى من إسكندرية إلى أقصى المغرب ركب واحد إلا الركب الفاسى فانه يذهب فى وسط المصرى يمشى ليلا و أما المغربى فبالنهار نعم ما طلع ركب من المغرب قط أقوى من ركبنا ذلك العام و قد تعجبوا منه فى مصر و فى طرابلس و قالوا فيهما أن هذه الإبل التى كانت فى ركبكم لم تكن مولدة من النوق و إنما هى مجتمعئة من الحطب أو الرمل حتى صارت فى مصر كالمعز فلا تجد أحدا يسأل عنها لكثرتها و قد عم بيعها أرياف مصر و أطرافها من العرب و أكثرها بيع بالدين إلى الرجعة و لم يقتضوا من دراهمها إلا القليل.

نعم وافق الشيخ رأيهم فسافر معهم فبقيت أنا و أهل بلادى ممن شغله أمرى بان تخلف معى كسيدي أحمد الطيب و جملة زواره و سيدي أحمد بن حمود و جملة أهل بلادنا و سيدي محمد الشريف الطرابلسى و أصحابه و سلطان فزان و ركبته إلى طلوع الشمس

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٢

على أن شيخ سيدي محمد المسعود نجل الشيخ البركة سيدي محمد الحاج الدكالى المعلوم بعث لى جملا فى الليل أحمل عليه جازاه الله خير و وقاه ضرا و جعل البركة فى أولاده أعانى به فلما أصبح الله بخير الصباح وقع بيننا و بين ركب فزان شتان لأن أهل وطننا فيهم الجفاء و الغلظة و سوء الأدب و عدم أذعانهم للحكم و سلطان فزان رجل عدل قائم بالأحكام لا سيما أمور السياسة فتقل عليهم المشى جميعا و ربما صرحوا بالقول لما يجدونه مما ذكرناه فى أهل وطننا و مع ذلك فيه رغبة لصحبة الفضلاء منا فلم يكثرث بما وقع من سوء الأدب من أصحابنا مع أصحابهم.

و أما الركب الجزائرى فلا حكم عندهم أصلا و لا يقفون عند الأمر و النهى لا سيما أهل عامر فما فارقهم أحد فى هواهم ألا أبغضوه و جعلوه عدوا و قد أصابتنى منهم عداوة عظيمة من أجل أنى أمرهم بالسنة و القيام بالأحكام الشرعية لا سيما السير بسيرى الشيخ و النزول بنزوله و ستر نسائهم لأنهن يذهبن مكشوفات العورات فيبدن زينتهن لكل الناس بل يتزين لأجل ذلك ليرعن من فتن بهن فأردت إقامة الحد عليهن و على أزواجهن فصارت لى فتنه عظيمة غير أنى من عادانى منهم ببركة السنة لم يرجع إلى بيته فأظهر الله أمرى فتطيروا و تشاءوا بعد ذلك و تاب من بقى منهم بعد أن هلك من هلك منهم و الحمد لله على إظهار السنة النبوية و قد قال تعالى: تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ وَ يَثْبُتْ أقدامَكُمْ الآية و قال أيضا: وَ لَيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصِرُهُ وَ قد قال تعالى فى مثل أهل عامر ممن يريد الوصول إلى الله بالدعاوى الكاذبة و الزخارف البينة و الأباطيل المزيئة يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ فى شأن مثلهم: وَ مَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ وَ قال أيضا: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلْسُّخْتِ وَ قد سمعنا أن بعض الفاسقات ممن يزعم الأحوال الربانية و المواجد الإلهية ممن استولى الشيطان عليهن و سولت أنفسهن لهن تتعرض بنفسها للرجال و تزعم أن من لم يوافقها فى غرضها الفاسد ابتلى بمصيبة بل

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٣

قد تقول إن لم توافقتى فى غرضى أصابك كذا و كذا بان تعينه فيصير ذلك و يظن الجاهل المغرور المخدوع المخذول الشقى و

العياذ بالله تعالى إن ذلك أمر رباني وكرامة منه تعالى لها وما هو إلا استدراج وقد قال تعالى: سَنَسِيْدُرْجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِيْنٌ أَي نأخذهم إن كيدي قوي تحقيقاً أنه إذا أخذ الظالم لم يفلته طرفه عين وقد سمعنا مثل هذا ممن يوثق به و كثير من الناس يحكيه فمنهم من يؤمن به و منهم من يكفر به و أما التزين بالملابس الفاخرة و الكحل و الجوز استياكا و الخضب بالحناء و لبس الحلى من الفضة و غيرها مع المشى فى الأسواق و اجتماع الشبان معهن و من لا خير فيه و الله يقول افزع عليه الصبر، و أحنى عليه الكبر، فعظمت مصيبة فأمير مشهور لا يكاد يخفى على أوباش العامة فضلاً عن الخاصة أما الجهال فيعتقدون أن ذلك من الدين معاذ الله و يأبى الله أن يكون ذلك ديناً أو يكون الوصول إلى الله بحرام و الحمد لله على عدم مسخهم أو يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء أى قطعها منها و يدلك على ذلك أنه تتجافى أنفسهم عن مخالطة أهل العلم و مباحثتهم إياهم فجمحت عن الاجتماع بهم فضلاً عن الامتثال لأوامرهم و اجتناب نواهيهم و الله يقول: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا الْآيَةَ.

و أما العلماء ممن فيه رائحة خير و حسن اعتقاد يقول فيمن هذا شأنه إذا اجتمع معهم و رأى المخالفة منهم أنهم من أهل التخريق و التلبس عن أنفسهم إظهاراً منهم للقيح و إخفاء للحسن كما يحكى ذلك عن بعض الصديقين ممن سلف من أولياء الله تعالى فحشاهم أن يكونوا كذلك بل همه زنادقة خلته أنهم أباحوا المحرمات فقد تطبعوا بطباع المرجية لأنهم يعتقدون أن لا آثم مع الإيمان فهذا أمر لا يليق بالعلماء بل

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٤

يجب عليهم زجرهم و النكر عليهم ما استطاعوا لقوله صلى الله عليه و سلم إذا رأى العالم بدعة و لم يغيرها فعليه لعنة الله أو كما قال و قد قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْآيَةَ و العلماء خيار من خيار و أمته صلى الله عليه و سلم خير الأمم و العلماء هم خيار الأمة و لذا كانوا خياراً من خيار.

و أما السلاطين فيجب عليهم النكير و التغيير باليد إذ وظيفة العالم اللسان و وظيفة السلطان اليد لكن لما سكت العلماء زاد الناس فى البدع و اتسع الخرق على الرفع.

نعم فإن من يقتدى به من أهل العصر ممن ينسب إلى العلم بل إلى الصلاح يجلس معهن و يظهر للناس و دهن و يعلم الناس أنهم صالحات قانتات يعنى اللاتى ذكرهن فى القرآن العظيم بل يزعمون أنهم من أهل الحضرة فى اعتقادهم و بعضهن فى غاية الجمال و الحسن فيخاف على نفسه من زارهن من غير شك و مع ذلك تبقى هذه المزورة مكشوفة البدن بل تظهر محاسنها للشبان و من لا خير فيه بل قصد أكثر الناس الغرض الفاسد أن وصل إليه حتى صار بعضهن مرصداً للزيارة فلما أتانى بعضهن لام على من حيث أن أفضل العلماء خالطهن ليلاً و نهاراً و أظهر صلاحهن فى مجالس العامة و الخاصة و كيف بك يا قليل النية و يا كثير الحيلة أن لا تأتى إلينا و تكون معنا فقلت لهن لا- يحل لكن الاجتماع بالأجانب و الاختلاء بهم لقوله صلى الله عليه و سلم ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما و قال أيضاً باعدوا بين أنفاس النساء و أنفاس الرجال و قال أيضاً لو كان عرق الرجل فى المشرق و عرق المرأة فى المغرب أو العكس لتحاتنا قلن فى الجواب القلوب مع الله فلا- علينا من الصور الظاهرة لقوله صلى الله عليه و سلم أن الله لا ينظر إلى صوركم و إنما ينظر إلى قلوبكم فقلت لهن فإن لم يكن

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٥

لكن فتنه كانت الفتنة لمن أجمع معكن فقالوا اللهم أهلكه و هذا كله ليس من السنة فأوصاف من هذا شأنه لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى فيجب أن نثنى القلم إلى ما كنا بصددده و هو انه لم أصبح الله بخير الصباح رفع سيدى أحمد الطيب و سيدى أحمد بن حمود و أصحاب الجميع بل ظعن الجميع ممن كان فى وطننا و أخذ فى السفر و الركب الفزانى لم يتحرك من موضعه يريد أن يضحي النهار ليقضى كل واحد حاجته من سوق الينبع فلم يذهبوا مع ركبنا الجزائرى [و لا بقينا مع الفزانى و لا مع المصرى بل

انفردنا وحدنا فظعنا عند طلوع الشمس و انفصلنا و تخلف إخواننا في الله سيدى محمد الشريف و أصحابه مع الفرانى لأنه لا يليق به الجزائرى] لما فيهم من الغلظة و سوء الأدب فلما غبنا عن الأركاب استقللنا أنفسنا ثم اجتمعنا و تقوى بعضنا ببعض فسرنا كذلك فى يوم حر لا قرو أن رأينا العرب انضم بعضنا إلى بعض فلم يستطيعوا الكرة علينا أبدا إلى أن وصلنا الخضيره بأمن و عافية و سلامة فوجدنا الجزائرى نازلا فيها فتعجبوا منا إذ بلغنا إليه قرب المغرب فظعنا منه بكره و هذا الموضع لا ماء فيه أصلا فسرنا مع الركب إلى أن وصلنا إلى النبط بعد الزوال فى يوم شديد الحر كادت النفوس أن تذهب من شدة العطش بل مات بعض الناس به و لما قربنا منزل النبط تحركت علينا ريح شديدة الحر مع حرارة الشمس بحيث من ذهب إلى رحله كاد أن يموت و أما من تخلف فلا تسأل عنه.

نعم تخلفنا فى جماعة من الفضلاء فى آخر الركب فأصابنا عطش شديد و نحن كذلك إلى أن أشرفنا على النبط فزاد بنا شدة الحر و قوة العطش و إذا بواحد من العرب لقينا بقربة من الماء فاسقى جميعنا ظنا منا أن هذا الشخص لم ير منا إلا الفلوس فشرينا الماء أحلى من العسل و أبرد من الثلج فلا نعلم انه من ماء المطر أو من العيون التى فى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٤

الجبال فلما أتى عن آخرنا ارتقبنا منه أن يتكلم و يسأل الدراهم كما هى عادة عرب الحجاز أعنى هبّ الريح فلم يطلب من أحد دعاء و لا سأل شيئا منه بل رفع قريته و لم يلتفت إلى أحد منا فعجب جميعنا منه و وقع فى قلوبنا أن هذا الرجل من أهل الله و أنه من عباد الله الصالحة إذ يعلوه جلال و هيبة و نور فندم الكل من حيث أنهم لم يسألوا منه الدعاء و مع ذلك آثر بمائه العلماء من الركب و فضلاءه فزال ما بنا من العطش فنزل الركب قرب الآبار و ازدحموا عليها لسقى الإبل و ملء السقاية زحمة عظيمة حتى ظننا أنه لا يبقى فيها قطرة ماء بل بفضل الله يتزايد فاستقيننا و سقيننا و ملأنا السقاية فزاد الماء من عنده الوسع لأن ماء الحوراء ليس بطيب و بعده الدرकिन المسمى الآن بالحنك لا ماء فيه و بعده الإكراه فمأوه أقبح و أقبح مرارة فمن شرهه ربما أذاه و أوجب له المرض و عنده تتغير الوجوه و تسود قل أن يسلم الناس منه من الوخم أى المرض و مع ذلك أنه لا- يحصل إلا- بمشقة عظيمة من الحفر و الاستسقاء بالأواني الصغار كالقدح و غيره فلا ينبغى للحاج أن يكثر الأكل فى هذه المنازل لأن كثرته تستدعى الشرب الكثير و الشرب الكثير من هذه المعاطن يؤذى كثيرا و ربما أهلك و ذلك مجرب صحيح و قلة الأكل تشد العصب و ثاقا و تقوى الأعضاء فلا يظما صاحبها أبدا و ضدها يرخى الأعضاء و يضعف البدن بل ربما أمرضه و بعده الوجه مأوه عذب غير أنه قليل جدا فلا يكفى مأوه عامة الركب أصلا و إنما يفترقون فى الوادى الذى فوقه فيحفرون فيه حفائر و مأوه قليل فلا يحصل منه نفع إلا بطول المدة كعامة الليل و النهار بل ربما تشاجروا عليه فضعيف النفس أو الخدام أو الرفقة رجح منه خائبا فيكون ذلك سبب هلاكه و قد شاهدنا ذلك كله و لو لا فضل الله علينا ما ملأنا السقاية و لا استقيننا أصلا و لقد أحسن الله إلينا فله الحمد و المنه.

ثم ارتحلنا من النبط ليلا- و قد اجتمع فيه الركب الجزائرى و الفرانى و الفلالى فلما ارتحل الكل اختلطت الأركاب فلا يعرف أحد صاحبه من كثرة الخلق و من عادتي مع

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٧

سيدى أحمد الطيب و سيدى محمد الشريف و أصحابه ممن يركب على البغال أو الخيل إذا انفصل الركب نذهب جميعنا لتحصل لنا الصلاة فى الجماعة و ليستعين بعضنا ببعض حتى الغذاء نجمع عليه من غير اعتبار الجميع فانتظر بعضنا بعضا فلم يوافق ذلك اليوم إلا سيدى أحمد الطيب فتخلفنا عن الركب فإذا برجل من الفضلاء من ركبنا تخلف رحله و هو مريض فى كرمود على جمل و الله اعلم أن زوجة ابنه راكبة أيضا فى باسور فوقع الجمل فى الأرض و أزال عنه الحوائج فلا عرفناه انتظرناه إلى أن استوى رحله و قام على جادة الطريق و إذا بالحجاج فأتونا فلم يقع لنا بصر على أحد و مع ذلك ضل علينا الطريق ثم ذهبنا مع سفح الجبل كذلك إلى أن سمعنا نباح الكلاب فقلت لسيدى أحمد يا حسرتنا قد هلكنا فقال كيف الفعل قلت له ها هى عمارة العرب ثم أنى نزلت عن بغلتى و اثنتيت إلى الجبل و بتعنى سيدى أحمد و من معه و أنا كذلك أتحمس من الركب فلم اسمع صوتا و لا همسا ثم كذلك إلى قرب

انقطع الجبل فتحسست منه أيضا فسمعت صوت سائقة الإبل وراء الجبل ففرحت غاية الفرح و بينما أنا كذلك إذ رأيت الركب يمشى فكان مشى الحجاج عن يمين الجبل و نحن عن يساره و هو على جمعهم إذا يشاء قدير فرجعت إلى سيدى أحمد الطيب فذكرت له الخبر بعد أن آيس من لحوق الركب فإذا ركبت بغلتى و دخلنا وسط الركب و كل هذا من بركة الصالحين لأن المنقطع عن الركب ما وصل قط سالما أبدا إلا من عصمه الله و صانه و ذلك من الغرائب و نحن كذلك إلى أن نزلنا الحوراء بين الظهر و العصر فلما استقرنا القرار و إذا بخبر عال ان الفاضل الكامل الحسيب النسيب شيخ الركب الفلالى سيدى محمدا جرحه العرب فى النبط فى آخر الركب و قالوا ما ضربوا إلا بندقة واحدة فجاءت فيه و هو رجل جميل شجاع حسن الهيئة راكب على فرس حمراء قال أصحابه لا يخاف أصلا فلم نذهب إليه ليلتنا تلك فسقينا و استقينا ظنا من الرحلة ليلا كما هى عادتهم فلما سمعنا بالشيخ المذكور انه فى السياق انتظروه لطلوع الشمس ليدفنوه فلم يمت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٨

صبيحة ذلك اليوم فذهبت إليه فوجدته قوى النفس كثير النهج فعلمت أنه قريب الموت غير انه يموت عن قرب فرجعنا فظعنا عند الضحى فنزلنا الدرकिन قرب الاصفهار و قد علمت أنه لا ماء فيه فبعد ذلك لحقهم الفزانى و ظعنا منه إلى الأكره فنزلنا عند الظهر و إذا بخبر موت الشريف فى الدرकिन ثم انه لما لحق بالركب الفزانى استطال العرب فى آخره فسلموا منه و ظننت أنهم قتلوا منه و نهبوه فظعنا منه إلى الوجه و وصلنا إليه و الله اعلم بين الظهر و العصر فنزلنا تحت البرج و هو خال من العسكر و إنما يحفظه العرب فقط ثم أن الناس افترقوا على المياه فى الوادى الذى أعلى البرج و أظنه المسمى بالزعفران فتبعه الناس إلى أعلى الوادى غير أنهم يخافون منهم خوفا شديدا لكن الناس طلوعوا إليه بأسلحتهم و طلعت أنا و ولدى محمد إلى أن هيأنا موضعا للسقى فرجعت إلى الخيمة قرب العشاء فلما ملئوا أسقيتهم رجعوا إلينا ليلا و ان الفقيه الفاضل سيدى عبد الرحمن بن الزيعم العمرى كان يسقى بغلته من البئر التى قرب الطريق فإذا بالحراميين أخذوا بغلته و ذهبوا فأراد أن يمسك العرب فيها و أنا أريد أعانته فامتنع الشيخ من أعانته و كذا الكثير من الركب إذ خافوا منهم فذلوا و أن الفسقية التى تحت البرج مملوءة ماء فتركانها لأمير مصر بعدنا.

هذا و أنا ظعنا من الوجه صبيحة عند الأسفار فخاف الناس من العرب و أن العرب فى بلاد الحجاز من عسفان إلى ينبع بلاد حرب و من ينبع إلى الأكره بلاد جهينة و من الأكره إلى ظبة بالظاء المشالة و الباء الموحدة و الهاء واد دون المويلح بلاد بلى و منه إلى مصر بلاد الحويطات و مغارة الأعولين و بنى عقبه ثم ظعنا من الوجه و بلغنا اصطبل عنتر و بنتنا فيه و استقت الناس منه ثم ظعنا منه صبيحة و سرنا كذلك إلى أن نزلنا الأزلم و الله اعلم ليلا و ماؤه حرف أى مر لا يصلح و لو لسقى الدواب ثم منه بكره فى آخر الليل ثم سرنا كذلك و بين هذه المنزلة و التى نصل إليها قبر سيدى مرزوق الكفافى و الناس يزورونه و أنا لا أعرف قبره ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا آبار

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٢٩

دار أم السلطان و الله اعلم عند العصر و بعد الظهر بسويعة و ماؤه طيب من أحسن المياه فلا يكاد يوجد مثله فى الدرب إذ هو محل طيب و الأعراب كثيرة المكر فيه و الخديعة قل أن يسلم الركب منهم ثم ظعنا منه فى آخر الليل على خير و عافية إلى أن نزلنا بندر المويلح و أظنه قرب العصر و بتنا فيه ليلتين و وجدنا فيه ملاقيه من مصر أتى بها بعض ملوك مصر و معه عسكر عظيم فيه طعام كثير و بشماط كذلك و دقيق كذلك و قول أكثر الجميع و قد رخص يوم دخولنا البندر كثيرا و بعد ذلك قد ارتفع غلاؤه فكأنه لم تكن ملاقيه من مصر فاشترينا منه ما نحتاج إليه من دقيق و فول و بشماط ثم إن أكثر الشياطين هربوا على الحجاج فمنهم من فر بإبله و منهم من تركها لغلاء العلف و قلة دراهم الكراء فهرب سيال سيدى أحمد الطيب بإبله فكان ما كان من قدر الله تعالى من احتياجنا إلى الكراء فأن أريد الكراء لحمل النساء و هو يريد الكراء له و لأصحابه فأتانا بعض الأعراب من البركة قد قدم مع تلك الملاقيه فاكترينا منهم جميعا غير أننا خفنا منهم الخديعة و الهروب كما كان ممن قبلهم فقال رئيسهم عهد الله لا أخذنا منكم درهما إلا بعد البلوغ إلى

مصر فرأينا الفضل من الله تعالى و المنه فاكثرتي منهم جملين بأربعة عشر محبوبا فأحدهما ركب عليه امرأتنا في المهيأ و الآخر ركب عليه ولدى مع زوجته في المهيأ أيضا و أحسنوا إلينا أحسن الله إليهم و جعل البركة لديهم فلم يقع منهم نفور و لا مشاجرة إلى أن وصلنا مصر فوفوا بالعهد أكرمهم بمنه و كرمه.

ثم ان سيدى محمد المسعود هرب شياله أيضا بإبله فبقى كذلك مطروحا في الأرض فظعنا آخر الليل على العادة المألوفة و تركنا المصرى وراءنا فلما أخذ الناس فى السفر سمعنا مناديا ينادى بان شيخ الركب لم يجد ما يحمل عليه فلم يلتفت إليه الركب بل ذهب جميعه و تخلف سيدى أحمد بن حمود و سيدى أحمد الطيب و العبد الزابر لهذه الرحلة مع أصحاب الجميع فرجعنا إلى منزل الركب فحططنا الرحال عند خيمة الشيخ فصلينا الصبح و انتظرنا من يكرى له بعد سويغات كذلك إلى طلوع الشمس الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٠

و إذا بالشيخ قد اكرى لنفسه و لأصحابه و الركب ذهب بأجمعه و تركنا وراءه فالبعض منا يقول ننتظر المصرى لأنه يرتحل عند الزوال و منا من يقول نذهب على بركة الله و حس عونه إذ نحن فى جماعة كثيرة غير أن المحاربين إذا أتوا فى كثرة فلا طاقة لنا معهم ثم وقع الاتفاق منا على المشى من غير تأخير و لا انتظار فعزمتنا و ارتحلنا ساعتئذ فظعنا منه فسرنا كذلك من غير بأس و لا خوف إلى أن وصلنا عيون الأقباص فوجدنا ركبنا نازلا هناك فبتنا فيه خير مبيت و نحن لا سمن عندنا فاشترينا فى هذا الموضع عكة سمن و نعم السمن هو ذو قابل وضع الله فيه البركة العظيمة قد شاهدناها عيانا و نحن جماعة كثيرة.

و قد كان معنا فى الزاد الفاضل الكامل سيدى على نجل العالم الفاضل الخطيب المحدث سيدى عبد المؤمن البجائى الذى كان مفتيا فيها و سيدى على هذا قد استوطن محروسة الجزائر و ترك داره فى بجاية أجزل الله خيريه و جعل البركة فى دينه و دنياه و كان لنا و له و لذريته بالخير و التوفيق و العلم و العمل و الغنى و الكفاف و الزهد و العفاف إلى غابر الدهر ثم أن هذا السمن فيه خير عظيم و فضل جسيم و ما شاهدنا ذلك إلا من الإحسان لإخواننا فى الله مثل الود الصدوق و الخل الفاروق ذى الفضائل و الفواضل و المتوكل على الله الزاهد فى الدنيا الراغب فى الله سيدى الصالح الغربى و قد شاهدنا فيه أمرا عظيما و كيف لا و هو تلميذ العالم العامل الورع لزاهد المتخلى عن الدنيا رأسا المتبتل المدرس المقتفى أثاره صلى الله عليه و سلم سيدى أحمد بن باباس الفلبسى و قد أدركته و زرتة فى محله المعلوم و تبركت به و قد حصلت لى بركته و الحمد لله و كذا ولده و قد صاحبتة و جعلته أخا فى الله و هو فاضل عالم متعبه زاهد ورع متمكن عارف منعزل فى خلوته مدرس له كرامات عظيمة و مرء طيبة قد زبرها تلامذته و قد

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣١

رأى الله مرارا فى النوم و كذا النبى صلى الله عليه و سلم و هو سيدى المحفوظ و ان سيدى الصالح هذا صهر الشيخ أيضا قد انفلت سريرته له و ظهرت آثار فضله عليه فله الحمد على كونه من معارفنا و إخواننا فى الله.

ثم ظعنا منه على بركة الله و حسن عونه إلى أن نزلنا مغارة سيدنا شعيب عليه السلام قرب العصر و هو قريب لمدين قال شيخنا ما نصه و أتانى رجل و بيده زيف فيه قليل عنب أسود و طرحه بازائى نحو عرجونين و الله اعلم و قلت له أنت من مدين قال نعم و ذكر أن العنب يطعم بمدين مرتين فى العام و أكلت ذلك العنب و وجدته عبا جديدا كان فيه قليل حموضة و هو طيب حلو و أكلت العنب الجديد فى نصف مارس و ذكر أبو سالم لما أنهم نزلوا هنا أتاهم الأعراب بأحمال كثيرة من العنب الأسود و هو غاية الحلاوة و برمان كثير و بيع العنب أولا بدرهمين للطل ثم صار بعد ذلك رطل و نصف بدرهم .

ثم ظعنا منه فنزلنا شرف بنى عطية و هو الموضع المسمى أبا العظام كما ذكره شيخنا المذكور و أما الآن فيكنى أم العظام و لا ماء فيه بتنا فيه خير مبيت ثم ارتحلنا منه آخر الليل ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا بحفائر النخل فيه إحساء كثيرة فى وسط حدائق النخل تحت ظهر الحمار و على ساحل البحر و بتنا فيه فى أرغد عيش و أتمه ثم ارتحلنا منه و نزلنا بندر العقبة أظنه عند الزوال أو بعد الظهر و بتنا فيه ليلتين و استقيننا من البئر التى فى وسط القصر فاشترى كل من أصحابنا كل ما يخصه لأن فيه سوقا عظيمة تأيها الناس من كل فج لا

سيما الملاقيء من الشام و قد بقى لى جمل بعته بثلاث ريلات أبى طاقه و قد اشتريته فى المدينة المشرفه بما يقرب من خمسه عشر أبا طاقه أو بأزيد منه ثم ظعنا منه صبيحه ثم سرنا كذلك على شاطئ البحر إلى أن وصلنا العقبة فنزل كل من

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٢

كان راكبا حتى النساء غير أن نساءنا ما نزلن فى الطلعه و لا فى الرجعه و لا أزيل عنهن الخدر فله الفضل و المنه و كذا لم يصبهن ظمأ و لا- نصب كثير و لا- مخصصه و كذا أصحابنا فإنهم مرضى غير أن الله تفضل علينا فلم يبق أحد منهم و قد ركب الجميع مع العيش الرغد و الماء الكثير ثم كذلك إلى أن نزلنا السطح عند القيلولة فلما حان وقت الظهر صليناه فاختلفت الحجاج فمنهم من يريد الارتحال و منهم من يريد المبيت فراودناهم الاتفاق أنا و الفاضل سيدى عبد الله بن رحاب فلم يساعدنا للارتحال سلطان فزان فارتحل جميعنا فلم يبق إلا ركبته ثم ارتحل و راءنا آخر الليل و نحن سرنا كذلك إلى الليل فبتنا ثم ظعنا آخر الليل ثم سرنا كذلك إلى أن مررنا ببئر العلائى المسماه الآن ببئر الصعاليك و توضحنا و صلينا الظهر عندها و ماؤها أقبح المياه غير أن فيه بروده و بثره طويله كبيره ثم تجاوزناها إلى الليل فبتنا خير مبيت ثم ظعنا و نزلنا النخيل عند الظهر و قربه و الله أعلم و وجدنا به الملاقي و بيع فيه الفول برخص و كذا الشعير و سائر الأطعمة ثم بتنا فيه خير مبيت و ماؤه كثيرا جدا فوجدنا فسقياته مملوءه فاغترف الجميع من واحده فلم يؤثروا فيها شيئا.

ثم ظعنا آخر الليل و انفصلنا عن هذا البندر إذ فيه قصر عظيم و عمارة حوانيت و لما ذهبنا سويعه و إذا بولد خالى الفاضل الكامل الشريف نجل ابن عمنا سيدى عبد العزيز ابن سيدى محمد جدى من قبل أمى عم لأبى سيدى الحاج أحمد زروق هذا قد حج فى زمان الشيخ عبد الباقي و الخرشى و كان فقيها يحفظ العقائد الثلاث متنا و شرحا و كان يتعلم عليه ولد الشيخ عبد الباقي حين كان صغيرا و هو الشيخ محمد الرزقانى شارح الموطأ و شارح المواهب اللدنيه و كان من أكبر المحدثين و قد سمعنا عنه حكاية عظيمة و هى انه كان يحضر مع والده مجلس الشيخ الخرشى و كان لا يقرأ الحديث إلا إذا حضر الشيخ محمد فتأخر عن الدرس ذات يوم فمسك الشيخ عن الحديث فقيل له ان لم يأت الشيخ محمد فلا تقرأ فقال نعم ثم قال أنى سمعت رسول

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٣

الله صلى الله عليه و سلم يقول لا تقرأ حديثى حتى يأتى الشيخ محمد و كان فى عصره يسمى مالكا الصغير. نعم سمعت انه كان يتعلم على جدى أول أمره بأذن الشيخ عبد الباقي والده و انه ذات يوم فى مجلسه ألقى الولد على الجد مسأله من مسائل الأعراب و هى كل إنسان و ضيعته و كل صانع و ما صنع و الجد و إن كان يعرف النحو غير أن أهل وطننا لا يشتغلون بالأعراب أتم اشتغال و إنما دأبهم الفقه و أصول الكلام و أما مسائل الأعراب و المنطق و التصريف و البيان و الأصول فعلى طرف اللثام فلما لم يعرفه الجد أعرابا شافيا قام الولد أعنى الشيخ محمدا فتفوه للجد و أساء معه الأدب لما علمت أن أولاد الأمصار و المدن ألسنتهم طويله فلما سمع الشيخ عبد الباقي قام لولده فأدبه و زجره و قال له أكفف أو كلاما هذا معناه فلما رأى ذلك قال له دعه فانه صغير فقال الشيخ عبد الباقي لا أسكت فأنا أمرنا بالأدب مع الأشياخ أو كلاما هذا معناه و هذه الحكايه قد تلقيناها عن قبلنا و أظن أن الشيخ الفقيه الفاضل سيدى الصادق الشوثرى هو الذى كان يحكيها و الله أعلم انه سمعها من الجد المذكور أو سمعها ممن سمع منه و الله تعالى اعلم ثم أن السيد عبد العزيز هذا قد ترك فى محل النزول طاجينا و الله أعلم انه استعاره من بعض الناس فرجعت معه إلى المحل الذى نزلنا فيه فبحثنا عنه غاية البحث.

نعم لما رجعنا إلى منزله فبحث عنه فقلت له فى أى مكان خبأته فقال قرب التنور غير أنى غطيته بالرمل حين فرغنا من طبخ الخبز فبقينا نبحت عنه إلى أن خفنا على أنفسنا من متلصصه العرب فسرنا سيرا شديدا لعلنا نلتحق بأخر الركب و هو لا يقدر

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٤

على المشى و الذى لحقناه أولا قافلته من غزه راجعه إلى بلدها أعنى الشام فتأنسنا بها فسرنا بعد ذلك مع الجد فى السير فلحقنا آخر

الركب فتخلقت آخر الركب على عادتي و هو قد تقدم ليدرك مركوبه ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا وسط السبخة قرب المغرب في زمان قر آخر النهار و إلا فهو حر لا قر و هذه السبخة أعظم أمكنة الدرب و أصعبها لقله الماء فيها و حرارة أرضها و قوة هوائها قل أن يسلم الحجاج فيها من العطب إذ تغلب شدة العطش فيها فما أقبحها من مكان و قد تركت منزلة و هي منزلة التيه منزلة قبل هذه و ليس الخلاص من جميعها إلا بفضل الله تعالى و جوده و كرمه.

ثم منها آخر الليل و عند طلوع الفجر وقع الصياح و الويل و النهب في الركب فتأخر الأولون و تقدم الآخرون و اختلقت الناس فلا تدرى المصاب من غيره فإن الركب جيش بلا رأس و ذهب بلا تقطير بل كل يسبق الآخر فإنهم في غاية الإهمال و التفریط و الإفراط في القبح بحيث لا يقبلون نصح أحد و لا يقبلون كلام فاضل أو عالم و لا زجر أمير فهم فمى تيه البطلان مترددون و قد اشتد حمقهم و سفههم فظنوا أن الدرب يقطعونه في مدة قريبة فلو ملكوا أنفسهم لطاروا بها فكانت عاقبتهم الخسران و الأخذ و السلب فدخلنا بعض المحاربين نحو الخمسة عشر فارسا فاخذوا جمالا من وسط الركب و عليها من الحوائج و الذهب ما لا يعلمه إلا صاحبه و قد سمعنا من بعض الثقات ما يبلغ نحو ألفين و هذا الذي ضاع لبعض الناس من بسكرة و هو جندي أى تركى و غيره مما أخذ له و سلب عنه.

نعم بشس اليوم ذلك اليوم و ذلك عند طلوع الفجر فلما صلينا الصبح جماعة تأخرت أسأل عما وقع في الركب فقالوا ضاع كيت و كيت فلما سرت خطوات و إذا بالأخ في الله سيدى أحمد الطيب رجع مشرفا نحو المنزل الذى ارتحلنا منه يغيب بعض

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٥

أصحابه من زواوة إذ ترك غرارة مملوءة حوائج سقطت له حين أغارت الأعراب علينا فقلت له قد غررت بنفسك فلا بد أن أرجع معك فقال لى مكان قريب فقلت له و لا بد لأنى لم أملك نفسى أن يرجع وحده فأخذت المكحلة من الأخ في الله سى محمد بن قسوم فذهبت معه فلما رآنى سيدى محمد البهلولى ذهب معنا و كذا الأخ عاشور من أهل ابن ضيف الله ذهب معنا و ظننا أن ذلك قريب فذهبنا مشرقين و الركب مغرب إلى أن خفى علينا الركب بأميال كثيرة و مسافة بعيدة يستحيل الغوث فيها من الركب عادة فوجدنا الغرارة بما فيها ثم رأينا رجلا بعيدا عنا يحسبه الرائي انه حجر فوصلنا إليه فوجدناه مريضا فاخبرنا بان رجلا آخر بقى في منزل الركب مريضا فرجعنا إليه فرفعنا أحدهما على بغلتى و الآخر على بغلة الشيخ سيدى أحمد الطيب و هما من زواوة و لم نصل إلى ذلك الموضع إلا بعد الضحى الأعلى فرجعنا فإذا الفرسان الذين سلبوا من الركب فتحولوا إلينا علما منهم أننا لا غوث لنا و لا حصن و لا مهرب سوى الله تعالى فتحولوا إلينا و داروا بنا دور الخاتم يمينا و شمالا و نحن واقفون ننتظر منهم الفوت و التمكين فقلنا لبعضنا بعضا ليس إلا الموت و لا مهرب و لا حصن فهى سبخة عظيمة واسعة الأطراف خالية من الأحجار و الشجر و المدر ذات الأرمال و مع ذلك فيها حرارة الشمس و الحالة أنه لا ماء معنا و قد توقعنا مخائل الموت.

نعم الحاج عاشور عنده نحو السبعين وجها من البارود و كذا من الرصاص فقال لا تخلوا و اضربوا قلنا لهم لا فائدة لكم عندنا و لا طائل يصاحبنا فنبهنا عليهم ليكفوا عنا و ما زادهم ذلك إلا نفورا و تكبرا و استطالة فتوهموا أخذنا فى سرعة فقلت له لا تسرعوا بالضرب فإن أحجموا عنا و تأخروا فيها و نعمت و إن بدءونا بالضرب فلا تضربوا إلا إذا اختلطوا معنا و هم أربعة عشر فارسا و ما عندنا إلا ثلاث بنادق كبار

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٦

طوال و بندقه صغيرة و يطغانا فداروا بنا يمينا و شمالا و ليس عندنا ما يسلب إلا حوائجنا و بغلتان فلما توجهنا إليهم بالضرب تنحوا قريبا ثم تنادوا لبعضهم بعضا بالأغراء و الأشلاء و الزعم فقالوا يردنا ثلاث بنادق و نحن فى كذا و كذا فارسا فرجعوا بأنفسهم فتقدموا إلى و الشيخ سيدى أحمد عند كنفى و المكحلة الصغيرة فى يده فتوجه إلى واحد منهم أراد أن يضربنى بقناته فتقربت إليه و توجهت إليه باليطغان فهرب منى ثم داروا بنا دورة أخرى غير أنهم لم يتمكنوا منا بفضل الله تعالى و قوته و نحن معهم كذلك ندور حيث داروا حتى أيسوا منا فاجتمعوا فانفصلوا منا مشرقين و الحالة إنا نسير نحو المغرب مع الالتفات إليهم سيرا رويدا إذ ربما رجعوا إلينا

فارتفع عنا الخوف منهم و زال و نام خفنا زيادة الأعراب الذين لا طاقة لنا بهم فلما وصلوا إلى محل مرتفع بعيد منا اجتمعوا و نحن سائرون و إذا بطائفة أكثر منهم قد غشيت الطريق تحيرنا منهم و ذهلت عقولنا من أجلهم فلما شاهدنا جمعهم تيقنا الموت و قلت حينئذ لسيدى الآن متنا فكنت استغيث بالنبي صلى الله عليه و سلم طالبا النجاة أو الموت على حسن الخاتمة.

فلما دنوا منا أردنا قتال من سبق منهم إلينا غير أن سيدى أحمد عرف بعضهم انه من زواواة فنهاني عن ذلك فإذا بهم أنهم رجعوا عن الركب إلينا لما سمعوا أننا تخلفنا فلما وصلوا إلينا حمدوا لنا السلامة و نزل صاحبنا الذى اكرى لنا إبله على هجين فركبت عليه و قد انتفع لونه قبل فركبت عليه إلى أن وصلت إلى بندر عجرود [و كذا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٧

سيدى أحمد الطيب قد ركب و الذى ركب لم أعلمه الآن فنزلنا عجرودا] ضحوة فوجدنا فيه خيرا عظيما من الرزق و أما ماؤه فأقبح المياه يشوى الوجوه بثس الشراب.

نعم لما تركنا النابغة استعجالا أضربنا العطش لو لا أن الله تفضل علينا بقر لا حر فى زمان الحر فضعنا ذلك اليوم منه بعد قضاء مآربنا منه و مع هذا أن المحاربين رجعوا إلينا طمعا فى آخر الركب الفزانى فلم يصيبوا منهم شيئا لشدة الحزم و سيدى محمد الشريف معهم فارتحلنا بعد الظهر و تركنا الفزانى هناك مبيتا و نحن كذلك إلى بعد العشاء الأخيرة بسويغات و الطائفة السابقة من المحاربين تبعنا فى آثارنا أهلهم الله فبتنا هناك إلى قرب طلوع الفجر ثم ظعنا منه و نحن سائرون طول النهار إلى أن مررنا على الدار الحمراء قبل الزوال فتعدى الناس فيه ثم ذهبنا كذلك و المحاربون فى آثارنا و نحن فى جماعة فيها الخيل و البغال و معنا البنادق و السلاح فلم نكثر بهم إلى أن صلينا العصر فبقيت فرس الحاج يونس بن يلس المسيلي من قياد قصر الطير فتخلفنا من أجلها إلى أن رأينا الركب نازلا بعد العصر بكثير فخلفناها و لحقنا بالركب لنبعث جماعة من حجاج المسيلة ليأتوا بها فذهبوا فوجدوها قد ذهب بها المحاربون الذين فى آثارنا فرجعوا خائبين فاعلموا الركب بتوقع الخوف منهم لأنهم لم يعارضونا و لم يزالوا معنا ليستعملوا الحزم.

نعم أكثر الركب أصابه عطش عظيم لما علمت ان ماء عجرود لا- يغنى عن العطش بل يزيد حرارة للقلب فيطلع ذلك على الجسد فينتقع لون الشخص و يتغير وصفه من شدة ما أصابه فيتكدر وقته و تضعف مهجته فلا يستطيع الهروب فترى المحاربين يتراخضون بين خلال الركب فإن رأوا محترما قائما بنفسه خلوا سبيله و إلا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٨

سلبوه. و لما اشتد بنا العطش ذهب أصحابنا ممن اكرتينا منهم إلى قرب البركة فأتوا لنا بماء عذب و أظنه من ماء النيل فاحيونا به بعد قرب الموت جازاهم الله أحسن جزاء فنعم الناس هم فشرنا و شرب من معنا الأصحاب و فرقناه على المعارف ممن اضطر إليه فكانوا رحمة لنا و لأصحابنا أسعدهم الله دينا و دنيا فبتنا فى ذلك الموضع قريبا من البركة إلى أن طلع النهار و تجلى فضعنا منه متوقعين الخوف من هؤلاء المحاربين فنأدى الناس بعضهم بعضا لتهيئوا لهم فاجتمع أهل بلدنا من قسنطينة إلى الجزائر و جعلنا حومة واحدة و تأخرنا عن جملة الركب إلا أولاد عيسى و أولاد عبد النور و أولاد سعيد بن سلامة و أهل عامر و من حذا حذوهم من أهل البلد قد سبقوا و صارت فرجة بيننا و بينهم و أنزلنا كل من عنده سلاح عن مركوبه فجعلنا البعض ميمنة و البعض ميسرة و البعض قلبنا و البعض آخرا و البعض أولا غير ان المتأخر أكثر و الجميع دائرون بالإبل و القسمة هذه كقسمة النبي صلى الله عليه و سلم أصحابه على خمسة قلبا و ميمنة و ميسرة و مقدما و مؤخرا و لذا قال البوصيرى:

يجر بحر خميس فوق سابعة يرمى بموج من الأبطال ملتطم

فعلمنا أنه لا- يصيبونا نعم لما رأونا محيطين بجميع الإبل خلوا سبيلنا و ذهبوا إلى أول الركب فأخذوا منهم ما شاء الله و من جملتهم الفقيه النزيه سيدى عبد الرحمن بن الزيعم العمرى و مثله الشيخ المكرم سيدى أحمد بن خراز الغرزولى و غيرهما و كلاهما بنسائهما فلم يضربوا شيئا و تركوهم فقراء مفلسين معدومين و سبب ذلك كثرة الإهمال و عدم الاتصال و فقدان القوة للقتال و كثرة النساء و

الصبيان و الأوباش من الرجال فلم يهدتوا لأحد يرجعون لأمره فتراهم كالأمواج فى البطحاء و لو كثر المحارجون لأخذوا جميعهم
[فصاروا يلعون من قوة عددهم و كثرة أموالهم و عدم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٣٩

الاستعداد] لدفع من أتاهم و أما نحن فقد حصلت لنا القوة و الحمد لله.

نعم تأخر مرحول الشيخ عن الجميع فانظرنه إلى أن دخل معنا و الحمد لله على المنه و الفضل.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٠

ذكر دخولنا مصر

إشارة

فذهبنا كذلك إلى أن وصلنا البركة و هو منزل الركب المصرى و تلقى الناس أهل مصر و المغاربة و أمراء الأجناد و الأتراك خرجوا
لملاقاة الركب فنصبوا الأخبية و الخيام فى سائر الطرقات و ملثوا المحال بالأسواق من البركة إلى مصر و دخلنا القاهرة عند الضحى
الأعلى مارين على قرب باب النصر ذاهبين و مارين إلى منزل الركب المغربى فى بولاق غير أن ركبنا نزل بين بولاق و النيل فى
الطريق التى يسلكونها إلى إمبابة و استقرنا هناك أياما بخيامنا و البعض منا دخل المدينة المتجرد فى الوكالة و المتأهل الغنى فى
الديار و الفقير المتأهل أيضا فى الوكالة و بعد اليومين أو الثلاثة دخل الركب المصرى القاهرة فتقصر العبارة عن أحوال النزاهة من فرح
و سرور لمن قدم سالما و حزن و كآبة و ندبة عمن أتى خبره ميتا و أم الأسواق و الأخبية و الأطعمة المختلفة الأوانى من الذهب و
النحاس و الفضة و الملابس الفاخرة و الخيل المسومة و الرايات المفزعة و الأسلحة القوية و الرجال المزينه و النساء المخدرة و
الأسواق العامرة مما لا يحصى كثرة يكاد العقل يحيل فناءها و ذهابها و انعدامها فلا تسأل عنها و من عجائب ذلك أن أرزاقها أكثر
منها فإن أهل وطننا بل سائر المغاربة يعلمون أنهم ليسوا من أهل الدنيا بل أموات بالنسبة إلى ما رأوا من زخارف من خرج من مصر
بحيث لا يحيط ديوان بأنواع ذلك.

نعم الأعراض عنه و الغيبة عن كله أولى ما يسلكه العاقل اللبيب إذ كل ذلك خيال محض فالوقوف عنده عطب و هلاك و قد قال
تعالى ...

الآية و إنما هى غرور فى غرور و خديعة و مكر و ظلمة و إنما أنارها وجود الحق فيها و إلامات العارف بالحقيقة شوقا إلى محبوبه
حتى يرى الكل جيفة و تننا بل كل ذلك انتن فى الحقيقة علما منه أنه يصد عن الحق بل الداخل فى الحضرة الإلهية أقوى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤١

نزاهة من هؤلاء المغرورين المخدوعين بالتخيلات الوهمية التى لا وجود لها أصلا و إنما هى عدم محض.

نعم دائرة المعارف تتسع بكثرة الاعتبار، فى اختلاف الكائنات و الصنائع بقدره العزيز الجبار، و من أجل ذلك اختاروا المدن الكبار،
فكثرت الأئمة فيها و عز وجودها فى القرى و انعدمت من البادية رأسا فعلمنا أن مجال الأنظار، كثرة الخلق فى الأمصار، و فى كل
شئ آية من الواحد القهار، فمهما رأيت غير الله دليلا كان نظرك رحمة و عزا و رفعة و أما ان نظرتة اعتمادا و تعلقا كان نظرك
هلاكا و عطا و نقمة فالغير غير و هلاك أن نظرت إلى ذاته و إلا فخير و صلاح إن نظرتة بنظر الحق إليه أو دليلا عليه قل انظروا ما ذا
فى السموات و الأرض فلا- اقل أن الخلق رحمة فى عين الحق و هلاكا فى عين الباطل فلا تعتمد على سواه و قل حسبنا الله و نعم
الوكيل و قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون متعنا الله بالنظر إلى وجهه بمنه و فضله.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فقد نزلنا مصر فى أحسن نزول غير انه وقع بين الركب و أهل البادية الذين اكرؤا لهم شنتان عظيم و فتنة

قوية فأشلقوا الأتراك و الأجناد على الحجاج فما خرج منهم إلى السوق واحد إلا حبسوه و سجنوه حتى أنهم حبسوا أفاضل الركب من العلماء و الصلحاء و الطلبة و الفقراء و أصحاب الشيخ كالعلام بل أرادوا حبس الشيخ فسلم و الحمد لله و قد حبسوا ولد الشيخ سيدى أحمد الطيب و لكن لم يطل و كذا سيدى أحمد ابن بلقاسم و سيدى أحمد بن حمود.

نعم تفضل الله عنه فاخرجه فى ساعه و كذا ابن عمنا سيدى عيسى الشريف و الفقيه سيدى بلقاسم بن الطيب و غيرهم ممن لا يحصى عددا غير أن والى بولاق يأخذ منهم شيئا قليلا و يسرحهم رحمة منه أهلكه الله ما أبعد من شقى و مع ذلك ما رد شفاعتى قط و ما ملك مصر إلا المماليك الذين أسلموا فكل من ملك مصر إلا كان

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٢

مملوكا و حاكم بولاق هذا رجل كبير السن حسن الصورة عريض الوجه مشرب بحمرة طويل اللحية كثيف الحاجبين و قد دخلت عليه مرارا للشفاعة فى المكرويين ممن كان فى السجن إلا و سرحه بسرعة من غير مهلة و لا تراخ و كان اعتقاده فىنا حسنا.

و سبب ذلك ان جماعه منا اكثرنا من بعض الأجناد من الترك جمالا و اقبضنا له الدراهم نحو نصف الكراء قائلا اشترى ما استعين به من الإبل و كنت السبب و الواسطة غير أن الذى غرنا إظهار الود و حسن الاعتقاد و غاية الأدب فى سلم على يدى فى اليوم كلما لقينى غير أنى أعرف أهل مصر و غشهم فترى الرجل يظهر لك حسن الصنيع و يبطن لك الخديعة و المكر و هذا منهم.

نعم من خادعنا فالله انخدعنا له لا سيما أن بعض الفقهاء يصاحبه و يكتر الترداد إلينا مع فصدقناه به غير انه لم نثق بما صدر منه علما منا بالتباس أحوالهم و اختلاط أمورهم و التباس صنيعهم فلما ساء ظننا فيه ذهبنا به إلى سلطان العارفين، و خاتمة الفضلاء المحققين، صاحب التأليف العظيمة، و التلامذة السنية، صاحب الأوراد، و سلطان العلماء ذوى المد و الأمداد، شيخنا، و عمدتنا إلى ربنا، الشيخ على الإطلاق، و الولى بالاتفاق، سيدى محمد الحفناوى فقلنا له هل تعرفه و معه ولده أى الذى سألنا عنه فقال الشيخ إنما نعرف ولده فعقدنا عقدة الكراء عنده و لما أتينا من عند الشيخ أرانا بعض الجمال فاستحسنناها غير أنها لشريكه و بعد ذلك أقبضت له جملا من بعض الكراء فذهب به إلى بولاق و نحن نازلون حينئذ بين بولاق و مصر فلما وصل به إلى محله رجع الجمل إلينا حينئذ فضلا من الله و رحمة بنا.

نعم بعد اليوم أو اليومين ذهبنا إليه فسألنا عنه فى محله فلم يوجد له خبرا و لا أثر ثم مسكنا ولد الفقيه المذكور و عندنا ثم ذهبت إلى حاكم بولاق الذى الكلام فيه فدخلت إليه فى المحكمة و كلمته فى شأن ذلك و قد رحب بى و فرح فرحا عظيما حتى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٣

تعجب الحاضرون و من معنا إذ لم أره قط و سألتاه عن قصة الرجل فقال قد مسكنا له جمالا هى بينكم و بعض الناس من مصر له دين عليه فأعطانا بعضها و بقى البعض يده و أمرنا بالإتيان بذلك الولد الممسوك عندنا فأتيناه به فحبسه فقال إن كان الشرع أوجب عليه الغرم فيغرم فتركانه فى يده و رجعنا إلى الركب فقومنا تلك الجمال و قسمناها على حسب الديون و ارتحلنا فلما رجعنا سألتاه عن قصة الرجل و صاحبه الفقيه قال هلك الكل ببركتكم فإنهم هربوا بامرأة فكان ذلك سبب هلاكهم و ما دخلت عليه بعد إلا قضى حاجتى و أحسن قضاءها و يطلب منى الدعاء الصالح و قد حكم بقتل بعض المغاربة من بلادنا لكونه أتى بسكة جديدة مجردة مغشوشة فسرحه و قد سرحت من يده كذا و كذا رجلا.

نعم لما حبس أصحاب سيدى أحمد الطيب ذهبت أنا و سيدى أحمد إليه ليسرحهم فوجدناه نائما فى بيته لم يظهر إلى محكمته صبيحة و إنما وجدنا حاكما تحته الكاخية فسرح لنا سيدى بلقاسم بن الطيب و رجالا من زاوأة قبل لحوق الكبير و نحن كذلك و إذا بتركى دخل علينا فأشار إليه بعض البدويين من المنصورة و كان لى عليه دين فقال له هذا هو الحاكم فى الركب فلما قال له ذلك مسكنى من يدى و أراد بى السجن فقلت له و هل لأحد على دين حتى أسجن فيه فقال البدوى لا و إنما هو إذا مسكناه خرج ما كان فى الركب من الإبل التى مسكها أهل الركب فى ديونهم فامتنعت من الذهاب إلى السجن و هو يكرنى و أنا اتملص منه و صار ذلك

الكاخية يقول له دعه فانه رجل صالح و عالم و شريف أو كلاما هذا معناه ثم قال أضمن ما كان في الركب فأعرضت عنه و جلست حذاء الكاخية فحاولنى مرة ثانية للسجن أيضا فقال الكاخية ذره فانه رجل وحده و أما أصحابى فلا يقدر عليك أحد لأن الذى أرادك بسوء إنما أتى من مصر

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٤

ارتشاه البدوى و لا- عمل عليه و لا يعرف حالك أيضا فلما أتى إلى ضربت به الحائط و خرجت فى حالى و لم يتبعنى أحد إلى أن وصلت إلى الركب و ذلك فضل الله تعالى و رحمته بنا اللهم لا تشمت بنا الأعداء و لا تسلط عليها جبارا عنيدا و لا شيطانا مريدا و لا أحدا من عباد الله تعالى.

حاصله أن الوقائع التى وقعت بيننا و بين البدويين كثيرة يطول بنا استقصاؤها هذا و إن فضل اله تعالى ظاهر على الركب بحيث لا يستطيعون الإمساك منه و لا تسريح المربوطين الذين هم فيه فلما خفنا تفاقهم الأمر بيننا و بين الحكام ذهب من ذهب فى البحر إلى الإسكندرية فلم يبق إلا العبد و سيدى أحمد بن حمود و سيدى عبد الكريم و سيدى محمد اليعلاوى و سيدى محمد الشريف الطرابلسى ذهبنا فى البر على برقة و إما ولدى و أهلى فقد ركبو فى البحر مع من ركب فيه فافترقنا و على الله الاعتماد و التكلان لأننى لا استطيع البحر و انتقلنا إلى انبابة فلما كنا على شاطئ البحر فى توديع من ذهب فى البحر و لانتقلنا إلى الموضع المذكور أتانا ذلك التركى الأول الذى أراد سجنى فى قضية أخرى ارتشاه بدوى آخر فلما رأيته أرادنى اشليت عليه بعض أصحابى ليقته فلما علم ذلك المتمرد خاف إذ هو منفرد و نحن فى جماعة فصار يسلك مسالك الطلب فأعطاه سيدى أحمد بن حمود نصف ريال أبى طاقة و عليه البعد من الله فلا أظن انه مسلم إذ أكثر العسكر فى مصر أنهم خوارج أو طغاة لا تعمى أبصارهم و لكن تعمى قلوبهم.

و قد حكى لنا أنهم يأتون إلى المستضعفين من الناس فيبيعونهم عبيدا أو يجعلونهم أسرى يخدمون فى مدينة السويس إلى أن يموتوا أهلهم الله أن لم يعلم هدايتهم و هذا معلوم ضرورة فى زمان هذه الحجة و سبب هذه الإهمال من الحكام و المترفين

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٥

لأنهم فى نعمة عظيمة لم يحبسوا أحدا فأباحوا الرقاب و النفوس و لم يعلموا بهذه الرذائل كالغش فى الأسواق و السرقة فى الطرق و الدكاكين فصار فى النفوس أقبح الأوطان و أذلها للغريب مصر و مكة فلا تجد أحدا من مصر إلا يحتقر المغاربة حتى كادوا أن يخرجوهم من الإسلام و طبائعهم منافية لطبائع أهل المغرب فلا نظر لعلمهم و لا لفضلهم فترى المغربى إذ تكلم تعصبوا عليه بالباطل و لو بالزور فلم ينفع فيهم إلا عدم مخالطتهم و الانعزال عنهم فيتحاشى عن أسواقهم و ما فيها فإذا اضطره أمر اختلس مقصوده اختلاسا يحفظه من المخالطة أو يتزيا بزيمهم ليصرف عنه سوء و الفحشاء الصادرة منهم و ما تخفى صدورهم لنا أكبر و أعظم و دأبهم و ديدانهم التحيل لأخذ أموالنا و سلب ما عندنا بمجرد الأباطيل و التظلم و إظهار المسكنة أن أفاده ذلك و إلا ارتشوا أصحاب الحكم ليأخذوا أموال المغاربة جهرة ظلما و عدوانا فما أقبحها من بقعة للحجاج و المغاربة غير أن سبب ذلك أن المغاربة تشيطنوا و تمردوا على الطريق و ضلوا و أضلوا و هلكوا و أهلكوا و المنتسب بالدعاوى الكاذبة و الزندقة البيئة أقواها ادعاء الكيما و ما حذا حذوها من كل مضل من غير تحقيق الدعوى كعلم الأوفاق و إخراج الخبايا و الكنوز من الأرض و أقهار الظلام و أصراع ذى الجن و أخدام الروحانيين و قهر الأعداء و حبس السراق و منعه من النفوذ و تفريق الأحباب و تقريب البعيد و إقصاء القريب و إقبال الملوك و أدبارهم و غير ذلك من دعاويهم فلما انتشر عليهم ذلك و عم الناس كلهم و اتضح كذبهم و بطل تحيلهم و تصنعهم وقع بغضهم فى قلوب الخاصة فما رأوا أحدا من المغاربة إلا غمضوا العين فيه و ظنوا أنه من الفسقة المدعين المتلفين لأموال الناس بالباطل فالتبس عليهم الصديق بالزنديق فارتفع حسن الظن منهم فى جانب المغاربة بحيث لا يعتقدون فى أحد منا و لو بلغ

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٦

الغاية مع الله و قد قال تعالى: (أنى كنت دفنت مائتى نواة ثم قلت و أين السبعة التى دفنتها بعد ذل فلم أرم مكا) و هذا من الفتنة العامة

التي عمت المغاربة الظالم والمظلوم وقد قال تعالى أيضا: وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً بل تصيب الظالم وغيره و إنما أصابت المظلوم لسكوته عما يظهر من ظلم الظالم فصار ظالما بسكوته كافي التفسير إذا كانت لا غير زائدة أى غير صلة و أما إذا كانت صلة فالمعنى واضح أى وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْآيَةَ أو أن غضب الله إذا يقوى على أهل الأرض لكثرة الفساق عنهم بالبلاء فيكون لأهل الفسق كفارة لهم ولغيرهم زيادة فى مراتبهم و علو مقاماتهم فافهم هذا فإن مشاهدة الأعيان توجب العلم و الإيقان.

نعم أمر مصر غريب و عجيب فى كل الأصناف و الأنواع و الأجناس مهما رأيت جنسا فيها إلا قلت أن هذا الجنس هو الذى فى مصر فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل فى مصر و إذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير و إذا رأيت الأشياخ و أصحاب الأوراد قلت هم أهلها و كذا أهل الصنائع و الحرف فما وردت قوما أو سوقا أو نزاهاة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه و هذا من عجائب مصر فإن كل من رآه العبد إلا قال هذا هو الموجود فيها لأن مصر تغنى عن الغير و لا يستغنى الغير عنها فهى رحمة لأهل التقوى و نعمة لغيرهم فهى مدينة الأنبياء و الصحابة و التابعين و العلم و أهله بل فيها أهل الدائرة و التصريف فلا تخلو عنهم أصلا فكل من كان فيه طبع إلا وجد أهل طبعه أو صنعه إلا وجد أهل صنعه خيرا أو شرا و فيها عبرة لأهل البصائر فمن لم يفلح فيها لا يربح أبدا و لا يفوز أصلا لأن مددها قوى و خيرها دوى و ليحذر الإنسان شرها و ليغتتم بركتها فإن أهلها ظاهرون فى الخير و الشر و الساعى فيها يجتنى منهما على

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٧

حسب استطاعته و قوته و اجتهاده فكل بلدة ربما انقطع فيها الدواء إلا مصر فإن دواءها دائم الاتصال و كذا عللها دائمة الوصال فليتعجب منها المتعجبون و كيف لا و أنها ذكرت فى القرآن كذا و كذا مرة فهى جنة لأهل الخير و نار فى المال لأهل الشر يحسبها المتأمل أنها جنة فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين فإن أرزاقها أكثر من خلقها و مع كثرة أرزاقها أن من سد عليه الباب فى الرزق يدور الأسواق و الدكاكين و الوكالات و المساجد فلا يجد لقمه يطعم بها نفسه و غير هذا من عجائبها و سأكتب إن شاء الله جملة من حسن المحاضرة و أما الإسكندرية فلم أدخلها قد و قد رمت زيارتها مرارا فلم تساعدنى الأقدار و قال شيخنا ما نصه.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٤٨

ذكر الإسكندرية و ما بها من العجائب

ذكر الإمام السيوطى فى حسن المحاضرة عن عقبه بن عامر الجهنى رضى الله تعالى عنه انه قال و جاء رجال من أهل الكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و معهم كتب فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا و إن شئتم تكلمتم و أخبرتكم قالوا بل أخبرنا قبل أن نتكلم فقال جئتم تسألونى عن ذى القرنين و سأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندهم أن أول أمره كان غلاما من الروم أعطى ملكا فسار حتى ساحل البحر من أرض مصر فأبنتى عنده مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فعرج به حتى استقله فرفعه فقال له انظر ما تحتك فقال أرى مدينتى و أرى مدائن معها ثم عرج به فقال له أنظر فقال قد اختلطت بالمدائن فلا أعرفها الحديث بطوله و قد أوردته فى التفسير بالمأثور فى سورة الكهف و أخرج ابن الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال كان أول شأن الإسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع و مجالس و كان أول من عمرها و بنى فيها فلم تزل على بنائه و مصانعه إلى أن تداولها الملوك ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الإسكندرية و منارة بوقير بعد فرعون فلما ظهر سليمان بن داود عليها الصلاة و السلام على الأرض اتخذ بها مجلسا و بنى فيها مسجدا ثم إن ذا القرنين ملكها فهدم ما كان فيها من بناء الملوك و الفراعنة و غيرههم إلا بناء سليمان بن داود لم يغيره و لم يهدمه ما كان فيها من بناء الملوك و الفراعنة و غيرههم إلا بناء سليمان بن داود لم يغيره و لم يهدمه و أصلح ما كان خرب منه و أقر المنارة على حالها ثم بنى الإسكندرية من أولها بناء يشبه بعضه بعضا ثم تداولتها الملوك من الروم و غيرههم ما من ملك إلا يكون له بناء يضعه بالإسكندرية

يعرف به و ينسب إليه قال ابن عبد الحكم و يقال أن الذي بنى

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٤٩

منارة الإسكندرية قلوبطرة الملكة و هي التي ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية و لم يكن يبلغها الماء قال و يقال أن الذي بنى الإسكندرية شداد بن عاد .

و يقال أن بها مساجد خمسة مقدسة مسجد موسى عليه الصلاة و السلام عند المنارة و مسجد سليمان عليه الصلاة و السلام و مسجد ذى القرنين و مسجد الخضر أحدهما عند القيسارية و الآخر عند باب المدينة و مسجد عمرو بن العاص الكبير رضى الله عنه.

و كانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض و هي موضع المنارة و ما والاها و الإسكندرية و هي موضع قصبه الإسكندرية اليوم و هيطة و كان على كل واحدة منهن سور و سور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا و اخرج ابن عبد الحكم عن عبد الله بن طريف الهمداني قال كانت على الإسكندرية سبعة حصون و سبعة خنادق و أخرج أن ذا القرنين لما بنى الإسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها و أرضها فكان لباسهم فيها السواد و الحمرة فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوص بياض الرخام و لم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام و إذا كان القمر أدخل الرجل الذي يخطط بالليل ضوء القمر فى بياض الرخام الخيط فى حجر الأبره و كانت الإسكندرية بيضاء تضىء بالليل و النهار و كانوا إذا غربت الشمس لم يخرج أحد منهم من بيته و من خرج اختطف و كان منهم راع يرعى على شاطئ البحر و كان يخرج من البحر شىء فيأخذ من غنمه فكمن له الراعى فى موضع حتى خرج فإذا جارية فتشبت بها فذهب بها إلى منزله فانست به فرأتهم لا يخرجون

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٥٠

بعد غروب الشمس فسألتهم فقالوا من خرج منا اختطف فهيات لهمه الطلسمات بمصر فى الإسكندرية و عن عطاء الخراسانى قال كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة إلى نصف النهار بمنزلة العجين فإذا انتصف النهار اشتد و كانت الإسكندرية تسمى قبل الأسكندر رفودة و بذلك يعرفها القبط فى كتبهم القديمة و عن الليث بن سعد قال كانت بحيرة الإسكندرية كرما كلها لامرأة المقوقس فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم و كثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعا فقالت لا حاجة لى فى الخمر أعطونى دنائير فقالوا ليس عندنا دنائير فأرسلت عليهم الماء فأغرقتها فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها بنو العباس فسودوا جسورها و زرعوا فيها و من عجائب الإسكندرية عمود السوارى و ليس فى الدنيا مثله قال صاحب المرأة و قد شاهدته و يقال أن أخاه بأسوان قال ابن فضل اله بظاهر الإسكندرية عمود السوارى عمود مرتفع فى الهواء تحته قاعدة و فوقه قاعدة يقال انه لا نظير له فى العمد فى علوه و لا فى استدارته.

قلت و قد رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية فى رحلتى و دور قاعدته ثمانية و ثمانون شبرا و من المتواتر عن أهل الإسكندرية إن من حاذاه عن قرب و غمض عينيه ثم قصده لا- يصيبه بل يميل عنه و ذكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط مع كثرة تحريمهم فى ذلك و قد جربت ذلك مرارا فلم أقدر أن أصيبه و ذكر لى بعض فضلاء الإسكندرية إنها كانت أربعة أعمدة على هذا النمط و كانت عليها قبة يجلس بها أرسطو صاحب الرصد و عن التنوخى قال كان بالإسكندرية صنم من نحاس يقال له شراويل على خشفة من خشف البحر و كان مستقبلا بأصبعه القسطنطينية لا يدرى أكان مما عمله سليمان أو لإسكندر فكانت الحيتان تجتمع عنده و تدور حوله فتصاد فكتب أسامة بن الوليد بن عبد الملك يخبره بخبر الصنم و يقول أن الفلوس عندنا قليلة فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع الصنم و يضره فلوسا فأرسل إليه الوليد رجالا أمناء فانزلوا الصنم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٥١

فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة فذهب الحيتان فلم تعد إلى ذلك الموضع.

و من عجائب مبانى أرض مصر كما قال صاحب مباحج الفكر منارة الإسكندرية و هي مبنية بحجارة مهندمة مطلية بالرخام على

قناطر من زجاج و القناطر على ظهر اسطوانات من نحاس و فيها نحو ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها و للبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر.

و اختلف أهل التاريخ فيمن بناها ف قيل أنها من بناء لإسكندر و قيل من بناء دلوكة ملكة مصر و يقال ان طولها كان ألف ذراع و كان فى أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابه يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور معها حيث دارت و منها تمثال وجهه إلى البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليله سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو و منها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوت صوتا مطربا و كان بأعلاها مرآة ترى القسطنطينية و بينهما عرض البحر فكلما جهز الروم جيشا رأى فى تلك المرآة.

و حكى المسعودى أن هذه المنارة كانت فى وسط الإسكندرية و أنها تعد من بنيان العالم العجيب بناها بعض ملوك اليونان يقال انه الأسكندر لما كان بينهم و بين الروم من الحروب فجعلوا هذه المنارة مرقبا و جعلوا فيها مرآة من الأحجار المشففة يشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رومه على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها و لم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون فاحتال ملك الروم لما انتفع بها المسلمون فى مثل ذلك على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خواصه و معه جماعة إلى بعض ثغور الشام الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٥٢

على انه راغب فى الإسلام فوصل إلى الوليد و أظهر الإسلام و أخرج كنوزا و دقائن بالشام مما حمل الوليد على أن صدقه على ان تحت المنارة أموالا و دقائن و أسلحة دفنها لإسكندر فجهره مع جماعة من ثقافته إلى الإسكندرية فهدم ثلث المنارة و أزال المرآة ثم فطن الناس أنها مكيدة فاستشعر ذلك فهرب فى مركب كانت معدة له ثم بنى ما تهدم بالجص و الاجر. قال المسعودى و طول هذه المنارة فى وقتنا هذا و هو سنة ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائة مائتان و ثلاثون ذراعا و كان طولها قديما نحو أربعمائة ذراع و بناؤها فى عصرنا ثلاثة أشكال فقريب من الثلث مربع مبنى بالحجارة ثم بعد ذلك بناء مثنى الشكل مبنى بالاجر و الجص نحو ستين ذراعا و أعلاها مدور الشكل.

قال صاحب مباحج الفكر و كان أحمد بن طولون بنى فى أعلاها قبة من الخشب فرمتها الرياح فبنى مكانها مسجد فى أيام الملك الكامل صاحب مصر ثم أن وجهها البحرى تداعى و كذلك الرصيف الذى بين يديها من جهة البحر و كادا ينهدمان و ذلك أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فرمه و أصلحه و ذكر ابن فضل الله فى المسالك أن هذه المنارة قد خربت و بقيت أثرا بلا عين فكان هذا وقع فى أيام قلاوون أو ولده.

قال ابن المتوج فى كتابه إيقاظ المتغفل من العجائب منارة الإسكندرية التى بناها ذو القرنين و كان طولها أكثر من ثلاثمائة ذراع مبنية بالحجر المنحوت مربعة الأسفل و فوق المنارة المربعة منارة مثنى مبنية بالاجر و فوق المنارة المثنى منارة مدورة و كانت كلها مبنية بالصخر المنحوت على أكثر من مائتى ذراع و كان عليها مرآة من الحديد

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٥٣

الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم فإن كانوا أعداء تركوهم فإذا قربوا منها و مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس و استقبلوا بها السفن حتى يقع شعاع الشمس فى ضوء المرآة فتحترق السفن فى البحر عن آخرها و يهلك كل من فيها و كانوا يؤدون الخراج ليأمنوا بذلك من أحراق المرآة لسفنهم فلما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية احتالت الروم بان بعثت جماعة من القسيسين المستعربين و أظهروا أنهم مسلمون و أخرجوا كتابا زعموا أن ذخائر ذى القرنين فى جوف المنارة فصدقتهم العرب لقله معرفتهم بحيل الروم و عدم معرفتهم بمنفعة تلك المنارة و المرآة و تحيلوا أنهم إذا أخذوا الذخائر و الأموال أعادوا المنارة و المرآة على ما كانت فهدموا مقدار ثلثى المنارة فلم يجدوا فيها شيئا و هرب أولئك القسيسون فعلموا حينئذ أنها خديعة فبنوها بالاجر و لم يقدرروا ان يرفعوا إليها تلك الحجارة فلما أتموها نصبوا عليها تلك المرآة كما

كانت فصدت فلم يروا فيها شيئا و بطل إحراقها و النصف الأسفل من عمل ذى القرنين يدخل الإنسان من الباب الذى بالمنارة و هو مرتفع عن الأرض مقدار عشرين ذراعا يصعد إليه من قناطر مبنية بالصخر المنحوت فإذا دخل من باب المنارة يجد على يمينه بابا فيدخل منه إلى مجلس كبير طوله عشرون ذراعا مربعا يدخل فيه الضوء من جانبي المنارة ثم يجد بيتا آخر مثله ثم مجلسا ثالثا و مجلسا رابعا كذلك قال و لقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما السلام فى الإسكندرية مجلسا من أعمدة الرخام الملون المجزع كالجزع اليماني المقصول كالمراة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفها لصفائها و كان عدد الأعمدة ثلاثمائة عمود و كل عمود بثلاثمائة ذراع و فى وسط المجلس عمود واحد يتحرك شرقا و غربا يشاهد ذلك الناس و لا يدرون ما سبب حركته.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٥٤

و من عجائب الإسكندرية السوارى و الملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة و يرمون بالاكرة فلا تقع فى حجر واحد منهم إلا ملك مصر و كان يحضر هذا الملعب ما شاء الله من الناس ما يزيد على ألف ألف رجل فلا يكون منهم أحد و هو ينظر فى وجه صاحبه ثم أن قرئ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من الألوان فى ذلك الملعب رأوه عن آخرهم.

و قد حضر سيدى عمرو بن العاص رضى الله عنه هذا الملعب معهم فى الجاهلية و ذلك انه قدم لبيت المقدس فى نفر من قريش لتجارة فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسبح و كان عمرو يعرى إبله و إبل أصحابه و كانت رعاية الإبل بينهم نوبا فبينما عمرو يعرى إبله و إبل أصحابه إذ مر به ذلك الشماس و قد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاها فسقاها عمرو من قربة له فشرب حتى روى و نام الشماس مكانه و كان إلى جانب الشماس حيث نام حفرة فخرج منها حية عظيمة فبصرها عمرو فترع لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو و ما هذه الحية فأخبره الخبر عمرو و انه رماها بسهم فقتلها فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه و قال قد أحيانى الله بك مرتين مرة من شدة العطش و مرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل من تجارتنا فقال له الشماس و كم ترجو أن تصيب من تجارتك فقال رجائى أن أصيب ما اشتري به بعيرا فأنى لا أملك إلا بعيرين فأملى أن أصيب بعيرا آخر فتكون لى ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى فقال مائة من الإبل فقال له الشماس لسنا أصحاب إبل بل إنما نحن أصحاب دنائير فقال تكون ألف دينار فقال له الشماس أنى رجل غريب فى هذه البلاد و إنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس و أسبح فى هذه البلاد شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسى و قد قضيت ذلك و أنا أريد الرجوع إلى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٥٥

بلادى فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى و لك على عهد الله و ميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله أحيانى بك مرتين فقال له عمرو و أين بلادك قال مصر فى مدينه يقال لها الإسكندرية فقال له عمرو لا أعرفها و لم أكن دخلتها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو أو تفى لى بما تقول و عليك بذلك العهد و الميثاق فقال له الشماس نعم على عهد الله و ميثاقه أن أفى لك و أن أردك إلى أصحابك فقال له عمرو كم يكون مكثى فى ذلك فقال له شهرا تنطلق معى ذاهبا عشرا و تمكث عندنا عشرا و ترجع فى عشر و لك على أن أحفظك ذاهبا و أن أبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو انظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس و قال لهم أقيموا حتى أرجع إليكم و لكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى رجل منكم آنس به فقالوا له نعم و بعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو و صاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهوا إلى الإسكندرية فرأى عمرو من عمارتها و جودة بنائها و كثرة أهلها فأزداد عجبا و وافق دخول عمرو الإسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم و أشرفهم و لهم اكرة من ذهب يترامى بها ملوكهم و هم يتلقونها بأكمامهم و فيما اختبروا من تلك الاكرة على ما وضعها من مضى منهم أن من وقعت الاكرة فى كفه و استقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله و كساه ثوب ديباج ألبسه إياه و جلس عمرو و الشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالاكرة و هم

يتلقونها بأكرمهم فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو فتعجبوا من ذلك و قالوا ما كذبتنا هذه الاكرة قط إلا في هذه المرة أترى هذا الأعرابي يملكنا هذا ما لا يكون أبدا.

قلت قد ملكهم قسرا و دوخهم قهرا في فتح مصر و ان ذلك الشمس مشى في أهل الإسكندرية و أعلمهم أن عمرا أحياه مرتين و انه قد ضمن له ألفى دينار و سألهم أن الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٥٦

يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا و دفعوها إلى عمرو فانطلق عمرو و صاحبه و بعث معهما الشمس دليلا- و رسولا- و زودهما و أكرمهما حتى رجع هو و صاحبه إلى أصحابهما فبذلك عرف عمرو مدخل مصر و مخرجها و علم منها ما رأى و علم أنها أفضل البلاد و أكثرها مالا فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار و أمسك لنفسه ألفا قال عمرو و كان ذلك أول مال تأثله.

و من عجائبها المسلمتان و هما جبلان قائمان على سرطانات من نحاس في أركانها كل ركن على سرطان فلو أراد أحد أن يدخل تحتها شيئا يعبرها من جانبها الآخر فعل .

و من عجائبها عمود الأعياء و هما عمودان متلقيان وراء كل عمود منهما جبل حصى كحصى الجمار فمتى أقبل التعب النصب بسبع حصيات من ذلك الحصى فاستلقى على أحدهما ثم رمى وراءه بالسبع حصيات و يقوم و لا يلتفت و يمضى لطلبته قام كأنه لم يتعب و لم يحس بشيء .

و من عجائبها القبة الخضراء و هي أعجب قبة ملبسة نحاسا كأنه الذهب الإبريز يبليه القدم و لا يخلقه الدهر. و من عجائبها منية عتبة و حصن فارس و كنيسة أسفل الأرض و هي مدينة على مدينة و ليس على وجه الأرض مثلها و يقال أنها أرم ذات العماد سميت بذلك لأن عمدتها لا يرى مثلها طولا و عرضا انتهى مع بعض حذف و تغيير و تقديم و تأخير.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٥٧

قلت و ما ذكر في الإسكندرية من الغرائب و الأبنية و العجائب لم يبق بها الآن سوى عمود السواري و غيره اجتاحه الدهر و أبلاه، و استأصله و أفناه، و لم يبق لها من الآثار إلا ما يذكر في الأخبار، و الدوام و البقاء لله الواحد القهار، إلى أن قال.

و من مزارتها غير ما تقدم مشهد سيدي على البدوري رضى الله عنه و منها قبر الخرجي مشهور هناك بنسبته و لا أدري هل هو صاحب المنظومة في العروض أو غيره و بازائه قبر الإمام الفاكهاني و منها قبر الإمام الشيخ الصالح سيدي عبد الرزاق أجل تلامذة الشيخ سيدي أبي مدين رضى الله عنهما و أجل من نشر طريقه بعده و أخذها الناس عنه و قدره بين أهل الطريقة معروف و منها زاوية أبي الحسن الشاذلي كان يأوى إليها هو و أصحابه و هي قلعة كبيرة في سور البلد الشرقي فيها بيوت متعددة و منها قبر سيدي أحمد المناري و هو مشهور البركة و سبب تسميته بالمناري على ما قالوا أنه قدم البلد و معه حماره له و قال لهم أين أبيت فأشاروا كالمستهزئين به إلى المنارة فقال لهم بسم الله و سعد بحمارته إلى أعلاها فاجتمع الناس ينظرون متعجبين و هذا في حق أولياء الله تعالى يسير و الله على كل شيء قدير و هو العالم بحقيقة الأمر.

لطيفة حكى أن السلطان سليم العثماني لما دخل مصر و جاء إلى الإسكندرية طلع ذات يوم إلى كوم مشرف على البلد و جاءه أهل الإسكندرية و قالوا يا سلطان إن بلدنا هذا قد استولى عليه الخراب كما ترى فزريد كمال جودك أن ترحمنا و تصرف نظرك إلى عمران هذا البلد فإن مكاتته من مدائن العالم معروفة فعسى أن يرجع إلى بعض حاله الأول على يدك فسكت عنهم ساعة و هو مطرق ثم رفع رأسه إليهم و قال لهم إن هذه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٥٨

البلدة قد نظر إليها الحق و قال لها كوني دكا و أنا لا أقدر أن أعمر ما أذن الله في خرابه فانصرفوا عنه.

قال أبو سالم لقد نظر هذا الملك نظرة عارف و غاص بفكره الفائق في دقائق حكمه الله تعالى الجارية في مملكته فكأنه نظر إلى ما اشتملت عليه هذه المدينة من المرافق الدنيوية و اكتنفها من أسباب العمران مع توسطها في الممالك الإسلامية و جمعها بين الأسباب البرية و البحرية و الأجناس البدوية و الحضرية فبابها الشرقي متصل بأرياف مصر التي هي مزرعة الدنيا التي لا نظير لها و بابها الغربي متصل ببادية برقة الفاصلة بين بلاد المشرق و المغرب فلا بادية في الدنيا تدانها في اتساع الأقطار و طيب المرعى و صحة الهواء و بابها البحري مقابل لأرض الروم التي تجلب منها البضائع النفيسة فإذا كانت بهذه الحثيثة فأسباب العمران متوفرة بها فلا موجب لخرابها إلا إرادة الحق و نظره إليها بعين الجلال لتكبرها و استعلائها على غيرها من البلدان و حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه و إذا كان خرابها بكلمة كن من الله فلا مطمع للعبد في عمران ما أذن الله في خرابه.

و لعمري إن هذا نظر مصيب و فكر عجيب و لا عجب في ذلك فإن السلطان سليم رحمه الله كان معروفاً بإصابة الرأي و ثقابه الذهن و جودة التدبير في المملكة و به فحمت دولة بنى عثمان و هو المستولى على الممالك الشامية و المصرية و الحجازية و ما والاها من البلاد.

و بالجملة فهي من أمهات المدائن المذكورة في الدنيا و هي دار مملكة الديار المصرية قبل الإسلام و بها كان المقوقس الذي كان في زمانه عليه الصلاة و السلام و ناهيك

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٥٩

بفخامة ملك بانها الإسكندر و شهرته و استلائه على الممالك.

و قد ذكر المؤرخون أخباره و أخبار بنائه لهذه المدينة و كيفية بنائها و انه جعلها مدينتين إحداهما تحت الأرض و الأخرى فوقها ظاهرة و إن الماء يجري من النيل أيام فيضه حتى تمتلئ السفى و يستقى من فى العليا من تحته و آثار ذلك باقية إلى الآن. انعطاف إلى ما كنا بصدده و هي إقامتنا بمصر أكثر الشهر من صفر إلى أوائل ربيع الأول إلى العشرين منه و الله اعلم فإن مصر أمرها عظيم و حالها غريب كاد أن لا يوجد مثلها و قد ذكرت فى القرآن فى ثمانية و عشرين موضعاً بين التصريح و التلويح لو لا الإطالة لذكرتها تفصيلاً و من أراد ذلك فلينظر حسن المحاضرة و فيها من العجائب و الغرائب و حسن الأخبار و نزهة الأنظار و غاية الاعتبار و شوارق الأفكار ما يغنى عن اعتبار غيرها.

و قد ذكر السيوطى فى هذا الكتاب حدها و قال ما نصه و مما هو معدود فى كور مصر كورة القلزم على ثلاثة أيام من مصر خربت و من أعمال مصر الجليله الصعيد إلى أن قال

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٦٠

ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة و السلام

أن آدم أوصى لأبنيه شيث فكان فيه و فى بنيه النبوءة و الدين و أنزل الله عليه تسعا و عشرين صحيفةً و انه جاء إلى أرض مصر و كانت تدعى بابلون فنزل بها هو و أولاد أخيه فسكن شيث فوق الجبل و سكن أولاد قابيل فوق الوادى إلى أن قال.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٦١

ذكر من ملك مصر قبل الطوفان

نقراوس و كان عالماً بالكهانة و الطلسمات و يقال انه بنى مدينة أفسوس و عمل بها عجائب كثيرة منها أنه عمل صنمين من حجر أسود فى وسط المدينة إذا قدمها سارق لم يقدر أن يزول عنها حتى يسلك بينهما فإذا سلك بينهما أطبقا عليه فيؤخذ و كانت مدة ملكه مائة و ثمانين سنة إلى قال.

و ذكر بعض من آلف في أخبار مصر أن سفينة نوح طافت بمصر و أرضها فبارك نوح فيها و أن أولاده سكنوا مصر و من ولد ولده مصر بن بيصر بن حام و قد دعا له جده فأجبت فيه دعوته و أسكنه الأرض المباركة و في بعض التواريخ لما مات مصر بن بيصر كتب على قبره مات مصر بن بيصر بن حام بن نوح بعد الألفين و ستمائة عام من الطوفان و لم يعبد الأصنام و هو الذي بنى أهرام دهشور إلى أن ملكها يوسف عليه السلام و هو ابن ثلاثين سنة ثم دخل يعقوب عليه الصلاة و السلام و ولده مصر و هم ثلاث و سبعون نفسا بين رجل و امرأة فأنزلهم يوسف بين عين شمس إلى الفرما و هي أرض ريقية و خرجوا و همم ستمائة ألف و أن أولاد يوسف ثلاث و سبعون نفسا و خرجوا و هم ستمائة ألف أيضا و يعقوب عاش في أرض مصر ست عشرة سنة و مات و دفن في أرض كنعان فلملك مصر بعده فرعون و كان في عصر يوسف و أدرك يعقوب و هو قبطي من قبط مصر اسمه ظلمي و كان يكنى بأبي مرة من العمالقة و اسمه الوليد بن مصعب و كان قصيرا و قد مكث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس و كان يملك ما بين مصر إلى إفريقية و كان يقعد على كراسيه مائتان عليهم الدباج و أساور الذهب إلى أن غرق مع جنوده و أما يوسف فقد مات في مصر و حمل إلى بيت المقدس الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٦٢

بعد أن دفن بها نحو من مائتين و عشرين سنة إلى أن قال.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٦٣

ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام مصر

منهم إدريس و إبراهيم الخليل و إسماعيل و يعقوب و يوسف و اثنا عشر نبيا من ولد يعقوب و هم الأسباط و لوط و موسى و هارون و يوشع بن نون و دانيال و أرميا و لقمان على ما قاله بعضهم و اختلف في نبوته و أما من الصديقين فذو القرنين أي دخلها و الخضر و في نبوتهما خلاف و القول بنبوة الخضر حكاه أبو أحيان عن الجمهور و جزم به الثعلبي و قال ابن عباس و محمد بن إسحاق انه نبى مرسل و نصر هذا القول أبو الحسن الرماني ثم ابن الجوزي و إن ذا القرنين دفن في الإسكندرية و مات بأرض بابل ثم حمل إليها و قد قيل أنه عاش ألف سنة و قيل ألفا و ستمائة سنة و قيل ثلاثة آلاف سنة و أما النساء فقد دخلن مصر مريم و سارة زوج الخليل و آسية امرأة فرعون و أم موسى و قد قيل بنبوتهن حكى ذلك الشيخ تقي الدين السبكي في فتاويه المعروفة بالحلييات و قد قال ابن عبد الحكم يقال أن موسى عليه السلام قتل عوجا بمصر أعنى عوج بن بيصر و كان طول سرير عوج ثمانمائة ذراع و عرضه أربعمائة و كان طول عصا موسى عشرة أذرع و طوله كذلك فضربه فأصاب كعبه فخر على نيل مصر و قد عاش ثلاثة آلاف سنة و ستمائة سنة و لم يعيش أحد هذا العمر و قد قيل انه ولد في عهد آدم و انه لما مات وقع جسده على النيل جسرهم سنة.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٦٤

ذكر عجائب مصر القديمة

و قد قيل أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشرة منها بسائر البلاد و هي مسجد دمشق و كنيسة الرها و قنطرة طنح و قصر عمان و كنيسة رومية و صنم الزيتون و إيوان كسرى بالمداين و بيت الريح بتدمر و الخورنق بالحيرة و الثلاثة أحجار بعلبك و العشرون الباقية بمصر و هي الهرمان و هما أطول بناء و أعجبه ليس على الأرض بناء أطول منهما و إذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان و لذلك قال بعض من رأهما ليس شيء إلا- و أن أرحمه من الدهر إلا- الهرمان فأنا أرحم الدهر منهما و صنم الهرمين و هو بلهوية و يقال بلهيت و تسميه العامة أبا الهول و الفيوم و هي مدينة دبرها يوسف عليه السلام بالوحي و كانت ثلاثمائة و ستين قرية على كل قرية منها مصر يوما و ليس في الدنيا بلد بنى بالوحي غيرها و جبل الطير فيه أعجوبة لم ير مثلها و هي باقية إلى الآن و منها النيل و منها الإسكندرية مدينة على ثلاثة طبقات و ليس على وجه الأرض مدينة على مدينة على هذه الصفة سواها و أما الأهرام فهي

في زمان شداد بن عاد أي بنيت كما ذكره البعض و إلا فأهل المعرفة لم ينصوا عليها و الذي بنى الأهرام سوريد ابن سلهوق ملك مصر و كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة و بناها لسبب فانظره في هذا الكتاب و عليها كتابة منقوشة تفسيرها بالعربية أنا سوريد الملك بنيت الأهرام في وقت كذا و كذا و أتممت بناءها في ست سنين فمن أتى بعدى و زعم انه مثلى فليهدمها في ستمائة سنة و قد علم أن الهدم أيسر من البناء و أنى كسوتها عند فراغها الديباج فليكسها بالحصر و أتى بعض الملوك لقب كوة في الحائط فانفق عليه ألف دينار فوجد ما أنفقته فيه كذلك و لما فتحه المأمون أقام الناس يدخلونه فمنهم من يسلم و منهم من يموت و قال بعض الشعراء و هو عمارة اليمنى:

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٦٥ خليلي ما تحت السماء بنية تماثل في اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه و كلعلى ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تنزه طرفى فى بديع بنائها ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

و من عجائب مصر فى الإسلام فتحها فى زمان عمر مع كثرة القبط و الروم و قلعة العرب و كذا المسجد الجامع الذى بناه عمرو بن العاص و كذا جبل يشكر الذى عليه جامع ابن طولون يقال انه قطعه من الجبل المقدس و يشكر رجل صالح و إن هذا الجبل يستجاب فيه الدعاء و كان يصلى عليه التابعون و قد أشار ابن الصلاح على ابن طولون أنه يبنى جامعه فيه.

و من عجائبها أيضا فى الإسلام فتح برقة إذ وجه عمرو بن العاص عقبه بن نافع حتى بلغ زويلة و صار ما بين برقة و زويلة للمسلمين و الذى سكن طرابلس و هى برقة لواتة و تفرقت فى هذا المغرب و انتشروا فيه و نزلت هواره مدينة لبداء فسار عمرو بن العاص فى الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة ألف ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم و لم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج و إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها انتهى من حسن المحاضرة بالمعنى و من عجائب ما وقع فى فتح مصر فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما ذكره صاحب عقود الجمان فى مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبى ما نصه.

و لما فتحت مصر فى خلافة عمر رضى الله عنه استولى عليها عمرو بن العاص فلما دخل شهر يونيه و هو عندهم خير زمان أتى أهلها عمرو بن العاص و قالوا له أن النيل عندنا له سنة لا يفيض إلا بها قال له و ما ذلك قالوا إذا انتصف هذا الشهر عمدنا إلى الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٦٦

جارية بكر حسنة فأرضينا أبوينا بالأموال و ألبسناها الحلى و الحلل فألقيناها فى النيل فقال لهم إن الإسلام يهدم ما قبله فمكثوا ثلاثة أشهر و النيل لم يفيض شيئا فأتى الناس إلى عمرو بن العاص و قالوا أن لم نفعل عادتنا أجدبنا فكتب عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما و أعلمه بذلك فأخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بطاقة و كتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تفيض بما تفيض فلا تفض و إن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك فأرسل البطاقة لعمرو بن العاص و قال له ألقها فى النيل فألقها يوم الجمعة فأصبحوا يوم السبت و قد فاض النيل فى ليلة ستة عشر ذراعا و قطع تلك العادة من ذلك الوقت و لم يشاهد النيل فاض قط مثل ذلك المقدار إلا مرتين هذه الواحدة و الأخرى فى زمان موسى عليه السلام لما أهلك الله فرعون و كان عمر يقول الحمد لله الذى وافق مراده مرادنا فى أشياء كثيرة أنى قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله و آتخذوا من مقام إبراهيم مصلى و كسر الخاء هو المشهور من القراءات و قلت يا رسول الله لو صلينا لبيت الله الحرام فأنزل الله تعالى قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ و قلت يا رسول الله أحجب نساءك فانه يراهن البر و الفاجر فأنزل الله آية الحجاب.

قال كعب الأخبار وضع الله فى الدنيا أربعة أنهار من الجنة نهر من غسل و هو النيل و نهر من خمر و هو الفرات و نهر من ماء و هو سيحان و نهر من لبن و هو و الله اعلم جيحان ذكره فى كتاب الهداية و كان عمر رضى الله تعالى عنه مر بعبد يرعى غنما فقال له يا

راعى معنى شاء يريد اختباره فقال له العبد أنى أجير و ليس الغنم لى فقال له عمر قل لسيدها أهلكها الذئب فقال له العبد و أين الله فبكى عمر و اشتراه و أعتقه لله و قال له أعتقتك لكلمة فى الدنيا و لعلها تعتقك فى الآخرة و لم يكن فى الخلفاء من يهابه الخلق مثل عمر رضى الله تعالى عنه لأنه كان للأرامل كالزوج المقيم و للأيتام كالأب الرحيم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٦٧

فلما توفى قال الناس ذهب تسعة أعشار من العلم.

و من فضائل عمر رضى الله تعالى عنه أنه لم يستطل بلسانه قط على مسلم ما دام فى الخلافة بل يعطى الشريف منزلته و الوضيع منزلته و لا يخاف فى الله لومة لائم ينزل نفسه فى مال الدنيا منزلة رجل مسلم ما دام فى الخلافة فقيل له أن الله تعالى أولئك على أموال المسلمين فخذ ما تقوم به ضرورياتك فيقول أنى كولى اليتيم إن احتجت أكلت و أن استغنيت استعفت و الذى قتل عمر هو العليج و كانت خلافته رضى الله عنه عشر سنين و ستة أشهر و أربعة أيام مات و هو ابن ثلاث و ستين سنة.

و أما مدة خلافة أبى بكر فستتان و ثلاثة أشهر و عشرة أيام و مات و هو ابن ثلاث و ستين سنة و غزواته اثنتان و ثمانون غزوة حضر مع رسول الله صلى الله عليه و سلم مشاهده كلها و هى تسعة و عشرون و ثلاث و خمسون غزوة فى خلافته و قال صلى الله عليه و سلم أخبرنى جبريل عن فضائل عمر فقال لو حدثتك عن فضائل عمر ما لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ما نفذت فضائل عمر و أن عمر حسنة من حسنات أبى بكر و كان صلى الله عليه و سلم قال لقد استبشر بإسلام عمر أهل السموات و أهل الأرض و أن الحق لينطق على لسانه و إن من أمتى محدثين و أن عمر منهم و الله ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غيره و انه اجتمع باويس القرنى و ذلك بأخبار النبى صلى الله عليه و سلم و انه يشفع فى مثل ربيعة و مضر.

و أما غزوات عمر على ما ذكره المؤرخون فتلاثمائة غزوة منها المشاهد النبوية كلها و هى تسعة و عشرون منها أربع للشام خرج فيها بنفسه و منها واحدة لفتح بيت المقدس و منها خمسون للروم و منها مائتان و أربع و خمسون ببلاد فارس و بلاد الأعاجم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٦٨

كل ذلك مع أصوات و رجفات لا تكاد تنضب و لا تفى بذكرها المجلدات.

و أما عثمان فغزواته أربع و خمسون غزوة فى البحر و كان له فى جميعها وقائع عظام و محاصرات و حروب لأهل الكفر لا تكاد تنضب بالذكر و اللسان و الذى فى التاريخ غزواته مائة و عشرون غزوة حضر مع رسول الله صلى الله عليه و سلم جميع المشاهد النبوية إلا بدرا و بيعة الرضوان فانه لم يحضرها لعذر كان به إلخ ما ذكره فى هذا الكتاب و يجتمع مع النبى صلى الله عليه و سلم فى عبد مناف و كان يلقب بذى النورين لأنه تزوج رقية و أم كلثوم بنتى رسول الله صلى الله عليه و سلم و صلى إلى القبلتين و هاجر الهجرتين هجرة الحبشة و هى الأولى ثم هاجر إلى المدينة و فضائله لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى و لما كانت الليلة التى قتل فيها رضى الله عنه فى يومها رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم فى نومه و هو يقول يا عثمان فطرك غدا عندنا فقتل رضى الله عنه فى ذلك اليوم و هو يوم الجمعة بعد صلاة العصر و دفن يوم السبت قبل الظهر فى أيام التشريق من ذى الحجة سنة خمس و ثلاثين من الهجرة و كانت خلافته اثنتى عشرة سنة.

و أما على رضى الله تعالى عنه فتولى الخلافة يوم موت عثمان و هو أول من أسلم من الصبيان و أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و شهد معه المشاهد كلها إلا غزوة تبوك و أسلم رضى الله عنه و هو ابن تسع سنين شهد له رسول الله صلى الله عليه و سلم بالجنة و زوجته ابنته فاطمة الزهراء و بعث معها إليه لما أتته خميلى و سادة من جلد محشوة ليفا و رحيين و سقاء و جرتين فلما قتل عثمان أتى الناس إليه و قالوا لا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٦٩

بدلنا من إمام و أنت أولى بها فأبى عليهم فلم يزالوا به حتى بايعوه بالمسجد و حضر طلحة و الزبير و سعد بن أبى وقاص و الأعيان

كلهم و لم يتخلف عن بيعته إلا- معاوية و من كان معه من أهل الشام و إنما بايعه الناس لقربه من رسول الله صلى الله عليه و سلم و كثرة علمه و فهمه و شجاعته و زهده و حلمه و قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أنت منى بمنزلة هارون من موسى و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم على منى و أنا منه و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أنا مدينة السخاء و أبو بكر بابها أنا مدينة الشجاعة و عمر بابها و أنا مدينة الحياء و عثمان بابها و أنا مدينة العلم و على بابها إلى غير ذلك مما قاله صلى الله عليه و سلم فى شأنه و كان على رضى الله عنه مشهورا بعلم قلبى أفاضه الله عليه بدعائه صلى الله عليه و سلم له فكان يستخرج من الحروف المقطعة التى فى أوائل السور وقائع الغزوات و دقائق المغيبات و ليس فى العلوم الغريبة علم إلا و ينتهى إليه رضى الله عنه و على استنبط النحو و أملى على أبى الأسود الدؤلى.

و من وصايا رسول الله صلى الله عليه و سلم له أكظم غيظك يا على فيملاً الله قلبك نورا و صدرك علما و حلما و رحمة و استر عيوب الناس فيستر الله عيوبك فى الدنيا و الآخرة و لا تعير أحدا بما فيه فيبتليك الله و يعافيه جالس الفقراء فإن رحمة الله لا تفارقهم مجالسة الأغنياء تمت القلب و تنسى الموت و مجالسة الفقراء تحى القلب و تذكر ما عند الله من الفضل للسعيد ثلاث علامات قول الحق و لو على نفسه و الرغبة فى طاعة الله و الفرار عن معصية الله و للشقى كذلك جمود العين و مساواة القلب و حب الدنيا و قال أيضا لا فقر أشد من الجهل و لا مال أكثر من العقل و لا ورع أحسن من الكف عن محارم الله و لا معيشة أهنأ من العافية و لا حسنة أعظم من البر و حسن الخلق و لا سيئة أشد من الحدة و سوء الخلق و لا عبادة كالتفكر فى عبادة الله و قال أيضا كن

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٧٠

عالما أو متعلما و لا تكن الرابع فتهلك و هو الذى لا يعلم و لا يتعلم و لا يسمع و وصاياه له كثيرة لا تحصى.

و قال أيضا كيف بك يا على إذا زهد الناس فى الآخرة و رغبوا فى الدنيا و أكلوا التراث أكلا لما و أحبوا المال حبا جما الحديث قال اتركهم و ما اختاروا و اختار الآخرة لنفسى و اصبر على مصائب الدنيا و بلوها حتى ألحق بك يا رسول الله قال صدقت اللهم أفعل ذلك به و فضائله لا- تعد و لا- تحصى بدليل أن الله باهى بعلى ملائكة السبع سموات إلى غير ذلك و هو الذى قتله ابن ملجم الخارجى إذ بن ملجم قال أنا أكفيكم علينا و أما البرك قال أنا أكفيكم معاوية و قال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص و هم رؤساء الإسلام و ذلك أن عليا قتلهم يوم النهروان حتى كاد أن يأتى على آخرهم و هذه الطوائف كلها خوارج و افترقوا فى الاعتقاد فكل على الضلال لا سيما من يعتقد ألوهية على و قد قاتلهم و أحرقتهم على ذلك فلم يرجعوا قيل دفن على و هو أول إمام خفى قبره لأنه أوصى بذلك لعلمه أن الأمر يصير إلى بنى أمية فيمثلون بقبره و قبور ذريته.

و قد اختلف الناس فى موضع دفنه فقيل فى زاوية جامع الكوفة و قيل فى بقيع المدينة و قيل بالخيف من منى و قيل حمل إلى بلاد طيء فى تابوت على ناقته و الله أعلم بذلك كله و كيف كان و أما غزواته فثلاث و ثلاثون غزوة حضر المشاهد النبوية كلها و قتل رضى الله عنه سنة ثمان و ثلاثين من الهجرة و كانت خلافته أربع سنين و أربعة أشهر و ثمانية أيام و أما البرك المتقدم فانه وصل إلى الشام فى تلك الليلة و ضرب معاوية فى المسجد فأصابه على وركه و كان عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك فأخذه و أراد البطش به فقال له أخبركم أن عليا قتل فى هذه الليلة فلا برئ

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٧١

معاوية قطع يده و رجله و أطلقه و كان على البصرة يزيد بن معاوية فلما دخل البصرة قتله و قال يولد للبرك و لا يولد لأمير المؤمنين و من ذلك الوقت أمر معاوية باتخاذ المقصورة و أما ابن بكر فأخذه الناس و جلبوه إلى عمرو بن العاص فقتله بقتل خارجة.

و أما الحسن فقد بويج بعد موت أبيه ثم كتب لمعاوية إلى الشام إن حملت شرطى سلمت لك الأمر لما رأيت فى ذلك من جمع كلمة المسلمين ثم اشترط عليه شروطا فقبلها معاوية و حملها له قيل انه أخذ منه مائة ألف درهم و قيل أربعمائة ألف دينار و قيل انه شرط عليه ان يمكنه بما فى بيت مال المسلمين فمكنه و قد قال صلى الله عليه و سلم فيه ان أبنى هذا السيد و يصلح الله به بين فئتين

عظيمتين من المسلمين فلما أخذ المال خلع نفسه و رجع للمدينة فعوتب من أجل ذلك فقال اخترت الجماعة على الفرقة و حقن الدماء على سفكها و العار و لا- النار ثم بعد ذلك كان يمشى لبيت الله الحرام على رجليه و النجائب تقاد بين يديه من كل جانب عشرين مرة يقول استحيى أن ألقى الله و لم أمش إلى بيته و قد خلع عن ماله مرتين لله و عن نصفه ثلاثا و كانت خلافته ستة أشهر و ستة أيام تميما للخلافة التي أشار إليها صلى الله عليه و سلم فانه قال الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون سنة ثم ترجع ملكا بعد ذلك فكانت خلافة الحسن تمام الثلاثين سنة بعده صلى الله عليه و سلم و مات الحسن رضى الله عنه ابن سبع و أربعين سنة.

فائدة لما بلغ عمر بن عبد العزيز الغاية فى العدل و الأنصاف و الانتصاف حتى انه نزع ما فى يد أقاربه من أموال السلطان و عزل من لا يراه أهلا- لذلك أعطوا ألف دينار لخديمه الذى كان يأتيه بطعامه و شرابه وقت أفطاره على أن يلقى له السم فى أكله و شربه فلما استقر فى جوفه قال للخديم ما الذى حملك على هذا قال ألف دينار أعطيتها قال هاتها فاتاه بها فطرحها فى بيت المال و قال له أنج بنفسك قبل أن يراك

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٧٢

الناس فيقتلونك بقتلى و كانت زوجة فاطمة بنت عبد الملك بن مروان تقول و الله منذ ولى الخلافة ما اغتسل من جنابة و إنما نهاره فى شأن الخلق و ليله فى عبادة الله.

و لما بلغ به الداء قال أجلسوني فأجلسوه فرفع يديه إلى السماء و هو مستقبل و قال إلهى أنك أمرتني فقصرت و نهيتني فعصيت و لكنى أشهد أن لا- إله إلا- الله و أن محمدا رسول الله و لما كان قبل موته بأيام بعث و فدا إلى ملك الروم فلما أتوه تلقاهم بالجميل إلى أن قال و الله الرجل صالح و خير ملك فى العرب كان يخاف الله تعالى و الله تعالى لا يجمع بين خوفين على عبده و لقد بلغنى من بره و فضله و صدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لكان هو و ليس عجبى من الرهبان الذين عبدوا الله فى الصوامع و رؤوس الجبال و بطون الأودية و إنما عجبى من ملككم الذى صارت له الدنيا تحت قدمه لكن أهل الخير لا يقون مع أهل الشر فكانت خلافته سنتين و خمسة أشهر و مات و هو ابن أربعين سنة كانت سيرته كسيرة جده من أمه عمر بن الخطاب رضى الله عنه و لقد وجدوا بطاقة مكتوبة بخط أبداع من خط العرب سقطت برده فانكسرت تلك البردة فإذا فيها ورقة فيها بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله العزيز الجبار لعمر بن عبد العزيز من النار فوضعوها فى أكفانه.

و لما توفى رحمه الله قال الفرزدق يرثيه:

أقول لما نعى الناعون لى عمرالقد نعيتم قوام الحق و الدين

قد حان للرامسين اليوم من رمسوا بدير سمعان قسطاس الموازين

لم يله عمره عين يفجرهاو لا النخيل و لا ركض البراذين

و أما الدولة العباسية فأول من بويع فيهم السفاح و اسمه عبد الله بن محمد بن على

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٧٣

بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم سنة ثلاث و ثلاثين و مائة فأخذ فى قتل بنى أمية و لم ينج منهم أحد إلا مستخفيا كعبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فر من العباسيين و استخفى ببلاد المغرب ثم قطع إلى الأندلس فقام فى قرطبة سنة ثمان و ثلاثين و مائة ملكا و ملك الأندلس كلها و ورث فيه الملك لبنيه و إخوانه فدامت خلافتهم أى بنى أمية بالأندلس إلى سنة سبع و أربعمائة نحو الثلاثمائة سنة فظهر الشرفاء بنو حمود بالأندلس فيها سبع سنين فقام عليهم الثوار إلخ ثم بويع أخو السفاح أبو جعفر المنصور و لما كان بطريق الحج جاز بموضع يقال له الصافية فقال صفا أمرنا إن شاء الله و كان عابدا ناسكا بخيلا بالأموال إلا فى الثواب و عند مستحقها و لما استقر الملك فى يده بنى الخضراء أى قصره الجعفرى.

ثم مات و ولى ابنه محمد المهدي ابن أبى جعفر المنصور سنة ثمان و خمسين و مائة فكانت خلافته عشر سنين و تمكنت له الخلافة

تمكيننا عظيما و قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم تبني مدينة بين دجلة و الفرات إلخ.

قال أهل التاريخ أن محمدا المهدي ليس هو المهدي الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه و سلم المهدي مني و أنا منه و قال صلى الله عليه و سلم يكون في أمتي المهدي يعيش تسعا أو سبعا يواطء اسمه أسمي و أسم أبيه أسم أبي يملأ الأرض قسطا و عدلا قد تسمى بالمهدي محمد بن الحنفية و إليه انتسب جميع خوارج المشرق و قد اختفى في آخر عمره و المهديون كثيرون و الثامن منهم هو المذكور المنتظر أجمع عليه العلماء ألف فيه محمد بن العربي الطائي كتابا سماه عنقاء مغرب في معرفة شمس الأولياء و قطب المغرب و هو رجل محقق عارف مشهور في الولاية و هذا المهدي

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٧٤

المنتظر هو المذكور في الأحاديث لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم أن في أمتي المهدي يحثي المال لطالبه حتى لا تدع السماء في زمانه قطرة إلا- صبتها و لا تدع الأرض نباتا إلا أخرجه حتى يتمنى الأحياء أن ترجع أمواتهم للدنيا و قال صلى الله عليه و سلم يكون اختلاف عند موت خليفة فيبايع الناس رجلا بمكة و هو كائن بين الركن و المقام و غير ذلك من الأحاديث المشهورة في ذكر الفاطمي المهدي و إنما ذكرنا هذا لئلا يظن أن المهدي واحد و قد قال صلى الله عليه و سلم لا مهدي و لا عيسى و معناه لا مهدي كعيسى كقول القائل لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا على أي لا سيف كذي الفقار و لا فتى كعلى هذا معناه.

[ثم بويع لموسى الهادي يوم مات أبوه و كان سنه أربعة و عشرين سنه بعهد من والده] و توفي موسى الهادي و لم تكن ولايته إلا سنه و خمسة و أربعين يوما.

و بويع هارون الرشيد يوم موت أخيه موسى الهادي بولاية أبيهما لهما و ولد لهارون الرشيد في تلك الليلة عبد الله المأمون فمات في تلك الليلة خليفة و تولى خليفة و ولد خليفة في وقت واحد و من حلمه و عفوه أن رجلا قام عليه في أطراف مملكته و مالت عنه كافة الخلق إلى ذلك الرجل فجهز له الجيوش و أنفق عليه الأموال العظام و لم يزل حتى أخذه بعد حروب كثيرة مات فيها أبطال هارون فلما أتى به إليه قال له هارون ما تريد أن أصنع بك الآن قال اصنع ما تريد أن يصنع الله بك بين يديه غدا قال هارون إنما أريد أن يعفو الله عنى قال له و أنا أريد أن تعفو عنى قال له قد عفوت عنك أذهب حيث شئت فلما خرج قال وزراءه هذا الذي أجرى عليك الفساد و قطع أبطالك و خسرت عليه أموالك حتى مسكته ثم أطلقتته فأمر به فرد إليه فقال له يا أمير المؤمنين إن الملوك إذا عفوا لم يندموا فإن كان هؤلاء قد أندموك فلا تطعمهم فإن الله لو

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٧٥

أطاع الخلق فيك ما ولاك قال صدقت ثم أمر له بصله من المال و صرفه على خير و كان شجاعا مجاهدا في الكفار و له وقائع عظيمة و من يوم ولايته لا ينام حتى يوتر و لا يوتر حتى يصلى مائة ركعة و كل ليلة يتصدق بألف درهم.

و قد قال الغزالي لما هنأ العلماء في الولاية تخلف سفیان الثوري و كان أخا له في الله فكتب له هارون بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخي سفیان الثوري أما بعد فقد علمت أن الله تعالى آخى بين المؤمنين و كان فيما بيني و بينك مؤاخاة لم نصرم منك حبك، و لم نقطع منها ودك و أنى منتظر لك، و قد علمت بفضل المحبة و لو لا قلادة الإمارة لأتيتك و قد زارني جميع الناس و إخواني و أعطيتهم الجوائز السنية و أننى انتظرك و قد استبطأتك فلم تأتيني فكتبت شوقا منى إليك و لقد علمت فضل زيارة المؤمن و مواصلته فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعجل العجل فلما وصل الكتاب للكوفة لسفیان كتب له في ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من العبد الميت سفیان بن سعيد بن منذر الثوري إلى العبد المغرور هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان أما بعد فأنى قد صرمت حبلك، و قطعت ودك، و خلعت موضعك، و أنك قد جعلتني شاهدا عليك بإقرارك على نفسك بأنفاقك بيت مال المسلمين على غير حقه و انفدته بغير حكمه ثم أشهدتني و إخواني الذين شهدوا قراءة كتابك على نفسك غدا بين يدي الله يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم فهل رضى بذلك الفقراء و المساكين و المؤلفة قلوبهم و العاملون

عليها و المجاهدون في سبيل الله و ابن السبيل و الأراميل و الأيتام أم رضى بذلك خلق من رعيته فاعمل للمسألة جواباً، و للبلاء جلباباً، عند وقوفك بين يدي الملك العدل و قد سلبت حلاوة العلم و لذيد القرآن و مجالسة الأخيار و رضيت لنفسك أن تكون

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٧٦

ظالماً و للظالمين إماماً فجلست على السرير، و لبست الحرير، و أسلبت الستور، و أقعدت الأجناد على بابك يظلمون و لا ينصفون و يشربون الخمر و يجلدون الناس عليها و يزنون و يحدون الزنا و يسرقون و يقطعون السارق و أنت شريكهم في ذلك كله لأنك لم تحكم عليهم و لا بد من النداء غداً و امتازوا اليوم أيها المجرمون أي الظلمة و أعوان الظلمة فتقدم بين يدي الله و يداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك و أنصافك و الظالمون حولك و أنت سائقهم إلى النار و قد جعلت حسناتك في ميزان غيرك و سيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء و ظلمة على ظلمة و احتفظ بوصيتي اتعظ بموعظتي فأني قد نصحتك و اتق الله في نفسك و في رعيته و أحفظ محمداً في أمته و أحسن الخلافة عليهم و أعلمهم أن هذا الأمر لو تركته لغيرك لم يصل إليك و هو صائر إلى غيرك لا محالة لأن الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه و منهم من خسر الدنيا و الآخرة أنى أحسبك ممن خسر الدنيا و الآخرة و لا تكتب إلى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عليه و السلام ثم دفعه للذي جاء به و هو عباد الطيالقي منشورا غير مطوى و لا مختوم فوعدت الموعظة في قلب عباد و خرج للسوق و لبس مدرعة صوف خشنة و عباءة و نزع ثياب الأجناد و ألقاها على البرذوة و ساقه خلفه إلى هارون فلما رآه الناس هزؤوا به و هو لا يبالي بقولهم فلما دخل على هارون صاح صيحة عظيمة و بكى هارون و قال انتفع الله الرسول و خاب المرسل مالي و للدنيا مالي و ملك يزول عني ثم أخذ الكتاب و جعل يقرأه و يبكي و ينتحب فقيل له يا أمير المؤمنين قد اجترأ عليك سفيان فقال اتركوني يا عبيد الدنيا المغرور و الله من غرتموه و الشقي و الله من اشقيتموه اتركوا سفيان و شأنه ثم لا زال يفتح كتاب سفيان و يقرأه و هو يبكي و كانت خلافته ثلاثاً و عشرين سنة و أياما ولد بالرى و مات بطوس

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٧٧

و هو ابن سبع و أربعين سنة و مات سنة ثلاث و تسعين و مائة من الهجرة.

و بويع محمد الأمين يوم موت أبيه هارون الرشيد فلما استقرت له الخلافة ألقى أخاه المأمون على كور خراسان و كانت ولايته أربع سنين و ثمانية أشهر فلما صارت له الخلافة و بلغ ماله الفضل بن الربيع أغرى أخاه المأمون في بلاد خراسان فخالف عبد الله المأمون على أخيه محمد الأمين فحاصره في بغداد و جرت بينهم وقائع عظام إلخ.

قال أهل التاريخ قتل الأمين و هو ابن ثمان و عشرين سنة فلم يشتغل بولاية إلا باللهو و الطرب، و اللذة و اللعب، و هي علامة الخراب قال الشاعر:

إذا ترى ملكا باللهو مشتغلاً فاحكم على ملكه بالزبل و الخرب

أو ما ترى الشمس في الميزان ساقطة إذ كان ذلك بيت اللهو و الطرب

و بويع عبد الله المأمون و بايعه جميع العلماء و الأمراء في كل بلد إلا الأندلس لبعده و لفضل البحر بينه و بينه و كان فقيهاً عالماً لا سيما علم النجوم فانه لا نظير له فيه إلا أنه كان معتزلياً يقول بخلق القرآن و يعاقب من لم يقل به و لم يكن في العباسيين أعلم منه و قد تبع شيخه أبا الهذيل البصرى المعروف بالعلاف رئيس المعتزلة و في ولايته أمر بأحضار أحمد بن حنبل بعد أن اختفى فدعا عليه فمات في ليلته.

و في خلافة المأمون مات الإمام الشافعي و هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف رحمه الله سنة أربع و مائتين و هو ابن أربع و خمسين سنة.

و بويع إبراهيم المعتصم بالله بن هارون الرشيد يوم موت أخيه عبد الله المأمون

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٧٨

بالموضع الذي مات فيه في غزوة بلاد الروم و كانت ولايته ثمانى سنين و ثمانية أشهر و كان أشجع الناس أعطاه الله قوة زائدة على الخلق و كان أميا لا يقرأ و قد رفع الحمار الواقع فى الطين لقوته و شدة تواضعه و هذا الحمار لشيخ كبير السن فلما أخرجه غسل أطرافه و أمر له بأربعة آلاف درهم و هو يدعو له و مع ذلك أمر بعض خدامه به إلى أن أوصله إلى بيته و كان يجتمع عليه الأتراك و يلبسهم الديداج و غيرهم من العساكر مما لا يحصى عددا و فى سنة ست و عشرين و مائتين مات بشر الحافى رضى الله عنه ببغداد و محمد بن كثير المدنى و أبو دلف و عشرون من الأئمة و فيها مات المعتصم بقصده الخاقانى و كان قبض على الإمام أحمد رضى الله عنه و كان فى سجن أخيه المأمون منذ ثمانية و عشرين شهرا فأخرجه المعتصم و أقام له مجلسا للمناظرة و بقى ثلاثة أيام يراوده على القول بخلق القرآن فأبى فأمر بضربه فضرب ثمانية و ثلاثين سوطا و سقط كأنه مغشى عليه فنخسه السيف برأس السيف فلم يتحرك فأيسوا من حياته و رموه فحمل لمنزله فاستفاق و لم يبرأ الضرب من ظهره حتى مات رحمه الله بعد سنين متطاولة.

قال ابن الجوزى ولد الإمام أحمد سنة أربع و ستين و مائة و توفى سنة إحدى و أربعين و مائتين و لم يمت حتى جعل كل من ضربه أو تسبب فى ضربه فى حل و حضر جنازته ثمانمائة ألف من الرجال و ستون ألفا من النساء و أسلم يوم موته نيف و عشرون ألفا من اليهود و النصرارى و المجوس و كان أكثر دعائه اللهم يا رب كل شىء بقدرتك على كل شىء أغفر لنا كل شىء و لا تسألنا عن شىء.

و لما مات المعتصم و تولى بعده الواثق بالله شدد على الإمام أحمد أكثر مما شدد عليه المعتصم إلى أن مات الواثق بالله و ولى المتوكل على الله فأمر بإخراجه من السجن و أكرمه و قد شرب ثمانية و ثلاثين سوطا و غشى عليه فبلغ الضرب ثمانين سوطا و لم يحس به فظنوا أنه ميت و هذه عادة الأكابر من أولياء الله تعالى ليعظم ثوابهم فى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٧٩

الآخرة.

و كذا ابن المسيب حلقت لحيته و ربط إلى خشبة فى ليلة باردة و الماء يقطر عليه و سكتته علة البرد حتى مات و كذا ربيعة ضرب و حلقت لحيته و ضرب ابن سيرين و محمد بن المنكدر و مالك بن أنس و يحيى بن أبى كثير و وهب بن منبه و عبد الرحمن بن الأسود و ابن أبى ليلى و ثابت البنانى و بهلول بن راشد و خلق كثير و ذلك كله من غير جريمة و لكن بلاء من الله و كرامة لقوله صلى الله عليه و سلم نحن معاشر الأنبياء اشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل.

و بويع الواثق بالله و اسمه هارون بن محمد بن هارون الرشيد و كانت خلافته خمس سنين و ستة أشهر و هو الذى قطع القول بخلق القرآن و أظهر السنة و كان واسع المعروف متفقدا للرعية.

و من وصية شيخه لا تدع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا و خذ الحق من الوضيع و الرفيع و خذ من كل شىء أحسنه حتى من الكلب و الخنزير و الغراب فمن الكلب الإقرار بالمعروف و من الخنزير البكور إلى المنافع و من الغراب شدة الحذر إلخ.

و بويع المتوكل على الله بن جعفر المنصور فلما بويع قطع القول بخلق القرآن و أظهر السنة و صار يقتل المعتزلة حتى فقدت المعتزلة و لا لهم ذكر غير انه كان يكره عليا فكان ذلك سببا فى قتله على يد ولده المنتصر و كانت خلافته أربع عشرة سنة و كان كثير الأكل كسليمان بن عبد الملك و الحجاج و غيرهم حتى انه يأكل فى اليوم مائة رطل من الطعام بالعراقى و فى أيامهم رجفت دمشق و مات بالهدم فيها خلق كثير و فيها أيضا انكفأت قرية من دمشق على أهلها فلم ينج منهم أحد و كذا زلزلت انطاكية فمات منها ما يزيد على عشرين ألفا بالردم و فى ولايته أيضا وقع حجر من السماء فى ناحية

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٨٠

طبرستان وزنه ثمانمائة و أربعون مثقالا و قد غاص فى الأرض أربعة أذرع و سمعت هذته على مسيرة ستة عشرة فرسخا و فيها أيضا

خسفت ثلاث عشرة قرية من قرى القيروان فلم ينج منهم إلا أربعة عشر شخصا فأسكنهم أمير القيروان خارج المدينة و قال لهم أنتم من المغضوب عليهم فلا تدخلوا عندنا و فيها أيضا رجعت قرية من نواحي مصر بخمسة أحجار في كل واحدة خمسة أرتال و أحرقت كل ما مسته و كذا طائر أبيض دون الرخمة و فوق الغراب يصيح بلسان عربى مبين أيها الناس اتقوا الله إلخ و كذا سقط طائر أبيض على جنازة رجل يصيح بالفارسية إن الله يغفر لهذا الميت و لمن حضر جنازته و كذا زلزلت انطاكية فسقط فيها ألف و خمسمائة دار و وقع من سورها نيف و تسعون برجاً و لما بنى قصر الجعفرية قال لأبى العيناء كيف ترى هذا القصر قال القصر فى الدنيا و أنت تبنى الدنيا فى القصر و فى ولايته مات أحمد بن حنبل رضى الله عنه و دفن بباب حرب بالجانب الغربى.

و بويح المنتصر بالله بن جعفر المنصور سنة سبع و أربعين و مائتين و كانت ولايته ستة أشهر و لما رجع من حجه دخل الحمام ثم احتجم فحم فمات من فوره و قيل احتجم بحديدة مسمومة.

و بويح ابن عمه المستعين بالله بن المعتصم يوم موت المنتصر و ذلك سنة ثمان و أربعين و مائتين. و بويح محمد المعتز بالله ابن المتوكل على الله سنة اثنتين و خمسين و مائتين و كانت خلافته أربع سنين و ستة أشهر أيامه أيام فساد و فتنه.

و بويح جعفر المهتدى بالله سنة خمس و خمسين و مائتين و قد قطع الملاهى و قطع

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٨١

شرب الخمر من جميع بلاده و طاعته و نفى المغنين و المغنيات حتى لم يدع فى أيامه منكراً و لا باطلا و كان يقول استحيى أن يكون فى بنى أمية عمر بن عبد العزيز و لا يكون فى بنى العباس مثله و كان يصوم الدهر و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فلم يرد ذلك الأتراك فهربوا منه لما قطع عليهم الخمر و خالفوا عليه فهرب أهل الفساد إلى الترك و أهل الصلاح إلى المهتدى و وقع بينهم الحرب العظيمة و اشتدت الفتنة و انقطعت الطرق و حاصروه فى قصر الخلافة بعد ان قتل من المغاربة الذين معه خلق كثير و قتل من أبطاله نحو الأربعة آلاف فخرج المهتدى بالمصحف فى يده يدعو إلى الحق و إلى نصره الدين فغدره طبع أخو بابك و أخوه حيا و حملوه إلى دار الخلافة و ربطوا انثبيبه حتى قتلوه و كانت خلافته أحد عشر شهراً و أياماً.

و بويح المعتمد على الله أحمد بن المتوكل على الله يوم قتل عمه المهتدى بالله فاستوزر ابن عمه الموفق بالله و لم يدع لنفسه إلا اسم الخلافة فلما مات الموفق بالله استوزر ابنه المتفضل بالله إلخ و كان مولعاً بالطرب و آلاته و الغناء و نغماته فانظر أنواعه فى هذا الكتاب و قد قيل:

من لا يهيجه الروض و أزهاره و لا يسليه العود و أوتاره

فذلك فاسد المزاج فما لدا علته علاج

فقال المعتمد أحسنت فكم هى إيقاعه و طرقه الثقيل الأول و خفيفه و الثقيل الثانى و خفيفه و الرمل الأول و خفيفه و الهزج و خفيفه إلخ و ما كان اشتغاله إلا بأموار اللهو.

و بويح المعتضد بالله و اسمه أحمد سنة تسع و ثمانين و مائتين و كانت ولايته ست سنين و ستة أشهر و فى أيامه و أيام ابنه بعده صلحت الدنيا و اخذ الناس بالملاطفة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٨٢

و الفرق فارتفعت الحروب و رخصت الأسعار إلا انه كان شحيحاً بخيلاً و كان كثير الجماع فاعتل من ذلك و مات و فى هذه السنة وقعت زلزلة بمدينه مات من أهلها فى ليلة واحدة بالردم مائة و خمسون ألفاً.

و بويح ابنه المكتفى بالله بمدينه السلام و اسمه على بن أحمد و كانت ولايته خمس سنين و نصفاً قام عليه القرمطى ابن مهرويه فخرج على طريق الركب و أخذ الحجيج فخرج إليه المكتفى و أخذه و قتله شر قتله و كان يحب على بن أبى طالب رضى الله عنه و يكرم

ذريته و يحسن إليهم و لما قتل القرمطى مرض بالدرب و مات.

و بويق أخوه المقتدر بالله و هو ابن ثلاث عشرة سنة و لم يبايع أحد قبله أصغر منه سنا فقام عليه المرتضى بالله مع يونس الخادم ثم بقيت الخلافة له بعد هروب يونس الخادم أربعاً و عشرين سنة و أحد عشر شهراً ثم قتله يونس الخادم بقتل المرتضى.

و بويق محمد القاهر بالله فكانت ولايته سنة و ستة أشهر و لما ولى المقتدر و عذبها حتى ماتت ثم أخذ في ارتكاب الفواحش و استباح المحرمات مما لا يحل ذكره في الإسلام فقامت العامة مع الأجناد فخلعوه و سلبوا جميع الأموال و استباحوا دار الخلافة فكان بعد ذلك يطلب الصدقة على باب جامع بغداد بعد ست سنين و نصف نعوذ بالله من سوء القضاء.

و بويق أحمد الراضى بالله ابن المقتدر بالله.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٨٣

ثم بويق المتقى بالله و كنت خلافة الراضى ثلاث سنين غير شهر و خلافة المتقى ثلاث سنين و أحد عشر شهراً.

و بويق عبد الله المستكفى بالله فكانت خلافته سنة و نصفاً.

و بويق أبو الفضل المطيع بالله و دام فيها ثلاثين سنة.

و بويق عبد الكريم الطائع بالله يوم خلع أبيه نفسه و ذلك سنة أربع و ستين و ثلاثمائة و هو فى سن الخمسين أكبر سنا من العباسيين ثم أصابه داء الفالج إلخ.

و بويق أبو العباس أحمد القادر بالله و كان كثير الدين و الصدقة يحب الفقراء و يورث التبرك بهم و دام فى الخلافة إحدى و أربعين سنة و ثمانية أشهر توفى ابن سبع و ثمانين سنة سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة و له مصنفات فى إقامة السنة و ذم المعتزلة و الروافض و كان يختم القرآن فى كل جمعة.

و بويق ابنه القائم بالله و كان يحب الصالحين و يعز العلماء و يحترمهم غاية الاحترام و ما تجرد من ثيابه لنوم منذ ولى الخلافة إلى أن توفى سنة سبع و ستين و أربعمائة و كانت خلافته أربعاً و أربعين سنة و ثلاثة أشهر.

و بويق ابن ابنه المقتدى بأمر الله يوم موت جده و كانت أيامه طيبة و عمرت بغداد.

و بويق المستظهر بالله ابنه بأمر أبيه كان محباً للصالحين و قطع الظلم فى زمانه جملةً و أنصف المظلوم من الظالم لين الجانب مع الرعية يجرى فى الخير دائماً فدامت خلافته خمسا و عشرين سنة و ثلاثة أشهر و توفى سنة اثنتى عشرة و خمسمائة.

و بويق ولده المسترشد بالله و كان شجاعاً مهاباً إلى أن قتلوه مكرراً.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٨٤

و بويق ابنه الراشد بالله جعفر بن المسترشد بالله إلى أن قتله القدرية و لما مات ترك بضعا و عشرين ولداً من الذكور.

و بويق بعده عمه المقتضى بالله و إنا سمى بذلك لأنه رأى النبى صلى الله عليه و سلم قبل خلافته بسبعة أشهر فقال له يصلحك هذا الأمر فاقترف فكان لا يخالف السنة فى أمر الملك و فى دولته زلزلت الأرض فمات فيها بالردم مائتا ألف و ثلاثون ألفاً و زلزلت مرة أخرى فى حلوان حتى تقطعت الجبال و هلك بها أكثر الخلق و زلزلت من الشام ثلاثة عشر بلداً منها ما هلك جميعه و منها ما بقى منه القليل.

و بويق بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بعهد أبيه له بذلك.

و من عجائب ما رأى ليله موت أبيه رأى ملكاً فى صفة شخص نزل من السماء و كتب له فى يده أربع خآآت فى الألفاظ الأربعة (أى يلى الخلافة سنة خمس و خمسين و خمسمائة) و كان ذا عدل و إنصاف خلافته إحدى عشرة سنة.

و بويق ابنه على المستضىء بنور الله و لم يكن فى الملوكة العباسيين من يعظم العلوم مثله توفى سنة خمس و سبعين و خمسمائة و كانت خلافته تسع سنين و نصفاً و احتجب عن الناس فلا يدخل عليه إلا وزيره.

و بويح ابنه أحمد الناصر لدين الله فبسط العدل و غير المنكرات و كسر آلات الملاهي و الطرب و أزال المكوسات في جميع البلاد فكثرت الأرزاق و رخصت الأسعار و عمرت بغداد و سعد الخلق في أيامه و دامت خلافته سبعا و أربعين سنة إلى أن توفي سنة اثنتين و عشرين و ستمائة و هو ابن سبعين سنة و كان يدور بالليل في

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٨٥

الأسواق و يحرس البلد بنفسه و في جميع البلاد عيون تستخبر الخلق في ظلم الرعية حتى ظن الناس أنه من أهل الكشف ثم أصابه داء الفالج فيه ستين سنة إلى أن مات .

و بويح ابنه الظاهر بأمر الله يوم موت أبيه و كان في سيره أبيه فدامت خلافته ثمان عشرة سنة وصلته كثيرة لا سيما العلماء و حبس الأقباس على المدارس و المساجد و كان جنده ألف فارس و خطب له بالأندلس و بالمغرب الأقصى ثم هجم عليه حاجبه فقتله سنة ست و خمسين و ستمائة.

و بويح بعده ابن عمه المستعصم بالله و هو آخر الخلفاء العباسيين العراقيين و كانت دولتهم خمسمائة سنة و عشرين سنة.

و بويح المستكفي بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله و استمر في الخلافة سبعا و ثلاثين سنة و توفي سنة إحدى و أربعين و سبعمائة.

و بويح المستعين بالله و نزل بالإسكندرية فبقى بها إلى أن مات بالطاعون سنة ثلاث و ستين و سبعمائة.

و بويح المعتضد بالله أبو الفتح و ألقى في موضعه أخاه المستعين بالله و استقرت الخلافة للمعتضد حتى مات سنة خمس و أربعين و ثمانمائة.

و بويح المستكفي بالله العباسي بعد موت أخيه المعتضد سنة خمس و أربعين و ثمانمائة.

قال الصفدي فكانت عدة ملوك العباسيين سبعة و ثلاثين خليفة و كانت مدتهم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٨٦

خمسمائة سنة و عشرين سنة كما سبق و أول من تسمى باسم الإضافة إلى اسم الجلالة المعتصم انتهى من عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبي باختصار من أبواب شتى و التقاط من نصوص فصوص الأسطار، مع التقديم و التأخير بحسب ما ظهر للأظار، و ذلك كقطرة من أقطار البحار، و إنما نقلت ذلك و أسسته هنا أي في رحلتي هذه تبركا بهم و اغتناما، و تكريما لهم و تعظيما و اتخذت ذلك بين بني أمية و بينهم سيلا قواما.

و أما ملوك مصر و هم العبيديون الذين تسموا الفاطميين فسأذكرهم بعد إن شاء الله عند التحدث عن أحوال تونس إن يسر الله ذلك و هم ليسوا من ذرية فاطمة و لكن من ذرية علي و سبب تسميتهم بذلك في هذا الكتاب.

و من عجائب ما وقع في الأرض جزيرة الأندلس دارت بها البحور من كل جهة و ليس لها إلا باب واحد من ناحية المشرق و وسعه مسيرة يومين.

و من عجائب النيل أن جميع أنهار الدنيا تجرى للمشرق أو المغرب و لا يجرى للشمال نهر إلا النيل فانه يشق خط الاستواء و يسير إلى بلاد الحبشة إلى بلد كوكو إلى أسوان إلى مصر إلى أن يقع في بحر الروم من مدينة تيس و مدينة دمياط و إذا قل ماء جميع الأرض تقوى النيل و زاد و فاض فيخرج على الأرض عشرين ميلا و أكثر و أقل بحسب انخفاض الأرض و ارتفاعها و فيه سمك كبير يمسح السمك بجناحيه ثم يلتقمه بفيه و النيل ينزل من جبال الذهب المجلوب منها التبر و تسمى جبال توتا ثم ينتهي إلى جبل الأركان إلى الزنج إلى الحبشة إلى مصر إلى البحر.

و أما صحارى هذه الجزيرة فعجائبها لا تسع هنا و قد شق هذه الجزيرة جبل درن و هو من أكبر جبال الدنيا الطرف الغربي منه متصل بالسوس و الطرف الشرقي ينتهي

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٨٧

إلى قرب مصر وفيه معادن مختلفة من جميع أحجار الأرض و أجناسها و قد عمرت البربر هذا الجبل من أوله إلى آخره و أكثرهم من ناحية المغرب الأقصى و أحوال البربر من ملوكهم و قوادهم و علمائهم و قضاتهم مما يبهر العقول.

و قد ادعى النبوءة من البربر ثلاثة صالح بن طريف، و عاصم بن جميل، و حميم بن من الله، و قد شرع لهم شرائع صلاتين غدوة و عشية و صوم الاثنين و الخميس و عشرة أيام من رمضان و أحل أكل الخنثى من الخنازير و أمر بتذكية الحوت و حرم رؤوس الحيوانات كلها فقتله الناصر الأموي و قتل كل من معه ممن خالف السنة ثم أهلك الله الجميع و البربر قد تدينوا قبل الإسلام بأديان شتى فمنهم من تنصر و منهم من تمجس و منهم من تهود و منهم من كان كالبهائم لا دين له و إنما أسلموا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ بعث عقبه بن نافع القرشي إلى إفريقية بعد أن فتحها المسلمون في خلافة عثمان بن عفان.

فزل أرض القيروان فاختارها للعمارة و كانت لا يأويها إلا الوحوش و الهوام فصار يقول لها أخرجي أيها الوحوش و الهوم بإذن الله تعالى فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لم ير فيها شيء من الهوام المؤذية و لا السباع العادية ثم شرع في بناء مدينة القيروان و قال لهم هذا أوسع لإبلكم و أمان عليكم من روم القسطنطينية و إفرنج الجزيرة الخضراء فتوجه عقبه إلى المغرب يستفتح مدينة بعد مدينة و هو يقاتل البربر فاقتتلوا قتالا عظيما فانهمز البربر فكان قتال المسلمين لهم ذريعا و انهزم البربر و المسلمون خلفهم بالقتل و السبي إلى أن وصلوا إلى البحر المحيط الغربي من بلد أسفى فأدخل عقبه قوائم فرسه في البحر ثم انصرف راجعا لا يقدر أحد أن يعترضه فلما وصل جبل أوراس بإفريقية قتله كسيلة ابن كمر الأوراسي ابن المصور بموضع يقال له تهودة و ذلك سنة ثلاث و ستين من الهجرة.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٨٨

ثم أن النبي صلى الله عليه و سلم أخير بقوة دين البربر ما روت فاطمة عنه في قصة جاريته التي أعطتها صدقة و هي معلومة و قالت لها أمضى إلى السوق من يقبل منك صدقة فأنيى به فمضت و هي تقول من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال رجل مغربي أنا موضع صدقة آل رسول الله صلى الله عليه و سلم فأعطته الصدقة و قالت له أجب بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم قال السمع و الطاعة فلما بلغ إلى الباب نظرت إليه فاطمة رضى الله عنها و بكت و قالت هذا رجل بربرى و قد قال لى والدى رسول الله صلى الله عليه و سلم لكل نبي حواريون و حواريو ذريتي البربر يا فاطمة سيقتل الحسن و الحسين و يفر أولادهم فلا يأويهم أحد إلى البربر فيا شؤم من فعل بهم ذلك و طوبى لمن أكرم ذريتي و أعزهم إذ إنهم سيقومون بهذا الدين على المنهج الواضح و كأني أنظر إلى البربر على الخيل الشهب على رؤوسهم العمائم و النصر أمام أربعين حتى يربطوا خيلهم بزيتون فلسطين و يقسمون الغريبات المنقيات و يبيعونهم بالدراهم و الفلوس إلى غير ذلك مما روى عنه صلى الله عليه و سلم في جزيرة الأندلس و بحيرتها.

و منها يخرج النيل الذى لا أعجب منه و لا أكبر منه نهرا في الدنيا و هو من عجائب صنع الله تعالى و يتفرع منه أنهار إلى بلاد النوبة و إلى بلاد جاوة و هي جزيرة وسط البحر قد دارت بها البحور من كل الجهات فمن المشرق بحر القلزم الأخذ من باب المنذب على اليمين إلى مدينة الطور إلى عجرود و من جنوبها و غربها البحر المحيط الذى لا يعلم أين منتهاه إلا الله تعالى و من جهة الشمال بحر الخزر و هو بحر الإفرنج إلى بلد القدس من ناحية الشام و فى وسط هذه الجزيرة صحارى السودان الحاضرة بين السودان و البربر و قد قال صلى الله عليه و سلم إن بأقصى الأرض جزيرة يقال لها الأندلس سيكون فيها رجال يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر حيهم سعيد و ميتهم شهيد ثم يتوارثها قوم يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و الذى نفسى بيده

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٨٩

كأني أنظر إلى نساءهم كاشفات الرؤوس لا يدرون أين يهربون و لا يجدون مهربا .

و من فضائلها ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم جزيرة المغرب منقطعة يقال لها الأندلس يسكنها أقوام غرباء فى آخر الزمان رباط يوم و ليلة فيها يعدل عند الله عبادة خمسين سنة النائم فيها مع عياله على فراشه كالضارب منكم بالسيف بين يدي أو كالصائم القائم فى غيرها فطوبى لمن أدركه أثر قدم فيها كأثر شهيد متشطح فى دمه و شهداؤها

أفضل الشهداء هي الجزيرة الخضراء الزهراء و أن الريح لتحمل أرواحهم إلى بيت المقدس إلى يوم القيامة فيبعثون مع النبيين إلى غير ذلك من فضائلها.

و إنما ذكرت هذه [يعنى إفريقية] لوجود النيل منها و النيل أعجب ما فى مصر و قد ذكرت بعض عجائبها لأن كثيرا من عامة الطلبة بل الخاصة منهم لا يعلمون عجائبها أصلا لا سيما أهل بلادنا فإن علم التاريخ منعدم فيهم و ساقط عندهم فيحسبونه كالأستهزاء أو اشتغالا بما لا يعنى أو من المضحكة المنهى عنها فترى المتوجه منهم إلى الله يرى الكلام فيه مسقطا من عين الله تعالى.

نعم ليس من علم يذكر إذ لا طائل فيه أصلا بلا بنفس ذكره عندهم ينكر و كيف ذلك فإن علم السير إنما هو منه أى سير الأنبياء و شمائلهم و وقائعهم و بعوثهم و سراياهم و حجهم و خصائصهم و قصصهم و قد قال تعالى و كلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك و إن فى ذلك عبر و قد ورد أن تفكر ساعة أفضل من عبادة كذا و كذا نساء و قد قال صلى الله عليه و سلم حرفة العالم ستة أشياء إذا ذكر الله

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٩٠

افتخر، و إذا ذكر نفسه احتقر، و إذا تفكر فى آيات الله اعتبر، و إذا هم بمعصية أو شهوة أنزجر، و إذا ذكر عفو الله استبشر، و إذا ذكر ذنبه استغفر، و لا شك أن هذه الأخبار تكون موعظة للمعتبرين، و تذكرة للموقنين، و تبصرة للمتفكرين، فمرتب العلماء تزيد و تنقص بعلم التاريخ و هذا العلم يوجب للإنسان قوة فى المحاسن و ضعف فى القبايح و به تعلق الهمة باتصالها بالمعالى من الأمور و تدنو بسفاسفها و أكثر القرآن من هذا العلم فمن ذمه يخاف عليه الردة لأنه يسرى إلى ذم القرآن إذا أكثره أخبار الماضين و أحوال المتقدمين من الجبارين الهالكين و أولياء الله الصالحين فلا تهمل أمرك منه و صحح علمك به غير أنك أعتمد على صة الأنقال من الكتب الموضوعه فى ذلك كهذا المختصر و كتب السيوطى و ابن إسحاق و السيرة الشامية و غير ذلك من التأليف.

نعم ذكرت فى هذا التأليف نبذة يستحليها المفتقر الذى لى له علم أصلا و يتقوى بها المستبصر و أنى أزيد فيه أخبارا عند وصولى إلى إفريقية إن شاء الله تعالى.

فلنرجع إلى ما كنا بصدده فإن عجائب مصر لا يسعها ديوان و هو أننا ارتحلنا من أحواز بولاق فنزلنا أنبابة و مكثنا فيها أياما بين متردد إلى مصر و راجع إليها فى قضاء الأوطار و وسعا للانتظار لمن يقصد البر من الحجاج و ودعنا كل من يذهب فى البحر و قد ذهب أكثر الحجاج فيه و لم تبق إلا حثالة قليلة فهم شيخ الركب أن يذهب فى البحر لما سمع أنى راكب فيه فاجمعوا على أن لا أذهب فيه ثم تحولت إلى المشى معهم فتركت ما قصدت من الركوب فى البحر و آخر من ودعته سيدى أحمد الطيب و جماعة من الفضلاء و أنى سأذكر من ذهب معنا من الفضلاء تبركا بهم.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٩١

و لما قضينا حوائجنا من ذلك المحل و الحالة أن النيل قد فاض و خفنا الانقطاع بسببه فظعنا لأنه يفيض على أرياف مصر كذا و كذا ميلا فلو تأخرنا لإصابتنا مشقة فى القطع إذ لا يكون ذلك إلا من الزوارق أعنى المراكب و السفن و أن الشيخ الفاضل الشيخ امنصير النجمى أتى إلينا فارتحلنا لقرب بلده الذى هو الرمل قرب كفر حمام و هو بين المنصورة و كرداسة و هى قرية من أرياف مصر و فيها مسجد جمعة و أما الشيخ امنصير شيخ العرب فسكنه فى الخيم قرب المدشر المذكور و له قوة و شوكة عظيمة على تلك الحال و هو السبب و الوسطة فى استخلاص مال الحجاج فما أخذه منهم فهو مباح قطعا و قد جرى مع الحجاج كثيرا جزاه الله خيرا و له عقل تام فإن تكلم أنصف و إن سكت أنصت و أعرف و إن تكلم فبحكمه فليس يأمعه فلا يطوى الكلام غير أن ذلك سجية فى بعض العرب فما أحلاه لو كان عالما عاملا غير جاهل فما أحسن العلم إن قارنه الحلم و ما أقبح الجهل إن قارنه الظلم رضى الله عنه و أرضاه و جعل عاقبته خيرا و جعل البركة فى ذريته فمكثنا هناك مدة قريبة تقرب من شهر و هو شهر ربيع الأول.

و قد حصل لى حال عظيم و هو حال المشاهدة إذ تقوى على الشهود فغيب عنى كل ما سواه من أجل رؤيا رأيتها هناك فاضمحت

الأغراض، و ذهبت الأعراض، و زالت الأمراض، بجاهه صلى الله عليه و سلم و ما بقى فى نفسى أعتراض، و تقوى على ذلك حتى عزمت على الصحارى و الفقار، و نبذ الرجوع إلى البلد و الدار، و ترك الأولاد و العيال فى يد العزيز الجبار، غير أن الله ثبت فؤادى و مكنتى من عنده فى علم اليقين حتى رسخ قدمى فى الوثوق بالله إلى أن رجعت إلى وطنى ليتم الوعد الربانى فى نفع عباد الله العاجزين عن أنفسهم و عن اتصل بهم ممن تعلق بهم فلم يخلقنى الله

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٩٢

لنفع نفسى فأن الأسباب تعذرت على مباشرة بحيث يتولاها بعض أهل الرد من الله تعالى فى السفر و الحضر.

هذا و أنى وعدت أن أذكر من ذهب معنا من فضلاء بلادنا من عمالة الجزائر ليتنور هذا الموضوع بذكرهم و لتقع لهم الشفاعة فينا و فيهم ببركة من ذكر فى هذه الرحلة منهم الفاضل العالم الود الكريم الولي الصالح الذى أخذ من كل علم بنصيب سيدى أحمد الطيب و الفاضلان نجلاه سيدى محمد الكبير و سيدى محمد السعيد و الفاضل أخوه سيدى بلقاسم و ابن عمه الكامل فى أحواله الفقيه سيدى الصديق و ابن خاله الفاضل سيدى محمد السعيد ابن سيدى محمد الصديق و الصالح المقبل على الله سيدى الهادى نجل الولي الصالح كما قيل الشيخ سيدى على المنجلاتى الذى هو شيخ سيدى عبد الرحمن الثعالبي و العالم العلامة فى كل الفنون على الإطلاق سيدى أحمد عياض و أخوه و ابن أخيه و ولده و الكل أدباء فضلاء و الولي الصالح من غير شك سيدى الصالح الغربى المتوطن و وطن فخطولة و المحب للخير و أهله الفاضل الكامل محب الجميع سيدى على البجائى المتوطن فى الجزائر نجل العالم الفاضل المحدث النحوى الفقيه النزيه قاضى بجاية و مفتيها و خطيبها سيدى عبد المؤمن و العلامة بالتحقيق سيدى أحمد الصديق الخطيب معلم ولد السلطان فى الجزائر مات فى مصر حين رجوعنا من الحج يوم دخول الركب مصر أو بعده بيوم أو يومين و الفاضل سيدى الحاج إبراهيم مات بعد رجوعنا من عرفه فاضلا عالما خيرا و أما العامه من الجزائر و كذا فى زاوأة فعدد كثير نفعنا الله بهم و جعل البركة فى ذريتنا بجاههم فقد زاد خيرهم على الفضلاء المذكورين و منهم الفاضل الخير الشريف سلطان زاوأة سيدى محمد بن بوخوش

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٩٣

و صهره من أولاد سحنون فانه فاضل من مدشر جمعة الصهريج من بنى فراوحن و هو له دار فى هذا المدشر و دار أخرى فى قرية الصوامع من بنى بو شعاب و قد ذكرته فيما مضى.

و منهم بعض الفضلاء من أولاد الشيخ الولي سيدى مالك أظن أن اسمه سيدى السعدى و منهم الولي الصالح العالم الفاضل سيدى مهنا الصنهاجى و قد مات فى مصر رحمه الله كبير السن ظاهر الشأن.

و من بنى عباس الفاضل الفقيه سيدى محمد السعيد بن الطالب و الفقيه الفاضل الشريف سيدى محمد بن رقيه مع أصحابهما.

و من أولاد القطب الولي الصالح الواضح سيدى يحيى العيدلى سيدى الشريف و سيدى أحمد بن على و من أولاد الولي الصالح سيدى محمد صالح سيدى المسعود و سيدى ابن بو ستة و سيدى محمد بن الفقيه و من أولاد الولي الصالح سيدى يدير بن صالح الفاضل الحاج سيدى حمود و من مدشرهم الفاضل سيدى محمد بن عثمان و ابن عمه الفقيه الفاضل سيدى أبو القاسم بن الطيب و من أولاد الولي الصالح العالم الفاضل و أظنه أنه شريف حسبما رأيت فى طبقات الشرفاء لابن فرحون سيدى مصباح المعلومه مدرسته فى مدينة فاس و الفاضلان الفقيهان سيدى محمد و سيدى عبد الكريم نجلا الفقيه الكامل سيدى ابن المبارك و هما من بنى يعدل و كذا جماعة من الفضلاء من قرية تفرج الحاج سيدى حمودة بن معزة و طالبنا سيدى أبو القاسم بن مدور.

و من بنى يعلى الفقيه الأديب نخبه الفضلاء نجل الولي الصالح ابن الولي الصالح

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٩٤

الزاهد العابد المتجرد المقبل على الله سيدى عبد الرحمن بن قرى ولد الشيخ سيدى بركات ابن الشيخ سيدى محمد بن قرى و الفاضل القارئ سيدى أبو القاسم بن دحمان و جماعة منهم.

و من زمورة جماعة من أحسن الناس و أفضلهم سيدي الحاج محمد القجوطي و الحاج محمود بن طالب حسين و سيدي محمد منه .
و جماعة أخرى من بني فرفان و من وطننا من بني ورثيلان الفاضل الورع العالم الفاضل سيدي أحمد بن حمود و ابن أخيه سيدي
الحسين و الفقيه الخير الكامل الصدوق سيدي محمد اليعلاوي بن بطيح و الفاضل سيدي يحيى و الطالب بن الفقيه .

و من أولاد الولي الصالح سيدي يدير بن الحاج الفقيه الفاضل ابن المسن المتعبد ذى النسك سيدي أحمد نجل سيدي محمد السعيد
و الفاضل سيدي محمد البهلولى منه أيضا و ولد الشيخ الفقيه سيدي عبد الله بن سيدي أحمد بن علي تلميذ سيدي أحمد بن حمود .
و من أولاد سيدي الصالح الفاضل الناصح سيدي عيسى بن الحبيب سيدي محمد السعيد و ابن عمه تلميذنا سيدي يحيى و من أقفسار
الفاضل الحاج عمر و الفاضل سيدي أبو القاسم نجل الولي سيدي عمر بن موسى المتوطن في أرض و من قصر الطير الفاضل سيدي
محمد بن قسوم و القائد الحاج يونس بن يلس و الفاضل الكريم سيدي عبد القادر و بعض من الكتافة و بعض الفضلاء من فاطمة و
بعض الفضلاء من أولاد موسى بن يحيى و الفاضل المتعبد المقبل على الله سيدي

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٩٥

محمد المداسي و جماعة كثيرة من قصر الطير بلاد ريغة و من أولاد سيدي رحاب الفاضل الفقيه المتوجه إلى الله و قد تزوجت ابنته
الفاضلة الحرة الجليلة الشريفة الطالبة عويشة و تزوج ابني محمد أختها الفاضلة الجليلة العابدة الطالبة فاطمة ماتتا في تونس رحمه الله
عليهما و قد حج معنا سيدي عبد الله ابن رحاب و وزجه و ولده سيدي محمد بن عبد الله و الفضلاء أولاد صوشة و جماعة من أولاد
دراج و جماعة من الزاب كلهم فضلاء من أولاد جلال و غيرهم .

و من بسكرة الفاضل الكامل سيدي بركات نجل الولي الصالح الغوث الواضح سيدي عبد المؤمن شيخ الركب فيما مضى و جماعة
من الفضلاء منها و كذا من سيدي عقبه .

و جماعة أخرى من قرية مدوكال لا سيما أولاد الشيخ محمد الحاج منهم الفقيه الفاضل الكامل الشيخ سيدي محمد المسعود أمير
ركبنا و ولده الصغير زوجته و ابن عمه الفاضل سيدي أحمد بن إدريس مات رحمه الله في رجوعنا و دفن بعد ارتحالنا من مصر
بمرحلتين في قصور الرهبان فدفناه في القصر الطرفاني الغربي الذي يواجه الحاج ذهابا و أنا الذي صليت عليه و مثله الفاضل الكامل
المتواضع سيدي أحمد بن الجودي و جماعة مع الشيخ كلهم ممن يحب الخير و يسمع له .

و من المسيلة أولاد الشيخ القطب الغوث سيدي محمد بن عبد الله بن أبي جملين و الفاضل الكامل الأديب سيدي أحمد و ولده و
ولد الشيخ سيدي أبي القاسم مشهور و جماعة كثيرة منها و كلهم فضلاء من الترك و غيرهم .

و أما أهل عامر فكثيرون و فيهم علماء فضلاء كملاء مقبلون على الله كالفاضل الفقيه سيدي عبد الرحمن بن الزيغم و سيدي محمد
الصحراوي و سيدي عبد الرحمن

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٩٦

بن السخري و قدم مات في الطريق و ولده رجع و أهل الفضلاء فيهم كثيرون فإنهم لا يحصون كثرة رجالا و نساء صفاهم الله من البدع
الشيعة و الخصال اللدنية بمنه و كرمه لتوافق دعائهم الواقع .

و جماعة من فضلاء أولاد إبراهيم و كذا من أولاد سعيد بن سلامة و كذا من أولاد عبد النور و ولد الشيخ سيدي داود سيدي أحمد و
من قسنطينة كذلك و كذا أهل الخير و الفضل و الكمال أولاد خديم الله من بابور .

و من بني سليمان جماعة فيهم المحب العارف المجذوب بالتحقيق المقبل على الله بالصدق و التصديق من بني بورمان سيدي سعيد
فأني سمعت بنات فكره في الوعظ و طريق الحب بالبربرية سلب العقل يكاد أن يكون كلام ابن عطاء الله و إنما فاته لما كان كلامه
بغير العريية و قد علم أن المجذوبين في عمالتنا هذه و إن كانوا عوام له كلام في المعرفة و المحبة و الوعظ يحرك القلوب و يفتنها
غير انه عليه كسوة البربر فالذي يفهمه يذوقه ذوقا معتبرا يسلب العقل .

و كذا جماعة من البليدة فضلاء كرماء و كذا من مازونة و من غريس و من معسكر و غيرهم.

و من إخواننا الشرفاء الزابر لهذه الرحلة العبد الضعيف الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر احمد الشريف نجل الشيخ الولي سيدي علي البكاء البجائي هكذا ثبت بخط جدى و هو ثقة واصله و الله أعلم من تفيلايت أى من شرفائها هكذا سمعنا من أسلافنا و هم عن أسلافهم و ولدنا الفاضل محمد و زوجته المذكورة و كذا زوجتى المذكورة و الأخرى الفاضلة الحره عائشه بنت الفاضل الكامل سيدي السعيد نجل الشيخ المحقق لا سيما فى علم الكلام و قد سمعت ممن سمع منه

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٩٧

انه رأى الشيخ السنوسى فى نومه فقال و هو يضرب فى رأسى و هو يقول أنت أولى بكلامى يا مسعود و قد كان حجة فى علم الكلام فى عصره بحيث لا نظير له فيه و قد سمعت ممن سمع من تلميذ العلامة سيدي محمد العياضى انه يتعلم عليه فقال قرأنا شهرا قراءة بحث و تحقيق من أول النهار إلى آخره من قوله فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها إلى آخره و هو قراءة ساعة زمانية فإن قراءة الفصول قراءة تحقيق غايته يومان و هذا كله من منة الله و فضله عليه فالشيخ الخطيب سيدي المسعود ابن عبد الرحمن نجل الشيخ سيدي محمد صالح نجل الشيخ المعلوم غربا و شرقا سيدي أبى محمد الدكالى تلميذ أبى مدين الغوث مع الشيخ عبد القادر الجيلانى أفاض الله علينا من بركاتهم آمين و ابن عمنا الفاضل سيدي الصديق و ولده العالم العلامة تلميذنا سيدي محمد صالح و ابن عمنا الفاضل سيدي على الشريف و الفاضل الكامل سيدي عبد العزيز نجل خالى سيدي محمد بن الحاج الشريف و مثله الفاضل الفقيه النحوى المتكلم المنطقى الحافظ لكل شىء لا سيما الشعر ابن عمنا سيدي أحمد الشريف و مثله الفاضل سيدي أبو القاسم الشريف و كذا ابن عمنا الكامل الفاضل سيدي عيسى الشريف.

و من إخواننا فى الله الفاضل العالم الصالح الصادق سيدي محمد البهلولى و بالجملة فأهل وطننا الخاصة و العامة أهل الفضل فقد ذهبوا من أغبوله و من بنى عفيف و من بنى أشبانه و أولاد الخلف و بنى إبراهيم كالمقبل على الله الحاج يوسف و من بنى موسى جماعة و من بنى أحمد كذلك أعنى عرشنا أولاد الحاج و عراضه لا سيما الفاضل سيدي أحمد مداح و ابن عمه سيدي يحيى أحيا الله جميعنا على السنة النبوية و أماتنا و إياهم على الملة المحمدية بمنه و كرمه و كان لنا و لهم بالبركة فى ذرية الجميع.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٦٩٨

و إنما ذكرت هؤلاء فى هذه المرحلة لعل الله أن يمن علينا و عليهم بعطف محمد صلى الله عليه و سلم عطفه من عطافته تغنى الجميع و ليعلم الإنسان أن الزاد و إن كان ركانا فى الحج و شرطا فيه فالركن القوى الرفقة المأمونة خصوصا الإخوان فى الله فإنهم النافعون فلا بد منها و أحسن رفقتنا الأخ فى الله و المحب من أجله العارف بالله المنفرد بالصدق فى الآخرة بفضل الله تعالى سيدي محمد الشريف الطرابلسى النوفلى البلغيشى من المنشية و معه جماعة من الفضلاء كالفقيه الفصيح سيدي محمد بن عزوز و ولده سيدي محمد و غيرهما وفق الله الكل إلى صالح القول و العمل.

انعطاف إلى ما كنا بصده فقد ظعنا من كفر حمام بعد اقتضاء بعض ديون الحجاج و شرائهم ما يخصهم من العلف و الزاد و الخيل و أخذ الخبير و جميع ما يحتاجون إليه من جهازهم و مراكبهم و ملابسهم و كنا نحن ننتظر سيدي أحمد بن حمود أن يأتى من مصر و كذا سيدي محمد الشريف و أصحابه و أصهاره من مسراته وطن الشيخ زروق فلما قدموا ارتحلنا و ذلك بعد ما حصل للحاج ضيق عظيم من شدة ما يعوزهم من العلف حتى أرادوا الارتحال بى و ترك الشيخ أمير الركب فلم استطع ذلك لما بينى و بينه من المحبة فى الله و التقرب من أجله فارتحلنا بعد أن مات من مات من الحجاج الرجال و النساء و فى تلك المرحلة مات الحاج الطيب بن بونشادة إذ كان كثيرا ما يعارضنى فى الأمور لما رآه منى من النكير على أهل البدع فلم يرض بذلك.

نعم أصابته غيره و حمية على أهل بلده عامر غير أنه أتصل به المرض فتشاءم بنا فكأنه رأى ذلك منا كرامة فأتى إلى مرارا يطلبنى فى الحل و قد جعلته فى حل غير أنه فات منى الدعاء على الأعداء فى الحطيم و الملتزم و عرفه و غيرها و كان هو من جملة من دعوت

عليهم و لكن أسأل الله الهداية لمن علم أنه يهديه و إلا فيهلكه فكان من جملة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٦٩٩

الهلكة و كذا غيره من عامر.

ثم أن الفقيه الشريف سيدي عبد الله بن رحاب ضاح له الجمال و دينه لم يقتضه فأراد التأخر إلى أن يقدم الفاسى فلم نتركه فتسلفنا من عند من فيه الخير من الركب فقدم و الحمد لله على اتصال الرفقة فانفصلنا عن الشيخ امنصير فأعطاني فرسا في ديني الذي هو في المنصورة فلما رآه صاحبه يخلص أو رآنا على الطريق قدم فتحررت نيته فتركته فأتى أخوه جزاه الله خيرا فقال نحن تولينا مدينتك و إن لم تترك عليها قتلتها فركبت عليها و تولى غريمتنا ثم قدم معنا مودعا إلى أن دخلنا الرمل فبعث إلينا بعض الأجناد من المنصورة بعثه الباي خليل ليحبر أهلها على إعطاء دين الحجاج فأرادوا رجوع الركب فامتنعوا فقلت للشيخ أرجع أنت و بعض الناس و أنا أذهب مع الركب ساعة فنزل على الماء فلما انفصلوا عنا قالوا ما ليس لنا إلا المشى و عدم انتظارهم فمشيت معهم حتى سكن غضب أهل الركب فأمرت العلام بالنزول انتظارا للشيخ و أصحابه ممن ذهب إلى المنصورة فلما مر الثلث من الليل و إذا بمن ذهبوا إلى المنصورة رجعوا فأتوا ببعض ديونهم و أقتضى الشيخ امنصير شيئا من ديوني و لم يبق على غريمي إلى القليل.

فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا أيضا و الشيخ امنصير و أصحابه معنا يودعوننا و يقتضى ما بقى له من أجره اقتضائه الديون التي للحجاج فلما أراد الانفصال خادعه الحاج ساعد من أولاد موصلى و الحاج ابن زكريا فصاح بنا يا فلان قد خدعنى الحاج فى عنایتكم فرجعت إليه أشليته عليه هو و أصحابه فلما رآنى تقوى بى و رجع الشيخ أيضا لما سمع العراك فأراد الشيخ أن يضرب الحاج ساعد بالبطولة فمسكناه و كذا الحاج ساعد أراد أن يضرب الشيخ فحجزنا بينهم فطاب قلب الشيخ الحاج امنصير و رجع طيب النفس سالم الخاطر جعل الله البركة فى ذريته و كان لنا و له فى الدنيا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٠

و الآخرة بمنه و كرمه فسرنا كذلك إلى الليل ثم ظعنا صبيحة إلى أن مررنا على القصر الذى فيه النصارى اعنى الرهبان فلما وصلنا إلى باب القصر أشرفوا لينا فكلمناهم فكلموننا و سألوننا عن مصر و كيف هى و عن حالهم فأجبناهم عما وقع بينهم و بين صالح باى الذى كان فى الصعيد و قلنا لهم انتشب بينهم القتال و انهزمت طائفة مصر فأملوا زوارق أخرى فنزلنا القصر الطرفانى الخالى الذى دفنا به ابن سيدي محمد الحاج فبتنا فيه خير مبيت ثم ظعنا إلى الأجدار فوصلنا قرب الزوال بسويجات ثم ظعنا منه سائرين إلى الشمامة إلى أن وصلنا بعد مرحلتين و الله أعلم إذ نزلنا قربها فبلغناها صبيحة و ماؤها قبيح من أقبح مياه برقه يشوى الوجوه بسس الشراب إلا بعض الآبار فإن ماءها قرب م العذب و هى البئر التى تلى جهة المشرق و أنها تحت حجر فبتنا فيها خير مبيت إلى أن وصلنا معطن الجميمة فنزلنا فيه و جميمة على وزن كريمه و ماؤها مختلف فبعض لا بأس به عذب و بعضه زعاق إلا أن أكثر الحجاج عنده الغنى و إنما يصلح للإبل و كذا ماء الشمامة إنما يصلح للجمال فقط إلا من اضطر لشربه.

و قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر أن سانية قربها ماؤها عذب فأننا أعرفها و السؤال فى حجتنا هذه متعذر لفقدان أهل برقه فإن المجاعة أجلتهم من وطنهم و كذا تعدى بعضهم على بعض حتى انه لا يطيق أحد النزول فى برقه من غزو بعضهم لبعض فلا تجد أحدا تسأله عن المواضع فظعنا منه إلى أن بلغنا معطن المدار فاستقى الناس و سقوا إبلهم فإن ماءها طيب لا بأس به فرفعوا الماء ثلاث مراحل إلى جرجوب و العقبة الصغرى قبل معطن المدار بسويجات قليلة و فى الطريق ماؤها ملح أجاج فلا يشربه إلا الإبل ثم سرنا ثلاث مراحل إلى أن نزلنا جرجوب فسرنا مراحل كل مرحلة باسمها عند أهلها من بدوها إلى أن بلغنا معطن أم أقرب و ماؤه أيضا عذب طيب لا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠١

بأس به.

قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه.

تنبيه و تمر هذا البلد أحسن تمر رأيناه فى البلاد المشرقية حلاوة و نقاوة و كبرا يشابه تمر بلادنا و ليس منه ما يحمل فى قفف صغار من سعف النخل تسع كل قفة منها أزيد من ربع القنطار و يبيعونها كذلك إلا بأوعيتها و أخبروا بأنها لا تباع إلا كذلك فمشتريها لا يحتاج إلى حبال للشد و لا غرائر للحمل بل يشتري حاجته منها فيعلقها على بعيره فمن الإبل من يحمل العشرين إلخ فظعنا منه إلى أن وصلنا العقبة الكبرى فصعدناها على الطريق الصعبة المعروفة المعتادة لسلوك الحاج منها غير أن السير على حسب قوة الإبل إلى أن خرجنا منها ثم كذلك إلى أن نزلنا الطرفاوى فوجدنا أرضه زهراء طيبة الأطراف منيقة النبات و أقام الركب فيه يوما و يوم الإقامة خرجت متزها فى البحر و متفكرا فى أمره و متعجبا فى صنع الله تعالى لما علمت أن رؤيته تفرج الغم و تزيل الهم و كذا رؤية الأشجار و الأنوار و الأزهار تشرح الصدر و عند ذلك قلت .

يا سلائلا عن الطرفاوى تذكر رائحة النرجس فيه تعطر

فانه محل خصب للدواب يعلم ذاك من رآه بالصواب

و عذب مائه أيضا قد اشتهر عند الحجيج و الطعين المستقر

و بحره يزهى جميع الناظرين و هو يفرج كرب الحازنين

فحسبه للمسلمين منزلا و ماؤه للواردين منهلا

و الضرع عنده يدر أكثر من غيره أجل ليس يمتري

فزرعه غير بعيد الخصب عمره يا رب به بالقرب

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٢ بجاه من لبي و حج و اعتمرو زار طيبة و من بها استقر

فركبنا يا رب بالامان بلغه بالنعمة و الإحسان

فهو ذا يعم من فى البحر من أخوان و حفظ من فى البر

ثم الصلاة و السلام دائما على رسول الله خير من سما

و آله و صحبه و التابعين و حزبه برحمة للمحسنين

قلت و قد نظمت سائر المعاطن ببرقة و بينت أوصاف مياها غير أن الكراس الذى نظمته ضاع لى قرب الزعفران فى يوم شديد البرد فرجعت أنا و سيدى أحمد بن حمود و سيدى محمد الشريف إليه فلم أجده فتحسرت عليه غاية لآنى أشفيت العليل و أبردت الغليل فى بيان أوصاف المياه و بيان المراحل و المنازل.

ثم ظعنا من الطرفاوى قاصدين معطن التميمى فسرنا أياما إلى أن مررنا على عين الغزالة بساحل البحر و أقول فيها كما قال شيخنا المذكور عين فيها ملوحة تسيح من سفح جبل و تصب فى بحيرة كبيرة تحتها من البحر المالح بحذائها القصب و العريش و أنواع النبات المائى يوجد حولها صيد كثير عند خلو البلاد من كثرة المارة إلخ.

قلت و قد سمت أن الحوت كله غربا و شرقا إنما أصله منها و إنما يتخلق منها و لا علمت أن له أصلا من الشريعة أم لا.

نعم فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى معطن التميمى قبل أن يصل الركب إليه بعثنا إلى درنة ليأتوا لنا بالميرة منها و كذا الفواكه فأقمنا فيه يوما بتمامه مع يوم النزول إذ نزلنا فيه بكره منتظرين ملاقاء درنة فلم يأت لنا خبر منهم لأنهم فى هذا الزمن انقطعوا عن ملاقاء الركب لكثرة الفتنة بينهم و بين أهل مسراته و البيخة فإن الحرب بينهم دائم إلا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٣

أن هذا الزمن فيه العافية التامة و إنما فيها المجاعة العظيمة يموت الخلق فيها كثيرا لا سيما عرب برقة فقد حكوا لنا أن بعضهم لم يذق طعاما أربعة أشهر و بعضهم ستة أشهر و إنما يأكلون الحشيش و النبق و غير ذلك.

تنبيه و أعلام قال شيخنا المذكور ما نصه.

تنبيه و درنة هذه قاعدة الجبل الأخضر مدينة على شاطئ البحر بينها و بين خانبة مسيرة يوم فى البحر و درنة مدينة كبيرة فيها كثرة المياه و الجنات و الفواكه و الأعناب و فيها السوانى ذات أنواع من الثمار و بها أسواق و فنادق و امر المعاش فيها سهل و العمارة فيها كثيرة أخبرنى من أثق به عام عشرة أن بها من أهل مسراته خاصة ثمانمائة رام بنادقهم سوى ما فيها من غيرهم و لم تكن قبل بها العمارة و إنما أحدثت فى حدود الأربعين و الألف بناها الأندلس لما خرجوا من جزيرتهم و نزلوا فى ذلك المكان و أعجبهم و آنقهم و فجروا أنهارا و غرسوا أشجارا و حفروا سواقى و بنوا و سكنوا و أسكنوا و استقلوا بأنفسهم و لم يكونوا تحت حكم أحد ثم إنهم طغوا و اشتغلوا بالفساد و مدوا أيديهم إلى عمالة طرابلس فى زمان عثمان باشا و غاظ ذلك أهل طرابلس و وجهوا لهم عسكريا و تقاتلوا معهم و أخذوهم و قتلوا من قتلوا و نفوا من نفوا و لم يبق منهم إلا- أقل القليل و استولى أهل طرابلس على البلدة فهى تحت أيديهم.

قلت هذه درنة لم أرها و إن كانت قريبة غير أن الأركاب لا تدخل إليها لأنها ليست طريق الركب غير أن أسماعنا مملوءة من أخبارها فحصل لنا العلم بها و بأحوالها ضرورة فضعنا منه صبيحة فسرنا كذلك متوجهين إلى مفازة السروال و هى أشد مفازة فى طريق الحج إذ سبعة أيام لا- ماء فيها فكادت تزهق النفس من شدة ما استقبلها من العطش فإن العطش إذا أصاب الإنسان أسرع موته بخلاف صاحب الجوع فانه يطول.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٤

فالحاصل أن هذه المفازة القادم عليها كالقادم على القبر فقد تقرر فيها الموت الأبيض فالتدمية البيضاء محققة فتحقق أمر الركب انه يسلك على طريق الجبل الأخضر لما علمت أنه لا ماء فى السروال إلا إذا لطف الله بوجود الغدير فإنهم ينتظرونه كما ينتظرون ماء السماء فسرنا مراحل و نحن فى تجاه الجبل و السير بحذائه بحيث يقرب سيدنا سفح الجبل غير أن الطريق و عرة و صعبة على الإبل إنما ألجأ إليها الضرورة.

فلما أن وصلنا تلك الشعب القريبة لجردس و تجاوزناها وجد الناس غديرات فيها ماء فأكثر الركب قد استقى منها غير أن الإبل أصابها عطش عظيم و قد غبت كثيرا فلما ظعنا من ذلك المحل وجد الناس غديرا قرب النزول فى التغليس فمنهم من مر عليه من غير علم به و منهم من سمع به فأعرض عنه غير أن الذى ظهر للناس تراحموا عليه بالإبل حتى غيروه و خوضوه فاختلط به الطين فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى جردس فنزلنا على الماء فتفرق الناس عليه و هو ماء قليل فتراحمت عليه الناس ازدحاما عظيما فلم يستطع أحد شرب ماء و قد تعذر علينا سقى الخيل و أما ملء القرب فمتعذر قطعا.

نعم بعض الناس قد استحبى منا فسقى الخيل و أعطى لنا ما نطبخ به و إلا فأكثر الناس قد بات بلا سقى و لا استقاء فلما تعذر الأمر قلنا لأصحابنا دعوا السقى إلى قراغ الناس منه فيتسع المجال بحيث تبقى الآثار منفردة خالية و كان الأمر كذلك فلما فرغوا من السقى وجدنا الوسع فسقينا و استقينا و شربنا و شربت الإبل و كذا الخيل و بقى الناس هناك بعضهم رفع و بعضهم تخلف لقضاء حاجته فلما سقينا و ملأنا القرب لحقناهم فمأوه طيب عذب لو لا أنه قليل يرشح رشحا و إنما يقضى الناس مآربهم بطول المدة.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٥

و هذا الجبل واسع الأطراف كثير الشجر عام الخصب فخصبه لا نظير له فمرعاه قليل الوجود و كذا ماله أعنى البقر و الغنم فوالله يخاف الإنسان أن ينظر فيه لطول إقامته و اتساع عرضه ضخم الجثة.

و قد قالوا هذا الجبل كثير السمن كثير العسل كثير اللحم كثير الزرع و الخصب لو أن فيه عافية غير أن عربيه يتعدى بعضه على بعض و هم متغلبون فالجبل لمن غلب منهم لا- يرقبون فى بعضهم إلا و لا ذمة و همم فى أجلاء بعضهم بعضا إلى الآن و حتى الآن غير أنهم وجدناهم فى مجاعة عظيمة ما وجد مثلها و قد أفناهم الجوع و إنما تحيرنا من أمر الشريعة هل وجب علينا إطعامهم و أحيائهم أم لا

فإن كثرتهم رفعت علينا الوجوب فإنهم كالجراد المنتشر فسقطت مخاطبة الشرع باستخلاصهم مما هم فيه سلمنا يجب فإنهم دام بهم ذلك فمن كلف نفسه وقع فيما وقعوا و هلك كما هلكوا.

رجوع إلى ما كنا بصدده و هو خروجنا من هذا الجبل إلى أن وقعنا في البحيرة لاقانا نجع من العرب وارد على عرب آخرين يأكل بعضهم بعضا فلما واجهناهم و إذا بهم أرجفوا وقفوا على خيلهم و أرادوا الانتضال و المقاتلة ظنا منهم أننا غير الحجاج فلما ركضوا من الركب إلى جهتهم اجتمعوا و تحيروا من أمرنا فلما علموا بنا و تيقنوا أمرنا قالوا لا علينا في الحجيج و إنما نريد من تعدى علينا من العرب قبل فاطمأن ما بيننا و سكن بعد ما حمى الوطيس و اضطرم أمر الفتنة بيننا و بينهم و الحالة أنهم مرتحلون بنسائهم و حريمهم.

نعم وجدنا عندهم الإبل ما أحسنها و قد اشتد سمنها و إبل الركب ضعيفة هزيلة فصاروا يبذلون.

نعم لما علموا اضطرار الحجاج امتنعوا من التبديل و صاروا إلى بيع فارتقى أمر

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٦

قيمتها فشفى الركب غليله منها فساروا معنا من الضحى إلى وقت العصر ثم انفصلنا عنهم و إن أاخانا السيد محمد الشريف باع فرسه التي ركب عليها و أعطيت له فرسى يركب عليها لأنى أتيت بفرسين فلما ركب عليها نحو اليومين أو الثلاثة تركها و قال أنها رقيقة لم استطع الركوب عليها فبتنا بعد الانفصال عنهم.

ثم ظعنا فنزلنا مدينة ابن غازى على شاطئ البحر و هى مدينة طيبة فلا بأس بها لكونها مرسى فى قربها سبخة و فيها بساتين من ناحية أخرى و أرضها طيبة المزارع بلدة طيبة مباركة تصلح للمال غير أن العرب جاروا عليها و على أهلها و أنهم غير متفقيين نعم حكم الباشا نافذ فيهم و أخوه هو الباي يحكم فيها و قد امتلأت بالعرب و هم أعداء فمنهم ملتجىء بها و منهم قاصد لأخذهم فلم يرتقب من أهلها غير أن بعض أهلها سلم فيهم و تركناهم مهتمين بأمر الأخذ باتفاق رأيهم و رأى أهل المدينة على أن من خرج من حريم العمارة أخذوه و قتلوه و سلبوه و من بقى فى حريم المدينة وقع الشك فيه فمن نظر إلى أهلها كف و من نظر إلى العداوة و خذلان بعض أهلها أراد افتراسهم و الانتقام منهم فخلفناهم على هذا السبيل و بعد ذلك سمعنا أنهم لم يصبر لهم بأس منهم ما داموا عندهم غير أن طائف ارتحلت منهم و ظننت معنا من الخائفين إلى أن وصلنا مسراته و تورغة فتفرقوا فى الأوطان على المعيشة و الجوع يقتلهم و يميتهم فلم يقد فيهم إطعام الركب غير أن أهل الركب ضجوا منهم فكل خيمة يقف عند بابها الستون سائلا أن أكثر فتراهم يردونهم بالشتم و اللعنة و الخزى و بعضهم بالضرب فلا يكادون يسمعون لتضررهم من شدة جوعهم فنادين فى الركب و لعل الله يسخرهم فنقسمهم على حسب الطاقة و الضعف لأن ذلك واجب علينا فلم يسمعوا لنا لقله زادهم و مدينة ابن غازى قد غلا سعرها غلاء فاحشا بحيث لا- يستطيعون شراءه و أما الميرة فكثيرة الوجود لأنها تأتى من بر التبرك إليها و من أرض العرب لا سيما إفريقية و الغلاء و الرخص جندان من جنود الله يضعهما الله حيث شاء فلا فائدة الرحلة الوريثانية؛ ج ٢؛ ص ٧٠٧

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٧

فى كثرة الزرع و لا فى قتله.

و بالجملة فأهل برقة يموتون بالجوع موتا كثيرا عند أبواب الديار و إنما شأنهم معهم غلق الأبواب فترى السائل الكثير يصيح على الباب بالطعام إلى أن يموت على عتبة الدار فهلك من أجله كثير من الناس و قد خاصمتهم و قلت لهم من مات منهم فإثمه عليكم لوجوب مواساتهم بما عندكم و إن بقيتم مثلهم فإن أمر النفس فى الشرع عظيم فيخاف على بلادكم الخراب و الهلاك بسبب الصد عن هؤلاء الجياع و أما فى الطريق فلم ينصف منهم إلا الكاملان سيدى أحمد بن حمود و سيدى محمد الشريف فيركبان الصغار و يطعمان الكثير مع قلة الزاد حتى أردنا الفرقة و القسمه من شدة مواساة سيدى أحمد بن حمود لهم فرضى بالقسمه من أجل تغير الرفقة إذ قالوا ما يأكله هؤلاء العرب فتحن أولى منهم إذ نحن فى الصحراء فلا مغيث لنا إلا الله فإن انقضى ما بين أيدينا صرنا مثلهم فنفس الإنسان أولى.

نعم سلمنا الأمر له في الظاهر فلم يقع بنا إلا الخير و العافية و الحمد لله و أقمنا في مدينة ابن غازي يومين لشراء الزاد و علف الخيل و البغال غير انه غال كثيرا و أنا قد صليت الجمعة فيها مع بعض أصحابنا في مسجد العتيق و الله اعلم.

و قد دخلتها مرة أخرى في حجتى الأولى في الرجعة و كنت اجتمعت بقاضيهما سابقا فوجدته منعزلا متغيرا حاله من شأن العزل فإن ذلك من الأمر القديم فمنهم من يحب الولاية و منهم من يكرهها و أما العزل فبالاتفاق على بغضه و وجود الاغتنام عنده و أما أمر الدنيا فيحمد الله تعالى فلما اجتمعت معه و عظته و قلت له أحبك الله حيث أخرجك من النار و ولى عدوك و فى الواقع حبيب لك من حيث ناب عنك

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٨

و أحل محللك فى دار العذاب و الهوان أو كلاما هذا معناه ففهمنا عنه أنه أراد أن نقول له ترجع إلى محللك فيفرح إذ أنى أشرت له أولا بالقضاء و الله اعلم حين اجتمعت معه فى مدينة طرابلس و أقبلت على جماعة ابن غازي كالقاضى الجديد و المحب فى الله نجل الود الصديق و الخل الفاروق سيدى عبد اللطيف و جماعة من رؤسائها من أولاد الترك و غيرهم ففضلوا علينا بالضيافة الطيبة و الزرع و شىء من الزاد على قد وسعهم.

و قلت و لولا الجذب و المجاعة لأغنوا جماعتنا بما نريد لأنهم فى قوة الاعتقاد فينا و شدة حسن الظن فى جانبنا و ذلك وصف عمالة طرابلس فلما تبركوا بنا و يأتينا لمحالهم و اشترينا ما يخصنا من الزاد و العلف للخيل فطال بنا الأمر إلى أن عسعس الليل بتنا فيها. و زرت الولى الصالح و الشيخ الواضح الوحيشى و أدخلنى ولده إلى داره و قبر الشيخ هناك فزرتة و شاهدت عنده أمرا عظيما من الشهود و التجلى الذى لا يمكن التعبير عنه و اجتمعت مع الفاضل الكامل الصالح سيدى المغربى الذى استقر هناك بعد أن كان فى مدينة درنة و عليه حلاوة الإيمان و طلاوته و عليه كسوة العارفين بالله فأحسن إليه سيدى عبد اللطيف المذكور و قد أشار علينا أنا و سيدى أحمد بن حمود بأن أمركم لا يكمل عند الله إلا بعد أن تزوروا المغرب فيكمل حالكم من هناك و قد كان ذلك من بعض العارفين قبله علينا أيضا فيقع خاطر على خاطر، كما يقع الحافر على الحافر، و هو من توارد الخواطر.

نعم قال ذلك لا بد أن يكون عن عجل تتم الله لنا الفائدة بمنه و كرمه و نحن على

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٠٩

ذلك من النواوين [لأنواع الخير من] حج و جهاد و زيارة و علم و تعلم و إفادة و استفادة و أنواع الخيرات على اختلاف أصنافها و تنوع أجناسها فإن عشنا فعلنا و إلا كفتنا تلك النية كما ذكر ذلك صاحب المدخل أبو عبد الله ابن الحاج عن بعض الفضلاء المجتهدين فى إتباع آثاره صلى الله عليه و سلم و اقتفاء أحواله و قد قال صلى الله عليه و سلم يبلغ المرء بينته ما لا يبلغه بعمله و قد علمت أن حكمه الجزاء بالخلود للمؤمنين فى الجنة و بخلود الكافرين فى العذاب بالنار هو انه على حسب نية كل من المؤمن و الكافر فإن المؤمن لو بقى على الدوام فى الدنيا ما أحب أن يسلب إيمانه و كذا الكافر ما أحب أن يسلب كفره فكل منهما ينوى التأيد فيما حصل عنده فلا يبغي الانتقال عنه أصلا فجزاهم بالخلود فى المحلين على حسب نيتهم و قصدهم و بالنية تنمو الأعمال و تزكو و قد ورد عنه صلى الله عليه و سلم أن نوم العالم خير من عبادة الجاهل لما علمت أن نوم العالم صيره طاعةً بينته مثل أن ينوى الاستراحة و النشاط لتحصيل الفرائض أو النوافل و قد يجب النوم كما إذا علم من نفسه انه إن لم ينم فرط فى صلاة الصبح كما قاله الشيخ زروق بل يحرم قيام الليل على من هذا شأنه كما صرح به أيضا.

و قد حكى صاحب المدخل المذكور عن بعض الأشياخ أنه كان يتسبب فى بستانه هو و بعض تلامذته و إذا بشخص يدق على الباب فأراد التلميذ فتحه فقال له شيخه كيف نويت و ما نويت فقال نويت فتحه فقال له الشيخ أجلس ففتح له الباب ثم صار يعدد له النيات التى قام بها إلى أن بلغ نحو الثمانمائة و هو فتح إلهى و وهب صمدانى و من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين و أى فقه أعظم من هذا و أى فتح أولى منه. و قد قال صلى الله عليه و سلم كما رواه البخارى فى صحيحه إنما الأعمال بالنيات أى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧١٠

صحتها و ثوابها بالنية كذا قدره الجمهور فإذا علمت هذا علمت أن مقام العارف عوامل رفعه حسن النية و حسن تنميتها. وقد قال الشيخ السنوسي أن أدنى الأولياء أفعالهم دائرة بين الواجب و المندوب و إنما ذلك بالنية و أما الخاصة فأفعالهم كلها واجبة و ذلك ليس إلا بنذرهما فمن حصل كيفية القصد و تنميته حصل له الخير الأعظم و المقصد الأسنى و ذلك بشيخ عارف أو أخ ناصح أو مفت محقق أو بإلهام رباني و وهب رحمانى تفضل الله علينا و على ذريتنا و طلبتنا و من تعلق بنا من الأحباب به بمنه و كرمه. انعطاف و رجوع إلى ما كنا بصدده فلما بتنا مع الأحباب فى ابن غازى بكرنا صبيحة يومنا فوجدنا الركب قد ارتحل فأدر كنا آخره و ودعنا من يحبنا فيه إلى أن لحقناه فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى أجدابية و تجنبنا سلوكا و هو معطن عظيم ماؤه عذب و أباره متقنة لا- تكاد توجد فى غير هذا الموضع و أما أجدابية فكانت عمارة و آثارها باقية إلى الآن و فيها آبار متفرقة كثيرة المياه أرضها طيبة أحسن الأرضين فيها خصب و زرعها طيب لا- نظير له فيما علمت و أبارها سفح أحجار ماؤها عذب طيب سائغ شرابه فليس كماء الصحارى كأنه ماسء الجبل و العيون و تلك الأحجار التى فيها الآبار متصلبة ليست رخوة فظعنا منها إلى أو وصلنا معطن المنعل باللام و الميم ماؤه عذب جيد قل نظيره فلا تجد مثله إلا عزيزا فأقمنا فيه كما أقمنا فى غيره إذ كل معطن إلا كانت فيه الإقامة مصلحة للإبل. نعم هذا المعطن المفازة التى بعده أصعب المفازات فالمراحل بعده خمس لا ماء فيها طيب و إن وجد فى سواق أو آبار قليلة فهو زعاق حرف مر يشوى الوجوه بئس الشراب لا يصلح إلا بالإبل.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧١١

و قد استقيننا من اليهودية فلم يصلح و لو للدواب فلم تشربه و إنما تتجرعه فلا تكاد تسيغه و هذه اليهودية كانت مدينة ملكتها يهودية و كانت قرى كثيرة متقاربة فيها أثر بناء خال متراكم يدل على أنها كانت عمارة كثيرة و اشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية فى عسكرها كذا كذا من الخيل و فى الرسالة القشيرية عن بعض الفقهاء انه قال دخلت مدينة يهودية بالمغرب إلى آخر الحكاية.

ذكر أبو سالم أن تلك المدينة هى هذه إذ لا نعلم مدينة بأرض المغرب تسمى اليهودية إلا هذه و الله اعلم بحقيقة ذلك إلى أن مررنا على معطن سماه شيخنا سيدى ابن ناصر و هذه المفازة ما أصعبها من مفازة فيها الحر الكثير فإن وجد فيها النسيم فنعمة من الله إلى أن وصلنا إلى معطن الأحمر فلم ننزل به غير أن من عطش سقى منه قدر حاجته و ماؤه عذب طيب تتنعم فيه الأركاب ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى النعيم فما أحسن ماءه و أشده عذوبة و هو بارد و قل نظيره فى المياه و زال العطش و الهم و الغم عن الناس و عن دوابهم لما مر أن المفازة التى قبله أعنى الصراط صعب سلوكه فى برقة فلا تجد أحدا إلا يشتكى منها فمن لم يستعد لها من معطن المنعل هللك و الآبار بينها و بين النعيم كثيرة الوجود قليلة النفع مضررة بالناس من ملوحة مائها و مرارته و ذلك يعلم بالذوق فماء النعيم عذب فرات زلال إلا- انه لم يفعل للهواء مع برودته فظعنا منه إلى أن وصلنا معطن الزعفران بينه و بين النعيم مرحلتان و بينهما معاطن على شاطئ البحر عذبة و أرض الزعفران ربوة طيبة خصبة فقل نظيرها فى برقة منيقة زاهرة كثيرة الأنوار فى الربيع يستسحنها الناظر فمن دخلها تأنس بها تصلح للاستيطان كنت أتمناها للسكنى فلا تعلم نفس ما فى هذه الأرض من المنافع و هى رعى لمسراتة ينزلونها فى الربيع فإنها تصلح كثيرا لغنهم و مواشيهم.

حاصله كثيرا الخصب فمن هذا المعطن تشم رائحة طرابلس بل رائحة الوطن

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧١٢

فماؤه غزير عذب كثير منه م طيب سائغ شرابه فظعنا منه فمررنا بمطراو و مطرا و ماؤه غزير مستجم فيه ملوحة ميل إلى مرارة سقى المحتاج دوابه منه ثم مررنا ببئر حسان و حسان الآن اسم علم على موضع فيه مورد ماء قلما يوجد فيه ما يكفى الركب إلا فى أزمنة الخصب و كان فى الأصل اسم لعامل بعض ملوك بنى مروان بعثوه لغزو إفريقية بعد موت عقبه بن نافع أمير إفريقية و مفتحتها و

ارتداد غالب إفريقية فنزل في هذا الموضع و بنى فيه قصورا تسمى قصور حسان و كان يغير من هناك على إفريقية و أقام بذلك المحل مدة و خبره مشهور مذکور في تاريخ فتوح إفريقية ثم مررنا بالمسيد معطن برملة على يسار السبخة به ماء لا بأس به غير انه به ملوحة ثم بالريعة معطن بإزاء السبخة بساحل البحر به ماء عذب فرات طيب غزير من أعذب المياه يقرب من ماء وجدناه بالتميمي هذا و إنى تركت معطنا بعد بئر حسان و هو بئر الهويشا معلوم و هناك سبخة عظيمة مخيضة و فيها ماء ملح أجاج إلا بعض الآبار فلا بأس بمائها يعرفها الخبير و المتوطن و لا يبتكك بها مثل خبير.

ثم مررنا على قبر أبى شعيفة فزرناه و الركب مار على طريقه لبلد ولى الله باتفاق، فطب العارفين على الإطلاق، أبى العباس سيدى و مولاي أحمد زروق و انصرفت مراحل برقة التى قيل فيها على السنة العوام حرقة أو غرقه لا برقة فلاحنا لنا أعلام العمارة، و ظهرت لنا من الدنيا الأمانة، و تنادى الحجيج البشارة، هذا أول العمران قد كشف لنا أستاره، فساروا مظهرين الفرح، و مسيرين الترح، و مخفين الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧١٣

ذعرا كأنهم لم يروا العمارة دهرا، بل المفاوز سهلا و وعرا، و الدنيا يابا و قفرا، يخيل لهم أن المباني و النخيل شىء ما عرفوه، و جالت الأفكار و الأبصار فى أرجائها كأنها أمر ما ألقوه، و كأنهم نشروا، و من المقابر حشروا، و ما أسرع انقضاء سفر تنقصته الليالى و الأيام، فكيف بعمر مرت به الشهور و الأعوام، فنسأل الله حسن الختام، بالموت على الإيمان و الإسلام، و العفو و العافية على الدوام، و لما زرنا أبا شعيفة قصدنا نحو الإمام زروق.

هذا و تعداد المعائن تبعا فيها شيخنا المذكور أقول لما خرجنا من السبخة و خضناها و خرجنا من العوينات و تركناها وراءنا و قد انقضى علينا الزاد من أجل أننا آثرنا عرب برقة بالإطعام إيتارا قويا لكن من يعرف الله منا اعتمد على الله و توكل عليه و قد علمت أن من توكل على الله فهو حسبه أن اله هو الرزاق ذو القوة المتين.

تتبع المشائخ وجدنا الفاضل الكامل العالم العلامة الفقيه الفهامة محبنا و غاية و دنا أخانا فى الله و قد لقناه شيئا من أوراد أشياخنا رضى الله عنهم و نفعنا بهم و أفاض علينا من بركاتهم بمنه و كرمه سيدى محمد بن عامر مع الآخر فى الله و المحب من أجله الحاج إبراهيم الشريف من شرفاء مسراته ينتظروننا نحو اليومين لأنهم خرجوا بحسب عد المنازل من مدينة ابن غازى و مراحلنا فلم يعد ذلك العدد فينا لأن مشينا أقل من ذلك و ضعف الإبل و هزالها و بعض الإقامة على المعائن استراحة و نشاطا للإبل و معهم جماعة من المحبين من مسراته من الشرفاء و غيرهم بالطعام و اللحم أعنى و الخبز و نوعا آخر يسمى عندنا بالفطير و عند بعض الناس يسمى بالسمن و التمر الجديد بان حملوا و الله اعلم على الإبل فلما لقيناهم فرحنا بهم اشد الفرح من أجل المودة فى الله و الحب من أجله وجدونا على الجوع و غايته فأتوا إلينا بالخبز و اللحم عند وقت الغداء

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧١٤

فاجتمع أصحاب الجميع سيدى أحمد بن حمود و سيدى عبد الكريم و سيدى محمد اليعلاوى و سيدى أحمد بن أبى القاسم و المؤلف لهذه الرحلة و أصحاب الجميع و سيدى محمد الشريف الطرابلسى و أصحابه فلما أكلنا و أكل من الركب من مر علينا و عند الليل قسموا ما حملوه بيننا و بين سيدى محمد الشريف و هو كثير جدا ففرقناه على أهل الركب فكل أخذ نصيبه و أما نحن و سيدى عبد الله بن رحاب فقد عمدنا خيرهم جعل الله البركة فيهم و فى ذريتهم إلى يوم القيامة آمين و كان لنا و لهم بالغنى الظاهر و الباطن و زوال الحجاب من رب الأرباب اللهم لا تجعل فيهم فقير دين و دنيا بمنك و كرمك.

فذهبنا كذلك إلى أن نزلنا فى محل بعيد من الشيخ زروق غرانه قبالة قبره فبدأنا بزيارته قبل الزوال فلما استشفينا منه علينا و أبردنا منه غليلنا جعلنا الله فى زمرة و زمرة أولياء الله تعالى و كان لنا و لذريتنا و قرابتنا و إخواننا فى الله و طلبتنا مغثا شفيعا و ليا نصيرا و ردع به أعداءنا بمنه و كرمه و قد استضافنا الأشراف بمحالهم و كذا غيرهم و أما من أتى بالطعام و التمر للخيمة فلا يعد و لا يحصى لأن أعباءنا فى مسراته من الطلبة و العلماء و الفقراء و الحجاج و الشرفاء و آغة الصبايحية ممن له مشيخة فى مسراته اللهم عمر مسراته

و كثر خيرها و رخص أسعارها و أمن أرضها و أحفظها من كل طارق يطرقها إلا طارق خير و أهد و لاتها و أرحم بهم الضعفاء بأن يكونوا رحمة لأنفسهم و للأمة المحمدية غيرهم و كن اللهم لهم على من ظلمهم و لا تكن عليهم يا أرحم الراحمين يا رب العالمين و أمن علينا و عليهم بالنصر و العز و الرفعة و العفر و العافية و البركة و المنة في الأزواج و الذرية و الأموال و الرأي و الاستقامة و دوام العماره و أتباع السنة المحمدية و أحفظ وطنهم من المجاعة آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧١٥

و مررنا على أخينا في الله سيدى الحاج أحمد و دخلنا بيته حين ظعنا من الشيخ زروق و استضافنا و أحسن إلينا و هو قد حج معنا و كذا محل سيدى محمد بن عامر و دخلنا مسجده الذى بناه جديدا و أحسن بناءه تقبله الله منه و أثابه على قدر نيته و حمدنا الله له و دعونا له بالعمارة بالعلم و العمل و الدين و إظهار الشعائر الإسلامية فيه و توفية الحقوق الإلهية و الآدمية من غير مشقة و لا كلفة و أن يغنيه و ذريته و معينه غنى لا يتبعه فقر أبدا بمحمد و آله و قطب الزمان و حزبه.

حاصله أقمنا فيه بيومين فلما لم يحصل لى المقصود من الشيخ زروق ذهبت إليه فى الليل ليكمل المرغوب و لعل الله أن يتم لنا المطلوب فأحسن إلينا و كيله أحسن الله إليه ثم ظعنا منه فودعنا من ودعنا من الأحباب فما أصعب منه أى من الفراق إذ لو نعطى الخيار لما افترقنا و لكن لا خيار مع الزمان فلم أعلم مصيبة أعظم من مفارقة الأحباب و الإخوان و الخلان و الأصحاب فبتنا قرب ساحل حامد مبيت خير و عافية ثم ظعنا منه صبيحة فأشرفنا على وطن الساحل فلما دخلنا البدل و إذا برجل من معارف سيدى محمد الشريف لقينا بخبز و لحم و تمر جديد كثير الله خيره و أحسن إليه بمنه فعرضناه فى الطريق فكل من مر من الحجاج إلا أكل و شبع و ربما تزود فعم الخير كل الناس و الناس فى زيارة الحجيج كثيرين أفواجا بعد أفواجا.

و عماله طرابلس أهل اعتقاد و محبة فأتانا الفاضل الكامل الفيه النبيه المحب سيدى سالم الفطيسى و إخوانه و جماعته يريدون الزيارة و التماس الخير منا فعزم علينا و على الفضلاء أصحابنا سيدى محمد الشريف إلى بيته رغبة و اغتاما للبركة و معنا جماعة من رؤساء الركب و فضلائه فأنزلنا فى غرفة مقدما شيئا من الرطب و الطعام

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧١٦

الخفيف كما هو السنة و اللبن فلما وفينا ذلك مع حصول المقصود و سألناه الذهاب فقال حتى يتعدى جمعكم فألح علينا فلما علمنا قصده و قوة رغبته وافقناه على غرضه فانتظرناه إلى حصول مقصوده و تمام مطلوبه و هو لا بأس به فى العلوم لا سيما مسائل الفقه و بعض مسائل النحو حاصله أنه عالم فاضل فففيه أخذ من كل فن بنصيب بل وجدنا فيه أكثر من الظن فلما حصل المقصود دعونا الله لهم و لإخوانهم و لأحبابهم و لذريتهم أحسن الله إليهم و جزاهم عنا و عن المسلمين خيرا.

ثم زرنا القطب الصالح و الغوث الواضح الشيخ عبد السلام الأسمر فانه مجاب الدعوة و قبره روضه و حريمه لا يتعدى عليه أحد فمن وصل إليه سلم و نجا أفاض الله علينا من نجاته و قد رغبنا عنده فدعونا الله لنا و لأقربنا و المسلمين و المسلمات ثم انفصلنا عنه سوية لقينا رجل أظنه من أهل الوقت و من أهل التصريف ثم لحقنا الركب نازلا على أطراف البلد فأتى إلينا جمع من طلبه العلم كالعلامة الفقيه ولد الشيخ سيدى سالم غير المذكور و قد اجتمعت معه فى الحجة الثانية و معه فضلاء و علماء فتكلموا معنا فى العلم بحسب ملكتهم و قوة بحثهم رضى الله عنهم و أراضاهم و كذلك من سبق ممن اجتمع معنا فعلماء طرابلس النحو فيهم القطر و شراحه و حواشيه تقل فيهم الألفية و شراحيها و كذا يقل معهم المختصر و أما التوحيد فقليل الوجود فلا تجد من يحققه من مصر إلى وطننا هذا و ما اشتغال مصر إلا بعلم المنطق أما طرابلس و عمالتها فقد ضاقت على أهلها المعيشة و ما هى إلا بالكد و الجد و السعى الكثير و مع ذلك فلا يستقرون على طائل فقد انعدم التدريس للعلم فى طرابلس و قل الاشتغال بالعلم رأسا فلا تجد مجلسا فيه و كيف يتصور العلم فيها مع أن علماءها أفضل علماء الأوطان غير أنه لما انعدم التدريس منهم صاروا قاصرين لعدم أنفاق العلم فإن العلم يزيد بالإنفاق و ينقص بعدمه فلما ضعف أمر البلاد قصر العلم بل كاد أن ينعدم العلم رأسا و من أراد العلم فليذهب إلى مصر و إلى تونس

أو إلى جربة مدرسة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧١٧

الشيخ البركة سيدى إبراهيم الجمنى فعلماؤها كثيرون غير أنك لا تجد مدرسا فى العلم حتى يموت غيره وذلك أن ملوكها ليس لهم رغبة فيه أو أنهم لا وسع عندهم حالهم حال وطنهم و إلا فلم أجد وطنا مثلهم فى الفهم والإقبال على الله و كذا فيهم الأسرار النبوية و الأنوار المحمدية.

ثم ظعنا منه و مرنا بساحل حامد بعد أن ظعنا من زليتن وطن الشيخ عبد السلام و زرنا قبر العالم الفاضل المؤلف الصالح المشهور سيدى الشيخ ابن عبد الصادق و قد رأيت تأليفه ما أحسنها و قد حررها أحسن تحرير و أتم تقرير و قد شرح ابن عاشر شرحا معتبرا يكاد أن يكون يغنى و قد وضع كتابا فى بيان البدع و الرد على أهلها من عصره يكاد أن يكون المدخل فقد أحسن فيه إذ بين السنة و أظهرها و بين البدعة و أحمدها و كذا جعل شرحا على العزية أى على النظم الذى احتوى عليها فقد نظمها بعض أصحابه و ما أحسنه من نظم فشرح هذا النظم و لما بلغنا محله بالغ فى إكرامنا أولاده و جيرانه و ما تركت زيارة هذا الشيخ و لا مقامه غير أن أولاده يتكلفون ضيافتنا و ربما زادوا العلف لدواننا ثم انفصلنا عن محله و صار يودعنا أولاده جعل الله البركة القوية و الوسع و الغنى و العلم و العمل فى ذلك المحل إلى قيام الساعة بمنه و كرمه رضى الله عنهم و أرضاهم.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى الجبل فبتنا فيه و كان يطعم بعض المرابطين فيه العصيدة و هو مشهور بها و قد لقبوا بها فلم أرهم فى هذه الحجة و إنما رأيتهم فى الحجة الأولى و هما شيخان عظيمان مسنان فى الإسلام فوجدنا عندهما عصيدة باللحم فأكل منها جميع الحجيج تبركا بهم فلما وصلت إليهما نظرا فى وجهى و نحن فى الطلعة فقال أحدهما للأخر هذا يقعد فى مصر و يتعلم و ذلك الذى فى قلبى و قال الآخر يرجع

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧١٨

و ينتفع به المسلمون فانه قد ورث سر سيدى عبد الرحمن أقطال أعنى المجدوب فوجدت سر الله فيهما و نحن لم يصلنا خبر موته غير انه مات تلك السنة فى مصر بعد رجوعه من الحج و دفن فيها و أما القبر الذى فى تونس فقبر ثان فسموه بذى القبرين و لا يبعد حاله ممن هذا وصفه إذ لو كان ما روى عنه ذلك حال حياته لكان ما فعلوه مساعدا أو أنه وجد فى القبر الذى فى تونس فيها و نعمت و هو له قبول تام عند الناس و بركة عظيمة مجاب الدعوة لا سيما فى دعاء الشر فانه مجرب يحصد الناس حصدا و قد اجتمعت به فى صغرى و بعد و كان يحبنى كثيرا و قد دعا لى بالخير.

و مما أعجبنى مما سمعته انه قدم إلى مسجدنا فى حياة أبى و بات فى المسجد و بت معه و لم يأكل طعام أحد إلا طعامنا و نمت معه إلى الصبح و هو مستلقى على ظهره فلم يرجع لسانه عن الذكر إلى أن طلع الفجر بات طريا من غير نوم إلى الصبح فلم يفت عن ذكر الله تعالى و كان صاعقة الظلام و المحرومين و انه عزم عليه شخص و هو معلمنا فى القرآن سيدى يوسف بن بشران هو و الولي الصالح سيدى على الصافى فلما بلغنا إلى داره وجدنا مائدة من النوع الذى يسمى المحمصه فأكلت أنا معه و أما سيدى على الصافى فصائم و أن الشيخ المذكور جعل السمن الكثير فى القصعة فقال له الشيخ سيدى عبد الرحمن ما عندك من المعز أو الضأن فقال له اثنتان ليس إلا و كلام الشيخ عليه حلاوة و طلاوة فقال هذا الشىء فى حقك كثير بل واحدة تكفى فقلت له يا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧١٩

سيدى عبد الرحمن ما اشد كثرة المال عندك لا سيما الذهب و الفضة و آله الحرب فقال و الله الذى كان عندى لم يكن عند سلطان الجزائر فقال و الله يا بنى أن الفتوحات و المنح لتأتى إلى من بلاد النصارى فان بعضهم لما أسرت شاهد منى أمرا عظيما و قد انعدم عنده الذكور فجعل لى فتحا كذا و كذا دينارا على انه إن ولد له ذكر ففتح الله له بالذكور فقلت له فلم تركى مالك فقال بنفس وصوله إلى أعطيه لأخى و لأولاده فلا زكاة على فقلت له هذا لا ينجيك من حق الله الذى أوجه الله عليكم فقال لا ملك لى حتى

تجب على فقلت له أن رأيتهم منعوا الزكاة فلا تزد لهم شيئاً فسكت عنى إذ كنت بحاثاً.

نعم و كل ذلك من الوهب الرباني و المنح الفرداني ثم أنى تعجبت من مقالته الأولى التي قالها للمعلم فأنا حملت كلامه على ظاهره من استعظامه ملكه اثنتين من المعز أو الضأن ثم بعد ذلك قلت فى نفسى أن كلام أهل الله لا يفهمه إلا ذوهه على أنى فتح لى أن استعظام الشيخ ملك الاثنتين ليس على ظاهره إنما هو الدنيا و الآخرة فالجمع بينهما أمر كثير لا يليق بالمعلم المذكور و لذا قال واحدة تكفى يعنى الآخرة و إن كان لا بد فالآخرة أولى جعلنا الله من أهلها.

أقول أيضاً و قد اجتمعت معه فى بجاية و كان يلازمها فى رمضان و هى رباط و زيارة فمررت عليه و وجدته فى حانوت الجفاف و إذا فالحلاق يحلق شعر رأسه فلما فرغ قبل الحلاق رأسه و سأله الدعاء ثم سألته الدعاء أيضاً فقال لى أنت الذى تقرئ الطلبة هنا فى رمضان فقال لى خذ هذه الرسالة أسردها على و كان أمياً لا يقرأ و لا يكتب و إنما فيض إلهى فاض عليه فإن الله لا يتخذ لياً إلا و علمه فلما قرأتها وجدت فيها أن فلانا قد بعث لك خمسمائة رطل من قطران لسفينتك التى استعدادتها للجهد و الغنائم فقال فى الجواب اللهم اسق القطران له و شبعه منه فتعجبت من كلامه فقلت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٢٠

له أنه أعطاك و سألت له القطران فقال لى هذا جزاؤه فأعرضت عنه و ذهبت و تعجبت من كلامه.

نعم فهمته على ظاهره ثم قلت فى نفسى هذا سر من أسرار الله تعالى فلا يليق حمل كلامه على مقتضى الظاهر ففتح لى بعد ذلك أن المراد بالقطران الدنيا فكأنه قال اللهم شبعه منها حتى تتسع اتساعاً يليق بمثله و لذا قال جزاؤه على أنى رأيت عم أبى المقبل على الله بشراشة و كان يحبنى فى صغرى و يتوسم فى الخير العظيم و لم يمت حتى رأى النبى صلى الله عليه و سلم مراراً فقال لى أن الله أورتك سر هذا السيد فقلت له و كذا ماله فقال لا فهمت أن كل من كان من آله صلى الله عليه و سلم يرزق كفافاً لا وسعاً و مال هذا السيد يكاد أن يكون مال عبد الرحمن بن عوف لأنه من الفيض و ليس بكسبى أصلاً فأسأل عن ذلك عالماً بحقيقته أمره و لا بنبيك مثل خبير.

انعطاف و رجوع إلى ما كنا بصدده فإنه لما ظعننا من الجبل فارقنا الركب فى جماعة من الفضلاء و ثلاثة من العلماء و غيرهم من الشرفاء فتوجهنا نحو مسلاتة و هو وطن مشتمل على قرى كثيرة متفرقة و على زيتون عظيم لا تكاد تكون بلدة مثله فيه و زيتونه كثير الشجر عظيم الخلق و عند كل شجرة حفرة عظيمة يجتمع فيها الماء فى الشتاء ليشرب منه و ما ذهب بنا إليه إلا أخونا فى الله سيدى محمد الشريف فإن ملكه هناك و دار نزوله هناك فى إبانة و له معصرة أيضاً فيه و كذا إخوانه الشرفاء النوفليون لهم أملاك هناك و كذلك أولاد بلغيث الشريف و أما سكناهم ففى المنشية التى هى خارج باب مدينة طرابلس فوصلنا إلى هذه البلدة عند الزوال أو قربه بسويغات و بتنا فيها خير مبيت و إنهم أكرمونا غاية الإكرام فلما أصبحنا بخير الصباح انفصلنا عنهم مع شكرهم و حمد صنيعهم عمرهم الله إلى يوم القيامة فذهبوا معنا مدة ثم رجعوا عنا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٢١

فرحين مسرورين بمبيتنا عندهم.

فسرنا كذلك إلى أن وصلنا محل اجتماع الطرق أعنى طريق الركب و الطريق التى تأتى من مسلاتة فوجدنا الركب قد سبق إلى وادى الرمل فلاقانا أخوان سيدى احمد الشريف أعنى عمه و ابنه و جميع إخوانه و أولاد أعمامه بتمر جديد و لحم و خبز و أظن معهم كعك و ذلك طعام كثير فلحقنا بالركب عند نزوله فنزلنا منفردين نحن و إخواننا جماعة الطرابلسية ففرقوا الطعام لجميع الأحباب، و ناولوه عامة الأصحاب، و أكرمونا غاية الإكرام، و سعوا إلينا بشوق و احترام، و بتنا فى ذلك المحل مع جماعة كثيرة فلما أصبح الله بخير الصباح، تسابقت الناس للفلاح و النجاح، ما أحسنها من غدوة زهرة اللقاح، فاستوبنا على ظهور الخيل بسرور من الصدر و جذل و انشراح، ترى الأفواج من الأحباب، و المشتاقين من الأصحاب، المرة بعد المرة يتركون بالحجيج راغبين الدعاء بالغفران، و الرضى

من الرحيم الرحمان، فسكنت قلوبنا بعد اضطرابها، و فرج عليها بعد اكترابها.

و سرنا كذلك إلى أن أشرفنا على تاجوراء فخرجت الأفواج يتلقون الركب و يرغبون الدعاء كما سبق غير أن مطلوب الجميع السؤال عنا و الرغبة فيما عندنا إذ لنا عندهم حظ وافر و رجوعنا لهم بشاره و سرور فلقينا جميع طلبة العلم من مدرسة الشيخ الفاضل، المدرس المحقق الكامل، لأنه في تاجوراء نبراس، سيدي محمد النعاس، و قد أدركته في الحجة الأولى و زرتة في مقامه، و سمعت شيئا من كلامه، و كان فقيها مسنا في الإسلام نرغب منه الدعاء، و نطلب منه الحوائج و اللقاء، بسط الله علينا و على إخوانه و ذريته رداء ستره، و رحمتنا و آياه في رسمنا و رسمه و قبره، و كان ابن أخيه هو المدرس و هو ممن يحبنا و يرغب فينا و كذا ولد الشيخ فسألت عنه فقيل لي انه مريض و هو راغب في رؤيتنا و ما معنى من الوصول إلى المدرسة إلا كثرة الخلق إذ لا يسعهم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٢

إلا قدرة الكريم و رحمة الرحيم فلقينا الفاضل المحب و الكامل المقرب المفتى سيدي محمد بن المقييل و هو ممن يبالي في إكرامنا أكرمه الله و أحسن إليه، و أمنه من كل فرع و رعب لديه، و سيرته معنا كسيرة أسلافه مع شيخنا سيدي أحمد ابن ناصر فانه لا يعز شيئا في جانبنا بل جانبنا أقوى من نفسه و أولى من روحه مع جماعة من طلبة العلم و الشرفاء و العامة و الخاصة لا سيما رؤساء حضرة طرابلس لا سيما العلامة المحقق و الفهامة المدقق سيدي محمد بن العالم على الإطلاق و الفاضل الورع بالاتفاق سيدي محمد العربي الفرجاني الشريف.

حاصله و هذه خلاصة طرابلس و خاصة حضرتها و كذا أولاد الشيخ الولي الصالح و البحر الطافح سيدي الصيد نفعنا الله به و أفاض علينا من بركاته قبل وصولنا إلى تاجوراء و أن شيخ الركب أيضا كان قريبا لهم قرب رحم لتقرر النسب بينهم و ثبوت الود لديه فكانوا معه ذهابا و إيابا و ذلك ديدان إسلافه و شأن أجداده مع أسلاف الشيخ أمير الركب و ان ركب مدوكال لا ينزل إلا في هنشير الشيخ فرحب كرمهم و عرصه إطعامهم أوسع من فناء أرضهم (بكسر الفاء) و هذا مشهور لدى الخاصة و العامة غير أن الدنيا كادت أن تقل عندهم فلم يبق إلا رفع همهم و علو منازلهم فجمحت أنفسهم أن ترى بغير كرم و عزت أن تعلم بغير سخاوة زادهم الله رفعة و قدرا و جاها و هداهم و وفقهم إلى أهدي سنن و أعز طريق بمنه و كرمه.

ثم لما توجهنا إلى آخر تاجوراء زرنا المحب في الله و الأخ من أجله كريم النفس رحيم الغريب ذا الفضائل و الفواضل فان عوامل رفعة دائمة العمل، و بناء جوده راسخ في الكمل، و كذا عوامل جزمه في الحب و حسن الظن و الاعتقاد في الفعل المضارع و المشابه في التخلق و التعلق بالسكون و الطمأنينة لله تعالى لا تتحول و لا تتبدل، سيدي عبد الحفيظ نجل الشيخ سيدي الصيد المذكور لأنه جده و قد سبق الود

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٣

بيننا في الحجة الأولى و الثانية و هو زائد الإكرام لدينا حتى كاد أن يسلم أهله في جانبنا غير انه الآن كبر سنه و وهن عظمه و قربت منيته فتارة يغشى عليه و تارة ينتبه و قد ثقل سمعه و ضعف بصره و انقطعت مادته و هو ملقى على الفراش، و ربما أصابه التحرك و الارتعاش.

نعم الآن قوى عند الله حظه و علت مرتبته، و عظمت رفعتة، بلا قدح و لا انتقاش و ما أعلى رفعتة و أعلى منزلته بموت ولده سيدي علي ظلما و عدوانا فعز عليه الصبر، و أحنى عليه الكبر، فعظمت مصيبة ابنه، و ثمرة كبده و قره عينه، فليس ينسأه على الدوام، إذ يكثر فيه اللهج و هو سبب في الاغتمام، فلم يكن يخدم عليه، و يجري بين يديه، إلا حفيده ولد بنته و لا شك أنه قريب عند الله رحيم الأمة ما دام فيهم مجاب الدعوة سريع الإجابة و قد ثبت العهد بيننا و بينه فله الفضل و المنه فسألنا الدعاء منه و أخبروه بان هذا فلان قد أقبل من الحج ففرح و سر، و مسك على يدي و كر، فانهمرت عينه فعند ذلك كثر الدعاء منه و بها قد در، إلى أن أشفينا علينا منه و أبردنا غليلنا لديه فعلمنا أن نصيبنا من الله وافر، و حظنا لديه من الخير حاضر، و سعدنا نحوه سابق ظاهر، ثم انفصلنا من عنده، و قلوبنا

ملتفتة لديه، ما أصعب الفراق، فإن ناره أشد من نار الاحتراق.

هذا و أن الخلق قد فاض علينا، و كثر لدينا، فغاب علينا من نعرفه و التبس لدينا الفاضل من المفضول فجدير أن من قصد الركب راغبا هو منهم إذ مقصود الجميع سؤال المغفرة لهم و لجميع الأمة رضى الله عنهم فما استقر بنا الحال ذهبت أنا و جماعة الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٤

من الفضلاء و نزلنا في دار الأخ في الله سيدى محمد المذكور فأقبل علينا الناس بالبشرى لقدومهم و لقدومنا و أما أصحابنا فقد نزلوا تلك الليلة مع الركب و بعد ذلك أتى بهم إلى داره بخيولهم و إبلهم و أقام بجمعنا أكلا و شربا و علفا بل تكرم على الجميع غاية الإكرام، و اهتم بأمرنا غاية الاهتمام، فليس إلا الكسكس و اللحم صباحا و مساء و مع ذلك أن الطعام كاد أن لا يشتري من كثرة غلائه فترى الناس سكارى و ما هم بسكارى و لكن القحط غمهم و غشيهم ما غشيهم من الجوع.

نعم دخلنا في وقت جذاذ التمر فكثرت أنواع نعمه علينا فان النفس أخذت ما تشتهي من الرطب و البلح و التمر و الرمان الجيد و الخبز الطرى و اللحم و السمن و أنواع الفواكه و المياه الباردة فشاركنا الله على نعمه و سألناه أن يمن على أهلها بها على الدوام بفضله و كرمه و ذلك كله بفرح و سرور.

و مع ذلك أن السلطان الأفخم، و الأمير الأعظم، محب الصالحين، و العلماء العاملين، صغير السن، كبير الشأن كثير المن، السيد على باشا قدم في الولاية على أقرانه، بفضل الله و امتنانه، فهلك أعداؤه من غير حرب و لا قتال من أعوانه، و إنما كيدهم رجع عليهم فأهل الله عروته الوثقى، و أنهم جنه له و بهم الاستسقاء و بهم سعد في المعالى و ارتقى، أمدنا بطعام و ما ينوب الجميع من أدام و علف فلم يرض أخونا سيدى محمد أن يكون طعاما لنا و إنما أطعمنا من عنده و أمدنا بمدى رعايا للحلال إذ هو رجل أروع الناس، و أثبتهم للباس، صادق في المعاملات، خال من الشبهات، محافظ للأوقات، راع للميقات، فى جميع أحواله، و سكونه و انتقاله، و كفه و اشتغاله، و لا حرث إلا منقى، و لا زكاة عليه تبقى، و لا مطعم له فى أحد غربا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٥

و شرقا، يدق فى الإخلاص، و يراعى مراتب أهل الاختصاص، فيحق به الاقتداء، و يعتبر فى الإرشاد و الاهتداء، و يسد باب الخلق إدبارا و إقبالا و مدحا و ذما عليه سدا، يختار للصحبة أهل الحق و من ينهض حاله، و يدل على الله مقاله، جدا و اجتهادا، فما أحسنه خلعة و صداقة و صحبة و ودا، و رعاية و اعتبارا و ودا، غير أن من لا يعلمه، و ليس على الحقيقة يفهمه، يظن ضد ما ذكرناه فيه و يصد عنه صدا، و ربما طغى لسانه، و تدلى عنانه، و قال ما سولت له نفسه و هدما عليه من الصدق و التصديق بناؤه بسوء طويته و قبح ظنه و قوة حسده هدا، رضى الله عنه و قد اطعم كثيرا عند وصوله نحو السبعين مائدة من العيش كل مائدة تطعم كيت و كيت من الناس، و خيره ظاهر بلا التباس، يحصل منه بلا مشقة و لا كلفة و لا بأس، و ربما من رأى ظاهره من انقباضه و عدم بسطه و إقباله قال بكون بخيلا، و ترى الجبال تحسبها جامدة و هى تمر مر السحاب و إنما هو كريم النفس تنزلا و تنقلا، غير انه يختار لإحسانه أصلا و فرعا و حالا و مالا، و علما و عملا و ورعا و هيبه و إجلالا، فما أدقه فى الباطن، و أعرفه بالكمائت، و أعلمه بالوقائع و الضغائن، فنعم الرجل من يعتمد عليه، فيسلك و ينتهى إليه، إذ هو حى دائما، متيقظا فاهما، لا يأمن النفس فى مرعاها، يحق له التحقيق، و لا يسلك إلا أحسن طريق، فنمطه بين، و أخذه سهل لين، يكبر على المتكبرين، و يعلو على المتجبرين، و هو عبد للمتواضعين، و خديم لأهل الصدق و الحق و التمكين، يرفع نعالهم، و يبلغ مأمولهم و يجبر عليهم، و لأهل الحيرة و الريب دليلهم، ليته ظهر للخلق بحقيقة ما عليه، و ينجلي وصفه بين العامة من خلق الله فى أرضه و سمائه، قد خفى بوصف الله، و ظهر بنور الله، عزيز فى الوجود، و نظيره فى الخلائق مفقود، أحمد الله على معرفته، و أشكره أن جعلنا من أهل مودته، فليس يملك معنا شيئا بل يقدم نفوس الأخوان، عند الحاجة و الاضطرار بلا امتنان، فلا يمن فعله، و لا يكثر لهجه و قوله، فقله حق، و كلامه صدق، تقصر العبارة عن كماله بالنطق، حاله أحوال الصديقين،

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٤

و نعتة نعوت المتقين، أدام الله أشراقه، و أدام إنفاقه، و أعز صعوده، و أرتقاءه، و جعل البركة في ذريته على الدوام، و أناله ما نال أبوهم بلا كد و اهتمام، و إنما هو فضل من الله و رحمة مع إكرام و احترام، بمنه و كرمه.

أقول لما نزلنا في دار سيدي محمد الشريف النوفلي البلغثي و كانت ثيابي رثة، بالية الجثة، متوسخة الأطراف، أضناها السفر و عدم التبدل فيها و الاختلاف، أتى إلينا المحقق الفاضل، و الأخ الكامل، سخي النفس، صادق عند الضرر و البأس، الموفى بالعهود، و نظيره في الناس غير موجود، الأديب على الإطلاق، المحب بالاتفاق، مفتي الأنام، المبدىء بالإحسان و السلام، فإذا أحسن أغنى، النخبة المختار الأسنى، فليس يرجع في وداده، فأن رأى مجبا تقوى له في استعداده، فإن لم يصبه و أبله فطل من أمداده، و كذا أبوه و أجداده فهم رجب الكرام، و دار إحسان لأهل الإسلام، محلهم لأهل الله دار راحة و مقيل، السيد الشيخ محمد بن مقيل، كسانى ثياب جديدة حائكا جديدا و قميصا كذلك و بشماقا و قلنسوة كساه الله و أولاده كسوة العارفين بالله تعالى و أدام علينا و عليهم ستره و حلانا و إياهم بحلية أهل الإنابة من المتقين، ثم اعتنى بنا بالإحسان، وجد في أمورنا بالفعل و اللسان، دائما لا يغيب عنا، و على الدوام يدور بنا، دوران الخديم بالسادات، مكنه الله و إيانا مع ذرية الجميع من أعلى الدرجات، فإن احتجنا شيئا و كان في دراه أعطاه، و إلا فمن السوق سأل عنه و اشتراه، فلا يبخل بالطعام، و لا يغمم بكثرة المجتمعين من الأنام، واسع الموائد، كثير الفوائد، كريم بما تشتهى النفوس، و تلذبه الأرواح من المعانى و المحسوس، مادة الكتاب عنده في كل علم لا تعد و لا تحصى و من أجل ذا و قوة هذا أهله رؤوس، فكل فن إلا- و فيه عدة من الكتب متكررة، تراها تمتد لك المرة بعد المرة، جعل الله داره مرسى، و حياة لكل علم و سنة تنسى، إذ إنهم قرى للضعيف، و نزل لابن السبيل و الضعيف، فيميزون بين الوضيع و الشريف، لا- قطع الله عنهم مادة الصيف و الخريف، دائما له و لذريته من غير

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٧

مشقة و لا تكليف، و كذا الربيع و الشتاء بلا تكييف، و هل جزاء الإحسان إلا الإحسان من الله عليهم بالفضل و الرحمة بلا سبب و لا جد و لا- كد و لا- سيف، و كذا كان أبوه معى في الحجة الأولى، أغنى الله أولاده في الآخرة و الأولى، فهم جنه للغرباء، رحمة للأقرباء، و جنه (بضم الجيم أى وقاية) لأهل الخوف و الرعب وقانا الله و إياهم من أوصاف أهل سبأ، فإذا بتنا في داره جمع الخاصة من العلماء و الفضلاء و الأدباء و الأساتيد القراء، يكرم نزولهم، و يتفضل بالإحسان لديهم قاصدا حصول البركة منا لهم، و إزالة الوحشة عنا بهم، و حصول المدد لنا بسبب معرفتهم، و قوة انفعالنا بكيفية اجتماعهم، فإنهم كنوز تستعد لضرورة الأحوال، و تمتد عند الاضطراب بالنوال، فربما زال عنا النوم في تلك الليلة رأسا بإلقاء الفوائد بالحكم النبوية، و الفوائد النقلية، و الإفهام الوهية، و العلوم اللدنية، و الأشعار الأدبية، و الحكايات السنية، و القصص الماضية، فيزهر المجلس بالأنوار، و كيف لا و هى روضة من المقربين الكامل و الأخيار، تدور به كؤوس العاشقين، و نفائس أهل المحبة من المتقين، و حلل المعانى و الأذواق من ثياب العارفين، و لو تراها تقول هى جنه عدن يغشاها روح و ريحان، و قد قال صلى الله عليه و سلم لا سمر إلا بالعلم و المسامرة التحدث بعد العشاء بالعلم و الفهوم، و الاعتناء بالعبودية بالذكر و القيام و التهجد لله الحى القيوم، فدام إحسانه معنا، و ارتقى به أحوالنا، كان الله لنا و له بالإسعاد، و من علينا و عليه بالإمداد، بفضل الله الوهاب الجواد.

و قد تزين مجلسنا بوجود الفاضل الكامل، و العبرى الهمام الكامل، نبراس وطنه، و فريد عصره، و حيد فى وقته، و روع فى حاله، زاهد فى ماله، رقيب لأجله، فإذا تكلم أغرب، و بين و أعرب، لا- نظير له فى زمانه، متمكنا فى المعالى فى أوانه، طريقة الصفاء، و عهوده بالوفاء، فلا ينعكس أبدا، و لا ينتكس سرمداء، علمه بالميزان، و مجلسه بالأمان، فلا يلزم و لا يغمز بالهوان، يشم من الحقيقة، و يرتوى بالشرية، فلا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٨

يتبحر في إحداهما، ولا يتجاسر على أهلها، حسن الاعتقاد، خال عن البحث والانتقاد، ينطق بالحسن والجمال، ويغض عن العيوب والسؤال، ريحانة العارفين، ويسلك مناهج المتقين، فابن أبي جمرة وصاحب المدخل ديانتته، والقرآن والسنة هدايته، فلا يعلو عن أهل الهدى، ويتكبر عن أهل الاعتداء، وإن خالطهم فعلى طرف اللثام، وليس بجذو وعتاء واهتمام، وإنما هي جنه لعرضه، ووقاية عن شره، وضره يصرفه لمن يشاء يكاد سنا برقه، فلا يزعم إذا تحدث، فيوفى بالعهد ولا ينكث، منور السريره، قوى البصيره، عقله وافر كامل، وهو حافظ وناقل، لا يخلو عن حكمه وفائده، ولا عن منه وعائده، يراعى الإخوان، ولا يسرع بالهوان، ولذا لا ينكر الإحسان، ولا ينقطع عن السنه والاستنان، دائم الفكره، قوى العبره، حسن العبارة، يقنع بما وجد، ولا يختل إذا فقد، فيشكر الأنعام، ويرضى بضده بما يصيبه من الآلام، منذ عرفته يزداد لدى وداده، ويصعب على ابتعاده، ما أحسنه وأطفه، وأرحمه وأرفه، تقصر العبارة عن أوصافه، إذ الكرم والجود في معدن أسلافه، شريف النسب، قوى الأدب، السيد النوراني، الشيخ محمد العربي الفرجاني، أعز الله رفعتة، وأدام نعمته، وأنفذ في الحق كلمته، ونفع به أمتة، رضى الله عنه وأمد بالعلم ذريته، وأحسن في الحق سيرته.

نعم اجتماعنا رحمته، وافتراقنا عذاب ونقمته، جمع الله بيننا في الجنة مع النظر إلى وجهه الكريم. وقد اجتمعنا أيضا بالفاضل، والعالم الكامل، والسيد الجليل، والفقير النبيل، ذى الإرادة والأوراد، والعدة والاستعداد، وذلك موروث عن الآباء والأجداد، الشيخ النوراني، والمحقق الصمداني، والسيد الفرداني، الشيخ محمد السوداني، كان الله له دينا ودنيا بمنه وكرمه.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٢٩

وكذا اجتماعنا بمن له حلاوة في اللسان، الموصوف بالحفظ والإتقان، المشتغل دائما بتفسير القرآن، فريده الأوان، وعائده الزمان، العالم النوراني، السيد محمد الصكلائي، كما اجتمعنا معه قبل وكذا من أصحابنا، وقره أعيننا وثمره فؤادنا، ومن على الله وعليه اعتمادنا، المحب على الدوام، خير زماننا من الأنام، الفاضل الرباني، الصدوق النوراني، الود والخل والفاني، عن نفسه وعن كليه أحواله في حب المناني، الذي هو جنتي وحرزي، سيدى محمد بن الشيخ البركة المعزى.

وكذا اجتمعنا مع العلامة النوراني، والفهامة الفرداني، الفاضل في تحقيق المباني، الفصيح البليغ في بيان المعاني، نظمه سلس عليه حلاوة، وجواهر ألفاظه لها طلاوة، وهو مقبول عند كل الناس، وخالص من الالتباس، كأنه خارج بلا كلفه، فيه التوحيد وأحكامه صرفه، الظاهر عليه فضل الباري، الشيخ المنور النورى، أمدنا الله وإياه بالعلم النافع حتى يصير الكل ضرورى.

ومن أصحابنا أيضا الود الصادق، والخل فى الله الرازق، وخيره الناس والخلاق، نور إيمانه شارق، خديم الإخوان، عبيد الرحمان، ذو الجود والامتنان، وذلك بفضل الله المنان، فليست أفعاله إلا لوجه الخالق، سيدى عبد الخالق، أذاق الله لنا وله حلاوة التقوى، وأدخلنا وإياه جنه المأوى.

وأما غير هؤلاء من الأشراف والمريدين والمحيين وطلبة العلم فلا أحصى عددهم ولا أودى حقهم ومعددهم كان الله لنا ولهم بالعطف والعناية آمين.

ومن بالغ فى حبنا وأكرامنا، وتعظيم جانبنا، كاتب الحضرة السلطانية أيدى الله وحفظه من شر الزمان، السيد محمد بن عثمان، لا خيب الله قصده، ومن كل خير أمدته، آمين.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٣٠

ومن بالغ فى حبنا أيضا المعظم الأجل الأنفع محب الصالحين، والعلماء العاملين، وزير السلطان يوسف الكاخية فانه يعظم جانبنا، ولا يقضى حوائجنا، فلا يعز عليه شىء من أمورنا، جعل الله البركة فى ذريته مع حفظه من كل طارق يطرقه إلا طارق خير.

وأما الأمير الفاضل، والمعظم الكامل، أيدى الله ونصره، وأمدته وأعانه، المجاهد فى سبيل الله، المنصور بعون الله، الغالب والمحفوظ بالله، محبنا، وغاية ودنا، رفع الله قدره، وآمن بجاه النبى صلى الله عليه وسلم شره، خلد الله الملك فى ذريته، وكان لنا

وله بالتوفيق والحفظ في ولايته، أسعد الله أيامه، السيد على باشا، أيقظه الله للسنة النبوية، و طهره من كل إثم و جريمة، و ألهمه العدل و الإنصاف، و طهارة النفس بالاستعفاف، فإنه قد أجاد في حبا، و بالغ في تعظيمنا و إكرامنا و خدمتنا، و قد تركنا عنده فرسنا المراء و قد أحسن بها غاية الإحسان و قد تعجب الناس حين أخرجناها من داره، و ذلك كله من حسن اعتقاده، و غاية وداده، بجده و اجتهاده، و قد علمت منه أنه لا- يحب مفارقتي و أنا كثير الحياء و إنما معنى من الاجتماع معه كثرة الحجابين و أهل الحضرة من الدولة أعنى المماليك و القواد و العمال و غيرهم من رؤساء العسكر و أهل الوجوه من أهل البلد فمهما مررت عليهم إلا ظننت أني مكشوف العورة و إلا- فهو صغير الرأس لين الجانب لا- يتعاطم على جلسه مبسوط الوجه غير منقبض مرتب الكلام و لا يطيش بعقله ليس بلعان و لا سباب رحيم بالمؤمنين مقبل العثرات، و مقبل الشفاعات، غير انه لا تصل إليه الشكوى لقوة خفائه و عدم ظهوره فلا يصل المكروب إلى محله و لا- المظلوم إلى موضعه و قد قلت له عند اجتماعي به فلا- بد أن تجعل محله يصل إليك جميع الناس يبتون إليك شكواهم و لأن تنظر الظالم من المظلوم فتنصره و الظالم تقهره و السائل تجود عليه و العالم تعزه و توقره فترى الناس و ما هم عليه من الظلم و الهرج و المكر و الخديعة و الصدق و الكذب و الديانة و غيرها فتباشرهم و تتولاهم على ما هم عليه و أما الآن فلا يراك إلا أهل دولتك فربما أظهروا لك غير ما كان شرا أو خيرا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٣١

فتساعدهم فيهلك الناس أو تترك الأحكام بحيث تترك الناس على أغراضهم فتظن أن ذلك حلم بهم و شفقة عليهم و أنت راع و كل راع مسئول عن رعيته فلا تشتغل بشهوات النفس مع أزواجك و خدامك و مماليكك و تترك الناس على الإهمال فاتق الله في نفسك و فيهم و قم بحقهم و أزجر الظالم عن المظلوم و كن حليما عليهم بلسان الشرع إذ كل حق يضيع فأنت ضامن شرعا فلا يمسك تقصير و تفريط فسمع حينئذ ما قلت له.

و قلت له أيضا أنك أهملت العلم و أهله و قصرت في حقهم ما استطعت و قد فقدت تدریس العلم من مدينة طرابلس بحيث لا ترى مجلسا من العلم إلا- من ألهمه الله من الطلبة أن يدرس من غير أمر منك و لا معونة تكون لهم من بيت المال بسبيك فرضيت أن يكون بيت المال تنتفع به وحدك و يأكله اليهود و النصارى و من لا معنى فيه فإن أعطيت شيئا منه لمن يستحقه جعلته مزية عليه و أظهرته لديه و كل ذلك يصغى له لأنه ذو عقل و لب يحفظ ما ألقى إليه و أوصيته أيضا بأنك لا بد أن تبني مدرسة العلم و تحبس عليها أحباسا معلومة للمعلم و المتعلم كل بحسبه فرضى بذلك غير انه أراد أن يجعلها خارج المدينة لينزل فيه الغريب و الفقير يعين الكل على ذلك و لا أدري أيدوم ذلك به أو ينساه غير أن جلساءه و قواعده غير مشتغلين بذلك و السلطان مذهبه على مذهب جلسه.

حاصله لا- بأس به و هو يستمد الخير من أهله و يرغبه بأسبابه و أن العلماء أيضا يجتمعون معه كل يوم الاثنين أو يومين في الأسبوع إطلاعا على بعض الخصومات بين يديه و هم جماعة خيرهم الفاضل المذكور سيدي محمد السوداني و سيدي محمد العربي الفرجاني يبحثون عن الواقعة على الحق ما ظهر لهم مع حضور القاضى و المفتى و قد حضرت لهم مرة واحدة من غير قصد منى و لا منهم فانه أمر اتفأقى إذ بعث لى

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٣٢

السلطان رغبة فينا و محبة في اجتماعنا فقدر الله بالاجتماع بعد الظهر إلى صلاة العصر فافترقنا و مرة أخرى بعث لى و سيدي محمد الشريف حين رجوعنا من الحج فجلس معنا و أوصيناه بتقوى الله تعالى و العلم و الإعانة و الاجتهاد في أمور المسلمين فقال لسيدي محمد أنت صعب و قد أهلك الله بك فلانا و فلانا و سيدي محمد ساكت.

و بالجملة فإنه صاحب خير و إن له حسن اعتقاد في أهل الخير إذ قال لما تركت فرسى عنده و هى فى داره فأتى النصارى إلى بلد طرابلس يأخذونه أو يهدمونه نعم لا طاقة لهم بذلك فاهتم الناس بالخروج إلى المنشية خوفا من ضربة المدفع و البونبة قال فقلت لهم

والله لا- خرجت إذ فرس الشيخ الفلانى عندى و أنا أخرج أو يمسنى منهم الهلاك فكثوا مدة على شاطئ البحر حتى أنزل الله الصلح بينهم و الأمان التام و هذا كله و نحن فى المشرق فرآها كرامة و إنما الشفاعة من أهل التصريف و أهل وطنه. و قد قال بعض العارفين إذا أراد الله أن يتفضل عليك خلق الفعل و نسبه إليك كان الله لنا و له بالعافية التامة الدائمة الشاملة بمنه و كرمه مع التوفيق و الرحمة و البركة فى الذرية و الموت على حسن الخاتمة على فراش العافية آمين.

و مدة إقامتنا فى طرابلس مشتغلين بزيارة الأحياء و الأموات فزيارة الأحياء أكثرهم زرناهم فى دار سيدى محمد فى زيارتهم لنا و أما زيارة الأموات فقد زرناهم فى قبورهم بالوصول إليهم كالولى الصالح سيدى محمد بن سعيد و قد رأيت كلامه ككلام الشيخ محبى الدين سيدى عبد القادر و غيره من العارفين و الشيخ الصيد و تكرم علينا أولاده بأكثر من طاقتهم و الشيخ ابن جابر و الشيخ المرغنى و الشيخ المعزى و قد أدركته و هو حى و انتفعت به أتم انتفاع و قد أوفيت الكلام عليه فيما سبق.

و كذا زرت الأشياخ الذين فى المدينة و قد أخبرنا العلماء بهم ممن يعرف تاريخهم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٣٣

و طبقاتهم و كذا من كان خارج المدينة بعضهم بالتفصيل و بعضهم على سبيل الجملة أفاض الله علينا من بركاتهم و جعلنا فى زمرتهم و ممن كان هناك الشيخ الحطاب أعنى أبا الحطاب الذى حشى خليلا إذ له دار بمكة و الأخرى بطرابلس و لذا نشأ ولده المحشى الحافظ مكيًا.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٣٤

ذكر خروجنا من طرابلس

حاصله أقمنا بها نحو السوقين فى إكرام من أهلها و تعظيم لنا و للنجاج فظعنا على خير و خرج معنا أكثر أهلها من العلماء و الطلبة الفقراء و أهل السنة و بعض رؤوس الدولة و الأكثر من العامة و أعيان البلد من باب المدينة و خرج الركب صبيحة و نحن ننتظر بعض الحوائج و الأشياخ الذين يصلون للتوديع من أهل المحبة و الاعتقاد ليم سعينا و نغتنم بركاتهم على الله أن يزيل الحجاب عن قلوبنا بجاههم عند الله و كذا أهل المنشية من المحبين جميع الأشراف و الطلبة و الفقراء و أهل الاعتقاد فخرجنا من طرابلس عند الضحى الأعالى فمنهم من رجع و أما أكثر العلماء من المحبين و الفضلاء ركبو معنا فمررنا بفرفاش بلدة فيها زيتون كثير فزرنا من فيها على الجمال و الناس فى أثارنا أتوا إلينا للتوديع من نعرفه و من لا نعرفه جزاهم الله خيرا و وفق الله الكل إلى صالح القول و العمل.

ثم مررنا كذلك إلى وقت الظهر فصليناه عند بعض الصالحين عند شاطئ البحر و كان مجاب الدعوة تقضى الحوائج عنده ثم مررنا بزور بلدة واسعة فيها زوايا و أرض و مزارع و فيها مدرسة من أحسن المدارس التى فى تلك السواحل و على بابها قبر رجل من الصالحين قريب العهد قيل انه يسمى بالعريفى.

قال شيخنا المذكور ما نصه قال أبو سالم و أخبرنى من أثق به أن هذا الصالح كان يجلس عند زيتونة عند قبره حين كان حيا فجاء رجل بعد موته فجلس فى ذلك المحل و شرب فيه الدخان فلما نام ذلك الرجل فى الليل جاءه و وقف عليه و ضربه على

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٣٥

رأسه و قال له مكان كنت أجلس فيه فجئت إليه فنجسته فأصبح الرجل أعمى و هذا يدل على خبثه أى الدخان و حرمة و الأكثر على التحريم كالشيخ إبراهيم اللقانى و شيخه الشيخ سالم السنهورى و غيرهما من محققى المتأخرين من المغاربة.

و من ألف فى إباحته الشيخ أبو الحسن الأجهورى ورد كلامه الشيخ الففون ردا بليغا نقضه عروة عروة و كذا أباحه سيدى أحمد بابا التنبكى السودانى و قد أخبره السكتانى أنه راجعه فى كثير من أدلته على الإباحة فلم يجد عنده تحقيقا أيضا قال و غاية أمره أنه ليس من أخلاق الصالحين و قال أيضا رأيت فى شأنه نحو من ثلاثين تأليفا بين محلل و محرم و لا أرتضى شيئا منها و إنما مذهبه التوقف

و عدم الجزم فيه قال و من أظلم ممن قال إن الله حرم هذا أو أحله من غير نص شرعى أو قياس مقبول مسموع إلا انه جهلت الأحكام فيها إلى الآن و قد علم انه لا يجوز للمرء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه إذ لم يتضح فيه شىء بثلج له الصدر و يطمئن به القلب إلا أن بعض الصالحين يقول إنى رأيت فى درعة بلد الشيخ فى النوم و تناولت شيئاً منها ليلة الخميس عند اجتماع الطلبة فيها كما هى عادتهم زمان تعطيل القراءة إذ جاءنى فى عالم النوم رجلان بيد أحدهما حرباً فأخذنا يضربانى و يعذبانى و أنا أعتذر لهما و أقول لهما لا علم لى بشأنه و لا يقبلان عذرى و عذبانى عذاباً شديداً حتى استيقظت و وجدت أثر الضرب شديداً و بقيت من أجل ذل نحواً من سبعة أشهر مريضاً و لا شك فى صدق الرؤيا.

نعم أن غالب المتورعين من الفقهاء لا يستعملونه و إذا اختلف الفقهاء فى حكم و كانت الصوفية فى جانب واحد فالحق معهم لأن الله صفى قلوبهم من الأكدار فلا ينطقون إلا عن حق و صواب.

و أما علماء المشرق فيتساهلون فيه فضلاً عن عوامهم فكثيراً ما يستعملونه فى المساجد و هو شنيع كبير إذ يجب تعظيم المساجد و تقديسها من هذه الرائحة الكريهة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٣٦

فانه يحرم كل ما يخل بتعظيمها و يقتضى اهانتها حتى الثوم و البصل مع الاتفاق على إباحتهما و لو اضطر إليهما الأكل للدواء إلا أن أهل المشرق فى الغالب يخلون بتعظيم المساجد يأكلون فيها و يشربون و يحلقون رؤوسهم و ينامون اه كلام الشيخ أبى سالم باختصار و تغيير.

ثم قال شيخنا قلت و أما شيخنا قطب الزمان و علامة الأوان، الجامع بين الشريعة و الحقيقة، إلى أن قال سيدى محمد بن ناصر نفعنا الله به و أعاد علينا من بركاته فطريقه فيه طريق المتورعين مع عدم التفوه فيه بشىء على أنه شديد النكير على متعاطيه و يأمر بالضرب بالنعال و اليد لشاربه و أتى بعض الباعة يوماً به فأمر به فأحرقت و غرم له قيمته و لا يترك أحداً يشربه فى أماكنه و محاله رضى الله عنه و يقول لا- حظ لشاربه فى طريقنا و لا- يشم له رائحة أعادنا الله من ذلك و هكذا رأى متحققى علماء الأمة و السنة اه كلامه باختصار.

فنعود إلى ما كنا بصدده فلما بلغنا زنورا و إذا بمحب الصالحين و خادمهم الفاضل الكامل محبنا و غاية و دنا قائد عمورات قائد زنور مشهور بالفضل و رغبة فى الخير و هى خير و قد بنى مدرسة عظيمة مربعة و فيها بيوت كثيرة و مسجد جيد و عرصه طيبة يستحسن ذلك جميع الناظرين فلا يكاد من يريد القراءة و التحنث بالعبادة أن يخرج منها و فيها طلبة القرآن و العلم و قد رتب لها مدرستها و يجرى بعض المعيشة عليهم و قد حبس عليها أملاكاً و أوقافاً أكثرها المحاذى لها تقبل الله منه جميع ذلك بمنه و كرمه فعزم علينا فبتنا عنده مع جميع من ودعنا كسيدى محمد الشريف و سيدى محمد بن مقبل و جميع المحبين و قد تكرم و أحسن ضيافتنا و هو ليس له خدمة إلا على الزاوية المذكورة فانه يطعم من كان فيها إذ ليس له ذرية أصلاً فبتنا عنده خير

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٣٧

مبيت إلى أن صلينا الصبح و انفصلنا عنه على خير و كرامة و حب و تعظيم فسالنا الله حسن الخاتمة و بلوغ المأمول .

فإن قلت كيف يفلح من بنى مدرسة من مال المسلمين ليته تركها عندهم و قد قال صلى الله عليه و سلم فى الزانية تتصدق ليتها لم تزن و لم تتصدق فكذلك هو ليته لم يأخذ مال الناس و لم يبين و قد سمعنا من المنكر عليه انه لم يقصد بذلك إلا التفاخر و المدح و الرفعة عند أهل الدولة و إقبال الخلق عليه لا سيما من لا يعرف الأحكام ممن يظهر الصلاح و يدعيه فتجده يمد لسانه فى مدحه و ينسب له ما لا- يليق بمقامه إذ يجب على أهل العلم زجره و الرد عليه بأن يقولوا له لا- تأخذ أموال الناس ظلماً و إن أخذتها يجب عليك ردها لأربابها فإنها فى ميزانك و فى ميزان من ولاك فإن هو قبل فهو ذاك و إلا فليس هناك.

قلت الأمر كما ذكرت إلا أن العلماء ينبغى أن لا يثبطهم و يقعه عزائمهم عن هذه الفضائل فإن الظالم و المتسلط إذا حسنت نيته و

أراد أن يبني قنطرة أو مسجداً أو غير ذلك مما فيه النفع الدائم و الثواب المستمر غير انه بينه من مال المسلمين الذي لا يحل أخذه و علم أنه لو لم يصرفه في أبواب الخير صرفه في المحرمات و أما رده لأربابه فلا كيف يحل لعالم أو صالح أن يقول لمن هذا وصفه فلا تفعل فإن المال ليس لك و أما ما تبنيه فوبال عليك لأذن من شرط الثواب أن يكون من مال الإنسان فترى من عزم على ذلك تقاصرت نيته و ضعفت همته و بطل عزمه فكأنه أشلاه على إتلاف تلك الأموال في المحرمات و عامة الشهوات فيصير كمن بنى قصراً و عدم مصرا بل الحق أن علم أنه أي الظالم لا يرد الأموال لأهلها و لا يستحلها من أربابها أن يجعلها في سبيل

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٣٨

الخيرات و مصارف البركات و مغنم الثوبات فإن الحاصل من ذلك حصول بركة الدعاء من عامة المسلمين و خاصتهم و قد قال صاحب المدخل أن المدرسة إذا بنيت من مال حرام و جهلت أربابه فيجوز للعالم أن يأخذ منها بوجه العلم انتهى فترى أنه لو لم يكن ذلك الفعل لما توصل إليها ذلك العالم و لا كانت سبيل الخير.

و قد قال الشيخ عبد الكريم الزواوي في شرح الوغليسيه ما هو حاصله أن المتبرع من الولاة بمال المسلمين الذي جمعه ظلماً و عدواناً من غير وجه شرعي ثم صرفه في مصارف الخير لا سيما الدائم نفعه كالتناظر و الأوقاف الجارية له أجر الدعاء و بركة النفع من المسلمين و ثواب إدخال السرور عليهم و إن لم يكن ماله فترى الظالم يثاب من وجه و يعاقب من آخر فهو أولى من العقاب المحض و المحرم الصرف فليس لأحد ممن لا يعرف أحكام الشريعة و لا أصول الحقيقة أن يقول للظالم أياك أن تصرف تلك الأموال في باب الخير فانه مسدود عليك، و مغلق لديك، فيؤسسه من رحمة الله و يقنطه من كرمه فربما أنسد الباب على هذا القائل و كان من القانطين أراد أن يتورع، فشرب كأس الأياس و تجرع، هذا و أن صاحب النور يعرف ما يأتي و ما يذر إذ رب معصية أورثتك ذلاً و احتقاراً، خير من طاعة أورثتك عزا و استكباراً، فلا كبيرة إذا واجهك فضله، و لا صغيرة إذا قابلتك عدله.

نعم المال إذا جهلت أربابه سبيله سبيل الفىء إن كان منتظماً بحيث يصرف في أبواب الخير و إلا فهو للفقراء و المساكين فإن فضلت منه فضله تصرف في منافع المسلمين كما ذكرناه آنفاً و إياك أن تسمع لمتفقهة الزمان، و صلحاء الأوان، الذين هم المعجزة عند الاختبار و الامتحان، فإنك تراهم يتأسفون على صدور الخير باللسان، و قد تبت أيديهم عن صنيع المعروف و موارد الإحسان، يذمون الكريم على كرمه،

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٣٩

و يمدحون اللثيم على تكبره و أعظامه، فقضايا الحق على عكس أهل العصر، و مواطنهم ليست مواطن النصر، و قال صلى الله عليه و سلم لو لا الحمقى ما عمرت الدنيا فناهيك بأهل الحقائق فشد يدك عليهم لا سيما المتمكنين في الشريعة رضى الله عنهم و أرضاهم و جعل الجنة مثواهم.

انعطاف إلى ما كنا بصده تعلم أن قائد عمورات المتحدث عليها لما انفصلنا عن محله و شكر صنيعه و اغتنام البركة من أهل الفضل من المسافرين و من أهل بلده ركب مركوبه بعد أن ودعنا من في المدرسة من الطلبة و أهل الفضل منها و من أهل المحل يودعنا مع رؤساء من ارباب دولته و هو رجل كبير السن زاد لحمه و شحمه عن وضع الاعتدال ذهب معنا أميالا بالتشيع و متأسفا على المفارقة بالتوديع غير أنه تحرك ليلعب على فرسه متمثلاً لما عسى أن يكون مروياً عنه صلى الله عليه و سلم من ركب فرسا و لم يلاعبها أو لم يعرفها ففيه نزعة يهودية أو كما قال.

نعم لما مدها بالجرى مع كاتبه سقط عنها و كان ملقى على الأرض ففرغنا منه و ظننا انه مات أو كاد فلما وصلنا إليه وجدناه متيقظاً نشيطاً فقام من حينه فاخترناه عن عزمه و دينه فكان منه ما كان غير انه لم يتغير بالجنان فقلنا من حينه أمرك و صح مقصودك إذ من صنع معروف فأصيب عنده كان مقبولاً في معروفه ففرح و سر حسبما ورد في الحج أنه إذا كان مقروناً بالمصائب و المشاق عظم أجره عند الله و قبل و إلا فلا.

وقد ورد عن بعض الفضلاء وأظنه أبال الفضل النحوى أنه حج ورجع ولم ينكد ولم يصب فى ماله ولا بدنه فعظم ذلك عنده و قال أن حجى لم يقبل فخطر ذلك فى باله عند قربه من وطنه و هو فى نواحى نفاوة فلم يلبث إلا و خرج جمع من المحاربين و ثلثة الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤٠

من المعتدين فأخذوا ماله و سلبوا ما عنده فقال الآن تم الأمر و عظم الأجر و قبل الحج و قضى الوطر ففرح عند ذلك إلا أن كاتبه خاف منه و تروع قلبه إذ ربما عاقبه على ذلك فسأل الشفاعة منا أن يجعله فى حل فكان الأمر كذلك و بعد ذلك بسويغات عند قربنا من بلدة السيد الفاضل سيدى عبد الخالق فى المايه محل سكنه رجع عنا من كان يودعنا من أصحابنا و بقى البعض ثم قائد عمورات بعد الإلحاح فى الدعاء له و لمن كان معه بالمغفرة و الرحمة و دوام النعمة.

ثم مررنا بأهل الفاضل الكامل الأخ فى الله سيدى عبد الخالق فنزلنا عندهم صبيحة فأطعمونا بالكسكس و اللحم كثر الله خيرهم فدعونا لهم بقريحة قلب و قوة اهتمام و عزم و معنا الذى يقول فى طرابلس أنا قطب بمجرد لسانه و علامة القطب ليست عليه و غايته أن يكون من جملة المؤمنين بل إذا سمعت قوله تقول انه صاحب التصريف الكامل غير أنه تعكر عليه بعض الحوائج ظاهرا و باطنا فلا يساعده إلا- قيل أصله أو أنه خفى علينا حاله فيتكلم قهرا و يطغى عليه أمر الوارد جهرا إلا أنه من لم تكن عنده شريعة فليس عنده دقيقة فضلا عن الحقيقة و الحقيقة لا شريعة معها زندقة و الشريعة لا حقيقة معها تعطيل و فسق و قد قال إمام دار الهجرة مالك من تصوف و لم يتفقه فقد تزندق و من تفقه و لم يتصوف فقد فسق و من جمع بينهما فقد تحقق.

و قال الإمام عز الدين ابن عبد السلام كل حقيقة لا شريعة معها فهي باطلة و كل شريعة لا حقيقة معها فهي عاطلة انتهى فإذا يجب عليك أن تنظر من تتخذة لدينك و لا تغتر بكل ناهق و ناعق فتسلم فى دينك و تكون من خاصة الله فى عباده بعد حسن الظن فى الله و جميع المسلمين فتعلى همتهك و ترفع منزلتك و قد نزهنا هذا الإنسان عن

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤١

القطابة لعدم تمكنه و إنما سلط عليه اللبس و الالتباس، فلم يفرق بين الحق و الوسواس، و إذا زجرته زاد فى العكس و الانتكاس، و مع ذلك أنه يظن فى نفسه ما لا- عين رأت و لا- أذن سمعت و لا- خطر على قلب بشر فتجد العلماء يضحكون عليه و يستهزئون به و يجعلونه مسخرة فبعضهم يرد عليه و ينكر خصوصيته و بعضهم يوافقوه و يساعده ليسلم من شره إذ يعتقد أن كل ما صار فى العالم فهو على يديه و نحن اعتقادنا فيه أقل مما يدعى و أسلم مما يعتقدون فيه من الزندقة و ما به إلا غلبة الحال و الوارد مخلطا و مقترنا بطغيان النفس و وساوس الشيطان اللعين فمن يفرق بين الخواطر زل قدمه و اللسان تابع لما هنالك و اختل عقله ببعض الأطعمة و الأشرطة فصار فى محل الإهمال فيتصرف بتلك البضاعة الضعيفة أو غلب عليه طبع السوداء فيتكلم جبرا، و يتحرك قهرا، و يصيح اضطرابا، فتتخيل له صور المغيبات، و يزعم انه يطلع على سر المنكونات، و ما ذلك إلا الحكم الوهمى و انقلاب الطبيعة و تغيير حال الاعتدال و هذا معلوم عند أهل الطريقة.

نعم لا- تزال طائفة ظاهرة على الحق ترد الباطل و تحقق الحق و ما دام ذلك لا ينقطع الخير عن هذه الأمة ما زلتهم بخير ما دام يرد بعضكم على بعض بشرط أن يكون الراد سالما من العلة النفسية و هتك حرمة المسلم بإظهار المعائب و إخفاء المحاسن و إنما يقصد القيام بالسنة و إظهارها و إخماد البدعة و إبطالها و ليس حسدا و بغضا و عنادا و إسقاطا له من البرية و يسقط حظه عند الخليفة و لذلك ترى الكثير ردوا عن باب الله باعتراضهم على الخلق و إن كانوا محققين فى اعتراضهم انظر الشيخ زروق فى القواعد.

هذا و أنى انفصلت عنه على خير و سلامة قلب و قد أشار لنا بإشارات بعضها يدق على الإفهام، و يعز عن الالتئام، فما وافق السنة قبلناه و ما كان متشابها طرحناه عن الاعتبار، و وكلنا أمره إلى العزيز الجبار، إذ عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤٢

سبحان من أوقف العباد، فيما أراد، فمن نظر إلى الشريعة أعترض، و من نظر إلى الحقيقة سلم و فوض، فمن أراد الجمع بينهما فليقم

بالسنه و الشريعة ظاهرا بلسانه إن كان عالما أو بيده إن كان سلطانا و يسلم بقلبه لعلم الله بالواقع و الحقيقة فالاعتقاد بالقلب ولايه، و الانتقاد به جنائيه، إذ لو كشف عن نور المؤمن العاصي لملا ما بين الخافقين و أحرق ما بين السماء و الأرض فكيف بالمؤمن المطيع حاصله قد عز الطبيب الرباني، و ذو الترياق الفرادني، بل قد أنعدم رأسا و إلا فالمؤمن لأخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا و هذا الباب واسع المجال، رحب المقال، كثير الفعل و الانفعال، فلا يسلم منه إلا أقل القليل، بفضل الوهاب الرحيم الرب الجليل.

ثم مررنا بالزاوية الغربية و هي بلدة عظيمة قد جمعت و وعت أجناس الخلق و أصنافه من العرب و أولاد الترك و قبائل شتى فلما فسد رأيهم و تقوى فيهم الإهمال و ضعف فيهم حكم السلطان اضطرت فيهم الفتنة و عظم فيهم الهرج و صاروا إلى القتال انقسمت عليهم الأعراب أو أن السلطان رأى لهم ذلك لأن فيهم العمال و القواد و أرباب الدوله و هذه البلده كثيره النخل واسعة الأطراف قويه الأكناف و قد كثر فيها أهل الخير من الصالحين أهل الإنصاف الأحياء و الأموات ينبت فيها الصالحون كالشجر فلا تجد ناحية إلا و فيها فقراء و المزارات بحيث إن كل ناحية تجد فيها مزارا حيا أو ميتا فإن عليهم سيمه و علامه تعرفهم بسيماهم و ذلك معلوم بالضرورة و قد ودعنا جماعه من أصحابنا من طرابلس و بقيت معنا جماعه منهم كالأخ في الله سيدي محمد الشريف و أصحابه ثم تلاقينا عند صلاة الظهر بجماعه من المحبين و جم غفير من الصالحين و من العلماء العاملين و جماعه من عامه المؤمنين كلهم راغبون في الخير و مشتاقون إلينا فإنهم وقفوا معنا وقفا عظيما و قياما لائقا جزاهم الله عنا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٤٣

أحسن جزاء فمنهم من تكرم علينا بالشعير و الطعام و اللحم و منهم من أتى برؤوس من الضأن.

حاصله أنهم أهل كرم و ود و محبه و اعتقاد زائد و أحوال صادقه و واردات ظاهره و مواجد عظيمة بينه يظن الإنسان أن الخير مقصور على هذه الزاوية و هي بلدة ذات فواكه و أشجار و مزارع و عمارة كبيرة لا تحيط به العبارة و تقصر عليه الإشارة أفاض الله علينا بركة أهلها بمنه و كرمه ثم تلاحقنا بالركب فلم ندركه إلا عند العشاء و ذلك مع أصحابنا من طرابلس و إخواننا من الزاوية حتى امتلأت الخيمه فلم تتسع لهم بل باتوا خارجها فأطعمنا الجميع بفضل الله تعالى و بتنا هناك معهم خير مبيت إلى الصباح فظعنا و الأصحاب معنا إلى الضحى الأعلى فاستودعناهم الله و استودعونا كذلك فلما حان الانفصال و تقارب الرجوع و الانتقال [تكدر القلب و تغير و حزن فأصابه قلق و الله كادت الروح أن تزهق و هي تطير] و إنما مسكهما قفص البدن فلو نعطي الخيار لما افترقنا و لكن لا خيار مع الزمان فعند ذلك تألمت الأجباح، و بدا منا البكاء و الصياح، فلم يبق شيء لدى الفراق من أنواع الأرباح، فعزت النفوس أن تذهب مغربه و كذا أنفسهم جمحت أن تذهب مشرقه فامتنع الجميع من المطاوعه أن تكون مفارقة فغربت شمس الاجتماع، و كسف نور المشاهده و الانتفاع، و إنما أقبل ليل البين و ظلمه الأقصاء و الانقطاع، تتجافى جنوبنا عن مضاجع الأنس و ضاقت بنا الوحشه في جميع البقاع، فربما أصيب البعض منا بالمرض، و برهه من الزمن متصل بالقبض، هذا و إن الركب قد ذهب علينا و غاب عنا و نحن في التوديع فنرجع إلى ما كنا بصده ثم بعد الفراق ذهبنا نلحق الركب فلم نلحقه إلا قرب الزوال فمررنا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٤٤

بالزواره الشرقية فسقينا منها و استقينا و ماؤها عذب بارد و تسمى الزواره الكبرى.

قال شيخنا المذكور ما نصه و تسمى كوطى بضم الكاف و كسر الطاء المهملة و هي قرية أضخم من الزواره الغربية و أكثر غابه و في أهلها شجاعه و حده نفس و كانت طاعتهم للعرب مشوبه بعصيان و متهاها قرية و لول و بينهما عشرون ميلا و هما قريتان متشابهتان عذوبه ماء و خربا باء و لول هذا منتهى أرض الزوارات من ناحية المشرق و سميت بذلك لأن أقواما من الأعراب يعرفون ببني و لول نزلوا بها و كذلك تعرف في القديم بأرض بني و لول هي أكثر بقاع الأرض طلباء و لأهلها دربه في صيدها بإشراك ينصبونها لها تميزوا بذلك عن غيره و أما الزواره الغربية فتسمى الصغرى و تعرف أيضا بوطن بلد المرابطين و هي قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع و ماؤها في غاية العذوبه و قد استولى الآن الخراب على هذه القرية فليس العامر منها إلا بعض العامر و أمام هذه القرية بمقربة

منها قصر يسمى وزدر بكسر الواو و سكون الزاي و كسر الدال المهملة قد امتحى رسمه و بقى اسمه و تخرب أكثر البناء الذى يحف به و لم يبق من أهله إلا أناس قليلون و هذا الموضع المشهور أهله بيع من يختار به من الحجاج و غيرهم النصارى و لم تزل الأركاب تحترس إذا مرت به خوفا من أهله و خوفهم على سرقة الرجال أكثر من خوفهم على سرقة الأموال فإذا جازوا و لم يفقدوا أحدا هنا بعضهم بعضا بذلك و كان هذا الفعل كثيرا فيهم شائعا ذائعا فيما تقدم و أما الآن فقد قل ذلك لقله العامرين به.

و من هذه القرى كان الابتداء بسلوك منازل البربر المتمسكين بمذاهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين و أموالهم [و هذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٤٥

بين طرابلس و قابس خصوصا أهل الساحل منهم فهم] بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يجتاز بهم من المسلمين إلى الروم فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد فى قراهم و يجتنبون أيواءهم و قراهم من بقايا الشرذمة الضالة التى قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد فى إفريقية فإنه لما أظفر الله به و أراح البلاد و العباد منه تفرقت أتباعه فى الأقطار فسكنت هذه الشرذمة بهذه المواضع و سكنت طائفة أخرى بجبل بجاية و قسنطينة و ما والاها إلى بوننة و مالت طائفة أخرى إلى بلاد الجريد فاستوطنت نطقة و نفاوة و ما والاها من البلاد و كلهم خوارج غلاة فى مذهبهم مكفرون للعصاة على ما هو معروف من مذهب الخوارج كمذهب المعتزلة فى إشاعتهم من إطلاقهم أسم الكفر على من واقع كبيرة و لم يتب منها فإن المعتزلة لا تسميه كافرا و لا مؤمنا و تسميه متوسطا بان توسطوا فى هذا بين مذهب أهل السنة و مذهب الخوارج و المتصلحون منهم يتماسحون بثيابهم ثياب أحد ممن ليس على مذهبهم و لا يؤاكلونه فى آنية و إن استقى عابر سبيل ماء من بعض آبارهم استخرجوا ماء البئر كله فماحوه و ثياب الجنب عندهم لا يقربها طاهر و ثياب الطاهر لا يقربها جنب.

قال التجانى و قد شاهدت منهم من كان على طهر إذا أحب غسل ثوبه الذى اجتنب فيه يرفعه بعضا أو محجن ثم يلقيه فى البحر فيخضخضه بعضه ساعة ثم بعد ذلك يتناوله بيده و يوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم أجنبوا أو لم يجنبوا رجلا و نساء يتوضئون ثم يتيمون و قد شاهدت هذا منهم كثيرا و يشترطون فى

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٤٦

وضوئهم غسل الأيدي من الأكتاف إلى غير ذلك من أرائهم الواهية.

قال و الأفعال التى حكينا عنهم منها ما شاهدناه و هو ما نصصنا عليه و منها ما حكاه الشريف فى كتاب المؤلف للجان و رأيت منهم أقواما قد نحلّت من العبادة أبدانهم و اصفرت ألوانهم باقين فى ذلك على أصلهم الفاسد من تكفير العصاة و أظهرها شيخا يعرف بعبد الرحيم الزواوى و جميعهم يعظمه و يقدمه رياسة و سنا و صلاحا بزعمهم اجتمعت به فرأيته شيخا مجتهدا فى العبادة حسن السميت إلا انه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله و خسر حاله و مآله و توسمت فى أحد ممن وصل معه الطلب فتكلمت معه فوجدته قد شارك فى طرف من العلم و أنجر الكلام معه من التحدث فى أهل المعتقد إلى التحدث فى مسألة المسح على الخفين فى الطهارة فشنع بها على مثبتها كثيرا وفاقا لمذهب الخوارج فذكرت له بعض الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فردها بالجملة و قال هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشىء منها قال و قد نص لنا سيدى أبو يزيد مخلد بن كيداد على بطلان ما كان من الأحاديث يناقض أصلا من أصولنا فلغت النص و من نصه.

و قد وافقت الخوارج على إنكار المسح على الخفين أضدادهم من الشيعة مستندين فى إنكاره إلى ما رووه عن على رضوان الله عليه أنه كان لا يرى المسح و ذلك غير صحيح عنه فإن حديث التوقيت فى المسح و هو حديث صحيح يروى و قد تغالى الشيعة فى هذا و اتخذوه شعارا حتى أن الواحد من غلاتهم ربما تألى فقال برئت من ولاية أمير المؤمنين و مسحت على خفى إن كان كذا و إلى هذا أشار الشاعر بقوله لما حبسه الحسن بن يزيد بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه و كان واليا على المدينة من قبل أبى

جعفر المنصور فكتب له من السجن:

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٤٧ أشكو إلى الله ما لقيت أجبت قوما بهم شقيت

لا أشتم الصالحين جهرا ولا تشيعت ما بقيت

أمسح خفي ببطن كفي ولو على جيفة وطيت

قال فأطلقه و أكرمه و أما الخوارج فوقفوا في إنكار المسح مع نص الكتاب و لم يروا نسخه بالسنة و رويت عن مالك رحمه الله في ذلك رواية شاذة لا ينبغي أن تحمل على ظاهرها و قد تأولها عليه من صححها عنه.

و بالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول و قد نصوا على تفسيق من قال به و قول هذا الزوارى إن هذا من أخبار الآحاد ليس كذلك فقد نص العلماء على أن الحكم مما ارتفع عن رتبة خبر الآحاد و ارتفع إلى رتبة التواتر كلامه.

و في هذا المنزل أيا بنا عام عشرة و دعنا من شيعة من أهل المحبة من طرابلس و تذاكروا مذهب هؤلاء الخوارج فانشد الفقيه سيدي عبد السلام بن عثمان لنفسه كان الله له:

لقد قبح الله الزوارة كلها و ألبسها من درن أربابها شينا

و حق لمن قد جاور القبح أن يرى قبيحا خبيثا ليس تلفى له زينا

فيا رب دمرها دمارا مؤبدا و لا تبقي من كل أثارها عينا

و قال عبيد الله تعالى حسين بن محمد بن علي بين شرحبيل البوسعيدي أخذ الله

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٤٨

بيده:

و تبرهم تتبير عاد و ألبسوا سراويل خزي كلما انتحلوا مينا

و نظمهم في سلك عنقا فلا يرى لهم عقب إلا و جرعه حينا

عدا السالكين منهج الحق و اقتفوا سبيل رشاد و اقتنوا بينهم لينا

و قال أبو الحسن سيدي علي النجار الطرابلسي لطف الله به:

و أخرجهم من أرضنا و بلادنا و أهلكتهم حتى يقال لهم اينا

و أخزاهم خزيا يكون بجمعهم محيطا و لا و في الإله لهم دينا

و قال شيخنا سيدي أحمد المستوتى وفقه الله:

و زاد لأهليه الخسارة و الردى و أظلم احشاء و زاد لهم رينا

سوى منهم من كان ذا سنة النبي فلا زال من تبعه مقرا عينا

اه كلامه هذا و إن الزوارة إلى قرب جربة و أكثر جربة و جبال طرابلس إلى قابس إلى نواحي نفاوة كلها على هذه المذاهب الفاسدة كاد أن يظهر أمرها في مدينة طرابلس إذ كلمتهم فيها نافذة و ما ذلك إلا لكثرة ما لهم و قد علت به منزلتهم أحلى الله منهم الأرض و أسقط حظهم عند المولى.

فلما خرجنا من الزوارات و حكمها تلاقينا مع أصحاب سلطان طرابلس في

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٤٩

هيئة عظيمة و نشأة كبيرة توجهوا من سلطان توسن القادمين بالهدية منها و هى هدية عظيمة قد سروا بها و إن ذهبوا بهدية إليه فهذه الهدية أكبر و أعظم و أجسم و أحلى و أكرم فلما عرفونا نزلوا إلينا و عظمونا و تبركوا بنا و بشرونا بوصول سيدي أحمد الطيب و أصحابه و ولدى و عيالنا إلى تونس حرسها الله من أيدي الأعداء و شهبوب التبيد و العداء فسألناهم عن كيفية أحوالهم فقالوا خرجوا

على خير و سلامة بعد أن عذبوا بانكسار المركب إلا أنه انفصل و تبدد بعد نزولهم منه فى المرسى و إنهم سكنوا دارا فى تونس ينتظرون قدومكم و أما سيدى أحمد الطيب فقد أنفصل إلى بلده استعجله الحجاج و أرادوا تعجيل الأوبة.

ثم مررنا كذلك إلى أن وصلنا إلى قصر الملح و هى سبخة قريبة منه تحمل منه السفن و ملحها مفضل على سائر السباخ و منها يمتار أهل البلاد النصرانية و كأنه طرف من السبخة التى بتوزر و أهل ذلك الموضع يزعمون أنهم إذا رفعوا ما على وجهها من الملح و وصلوا إلى تراب الأرض احتفروا فيه قليلا- فوجدوا طبقة أخرى و كذلك إلى سبع طباق و هم يحفرون إلى الطبقة السابعة لأدن النصارى يتغالون فى شرائه منهم و يذكرون أن له عندهم منافع عديدة إلى غير ذلك انظر رحلة شيخنا المذكور.

ثم ظعنا من ذلك المحل فسرنا فى بلاد النوائل و هى طائفة صعبة كادت أن تكون كالقبر فلا يمر عليه أحد إلا متروع إذا سلم منهم و نحن قد وجدنا البعض منهم ظاعنين فلما رأونا فرحوا بنا و صاروا يلعبون على خيولهم طلبا للدعاء و اغتناما للبركة إذ سمعوا بنا فى غير هذه الجبجبة و علموا بعض أحوالنا بأخبار مرابطيهم و أعلام

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٥٠

صلحائهم أولاد مريم فإنهم أفضل الناس و أجودهم و أكرمهم و أعملهم و أهداهم و لهم همة عالية و رتبة زاكية فكأنهم لم يسكنوا البادية و لا يأكلون المتشابه و لا يأخذونه فضلا عن الحرام على غاية السنة و القيام بها فما رأيت أحدا أحفظ بها منهم و لا لصون دين الله أرفع منهم فإلهم و مالهم يرعى وحده فى الصحارى من غير راع تلد الناقة وحدها نحو الشهر و الشهرين و هو فى ربوة الصحارى لا يتعدى عليه أحد و مع ذلك أهل هذا الوطن ليس يوجد أظلم منهم و لا أعدى و هم سالمون و قد تكرموا علينا فى الحجة الثانية و كذا فى الطلعة فى هذه الحجة و قد ذهبوا معنا فى الرجعة الثانية من بيوتهم قرب الزوارات إلى أن بلغونا إلى قابس مسيرة ستة أيام أو خمسة و نحن فى طعامهم و شرابهم و علفهم إلى أن وصلنا إلى قابس بل زادوا رحلة معنا بعد قابس إلى روضة الشيخ سيدى مهمل و أما فى هذه فوجدناهم بعداء عن بيوتهم متحيرين اشغلهم أمر الظلمة إذ تعدى عليهم بعض من أولع بالتغلب و التفرعن عن هؤلاء المتمردين المذكورين و سبب ذلك إنشاء العداوة و الفتنة بين النوائل و ورغمة فإن ورغمة من منتهى عمل تونس الشرقية و النوائل من منتهى عمل طرابلس الغربية فلما التقى الجمعان نشأ بينهم الحرب و الفتنة و الأخذ و الموت فأنجلى النوائل من بلادهم أجلوهم من جهة المغرب و ورغمة و من نحا سبيلهم من حليفهم و من جهة المشرق العجيلات و الزوارات و غير ذلك ممن يحالفهم فكان المرابطون أعنى أولاد مريم و الحمارنة مع و ورغمة فوقع لهم بعض التعدى بسبب مجاورتهم و محبتهم إياهم.

و أما الحمارنة فمن أجود العرب و أكرمهم نسبا لديهم و شرفا عندهم قد جملهم الله

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٥١

برشاقة القد و حسن الخد و هيئة الركوب و زينة الملابس و سعة البيوت و لهم جاه عظيم عند سلاطين تونس فإن محلة الأعراض أعنى محلة زواوة التى تأتى إلى نواحي قابس على أيديهم و الحكم فيها حكمهم.

حاصله قد دخلنا أرضهم متبركين بنا و مغتمين ما كان لدينا فأنهم محل بركة أيضا قد نوينا زيارتهم أيضا فإن لهم أصلا فى كل المعالى و كذا الحمارنة قد انعقد لهم لواء العز و اشتبهوا بأمر الفضل و قد علمت أن كل وطن إلا و جعل الله فيه نورا يستضاء به و سيفا يقهر به عباده فلا يزال العصر دائم الأمداد بهؤلاء القاهرين للعباد و إنما الفرق قلتهم و كثرتهم بحسب الزمان و أهله و إن انعدموا رأسا فى وطن من الأوطان خرب و هلك و قد قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَ الْفُضَلَاءَ خِيَارَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ هَذِهِ الْأُمَّةُ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَ لذلك ارتفع المسخ أى مسخ الظاهر و أما مسخ القلب فقد بقى لم يرتفع فتجد طبائع الإنسان على طبائع الحيوانات فمنهم من يكون كالثعبان و منهم كالخنزير و منهم كالقرود و منهم كالذئب فكل معصية تستدعى كسوتها لقلب فاعلها هذا إن لم يدم عليها و إلا- مات على سوء الخاتمة و العياد بالله لأن كثرتها تورث ذلك غالبا أنظر المدخل هذا و أنا مررنا ببلد الحمارنة إلى أن وصلنا إلى عرام فانه محل أجدادهم و موضع خزائنتهم يسكنها من لا يقدر على البادية

منهم.

وهي قرية طيبة ذات مياه عذبة و مزارع و بساتين و من مات منهم دفن فيها و فيها مزارات كثيرة و روضات مبنية تراها كالنجوم في السماء و مررنا عليها صبيحة عند الضحى الأعلى فمات عندنا الفاضل الكامل الفقيه النبيه محبنا و معتقدنا قاضي محروسه الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٥٢

بسكرة فدفناه هناك و قد اجتمع عليه جمع كثير و جم غفير و ذلك من علامات سعادة الميت و لذا قال أحمد بن حنبل بيننا و بينكم الجنائز و قد أسلم عند موته بين اليهود و النصارى ثمانية آلاف و قد انغلقت الدكاكين و الأسواق شهرا لعزائه و قد صلى عليه من الناس نحو الثمانين ألفا و غير ذلك من فضائله جعل الله هذا القاضي من أهل الجنة و غفر لنا و له بمنه و كرمه ثم أن أهل عرام أتوا إلينا بالتمر الجديد اليابس و الرطب بارك الله فيهم و جعل الصلاح في ذرايرهم آمين يا رب العالمين.

ثم ذهبنا من عرام إلى أن وصلنا قرب قابس فبتنا هناك خير مبيت فظعنا صبيحة فنزلنا خارج قابس عند الباب الشرقي في فسحة عظيمة تجاه (بضم التاء) أبي لبابة بعيدا منه من جهة البحر فلما قربنا النزول ذهبنا قبله على خيولنا لزيارة أبي لبابة الصحابي المعلوم و قد ذكرته في الطلعة و ما قيل فيه عن ابن ناحي انه الصحابي المعلوم دفن هناك و عليه مدرسة عظيمة و مسجد كذلك فيه طلبه علم يتعلمون فيها و فيها أمام فاضل عالم عامل ممن يخشى الله و يتقيه و هو من خصوصية أصحابنا قديما إذ عرفني في الحجة الأولى مع جماعة من الفضلاء منها و هو سيدي عمر إذ هو المدرس فيه و هو ممن يفهم عن الله و متعلق بمن يراه من أهل الله زاده الله رفعة و قدرا و جاها و منزلة اجتمعت معه في الطلعة و في هذه مع صلحاء قابس و فضلائها و علمائها و قد اجتمعوا معنا و طلبوا منا البحث في بعض النوازل من مشكلات الفنون و قوانين العلوم فاسفعتهم على ذلك بحس ما فتح لي من الوهب الرباني و المنح الفرداني فزادهم ذلك حسن ظن و اعتقاد و عجا من الله حيث لم ينقطع مادة الفتوح و الوهب اللدني لا سيما لما رأوا بعض المؤلفات لنا فزادهم تحركا لهممهم و تعاضما لمقاصدهم غير أنهم استقلوا مدة الإقامة عندهم ليشفوا عليهم و يردوا غليلهم فلم ترتفع وحشة الاتصال من قلوبهم خوفا من الفرقة فقالوا نعم الملاقاة لو طالت و هذا وصف كل من اجتمعت معه في كل بلد مكة و المدينة و مصر و طرابلس إذ الكل يتأسفون على عدم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٥٣

طول المدة و يتحسرون على عدم قضاء الوطر و الحاجة.

و قد اجتمعت أيضا هناك مع جماعة من الفضلاء و جم من النجباء أولاد الجمنى الذين هم في نفاوة فاستفادوا منا و استفدنا منهم. و كذا بعض الفضلاء منهم من جربة القريبين لسيدى إبراهيم الجمنى الكبير الذى أخذ عن الشيخ الخرشى و هو شيخ شيوخنا و كذا سيدى إبراهيم الصغير و لهم مدرسة في جربة عظيمة معلومة تكاد أن تكون من المواسم المعلومه غير أنى ما دخلتها و لكن ناو دخولها إن شاء الله و فضائل سيدى إبراهيم الجمنى من زهده و ورعه و تواضعه و تهجده و نصحه للطلبة و تحمله الأذى من خوارج جربة و صبره و تصبره على إظهار السنه و إخماد البدعه و غير ذلك من أخلاقه السنية كثير لا تعد و لا تحصى لا تضبط و لا تستقصى و قد انفلتت سريرته و أثرت همته فى أصحابه الآخذين عنه كما هو مشهور عن أشياخنا كالعلاء الفاضل المحقق الكامل سيدى عبد الله السوسى و مثله سيدى يحيى بن حمزة و بعض الفضلاء من تونس ممن كان حيا الآن يحكى لى عنه أشياء عند أخذه على بعض الفنون من العلم كالمعالم للإمام الفخر الرازى و الفتوحات لابن عربى و عقيدة ابن الحاجب و قد ختمها على و غير ذلك من العلوم أيده الله بنصره و هو كبير السن ظاهر الفضل و الشأن.

و أما الصالح على الإطلاق، و العالم العارف بالاتفاق، سيدى موسى الجمنى الذى تؤخذ الآن عنه العلوم و الفنون شتى تأتيه الطلبة من كل البلاد، و تشد إليه الرحال من جميع العباد، فقد ظهر فضله و انتشر علمه و ثبت حلمه عند كل الناس فى تل الأقطار، و تبين فضله فى جميع القرى و الأمصار، فحقيق به لأنه أهل لذلك،

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٥٤

و موصوف بما هنالك، و قد قال صلى الله عليه و سلم ألسنة الخلق أقلام الحق و قد قال الشيخ زروق لكن إن كان ذلك فيك فاشكر الله على ذلك و إن لم يكن ذلك فيك فانهض لذلك و إلا سلب عنك ذلك فافهم أو كلاما هذا معناه.

نعم أنى لم أره و لم اجتمع معه مع رغبة الجميع منا و منه فى الاجتماع و الزيارة و اغتنام البركة لأن زيارة الحى متفق على فضلها لما فيها من الفائدة و الاستفادة و التربية بالهمة و غير ذلك من فوائدها بخلاف الميت فقد اختلفوا فى زيارته فمنهم من أنكروها و منهم من جعلها كالحى [غير انه للاعتبار و نزول الرحمة عند قبره فالراجح مطلوبيتها كالحى] و قد قال صاحب المدخل فإنهم قوم لا يشقى بهم جلسهم لأنهم أحياء فى قبورهم يغيثون و يشفعون فيمن أتاهم و ذلك معلوم عند أبواب القلوب فلا يمكن إنكاره و لا استتاره.

نعم مكثنا فى قابس نحو اليومين و اليوم الثالث ظعنا منه غير أن طريقنا و بعض الركب يريد تونس و هو من كان من نواحي قسنطينة كأولاد عيسى و أهل ابن ضيف الله و أولاد إبراهيم و غيرهم جعلنا ركبا مستقلا و سيدى محمد المسعود و أهل الصحارى إلى قصر الطير ذهبوا ركبا مستقلا عن أن طريقهم توزر و نطفة إلى سيدى عقبه إلى بسكرة فقد اجتمعنا عند الارتحال و توادعنا فعز علينا الافتراق، لوجود الاتفاق، و رحمة الارتفاق، فكلنا بالبكاء و التباكى و الزعق و الحزن، و الكآبة على مصيبة البين، غين أن الله قدره و جعل كل واحد منا أخاه فى حل غفر الله للجميع و تولاهم برضاه فذهبوا و ذهبنا كل على طريقه هذا كله بعد الإقامة بقابس و زيارة من تحق له على الجملة و التفصيل من الأحياء و الأموات لا سيما أبى لبابة و قد زبرت شيئا

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٥٥

من هذه الرحلة فى مقامه اغتناما لبركته فكنت أملى على بعض فضلاء جربة و علمائها و هو يكتب و ما قطعنا عن ذلك إلا زيارة أهل بلدنا أعنى زواوة الذين قدموا عسكريا فى محلة الأعراض و قد نزلت هناك أمدهم الله بالتوفيق و أعانهم على سلوك الهداية بالتحقيق. ثم إن بعض الناس ممن استوطن قابس من بنى عباس و كان فاضلا كريما معتقدا محبا لنا تكرم علينا بأنواع من النعم فأتى بها إلى الخيمة مع أولاده يطلب لهم العلم و القرآن أيدهم الله به و من علينا و عليه و عليهم بالفضل و الامتنان آمين و كذا تكرم علينا غيره جزاهم الله خيرا و قرية قابس فيها مياه كثيرة و بساتين من نخل و رمان و عنب و تين و فواكه جمه فأنها بلدة عظيمة و عمارة متسعة و فيها أسواق كثيرة و دكاكين عظيمة كثيرة المساجد و المزارع كثيرة الحناء بحيث لا تساويها فى ذلك بلدة و هى مشهورة بها حاصله أنها جمعت فأوعت أفاض الله علينا من بركات أهلها و جعلنا من أهل السنة بمنه و كرمه فانفصلنا عن قابس و معنا الشيخ المسن فى الإسلام الفاضل من الأنام الشيخ الحمرونى و ابن عمه يريدان توديعنا و تشييعنا إلى أن خرجنا و تباعدنا إلى قرب إشرافنا على روضة الشيخ سيدى مهمل فرجعا و أن لقلبهما ألفتات إلينا و حزنهما علينا كان الله لنا و لهما فى الدين و الدنيا آمين.

ثم مررنا كذلك إلى أن نزلنا بالميت قرب الشيخ المذكور فظعنا منه و مررنا عليه عند الضى فصلى من صلاها و تغدى من تغدى فزار الجميع منا الشيخ المذكور و انفصلنا عنه ثم ذهبنا كذلك إلى أن قربنا القرية التى على شاطئ البحر فبتنا و مررنا عليها عند الضحى و هى قرية صغيرة و ليس بها ماء إلا ماء المطر فلا يشربون و لا يسقون و لا يستسقون إلا منه فتعجبنا منها و فيها ماجن عظيم يجتمع فيه ماء المطر قل نظيره فالله يرحمهم بمطره و لا يقطع مدده عنهم آمين فمررنا عليها ذاهبين إلى مدينة

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٥٦

صفاقس فنزلناها بعد الزوال و الله اعلم.

و فيها قبر اللخمى المعلوم الذى ذكره الشيخ خليل فى الخطبة و هو الذى تنسب إليه مادة الاختيار و شهرته تغنى عن ذكر طبقته و هى مدينة قديمة طيبة عليها سور جيد و فيها مسجد عظيم تجتمع فيه القراء و العلماء للتدريس و قد باحث البعض فى علم الكلام لأننى وجدته مدرسا فيه فلم يستطع فهم الإشكال فضلا عن الجواب و على تقدير فهم الإشكال فلا يقدر على الجواب لضعف ملكته ثم انتقلت إلى مجلس آخر فى الفقه غير أن صاحبه منصف فافر بالعجز و التقصير و قد علمت أن لا أدرى علم و هو جنه (بضم الجيم)

العالم أى حصن و وقاية له إذا وقع له ريب فلا ينافى العلم.

ثم انتقلت إلى مجلس آخر فى النحو غير أنه تأدب معى و هو يقرأ و يسأل و يسمع منى و ينقل إلى أن شاع أمرى ذلك اليوم فى مدينه صفاقس فصار الطلبة يخرجون إلى الخيمة يقصدون الاستفادة فى العلم و الاختبار على حسب قصد كل و لكل امرئ ما نوى ثم اشترينا بعض الكتب منها فاشترت حاشية على البيضاوى من بعض أهلها غير أنها ليست للشهاب و إنما هى للقاضى زكرياء و قد أورد على سؤال المشتري منه فى النحو أعنى إعراب مالك يوم الدين على انه اسم فاعل أو صفة مشبهة و غير ذلك من وجوه أعرابه و هى مسألة عميضة غير انه لم ييسط نفسه معنا و إنما قصد التعجيز و العناد و إزالة بعض ما وقع لنا من البحث مع طلبه صفاقس فقلت له ريب نفسك لتسمع العلم فإن كنا عالمين فتستفيد منا و إلا استفدنا منك فبينت له بعض وجوه إعرابه فرآه حقا و إنما مراده استقصاء جميع أنواعه مع كونه غير متمكن من جميعها و إنما رآه فى حواشى البيضاوى و قد رأيت بعد ذلك بجميع أنواعه مع تمام البيان فكنت على ذروة من علمه و شرافة بيانه.

هذا و إن فى تلك المدينه مزارات كثيرة و زرناها على سبيل الجملة و التفصيل و زرنا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٥٧

للخمي من بعد و كذا الشيخ النورى و قد أدركت بعض تلامذة النورى و هو ضرير فى الحجّة الثانية كبير السن سبعى ضرير و مدينه صفاقس على شاطئ البحر و فيها بساتين عظيمة و جنات كثيرة يستحيلها الناظرون و يستحسنها المسافرون جمعت بين البر و البحر تجتمع فيها الخيرات و تعمها البركات أفاض الله علينا من بركات أهلها و صنعة الكتان فيها كثيرة و هو معلوم عند الناس و مشهور لديهم.

نعم ظلم القواد و العمال أضرب بهم و بأهل الساحل جميعا و أما أهل الخير فيه أى الساحل و أهل الصلاح و العلم الأحياء و الأموات لا يضبط عداهم و لا يستقصى حداهم جعلنا الله فى زمرتهم و من علينا ببركاتهم آمين.

ثم ظعنا منها بعد ذلك اليوم و أهلها طالبون الإقامة منا و الحجاج متعجلون فذهبنا عند صلاة الضحى و أما أول الركب فقد سار عند بيان الوجوه فسرنا كذلك إلى أن قربنا إلى قرية مشهورة فيها قصر عظيم و بناء جسيم حكيم البنيان متقن الصنعة عريض المتن له أبواب كثيرة طبقته على طبقه واسع المتن طويل البناء و لا اعلم من بناه و أظنه من بناء المتقدمين من الجهال و حوله قرية مستديرة به كثيرة الزيتون خارج عن العادة عدا و وسعا و كبر جثه طويل الفروع فلا تكاد أن ترى الشمس من خلاله و أظنها أنها سميت بجمال فبتنا دونها و مررنا عليها عند الضحى الأعلى فسبقنا الركب لننظر ذلك القصر فنزها فيه العيون و ريبنا فيه الأفكار و فيه غاية الاعتبار قل نظيره فلا- تحصى ما فيه من العجائب و الغرائب ثم انفصلنا عنها متعجبين غير أن أهلها من الضعفاء يظهر ذلك من سوقهم و سيمتهم تشهد بذلك ثم سرنا كذلك إلى الليل فبتنا دون سوسة و تجنبنا طريق جمال و قد دخلتها فى الرجعة من الحجّة الثانية و جمال قرية عظيمة متسعة العمارة فيها سوق و حوانيت و لا سور محيط بها كجميع القرى الخالية

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٥٨

عنه و فيها زيتون كثير و بساتين عظيمة نفعنا الله ببركة أهلها آمين.

ثم نزلنا سوسة و هى بلدة طيبة قريبة من حاضرة تونس لها سور عظيم و بنيانه جسيم و هى محكمة منضبطة على شاطئ البحر فيها مرسى مثل صفاقس و فيها العلماء مثل الفاضل المحقق و العلامة المدقق الشيخ الهادى و قد سمعت قبل ذلك جواهر لفظه و فوائد بنات فكره مرتب القراءة فى تعليمه من غير تلجلج و لا كثرة اختلاط مع تمام البيان و وضوح التبيان يده تجول فى كل العلوم و له قوة و تصرف فى سائر الفنون فقد سألت عنه فقبل لى أنه لا يخرج و لا أدرى ما منعه منه و لو علم بى لخرج و لو بالتكليف و بعد ذلك سمع بى فتأسف على عدم الملاقاة و كان يسأل عنا كثيرا و يطلب الدعاء منا و هو مظهر لحننا و معتقد فى جانبنا و قد اجتمعت معه فى تونس لأن على باشا أميرها اغتاز عليه و من عادته انه إذا ضاق على أحد من العلماء حبسه فى المسجد للتدريس ثم انه يجرى عليه

النفقة و ما يستحقه و إن كان صالحا أو عبدا حبسه في دار أو خلوة للعبادة و قد حبسه في جامع الزيتونة في الواقع و أما في الظاهر فلم يكن عليه آثار السجن و قد علمت ذلك ممن يقبل منه في تونس.

هذا و أن سوسة محل الصالحين و العلماء العاملين أحياء و أمواتا ظاهرة البركة بلدة طيبة [واسعة البساتين كثيرة الفواكه طعامها جيد و خبزها طيب] واسعة الأرزاق، حلوة المذاق، يستحسنها الناظر، و يتمناها المقيم و المسافر، تصلح أن تكون قاعدة من قواعد الملك فهي ظريفه شريفه، طيبة منيفة، تعدل جميع ما رأينا، و هي أولى مما علمناه و أبصرناه، إلا أنها قد وقع الظلم على أهلها و سبب ذلك تبدل الدول فمنهم من يحبها و يتخذها حصنا و منهم من يبغضها و يذلها فأزال منها جميع المعنى فقد أشرب فيها أعناق الحجاج لشراء بزها لا سيما الكتان فقد اشتروا منه كثيرا هذا و أنى لم أدخل مدينته

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٥٩

عظيمة قوية البركة عظيمة في الزيارة لاحتوائها على طبقة العلماء المؤلفين و اشتمالها على أهل الترجيح من المجتهدين كالإمام المازري و ابن يونس و غيرهما فإن الوفود تأتي إليها من كل جانب و هي مدينته علم و بركة عظيمة.

و قد نقلنا من بعض المؤلفات ما نصه و يقال أن يافريقيه بلدة يقال لها المنستير مشهورة البركة غير أنى لم أدخلها قط و رجوت الله أن لا يحرمنى من بركة أهلها و أن يدخلنى إليها مع النية الصالحة و الهمة الرافعة و قد زرناها من بعد فظعنا من سوسة و بتنا قرب الحمام من غير دخول إليه ثم ظعنا منه و نزلنا في عمارة دون حمام الأنف و ظعنا منه ثم مررنا بحمام الأنف عند الضحى فتحمنا فيه بنية التبرك و الشفاء من كل سقم و وصم دينا و دنيا و حرارة مائه و سخنة من غير سبب حسى و إنما هو من الله تعالى ليس إلا.

و قد سمعت أن بعض الناس يحكى عن بعضهم أن الجنون التى أمرها سليمان عليه السلام بتسخين الماء فلم يستطيعوا خلافه غير أنهم لا يسمعون و لا يرون فظنوا بقاءه إلى الآن و الذى رأيت في التفسير أن الجنون استمروا على العمل بعد موت سليمان سنة فعملوا به و تركوه أى العمل و هذا الحمام في غاية الإتقان فيه موضع معد للنساء و موضع آخر معد للرجال و هما مستوران.

نعم هو معلوم البركة و الشفاء فتجد أهل العلل فيه دائما لا يخلو عنهم و قد سكن فيه بعض الناس غير أنه كثير الفتنة من كثرة النساء و هن يرعن من فتن نعم تونس من لم يكن على حذر فيها من النساء زل في مهواة الضلال و سقط في مفازة الهلاك فلما غسلنا و اغتسلنا و قضينا و طرنا منه ذهبنا إلى تونس فنزلنا خارج السور قرب مقر العسكر و استقراره و نزوله أعنى برجهم المعلوم و هي القصبه تحت المدفع قرب الشيخ الغوث الولي الصالح سيدى عبد الله الشريف أفاض الله علينا من بركاته و كان لنا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٦٠

و لذريته بجاه محمد و آله آمين يا رب العالمين.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٦١

ذكر وصولنا إلى تونس

حاصله خيمتنا نزلت مع الركب و فيها أصحابنا و أنا قد ذهبنا إلى الدار التي نزل بها ولدى مع زوجته حين خرجوا من البحر ينتظرون وصولي فقام الناس في تونس أعنى الراغبين في الخير لضيافتنا بالكسكس و اللحم كثر الله خيرهم بحيث تكرموا علينا غاية الإكرام و زادوا على المعتاد بشيء كثير حتى عم ركبنا و فضل داخل المدينة و خارجها.

نعم الشيخ البركة و المنور القدوة الشيخ الوجداني، و الفيض الصمداني، سيدى محمد الغرياني، زاد في الإكرام، بحيث خالف العادة في الإكرام، و قد أخرج كذا و كذا مائدة أغناه الله غناء الدارين و جعل البركة في ذريته.

حاصله أقبل الناس من كل ناحية بالإطعام و الإكرام ما دمنا نازلين بتونس ثم إن أكثر العلماء و الصلحاء و من فيه رائحة خير يأتون بالطعام إلى دارنا ثم يذهبون بنا إلى بيوتهم قصد نزول البركة في محالهم من جميع من فيها حرسها الله آمين.

و من اجتمعنا معه فى بيته الفاضل الكامل، المفتى الحافظ الناقل، الفقيه السيد ابن محجوبة و العلامة الفاضل ولده محبنا سيدى محمد و هو ممن له زائد اعتقاد فينا، و على الدوام معتينا بجانبنا، و ممن اجتمعنا معه أيضا الكامل على الإطلاق، الأديب بالاتفاق، و نظيره قليل عزيز، سيدى حمودة بن عبد العزيز، و قد أكرمنا أيضا و كان أبوه أيضا شيخنا سيدى محمد بن عبد العزيز و كان من المحققين و ممن اجتمعنا معه من الحنفية الذى علت همته، و رفعت منزلته، و تحققت خصوصيته، العالم الفاضل الأديب

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٦٢

النحوى اللغوى المحدث سيدى حسن الترجمان.

و ممن اجتمعنا معه أيضا و كان من الفضلاء و النجباء و الأخيار العلماء محدثا فقيها نحويا أصوليا بيانيا منطقيا سيدى الكبير الشريف و منهم أيضا الفاضل الفقيه النبيه الكامل المحدث الأصولى الكلاميين النحوى الناسك المجتهد سيدى أحمد بن عبد الصادق. و منهم من له التصرف الكامل و البسط الجليل المحقق و العلامة المدقق ذو الأبحاث الشريفة و النكت المنيفة و الفوائد الطريفة و الأدبيات المستظرفة المعقولى على الإطلاق سيدى صالح الكواشى و منهم الفقيه العدل و المحقق الفضل ذو الفضائل و الفواضل المقبل على الله سيدى ناصر القابسى و نجلاه الفاضلان الأديبان الكاملان سيدى محمد و أخوه سيدى و منهم الفاضلان الجليلان العالمان المتمسكان بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم سيدى محمد الوسط و سيدى أحمد نجلا شيخنا و ثمرة فؤادنا سيدى عبد الله السوسى [و منهم النحوى اللغوى الفاضل النصح سيدى أحمد السوسى] و منهم الحافظ الفقيه النزبه النبيه الخلاصة المرتضى و العالم الخالص الأخطى محبنا سيدى أحمد التجانى و منهم الكريم على الإطلاق و الفقيه بالاتفاق سيدى محمد المغربى. و منهم أيضا صاحب الأوراد، ذو الفضل و المدد و الأمداد، المجد و المجتهد المعتنى للاستعداد، المنور الزاهى، سيدى أحمد الباهين و كذا الفاضل ولده، و الكامل

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٦٣

الذى تهو فؤاده، الشيخ إسماعيل و منهم الفقيه النبيه الجليل المحب سليل الأخيار و نخبة المتقين المقربين ذوى الأنوار سيدى نصر و أما غير هؤلاء من العلماء فكثير و الصلحاء و الطلبة و الفقراء و أهل النسبة و الدين مما لا يحصى ضبطا فكثير و كذا العلماء و أهل الدولة فأوصافهم تجل عن العد و الإحصاء و كذا المجتمعون فى جامع الزيتونة للإقراء و التدريس فتقصر العبارة عنهم و عن عددهم . نعم الذى يأخذ العلم الظاهر من غير سلوك للطريق الجادة بأن يأخذ ما يتعلق بالحرف الدنية و الصنائع الخسيسه من غير تمكين فى الباطن كثير جدا فهى أما زندقه، أو دعوى غير محققة، فإن الجامع المذكور قد انتشرت عليه الأنوار، و انبسطت عليه الأضواء و المعارف و العلوم و الأذكار، كاد أن يكون جامعا للفنون و محتويا للعلوم فما أحسنه من جامع أكرم به الطلبة الباحثين فشمس أنوار الفهوم فيه مشرقة، و فوائده و عوائده محققة و مدققة، فهو جنه العارفين، و خلوة للمتعبدين الناسكين، و مزاره للراغبين المشتاقين، فالذائق لطعم الإيمان فيه لا يشتهى طعاما و لا شرابا و لا نكاحا لا تقر عينه إلا بتلك الأزهار، و تتفكه بأحسن الفواكه و ألد المشتهى من تلك الثمار، إذ فيه ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين من محاسن العزيز الجبار، لا فيه غول من أسباب الدنيا، و لا نصب من العوارض و القواطع من المراتب العليا.

نعم أن سلاطين تونس و أمراءها و أصحاب الدولة فيها صرفوا همهم إلى العلم و أقاموا منائر عزه فبنوا المدارس و أوقفوا الأقباس، و أعزوا العلماء و أغنوا للدرس الجلاس، فأسهموا كلا على قدر همته و اشتغاله فإذا كان كل شىء على أصله و فصله

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٦٤

و منواله فمن لم يصبه منهم كثير و وصل إليه نزر قليل لمثل العلم فليعمل العاملون فمن تمكن من تونس و وجد معينا على العلم تعليما و تعلمنا بأن ساعده الزمان و الإقبال فرجع من غير قضاء و طره انتهاب و الانتحال لا سيما إن وجد من يخشى الله و يتقيه و كان محققا للعلوم و مدققا للفهوم ناصحا للضعفاء من الطلبة فليشد يده عليه من غير عجلة بل يتوانى حتى تحصل له الملكة القوية فى كل العلوم.

حاصله تونس نعمة لمن أقبل على الله و اشتغل بما يعنيه علما و عملا و حالا فلا يطمئن الصادق فيها من الوصول إلى الله تعالى و بلوغ المأمول لأن الإعانة في المعالي على حسب مخالفة النفس و شهواتها لا سيما موضع كثرت فيه اللذات و تواترت فيه الطيبات على قدر نبذها و طرحها من القلب تسرع إليه الإجابة بالوصول إلى مرضات المولى فيزول الحجب عنه مقدار طرفة عين إذ الصديق من كثرت أعداؤه و شهواته فلم يبال بها.

نعم و لذلك كثرت فيها البلبه الذين لا يهتمون بأنفسهم و لا يميزون الجيد من غيره لغيتهم عن حسهم فسلب الله لهم ما يجنون به على أنفسهم من عقل التكليف فلم يبق لهم إلا عقل التعريف فتري أهل العلم يتزاحمون و يتراكمون لديهم فيستمعون الإشارة منهم فضلا عن العبارة لديهم و قد شاهدت منهم أمرا عظيما.

و بالجملة فالعالم العامل أو صادق التوجه من الطلبة منور دائما مقبول عند الخاصة و العامة و أما من له حرفة بعلمه و غرض دنيوى لا سيما أن لا حظ الزنا و اللواط فهو مكسوف الأنوار منعكس الحقائق في هذه الدار و في تلك الدار فعلمه

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤٥

وبال عليه و نعمة من الله لديه و هذا اشتغاله بالعلم ليقال فقد قيل و إنما يسحب على وجهه للنار إن لم تفضل الله عليه بالمغفرة لأن العاصي من المسلمين في مشيئة الله تعالى فلا ينفذ فيه الوعيد حتما لأن القدر الذي ينفذ فيه الوعيد حتما من الموحد من قدر مبهم فيجب على كل مكلف اعتقاده.

تنبيه تونس قريبة الاستبأ طاعة و معصية لكثرة أهلها و تيسير أسبابها فلا ينبغي لضعيف العقل و إن كان شائبا أو صغير السن استئطانها و لا-التغول في استقصاء أسواقها و حمامتها و دكاكينها بل و لا مقارها فإن الفتنة قد عمت جميع محالها و تشعبت مواضع الخير بها فبدلت و العياد بالله بالشعر حتى استنكف أهل الجرائم عن مخالطة من سلم منها فتجده مشتت الذهن طائش العقل غائب القلب متحير الفكر ليلا- و نهارا فعنوان قراءته في الظاهر فقط و لو وصلت إلى الباطن لأثرت فيه الخشوع و الخشية لله تعالى إذ العلم إن قارنته الخشية فهو لك و إلا فعليك لكن ليس من شرط العلم العمل إذا العلم شريف و الجهل مذموم و قد قال تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فمن وفق إلى العلم وفق إلى العمل لا تترك العلم لأجل عدم النهوض إل مقتضاه فلينفض إلى لأن التوفيق إلى العلم و الهداية إليه نعمة و أى نعمة أشرف منه فكل عمل بر بالنسبة إلى الجهاد كبرقه في بحر و عمل البر و الجهاد بالنسبة إلى العلم كبرقه في بحر و قال صلى الله عليه و سلم الناس عالم و متعلم و غيرهما همج و قال صلى الله عليه و سلم الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا- ذكر الله و ما والا و عالما و متعلما و غير ذلك من فضائل العلم و لو لا العلم و أهله لصب البلاء على تونس صبا لظهور المعاصي فيها من غير نكير غاية من مر على أصحابها يقول اللهم ألطف بصاحبها

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤٦

و أرزقه الهداية أو كلاما هذا حاصل معناه.

و قد علمت أن العالم إذ رأى منكرا و لم يغيره فعليه لعنة الله .

نعم لتغيير المنكر مراتب أقلها تغيير القلب و لا بد من وجوده من هؤلاء الفضلاء حاصله نور العلم و الطاعة على أنواعها أخدمت ما فيها من نار المعاصي رحم الله الجميع بمنه و كرمه و على قدر كثرة الناس بكثير فيهم المطيع و العاصي و قد رفع الله المسخ لوجود الذاكرين و المستغفرين منهم و قد قال تعالى: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ الآية فإذا تمهد هذا فاعلم أن الذي تأنست به هو الفاض العالم الموفق المنور حسن الخلق و الخلق لا- يسأم الإنسان من مخالطته و لا يمجه بطبيعته تعلوه البشرية إذا توجه إليك إذا ما خامر قلبه فعلى وجهه يلوح آثاره أسرته تدل على سريرته ينطق بالحق إذا تكلم فهو من أهل النصيحة و الوفاء سيرته سيرة المصطفى صلى الله عليه و سلم رحمة لأهل زمانه و غيث في أوانه كريم النفس سخي الطبيعة لا يدوم إذا غضب فيرجع إذا استرجع آئس مما في أيدي الناس لا رغبة له في الدنيا إلا ما يعمر وقته بحيث لا يشغله عما هو فيه من بث العلم

لمستحقه رحمة لابن السبيل و محل للضعيف و الغريب اعتقاده كامل في جميع المسلمين لا سيما من تحققت له الخصوصية و ثبتت له الفضيلة و المزية فقد انسلخ عن جميع البشرات بانعكاسها روحانيات فهو بشر في ظاهره روحاني في باطنه إذ غاب عن الأكوان بمشاهدة المكون فكل ما يخرج منه دواء بلا لبس و إخلاص بلا عوض ليته ظهر بسرّ الأسماء و الصفات.

و بالجملة ففضل الشيخ الغرياني علما و عملا و حالا و قبضا و بسطا و هيبة و أنسا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤٧

و خوفا و رجاء و إجلالا- و تعظيما ما عظمته الشريعة كثير لا- يكاد يخفى على أعدائه «و الحسن ما شهدت به الأعداء» و هو فقيه محدث نحوي تصريفي منطقي أصولي متكلم عروضي مفسر ليس فظا غليظ القلب و هو أيضا رحيم للأمة المحمدية لا سيما غرباء الطلبة يأخذ بيد الضعيف فإذا استغنى اندره و جرده غاية يقر بصلاحه و أما علمه فيججده و هو كما قال الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

و هذا شأن خبثاء الطلبة و لذا لم يظهر عليهم سر العلم و لا نور الولاية فتجد أكثرهم مكسوف الأنوار يخبط خبط عشواء، و يركب متن عمياء، فلم يقع للعلم أثر و لا- للحكمة نور، و لا- لفهمه طائل و لا- نشور، و إنما يتجاذبون الألفاظ و الأوضاع، و هم عن حضرة الله بالانقطاع، و ما تخفى صدورهم أكبر و هذا معلم في جميع البقاع، و لو تراهم لقلت أنهم شياطين، في صورة العلماء العاملين، و إنما هم شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا و انه علم ينتفع به فليس ثم إلا- تلبيس و فتن، و تخليط و محن، فاللسان لسان العلماء، و الفعل فعل المردة العظماء، إياك و صحبة من هذا وصفه فإن ضره أكثر من نفعه، و جره للفساد أكثر من رفعه، فلا تكن معمولا لهذه العوامل التي تقطع عن الله و سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم و إنما العلم وسيلة إلى الوصول إلى الله و عامل في رفع النفس و الهمة إلى حضرته و إلا خرج في سلك أهل دائرته و الوصول إلى التخلق بأخلاق المقربين من أختار أمته فأكرم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤٨

نفسك بتحقيق ما عليهم ثم اكسها بكسوة أسرارهم فإنهم بشر لا كالبشر من حيث الصفاء، و الأخذ بالوفاء، و التخلق بالرحمة و عدم الجفاء، فإن الشيخ حقيق به هذه الأوصاف بلا خفاء.

فإذا علمت هذا علمت أن الشيخ تضلع من علم الشريعة و تمكن من علم الحقيقة كما يليق الله جعلنا الله من أهل وده و هو صدوق لنا و الحمد لله على صحبة مثله و معرفة نظيره فإن مثله يكون شفيعا مثلنا.

و لو نعطى الخيار لما افترقنا و لكن لا خيار مع الزمان

كان الله لذريتنا و لذريته و للأخذين عنا و الآخذين عنه بهذه الأوصاف الطيبة و أمدنا و إياهم بإمداده الوهيبه الربانية اللدنية الفردانية آمين آمين آمين يا رب العالمين.

على أن شيخنا المحقق و العلامة المدقق الفقيه الأصولي النحوي المنطقي المتكلم الفرضي المحدث المفسر العروضي العبقرى الهمام ذا الفضائل و الفواضل المتصوف الزاهد المتخلى عن الدنيا الشاكر لفقدانها المشتغل بالله المقبل عليه المدبر عمن سواه القامى بسنة نبيه الراغب فيمن تخلق بأوصاف المتقين الناصح لعباد الله العاجزين و هو ممن يصح الاقتداء به نظيره سيدى عبد الله السوسى فكلاهما من فحول الرجال و قطبى الكمال انفعلت سريرة أشياخهما فيهما و ظهر فضلهم عليهما و أنبسط سرهم على أنفسهما فلا يبغضهما إلا شقى و لا يحبهما إلا سعيد تقى وق تفضل الله علينا بمعرفتهما و صحبتهما.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٤٩

و كذا معرفة الفاضل الكامل العدل المقبل على الله بجميع شراشره المتبتل إليه بكليته المنيب إلى الله بجميع شئونه المتعبد على الإطلاق فلا يهمل أوقاته فإنه يعمرها بما ورد عنه صلى الله عليه و سلم تعميرها من ذكر و صلاة و تلاوة قرآن و تهجد و صيام فلا تراه

إلا مقبلا على الله مطمئنا بذكره لا يفتر عن طاعة الله السخى بنفسه القوى بأنسه لا يبخل بالطعام و هو كريم لجميع الأنام صدوق في المحبة موف بشروط الأخوة يزيد في النسك و العبادة و التزود بزد الأخره و هو في غاية الخوف و المراقبة كرمت نفسه أن تسأم عن طاعة الله و طاعة رسوله صلى الله عليه و سلم و محبة أهل الكمال من خيار الأمة المحمدية لا يعامل الكل إلا بصدق المحبة يغيث المضطر عند اضطراره و يؤثره على نفسه و عياله و أولاده و من تجب نفقته عليه و قد تداين كثيرا أنفقه في محبة الله و مرضاته و استعان به على إطعام الطعام في مقامه و زاويته و هو مشهور في أهل قربه و ولايته لا يستطيع أن يصد عن مكروب و ملهوف في محنته سيدى محمد بن الحاج نجل البركة القدوة و الرحمة للأمة و النعمة العظيمة سيدى أحمد المجذوب نجل الشيخ البركة سيدى عمر العجيسى ثم الزمورى من مدشر بو عزيز قريه من قري بنى فرغان من وطننا نعم أن رأيت في فائق الأشراف أن عجيبة شرفاء و الله اعلم. و لا شك أن أوصاف الشيخ سيدى أحمد المجذوب و أولاده لا تكون إلا في الأشراف فإنهم في غاية الكرم أورث الله مقامهم لأولادهم بمنه و كرمه و الفاضل سيدى عبد الرحمن قام مقام أبيه بلا شك في الله أنه يجعل البركة في جميعهم أكثر من أسلافهم و قبر سيدى أحمد المجذوب معلوم مشهور يزار له حرمة عظيمة عند ملوك إفريقيا و أمرائها في جبل ماطر.

و بالجملة فيها من الأحياء و الأموات ما لا يحصى و لا يعد، و لا يضبط و لا يحد، لا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٧٠

سيما البله من أهل الإشارات فإنهم غابوا عن إحساسهم فلم يجدوا لأنفسهم أثرا، و لا لعقولهم خبرا، فلا تكليف عليهم، و لا حكم لديهم، إذ لا يحكم لهم و لا عليهم فإن عقولهم قد زالت بحقيقته الأهيبة، لا أمور و همية، و لا ماهية شيطانية، فإنهم غابوا في ذات المكون فلما تجلى لهم تلاشى كل شىء سواه عندهم فلم تبق لهم حركة تمييز، و لا أمر عزيز، فنفسهم انتن عندهم من الجيفة بل طبائعهم طبائع البهائم تراهم في المزابل و الأسواق و الأزقة ممتنين محفورين لا ينظرون، و في المهمات لا يشاورون، طبائعهم مناقضة لطبائع العقلاء فلا تجد أحدهم إلا منبوذا مطروحا ساقطا من أوباش الناس تكره نفوس أهل المروءة أن تنزل بساحتهم و تتعلق بأذيالهم و تتحاشى أن يكونوا في مجالسهم و هم أمناء لهذه الأمة لولاهم لوقع المسخ و العذاب غير أن الله تفضل علينا بهم و إن كان لا نفع فيه بحسب الظاهر إذ لم يثوا علما و لا نشروا فهما و لا أصلحوا فسادا و لا درؤوا ضرا و لا جلبوا نفعاً فإنهم عالمة على الخلق معيشتهم تأتي بلا كلفة أفاض الله علينا من بركاتهم و سقانا من بحر فضلهم و جودهم فكملت لنا السعادة برؤيتهم و الاجتماع بهم.

هذا و أن أولياء الله في تونس كالتجوم الأموات و الأحياء و قد زرنا من يعتد بزيارته من الأموات كالأشياخ محرز بن خلف و سيدى على بن زياد و الشيخ المرجانى و ما كان في الزلاج كابن عبد السلام و ابن عرفه و البرزلى و ابن هارون و ابن راشد القفصى و مغارة الشاذلى و محل الأربعين من أصحابه و غيرهم من العلماء و الصلحاء ممن لا يمكن أحصاؤه من المؤلفين و أرباب الأحوال العارفين.

و كذا زرنا الشيخ سيدى أبا سعيد الباجى و الشيخ الغبرينى ثم سيدى على الحطاب و سيدى سالم الدباس و أصحاب الشاذلى الظاهرين، و غيرهم من الأشياخ

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٧١

و المريرين، و هؤلاء سلاطين البلاد، و عليهم في جميع الأمور يعتمد.

و كذا زرنا الفاضلة الصالحة المنورة التى يستجاب الدعاء عندها السيدة المنوبية و كان شيخنا سيدى عبد الله السوسى يزورها كثيرا و يغتنم بركاتها ليلا و نهارا أعاد الله من بركاتها و بركاتهم علينا و على ذريتنا و على جميع من تعلق بنا من الطلبة و الجيران و كذا جميع الأصحاب و الإخوان.

حاصله لا يمكن استقصاء ما فيها من النجباء و الفضلاء و الصلحاء ممن اجتمعنا معه و أجزنا بالأذكار و العلوم أيد الله الجميع بمنه و كرمه.

و قد مكثت فيها نحو خمسة أشهر و نيف و أنا في تعمير الأوقات بتدريس الفنون و ضبط القواعد من العلوم فإن تونس قاعدة من

قواعد العلم، و مدينة من مدن الفهم، غير أن أهلها ينكرون البراني، بلغ ما بلغ في القرب و التداني، فإن ما وقع بالإمام ابن مرزوق منهم أعنى الأبى و غيره دائم فيهم إلى الآن أزال الله منهم ذلك، و طهرهم مما هنالك، من التنافس و الحسد و البغض و حب الرياسة و علو الصيت و الأغرار على الأقران و الأدعاء و التطفيف في الاعتقاد بأن يعتقدوا في أنفسهم الكمال و في غيرهم النقص و التزخرف بالزخرف الغار و التلهي بالملاهي و الخوض في المهلكات من الموبقات التي هي الكبائر و المسامرة في المبطلات و الاشتغال بما لا ينبغي من الفضولات آمين يا رب العالمين.

و بالجملة فإن تونس خيرها عظيم، و حالها كريم، و وصفها نعيم، و طبعها نسيم، حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الاشتياق، قوية الأسواق، ممدودة الأرفاق، واسعة الإنفاق، جالبة الأرزاق، كثيرة الفواكه في جميع الأوقات بلا كلفة و لا مشاق، جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق، روضة للمطيع و العاصي،
الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٧٢

و الرحيم و القاسي، و المتيقظ و الناسي، لكل أحد جلسه، و لكل محب أنيسه، فما تشتهي بين يديك، فزت فيها أن انتهيت عن حديقك، و إلا- طرحت في مزابل نفسك، و هوان جسدك و عهدك، فلا توافق فيها أمر نفسك و ضدك، و إلا هلكت بقريتك و نذك، كريمة للكرماء، طيبة لذوى الخشية من العلماء، مهلكة للفسقة و الظلمة من الأرض و السماء، فلا تعجب من نم و دها، و لا تفرح بسعودها، و لا تعتمد على جدودها، و لا تفتتن بحسن خدودها، و لا تغتر برشاقة قدودها، و لا تستحسن ما كان من قواعدها، فإن ذلك كله غرة، و بلية و ضرّة، و مع ذلك لا تخلو عن بعض العدل إلى قيام الساعة كما أخبرته غير واحد من العلماء.
و قد قال صاحب الأدلة السنية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ما نصه:

الباب الثاني في التعريف بمدينة تونس و ما يتصل بذلك: و هي مدينة إسلامية أحدثت عام ثمانين من الهجرة و كان أبو جعفر المنصور العباسي إذا قدم عليه رسول أمير إفريقية يقول ما فعلت إحدى القيروانين يعني تونس تعظيما لها و هي اليوم قاعدة البلاد الإفريقية و أم بلادها و حضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين و مهاجر أهل الأقطار من الأندلس و المغرب و غيرها فكثر خلقها و اتسع بشرها و رغب الناس في سكنها و أحدثوا بها المباني و الكروم و البساتين حتى بلغ ذلك النهاية حتى لا يوجد في غيرها و بينها و بين القيروان مسيرة ثلاثة أيام و بينها و بين البحر نحو أربعة أميال و بينها و بين قرطاجنة نحو عشرة أميال و بين تونس و مرساها بحيرة يقال أنها كانت كثيرة الجنات و المياه و الزروع طيبة الفواكه فغلب عليها ماء البحر.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٧٣

و لمدينة تونس سور يدور بها و يقال أن دورها أربعة و عشرون ألف ذراع و جامعها مليح الصناعة حسن الوضع مطل على البحر بناه عبيد الله بن الحجاج هو و دار الصناعة سنة أربع عشرة و مائة و أنفذ إليها البحر و تونس في سفح جبل.
قالوا و هي دار علم وفقه و على نحو عشرة أميال منها نهر مجردة و هو على الطريق إلى المغرب و يقال أن من شرب منه قسا قلبه فأكثر الناس يجتنبون الشرب منه و سميت تونس لأن المسلمين كانوا لما افتتحوا إفريقية ينزلون بإزاء صومعة ترشيش و يأنسون براهب هناك فيقولون هذه تونس فلزمها هذا الاسم.

و نزل عليها عبد المؤمن بن علي سنة أربع و خمسين و خمسمائة فحاصرها ثم دخلها عليهم و اختلفت عليها و لاءة الموحدين إلى أن نزل عليها علي بن إسحاق الميورقي فحاصرها ثم ملكها و غرم أهلها مائة ألف دينار و عنف نوابه الناس في تقاضيتها ثم أخرج عنها لما بلغه تحريك صاح المغرب إليها أبي عبد الله محمد بن يعقوب المنصور و ولي عليه الهزائم كبير أصحابه المولى أبو محمد عبد الواحد المرة بعد المرة.

و من تونس الشيخ علي بن زياد الفقيه صاحب مالك بن أنس رضى الله عنه و قبره بداره باب المنارة و منها الإمام العابد محرز بن خلف ذو المناقب الشهيرة و قبره بداره بداخل باب السويقة و يقال أن من تونس تقصم الجابرة و ينشد على ذلك شعر:

و كل جبار إذا ما طغى و كان فى طغيانه يسرف

أرسله الله إلى تونس فكل جبار بها يقصف

و دور بحيرتها أكثر من أربع و عشرين ميلا و فى وسطها جزيرة تسمى شكلى فى مقدار ميلين تنبت الكلخ و فيها أثر قصر خرب و تونس فى سفح جبل يسمى أم عمرو بقبلى مدينه تونس جبل يعرف بجبل التوبه ما ينبت شيئا و هو المسمى اليوم بجبل الرحله الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٧٤

الزلاج و يقال أن القرية التى استطعم أهلها مدينه برقه و عن بعضهم أنها الجزيرة الخضراء و عن بعضهم الأيله و بالقرب من رادس وادى ميلان و عليه القنطرة الشهيرة ضخامة و اتساعا و التونسيون يزعمون أنها بنيت من مال رجل من المغرب كان يتكفف الناس و يتصدقون عليه و لا يعلمون حاله و سعة ماله إلى أن توفى فوجدوا له مالا ممدودا فأمر المولى أبو زكرياء رحمه الله أن يصرف فى بنائها فابتنت منه اه.

و قد قال أيضا ما نصه:

الباب الأول فى حد المغرب و إفريقية و ما ورد فى فضلها: و ذكر أهل التاريخ فى كتبهم أن حد المغرب من ضفة النيل التى تلى بلاد المغرب إلى مغرب الشمس وحده مدينه سلا ينقسم أقساما فقسم منه من الإسكندرية إلى مدينه طرابلس إلى حد بلدة قسطلية و هى التى يقال لها إفريقية و يلى هذه البلاد المذكورة من الزاب الأسفل المذكور و حد هذه البلاد مدينه تيهرت و يليا بلاد الغرب يقال أيضا أنها مدينه طنجة بل بلادها وحدها إلى آخر المغرب مدينه سلا و بلاد الأندلس من المغرب و داخله فيه لاتصالها به الأعظم الذى يسمى بحر الزقاق و حد إفريقية من مدينه طرابلس إلى مدينه طنجة.

و مدينه طرابلس مدينه كبيرة أزيه على ساحل البحر يضرب فى سورها ماء البحر و هو من حجر جليل من بناء أول و من طرابلس إلى جبل نفوسة ثلاثة و من جبل نفوسة إلى القيروان ستة أيام.

الرحله الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٧٥

و مدينه طنجة مدينه بالمغرب قديمة على ساحل البحر فيها آثار كثيرة كبيرة و بينها و بين سبتة فى البر ثلاثون ميلا و فى البحر و أول من افتتحها عقبه بن نافع و قتل رجالها و سبى من فيها و هى على شاطئ بحر الزقاق على القنطرة المعروضة إلى ساحل الأندلس التى لم يكن فى العالم مثلها و كانت تمر عليها القوافل و العساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس فلما كان قبل فتح الإسلام طغى ماء البحر و زاد و خرخ من بحر المحيط إلى بحر الزقاق و أغرق هذه القنطرة و كان طولها اثنى عشر ميلا واسعة المجاز اليوم فى موضعها ثلاثون ميلا و تبدو هذه القنطرة لأهل المراكب يتحفظون منها و يقال أنها ستكشف آخر الزمان و انه يجوز عليها الناس و الله أعلم.

و مسافة ما بين طنجة و القيروان ألف ميل و هى طنجة البيضاء المذكورة فى التواريخ و قيل إن عمل طنجة مسيرة شهر فى مثله و إن ملوك المغرب من الروم و غيرهم من كانت دار مملكتهم و الدليل عليه أن خراب طنجة إذا حفرت وجد فيها أصناف الجواهر.

و أما بلاد قسطلية فإن مدنها مدينه توزر و الحامة و قفصة و مدينه توزر هى أم مدائن قسطلية و هى مدينه كبيرة عليها سور مبنى بالحجر و الطوب و فيها جامع محكم البناء و أسواق كثيرة حولها رياض واسعة فهى مدينه حصينة لها أربعة أبواب كثيرة النخل و البساتين و الثمار إلا أن قصب السكر لا يصلح فيها و كذلك اللوز و حولها سواد عظيم من النخل و هى أكثر بلاد إفريقية تمرا و شربها من ثلاثة أنهار و تحرق من

الرحله الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٧٦

الرمال كالدرمك رقة و بياضا و يأخذ من مدينه توزر فى بعض الأيام ألف جمل تمرا موقورة و أكثر فلا يعلم فى بلد من البلاد مثل أثر حبا جلاله و حلاوة و بها الزنجبيل و المنخبط و لا يعلم فى قسطلية إلا الرمال و سعر طعامها غال فى أكثر الأوقات لأنه يجلب إليها و بينها و بين الحمراء مرحله و وراءها صحراء فى قبلتها لا يقدر أحد أن يدخلها.

و يقال أن بتلك الصحراء واديا يجرى مجرى الماء من الرمل و هذا مستفيض و أهلها من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح و كذا أكثر أهل قسطنطينية و منهم من العرب الذين سكنوها عند افتتاحها و منهم من البربر الذين دخلوها فى قديم الزمان عند خروجهم من بلادهم من فلسطين بالشام.

و أما ما ورد فى فضل المغرب ما نقل عن سفيان بن عيينة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال الشريعة أجزاء فتسعة بالمشرق و واحد بالمغرب و الخير عشرة أجزاء فتسعة أجزاء بالمغرب و واحد بالمشرق و عن سفيان بن عيينة أيضا يروى أن بابا مفتوحا للتوبة مسيرة أربعين خريفا لا يغلقه الله تعالى حتى تطلع الشمس من المغرب و أن بالمغرب بابا مفتوحا للتوبة كما قيل روايه عامه و فى فضله قال الشاعر:

الغرب شىء عظيم ولى دليل عليه
البدر يطلع منه و الشمس تغرب فيه
الرحلة الوثيلانية، ج ٢، ص: ٧٧٧

و أما ما ورد فى فضل إفريقية مما نقله الراوى قال روى عن عبد الله بن وهب مرفوعا أن النبى صلى الله عليه و سلم بعث سرية فى سبيل الله فلما رجعوا ذكروا شدة برد أصابهم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لكن إفريقية أشد بردا و أعظم أجرا و يقال إن بإفريقية ساحلا- يقال له المنستير المذكور شهر بالبركة و بإفريقية جبل يقال له باب من أبواب جهنم و هذا الجبل هو المعروف بوسلات و فى الحديث يمر على ساحل إفريقية رجال حتى تسير الجبال بهم فيسمع دوى و يقال ما هذا فيرسلون من يختبر لهم الأمر فيرجع إليهم فيقال لهم هذه الجبال قد سيرت فيخرون لله سجدا فلا ينزع أطمارهم عنهم إلا أزواجهم من الحور العين و فى الحديث يحشر من إفريقية سبعون ألف شهيد و جوههم على صورة القمر ليلة البدر و عنه صلى الله عليه و سلم أن البرد الشديد و الأجر العظيم لأهل إفريقية .

و ذكر القاضى زياد بن عبد المنعم قاضى القيروان فى حديث رواه قال ينقطع الجهاد فى آخر الزمان من البلاد و يعود إلى إفريقية و ليضربن القبائل أكباد الإبل من جميع الآفاق إلى الجهاد بإفريقية لعدل إمامهم و رخص أسعارهم و ذكر فى حديث و ليباعن بمصر قفيز بعشرة دنانير ثم ليباعن بخمسين دينارا من حرص الناس على الجهاد بإفريقية و كأنى أسمع صرير المحامل على عتبة التيه إلى أرض إفريقية لطلب الجهاد و العدل فيها و ليملكن أرض إفريقية رجل اسمه يوسف يعدل فيها اثنتين

الرحلة الوثيلانية، ج ٢، ص: ٧٧٨
و عشرين سنة.

ثم قال أيضا ما نصه:

الباب الأول فى التعريف بأول من غزا إفريقية من الصحابة رضى الله عنهم و ما يتصل بذلك: و أول من غزا إفريقية عمرو بن العاص ذكر الليث بن سعد قال غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس و هى حد إفريقية على ما سبق سنة ثلاث و عشرين و نقل فى سنة اثنتين و عشرين فنزل القبة التى على المشرف فى شرقها فحاصرها شهرا لا يقدر منهم على شىء فخرج رجال من بنى مدلج ذات يوم من عسكر عمرو يتصيدون فى سبعة نفر فمضوا غربى المدينة حتى بعدوا عن العسكر ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة البحر و كان لاصقا بسور المدينة و لم يكن فيما بين المدينة و البحر سور و كانت سفن الروم شارع فى مرساها إلى سور المدينة فنظر المدلجى و أصحابه فإذا البحر قد غاض و حصروا من ناحية المدينة و وجدوا مسلكا إليها من الموضع الذى غاض منه فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا فلم يكن للقوم مفرع إلا إلى سفنهم ثم أقبل عمرو من جوف المدينة بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم فى مراكبهم و غنم عمرو ما كان فى المدينة ثم استشار عمرو بن العاص عمر بن الخطاب فى غزو ملوك إفريقية فأبى عليه و قال له رد على جيشى ثم غزاها بعده عبد الله بن أبى سرح كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه و سلم فى

خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٧٩

قال الواحدى عن عبد الله بن الزبير قال أغزانا ابن عفان إفريقيةً وبها بطريق يدعى بجرجير سلطانه من طرابلس إلى طنجة و أميرنا عبد الله [بن سعد] ابن أبى سرح و كان جملةً من معه من المسلمين عشرين ألفاً و كان جرجير فى مائة و عشرين ألفاً فالتقى المسلمون و الكفار و اضطرت بينهما الحرب و مضاق بالمسلمين الأمر و اختلفوا فى رأى عن ابن سعد فدخل عبد الله بن الزبير فسطاطه يفكر قال فرأيت جرجير على برذون أشهب خلف أصحابه منقطعاً عنهم و معهم جاريتان تظللانه بريش الطواويس من الشمس فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد فقلت لحاجبه استأذن لى عليه فأبى و قال أمرنى أن أحبس الناس عنه حتى يدعونى قال فدرت من وراء الفسطاط فرفعته فرأى وجهى فأوماً إلى بالدخول برأسه فدخلت و هو مستلق على فراشه يفكر ففزع من مدخلى فقال ما جاء بك يا ابن الزبير فقلت كلّ أربّ نفور

أى الأرب يظن كل شىء عدواً فهو شارد أبداً قال ما الخبر قال قلت رأيت غرةً من عدونا فظننت أن تكون فرصةً هيأها الله و خشيت الفوت فأخرج فأندب الناس فخرج فرأى ما رأيت فقال يا أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير فتسارعت جماعةً فاخترت منهم ثلاثين رجلاً من الفرسان و قلت لهم أنى حامل فأحموا ظهري سأفكيكم ما أمامى إن شاء الله فحملت فى الوجه الذى هو فيه و دبوا عنى و اتبعونى حتى خرقت الصفوف إلى أرض خاليةً بيننا و بينه فو الله ما حسب إلا- أنى رسول إليه حتى رأى ما فى من أثر السلاح فثنى برذونه راجعاً و أدركته قطعته فسقط و رميت نفسى عليه و ألقى جاريتاه عليه أنفسهما فقطعت يد أحدهما و أجهزت عليه و رفعت

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٨٠

رأسه على رمح و جال أصحابه و حمل المسلمون فى ناحيتى و كبروا فقتلوهم كيف شاءوا و ثارت الكمائن من كل ناحية و سابت خيول المسلمين و رجالهم إلى حصن ارنيطلةً و منعوه من دخوله و ركبهم المسلمون يمينا و شمالاً فى السهل و الوعر فقتلوا انجادهم و فرسانهم و أكثروا منهم الأسارى حتى لقد كنت أرى فى الموضع الواحد ألف أسير قيل له لما نزل المسلمون لقتال جرجير ابرز جرجير بنته و قد كانت من أجمل النساء فقال من يقتل عبد الله بن سعد فله نصف ملكى و أزوجه ابنتى فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال أنا أصدق من العليج و أوفى منه بالعهد من يقتل جرجير فله بنته فقتله عبد الله بن الزبير فدفع إليه عبد الله بن سعد ابنته و يقال انه اتخذها أم ولد ابن الزبير.

و قيل لما نزل عبد الله بن سعد على المدينة فحاصرها حصاراً شديداً حتى فتحها فكانت توضع بين أيدينا أكوام الذهب و الفضة [فقال للأمارق من أنزلكم هاهنا فجعل رجل منهم يلتمس من الأرض حتى جاء بنواة زيتون فقال من أين هذا لأن أهل هذا البر ليس لهم زيت فكانوا يشترون منا و كان يسلم الفارس آلاف دينار و يسلم الرجل ألف دينار] ثم قال لابن الزبير ما أحد أحق بالبشارة منك فامض فبشر أمير المؤمنين و الناس فقال حبا و كرامةً فقيل وصل من قسطنطينة إلى المدينة فى ثمانية عشر يوماً و قيل فى أربعة و عشرين يوماً و انصرف العسكر بعد إقامته به ستة أشهر إلى مصر بعد أن صالحوا المسلمين على ثلاثمائة قنطار ذهباً يأخذونها منهم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٨١

و يخرجون من بلادهم انتهى.

أقول أخبار إفريقية لا تضبط و فيها تواريخ لا سيما الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية و كذا النبذة المحتاجة فى ملوك صنهاجة ترى العجائب.

هذا و أنى زرت فيما مضى مدينة ماطر و هى مدينة صغيرة ذات مزارع و يسكن فى نواحيها العرب و البرابر من ناحية بجاية و جبالها و الذى حدوها و دورانها هو المسمى بإفريقية و إلا فقد علمت حد إفريقية فيما سبق على أن عمالة قسنطينة من إفريقية إلى الجزائر إلى تلمسان ثم ما يحاذيها كلها إفريقية و كذا دخلت مدينة بنزرت فيما مضى و هى مدينة ظريفه طيبة شريف مليحة المرسى فيها بساتين لا

سيما العنب و أنواع الفواكه و خير البر و البحر مجتمع فيها و أنى زرت أيضا ولى الله على الإطلاق و صاحب البركة بالاتفاق، سيدى عبد الواحد مشهور بالزيارة، و معلوم الصلاح و الإنارة، أفاض الله علينا من بركاته، و جعلنا من أهل محبته و شفاعته. و أنى زرت أيضا تلك الجبال فان الناس يعتقدون فيها البركة كثيرا و لما مكثت فى تونس مدة ثم جئت منها على أحسن الخيرات و أتم البركات نعم تركت أهلى هناك أخذا بخاطر من فيها من العلماء و الصالحين ممن بالغوا فى محبتي و اشتياقا فى أقامتى ناويا الرجوع إليها و التوطن فيها رغبة فى نشر العلم و بثه لكثرة الآخذين فيها مع عدم الكلفة للطلبة الآخذين بخلاف وطننا فانه لا بد من كلفة الطلبة و الإقامة بمؤنتهم و إلا انقطع مادة العلم غير أنى أقول كما قال المأمون حين بنى قصره بقرطبة المعلوم و صنع فيه جابية لم يسبق بمثلها و لما أكمله نام فأتاه آت فى نومه و أنشد قائلا بيتين:

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٨٢ أتبنى بناء الخالدين و إنمابقاؤك فيها لو عقلت قليل

أما كان فى ظل النبات كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فلما انتبه مرعوبا بكى بكاء عظيما و كان بارعا بليغا فأنشد يقول متمثلا لنفسه:

تروح الليالى بغير الذى غدت و تحدث من بعد الأمور أمور

و تجرى الليالى باجتماع و فرقة و تطلع فيها انجم و تغور

فمن ظن أن الدهر يعطى سروره فذاك محال لا يدوم سرور

عفا الله عن صير الهم واحدا و أيقن أن الدائرات تدور

و لم يعش بعد ذلك إلا أياما يسيرة.

و لما خرجت من تونس و دعنى أكثر علمائها، و جم فضلائها، و عامه طلبتها، كالفاضل المحقق، و الكامل المدقق، سيدى محمد الغريانى و من لا يحصى عددا إلى سيدى عبد الله الشريف فاجتمعوا هناك فما أصعبه من فراق، و أضره من احتراق، فقد فقدت السلوى، لم أثبت الشكوى، و لم أجد طبيبا بالدواء، إلا الصبر لذى القدرة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٨٣

و القوى، و ما أحسن ما قيل:

وددت أن السبع البحار لى مدادو أن جسمى دموعا كلها همل

لا تهدمنها وسيط ذلك الجبل الهجر و البين و الواشون و الإبل

طلائع يترأى بينها الأجل

و قال الآخر:

ما راغنى قط شىء مثل فقدهم حتى اسقلت و سارت بالدمى الإبل

أنى على عهد لم أنقض مودتهم يا ليت شعرى و بعد البين ما فعلوا

أقول لم استطع فراقهم غير انه لا بد من فراق، و إن كان فى الفؤاد نار و احتراق، أيد الله الجميع بمنه و كرمه آمين و قد أنشد بعضهم فقال:

إن فتشونى فناحل الجسد أو فتشونى فأبيض الكبد

ضعف و جدى و زاد فى سقمى إن لست اشكو الهوى إلى أحد

وضعت كفى فؤادى من داء الأسى و انطويت فوق يدي

آه من الحب آه من كمدى إن لم أمت فى غد فبعد غد

كان على قلبى إذا ذكرتكم فريسة بين يدي أسد

و قال الآخر:

ما اقتل البين للنفوس و ما أوجع فقد الحبيب للكبد
الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٨٤ عرضت نفسى من البلاء لهاضرم فى مهجتى و فى جلدى
يا حسرتى أن أموت معتقلايين أعتلاج الهموم و الكمد
فى كل يوم تفيض معولة عيني لعضو مات من جسدى
و قال الآخر:

و أرى المحنة لىسى ينفعهاصبر و لا يفى بها الجلد
و يوم الموت أعظم منه و أعظم من الجميع يوم النشور و قد أنشد بعض فقال:
لو أنا إذا متنا تركناالكان الموت راحة كل حى
و لكننا إذا متنا بعثناو نسأل بعده عن كل شىء

ثم سرنا بعد التوديع فمن واقف هنا و من راجع بعد و من مشيع لنا إلى سيدى على الخطاب فبتنا عنده مع جمع كثير من تونس و من
تبريه فكثر أنواع الأطعمة و أنواع الطبائخ بأن ذبح سبعة أكباش و ثورا أهل تبريه و من كان من أصحابنا من أهل تونس كثر الله
خيرهم و وسع أرزاقهم بمنه و كرمه و أقول فى نفسى و هؤلاء ما قال القائل (هو على بن الجهم):

هى النفس ما حملتها تتحمل و للدهر أيام تجور و تعدل
و عاقبة الصبر الجميل جميلة و أكرم أخلاق الرجال التفضل
و لا عار إن زالت على المرء نعمة و لكن عارا أن يزول التجميل
الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٨٥ و ما المال إلا حسرة أن تركته و غم إذا قدمته متعجل
و قال الآخر:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه و لو كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فطوبى لمن أغفى من الليل ساعة سليم الفؤاد إن ذاك لناعم

فلما أصبح الله بخير الصباح ضعنا منه و ودعنا من بات معنا و ودعناهم و الشوق يتزايد، و الغرام يتعاهد، و الصبر يتفاقد، فرجع الجميع
إلى أن بقى الود الصدوق، و الخل الفاروق، الحاج إبراهيم فودعنا و وصيناها على أهل دارنا و أكدنا عليه الوصية و أنى تركت الصهر
الفاضل و الفقيه الكامل سيدى عبد الله بن رحاب و عمنا سيدى عبد العزيز و لذلك سكنت النفس، و اطمأنت من كل فتنة الأنس،
فاندفع حينئذ الضرر و البؤس، فانفصلنا عليهم أحسن الانفصال، و القلوب على أتم الاتصال، فلم يبق معنا إلا المحب الشيخ إسماعيل
رحمه الله و غفر له و الشيخ الفاضل و الصالح الكامل سيدى الوئيس ساروا معنا سويغات ثم بعد ذلك افترقنا و للقلوب ألتفاتات إلى
الأحباب، و تقلب مع ضرب من الشوق إلى جميع الأصحاب، لكن الافتراق لا بد منه و قد قال القائل:

الله يعلم و الدنيا مفرقة و العيش منتقل و الدهر ذو دول

لأنت عندى و إن ساءت ظنونك فى أحلى من الأمن عند الخائف الوجل

و كيف يفرح بالدنيا و زينتها و الناس تحكم للأعداء بالإيل

ثم سرنا كذلك إلى أن بتنا فى تستور و هى قرية عظيمة تقرب من المدن الصغار، أهلها أهل سر و اعتبار، و كرم و عز و اقتدار، و فرح
و سرور و ابتشار، فأحسنوا إلينا،

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٨٦

و تأدبوا لدنيا، و أجملوا ضيافتنا، و أحسنوها جزاهم الله عنا خيرا، و وقاهم بؤسا و ضرا، و ضاعت لبعض الأصحاب مكحلة صغيرة فى

الوادى فبعث شيخ البلد فى استقصائها فردها من بعض الناس و أرسلها إلينا فى مرحلة أخرى كان الله معهم و أقام الخير لديهم و جعل البركة فى وطنهم كان كثير أهلها أهل الأندلس و أهل الأندلس مأمونون من الضر و القبح و البوس.

و هذه القرية لا- سور فيها ذات بساتين و مزارع كثيرة و فواكهها قليلة الوجود فلا- نظير لها أبدا فمن رآها استعظمها و تعجب منها يستحليها الناظر، و يتمناها المقيم و المسافر، فلا يرضى بعد الخبرة بها أحد فراقا، بل يزداد المرء إليها اشتياقا، نعم الموت هاذم اللذات فالمقيم يسير به الموت، و يطلبه الأجل و النفوت، و قد قال بعضهم:

و من أعجب الأشياء أنك قاعد على الأرض فى الدنيا و أنت تسير

و سيرك يا هذا كسير سفينة يقوم قعود و القلاع تطير

كذلك أيام الحياة بأهلها تمر و آمال الرجال كثير

فلم يبق آثار لمن كان قبلنا يموت و يبقى مبعود و أثير

أنتهم منايهم و صاروا إلى البلى و نحن بلا شك كذاك نصير

و قال الآخر :

عش ما تشاء أليس الموت آخر ماترجو و لا بد أن يأتى لك الأجل

هذا شبابك قد مرت بشاشته و فى انتهاز المنايا للفتى شغل

الرحلة الورثيلائية، ج ٢، ص: ٧٨٧ كم قد مضى سلف فى اثره خلف و كم مضت دول من بعدها دول

قضوا لباناتهم حتى إذا أنقضوا لم يبق إلا حديث كان أو مثل

فاندب حياتك يا رهن الممات فقد بدا بوفديك آيات لمن عقلوا

ثم سرنا كذلك على أن وصلنا قرية تبرسق قرية ذات بساتين و مياه و مزارع كثيرة.

حاصله فيها زرع و ضرع كثير و سوق فى الأسبوع يأتى إليه الناس من بعد عامر ممتلىء فيه ما يباع كثيرا و قد لقينا ولد المحب فى الله و الأخ من أجله محب الصالحين و العلماء العاملين قائد بنور قائد تلك القرية و أحوازها و ما ينسب إليها و ما عدّ منا غير انه هو فى تونس و قدم ابنه على هذا المحل و تيبه عليه فبعث إليه لما أردنا السفر من تونس نعم أكرم نزولنا و أحسن إلينا فى الضيافة إحسانا تاما و أعد لنا أجود الأطمعة و أطيب الطبائخ.

حاصله قام بضيافتنا قياما تاما و أحسن إلينا إحسانا كاملا من طعام و علف إلا أنى أصابتنى الحمى و بت فى مسجدنا المعلوم الذى فيه الطلبة و أما أصحابى كلهم قد نزلوا فى دار القائد و قد تأدب معنا غاية أحسن الله إليهم و حوى الخير لديهم آمين فضعنا منها صباحا بعد أن طلبنا الله له و لأبيه بدوام الخير و البركة و الحفظ و الغنيمه و السر فى الذرية و الأزواج و القرابة كان الله لنا و لهم بالعافية و عموم المغفرة و الرحمة و العناية.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى مدينة الكاف و هى مدينة متوسطة ليست كبيرة

الرحلة الورثيلائية، ج ٢، ص: ٧٨٨

جدا و لا صغيرة فهى ملحیه ذات مزارع كثيرة فهى حد مدائن تونس و لا مدينة بعدها و إنما هى الفصل بين تونس و عمالة الجزائر فى زماننا هذا لأن قاعدة الملك مدينة الجزائر و قاعدة الملك تونس و غيرها من المدن إنما فيها القواد و العمال ليس إلا غير أن تونس تكاد أن تكون تحت ولاية الجزائر لما وقع فيها من الحرب العظيم و القتال الكبير الذى مات فيه أكثر الناس و قد مات فيه سلطان تونس أعنى العلامة الفاضل و الفهامة الكامل على باشا و أولاده محمد باى و أولاده ثم صار الملك لأولاد الكامل محب الصالحين و العلماء العاملين حسين بن على رزق الله لهم العدل و أدام لهم الملك و المملكة مع التوفيق و الهداية و الرحمة و التوبة و اللطف فى السياسة و السيرة و الرحمة لأنفسهم و للأمة المحمدية تمم الله لنا و لهم العافية بمنه و كرمه.

وهذه المدينة قد كان لها سور عظيم محكم البناء متقن غايةً وفيها قصبه عظيمه يكون فيها عسكر وفيها آغا يحكم في أهل الوطن غير أن سورها الآن أنهدم ولم يبق فيه إلا القليل ومع ذلك كثير الثلمات من وقعة سلطان الجزائر مع أهل تونس فأمر بهدم بنائه لحكمه وهو امتناع كونه حصناً لأحد ففيها طلبه القرآن والعلم وعلماؤها لا بأس بهم.

وقد تكلمنا معهم في بعض مسائل العلم فوجدنا بعضهم على شرفه من الفهم غير أن الوطن خال من الاعتناء بالعلم لما فيه من شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ومكرا وخديعة وغيره وحسدا وظلما وعدوانا فإن أرادوا إهلاك أحد من العلماء وشوا به إلى أمير تونس وسعوا به إليه بقولهم إن فلانا أراد التهجير إلى تونس وابنه في قسنطينة والجزائر وقد علمت أن كل شيء يكذبه

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٨٩

السلطان إلا من يخلط عليه مهما سمع شيئا من أحد قبله كان حقا أو باطلا وتيقن به وتوثق به فهم كالضرائر والتيوس وما أهلكك الناس في تونس إلا هذا الأمر العظيم فهي لا نظير لها في هذه الصفة المذمومة التي حيرت الناس وشتت أمرهم وأن أهل تونس أيضا معلومون بالخوز والغدر والخديعة والمكر للسلطان فما أخذت تونس في الغالب إلا بهذا الوصف لأن أهلها مشهورون بالعكس والانتكاس والنقص والرفض والتخليط والألتباس من دولة الحفصيين إلى الآن ولو لا الإطالة لذكرنا من أوصافهم نبذة ومن أخبارهم وقائعهم وحروبهم وغدرهم ومكرهم ومخالفتهم للسلطان وتأخرهم عنه بعد مبايعتهم إياه وإظهار مودتهم له ثم ينقضون العهد ويجاوزون الحد ويمدون للعدو مدا جملة فيهلك الله جميعهم وكذا الأمير إذا طغا فيها كما تقدم.

حاصله أن الفجور والمعاصي والظلم والعدا إذا ظهر في تونس ابتلاه الله بعذاب يعم جميعهم إلا من نجاه الله بفضله حسبما وقع ذلك بالبasha أعنى على باى حتى صار النهب والسلب والقتل والفتك في ديار تونس وهو بلاء عظيم وأمر مليم يكاد أن لا يقع إلا بالأمم المتقدمة والأعصر السالفة وسبب ذلك أن السلطان وأهل حضرته إذا اشتغلوا باللهو واللعب و صرفوا أموال المسلمين في شهواتهم المحرمة نادى الله عليهم بالويل والعذاب والهلاك فلم يراع فيهم الطائعين ولا أهل الفلاح من المتقين وقد قال تعالى و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل تصيب الظالم والمظلوم على من جعل لا من المفسرين غير صلة أى ليست زائدة لأن المنكر إذا اشتهر في الأمة ولم يغيره الناس وقع العذاب بالجميع لأن من شهد المنكر ولم يغيره فهو و فاعله سيان فى الآثم و وقوع العذاب و قد قال الشاعر:

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩٠ إذا ترى ملكا باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالزبل والحرب

أو ما ترى الشمس فى الميزان ساقطة إذ كان ذلك بيت اللهو والطرب

انعطاف إلى ما كنا بصده وقد ضربنا خيمتنا خارج المدينة قرب الطريق التي تسلك إلى المغرب ولما سمع بنا أهل الفضل والعلم من المدينة خرجوا إلينا قاصدين التبرك والاستفادة وقالوا لنا لم لا تنزلون بالمدينة قلنا لهم قد نزل أصحابنا بدار الضيافة قال لهمم النائبون عليها والقائمون بوظائفها من أصحاب المخزن هل أتيتم بأمر من السلطان إذ لا ينزل بها إلا من أمرنا بنزوله فيها وأنتم لما لم تكونوا مأمورين بالنزول فلا تنزلوا فقالوا لهم الله أولى وأحق أن تكونوا بأضيافه قائمين راغبين فلما ثقل عليهم الأمر خرجوا ومع لك أنى لم أحضر ولم يسمعوا بى فشكرنا الله على ذلك و حمدناه على ما هنالك من عدم المبيت فيها وقد علمت ما فى ذل العلماء للملوكة على دنياهم وكذا تواضعهم للأغنياء على غناهم ومن الفضل والعصمة أن لا تجد موجبا للهلاك وسببا لغضب الرب فلما سمع المتول للضيافة ندم غير أن الله سخر العلماء والفضلاء من المدينة أتوا إلينا بطعام كثير حتى فضل عن الرفقة كثر الله أرزاقهم وقوى فى العلوم مددهم وجعل البركة والعلم فى ذريتهم آمين ورزق العز والهداية والتوفيق لأهلها فإن بعض المدرسين فى المدرسة المعلومة فيها قد وشى به إلى السلطان تونس إذ قيل له إن هذا العالم وجماعة أرادوا أن يأخذوا بيد ابن يونس وأظنه كذب فرفعه إلى تونس حين كنا فيها فشفعنا فيه عنده ليرده إلى أهله فامتنع قال وإنما جعل له راتبا فى تونس يدرس فيها وكان الأمر كذلك

أصلح الله الكل.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩١

ذكر دخولنا قسنطينة

ثم طعنا منه صباحا فسرنا أياما في عافية إلى أن وصلنا إلى مدينة قسنطينة و هي مدينة في وطننا و قاعدة من قواعد بلادنا و إن لم يكن فيها السلطان ففيها نائبه السيد الباي و هي مدينة قوية ليست كبيرة جدا و لا صغيرة أيضا و عليها سور كبير و فيها أبواب ثلاثة باب الوادي و باب الجابية و باب القنطرة و فيها بويب صغير يخرج منه آدمي و فيها أسواق كثيرة و دكاكين طيبة و مساجد للجمعة نحو الخمسة و بعضها في غاية الإتقان كمسجد الباشا في طرابلس و أظن أن صانعهما واحد و هذه المدينة مبنية على كهف و جرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك بل يموت قطعاً و فيها قصبه عظيمه و عسكر من الترك بقدر حالها و باي سطوته عظيمه و حاله كبير و عساكره كثيرة تنفذ منها للجزائر أموال عظيمه من المغرم و مددها قوى و ظلمها كثير و سعرها رخيص و واسعة الأرزاق كثيرة الارتفاق ممدودة الإنفاق كثير فيها اللحم و السمن و القمح و التين ما أحسنها من زرع و درع و ضرع تأتيها القوافل من كل النواحي قليلة الفواكه كثيرة المزارع محصنة تحتها واد كبير و ماؤه عذب منه يشربون إذ ينقلون ماءه إلى الديار و فيه يسقون و يستسقون و يغسلون و يغتسلون و عليه بنيت المدينة من قديم الزمان.

و قد سمعنا أنها من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام لم يطفأ لها سراج و لا استقر فيها أمير دائما هي لنائب السلطان و هي من إفريقية و أحسن عمالتها إذ لا توجد أرضا طيبة و لا ربوة عظيمه للمال و الحرث أحسن منها فأنها لا يقل رزقها أصلا و لا يدوم فيها الغلاء لا تخلو عن العلم غير أن تدريسه فيها أنما يكون في بعض الأوقات كالشتاء و أول الربيع و أما سائر الأوقات فليس فيها العلم الغزير و لا انعدامه رأسا فليس يفقد جملة و لا يستمر كلية فولاتها لم يشتغلوا ببناء المدارس و لا بكثرة الأوقاف و الأحباس

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩٢

لما علمت أنها ضيقة و ملكها ليس كملك تونس.

و قد سمعت من الفاضل الكامل السيد علي الخزناجي صاحب الرحمة و الدولة الشاملة ذي اللطف و اللين و عدم الظلم المبين دولة محمد باشا الذي قتله غرناؤوط ليتولوا أمره فلم يرجعوا أصلا قتلوا فتولاها على أبو الأصبح بعد موت السلطان و الخزناجي يقول أن ما يدخل تونس في يوم يعدل ما يدخل الجزائر في العام بل ما يدخل تونس أكثر بل قالوا إنما يدخل الجزائر في عام يدخل تونس في عصر يوم واحد إلى الغروب و الله اعلم فلم تكفهم الأموال و لأن مادة البحر في الجزائر أوسع من مادة البر و على تقدير وجود الأموال فقد صرفها أهلها في شهوات أنفسهم كالملابس و المآكل و المشارب بل بنوا الحصون بها و الأبراج و الأسوار و الثغور و أقاموا العساكر و النوبات في كل محل مخوف كثغر بجاية و جيجل و القل و بونة و غير ذلك مما يحتاج إليه الحفظ من العدو كذلك المحال التي طغت فيها العرب و زاغت فيها أهل البدو كتبسة و زمورة و بسكرة و حمزة و بوغنى و سبا و كذا ثغور المغرب أمدهم الله بمدده و أيدهم بجنوده و نصرهم على العدو برا و بحرا و جوفاً و قبله مع التوفيق و العدل و الاستقامة و الفضل و حفظهم من الظلم البين و أزال منهم المناكر البينة و المعاصي الظاهرة و الكبائر ليكونوا على ذروة الدوام و قصبه التمام و إلا فالظلم مهلك لصاحبه قل أن يسم صاحب الفجور و مظهر اللواط و الزنا و الخمر و قد قال صلى الله عليه و سلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم فكل واقعة من وقائع الهلاك إلا كان سببها الظلم و التعدي ما أحسن العلم إن قارنه الحلم و ما أقبح الجهل إن قارنه الظلم.

و هذه المدينة غير خالية من العلماء و لا من الفضلاء و الصلحاء غير أنها سريعة بأهل الصلاح فمن ظهر فيها بالقبول و الفضل إلا أسرع بهلاكه فيقبض ساعتئذ

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩٣

و هذا معلوم عند أهلها إما لإساءة ظن أهلها فلا ينتفعون بمن ظهر فيهم أو لأنها كثيرة الملهذوات فقل فيها أهل الفضل من أصحاب الخيرات و إنما يظهر أهل الخير و استمرارهم للنفع في محل ضيق المعيشة كثير المحن قليل الإحسان و الامتنان و مواهب الإله و إرادته إنما تكون لمن يستحقها و من هو أهل لا و ليس ذلك إلا للفقراء و قد قال تعالى: **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا** فما ضاق محل بالمعيشة إلا ظهر فيها الفضل و العناية و قد جرت عادة الله بهذا و ما كثر رزق و اتسع بمحل إلا كثر فيه الافتخار و التجبر و العناد و قل الصلاح و الزهد و العبادة لأن مخالفة النفس في ملذوذاتها أصل من أصول الطريق لا سيما من لم يجد الوسع أصلاً كأرض تهامة أعنى مكة و ما حاذها و كذا طيبة أى مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم و ما قاربها فقد انعدمت فيها المزارع و الأجنه و إن كثرت الأرزاق فيها فقد غلا سعرها فلا يصل الإنسان إلى شهوته إلا بعد موته و مشقته إذ ربما لا يصل إليها إلا بعد حتف أنفه و هلكته فكان طريق الآخرة فيها أسهل و سبيل الخيرات أيسر ما توجه الإنسان فيه إلى الله و إلى المقصود الأسنى إلا قلت خطواته و وصل بقرب فيزول الحجاب عن حضرة رب الأرباب في لحظة من الزمان فيكون مجذوباً في ذلك الأوان و قد قيل أن المجذوب يصل في ساعة ما لا يصله العابد و السالك في سبعين سنة.

حاصله أن كثرة المذاق، توجد للقلب النفاق، و قلة الأرزاق، تيسر الطريق إلى الله بالاتفاق، و ذلك معلوم عند أهل الحقائق فقسطنية لما كثر رزقها و اتسع إنفاقها عسر الوصول فيها إلى الله لقله المساعد، و كثرة المتكبر المعاند، و إن وجد فيها الصلاح فمن البله و قلة المعتنى بنفسه فيها حتى لا يظهر فيها صالح أصلاً و على تقدير ظهوره فتسرع فيه المنية لأنه عذاب و هلاك لمن خالف طبعه و أساء ظنه و قد قال صلى الله عليه

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٩٤

و سلم عن الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالمحاربة فيكون هلاكه و سرعته رحمة بأهل وطنه فلا يتأتى إظهار ولى فيها لأن ظهوره يكون سبباً لرجوع أهل وطنه إلى الله فيكثر فيهم أهل الصلاح و ذلك مناقض للحكمة الإلهية فى أن الفراعنة المتمردة لا تكثر إلا فى وطن كثر رزقه و ضاقت حقوقه و انكسف نوره و إشراقه فتنقل منه الأولياء و يدوم فيه أهل السمعة و الكبر و الرياء. و قد علمت أن مثل هذا الوطن يقل فيه الحلال و يكثر فيه الحرام و المتشابه و قد قال صلى الله عليه و سلم من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى و من أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى مع أن أهل الشهوات من أهل الملابس و المفخرة و الأسرة و الحلل قد صاروا إلى ما صاروا فقد أنشدوا شعراً (و هو منسوب للإمام على كرم الله وجهه كما فى ديوانه):

باتوا على قلل الأجمال تحرسهم غلب الرجال فلم ينفعهم القلل

و استنزّلوا بعد عز عن معاقلمهم و استودعوا حفرا يا بئس ما بدلوا

ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا أين الأسرة و التيجان و الحلل

أين الوجوه التى كانت منعمة من دونها تضرب الاستار و الكلل

فأفصح القبر عنهم حين سألمهم تلك الوجوه عليها الدود ينتقل

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٧٩٥ قد طال ما أكلوا يوماً و ما شربوا فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

نعم هى بلدة طيبة يستحلها الناظر، و يستحسنها المقيم و المسافر، فليست كثيرة الصفاء، و لا بعيدة الجفاء، و لا قوية الوفاء، عامتها بين اعتقاد و انتقاد، و خاصتها بين رغبة و غبطة و حسد و عناد، لا يتم الفضل فيها، و لا ينقص الحال و لا الكمال عند أهل الفضل منها، فالسبب فيها كثير و القبح و اللعنة جار فى أسواقها لا يسكن اضطرامها أزال الله منهم ذلك و محى فيهم ما هنالك، و لذا كثر الظلم فيها فهو مكفر لذنوبهم لأن المؤمن لا يخرج من الدنيا حتى لا تبقى عليه سيئة لأن كل تعب و ظلم يقع له فهو كفارة له و أما الكافر فلا يخرج من الدنيا حتى لا تبقى له حسنة غير أن الولاة من الأمراء تجب طاعتهم إذا كانوا يصلون ما لم يأمرؤا بمعصية فإن أمرؤا بها فلا يسمع منهم.

وقد قال في الأدلة البينة المذكورة ما نصه

الباب الخامس في وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية و ما في معنى ذلك:

روى مسلم و البخارى من طريق عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه و سلم قال على المرء المسلم السمع و الطاعة. و عن ابن عمر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة و لا حجة له و من مات و ليس في عنقه بيعه مات ميتة جاهلية رواه مسلم.

و روى البخارى من طريق أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أسمعوا و أطيعوا و أن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة. و عن أبي هريرة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩٦

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم عليكم بالسمع و الطاعة في يسرك و عسرك و منشطك و مكرهك و أثره عليك رواه مسلم بن الحجاج. و عن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في حديث طويل قال في آخره و من بايع إماما فأعطاه صفقة يمينه و ثمره فؤاده فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر رواه مسلم. و روى البخارى و مسلم من طريق عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أنها ستكون بعدى أثره و أمور تنكرونها فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه و سلم كيف تأمر من أدرك منا ذلك قال أن تؤدوا الحق الذى عليكم و تسألوا الله الذى لكم. و روى البخارى و مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من أطاعنى فقد أطاع الله و من عصانى فقد عصى الله و من يطع الأمير فقد أطاعنى و من عصى الأمير فقد عصانى. و عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية رواه البخارى و مسلم. و عن أبي بكر رضى الله عنه قال قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول من أهان السلطان فقد أهان الله رواه الترمذى و قال فيه حديث حسن (غريب). و عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩٧

نبي من الأنبياء بعث إليهم آخر و أنه لا- نبي بعدى و سيكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا قال فوا بيعه الأول ثم أعطوهم حقهم و أسألوا الله الذى لكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم رواه البخارى و مسلم رحمهما الله و قد روينا في صحيح البخارى عن جابر و جرير.

و من الباب الخامس فيما يجب تعظيم ولاة الأمر و حقهم على رعيته و وجوب طاعتهم في غير معصية ما روينا في صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال بايعت رسول الله صلى الله عليه و سلم على شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و السمع و الطاعة لكل مسلم.

و من تأليف الشيخ الإمام صدر الدين الشافعى المآرى تكميلا للأربعين للشيخ زكى الدين أبى محمد عبد العظيم المنذرى قال سئل كعب الأخبار عن السلطان قال ظل الله في أرضه من ناصحه اهتدى و من غشه ضل و قال الفضيل بن عياض لو أن لى دعوة تستجاب ما صيرتها إلا فى الإمام العادل لأنى لو جعلتها لنفسى لم تجاوزنى و لو جعلتها للإمام كان صلاح الإمام صلاح البلاد و العباد.

و قد قالت العلماء رضى الله عنهم أن طاعة الإمام هدى لمن استضاء بنورها و الخارج من الطاعة منقطع العصمة برىء من الذمة و إن طاعة السلطان حبل الله المتين و دينه القويم و جنته الواقية و إياكم و الخروج من أنس طاعة إلى وحشة المعصية و من اسر غش السلطان ذل و زل و من أخلص المحبة و النصح حل من الدين أرفع محل.

ثم اعلم أن أشرف الولاية و أعظمها ولاية أمور المسلمين لأنها موضوعة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩٨

للخلافة النبوية في حراسة الدين و حفظ منهاج المسلمين و تمكنهم في العلم و العمل و جعل الله بهداه الأرزاق و دفع المظالم إلى غير ذلك من الأمور التي يعظم نفعها و يعم قدرها مما لا يقوم به غير الإمام و شرح ذلك إن شاء الله حلوله دارين دار الدنيا و دار الآخرة التي هي دار الحق و بالسلطان العادل قيام الدين و على قدر النعمة يكون و ليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي أو رسول أو ملك مقرب رواه أبو نعيم. و عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال لعمل الإمام العادل في رعيته يوماً واحداً أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام و خمسين عاماً. و من حديث ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة اه.

أقول و بالله التوفيق أن قسنطينة هذه قد اجتمعنا فيها مع الفضلاء و النجباء و الصلحاء و أعيان الوقت السالمين إن شاء الله بسببهم من المقت منهم العالم الفاضل و الصالح الكامل و الورع العدل شيخنا و عمدتنا الولي الصالح و البدر الواضح سيدي يحيى اليعلاوي و مثله في الفضل و العلم و الأدب النحوي اللغوي الفقيه سيدي أحمد الزين أما سيدي يحيى فتلميذ جدنا سيدي الحسين الشريف و أما سيدي أحمد الزين فتلميذ أبي و مثلها صلاحاً و علماً و حالاً و ورعاً و فقهاً و فهماً سيدي فرج و سيدي علي الزموري و سيدي خليفة الشارف و سيدي أحمد العلمي و سيدي عبد الله التومي و سيدي علي بن سعيد و سيدي السعدى الصدراتي و سيدي الطاهر بن بعداش و سيدي مبارك بن بوقرانة و سيدي محمد الشليحي و سيدي محمد بن نزار و سيدي علي الشريف بن منصور و العلامة الفاضل الكامل سيدي علي الشريف الذي هو المفتي الآن و قاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي المنطقي البياني المحدث

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٧٩٩

المفسر صاحب الأبحاث الشريفة و الفوائد المنيفة سيدي عبد القادر الراشدي و نظيره فيما ذكر أخوه سيدي علي أو أعظم منه حفظاً و اتقاناً و مثله في العلم و الفضل القاضي الآن سيدي إبراهيم الضرباين قاضي المالكية و كذا العالم على الإطلاق و الأديب بالاتفاق سيدي شعبان بن جلول قاضي الحنفية و الأخذ من كل علم نصيب العلامة الكامل و الفهامة الفاضل سيدي عبد العزيز الزادى و نظير من ذكر تحقيقاً في العلم و يقينا في الفهم المدرس سيدي أحمد الزراري و هي الآن فيها أفاضل في العلم و الصلاح و الورع و الزهد و قد اجتمعنا بهم في محل نزولنا عند الولي الصالح و القطب الواضح سيدي سعيد السفري نفعنا الله به أمين فكل من كان في قسنطينة ممن فيه رائحة علم و فضل و خير و صلاح إلا اجتمع بنا و رغب فيما عندنا و نحن أكثر رغبة منهم فيهم.

و كذلك أعيان الحضرة السلطانية و المملكة الشرقية من الكتاب و أرباب الدولة من أهل العلم و كذا أئمة المساجد إلا ولد المحب الشيخ الفاضل الكامل سيدي بدر الدين ابن سيدي عبد الكريم الففون أمير الركب الحجازي فأني ذهبت إلى داره و اجتمعت معه هناك فقال لي و إنما لم أخرج إليك لأنني ظننت أن تنزل بداري فقلت لو قدمت بأهلي لنزلت عندك.

نعم أشفقت عليك لكثرة الخلق معي و كان ذلك بعد صلاة الجمعة و ذلك مع جماعة من العلماء و ثلثة من الفضلاء و عزة من الأدباء رضي الله عنهم و أرضاهم و كان لنا و لهم في الدارين. الرحلة الورثيانية؛ ج ٢؛ ص ٧٩٩

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٠

و كذلك اجتمعت مع الفقيهين الفاضلين سيدي أحمد بن الأحمر و العلامة على الإطلاق و الفهامة بالاتفاق سيدي أحمد بن وادفل و كذا مع الولي الصالح و الفقيه الواضح المحلى بالفضل و القبول حسن الاعتقاد كامل الاجتهاد في العبادة و التصبر و الصبر عن مصادمة الأوقات الغنى عن التكلف و الكلف و المشقات سيدي علي بن الكيرد و كذا صاحب الفضل و الميل إلى الصلاح و الفوز بالنجاح الراعي للأوقات سيدي محمد العنتري و غير هؤلاء ممن لا يعد كثرة من العامة و الخاصة كالفاضل الأخ في الله سيدي الطيب الزراري و سيدي أحمد بن زبوش لأنهما ظاهرا الصلاح و الفوز و النجاح فقد علمت أني لم أهمل التفصيل و إن أهملت البعض فقط في التجميل.

هذا و أنى زرت الجميع على سبيل الجملة و التفصيل ممن أظهره الله و أخفاه من العامة و الخاصة و أهل الحرف و الاكتساب و أهل الصفة من التجريد و الأسباب من أهل التمييز و البله ممن ظهر بالإشارات أو بأنواع النطق و العبارات فى كل وطن و دخلته أو حاذيته أو رأيته أو ذكر لى إلا كنت زائرا لجميع ذلك و ناويا لمن هنالك.

ثم أنى لم أهمل الأموات و أنى قصدت جميعهم فى كل وطن مشيته و كل بلد أتيته إلا أن قسنطينة كل مسجد فيها من مساجد الصلاة إلا- و فيه شيخ ولى صالح دفن فى المسجد و ينسب إليه و يقال مسجد فلان كسيدي أحمد بن عين الناس و سيدي أبى عبد الله الشريف و سيدي عبد المؤمن و سيدي الرماح و سيدي مفرج و سيدي عمر الوزان و سيدي عبد الكريم الفنون و سيدي عبد اللطيف و غيرهم ممن لا- يحصى عددا أفاض الله علينا من بركات جميعهم و من علينا و على من انتمى إلينا من الذرية و القرابة و الجيران بالأنوار و الشفاعة و العطف منهم.

و أما سلطان العارفين سيدي سعيد السفري فقد نظمته و من دفن من الصالحين فى كدية عاتى من ظهر أمره و اشتهر خبره و علم قبره أو خفى إلا زرناه و سألتنا الله الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠١

عندهم حسن الخاتمة و العافية و دوام العافية و الشكر على العافية و الغنى عن الناس و حسن العاقبة و زوال الحجاب عن حضرة رب الأرباب و الدخول فى الزمرة النبوية و أتباع السنة و الموت على الملة و دخول الدائرة الربانية و كمال المعرفة و تمام النعمة و شمول العفو و المغفرة و غير ذلك ما يصلح للخليفة لأن الدعاء مخ العبادة و لو لم يكن فيه إلا إظهار الفاقة و اللجا و الاضطراب و إبداء العبودية و إحضار الرب و المسئول فى الدنيا و الآخرة لكان أمرا عظيما يجب الحمد عليه و الشكر لديه أيقظ الله الجميع للسنة النبوية مع الاستقامة ظاهرا و باطنا آمين يا رب العالمين.

ثم ظعنا منه ناويا زيارة الود الصدوق و الخل الفاروق سيدي أبى القاسم الزواوى الجالس فى الباب فانه من الصالحين و حكايته مشهورة معلومة مع أهل الخير من رجال الغيب كما سمعت ذلك من الولي الصالح سيدي محمد العيدلى و كان هو الواسطة و الرسول من رجال الغيب إليه و كان هذا الجالس فى الباب خارجا فى الرحبة منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب من كثرة الأوساخ فمن رآه ربما تغير قلبه مما فيه من الأوساخ و نتن الرائحة و هو لا يتحرك من موضعه ينتظر ما يجرى عليه من النفقة و الصدقة من المحسنين من أهل الخير فلبث فى ذلك مدة عظيمة ثم أمره بالانتقال إلى قرب الباب خارجا فكان هناك كالحجر الصامت لا يتحرك أيضا منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب و محقرات الحيوانات من الهوام و الخنافس و غير ذلك فلبث فيه مدة أيضا و أظنه انه أيوبى الطريقة و لذلك صار محلا للبلاء و مستعدا للأذى فلا يفهمه إلا ذووه فلما لبث مدة طويلة أمره بالدخول إلى الباب و الجلوس على الدكان الذى هو فيه و هو على ذلك الوصف من عدم التحرك و الذباب و الأوساخ عليه إلى آخر ما سبق فلما لبث أيضا مدة طويلة قالوا له تزوج و هو لم يكسب درهما ولا- دينارا ولا- ثوبا ولا خمارا غاية أن يكون مستورا العورة يلقيه الناس باللقمات فيجعب من ذلك الأمر إذ لم يجد ما يقتات به فضلا عن التزوج لكن أمرهم من قوله تعالى إذا

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٢

أراد شيئا أن يقول له فيكون بين الكاف و النون و هو من عالم الأمر إلا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العالمين و الأولياء إذا أرادوا أغنوا و عزمهم أمضى من السيف فلما ثبت الأمر و تحقق الأذن أتت امرأة تسأله الدعاء و تشتكى بعض الأذى ممن هو قريب لها فقال لها الجالس مع الشيخ هل ترضين بالنكاح فقالت و كيف لا أرضى به فأنى مقطوعة الأحباب لا مسند لى إلا الله تعالى فقال لها ذلك الشخص المرسل تزوجى الشيخ فقالت رضيت و عينوا لها بعض الصداق و كان بعض الحاضرين هناك اشترى لها من عنده ما تحتاج إليه مما يصلح للزفاف ثم أن الشيخ أتت له ثياب حسنة ساعتئذ فأزال الثياب المتقدمة المتوسخة و لبس الفاخرة من الثياب فعدوا على المرأة فذهبت و قالت إن لى دارا و ما فيها من أحوالها فلا تتكلف بشىء و قد ذهبت تستعد أمورا تصلح للزفاف و الدخول فلما قرب

الليل حملوه على مركوب لبيتها فزال عنه كل هم و غم و قد علمت أن مع العسر يسرا و مع الضيق وسعا و قد قال صلى الله عليه و سلم لن يغلب العسر يسرين فاليسر نكرة و هو غير الأول و العسر معرفة و هو عين الأول فالنكرة إذا أعيدت فهي غير الأولى و المعرفة إذا أعيدت فهي عين الأول فلم أجده في الباب نعم سبق الود بيني و بينه الود القديم و العهد الصميم الذي لا ينقطع.

و قد سمعت هذه الحكاية من الرسول المذكور و منه أيضا و هذا الرسول ممن أعرفه في صغرى حياة أبى و قد أتى إلى محلنا زائرا و قد اجتمعت معه في دار الفقير الصادق المتقى الفائق ظاهر الصلاح معلوم النجاح الصبور لا يكاد يشتكى من قلة

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٣

ذات يده المرابط محمد بن غرسه و زوجته فاطمة بنت خيشان و كلاهما من أهل الصلاح و قد شاهدت من هذا الفقير أمورا عظيمة و خوارق بينة و هو ممن يطلع على الغيب.

و قد سمعت منه أنه قال لى رأيت النبى صلى الله عليه و سلم يقظة في مسجدنا في صلاة المغرب قال و قد صلى خلف والدك فقال نوره صلى الله عليه و سلم انعكس فيه نور السراج بل خفى فلما سلم الوالد من الصلاة خرجنا من الصلاة أردت أن آمر جميع من في المسجد بالقيام إليه صلى الله عليه و سلم فلم استطع النطق ثم كذلك إلى أن صلى الوالد الرواتب بعد المغرب فخرج من المسجد و خرج معه صلى الله عليه و سلم.

و أما زوجته المذكورة فقد شاهدت منها أمورا عظيمة و قد سمعت منها أنها قالت كنت أولا قد ملكنى الحال و غلبنى فالآن ملكته و غلبته و كانت تجتمع مع رجال الغيب و قالت أيضا فمهما صدر منى ما لا يحل من كلام أو إشارة أو رؤية إلا و بعث الله لى أحدا من خلقه فلا أعلم انه من الملائكة أو صالح الجن يضربها ضربا على قدر ما خالفت به فيكفر لها ذنبها و غير ذلك من أوصافها الممدوحة و خصالها الكريمة و كانت جماعة من أهل وطننا على هذا الوصف.

نعم هذا الرسول رأيتة أيضا في أحواز قسنطينة كان يسأل عنى من غير أخبار أحد بى فعزم على الذهاب لداره لاجتمع مع أصحاب الوقت فمعنى مقدم القافلة فقال و الله لا- يذهب إلى مكان لأن والده قد أوصانى على حفظه و الموضوع الذى أتانى إليه هو ذراع الطبال فأسفت عما فاتنى منه و قد اشتدت رغبتى إلى المشى معه غير أن الرجل وصفه وصف البدوى و شعر رأسه قد غشى وجهه و كان أغم فلم يظهر عليه اثر

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٤

الصلاح لتقشفه و أهانتة نفسه كاد أن يكون من الإسقاط فخاف على من فى القافلة فمنعونى منعا موزرا و أنا كنت أعرفه و أتيقن حقيقته فلم يتيسر لى غير أن ما فى الغيب مفاتحه عند الفتح قل بفضل الله و برحمته و لعل عنايتهم كانت معنا و قوة بركاتهم حاضرة لدينا و سعدهم عامل فى أحوالنا و نعوتنا سدد الله الجميع و وفق الكل إلى صالح القول و العمل.

انعطاف إلى ما كنا بصدده قد خرجنا و ظعنا من سيدى سعيد السفرى فودعنا جميع من كان فى المدينة من أهل الخير و الرغبة و الفضل و المنة فرجع من رجوع و ذهب من ذهب إلى أن وصلنا عين ابن الحاج بابا فصلينا العصر بالعلامة المحقق و الفهامة المدقق سيدى عبد القادر الراشدى.

و قد وقعت بينه و بين طلبه قسنطينة مخاصمة عظيمة و منازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم بل بعضهم كفره و من الإسلام أخرجه و ذلك أمر عظيم فى الدين و قد قال الشيخ زروق إدخال ألف كافر فى الإسلام بشبهة إسلامية أهون عند الله من إخراج مسلم واحد إلى الكفر بشبهة كفرية و كيف لا و هو أمر عظيم و ذلك من تلامذته و محبيه و هذه المسألة قوله تعالى لما خلقت بيدي فقال و هو فى اليد أنها يد حقيقة و مع ذلك أنها ليست جارحة و لا جسما بل يستحيل ذلك لأنه يؤدى إلى الحدوث و الإمكان و قدح فى التأويل بالقدرة أو صفة زائدة يخلق الله بها الأشراف من الخلق لأن التأويل محوج إلى الدليل و الخروج من الحقيقة إلى نوع من المجاز فلم يكثر بالتأويل إذ البقاء مع الحقيقة هو الأصل و لأن التأويل و إن كان صحيحا ففيه ابتغاء الفتنة و إنما تنتفى على التسليم

لصحة التأويل و أن كان في علم الله كذلك لأن المصيب في العقائد واحد

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٥

فقد اتفق أهل السنة قاطبة على نفى الجارحة و ما يؤدي إلى الإمكان و الحدوث و التجسيم فمنهم من قال أن له يدا حقيقة فالعلم بها موكل إلى الله تعالى فلا يستلزم هذا التجسيم لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة فكيف يلزم به مع انه نفى التجسيم الذي يستلزم ما لا يليق به جل جلاله فأنى أو كيف أو متى يلزمه وإنما هو تحامل عليه سببه الحسد و البغض و التنافس أو إنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم بل و قد نسبوا له كثرة الرشوة و غير ذلك مما لا يناسبه بل سمعت من بعضهم انه قال صرح بالتجسيم غير ما مرة فقلت له حين اجتماعي بهم مجرد هذا الإطلاق لا يلزم عليه شيء إذ عليه أكثر الأمة و منهم من أولها بالقدرة و منهم من توقف فلما أراني الرسالة الموضوعه لهذا الكلام رأيتها منقحة سالمه من سوء الاعتقاد خصوصا التجسيم غاية بيطل أدلة المؤول و يصحح من يقول باليد حقيقة غير انه لا يعلمها إلا الله لكن هذا كله بعد نفى التجسيم و ما يشعر بالإمكان و الحدوث فقد بالغوا في تضليله إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان فسلم و الحمد لله و نجا من شرهم غير أنهم أخرجوه عن الموضع المعد له من القضاء و صبروه لأنفسهم بالتعلق بمن تمكن من السلطان.

نعم قلبي سالم من جميعهم و محب في جانبهم و راغب فيما عندهم و معظم مما هو لديهم و قد قال خليل و لا- عالم مثله فإنهم كالتيوس فينبهم قدح و على غيرهم لا قدح و لا جرح فإن كانت الشريعة لم تقدح فيهم فكيف بمثلي أن يجعلهم غرضا لسهام الناس يرمونهم بالأغراض الخسيسة و الخصال الذميمة طهرهم الله من تلك الأوصاف و نزههم من هذه الأخلاق الخسيسة.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٦

ثم انفصلنا عن الجميع بالتوديع مع التأسف على قلة الاجتماع و قصر المدة إذ ورد علينا عيد الأضحى فجعلنا الأوبة للأهل فبتنا في بئر البقرات ثم ظعنا صبيحة فمررنا على أولاد المحب الحاج بن أبي زيد بن أبي التقي فرغبوا في الرجوع إلى وطنهم و حضوا السؤال في ذلك جمع الله بينهم و بين وطنهم مع التوفيق و الهداية.

ثم سرنا كذلك أياما إلى أن وصلنا زمورة فلما سمعوا بنا لقيان من بها من العامة و الخاصة فرحين مسرورين ببنادقهم و غير ذلك من أنواع الفرحة فكل يعزم علينا و يرغب في المبيت عنده إلى أن وصلوا إلى الفتنة و الهرج بسبب ذلك غير أن أولاد عبد الواحد حملوني قهرا لأنى قريب من مدشرهم فكانوا أمكن منا فبتنا عندهم خير مبيت كثر الله خيرهم و بعد غد بتنا في الحفرة في الذراع تحت القصبه في دارنا المعلومة فكثرنا الطعام كالمدشر الأول أو أعظم و كذا أولاد أبي الهوشات فاجتمعنا مع فضلاء زمورة و خاصتها و علمائها و أهل الفضل منها و كذا مع صلحائها كالفرومى و العلامة سيدى محمد السعيد بن قري و إمام الجمعة سيدى محمد الصغير و الفاضل على الإطلاق و العالم بالاتفاق سويداء القلب و غاية الحب سيدى محمد بن عبد الله نجل الشيخ سيدى محمد المبارك و الفضلاء أولاد البواب فإنهم صلحاء محبوبون راغبون في الخير:

و رغبة في الخير خير و عمل بريزين (و ليقس ما لم يقل)

و كذا أولاد الشيخ سيدى محمد المبارك و كذا أولاد سيدى خروف و كذا الفقيهان الفاضلان سيدى أحمد الشوثرى و سيدى المبروك و جميع الفضلاء من الخاصة و العامة من جملة عرش بنى فرفان قدموا إلينا و رغبوا في المبيت عندهم و سع الله أرزاقهم و وفقهم إلى ما تحبه و يرضاه و جعل مأوى الجميع جنه الفردوس العالیه.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٧

و هذه البلدة كثيرة الأرزاق قوية الإنفاق طويلة البنيان كثيرة المياه فيها مزارع كثيرة أهلها أهل شوكة و تعد و ظلم لبعضهم بعضا و هى قرية مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون فغالب أوقاتهم الفتنة بينهم و القتل لديهم التى قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيها القاتل و المقتول فى النار إذ قتالهم بلا تأويل و إنما هو مجرد

تعصب وحمية جاهلية و أنفة شيطانية فلا يحكم عليها حاكمها أعنى قائدها و كذا آغا برجها إلا بالمكر و الخديعة فى السوق أو فى الطريق لقسطنطينة أو الخروج للحرث فإنهم ربما أخذهم و ربطهم فى هذه المواضع حتى ينتقم منهم بالمال.

و قد علمت أن التخطئة بالمال فى الحدود البدنية ممنوعة شرعا و أن أجازها البعض كالبرزلى فقد رد عليه جماعة حتى كادوا أن يكفروه غير أن ذلك فى حق من يقدر على الحدود النفسية و أما من لا يستطيعها فيجوز من غير خلاف لأن المراد الزجر و المنع من الوقوع فيما لا يرضى الله باى أمر كان و النفس عندها المال أعظم من كل شىء و أى زاجر و مانع و مردع أخوف من المال.

و قد قال بعضهم يجوز للإمام أن يقتل الثلث من الخلق ليصلح الثلثان كما ذكره الشيخ عبد الباقي فالذى تميل إليه النفس و تستأنسه من غير خلاف التخطئة بالمال لمن لا يستطيع على الحدود البدنية و الله اعلم.

فهذه البلدة كثيرة السمن و اللحم و القمح و المياه الباردة و الديار الواسعة و الثياب الحسنة الرفيعة من الصوف و الكتان و كل ذلك مناقض للخشية و أوصاف العبودية و إنما هو مثير للشهوات و المخالفات من إظهار المعاصى و قد كان ذلك فيها فتجد النساء الطيبات المتبرجات كأنهن فى ليلة الزفاف بهن فى الأزفة و العيون مكشوفات العورات باديات المستحسن منهن كالصدر التدى و تحت الإبط و الساق

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٨

و الفخذ و مع ذلك أنهم أجمل خلق الله من رآهن من العباد فضلا عن أهل اللهو و اللعب افتتن بهن إذ يفرع و يربع عند رؤيتهن و مشاهدة محاسنهن غير محجوبات بل كلهم أو جلهم يفتخرون بذلك فقد ضلوا و أضلوا فلا يسمعون أن و عظمتهم و لا يرجعون إن ذكرتهم و قد اشتدت القسوة على قلوبهم و هى أشد قسوة من الحجارة و قد ألفوا ذلك من آبائهم و أجدادهم قبح الله رأيهم فإن أنكرت عليهم أو تغيرت بسببهم ربما عادوك و رموك بما لا يليق بك و هذا ظاهر منهم بين إلى الآن وفقهم الله إلى زوال ذلك و التنزع عما هنالك و إلا أخلى الله منهم الأرض.

حاصله أهل هذه البلدة متصفون بالبدع الشنيعة و الأحوال الخسيسة من الرذائل المنهى عنها شرعا و زادوا مع ذلك أنهم لا تأخذهم الأحكام إذ يأكلون التراث أكلا لما و يحبون المال حبا جما فلا تجد أحدهم إلا متمسكا بالعوائد المحدثه و أحكام الطاغوت و الله يقول و الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

نعم اتخذوا رؤساء جهالا فأفتوهم بغير علم فضلوا و أضلوا فأنكحتهم و معاملاتهم جلها مبنية على على أحكام الطاغوت فلم يتصفوا بالحق و إنما الغالب عليهم الباطل و قد اعتنيت بهم اعتناء عظيما ليرجعوا إلى السنة و ترك البدعة فلم يرجع منهم إلا القليل و على تقدير رجوعهم فلم يزالوا متمسكين ببعض العوائد فصاروا يؤمنون ببعض القرآن و يكفرون ببعضه يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا مكننا الله منهم و من غيرهم لقوله تعالى الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَ آمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ فيتمحضون للسنة المحمدية بمنه و كرمه حاصله أوصافهم و طبائعهم خارجة عن طرق أهل الصلاح فلا تحسن معاشرتهم و لا السكنى معهم لأن الطباع تسرق الطباع و المرء على دين خليله

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٠٩

فلا يكون من خشية الله و لا يتباكون من خوف الله فلا ترى فيهم صاحب حال ربانى و لا ذا وارد إلهى فلا يخرج معهم إلا صديق لا يبالى بهم أو زنديق يكون على هواهم و قد رأيت وطنهم لأنهم لا يأتيهم الولى الصحيح صاحب المبحه بالصدق و الدين و الملة بالحق و إن جاءهم فلا ينتفعون به و على تقدير النفع فمقصود على الدنيا و إنما الكثير ورود الزنادقة و أهل الدعاوى الكاذبة الذين يريدون التوصل إلى الأغراض الفاسدة فكثيرهم جلسهم الفسقة من الرجال و من يخدع من النسوان حتى يفضح و ينكشف إذ المرء إن سكت فمن يومه و أن تكلم فمن حينه ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح.

و بالجملة فاسأل الله تعالى أن يمن علينا و عليهم بالتوفيق و الهداية و المغفرة و التوبة الصادقة العامة لكلهم.

نعم لا نزال نطلب الله تعالى الرجوع لجميعهم إلى الله والإنابة إليه والله يقول إن تنصروا الله ينصركم و لينصركم الله من ينصره. وقد انفصلنا عن وطنهم مع الدعاء لهم وقد وددت والله أن يكونوا على أحسن طريق وأكمله مع زال الخصال المناقضة للشريعة المحمدية وسلكنا طريق أبي خميس فوجدنا أكثر الأحاب منتظرين من وطننا و وطن بنى يعلى إذ فرحوا بقدمنا وسروا برجوعنا العامة والخاصة أحياءهم الله على السنة وأماتهم على الملة المحمدية فاستفرغت الوسع فى الدعاء لهم والسؤال عن كميّة أحوالهم لا سيما أصلاح ذات بينهم كان الله لنا ولهم فى المقام والرحيل وفقنا وإياهم إلى صالح الأعمال وحسن النية بالتمام والكمال الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨١٠

فامتلاً- الوعر والسهل والغيضة وغيرها بالناس الذين رغبوا فى رؤيتنا و اغتنام البركة منا من كل فج عميق لتشهد أحوالنا و تقبّس أنوار أصحابنا إذ الحاج مجاب الدعوة أربعين يوماً بعد وصوله إلى داره فضلاً عن ملاقاته فى الطريق بروح و ريحان لمن جاء بالصدق والتصديق بالوعد الحق رحم الله الجميع بمنه و كرمه و عصمنا وإياهم من عذاب النار و هول القبر و الحشر و النشر و الميزان و الصراط إلى الجنة يا ارحم الراحمين يا رب العالمين.

هذا و أنى مررت على موضع الأولياء و الصلحاء و معدن الخير و البركات مستقر القطب الواضح سيدى الجودى العلمى و أولاده و كذا محل أولاد سيدى مالك و أولاد الشيخ البركة سيدى محمد بن قرى أفاض الله علينا من بركاتهم و جعلنا فى زميرتهم و زمرة أوليائه بمنه و كرمه.

فلما بلغت ضريح الولى الصالح و الكوكب الواضح سيدى محمد بن يحيى عزم على أهل مدشر قترات برمتهم عزمًا بتلا قطعاً فاجتمع من وطن بنى يعلى و بنى ورثيلا ما يكاد أن يكون سوقاً كبيراً فذهب الكل إلى المدشر المذكور فبتنا فيه و قد ذبحوا ما يكاد أن يخالف العادة عمرهم الله إلى يوم القيامة و عمر سوقهم على لسان الشريعة المحمدية رضى الله عنهم و أرضاهم و هى ضيافته عظيمة إذ فيها المئون من الخلق.

و قد لقينا المحب فى الله و الأخ من أجله العلامة الفاضل و المحقق الكامل المدرس الفقيه الصالح سيدى الحسن نجل الشيخ سيدى أحمد زروق بن مصباح إذا أراد أن يضيف الكل فأهل المدشر المذكور قاموا بالكل كثر الله خيرهم و جعل البركة حاضرة الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨١١

لديهم آمين. فلما أصبح الله بخير الصباح صنع أهل مدشر أهل أغلاذا نصلاح طعاماً فزاد الخلق بحيث لا يكفيهم إلا الخالق غير أنهم لما أخرجوا الطعام جعل الله فيه البركة العظيمة أظنه و لو اجتمع عليه الناس كلهم لفضل عنهم. و أن الولى الفاضل و الصالح الكامل الفقيه الأجل سيدى عبد الرحمن بن قريب لما رأى الخلق و الطعام خجل من كثرة الخلق و قلته الطعام فقلت له لا تخف فإن الطعام صنع لله تعالى و فرحاً بوفود زواره و اغتنام بركة المجتمعين فحضرت بركة من اجتمع حتى بقى الطعام و تعجب من حضر و هو ليس من بركتنا و إنما ذلك من بركة المجتمعين الحاضرين و بركة صانعيه فلا تعلم نفس ما كان من الخير فى هؤلاء الجموع الآتين بنية صالحه و همه عالية و قلب سليم من كل إثم و كذا بركة من رجع من عند النبى صلى الله عليه و سلم و من بيته الشريف.

فمررنا على دار الولى الصالح المحقق الورع المدقق سيدى بركات و زرت الصالحة الطيبة الحرة الفاضلة صهرتى زوج سيدى بركات نفعنا الله به آمين و أفاض علينا من بركاته.

و كذا مررت بدار الأخ المذكور سيدى الحسن و دخلت بيته اغتناماً بغيره الراجع من بيت الله و حضرة رسول الله صلى الله عليه و سلم جعل الله البركة فيه و فى ذريته إلى قيام الساعة بمنه و كرمه.

ثم انفصلنا من جبل بنى يعلى على خير و حسن اعتقاد و رغبة فى الحب فى الله و الشوق من أجله فكيف لا يفلح الجميع جعلنا الله فى أوليائه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون الذين آمنوا و كانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا و فى الآخرة الآية.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٨١٢

و سرنا إلى أن وصلنا الوادي فلقينا أهل إيلماين قاطبة مكنهم الله من الخيرات و هداهم إلى سبيل النجاة و وفق كلمتهم إلى طريق السنة المحمدية ففرحوا و سرورا و أظهروا ذلك بضرب البارود حسبما فعلى أهل زمورة و بنو يعلى فسألنا الله لهم و لنا العافية التامة و المغفرة العامة الشاملة ثم انفصلنا عنهم فلقينا جميع من كان بعرضنا من بنى أحمد أجمع و أما بنو عشاش فقد لقينا جمع منهم إلى بنى يعلى و الكل فرحون مسرورون.

و بالجملة فالجموع من وطننا رجالا و نساء هذا يتصل بنا و هذا يفصل عنا إلى أن وصلنا إلى مقامنا و دارنا ليلة الجمعة و ليلة العيد و يوم عرفه عام ١١٨١ أحد و ثمانين و مائة و ألف فلما أصبح الله بخير الصباح اجتمعنا كالعادة لصلاة عيد الأضحى قرآنا من لم يرنا عند الوصول فتمت النعمة و عظمت المنة علينا و على جميع الناس لا سيما الضعفاء من الناس الذى لا يقدر على الوصول إلى حقوقهم كالمستضعفين من الرجال و النساء فسألنا الله لنا و لهم المغفرة و التوبة الصادقة و الرحمة الكاملة و المنة العظيمة و اتفاق الكلمة على الطريق المحمدى و العصمة من الفتنة فإن أشر الشرور فى وطننا الفتنة و القتال بينهم فليس أمر أشر من هذا.

نعم الشيطان استولى عليهم و لم يترك لهم حقا إلا بدلوه و غيرهه بأن جعل لهم رسوما و حدودا لا يتعدونها فلما جئت إليهم ففسخت لهم أحكامه و نقضت رسومه و أبطلت عهوده بان رددتهم إلى الشريعة المحمدية و الأحكام النبوية فلم يملك نفسه الملعون أن يصبر و تغير و نادى بالويل و الثبور على أصحابه و الحسرة فى ناديه المنكر و الرجوع عن تلك الخصال التى أسسها لكم هذا العبد المبطل لأحكامى و أحكامكم

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٨١٣

فما لنا إلا العداوة معه و مع عرشه غير أنهم لا يستطيعون التفوه بهذا لأنه شريعة و دس لهم اللعين دسائس آخر بان قال لهم عندكم طلبه و علماء تمسكوا بهم و كونوا على رأيهم و عظموا علماءكم كما عظمه أهل وطنه لينشئ العداوة و ما علموا بهذه الدسيسة فقاموا من غير أذن من أهل و لا- نور نبوى عندهم فوافقوهم على هواهم فعظموهم فى الظاهر و ليس مرادهم إلى نبذ الأحكام الشرعية و إسقاطها رأسا أو أنها تكون على وفق رؤوس الجهال ليضلوا أنفسهم و يضلوا غيرهم فعند ذلك انشؤا الفتنة و أضرموا نارها و العياذ بالله أحمد الله كيد اللعين و أبطله بمنه و كرمه.

ثم انه بعد ذلك تأتى إلينا الوفود من كل وطن تارة ألفا و تارة أكثر من ذلك نحو الألف و أربعمائه ثم كذلك على حسب القلة و الكثرة إلى أن انقطعوا فى مدة طويلة نحو الشهرين جعله الله حججا مبرورا، و سعيا مشكورا، و تجارة لن تبور، و صير جمعنا جمعا مرحوما، و تفرقتنا تفرقا معصوما، و كان لنا و لهم بالاستقامة ظاهرا و باطنا من غير فتنة مضلة و لا محنة دينا و دنيا آمين يا رب العالمين. خاتمة ينبغى لنا أن نذكر شيئا من شروط قيام الساعة ليكون الناظر فيها على حذر و ليستعد لها أيضا ما يصلح أن يكون زادا فقلت و على الله اعتمدت.

قال صاحب كتاب الجمان فى مختصر أخبار الزمان ما نصه و لنختم إن شاء الله هذا التأليف المختصر بالعلامات التى تكون بين يدي الساعة إلى انقراض الدنيا و اعلم انه لا خلاف بين أهل العلم أن مبعثه صلى الله عليه و سلم من علاماتها الكبرى لقوله تعالى و خاتم النبیین ثم انشقاق القمر من علاماتها الكبرى و أما الصغرى فكثير ذكرها صلى الله عليه و سلم فى أحاديث كثيرة مختلفة.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٨١٤

و أما العلامات الكبرى فثمانية قال الله تعالى فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فبعث النبى صلى الله عليه و سلم و انشقاق القمر و نحن ننتظر الستة و هى الدجال و نزول عيسى و خروج يأجوج و مأجوج و طلوع الشمس من مغربها و خروج الدابة و الزلزلة و الدخان.

و أما الصغرى فقد قال صلى الله عليه و سلم إذا غاب الحق و ظهر الباطل و صار المعروف منكرا و المنكر معروفا و ظهرت البدع و

استبيحت الفواحش و أكل الربا و خرج النساء متبرجات و حبست الزكاه و قلت الصدقات و أهين العلماء و أكرم الشعراء فحينئذ تحبس السماء مطرها و تحبس الأرض عطرها و ترفع البركات و تقل الأرزاق و لا تنال المعيشة إلا بالشبه فيأتي زمان يكون فيه قوم يصلون و يقرؤون القرآن و يتمردون على الرحمان لا- تجاوز قراءتهم حناجرهم أقوالهم أحلى من العسل و أفعالهم اتن من رائحة البصل قلوبهم مسودة و سرائرهم خبيثة يكون فيهم عمال ظلمة و شهد يشهدون الزور و حكام يشربون الخمر و يجلدون عليها و يأتون الفواحش و يحدون عليها يأمرن الناس بالبر و ينسون أنفسهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الغش فاكهتهم و الغيبة مجالستهم يرفعون في المساجد بحديث الدنيا أصواتهم قوم لا يرحم غنيهم فقيرهم و لا يوقر صغيرهم كبيرهم يشيدون البناء يكون فيه الأمير كالأسد و القاضي كالذئب و التاجر كالثعلب و الفاسق كالكلب و المؤمن كالشاة ثم بكى صلى الله عليه و سلم و قال يا لها من شاة بين أسد و ذئب و ثعلب و كلب عندها يتوقى الناس بهم الأرض و يوقع الله الفتنة بين الخلق فيقتل بعضهم بعضا و يسب بعضهم بعضا فينتقم الله من الكل و هو دليل انقراض الدنيا.

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٨١٥

ثم قال صلى الله عليه و سلم زمان لا- تتم فيه تجارة الرجل و لا تنجح حوائجه إلا بالإيمان الكاذبة و أولئك هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة ثم قال صلى الله عليه و سلم يا أبا هريرة إذا رأيت الناس يوم عيدهم في زيهم فحدث نفسك بأن ذلك كله خرقة تبلى و لحم يأكله الدود يا أبا هريرة لو لا أن الله خلق الموت و كتبه على العباد لا دعت الناس كلهم الربوبية و لو لا جهنم ما سجد لله ساجد و قال صلى الله عليه و سلم يذهب الصالحون الأول فالأول و تبقى حثالة كحثة التمر و الشعير لا يبالي الله بهم في أي واد من العذاب أهلكتهم.

و عن ابن عباس رضى الله عنه قال لما حج رسول الله صلى الله عليه و سلم حجة الوداع مسك بيده حلقة الكعبة و هزها و بكى بكاء شديدا فقال له أبو بكر الصديق رضى الله عنه مم بكائك يا رسول الله فقال و كيف لا أبكى و هذه آخر حجة لى و قد أبكاني فراق الكعبة و توديع المسلمين يا أبا بكر ليبلغ الحاضر منكم الغائب عنى إن مثلكم كمثل ورق بلا شوكة إلى سبعمائة سنة ثم تكون أمتى ورقا و شوكا إلى تمام مائة سنة ثم تكون أمتى شوكا بلا ورق أن تركتهم لم يتركوك و إن فررت منهم جذبوك لا ترى فيهم إلا سلطانا جائرا و غنيا بخيلا أو عالما راغبا في الدنيا أو عابدا مرائيا أو فقيرا كذابا أو تاجرا فاجرا أو صانعا خائنا أو شيخا غافلا أو شابا فصيحاً أو امرأة لا حياء لها.

قال عكاشة صف لنا ذلك الزمان يا رسول الله فقال زمان يكون فيه المؤمن ذليلا و الفاجر عزيزا تركب فيه الفروج السروج و تأكل الأم من فرج ابنتها فإذا شاعت المنكرات و قلت الطاعات أرسل الله القحط على الأرض ثلاث سنين يزرع الناس و لا يحصلون شيئا فيخرج الدجال و له شراب و طعام يفتن به الناس يغرس بيمينه و يجنى بيساره و تضرب البقرة و تلد في يومها فيفتن الناس فينهض إليه أهل التوحيد

الرحلة الوريثانية، ج ٢، ص: ٨١٦

و يحاربونه و يسألون النصر من الله تعالى فينزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام و أهل التوحيد قد اجتمعوا على الإمام المهدي فيقتل عيسى عليه السلام الدجال و تنهزم جنوده و المؤمنون خلفهم فلا يختفى كافر خلف حجر و لا خلف شجر إلا ناداه ذلك يا ولى الله تعلم فإن خلفى عدو الله إلا شجر الغرقد فإنه يكتم عليهم و هى شجرة العوسج و عيسى عليه السلام فى ذلك اليوم على فرس كميته أصهب طويل و الدجال على حمارة كأنها الكلب إذا لهث لهثت اجراؤها فى بطنها تضع رجلها مد بصرها و الإمام المهدي رجل شريف عالم ناسك صالح إذا ظهرت العلامات يبايعه الناس رغما على أنفه و هو كاره و علامته كسوف القمر ثلاث ليال فى شهر واحد و لم يشاهد ذلك قط يكسف ليلة ثلاثة عشر و ليلة أربعة عشر و ليلة خمسة عشر فيبايعه الناس و يخرجون لقتال الدجال و ينزل عيسى فيقتله على باب بيت المقدس بالشام و مع المهدي يومئذ ألف مقاتل من المؤمنين فإذا انهزم الكفار أخذ الفاطمي أموالهم و

يخرج إلى رومة فيفتحها في أيام ابن مريم عليه السلام و هي أربعون سنة اليوم فيها كالساعة و الشهر يوم و السنة شهر لا يعدو في أيامه شيء على شيء.

و قال وهب بن منبه و علامة خروج الدجال تهب ريح كأنها ريح عاد و صفته رجل طويل عريض الوجه مطموس اليمنى مكتوب بين عينيه كافر بالله يخرج من قرية بالمشرق يقال لها سرادين يطوف الأرض شرقا و غربا كلمح البصر يخرج إليه الخضر عليه السلام من مدينة يثرب يقول له إلى أين يا ملعون يا كذاب يا ساحر فيقتل الخضر و يقسمه على نصفين ثم يحييه ثم يقتله و لم يستطع أن يحييه ثم يأتي المدينة فترميه الملائكة بالنيران فيفر إلى بيت المقدس فترميه الملائكة بالنيران فيخرج لناحية الشام فيلقاه عيسى عليه السلام فيقتله و يرفع الله البلاء عن أهل الأرض.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨١٧

قيل يا رسول الله المسلمون في زمانه يعبدون الله قال يصومون و يصلون و هم في غاية الهم و الغم فإذا قتل الدجال أرسل الله على المشركين ريحا عقيمة تقتلهم و لا تضر أهل الإيمان و ينزل الله مع عيسى تسعين ألفا من الملائكة و على رأس عيسى يومئذ عمامة خضراء و في يده حرب و قد تقلد سيفين و هو يقول جاء الحق و زهق الباطل يأمن زمانه جميع الخلق و ترعى الغنم و الذئب و تلعب الغلمان بالحيات و تحج المرأة وحدها من أقصى الأرض و يظهر الله تعالى للخلق كنوز الأرض فلا يبقى فقير على وجهها و الإمام المهدي مع عيسى يومئذ يقيمان دين الله و يتبعان سنة رسوله صلى الله عليه و سلم فبينما الناس في تلك النعمة الشاملة إذا بأجوج و مأجوج قد خرجوا على الأرض حتى لا يجد الطائر موضعا خاليا يلقي فيه أفراخه فيأتون بيت المقدس و يرمونه بالسهم فيقاتلهم عيسى عليه السلام و الإمام المهدي في بيت المقدس و هم يرمون المؤمنين حتى تعمل سهامهم الظل على الخلائق فيدعو عليهم عيسى عليه السلام و يؤمن المهدي و من معهما من المسلمين فيرسل الله عليهم ريحا عاصفة تهلكهم فإذا ماتوا انتشر الناس و تكمل الأربعون التي لعيسى عليه السلام في الأرض فإذا أراد الله قبض روح عيسى عليه السلام أرسل الله ملك الموت في صفة شاب حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له عيسى عليه السلام من أنت أيها الشاب فيقول عبد الله تعالى أردت أن أسبح معك في الأرض فيخرج عيسى عليه السلام و ملك الموت إلى المدينة من بيت المقدس و معهما الإمام المهدي فيأتون المدينة و يصلون في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم يقول ملك الموت يا روح الله أحى لنا بعض الموتى فأنى رأيتك في بنى إسرائيل تحيي الموتى بأذن الله تعالى لنسألهم فيقول عيسى أو كنت أنت في بنى إسرائيل فيقول نعم و رأيت آباك آدم و إدريس و نوحا و هودا و إبراهيم و موسى و سليمان و جميع بنى آدم فيقول له من أنت يا هذا الذي رأيت جميع بنى آدم فيقول له أن أحييت لنا بعض الأموات أعلمتكم من أنا فيناديهم يا أهل القبور قوموا بأذن الله

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨١٨

فتشق الأرض و يخرج ثلاثة أناس وجه أحدهم كالقمر ليلة كماله و الثاني كلون الزعفران و الثالث كالنار فيسألهم عيسى من أنتم و ما حالكم فيقول الأول يا روح الله كنت في الدنيا فقيرا صابرا و لربي في كل حال شاكرا، فلما مت وجدت عند الله الغنى الكفى و نسيت الدنيا و كربها فطوبى للمتقين، و ويل للمتكبرين، و يقول الثالث يا روح الله كنت في الدنيا من أهل الكفر و العصيان ملكتنى الغفلة عن الموت و انستنى شقوتى ذكر الله تعالى فما أنا اليوم لا الاقالة أجدها و لا العقوبة أفارقها فيقول عيسى عليه السلام عودوا إلى قبروكم الله أعلم فيسقطون موتى كما كانوا أول مرة و تبتلعهم قبورهم ثم يأتي عيسى عليه السلام و ملك الموت إلى الروضة الخضراء عند قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم فيسلمان على رسول الله صلى الله عليه و سلم و يسألان الله من فضله ثم يقول ملك الموت لعيسى عليه السلام يا روح الله إنما أطلعتك على هؤلاء الموتى لتعلم أن الموت لا ينجو منه مخلوق حتى أبدا و لو نجا منه أحدا لنجا منه صاحب هذا القبر يعني رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم يغيب ملك الموت فيأتي بمشمة من الجنة في أسرع من طرفه العين رائحتها تسل الأرواح و تطير نحو باربيها فإذا رآها عيسى في يده أعجبه بحيث لا يملك نفسه عنها فيقول له ملك الموت

يا روح الله أنا ملك الموت و هذه المشمة أمرنى الله أن اقبض روحك بها فأخذها عيسى و يشمها و هو يعلم أن الموت فيها لكنه لا يقدر أن يمنع نفسه فإذا شمها سقط ميتا للأرض فيغسل عيسى عليه السلام و يدفن فى الموضع الذى خلف أبى بكر الصديق و عمر رضى الله عنهما مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فى القبة الخضراء فإذا فرغوا من دفن عيسى عليه السلام و خرجوا من عنده و جدوا رائحة تلك المشمة قد انتشرت فى الأرض و سارت بها الرياح فى جميع الأرض رائحتها كأطيب ما يكون من المسك الاذفر فلا يشمها مؤمن على وجه الأرض إلا اقتلعت عروق قلبه فمنهم

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨١٩

من يموت من ساعته و منهم من يومه و منهم من بعد أيام قليلة و لا يجد تلك الرائحة كافر و لا منافق و لا عاص فإذا مات الأخيار و بقى الأشرار ارتفع القرآن و صارت الخلائق يموج بعضها فى بعض كالبهائم لا يعرفون معروفًا و لا ينكرون منكرا فيأمر الله الشمس أن تطلع من مغربها و يأمر اسرافيل ليلة الجمعة بالنفخ فى الصور و هو تمام الدنيا و الملك و الدوام و البقاء لله الواحد القهار. و فى حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى يغزو سبعون ألفا من بنى إسحاق مدينة جانب منها فى البر و جانب منها فى البحر قال ابن جزى فى كتاب تنافس الحكمة له هى القسطنطينة و بنو إسحاق هم بنو العيص بن إسحاق ولد لإسحاق ولدان يعقوب و العيص فالعيص هو الأصفر ذريته هم الروم و سموا بنى الأصفر لصفرة كانت فى وجه العيص و من ظن الروم هم النصارى فقد غلط و إنما الروم الترك الذين أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بإسلامهم فكان يقول اتركوا الترك ما تركوكم فإن الساعة لا تقوم إلا و أن أكثر الناس الروم.

ثم قال الإمام بن جزى فى قوله تعالى الم عُلِبَتِ الرُّومُ فى أَدْنَى الْأَرْضِ أى فى بيت المقدس و الشام و كان ذلك فى خلافة عمر رضى الله عنه و قوله تعالى فى بَضْعِ سِتِّينَ أى بضع العشرات و هو سبعون أسبوعا و هى ثلاثمائة و خمسون سنة فلما انقضت غلب الروم المسلمين و انتزعوا من أيدي المسلمين أكثر ثغور الشام و قواعدها ثم اتتهم الأغزاز من بلاد المشرق من بلاد فارس فأخرجوهم من جميع الثغور و افتتحوا جل بلاد أرمينية و تمت مدة الروم من بلاد الشام سنة تسع و أربعمائه و هو قوله تعالى: وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بَنَصْرِ اللَّهِ.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٢٠

و قال صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود إذا اتبعوا الدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى عليه السلام يقتلهم على آخرهم و ذلك أن اليهود ليس لهم رجعة عن دينهم لأن الله تعالى قد غضب عليهم فلا ترحى لهم رحمة أبدا بدليل قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إلى قوله نصارى و قال تعالى: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ فالغضوب عليهم اليهود و الضالون النصارى فالضال ترحى هدايته و المغضوب عليه ميئوس منه.

و قال صلى الله عليه و سلم يخرج الدجال فى أمتى يمكث فيهم أربعين يوما فيتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالة و الدجال أجلى الجبهة ممسوح العين عريض المنخر يقول للناس أنا ربكم الأعلى و الرب سبحانه ليس بأعور ثم يرسل الله ريحا من قبل الشام تقبض كل من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان و يبقى أشرار الخلق لا يعرفون معروفًا و لا ينكرون منكرا فيأمرهم الشيطان بعبادة الأوثان حتى لا- يبقى على الأرض مؤمن فيأمر الله اسرافيل فينفخ فى الصور [نفخة الصعق فيموت كل مخلوق قال تعالى وَ نُفِخَ فى الصُّورِ فَصَبَّحَقَ مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثم ينفخ نفخة] البعث فإذا هم قياما ينظرون فيأمر الله مناديا ينادى أيها الناس هلموا إلى ربكم فيجمع الخلق كلهم فى صعيد واحد ثم يقول أخرجوا ابث النار فيخرج من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعون و ذلك قوله تعالى يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتِطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ وَ قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ.

الرحلة الورثيانية، ج ٢، ص: ٨٢١

- ذكر خروجنا من مصر ٣٧٧
 دخولنا مكة المشرفة ٤٥٢
 ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة شرفها الله تعالى ٤٧٣
 ذكر من لقيتهم في الحرم المكي من الأئمة ٤٩٦
 ذكر خروجنا من مكة المشرفة ٥١٨
 ذكر جبل أحد و ما به أو بطريقه من المساجد النبوية ٥٥٣
 و ذكر مشهد سيد الشهداء حمزة و من معه من الشهداء ٥٥٣
 ذكر الآبار التي ورد أن النبي صلى الله عليه و سلم تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة و الاستشفاء بمائها ٥٦٨
 ذكر بعض أودية المدينة التي تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها ٦٠٤
 ذكر دخولنا مصر ٦٤٠
 ذكر الإسكندرية و ما بها من العجائب ٦٤٨
 ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة و السلام ٦٦٠
 الرحلة الورثيلانية، ج ٢، ص: ٨٢٤
 ذكر من ملك مصر قبل الطوفان ٦٦١
 ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام مصر ٦٦٣
 ذكر عجائب مصر القديمة ٦٦٤
 ذكر خروجنا من طرابلس ٧٣٤
 ذكر وصولنا إلى تونس ٧٦١
 ذكر دخولنا قسنطينة ٧٩١

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).
 قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصبهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللهُ - كان أحدًا من جهايدة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسة و طريقة لم ينطفي مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشبَاب و عموم الناس إلى التَحَرِّي الأَدَقَّ للمسائل الدِّيَنِيَّة، تخليف المطالب النَّافِعَة - مكانَ البَلاتِيَّةِ المبتدلة أو الرَّدِيئَة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضِيَّة واسعة جامعة ثقافيَّة على أساس معارف القرآن و أهل البيت عليهم السَّلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطُّلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هُوَءَ برامج العلوم الإسلاميَّة، إنالهُ منابع اللزامة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة في الجامعة، و...
- منها العَدالة الاجتماعيَّة: التي يُمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعدهً، على أَنه يُمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميَّة و الإيرانيَّة - في أنحاء العالم - من جههٍ أُخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبه، نشره شهريَّة، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيَّة و مكتبيَّة، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثَلَاثِيَّة الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرُّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيَّة، السياحيَّة و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدَّة مواقع أُخر

(ه) إنتاج المُنتجات العرضيَّة، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيَّة، الاخلاقيَّة و الاعتقاديَّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرُّسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعيَّة و اعتباريَّة، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميَّة، الجوامع، الأماكن الدينيَّة كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليميَّة عموميَّة و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع" پنج رَمضان " و مُفترق "وفائي" / "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريَّة الشمسيَّة (=١٤٢٧ الهجريَّة القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنيَّة: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحاليَّة لهذا المركز، شعبيَّة، تبرعيَّة، غير حكوميَّة، و غير ربحيَّة، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفى الحجَم

المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحاليه و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله اعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

